



T.C.

İNÖNÜ ÜNİVERSİTESİ

SOSYAL BİLİMLERİ ENSTİTÜSÜ

TEMEL İSLAM BİLİMLERİ ANA BİLİM DALI

ARAP DİLİ VE BELÂGATI BİLİM DALI

**EBU'L-HUDÂ ES-SAYYÂDÎ VE ŞİİRLERİNDE ELE ALDIĞI
TEMALAR**

(1909-1849/1327-1266)

DOKTORA TEZİ

DANIŞMAN

Dr. Öğr. Üyesi Hüseyin POLAT

HAZIRLAYAN

Ahmed ELHAMMUD

MALATYA-2023

T.C.
İNÖNÜ ÜNİVERSİTESİ
SOSYAL BİLİMLERİ ENSTİTÜSÜ
TEMEL İSLAM BİLİMLERİ ANA BİLİM DALI
ARAP DİLİ VE BELÂGATİ BİLİM DALI

**EBU'L-HUDÂ ES-SAYYÂDÎ VE ŞİİRLERİNDE ELE ALDIĞI
TEMALAR**

(1909-1849/1327-1266)

DOKTORA TEZİ

HAZIRLAYAN
Ahmed ELHAMMUD

DANIŞMAN
Dr. Öğr. Üyesi Hüseyin POLAT

MALATYA-2023

الجمهورية التركية

جامعة إينونو

قسم الدراسات العليا - العلوم الإسلامية الأساسية

شعبة اللغة العربية والبلاغة

أبو الهدى الصيادي وأغراضه الشعرية

(1266-1327هـ/1849-1909م)

رسالة علمية مُعدّة لنيل درجة الدكتوراة في اللغة العربية والبلاغة

إعداد

أحمد إبراهيم الحمود

إشراف

الدكتور حسين بُلّات

ملطية 2023م

ONUR SÖZÜ

Dr. Hüseyin POLAT danışmanlığında hazırladığım “EBU’L-HUDÂ ES-SAYYÂDÎ VE ŞİİRLERİNDE ELE ALDIĞI TEMALAR” isimli tezin bilimsel ahlâk ve geleneklere aykırı düşecek bir yardıma başvurmaksızın kendi çalışmam olduğunu ve her alıntıya kaynak gösterdiğimi taahhüteder, bunu onurumla doğrularım.

Ahmed ELHAMMUD

MALATYA 2023

الإهداء

■ إلى مِدَادِ الرُّوحِ والقلبِ والقَلَمِ، مَنْ لولاهِ مَا بَدَتْ لي نَارُ العِلْمِ والحُبِّ على عِلْمٍ
الأعزَّ والدي الأجدد السَّامي.

■ أنتم وضَعْتُمْ لنا أَسْأَ وقَاعِدَةً أنتم بَنَيْتُمْ وراعىْتُمْ لبُنياني
إلى التي اسْتَعْدَبْتَ لآمَالِي كُلِّ أَلَمٍ، مَنْ لولاهِا مَا قَرَأْتُ حَرْفًا ولا حَطَطْتُ بِقَلَمٍ
الرَّؤُوفِ الرَّؤُومِ والدي الماحِدة السَّامِيَّة.

■ هذي القِطَافُ جَنَيْنَاهَا بِفَضْلِكُمْ أنتم غَرَسْتُمْ شُجَيْرَاتِي وبُسْتَانِي
إلى جَدِّي الحاج خليل برهان الدِّين جابر أفندي رحمه الله، وأحسبُ أَنَّ أَحَدًا في هذه الدُّنيا
لن يَبْتَهِجَ بي ابتِهَاجَهُ لو كان بيننا في علمنا هذا الذي لا زالت تُدَثِّرُنَا فيه دَعَوَاتُهُ.
■ إلى دوحَةِ الآمالِ وطيبِ عَبَقِ الأَيَّامِ واللَّيَالِ، خالاتي الكَرِيماتِ شَهْرَةَ، كَوَثَرَ، إِيمَانُ.
■ إلى رفيقِ دربي وشقيقِ قلبي، أخي الحافظ محمد بهاء الدِّين.
■ إلى معادِنِ الصَّفَاءِ ومنابعِ الطَّهْرِ والنَّقاءِ، أخواتي الحافظات كَوَثَرَ، هُدَى، نور.

أحمد إبراهيم الحُود

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، سيدنا ونبينا محمد وآله وصحبه ومن
والاه..... أما بعد:

فإنه قد شاع في كثير مما سطره أرباب التاريخ للأدب العربي ونقاده أن أزهى عصور الأدب
العربي هو العصر العباسي؛ وجرّ هذا الحكم أحكاماً نقدية قوّموا بها ما تلاه من العصور المتأخّرة،
فزمي العصر العثماني بسمة التأخر والانحطاط، وقد يكون التسليم المطلق لهذه الأحكام لا يزال
صعب المنال، إذ هي في بعض جوانبها محطّ مراجعة ومحلّ تدقيق وإمعان نظر.

إلا أن شيوع تلك الأحكام وكثرة تردّدها لدى دارسي الأدب، قد أسدل أستاراً على شعراء
متأخّرين، فحجبت تلك الأستار روائعهم وأخفت بدائعهم، ولا وزر لتراثهم الشعري سوى أنه لم يكن
من نتاج عصر متقدّم، فبقيت دواوينهم وآثارهم تحت طي النسيان والإهمال؛ ولعلّ الشاعر محمداً أبا
الهدي الصيادي واحد من أولئك الذين لم يحظَ تراثهم الأدبي الشعري بنصيب من دراسة أو بحث
على امتداد ما يزيد على قرن من الزمان، بل إن بعض دواوينه الشعرية لم تر النور إلى يوم الناس هذا،
وأما التي قدّرها أن تُطبع في حياة الشاعر وتقدّم إلى محبي الأدب فقد تقدّمت عهداً إلى أن لم يبقَ
من نسخها إلا ما هو حبيس المكتبات الكبرى في تركيا وفرنسا وأمريكا وألمانيا.

ومن هنا نبعت أهمية البحث، لكونه أوّل دراسة أكاديمية سلّطت الضوء على التراث الشعري
لأبي الهدي، وفصّلت القول في أغراض شعره، وتلمّست نواحي الجمال الأدبية فيه، فهو بحث جديد
من جهة، متناول لشخصية جديرة بالاهتمام من جهة أخرى، فلا ريب أن مُستشار داهية السلاطين

العثمانيّين عبد الحميد الثّاني (ت. 1336هـ/1918م) وأحد أهمّ من لازمه والتّصقّ به طوَال فترة حُكمه الحُرّيّ بأن يُعتنّى بما له من شعرٍ، إذ قد ينكشفُ بالشّعرِ من الجوانبِ الوجدانيّةِ ما لا يكمنُ في غيره من الآثار، ولا تنجلي به أفكارُ أبي الهُدَى فحسب وإمّا أفكارُ عَيْنَةٍ ممن هم على شاكلته من الفئّة التي اعتمدَ عليها السُّلطانُ عبد الحميد أيضًا؛ إلى جانبِ تأكيدِ هذه الدِّراسة أنّ الشّعرَ العربيّ لم يُصَبّ تمامًا بالعُقمِ الأدبيّ الجماليّ في عصرٍ من العصورِ، سواءً أتأخّرَ العصرُ أم تقدّمَ، ولعلّه كان لهذه الأسبابِ التّأثيرُ الكبيرُ في دفعِ الباحثِ إلى اختيارِ البحثِ موضوعًا لرسالته، إضافةً إلى كونه خِدْمَةً لِلْعَلّةِ القرآنِ الكريمِ ولدارسيها والمهتمّين بعلومها، ورغبةً في إحياءِ التُّراثِ الأدبيّ للعلماءِ المسلمين في عهدِ الدَّولةِ العثمانيّةِ.

ولمّا كان هذا البحثُ الأوّلُ في دراسةِ شعرِ أبي الهُدَى والأغراضِ التي انبَنى عليها، فإنّ الباحثَ لم يعثر على دراساتٍ سابقَةٍ تناولتِ الموضوعَ بعينه أو أطرافًا منه؛ إلّا ما كان من عملِ يوسفِ التّبّهانيّ (ت. 1350هـ/1932م) في ترتيبِ أغراضِ ديوانِ "الفيض المُحمّديّ" -باكورةِ أشعارِ أبي الهُدَى- الصّادرِ في إسطنبول سنة 1298هـ/1881م؛ إلى جانبِ ما بُثّ في بعضِ البحوثِ من إشاراتٍ عامّةٍ إلى عمومِ الأغراضِ التي شاعَتْ في العصرِ الأدبيّ العثمانيّ، ككتابِ الدكتور عمر موسى باشا "تاريخِ الأدبِ العربيّ في العصرِ العثمانيّ" الذي صدرَ في دمشق سنة 1989م، وقد أفادَ البحثُ من دراساتِ المتخصّصين في دراسةِ تاريخِ الحقبةِ الزّمنيّةِ التي عاشها أبو الهُدَى، كدراساتِ الدكتور محمّد حرب التي منها كتابُ "السُّلطان عبد الحميد الثّاني آخر السّلاطين العثمانيّين الكبار" الصّادرِ في دمشق سنة 1990م، ومنها كتابه الآخر "مذكّرات السُّلطان عبد الحميد" الصّادرِ في دمشق سنة 1991م، ومما أفادَ منه البحثُ ما سطره يراعُ أبي الهُدَى في كتابه "الفرقان" -الصّادرِ في مصر سنة 1906م- من سطورٍ أبانت شيئًا من حياته ونشأته العلميّة والاجتماعيّة، وعضدَ هذا ما

خَطَّتُهُ أَنَامِلُ الْمُؤَرِّخِينَ لتراجم أعيان ذاك العصر، كعبد الرزاق البيطار (ت. 1335هـ/ 1916م) في كتابه "حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر" الصادر في دمشق سنة 1961م، وكأدهم آل جُنْدِي (ت. 1397هـ/ 1977م) في كتابه "أعلام الأدب والقرن" الصادر في دمشق سنة 1954م، وكلُّ هذه الآثار قد أشارت إلى حقيقة شخصية أبي الهُدَى، التي هي دِعامَةُ هذه الدِّراسَةِ.

وقد انتَقَيْ لهذا البحث من بين مناهج البحث منهج البحث الوصفي التحليلي القائم على الاستقراء، ولكون المادة الشعرية غزيرة في عموم دواوين أبي الهُدَى حيث ضُمَّت مِئات القصائد وما رَبا على عشرة آلاف بيتٍ فقد تَحَتَّم -بعد استقراء كلِّ تلك الدواوين- الاصطفاء والانتقاء لعيناتٍ من تلك الأبيات تضمُّها خيمة الأغراض الرئيسة التي أقرها الشاعرُ بنفسه لما اطلَّع على "ديوان الفيض المحمدي"، إذ إنَّ ما عداها بدا ثانويًّا إمَّا لانبثاقه عنها أو لكونه مُنتَثِرًا في تضاعيف قصائدها؛ وقد كانت عمليَّة الاختيار تقوم على انتقاء أوضح الأبيات دلالةً على الغرض الرئيس التي تُبرزُ مقدرة الشاعر على تصوير ما يجولُ في داخله، مع مُراعاة الذوق العامِّ المُستحسن لدى عموم أهل صِنعة الأدب والشعر، إلى جانب تركيز على جماليَّات الصنعة البلاغية والبديعية التي اصطبغت بها الأشعار المختارة لكلِّ غرضٍ.

ولمَّا كان البحث مُنقَسِمًا إلى شطرين هما شخصية أبي الهُدَى أوَّلًا، وأغراضه الشعرية ثانيًا، فقد كانت خطة البحث مُكوَّنة من مُقدِّمة ومدخل وفصلين وخاتمة. تناولت المُقدِّمة أهميَّة البحث وأسباب اختياره وتبيان منهج البحث وخُطَّته، وتناول المدخل تمهيدًا موجزًا يُعرِّفُ بمزِيَّة اللُّغة والشعر ومكانتهما في عصر أبي الهُدَى، ثم أُتبع بالفصل الأوَّل (أبو الهُدَى الصِّيادي: حياته وآثاره العلمية ودواوينه)، الذي ضَمَّن تمهيدًا ومبحثين، الأوَّل منها تكلم على حياة أبي الهُدَى بمراحلتيه العمريتين بدايةً في حلب وانتهاءً في إستانبول، والثاني خُصِّصَ للحديث عن آثاره العلمية والكلام على أهمِّها

وما تَضَمَّنَتْهُ، وَبَيَّنَ المخطوطُ منها والمطبوعُ والمفقودُ، ثم انتُقِلَ إلى الكلامِ على دواوينه الشعريَّة. ثم بُدِئَ بعد ذلك **بالفصل الثاني** (أغراضه الشعريَّة) المتكوِّن من تمهيدٍ اهتمَّ بتبيانِ مفهوم الشعرِ وتوضيحِ معنى الغرضِ الشعريِّ وتنوُّعه على مرِّ العصور، لكي يتسَّيَ لأغراضِ أبي الهُدَى أن تُنسَبَ بِدِقَّةٍ إلى العصرِ الأدبيِّ الذي تنتمي إليه، ثم تلا التَّمهيدُ ثمانيةً مباحثٍ وُزِّعَتْ عليها أغراضُه الرَّئيسةُ؛ فكان المبحثُ الأوَّلُ مخصوصًا بغرضِ الدُّعاءِ وما ضَمَّه من مناجاةٍ وتضرُّعٍ إلى ربِّ العالمين وتوحيدٍ وتقديسٍ لذاته العليَّة، وحُصِّصَ المبحثُ الثاني لغرضِ المديحِ النَّبويِّ، وكان أطولَ المباحثِ إذ تعدَّدتِ محاورُ مَدْحِهِ النَّبويَّةِ ما بين محورٍ تقليديٍّ وآخر اختصَّ بمدحِ جوانبٍ من شخصيَّةِ النَّبيِّ الأكرم صلَّى الله عليه وسلَّم؛ وقد تلاه المبحثُ الثالثُ الذي اعتنى بغرضِ المديحِ العامِّ لأصنافٍ ممن اختصَّهم أبو الهُدَى بمدحِهِ من الصَّحابةِ وآلِ البيتِ النَّبويِّ والعثمانيِّين وعلى رأسِهِم السُّلطان عبد الحميد الثاني وغيرِهِم من طبقاتِ الفُضلاءِ؛ ثم أعقبه المبحثُ الرَّابِعُ في غرضِ الغزلِ الذي فُصِّلَ الكلامُ عليه وعلى نوعيه الآخرَينِ النَّسيبُ والتَّشبيبُ؛ والمبحثُ الخامسُ كان لغرضِ الوعظِ الذي تفرَّعَ عنه النَّصحُ والإرشادُ إلى حُسنِ المعاملةِ الخاصَّةِ والعامَّةِ وانجَلَّتْ فيه نصائِحُه لأربابِ التَّصوُّفِ وتزهيدهُ بالدُّنيا وما دَوَّنَهُ من حِكَمٍ وصلَّ إليها عبرَ تجربَتِهِ الطَّويلةِ في الحياة؛ وأمَّا المبحثُ السَّادسُ فقد كان لغرضِ الهجاءِ الذي قُبِّلَ موزَّعًا على الأفرادِ والفئاتِ التي عاينَ فسادَها وخاصَّةً من المتصوِّفَةِ المُدَّعينِ، وما عدا ذلك من هجائه للزَّمانِ لما حَفَلَ به من ظواهرِ الفسادِ؛ وقد كان المبحثُ السَّابعُ مخصوصًا بغرضِ الرِّثاءِ؛ والمبحثُ الثَّامنُ الأخيرُ قد اعتنى بما سوى ذلك من الأغراضِ الأخرى التي لم تَرَقَ إلى أفرادٍ كُلٍّ منها بمبحثٍ خاصٍّ؛ ثم أُنْهِىَ البحثُ بِخاتمةٍ ضُمَّنتْ أهمَّ ما وصلَ إليه البحثُ من النَّتائجِ.

ولا يسعني في ختامِ هذه المقدِّمةِ إلا أن أتقدِّمَ بما يقتضيه الوفاءُ من الشُّكرِ الجزيلِ والدُّعاءِ الوفيرِ والتَّقديرِ الكبيرِ لأستاذي المشرفِ رئيسِ قسمِ اللُّغة العربيَّةِ والبلاغةِ الدُّكتور حسين بُلات الذي

كان لي كالوالدِ الحنون طوال مرحلة الدِّراسة، ولم يزل يُتابعني ويحثُّني على إتمامِ البحثِ ويُسهِّل لي كلَّ صعبٍ، كما يطيِّبُ لي أن أتوجَّهَ بعظيمِ الامتنانِ إلى أستاذي الرَّاقِي العميد الأستاذ الدكتور صبري تركمان الذي أشرفَ أيضًا على البحثِ ونصَّحني بالاهتمامِ بالمصادرِ غيرِ العربيَّة والاستقاءِ منها، ويروِّقُ لي التَّوجَّهَ بالشُّكرِ إلى رئيسِ قسمِ الأدبِ التُّركيِّ الإسلاميِّ الأستاذ الدكتور كوركوت جاجان الذي تَفَضَّلَ برسمِ خطَّةِ البحثِ والإشرافِ عليه وحفَّهُ بمزيدِ عنايةٍ واهتمامٍ منذ البدءِ إلى حينِ إتمامه ومناقشته.

وإني إذ يقفُ بي جواذُ اليراعِ على ربوعِ أشعارِ أبي الهُدَى الصِّيَّاديِّ، فلا أدَّعي لهذا البحثِ كمالًا تامًّا، ولكن حسبي أنِّي بذلتُ ما بوسعي لتجنُّبِ الخطأِ، ولغزارةِ الفوائدِ، وبذلتُ جهدًا ليس بالسَّهلِ القليلِ للإمساكِ بزمامِ أغراضِهِ الشَّعريَّةِ، بعد أن سَعَيْتُ بدأبٍ للحصولِ على آثارِهِ الأدبيَّةِ ونَفَضْتُ عنها ما غَطَّاهَا من غبارِ الأيَّامِ، وحرصتُ أن يكونَ البحثُ مُحيطًا بجميعِ أشعارِ هذا الرَّجلِ، لِيُضَافَ بهذا البحثِ شيءٌ من العلمِ إلى مكتبةِ اللُّغةِ العربيَّةِ وآدابِها، ويُساهِمَ في نَماءِ بحوثِها، وبخاصَّةٍ ما يتعلَّقُ بأدبِ عهدِ الدَّولةِ العثمانيَّةِ، إذ لكلِّ عهدٍ فُرسانُهُ من الأدباءِ الشُّعراءِ الذين لم يَعْدَمْهُمْ عصرٌ من العصورِ؛ واللهُ أرجو أن يكونَ عملي مُكَلَّلًا بالتَّوفيقِ وحِلْيَةِ الإخلاصِ، فهو حسبي ونعم الوكيل.

أحمد إبراهيم الحُود

malatyadurra@gmail.com

الملخص

أطروحة دكتوراة

أبو الهُدَى الصِّيَادِيّ وأغراضه الشعريّة

أحمد إبراهيم الحُمُود

المشرف: الدكتور حسين بُلات

يتناول البحثُ شخصيّةً طبَّقتْ شهرتها الآفاقَ في أواخرِ العصرِ العُثمانيّ، إلّا أنّ تراثها الشعريّ لم يحظَ بدراسةٍ أكاديميّةٍ مُستقلّةٍ منذ ذلك العهدِ إلى حينِ كتابةِ هذا البحثِ، تلك هي شخصيّةُ أبي الهُدَى الصِّيَادِيّ مُستشارِ السُّلطانِ عبدِ الحميدِ الثَّاني وأحدِ الخوَصِّ المقربينِ إليه.

فصُدِّرَ البحثُ أوَّلاً بقَبَسٍ من حياةِ الصِّيَادِيّ، وأُتبعَ بالكلامِ على أهمِّ آثاره العلميّة التي أُتيحَ الوصولُ إليها، وعُرِّجَ على دواوينه التي نُفِصَ عنها -لأوّلِ مرّةٍ- غبارُ الإهمالِ. ثم جرى البحثُ ثانيّاً في تراثهِ الشعريّ الذي بُثَّ في تلك الدَّواوين، للوقوفِ على الأغراضِ الشعريّة التي انطَوَّت أشعارُهُ تحتَ قِباها، ولحاوَلَةِ تَلَمُّسِ شيءٍ من نواحي الجمالِ البلاغيّة التي نُشِرَ طيُّها في ثنايا تلك الأشعارِ، ولا يبرازُ ما رَفَلَتْ به من الأشكالِ، إضافةً إلى تبيانِ المحاورِ الرّئيسيّة التي قامَ عليها بُنيانُ الأغراضِ.

وقد تبيّنَ خلالَ البحثِ أنّ أبا الهُدَى انتظَمَ نظامَ أغراضِهِ الشعريّة في عقدِ أغراضِ العصرِ العُثمانيّ، وأُفيدَ أنّ أغزَرَ نتاجِهِ كان قد صَبَّه في أغراضِ المديحِ النَّبويِّ والمديحِ والوعظِ، ولعلَّ أبرزَ ما لُمِحَ من عواملٍ مؤثِّرةٍ في شعرِهِ هو عاملُ التَّصوُّفِ وعاملُ الحُزنِ المتواصلِ الذي جرَّته عليه الغربةُ وأحداثُ ذلك الزَّمانِ.

الكلمات المفتاحيّة: الشعر العربيّ، الأغراض الشعريّة، أبو الهُدَى، المديح النَّبويّ، الوعظ.

ÖZET

DOKTORA Tezi

EBU'L-HUDÂ ES-SAYYÂDÎ VE ŞİİRLERİNDE ELE ALDIĞI TEMALAR

Ahmed ELHAMMUD

Danışman: Dr. Öğr. Üyesi Hüseyin POLAT

Bu çalışma, Osmanlı'nın son dönemlerinde meşhur olmuş, Sultan II. Abdülhamid'in en yakınlarından biri ve danışmanı olan Ebu'l-Hudâ es-Sayyâdî ile ilgilidir. Hakkında daha önce çalışma yapılmış olmasına rağmen geride bıraktığı şiir mirasıyla alâkalı özgün ve kapsamlı bir incelemeye konu olmaması çalışmamıza onu konu olarak seçmemizde etkili olmuştur.

Çalışmada ilk olarak Sayyadî'nin hayatı hakkında bilgi verilerek günümüze ulaşan önemli ilmî eserleri incelenmiştir. İkinci olarak onun şiir mirası ele alınmıştır. Böylece Ebu'l-Hudâ'nın edebî eserlerinin üzerindeki tozlar kaldırılarak şiir birikiminin nüfuz ettiği kıymetli müktesebatının gün yüzüne çıkarılıp analizinin yapılmasına çalışılmıştır. Bu çerçevede onun şiirlerine egemen olan manzum temaların vurgulanmasıyla şiirlerinin karakteristiklerinden olan belâgat inceliklerinin yakalanması amaçlanmıştır, haiz olduğu biçimsel ve inşâî hususiyetlerin açıklığa kavuşturulması hedeflemiştir.

Bu çalışma ile Ebu'l-Hudâ'nın şiirine hâkim olan temaların, Osmanlı'nın ilgili dönemindeki şiir temalarıyla bağlantılı olduğu belirlenmiştir. Eserlerinin çoğunda tematik olarak nebevi övgü, öğüt ve methin seçilmiş olduğu ortaya konulmuştur. Şiirlerinin içerdiği ana unsurlara bakıldığında ise tasavvuf, gurbetin sebep olduğu hüzn ve ait olduğu asrın yaşanmışlıklarının ağır bastığı görülmektedir.

Anahtar Kelimeler: Arap Şiiri, Şiir Temaları, Ebu'l-Hudâ, Nebevi Övgü, Öğüt.

ABSTRACT

PH.D Thesis

ABU AL-HUDA AL-SAYYĀDI AND HIS POETRY OBJECTIVES

Ahmed ELHAMMUD

Supervisor: Dr. Hüseyin POLAT

This research deals with a personality whose fame was spread across the horizons in the late Ottoman era. His poetic legacy however has not yet been subject to any independent academic research since that era up until this current research. The man in question is no other than Abu Al-Huda Al-Sayyādi, an advisor to sultan Abdul Hamid the second and one of his close inner circle.

This research aims firstly to give a small glimpse into the life of Al-Sayyādi followed by a few words on his most important academic contributions that were able to be procured. This research then takes a pause at his literary works which remained for a long time covered by the dusts of neglect are only now being brought forth. Secondly this research looks into his poetic writings that can be found throughout his literature, specifically looking at the objectives of his poetry that are contained under the domes of his works. This whilst also trying to touch upon some of the grammatical and rhetorical beauty that one may find concealed within his poetry as well as highlighting the many forms in which this beauty is presented. Furthermore, it aims to clarify the main principles/axioms upon which these poetic objectives are built.

It became apparent during the course of the research that Abu al Huda organised his poetry and its objectives in accordance to what was needed during his time. It is reported that his most prolific writings were poured out in the genres of ‘Prophetic praise’, panegyric and didactic poetry. Perhaps the most prominent influencing agent that can be gleaned from his poetry is that of Sufism as well as the continuous sadness that afflicted him due to his exile and the events of his time.

Key words: Arabic poetry, Poetry Objectives, Abu Al-Huda, Prophetic praise, Preaching.

المحتويات

I	ONUR SÖZÜ
II	الإهداء
III	المقدمة
VIII	الملخص
IX	ÖZET
X	ABSTRACT
XI	المحتويات
XV	الاختصارات
1	المدخل

الفصل الأول

(أبو الهُدَى الصَّيَّادِي: حَيَاتُهُ وَآثَارُهُ الْعِلْمِيَّةُ وَدَوَاوِينُهُ)

6	تمهيد: الجوّ العامّ في عصره
12	المبحث الأول: حياته
13	1 المرحلة الأولى
20	2 المرحلة الثانية
32	المبحث الثاني: آثاره العلميّة ودواوينه
33	1 آثاره العلميّة
46	2 دواوينه
46	أ. ديوان الفيض المُحمَّديّ
48	ب. ديوان قُرَّة العَيْن

ج. ديوان التَّبيان	49
د. ديوان مرآة الشُّهود	52
هـ. ديوان الرُّوض البسيم	54
و. ديوان روضة العرفان	54
ز. ديوان الدُّرِّ المُنتَظَم	56
ح. ديوان أزهار الحديقة	57
ط. ديوان اللؤلؤ والمرجان	58
ي. نَوَائِجُ الحِكَم	59
ك. منظومة آيات العرفان	60
ل. منظومة زاد القيامة	62
3 ملاحظات في دواوينه الشَّعرية	65

الفصل الثَّاني

(أَغْرَاضُ الشَّعْرِيَّةِ)

تمهيد: حول مفهومي الشَّعر والغرض الشَّعري	68
1 الشَّعر	68
2 الغرض الشَّعري	72
المبحث الأوَّل: غرض الدُّعاء	79
المبحث الثَّاني: غرض المديح النَّبوي	101
1 مطالع المدائح	106
2 محاور المدائح	115
أ محور المدح العام	116

137	ب محور التَّشَوُّق والشَّكْوَى والتَّشْفُّع
146	ج محور المعجزات
150	د محاور أخرى
153	3 خواتيم المدائح.....
157	المبحث الثالث: غرض المديح.....
158	1 مدح آل البيت والصَّحابة
159	أ آل البيت
167	ب الصَّحابة
181	2 مدح العثمانيّين.....
200	3 مدح الفضلاء.....
212	المبحث الرَّابع: غرض الغَزَل
214	1 التَّشْيِيب
218	2 الغَزَل
231	3 التَّسْيِيب
246	المبحث الخامس: غرض الوَعظ.....
248	1 التَّصَحُّح والإرشاد
250	أ المعاملة الخاصَّة
253	ب المعاملة العامَّة.....
268	ج التَّصَوُّف
272	2 التَّزْهِيد بالدُّنْيَا
278	3 الحِكْمَة.....

289	المبحث السادس: غرض الهجاء
293	1 هجاء الأفراد
296	2 هجاء الفئات
296	أ فئة المعارضين والمُعْرضين
300	ب فئة المتصوِّفة
304	ج فئة الحُساد
308	3 هجاء الزَّمان
331	المبحث السابع: غرض الرِّثاء
349	المبحث الثَّامن: أغراضٌ أخرى
360	الخاتمة
364	المصادر والمراجع

الاختصارات

ت	: تاريخ الوفاة
د.ت.ب	: ديوان التّبيان
د.ت.ن	: بدون تاريخ ومكان النّشر والنّاشر
د.ت	: بدون تاريخ
د.ر.ب	: ديوان الرّوض البسيم
د.ر.ت	: ديوان الدُّر المنتظم
د.ر.ح	: أزهار الحديقة
د.ر.ع	: ديوان روضة العرفان
د.ر.ق	: ديوان قرة العين
د.ر.م	: ديوان اللؤلؤ والمرجان
د.ف.م	: ديوان الفيض المحمدي
د.م.ش	: ديوان مرآة الشُّهود
د.ن	: بدون ناشر
ص	: الصّفحة
ق.هـ	: قبل الهجرة
ك.ح	: كان حيّاً سنة
م	: العام الميلادي
هـ	: العام الهجري

المدخل

إنَّ من جُمْلَةِ المَزَايا التي تَمَيَّزَ بها الإنسانُ على غَيرِهِ من المخلوقاتِ مِزْيَةُ اللُّغَةِ، فهي أخصُّ الخصائصِ التي مَنَحَتْهُ إِيَّاهَا القُدْرَةُ الإلهيَّةُ، وفي عالمِ الشَّهادَةِ كان الكائن الحيُّ الوحيدُ القادرُ على النُّطْقِ والتَّعبيرِ باللُّغَةِ، إذ هي قَرِينَةُ التَّفكيرِ بل وعَاوُذُهُ، والوسيلةُ التي بها يُعَبِّرُ عَنْهُ وعن العواطفِ والأحاسيسِ التي تَحْتَلِجُ في الصُّدُورِ؛ فلا بدَّ أن يَقتَرَنَ القسمُ الإلهيُّ بِمِزْيَةِ اللُّغَةِ المنطوقَةِ عندما قال الحقُّ تبارك وتعالى: "فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلِ مَا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ"¹.

وعَلَّتِ اللُّغَةُ العربيَّةُ جميعَ اللُّغاتِ بِمِزْيَةِ الشَّرَفِ الأسمى، لَمَّا نَزَلَ بها وَحيُ السَّمَاءِ، فنالت بهذا الشَّرَفَ العظيمَ مِزْيَةَ العالَميَّةِ، بِمُخاطَبَتِها جميعَ أجناسِ البشريَّةِ، على اختلافِ أَلْسِنَتِهِمْ وَأَلْوَانِهِمْ، لِمَا أُودِعَ فيها من مُمَيَّزَاتٍ وخصائصَ لَيسَتْ في سواها من اللُّغاتِ، فهي أوفَرُ اللُّغاتِ مادَّةً وأوسَعُها مذهبًا وأحظاها خِدمةً وأكثرها ترتيبًا وأغزرها علومًا،² وقد يستعصي على النَّفسِ أن تُعَبِّرَ بِلُغَةٍ ما عما يجولُ في أعماقِها، ويُثَقِّلُ كُلُّ لسانٍ عن الإفصاحِ عما يخطرُ ببالِ صاحِبِهِ، فلا يُنْقِذُ من وهْدَةِ هذه اللُّججِ إلا اللُّغَةُ العربيَّةُ، فتُسَعِّفُ بالتَّعبيرِ عن أدقِّ الدَّقائِقِ التي يرنو إليها المرءُ وتَنسَابُ على لسانِهِ بسلاسةٍ في الألفاظِ وأناقَةٍ في التَّراكيبِ، وهذه الميزة جعلتها لغةً سخيَّةً مِعطاءً تستوعِبُ حاجاتِ الشُّعوبِ على امتدادِ الأزمانِ وتعاوُبِ الأجيالِ.³

¹ الدَّارِيات 7/51.

² يُنظَرُ: مُحَمَّدُ بن مكرم بن منظور، لسان العرب (بيروت: دار صادر، 1414هـ/1994م)، "قطع"، 8/86؛ مُحَمَّدُ بن إدريس الشَّافعي، الرِّسالة، تحقيق: أحمد شاكر، (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي، 1357هـ/1938م)، 1/42.

³ يُنظَرُ: مُحَمَّدُ خليل جيجك، ثراء المعنى في القرآن الكريم (القاهرة: دار السَّلام، 1999م)، 29.

وقد اعتمد بعض مؤرّخي أدب اللغة العربيّة تسمية مجموع الكلام الجيّد منها "أدباً"، وقسموه إلى نثرٍ وشعرٍ،⁴ وزُفِعَ الشّعرُ إلى مرتبةٍ عاليةٍ من مراتب الأدب، ويظهرُ علوّ هذه الرّتبة حتى في صدر الإسلام، فعليُّ بن أبي طالب (ت. 40هـ/660م) رضي الله عنه رآه "مِيزانَ القول"، وعمر بن الخطّاب (ت. 23هـ/644م) رضي الله عنه أمرَ بتعلّمه؛ وقد لا يُمكنُ الوصولُ إلى كُنْهِ هذا الاهتمام إلا إذا ما يُنَّ أَهْمَ عَنَّا بكلامهم الشّعرَ الذي "يدلُّ على معالي الأخلاقِ وصوابِ الرّأي ومعرفة الأنساب"،⁵ والشّعرُ كان عُدةً للسّلفِ والخلفِ في فهمِ الذّكرِ الحكيم، وإذا ما استعجمَ عليهم شيءٌ من الآياتِ فإنّهم يهرعون إليه كي يَتَسَنَّى لهم أن يفتبسوا منه قَبَسًا يُنِيرُ لهم طريقَ الفهمِ للكلامِ القدسيّ؛ فلا غرو أن يحظى الشّعرُ بمزيدِ اهتمامٍ وخالصِ عنايةٍ، فاختصَّ بروايته زُواةٌ أخذوا على عاتقهم العنايةَ بأشعار مَنْ قبلهم فارتحلوا إلى البوادي لروايتها - كأبي عمرو بن العلاء (ت. 159هـ/776م) وأبي عمرو الشّيباني (ت. 206هـ/821م) -، وانبرى آخرونَ لتقييدِ ما وَقَعَتْ عليه أعينُهم من عيونِهِ فخلّدوها في سَجَلِ الآدابِ آثارًا خالدةً انتقيت من الأشعارِ العاليةِ، فكانت "المُفضَّلِيَّات" -للمُفضَّل الضّبيّ (ت. 168هـ/784م) - و"الأصمعيّات" -لأصمعيّ (ت. 216هـ/831م) - و"الحماسة" -لأبي تمام (ت. 231هـ/845م) - التي نُسِجَ على منوالها حماساتٌ أُخرى؛⁶ ثم توالى من بعد ذلك أقوامٌ آخرونَ اهتمُّوا بمعاييرَ اختطُّوها لأنفسِهِم وللسّالّكينَ دربَ دراسةِ الشّعرِ والشّعراءِ، فكانوا صيارقةً نقدِهِ، المُتصدِّينَ لتبيينِ صِرْفِهِ من بَهْرَجِهِ، ولم تزل تتعاقبُ أجيالُ المهتمِّينَ بالشّعرِ جيلاً بعدَ جيلٍ على مَدَى ثلاثة عشر قرناً؛ ولا غرو أن تَهْتَمَّ أُمَّةٌ بترائِها الأدبيِّ إذ لم يقم تاريخُ الحضارةِ لأَيِّ من الأممِ الرّاقيةِ إلا

⁴ يُنظر: عمر فُروخ، تاريخ الأدب العربيّ (بيروت: دار العلم للملايين، 1981م)، 35/1، 42.

⁵ يُنظر: الحسن بن رشيق القيروانيّ، المُعَلِّدَةُ في تحاسين الشّعرِ وأدبِهِ، تحقيق: محمّد محيي الدّين عبد الحميد، (بيروت: دار الجيل، 1401هـ/1981م)، 28/1، 29.

⁶ كحماسة البحتريّ وابن الشّجريّ وأبي العباس الجراوي.

على أربع أعمدة هي: الأدب والسياسة والدين والعلم، وما قيام تاريخ العرب إلا على دعامة أدبية محضّة ثم جاء الدين فاستتبع السياسة والعلم،⁷ ولعلّ روح الدعامة الأدبية المُشار إليها هو الشعر العربي، إذ قد يُكوّن صورةً واضحةً يُورّخ خلالها دقائق العصر الذي ينتمي إليه، فلا يُعبّر عن جانب جمالي لغويّ وآخر وجدانيّ فحسب، وإنما يُعبّر أيضاً عن تدفّق أمواه الأفكار التي ترسّخت في أذهان الناس، ويُقدّم لقارئه نافذةً يُطل منها على الظواهر الاجتماعية التي سادت في الزمان الذي قيلت فيه تلك الأشعار.

وبالوصول إلى القرن التاسع عشر الميلاديّ يُلمح أنّه قد تميّز ببدايةٍ مخاضٍ لموجةٍ اهتمامٍ جديدةٍ جادةٍ في تأصيل التاريخ للأدب العربيّة، مُردفةً بجهودٍ استشرافيةٍ قامت بنبش التراث الأدبيّ الشعريّ والنثريّ للعربيّة بشكلٍ خاصٍ وللعلوم والفنون الإسلامية بشكلٍ عامٍ؛ لذا فإنّ تيّاراً من شعراء هذا العصر قد كانت لهم جولاتٌ ومحاولاتٌ -بغضّ النظر عن إخفاقها أو نجاحها- لإحداث ثورةٍ في الشعر العربيّ لإنعاشه والعودة به إلى أوج تألّفه في عصورٍ سابقةٍ ازدهر فيها على ألسنة فحول الشعراء، فتدقّق بغزارةٍ نتائجهم الشعريّ في سبيل ذلك،⁸ وما إن أطلّ القرن العشرين حتى وُلدت تيّاراتٌ أخرى في طوائف الشعراء تسرّبت من خلال أربابها إلى الشعر العربيّ مذاهبٌ أدبيّةٌ جديدةٌ تبلّورت من انعكاس التأثير الأوروبيّ في الفكر العربيّ في الشرق الأوسط؛⁹ وقد أدرك الشاعر المقصود بالدراسة -أبو الهدى الصيّادي- أواسط القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ولعلّ الفترة التي عاشها والتراث الشعريّ الذي أنتجه كانا كفيّلين بإمكانية إطلاق الحكم بأنّ أدبه كان مصبوغاً بصبغة

⁷ يُنظر: مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، تحقيق: عبد الله المنشاوي وآخرين، (مصر: مكتبة الإيمان، د.ت)، 16/1.

⁸ ومن هؤلاء محمود سامي الباروديّ الذي يُمكن أن تُقارَن غزارة شعره بغزارة شعر أبي الهدى.

⁹ كالكلاسيكية والرومانسية والواقعية وغيرها، يُنظر: عبّاس محمود العقّاد، دراسات في المذاهب الأدبية والاجتماعية (القاهرة: نهضة مصر، 2006م)،

12، 36؛ سلمى الجيوسي، الاتجاهات والحركات في الشعر الحديث، مُترجم: عبد الواحد لؤلؤة، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2007م)،

47؛ محمّد مندور، في الأدب والنقد (القاهرة: نهضة مصر، 1988م)، 96.

المدرسة التقليدية التي شقت لمنتسبيها درب السير على خطى الأوائل من فحول الشعراء؛ ولمعرفة موقع شعره في تراث هذين القرنين يسعى هذا البحث إلى الإلمام بصورة صحيحة لشخصية الشاعر أبي الهدي قبل التعمق في شعره، ولهذا فإن ما سيتلو هذا المدخل من الصفحات يطمح إلى التعريف بالشاعر وما تركه من آثار علمية وأدبية، قبل أن ينطلق في ميادين تراثه الشعري وما قام عليه بُنيانه من الأغراض والمحاور.



الفصل الأول

(أبو الهدى الصياديّ:

حياته وآثاره العلميّة ودواوينه)

تمهيد: الجوّ العامّ في عصره

إنّ دراسة آثار شخصيّة ما والخوض في غمار نشاطاتها لها أشدُّ الارتباط وأوثقُهُ بالزّمان الذي عاشت فيه، بل وتلك البيئة التي وُلِدَت من رَجَمِها ونشأت وتَرَعَرَعَت في وسطِ أجوائها؛ إذ إنّ الباحثَ يتحتّم عليه بدايةً تسليطُ الضّوء على تلك البيئة والفترة الزّمنيّة التي لا بُدَّ أنّها تركت بصمتها الواضحة على أبناء ذلك الجيل عمومًا، وتلك الشّخصيّة المدروسة خصوصًا، والمعنيّ بالبيئة ذلك الجوّ العامّ الذي أحاط بها؛ فما الآثار التي كُتِبَت إلا فرغٌ عن التّصوّرات والانطباعات التي سادت في ذاك الزّمان.

وبالعودة إلى المصادر التّاريخيّة يُلمَحُ أنّه بحلول مطلع القرن العاشر الهجريّ دخلت بلاد الشّام طوعًا تحت حُكم العثمانيّين، فبالتحديد قبل معركة مرج دابق (922هـ/1517م)، كانت بلاد الشّام قد سَيّمت المماليك وظلمهم، حالها كحال مصر،¹⁰ وتَشَوّفت نفوسُ أهلها إلى رايةٍ عادلةٍ تحقق فوق بلادهم، وقد عمَدَ أهالي حلب قُبيل تلك المعركة إلى تلقين أولادهم هُتافَ "ينصرك الله العظيم يا سلطان سليم" على الرّغم من أنّهم لمّا يكونوا قد خرجوا من سلطنة المماليك بعد؛ وقام أهل حلب بمراسلة السُّلطان سليم الأوّل (ت. 926هـ/1520م) وبعثوا إليه بعريضة¹¹ كتبها القضاة والأعيان باسم الشّعب الحلبيّ بَيّنوا فيها أنّهم ضاقوا ذرعا بالمماليك المخالفين للشّرع الحنيف والعدالة -على حدّ قولهم-، وقد كان لحلب وبلاد الشّام عمومًا ما أرادت، حيثُ بُسِطَ نُفوذ السّلطنة العثمانيّة عليها بدون قتالٍ بل بإرادة الشّعب وطلبه،¹² واستمرّ العثمانيّون في حكمها منذ ذلك الحين وصولًا إلى

¹⁰ يُنظر: محمّد حرب، العثمانيّون في التّاريخ والحضارة (القاهرة: المركز المصريّ للدراسات العثمانيّة وبحوث العالم التّركي، 1994م)، 139.

¹¹ وهي لا تزال محفوظةً في الأرشيف العثمانيّ بمتحف طوب كابي في إسطنبول برقم 11634 (26)؛ يُنظر: حرب، العثمانيّون في التّاريخ، 140.

¹² يُنظر: زكريا سليمان بيومي، قراءة جديدة في تاريخ العثمانيّين (جدة: عالم المعرفة، 1991م)، 69.

الأَيَّام التي عاش فيها الشَّاعر، التي عاصَرَ فيها ثلاثةً من السُّلاطين العثمانيّين هم: عبد العزيز الأوّل (ت.1293هـ/1876م) ومراد الخامس (ت.1322هـ/1904م) وعبد الحميد الثاني.

وإنَّ الاستقراء للتَّاريخ يُظهر أنَّ بلادَ الشَّام -التي يُنسَبُ إليها الشَّاعر- لم تكن يوماً مُوحَّدةً إداريًّا عبر كلّ مراحلِ التَّاريخ العثمانيّ، وإنَّما كانت مُقسَّمةً إلى عدَّة ولايات هُنَّ: (حلب، دمشق، طرابلس، صيدا)، إلَّا أنَّه في زمان الشَّاعر سنة 1281هـ/1864م أصدرَ السُّلطان عبد العزيز الأوّل ما يُعرَف بـ: "قانون الولايات" وبموجِبِه انقسمت بلاد الشَّام بين ولايتين كبيرتين إحداهما ولاية حلب وامتدَّت شمالاً لتشملَ من أراضي الأناضول (ديار بكر وغازي عنتاب)، والثَّانية ولاية دمشق وهي تُشْرِفُ إداريًّا على (صيدا وطرابلس) وينطوي تحتها أُلويةٌ ثلاثةٌ (جبل لبنان، دَير الزُّور، القدس)،¹³ وفي عهد السُّلطان عبد الحميد الثَّاني عُرِفَت ولايةُ دمشق بولاية سوريا، وبقيت ولاية حلب على حالها، وظهرت ولايةٌ ثالثةٌ هي ولاية بيروت الشَّاملة للقسم السَّاحليّ كلّهُ من بلاد الشَّام،¹⁴ وقُدِّرَ للشَّاعر أن يعيشَ القسم الأوّل من حياته على أرض ولاية حلب.

وقد كانت سياسة العثمانيّين لولاية حلب تقوم على قدرٍ كبيرٍ من الاهتمام حتى إنَّه ليَكاذُ السُّلطان العثمانيّ يُشْرِفُ عليها مباشرةً بنفسِه، فهو الذي يستقبلُ عرائض الشَّكاوى من أهلها ويتولَّى النّظرَ فيها بنفسه في بعض الأحيان، ويَحْرُصُ كُلَّ الحِرْصِ على تعيين أفضل وزرائِه ولاةً على هذه الولاية ويقوم بالتَّدخُل بتعيين القضاة عليها.¹⁵

¹³ يُنظَر: أحمد المُرسِي الصَّفصافي، "الدَّولة العثمانيَّة والولايات العربيَّة"، المجلة التَّاريخيَّة المغربيَّة، 29، 30، (1983م)، 338، 339.

¹⁴ يُنظَر: يوسف الحكيم، سوريا والعهد العثمانيّ (بيروت: دار النَّهار، 1991م)، 50، 51، 52.

¹⁵ يُنظَر: محمَّد التَّونجي، "التَّفاعل الاجتماعيّ في ولاية حلب بين العثمانيّين والعرب"، مؤتمر الحياة الاجتماعيَّة في الولايات العربيَّة في العهد العثمانيّ، تحرير: عبد الجليل التَّميمي، (تونس: مركز الدِّراسات والبحوث العثمانيَّة والمورسكيَّة والتَّوثيق والمعلومات، 1988م)، 214.

وَيُحْكِنُ الْقَوْلُ: إِنَّ شُعُوبَ الْوَلَايَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ مِنْذِ مُنْتَصَفِ الْقَرْنِ الثَّانِعِ عَشَرَ قَدْ نَالُوا - وَلَوْ بِشَكْلِ جَزْئِيٍّ - نَوْعًا مِنَ الْمِشَارَكَةِ فِي الْحُكْمِ، إِذْ كَانَ يُعَيَّنُّ عَلَى وَلَايَاتِهِمْ وَالٍ هُوَ بِمَثَابَةِ رَئِيسٍ رَسْمِيٍّ أَوْحَدٍ لِإِدَارَةِ الْوَلَايَةِ، وَهَذَا الْوَالِي لَهُ - إِلَى جَانِبِ سُلْطَتِهِ - أَنْ يَرَأْسَ مَجْلِسًا لِإِدَارَةِ الْوَلَايَةِ، وَيَنْضَمَّ إِلَيْهِ فِي هَذَا الْمَجْلِسِ الْقَاضِي الشَّرْعِيُّ وَ"الدَّفْتَرْدَار" ¹⁶ وَالْمُفْتِي، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْأَعْضَاءُ الْأَصْلِيُّونَ، وَيُضَافُ إِلَيْهِمُ الْوُجُهَاءُ الَّذِينَ يَقُومُ الشَّعْبُ بِانْتِخَابِهِمْ لِمُدَّةِ سَنَتَيْنِ؛ وَأَمَّا الْأُلُويَةُ التَّابِعَةُ لِلْوَلَايَةِ فَقَدْ كَانَ يَرَأْسُ كُلِّ لَوَاءٍ شَخْصٌ يُعَيِّنُهُ الْوَالِي بِإِرَادَةٍ سُلْطَانِيَّةٍ يَسْمَى "الْمُتَصَرِّف"، وَأَمَّا مَا يَتَّبِعُ لِهَذِهِ الْأُلُويَةِ فَيُسَمَّى "قَضَاءً" وَيُعَيَّنُّ عَلَيْهِ شَخْصٌ يَسْمَى "القَائِمَقَام" ¹⁷.

وَإِذَا مَا كَانَ الْكَلَامُ عَنِ الْجَوِّ الْعَامِّ فِي قَلْبِ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ فِي زَمَانِ الشَّاعِرِ فِي عَاصِمَتِهَا إِسْتَنْبُولِ - الَّتِي قَضَى أَكْثَرَ مِنْ رُبْعِ قَرْنٍ مِنْ حَيَاتِهِ عَلَى أَرْضِهَا -، فَإِنَّ الْمُطَّلِعَ عَلَى التَّارِيخِ الْعُثْمَانِيِّ يَجِدُ أَنَّ السَّلَاطِينَ الْعُثْمَانِيِّينَ فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ الزَّمَانِيَّةِ - وَمَا سَبَقَهَا بِقَلِيلٍ - قَدْ سَارُوا خُطُواتٍ نَحْوَ الْإِصْلَاحِ السِّيَاسِيِّ وَالْإِدَارِيِّ وَحَاولُوا جَاهِدِينَ مُحَاولَاتٍ لِلنُّهُوضِ بِالدَّوْلَةِ عَلَى الْمَنْهَجِ الْغَرْبِيِّ الْأُورُوبِيِّ، وَكَانَ أَوَّلُ مَنْ فَتَحَ الطَّرِيقَ لِذَلِكَ هُوَ السُّلْطَانُ سَلِيمُ الثَّالِثِ (ت. 1222هـ/ 1808م) الَّذِي قَامَ مِنْهَجُهُ عَلَى الْاِسْتِلْهَامِ مِنْ "أُورُوبَا" بِقَصْدِ أَخْذِ تِكْنُولُوجِيَّاتِهَا الْعُلْيَا، وَكُلُّ الَّذِينَ جَاؤُوا بَعْدَهُ - مِنَ السَّلَاطِينَ - قَلَّدُوهُ ¹⁸، وَحَرَكَةُ التَّجْدِيدِ اكْتَسَبَتْ أَهْمِيَّةً بَالِغَةً بَعْدَ الثَّوْرَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ (1214هـ/ 1799م)، حَيْثُ بَدَأَتْ الْقَوْمِيَّاتُ الْمَسِيحِيَّةُ الَّتِي تَخْضَعُ تَحْتَ رَايَةِ الْعُثْمَانِيِّينَ تَتَطَلَّعُ نَحْوَ اسْتِقْلَالِهَا ¹⁹ وَبِغَضِّ النَّظَرِ عَنْ دَوَافِعِ

¹⁶ لَقِبَ عُثْمَانِيٌّ يُطْلَقُ عَلَى مَنْ يَتَوَلَّى مَهْمَّةَ الْإِشْرَافِ وَالنَّظَرِ فِي الْأُمُورِ الْمَالِيَّةِ، يُنْظَرُ: عَبْدِ الْعَزِيزِ مُحَمَّدٍ عَوْضٍ، *الإدارة العثمانية في ولاية سورية* (القاهرة: دار المعارف، 1969م)، 90.

¹⁷ لَقِبَ عُثْمَانِيٌّ يُطْلَقُ عَلَى مَنْ يَتَوَلَّى مَهْمَّةَ النَّظَرِ فِي الْأُمُورِ الْمُلْكِيَّةِ وَالْمَالِيَّةِ وَالضَّابِطَةِ فِي الْقَضَاءِ، يُنْظَرُ: عَوْضٍ، *الإدارة العثمانية*، 98؛ الْحَكِيمُ، *سوريا والعهد العثماني*، 49.

¹⁸ يِلْمَاز أُوْرْتُونَا، *تاريخ الدولة العثمانية*، مترجم: عَدْنَانُ مُحَمَّدٌ سَلْمَانٌ - مُحَمَّدُ الْأَنْصَارِي، (إسطنبول: منشورات فيصل للتأويل، 1988م)، 646/1.

¹⁹ يُنْظَرُ: أُوْرْتُونَا، *الدولة العثمانية*، مترجم: عَدْنَانُ مُحَمَّدٌ سَلْمَانٌ - مُحَمَّدُ الْأَنْصَارِي، 655/1.

هذا التَّطَلُّع - سواءً أخرجيَّة كانت أم داخليَّة - فإنَّ التَّجديد بدأ في عهد السُّلطان سليم الثَّالث واستمرَّ في عهد السُّلطان محمود الثَّاني (ت. 1255هـ/1839م) وصولاً إلى ولده السُّلطان عبد العزيز الأوَّل السَّاري على نَهج والده، حيثُ قام بتنظيم الولايات العثمانيَّة وإنشاء محكمة قضايَّة عليا، وفي عهده تمَّ إنشاء مجلس شُورى للدولة، وكذلك تمَّ إنشاء مدرسة "عَلَطَه سَراي" التي كانت لُغة التَّدریس والدِّراسة فيها اللُّغة الفرنسيَّة، وكانت تضمُّ طُلَّابًا عثمانيَّين أغلِبهم أتراك وفيهم من الأرمن واليونانيَّين والعرب، وأغلب طُلَّابها من المسلمين لكنَّها ضُمَّت طُلَّابًا من الدِّيانات الأخرى -اليهوديَّة والنَّصرانيَّة-، وكلَّ ذلك مُراعاةً للإصلاح والتَّوفيق بين فِئات المجتمع العُثمانيِّ، وهؤلاء الشَّباب يُوكَّل إليهم القيام بعبء الوظائف المُهمَّة في الدولة؛²⁰ لكنَّ أيَّام السُّلطان عبد العزيز الأوَّل انتهت بعزله واغتياله من قِبَل الدَّائرة الرِّسميَّة المُحيطة به،²¹ ليُخلفه أخوه السُّلطان مراد الخامس الذي لم يستمر في الحكم سوى ثلاثة وتسعين يومًا ليُعزل بعدها من السُّلطنة،²² ثمَّ يتسلَّم زَمَامَ الحكم مكانه أخوه السُّلطان عبد الحميد الثَّاني، ذلك الشَّاب الذي زار أوروبا سابقًا، وأدرك بعمق فهمه سياساتها تجاه الدولة العثمانيَّة،²³ ولعلَّه أدرك بحدسه النَّاقب حقيقة الموقف السياسيِّ الأوروبيِّ من كلِّ الإصلاحات العثمانيَّة الذي يظهر جليًّا بقول وزير الخارجيَّة البريطانيِّ اللُّورد كلارندون (ت. 1287هـ/1870م): "إنَّ الطَّريقة الوحيدة لإصلاح أحوال العثمانيَّين هي بإزالتهم من سطح الكرة الأرضيَّة كليَّةً"؛²⁴ لذا فإنَّ مَنْ يمرُّ بمذكرات السُّلطان عبد الحميد الثَّاني يجد أنَّه ينتقد بِشِدَّة كلَّ مَنْ انبهر بالمظاهر الغربيَّة

²⁰ يُنظر: إسماعيل أحمد ياغي، الدولة العثمانيَّة في التَّاريخ الإسلاميِّ الحديث (الرياض: مكتبة العبيكان، 1996م)، 158، 159.

²¹ يُنظر: إبراهيم حسنين، سلاطين الدولة العثمانيَّة (الإسكندريَّة: دار التَّعليم الجامعي، 2014م)، 466، 467.

²² يُنظر: حسنين، سلاطين العثمانيَّة، 469.

²³ يُنظر: حسنين، سلاطين العثمانيَّة، 472.

²⁴ ياغي، الدولة العثمانيَّة، 159.

الأوروبية، في حين أنَّ الذي يُعوَّل عليه - برأيه - هو التركيزُ على التطوُّر والتَّقدُّم الذي وصلوا إليه؛²⁵ ووفقَ هذه الرؤية سار السلطان عبد الحميد الثاني في سياسته بإصلاح الدولة والنُّهوض بمؤسَّساتها بل وإنشاء الجديد منها حيثُ سعى إلى بناء مدرسةٍ علميَّةٍ إلى جانب كلِّ مسجدٍ يُبنى في الولايات العثمانيَّة، وأنشأ الجامعات ودار المُعلِّمات والمدارس العلميَّة والعسكريَّة والمؤسَّسات الطَّبيَّة والثَّقافيَّة، وأرسلَ البعثات العلميَّة إلى أوروبا على أملٍ أن ترجع هذه البعثات لِتنهض بالدولة العثمانيَّة.²⁶

وعلى الرَّغم من وجود هذه الحركة الإصلاحية فمن المُمكن أن يُقال: إنَّ الجوّ العامَّ في ذلك العهد وما سبقه بسنواتٍ كان مُضطرباً جدًّا، سلطانٌ يُقتل وسُلطانٌ يُعزل، واضطراباتٌ تعمُّ عدَّة ولاياتٍ بتمرُّدٍ داخليٍّ وتدخُّلٍ خارجيٍّ، كالحركة الوهابيَّة وثورة البلقان وتمرُّد الأرمن،²⁷ وتكُلِّف الدولة بعبء القيام بقمع هذه التمرُّدات، وخوض الدولة العثمانيَّة -مُجبرةً- الحرب ضدَّ روسيا (1294هـ/1877م) التي انتهت بخسارة الدولة العثمانيَّة رغمَ بسالة جنودها وشجاعتهم، وسقوط عددٍ من المدن الهامَّة بيد الرُّوس حتى قرعت جيوشهم أبواب العاصمة إستانبول.²⁸

كلُّ هذه الاضطرابات السياسيَّة، دفعت السلطان عبد الحميد الثاني إلى اتِّباع سياسةٍ خاصَّة، حيثُ قام بإبطال المجلس النِّيابيِّ العُثمانيِّ المُسمَّى "مجلس المبعوثان" (1295هـ/1878م)، رغمَ كونه هو مَنْ أنشأ هذا المجلس، لأنَّه رأى فيه سببًا للانجرار وراء تهور أعضائه الذين ورطوا الدولة في الحرب الرُّوسية، وعلى الرَّغم من إبطاله للمجلس النِّيابيِّ فإنَّ هذا الإبطال لم يمنعه من الإبقاء على الدُّستور

²⁵ يُنظر: محمَّد حرب، مذكَّرات السلطان عبد الحميد الثاني، (دمشق: دار القلم، 1991م)، 164.

²⁶ يُنظر: حرب، مذكَّرات عبد الحميد، 164، 165، 166.

²⁷ سيف الله آرباجي، السلطان عبد الحميد الثاني مشاريعه الإصلاحية وإنجازاته الحضارية، مترجم: عبير سليمان، (القاهرة: دار النيل، 2011م)،

79.

²⁸ من هذه المدن الهامَّة: أدرنه، قارص، أردخان، بلوثة؛ يُنظر: آرباجي، السلطان عبد الحميد، مترجم: عبير سليمان، 82، 81.

-القانون الأساسي- الذي أنشأته حكومته نزولاً عند رغبة الدول الأوروبية بعد مؤتمر الترسنة (1293هـ/1876م)،²⁹ ولا يُجانب الصواب إذا ما قيل: إنَّ السلطان عبد الحميد الثاني قد أمسك بمقاليد السلطنة وحده، وحاول أن يُلَمَّ شعث الشعوب العثمانية تحت معنى مُوَحِّدٍ لهم و رابطٍ يجمعهم تحت مُسمَّى الجامعة الإسلامية، وصمدَ لإنقاذ الدولة العثمانية خلال مدَّة حكمه الفردي التي زادت على ثلاثين عامًا،³⁰ والمعنى المُراد هنا من الحكم الفردي هو ما قام به السلطان من اتِّباع سياسة الرِّبط لكلِّ أمور الدولة الإدارية والعسكرية والمالية بل كلِّ سلطة الباب العالي بالقصر الذي يقطن فيه والاطِّلاع بنفسه على كلِّ هذه الأمور من قُرْب، وقد كان الشَّاعر خلال تلك المُدَّة التي رَبَّت على ربع قرنٍ من الزَّمان من ألصق الشَّخصيات بالسلطان عبد الحميد الثاني وأشدَّها تأثيراً.³¹

²⁹ يُنظر: أحمد آق كوندوز وآخرون، الدولة العثمانية المجهولة (إستانبول: مطبعة ماس، 2008م)، 428.

³⁰ يُنظر: محمَّد حرب، السلطان عبد الحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار (دمشق: دار القلم، 1990م)، 54، 55.

³¹ يُنظر: أرباجي، السلطان عبد الحميد، مترجم: عبيد سليمان، 76، 78؛ حرب، مذكرات عبد الحميد، 148؛ قسطاكي الحمصي، أدباء حلب ذوو الأثر في القرن التاسع عشر (حلب: المطبعة المارونية، 1925م)، 105.

المبحث الأول: حياته

من رحم تلك الأوقات العصيبة أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وما تمخّض عنها من تغيّراتٍ في بداية القرن العشرين قُدِّرَ لأبي الهُدَى أن يولّد، ويعيش حياته في قلب تلك الأحداث، فلم يكن بعيداً عنها بل ربّما كان في بعض الأحيان في خِصَمِّ معامعها، وإنّه لَمِنْ حُسْنِ الطَّالِعِ أن يُوجَد بين أيدي الباحثين سطورٌ ليست بالكثيرة، منها ما كان قد كَتَبَهُ الشَّاعر بقلمه مُتَحَدِّثاً عن شيءٍ من سيرته، ومنها ما كتبه بعضُ أهلِ عصره المُتَخَصِّصين بالتَّاريخ لتلك الأحداث وأعلامها، حيث تكلّموا فيها عن بعض الجوانب المتعلّقة بنسبه ونشأته ونبذة من حياته الأولى وشيءٍ من أخبار القسم الثَّاني من حياته واتّصاله بالدَّولة العثمانيّة وأربابها الكبار، إلى أن وصلَ مَوْصِلاً لم يصل إليه أحدٌ من العرب بل وحتى التُّرك في ذلك الوقت، يظهر هذا جليّاً في كلام قسطنطين الحمصي (ت. 1360هـ/1941م) حيث قال إنّه -يعني أبا الهُدَى-: "ظَلَّ في صحابة عبد الحميد باقعة³² السلاطين من آل عثمان زهاء ثلاثين سنةً في صُعودٍ متوالٍ ورفعةٍ مكانٍ، ولم ينل أحدٌ من الأُمّة العربيّة لا بل التُّركيّة ما ناله عنده من المنزلة الرّفيعة والحظوة السنيّة"³³ ورصد آخر مثل هذا الحال فلمّا بسطَ الكلام على الشَّخصيّات العربيّة الأربعة التي ارتقى اتّصالها ببلاط السّلطنة العثمانيّة أيّام السُلطان عبد الحميد الثَّاني عدَّ أبا الهُدَى في صدرهم وقال: "إنّه ما وضع عربيٌّ -مهما كان حسبه

³² الدّاهية، إسماعيل بن حمّاد الجوهري، تاج اللّغة وصحاح العربيّة، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، (بيروت: دار العلم للملايين، 1407هـ/1987م)، "بقع"، 1187/3.

³³ قسطنطين، أدباء حلب، 105.

ونسبه - جبهته منذ تأسست السلطنة العثمانية حيث تطأ الآن أقدامهم وما مدَّ عربيُّ بصره حيث يُمدُّون".³⁴

غير أنَّ التعريفَ بحياة أبي الهدى ونشأته مهمة لا يخلو طريقها من الوعرة والعنت، فهي ليست من السهولة بمكان، إذ إنَّ من يريد الخوض في غمار هذه الشخصية سيصطدم بمقولات كثيرة متضاربة، رُفِعَ بها الرجلُ على لسان من أحبه إلى أعلى مكان، وخُفِضَ بلسان خصومه إلى أسفل مكان، وقد حرص الباحث على أن ينأى بقلمه عن الانخراط فيما تضادَّت فيه مقولات الفريقين واكتفى بما ترجَّح عنده وراه أقرب للصواب، لأنَّ الهدف من هذا التعريف أن يكون مُمهِّداً للدخول إلى آثاره ومؤلفاته، العلمية منها بشكلٍ مختصرٍ والأدبيَّة منها على وجه الخصوص.

1 المرحلة الأولى

كانت ولادة الشاعر في قرية "خان شيخون"³⁵ من أعمال قضاء "مَعْرَةَ النُّعْمان"³⁶ -المُلْحقة فيما بعد بولاية حلب-،³⁷ لثلاثٍ ليالٍ حَلَّت من رمضان سنة 1266هـ أي في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري وهو ما يوافق سنة 1849م،³⁸ لأبوين كريمين من سُكَّان تلك البُلَيْدة،

³⁴ يُنظر: إبراهيم بن عبد الخالق المويلحي، ما هنالك من أسرار البلاط العثماني، تحقيق: أحمد حسين الطماوي، (القاهرة: المركز العربي للإعلام والنشر، د.ت)، 252.

³⁵ أعظم قُرى قضاء مَعْرَةَ النُّعْمان وأشهرها واسمها القديم "خالس" والجهة الموجودة فيها تُشير إلى أنها كانت قديماً من أجَلِ البلدان عمراً، يُنظر: كامل بن حسين العزبي، نهر الدَّهَب في تاريخ حلب (دمشق: دار القلم، 1419هـ/1999م)، 326/1.

³⁶ مدينة بين حلب وحماة وصفها ياقوت بأنها مدينة قديمة مشهورة وكبيرة مليئة بأشجار الزيتون والتين، يُنظر: ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان (بيروت: دار صادر، 1995م)، 156/5.

³⁷ يُنظر: حسن حسني الطويراني، القول الفصل (مصر: المطبعة العمومية، 1313هـ/1895م)، 42.

³⁸ يُنظر: عبد الرزاق بن حسن البيطار الميداني، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، تحقيق: محمد بهجة البيطار، (دمشق: مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، 1993م)، 76.

فأسمياهُ مُحَمَّدًا وَكُنْيَاهُ بِأَبِي الْهُدَى، وقد صارت كُنْيَتُهُ هذه عَلَمًا عَلَيْهِ، وأُمُّهُ هي صالحة بنت حسين الدُّرَيْي بن إبراهيم آغا أحد سُكَّان قرية حاجي باشا قرب أنطاكيا،³⁹ وأبوه هو حسن وادي (ت. 1312هـ/1894م) بن علي بن خزام بن علي آل خزام بن حسين برهان الدِّين (ت. 1146هـ/1733م) الذي هو أحد أحفاد أحمد الصَّيَّاد (ت. 670هـ/1271م) بن مُمَّهَّد الدَّولة عبد الرِّحيم بن سيف الدِّين عثمان ويُرفَع نسبُهُ إلى الحَسَن رِفَاعَةَ المَكِّي بن المهدي بن أبي القاسم الذي هاجر من مَكَّة مُرْتَحِلًا إلى المغرب (317هـ/929م) فارًّا من بطش القرامطة وفتنتهم العظيمة في مَكَّة، وينتهي نسب رِفَاعَةَ هذا إلى الحُسَيْن بن علي (ت. 61هـ/680م) رضي الله عنه وهو ابن بنت رسول الله فاطمة الزَّهراء (ت. 11هـ/632م) رضوان الله عليها.⁴⁰

وَمَّا سَبَقَ يُخَلِّصُ إلى أَنَّ الشَّاعِرَ يُنسَبُ إلى رِفَاعَةَ ولهذا يُنَعَت بـ: "الرِّفَاعِي"، ويُنسَبُ إلى جدِّه المُسمَّى أحمد الصَّيَّاد فيُنَعَت بـ: "الصَّيَّادي"؛ وقد أثبت للشَّاعِر ولعائِلَتِهِ النِّسْبَةَ "الحُسَيْنِيَّة" إلى آل البيت النَّبَوِيِّ جَمَلَةً من نُقباء الأشراف من زمان جدِّه أحمد الصَّيَّاد وصولًا إلى زمانه الذي عاش فيه أَيَّام السُّلطان عبد الحميد الثَّاني الذي وشَّى له شجرة نسبه مُصَادِقًا عليها بالطُّغراء السُّلطانيَّة العُثمانيَّة، وكثيرًا ما كان يعتزُّ بهذه النِّسبة ويسوق عدَدًا من شهادات هؤلاء النُّقباء في مصر والشَّام والعراق والحجاز،⁴¹ كما أثبت هذه النِّسبة الحُسَيْنِيَّة أهلُ عصره من المؤرِّخين كأحمد عزَّت باشا العُمريَّ⁴² (ت. 1310هـ/1892م) وحسن حسني باشا (ت. 1315هـ/1897م) الذي ألَّفَ كتابًا كاملاً

³⁹ يُنظر: محمد أبو الهدي الصَّيَّادي، الفرقان الدَّامغ بالحقِّ أباطيل أهل البهتان (مصر: مطبعة الهلال، 1324هـ/1906م)، 88.

⁴⁰ يُنظر: عزَّ الدِّين أحمد الواسطيِّ الفاروئي، التَّفحة المسكِيَّة في السُّلالة الرِّفَاعِيَّة الرُّكْبِيَّة (إستانبول: مطبعة محمد أسعد نومرو، 1301هـ/1883م)،

5؛ الصَّيَّادي، الفرقان، 25؛ حسن حسني، القول المُضلل، 32-33.

⁴¹ يُنظر: الصَّيَّادي، الفرقان، 50، 51، 52، 53، 54.

⁴² يُنظر: أحمد عزَّت باشا الموصليِّ العمري، العقود الجوهريَّة في مدائح الحضرة الرِّفَاعِيَّة (مصر: مطبعة محمد أفندي مصطفى، 1306هـ/1888م)،

3، 11.

في إثبات نسبه وفضله،⁴³ وعبد الرزاق البيطار وهو من قال في حقه: "الحسب الذي علا حسبه دُرُوة العُلا، والنسب الذي اشتهر نسبه بين المَلأ"، إلى أن قال عنه إنه "هُمام بن هُمام وهلم جراً لا تقف عند حدٍ حتى تصل إلى أشرف جدّ، فليس في نسبه إلا ذو فضلٍ وحلمٍ حتى تقف على باب مدينة العلم"،⁴⁴ وأثبت نسبته هذه الكاتب الثاني للسُلطان عبد الحميد الثاني عبد القادر بن نقيب الأشراف في حلب تقيّ الدّين آل القدسي (ت. 1309هـ/1892م) الذي كان يرى نسبه الحسينية من أصحّ النَّسب المشهورة إذ أفترتها نقابات الأشراف في جميع الجهات.⁴⁵

وقد نشأ أبو الهدى -حسب ما يذكر عن نفسه- في كنف والدِه نشأةً اجتماعيةً مُحترمةً، حيث حاز والدُه على قدرٍ من الاحترام بين القبائل العربيّة في تلك البليدة "خان شيخون"، إذ كان من المشايخ القائمين بمنهج التّصوف من خلال ما يُعرف حينئذٍ بالرّواية التي كان من الشّائع آنذاك أن يردّها الضّيوف ويأوي إليها المسافرون والغرباء من كلّ مكانٍ، ويقوم والدُه بخدمتهم وإكرامهم وذلك سيراً على حُطى أسلافه من الأشراف آل الصّيّاد، وقد كان لأبي الهدى أيضاً نصيبٌ من الاحترام في البيئة الاجتماعيّة في خان شيخون لا سيّما إذا عُرف أنّ أوّل وظيفةٍ رسميّةٍ قد وُجّهت إليه بقرارٍ من محكمة ولاية سوريا كانت التّولية على بلدة "خان شيخون" سنة (1285هـ/1868م) وهو لم يزل بعدُ في التّاسعة عشرة من عمره؛ ويبدو أنّ مكانته الاجتماعيّة المُحترمة لم تُكن بالمقصورة على بُليدته فحسب، بل كان مُحترماً في ما تعدّى حدودها من البلدان، وإذا ما التّمس تحقيقُ هذا الكلام، فمن المُمكن أن يكون الدّليل عليه ما وُجد مُثبتاً في ديوان شاعر العراق في ذلك الوقت عبد الغفّار بن عبد الواحد الأخرس (ت. 1290هـ/1873م) -وهو تلميذ مفتي العراق أبي النّناء

⁴³ يُنظر: حسن حسني، القول القُصّل، 21.

⁴⁴ يُنظر: البيطار، حلية البشر، 74.

⁴⁵ يُنظر: عبد القادر بن تقيّ الدّين القدسي الحلبي، الكوكب المنير في ترجمة الأستاذ أبي الهدى الشّهير (د.ت.ن)، 6.

الألوسي (ت. 1270هـ/1854م) -، فإنه قد امتدح أبا الهدي بقصيدة واصفاً إيَّاهُ فيها بأبي العلوم والكرم والهداية والمكانة العالية، ومدح مزياه التي تحلَّى بها من جمال الشيم ووُفُور الدِّين والشَّرَفِ الباذخ في الحلِّ والترحال، ثمَّ أعقبها بأنَّه فخورٌ به، فصيحٌ شعرُهُ بمدحِهِ ومدحِ أسرَتِهِ أحرسٌ عن مدح مَنْ سِوَاهُمْ، حيث تَضَمَّنَتْ قصيدته -التي نَظَمَهَا في استقباله لَمَّا قَدِمَ بغداد- قوله في تضاعيفها:

كأبي القَدرِ المُعلَّى والهَدي والنَّدى والعِلمِ مرفوعِ الذُّرا
يا كريمَ الطَّبعِ يا كنزَ التُّقى يا شَريفَ القَدرِ أنَّى حَضَرا
واقبل العبدَ مُحِبًّا خَالِصَ ال قَلْبِ لَا زَالَ بِكُمْ مُفْتَخِرًا
فهو عن مدحِ سِوَاكُمْ أحرسٌ وبُكُمْ أَفصحُ حِزْبِ الشُّعْرا⁴⁶

وقد أُرِخَتْ هذه القصيدة في ديوان الأخرس سنة (1283هـ/1866م) ويظهر من خلالها أنَّ أبا الهدي قد قصدَ بغداد في تلك السَّنة وهو في ربيعِهِ السَّابعِ عَشَرَ لزيارة أستاذه محمد مهدي بهاء الدِّين بن عليِّ الرُّدِّيِّ -الشَّهير بالرَّوَّاس- (ت. 1287هـ/1870م)؛ وفي هذه القصيدة شاهدٌ على شيءٍ من مكانته ومكانة أسرته في المُجتمَعِ الحلبِيِّ والعراقيِّ البغداديِّ آنذاك.

وما زالت مكانته تعلو بعد ذلك، فلم يقف ارتقاؤه في المراتب عند تولِّي خان شيخون فحَسَب، بل بعد تولَّيه لهذا المنصب بسنتين وبالتَّحديد سنة (1287هـ/1870م) تقلَّد منصب نقيب الأشراف في قضاء جسر الشُّغور التَّابع لولاية حلب ثمَّ تولَّى منصبَ القضاء فيها سنة (1289هـ/1872م)، ثمَّ تقلَّد منصب نقيب الأشراف في عموم ولاية حلب سنة (1291هـ/1874م) بمقتضى قَرَارٍ من نقيب الأشراف في عموم الدَّولة العثمانية، ثمَّ أُوكِلَ إليه بقرارٍ رسميٍّ النَّظَرُ في نقباء

⁴⁶ عبد الغفار بن عبد الواحد الأخرس، الطَّرَازُ الأنفس في شعر الأخرس (د.ت.ن)، 170، 171.

أشراف ولايات سورية وبغداد والبصرة وديار بكر وذلك في أواخر سنة (1292هـ/1875م) وعمره لم يتجاوز حينذاك السادسة والعشرين.⁴⁷

وممّا سبق ذكره فإنّه لِيُمْكِنُ القول: إنّ نشأة أبي الهدى الاجتماعية كانت نشأة ليست بالمهينة إطلاقاً؛ إذ إنّهُ رجلٌ ينتمي إلى أسرة ذات قدرٍ في نفوس مُجْتَمَعِ خان شيخون، فهي أسرة شريفة، كان لها من المُحِبِّينَ مَنْ هم خارج أسوار تلك البُلَيْدَةِ، والنَّسَبُ الحُسَيْنِيَّةُ أَسْبَعَتْ على أبي الهدى رونقاً جعله صاحبَ منصبٍ نقيب الأشراف، إضافةً إلى ما تَمَتَّعَتْ به ذاته من كريم الأخلاق ووفور تمسُّكِ بالدين، وإنَّ الإنصافَ ليستنطق المتأمل سائلاً: أيعقلُ أن يكون مدحُ شاعر العراق الأخرس لأبي الهدى مُجَرَّدَ كلامٍ مرصوفٍ؟ بل ما الذي كان ينتظرهُ الأخرس من شابٍ حَدَثَ لِمَدَحِهِ ويُنَبِّئني عليه؟ أم أنّ لأبي الهدى شأنًا مرموقًا عاليًا سبقهُ إلى العراق فلمَحْ لمن يتأمل تلك الأبيات؟

وقد كان من الطَّبِيعِيِّ أن يسيرَ أبو الهدى على نهج أسلافه ويتأثَّرَ بالجوِّ الصُّوفيِّ السَّائدِ في الدَّائِرَةِ القريبة التي عاش ضمنها، وهي بيتُ والدِه حسن وادي وزاويته التي كان أبو الهدى يقوم بخدمة ضيوفها -على اختلاف طبقاتهم- بنفسه؛ حيثُ يتحدَّثُ واصفاً نشأته هذه: "وقد شَبِّتُ في حجر الوالدين، مقبولَ الوجه والجاه، فإذا رآني الرَّائي الغريب في خان شيخون لم يكْدِ يتوسَّم أنِّي من أبناء ذلك الوطن، بل يحسبُ أنِّي مُسافرٌ من أعيان أبناء المُدُن الكبيرة العظيمة لحُسْنِ الثَّوبِ والحِشْمَةِ وكثرة ما لي في قلوبِ أهلِ وطني من الرِّعَايَةِ والحُرْمَةِ".⁴⁸

⁴⁷ يُنظَر: حرب، السُّلطان عبد الحميد، 189؛ الصِّيَّادِي، الفرقان، 10؛ الهلال، "السَّيِّد محمد أفندي أبو الهدى الصِّيَّادِي"، (1/يونيو/1893م)، 369.

⁴⁸ يُنظَر: الصِّيَّادِي، الفرقان، 10.

وإذا ما نَحَى الكلام منحى الحديث عن النَّشأة العلميَّة له، فَإِنَّهُ لِيَتَبَادَرُ إِلَى الْأُذْهَانِ مَا خَطَّهُ قَلَمُ أَبِي الْهَدَى مُتَرَجِّمًا طَرَفًا مِنْ نَشَأَتِهِ تِلْكَ حَيْثُ قَالَ: إِنَّهُ لَمَّا بَلَغَ عَامَهُ السَّادِسَ خَتَمَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ فِي ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ، ثُمَّ أَتَقَنَّ الْقُرْءَاتِ السَّبْعَ وَهُوَ لَمْ يَتَجَاوِزْ بَعْدُ رِبْعَهُ السَّابِعَ،⁴⁹ وَقَدْ ذَكَرَ أَنَّهُ تَعَلَّمَ التَّجْوِيدَ مُتَتَلِمًا فِي حَلْقَةِ شَيْخِ الْقُرَّاءِ فِي بَلَدَتِهِ الَّذِي ذَكَرَهُ بِاسْمِهِ "مَحْمُودُ بْنُ الْحَاجِّ طَهَ الْمَعَرِّيَّ" كَمَا ذَكَرَ أَنَّهُ تَعَلَّمَ عَلَى يَدَيْهِ الْخَطَّ الْعَرَبِيَّ، وَقَرَأَ عَلَيْهِ أَيْضًا فِي عِلْمِ النَّحْوِ مَتْنَ الْأَجْرُومِيَّةِ وَشَرَحَهَا لِخَالِدِ الْأَزْهَرِيِّ (ت. 905هـ/1499م)، وَفِي عِلْمِ الْفِقْهِ قَرَأَ عَلَيْهِ "مَتْنَ الْغَايَةِ وَالتَّقْرِيبِ" لِلْقَاضِي أَبِي شَجَاعٍ (ت. 500هـ/1106م) عَلَى الْمَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ، وَذَكَرَ أَنَّهُ تَتَلَمَذَ عَلَى أَسْتَاذٍ آخَرَ هُوَ "حَسَنُ الْفُتُوْحِيِّ الْجَنْدِيُّ" فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْفِقْهُ الشَّافِعِيَّ، ثُمَّ حَفِظَ عِدَدًا مِنَ الْمَتُونِ الْمَتَدَاوِلَةِ فِي بِلَادِهِ مِنْهَا أَلْفِيَّةُ ابْنِ مَالِكِ الْأَنْدَلُسِيِّ (ت. 672هـ/1274م) وَمِنْهَا أَلْفِيَّةُ "صَفْوَةُ الزَّيْدِ" لِأَحْمَدَ بْنِ أَرْسَلَانَ الرَّمْلِيِّ (ت. 844هـ/1440م)،⁵⁰ ثُمَّ تَوَسَّعَ فِي قِرَاءَةِ كُتُبِ الْفِقْهِ الْحَنْفِيِّ، أَمَّا كُتُبُ عِلْمِ الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ فَقَدْ تَعَمَّقَ فِي مُطَالَعَتِهَا، وَكَانَ نَصِيْبَهُ مِنْ حَفِظِ الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ النَّصِيْبَ الْوَافِرَ، يَقُولُ أَبُو الْهَدَى مُؤَكِّدًا ذَلِكَ: "وَحَفِظْتُ الْأَلُوفَ الْكَثِيرَةَ مِنْ أَحَادِيثِ صَاحِبِ الطَّلَعَةِ الْمُنِيرَةِ"، وَقَدْ ذَكَرَ أَنَّهُ تَنَقَّلَ بَيْنَ حِمَاةِ وَحَلَبٍ وَنَوَاحِي إِدْلَبَ وَجَسَرَ الشُّغُورِ أَثْنَاءَ طَلَبِهِ لِلْعِلْمِ،⁵¹ وَيَبْدُو أَنَّ دِرَاسَتَهُ لَمْ تَكُنْ لِيَتَقِفَ عِنْدَ ذَلِكَ الْقَدْرِ مِنَ الْعِلْمِ بَلْ تَابَعَ هَمْلَهُ مِنَ الْعِلْمِ الْآخَرَى، فَقَرَأَ كُتُبَ عِلْمِ الْكَلَامِ وَالتَّوْحِيدِ وَالتَّفْسِيرِ وَبَالِغَ - حَسَبَ قَوْلِهِ - فِي الْحِكْمَةِ النَّظَرِيَّةِ وَالْفَلَسَفَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالتَّصَوُّفِ وَالتَّارِيخِ وَعِلْمِ الْأَنْسَابِ.

⁴⁹ يُنْظَرُ: مُحَمَّدُ أَبُو الْهَدَى الصِّيَادِي، ضَوْءُ الشَّمْسِ فِي قَوْلِهِ نُبِيِّ الْإِسْلَامِ عَلَى خَمْسٍ، تَحْقِيقُ: مُحَمَّدٌ سَلِيمُ الْحَمَامِي، (دِمَشْقُ: الْمَطْبَعَةُ الْعِلْمِيَّةُ،

1394هـ/1974م)، 23/1.

⁵⁰ يُنْظَرُ: الْهَلَالُ، "السَّيِّدُ مُحَمَّدُ أَفْنَدِي أَبُو الْهَدَى الصِّيَادِي"، 371.

⁵¹ يُنْظَرُ: الصِّيَادِي، الْفَرْقَانُ، 9.

وقد أخذ أبو الهدى على عاتقه أن يسرد أسانيدَه المُتَّصِلَة إلى أمّهاتِ الكُتُبِ المُعْتَمَدَة في علوم التفسير والحديث والفقّه حيثُ عقّد فصلاً خاصّاً لهذا الأمر ذكر فيها إجازاته بأسانيدِها إلى مؤلّفي كتب التفسير "كالبحر المحيط لأبي حيّان الأندلسيّ (ت. 745هـ/1344م)، والدّر المنثور لجلال الدّين السيوطيّ (ت. 911هـ/1505م)، ومفاتيح الغيب لفخر الدّين الرّازي (ت. 605هـ/1210م)"، وغيرهم من المفسّرين، وكذلك ذكر إجازاته بكتب الحديث السّنة والمسانيد، وختمَ بذكر إجازاته بكتب الفقّه الحنفيّ والشافعي وكتب التّصوّف.⁵²

وإلى جانبِ هذا كُلِّهِ فقد كان لأبي الهدى اليدُ الطّولى بالاطّلاع على علوم اللّغة والمنطق والجدل والأدب وفنونه والبراعة فيها،⁵³ وقد ذُكِرَ في ترجمته أنّ محفوظاته الشّعريّة كانت تربو على مئة ألف بيتٍ من الشّعْر؛⁵⁴ فلا ريب أن يقول خير الدّين الزّركليّ (ت. 1396هـ/1976م) فيه: إنّهُ أشهر علماء الدّين في عصره، وأنّه من أذكى النّاس، وله إلمامٌ بالعلوم الإسلاميّة، ومعرفةٌ بالأدب، وأنّه كان صاحبَ ظَرْفٍ وتصوّفٍ،⁵⁵ ووافقَ الزّركليّ في كلامِهِ المُحدّث محمد عبد الحيّ الكيّانيّ (ت. 1382هـ/1962م) ونعته بـ: "أشهر علماء العرب" في إستانبول ذلك العصر،⁵⁶ وتابعه في هذا أدهم آل جنديّ فقد اعترف لأبي الهدى بحدّة الدّكاء وفصاحة اللّسان وخارق الدّهاء وشموخ العبقرية، بل إنّ الجنديّ لمّا أراد أن يثبت ترجمة أبي الهدى بين أعلام الأدب والفنّ ابتدأ ترجمته بالتعبير عن سروره بحسن الحظّ الذي حالّقه بأن يكتُب هذه الصّفحة المُشرقة من التّاريخ، ثمّ صدر كلامه بقوله:

⁵² يُنظر: الصّيّادي، الفرقان، 57.

⁵³ يُنظر: محمد أحمد درنيقة، معجم أعلام شعراء المديح النّبويّ (بيروت: دار ومكتبة الهلال، 2003م)، 343؛ الصّيّادي، الفرقان، 9.

⁵⁴ يُنظر: الهلال، "السّيّد محمد أفندي أبو الهدى الصّيّادي"، 371؛ الصّيّادي، ضوء الشّمس، 24/1.

⁵⁵ يُنظر: خير الدّين الزّركلي، الأعلام (بيروت: دار العلم للملايين، 2002م)، 94/6؛ وصاحب ظَرْفٍ بمعنى صاحب كياسة وفطنة، يُنظر: الجوهري، "ظرف"، 1398/4؛ ابن منظور، "ظرف"، 228/9.

⁵⁶ يُنظر، محمد عبد الحيّ الكيّانيّ، فهرس الفهارس، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1982م)، 163/1.

"إذا سألتني أن أصِفَ لكَ عواملَ السِّحرِ في نفسِهِ الوثَّابَةِ وخلاَبَةِ روحِهِ فقد كَلَّفَتْنِي شَطَطًا، ذلكَ هو موضِعُ الإعجازِ في مواهبهِ التي سَمَتَ بِهِ إلى أوجِ العُلا"، ثُمَّ تابَعَ الجُنْدِيُّ كلامَهُ عنه قائلاً: "كان عِصَامِيًّا خَلَقَ نَفْسَهُ بِمَوَاهِبِهِ الْقَدَّةَ، وَإِنِّي أُحْيِي فِيهِ الْعَبْقَرِيَّةَ الْمُتَوَثِّبَةَ لِلْعُلَا"،⁵⁷ وقد ذهبَ مُحَمَّدُ تَوْفِيقُ الْبَكْرِيُّ (ت. 1351هـ/1932م) مذهبًا بعيدَ الشَّأوَ مُبْرِزًا إعجابه بأبي الهُدَى فشَبَّهَهُ بعلمِهِ وحِكمِهِ وذِكاياه وأخلاقِهِ بأسماءَ لامِعَةٍ من العصورِ السَّالِفَةِ،⁵⁸ أمَّا زكي مُحَمَّدُ مجاهد (ت. 1400هـ/1980م) فقد وصَفَهُ بأنَّه "البحرُ الزَّاحِرُ في اللُّغةِ العربيَّةِ"،⁵⁹ ورَغِمَ أَنَّهُ أثبتَ إتقانَهُ لِلْغَتَيْنِ التُّرْكِيَّةِ والفارسيَّةِ حتَّى صارَ شاعرًا في كليهما، مع إلمامِهِ بالفرنسيَّةِ، إلَّا أنَّ كلامَهُ يحتاجُ إلى شيءٍ من التَّوَقُّفِ، إذ لم يُثبتْ هذه المعلومة أحدٌ غيره، ولم يَقمَ عليها دليلٌ لا في كلامِ أبي الهُدَى عن نَفْسِهِ، ولا في ما وصلت إليه الأيدي من آثارِ أبي الهُدَى.

وإنَّ مَنْ يُلقِي نظرةً على ما سَطَّرَتْهُ أُناملُ مَنْ تعرَّضَ لذكرِ طرفٍ من أخبارِ أبي الهُدَى على الرَّغْمِ من اختلافِ آرائِهِم ونظراتِهِم فيه بين مادِحٍ وقادِحٍ ومنجِدٍ ومُغَوِّرٍ، ليَكاذُ يَلَمَحُ شبهَ إجماعٍ منهم على الإقرار والاعتراف له بالذِّكاءِ الخارقِ والعَبْقَرِيَّةِ الْقَدَّةِ، وَسَعَةِ المَدَارِكِ، والفضلِ الجَمِّ.

2 المرحلة الثَّانية

إنَّ بدايةَ الطَّرِيقِ لمَعْرِفَةِ تفاصيلِ هذه المرحلةِ الثَّانيةِ من حياةِ الشَّاعرِ تستوجِبُ البَحْثَ في العِلاقَةِ الوطيدَةِ التي وُثِّقَتْ بين أبي الهُدَى والسُّلطانِ عبد الحميد الثَّاني؛ وهي عِلاقَةٌ تعودُ بالنَّظَرِ إلى

⁵⁷ يُنظَرُ: أدهم آل جندى، أعلام الأدب والفن (دمشق: مطبعة مجلَّة صوت سوريا، 1954م)، 310/1، 311.

⁵⁸ كالشَّعْبِيِّ والمُغِيرَةِ بن شُعْبَةَ والسُّمُوأل وغيرِهِم؛ يُنظَرُ: مُحَمَّدُ تَوْفِيقُ الْبَكْرِيُّ، صهاريج اللُّؤلؤ، تحقيق: أحمد بن أمين الشنقيطي - أبو بكر مُحَمَّد لطفِي المصري، (مصر: مطبعة الهلال، 1906م)، 40، 41.

⁵⁹ يُنظَرُ: زكي مُحَمَّد مجاهد، الأعلام الشَّرْقِيَّة في المِلَّةِ الرَّابِعَةِ الهِجْرِيَّةِ (مصر: مطبعة حجازي، 1955م)، 118/3.

أصل ارتباط أبي الهدى بالدولة العثمانية، فقد كان رجلاً معدوداً من رجالها قبل زمن السلطان عبد الحميد الثاني أصلاً، وقد تلقى عدة ترقية رسمية قبل أن يرتقي عبد الحميد الثاني العرش، ثم لم تزل الترقيات السلطانية العثمانية تنهال عليه بعد ارتقاء عبد الحميد وتوليّه السلطنة إلى آخر أيامه، "حيث كان قد حظي عند السلطان عبد الحميد بالقبول، حتى صار من كبار ثقافته، وقلّده مشيخة المشايخ، وكانت له الكلمة العليا عند السلطان في نصب القضاة والمفتين وذلك زهاء ثلاثين سنة".⁶⁰

وقد سبقت الإشارة في ترجمة أبي الهدى الرسمية التي نُشرت في مواضع عديدة من المؤلفات -بل حتى في بعض الجرائد الرسمية لما ذاع صيته- إلى أن أوّل وظيفة رسمية تقلدها كانت سنة (1285هـ/1868م) وهي تولّيه على بلدته خان شيخون، ويبدو أن هذه الوظيفة كانت "تُعطي لصاحب الثقة العمومية والمنزلة في القلوب"،⁶¹ ثم ما لبث أن ترقّى في منصب نقابة الأشراف، وإلى جانب هذا الترقّي كان عضواً لمجلس المعارف ومجلس التدقيقات الإدارية في ولاية حلب سنة (1292هـ/1875م) بموجب أمر الوزير أسعد مخلص باشا (ك.ح. 1293هـ/1876م) والي ولاية حلب الذي رأى فيه من النباهة والذكاء ما ليس في غيره من الشباب.⁶²

وفي هذه الفترة الممتدة منذ أن كان في التاسعة عشرة من عمره إلى الثامنة والعشرين، ظهرت بوضوح صلته بالدولة العثمانية، فهو رجلٌ من رجالها الذين لا يُجهلون؛ ويُضاف إلى ذلك كله أن السلطان عبد العزيز الأول كان قد منحه بموجب فرمانٍ عالٍ سنة (1289هـ/1872م) رتبة مولوية إزمير وسنه لم يتجاوز إذ ذاك ثلاثاً وعشرين سنة، كما منحه سنة (1292هـ/1875م) بمقتضى فرمانٍ عالٍ معاشاً خصوصياً مضافاً إلى معاشه الرسمي كنقيب الثقباء الأشراف في ولاية حلب؛ وكذلك قام

⁶⁰ يُنظر: درنيقة، معجم الأعلام، 343.

⁶¹ يُنظر: محمد أبو الهدى الصيّادي، التاريخ الأوحد (مصر: مطبعة المحروسة، د.ت)، 140.

⁶² يُنظر: الصيّادي، التاريخ الأوحد، 140.

الصَّدر الأعظم بتعيينه رئيسًا للقومسيون -اللجنة- الخصوصيِّ المُشكَّل لفضِّ النزاعات وحلِّ المشاكل بين المُزارعين وحسم الخلافات بين الأعيان وأكابر التُّجَّار، وتحدُّر الإشارة إلى أنَّ أبا الهدى في هذه الفترة كان قد زار إستانبول مرَّتين الأولى سنة (1287هـ/1870م) والثَّانية سنة (1291هـ/1874م).⁶³ وبحلول سنة (1294هـ/1876م) وُجِّهت إليه رتبة الحرمين الشَّريفيْن بموجب فرمان من السُّلطان عبد الحميد الثَّاني الذي لم يكن قد مضت على تسنُّمه سُدة السُّلطنة سنة واحدة بعدُ،⁶⁴ وفي تلك السَّنة كان أبو الهدى قد حطَّ رحالَه في إستانبول في مُهمَّةٍ متعلِّقةٍ ببعض مصالح نقابة الأشراف التي كان معنيًا بها، وفي أثناء تلك الزَّيارة دُعِيَ لِمُقابلةِ السُّلطان عبد الحميد، فمَثَلَ بين يديه للمرَّة الأولى، فكان أن أغدق السُّلطان عليه العطاء وقضى لَه حوائجَه، وطَلَب منه أن يحضِر لمقابَلَتِه مرَّةً أو مرَّتين في الأسبوع طَوال فترة إقامته في إستانبول.

ويبدو أنَّ هذا الشَّاب ذا الثَّامنة والعشرين ربيعًا قد مَلَأَ عَيْنَ السُّلطان الشَّاب عبد الحميد إعجابًا واستطاع أن يشدَّ اهتمامَه في تلك الإقامة اليسيرة التي قضاها في إستانبول، ويُمكن القول إنَّ هذا الإعجاب يُلَمَحُّ في موقف السُّلطان من أبي الهدى لَمَّا جاءه مُستأذِنًا في القُفُول والسَّفر إلى وطنِه حيثُ مَنَعَه من السَّفر والرُّجوع إلى حلب، وأمرَ بتنصيبه "رئيسًا لمجلس المشايخ في دار الخلافة" بمقتضى تذكرةٍ رسميَّةٍ حرَّرها شيخُ الإسلام في ذلك الوقت قرَّة خُليل أفندي (ت. 1297هـ/1880م).⁶⁵

وعلى الرَّغم من أنَّ التَّرجمة الرسميَّة لأبي الهدى ذكَّرت أنَّ اللِّقاء الأوَّل بالسُّلطان عبد الحميد الثَّاني كان عن طريق المُشير نافذ باشا (ك.ح. 1295هـ/1877م)،⁶⁶ إلَّا أنَّ دائرة المعارف الإسلاميَّة

⁶³ يُنظر: الصَّيَّادي، التَّاريخ الأوحد، 141.

⁶⁴ يُنظر: شيت طوفان بوزينار، "الصَّيَّادي"، موسوعة إسلاميَّة لوقف الدِّيانة التُّركي، (أنقرة: نشر وقف الدِّيانة التُّركي، 1989م)، 217/36.

⁶⁵ يُنظر: الصَّيَّادي، التَّاريخ الأوحد، 142.

⁶⁶ يُنظر: الصَّيَّادي، التَّاريخ الأوحد، 141.

التُرْكِيَّة أشارت إلى أنَّ المفتاح الذي دخل به أبو الهُدَى على القصر السُلطانيّ هو صديقه عبد القادر آل القدسيّ حفيد مفتي حلب محمّد آل القدسيّ، إذ أفادت أنَّ أبا الهُدَى أُقِيلَ من وظيفة نقابة الأشراف فسافر إلى إستانبول مع عبد القادر آل القدسيّ فكان سبباً في مثوله بين يدي السُلطان عبد الحميد الثّاني في القصر السُلطانيّ، وهذا اللّقاء هو الذي أتاح لأبي الهُدَى أن يتقلّد منصب رئاسة مجلس المشايخ في دار الخلافة،⁶⁷ ولعلّ مما يؤيّد هذا الرّأي بل يُرَجِّحُه على ما سواه، هو حال عبد القادر آل القدسيّ وما له من مكانةٍ أهْلَتْه أن يتسنّم العديد من المناصب المُهمّة في الدّولة العثمانيّة؛ فقد تقلّد منصب قائم مقام "غازي عنتاب" وكذلك "بره جيک"، كما تولّى منصب مفتّش العدليّة في ولاية "طرابزون"، وعيّن رئيساً لبلديّة ولاية حلب ونائباً في مجلس المبعوثان، إلى أن صار الكاتب الخامس ثمّ الثّاني في البلاط الملكيّ العثمانيّ،⁶⁸ مما يعني أنَّ عبد القادر آل القدسيّ رجلٌ ذو مكانةٍ وأهميّةٍ بالغةٍ في الدّولة تُؤهّله نوعاً ما لوصل من أراده برجال القصر السُلطانيّ بل وبالسُلطان نفسه، ولعلّ هذا هو الواقع الذي حصل بينه وبين أبي الهُدَى، فقد ذكر محمّد زكي مجاهد أنَّ القدسيّ قد ربطته صداقةٌ حميمةٌ ومودّةٌ صادقةٌ بأبي الهُدَى ملؤها الإخلاص والوفاء، ولذلك فلا يُجانب الصّواب إذا ما قيل: إنَّ للقدسيّ يداً لا تُنكر في فتح الباب أمام أبي الهُدَى في عاصمة السّلطنة العثمانيّة وتوطيده والتّعريف به لِكِبَرَاءِ رجالها.⁶⁹

وقد شاءت الأقدار أن تُتوفّي والدّة أبي الهُدَى في أواخر تلك السّنة فيستأذن أبو الهُدَى بالرجوع إلى حلب، لكنّه بعد إقامته في وطنه مدّةً لم تتجاوز أربعة أشهر ما لبث أن تلقّى رسالةً تلغرافيّةً بعث بها السُلطان عبد الحميد إلى والي حلب يستقدّم فيها أبا الهُدَى إلى إستانبول "مُعزّراً

⁶⁷ يُنظر: بوزينبار، "الصّبيّدي"، 217/36.

⁶⁸ يُنظر: مجاهد، الأعلام الشّرقية، 82/4.

⁶⁹ يُنظر: مجاهد، الأعلام الشّرقية، 82/4؛ محمّد راغب الطّبّاخ، إعلام النّبلاء بتاريخ حلب الشّهباء (حلب: دار القلم العربي، 1988م)، 411/7.

مُكْرَمًا مصطفىًا في عودته رَقِيمَ تَوْصِيَةٍ بالأمر العالي من الباشكاتب -رئيس الكُتّاب- في القصر
 بختم علي فؤاد بيك أفندي (ك.ح. 1295هـ/1877م) -أحد موظفي دائرة "المابين" في القصر
 السلطاني-،⁷⁰ حيث كان بعض الحاسدين قد أشاعَ حول غياب أبي الهدى الشائعات الكاذبة،⁷¹
 وبموجب هذا الاستقدام السلطاني عادَ أبو الهدى إلى إستانبول مُفارقًا وطنه وأهله وعشيرته إلى غير
 رجعة، حيثُ كان القدرُ قد خبأَ له أن لا يعودَ إلى وطنه مرةً أخرى بعد هذه الرحلة، وأن يقضي
 باقي حياته -التي امتدت أكثر من ثلاثين عامًا- في إستانبول، وليكون ألمع الشخصيات التي كانت
 بجانب السلطان عبد الحميد⁷² وأقرب الرجال التي نالت الحظوة الكبيرة عنده.⁷³

وفي بداية هذا القدوم الأخير إلى إستانبول أنزلَ السلطان أبا الهدى ضيفًا في بيت عثمان
 بيك أفندي (ك.ح. 1295هـ/1877م) -أحد موظفي دائرة "المابين" في القصر-، ثمَّ خصَّصَ له منزلًا
 خاصًا به وأمرَ باستقدام أسرتِه من حلب إليه؛ ثمَّ بدأت بعد ذلك مرحلة الالتصاق الحقيقي بين أبي
 الهدى والسلطان؛⁷⁴ فلم يزل يرتقي من رتبة إلى رتبة أعلى ومن تكريم إلى آخر بعضها العلمي والآخر
 شرفي، ويتقلد أرفع النياشين -الأوسمة- في الدولة العثمانية؛ ويحسُن ذكرُ هذه النياشين والرُتب التي
 حصلَ عليها مُؤرَّخةً بالسنة التي أُعطيها فيها، بالترتيب:⁷⁵

1) رتبة إستانبول الرفيعة (1296هـ/1879م)

⁷⁰ يُنظر: بوزينار، "الصِّيادي"، 217/36.

⁷¹ يُنظر: الصِّيادي، التاريخ الأوحَد، 142؛ الطويراني، القول الفصل، 45.

⁷² يُنظر: محمد إلهامي (تحرير)، السلطان عبد الحميد الثاني في المذاكرة العربية، (إستانبول: دار الأصول العلمية، 2019م)، 400/1.

⁷³ يُنظر: ماري دكران سركو، دمشق في فترة السلطان عبد الحميد الثاني (دمشق: منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، 2010م)، 29.

⁷⁴ يُنظر: الصِّيادي، التاريخ الأوحَد، 142؛ الطويراني، القول الفصل، 45.

⁷⁵ يُنظر: "الترجمة الرسمية"، الصِّيادي، التاريخ الأوحَد، 142، 143، 144؛ بوزينار، "الصِّيادي"، 217/36؛ آل جندي، أعلام الأدب والفن،

(2) النيشان المجيدي الثاني (1296هـ/1879م)

(3) قاضي عسكر أناضولي (1296هـ/1879م)⁷⁶

(4) النيشان المجيدي الأول (1296هـ/1879م)

(5) النيشان العثماني الثاني (1298هـ/1881م)

(6) قاضي عسكر الرؤملي (1302هـ/1884م)⁷⁷

(7) النيشان العثماني الأول (1303هـ/1885م)

(8) ميدالية الامتياز الذهبية والفضية (1305هـ/1887م)

(9) النيشان العثماني المُرصع (1306هـ/1888م)

(10) ميدالية اللياقة الذهبية (1306هـ/1888م)

(11) نيشان الافتخار المُرصع (1313هـ/1895م)

⁷⁶ من الرتب العلمية المرموقة التي يُخاطبُ صاحبها رسميًا بأسمى ألقاب التعظيم والتفخيم مثل "سيدى صاحب السّاحة"، ويُشترطُ لحيازَة هذه الرتبة أن يكون الرجلُ ضليعًا بالفقه وعلوم الشريعة ومُتصِفًا بالنزاهة والاستقامة، وتقوم الدولةُ بسدادِ كافةِ احتياجاته المادية، وقاضي عسكر الأناضولي هو من يتولّى عدّة مهام منها مُهمّة تنصيب القضاة والأئمة والمفتين والفصل في القضايا الوقفية والتركات في الولايات العثمانية الممتدة في عموم آسيا ومصر، إضافةً إلى كونه عضوًا في مجلس كبار السياسيين الإداريين في الديوان الملكي السلطاني "ديوان همايون"؛ يُنظر: مصطفى بركات، *الأنقاب والوظائف العثمانية* (القاهرة: دار غريب، 2000م)، 134، 137-139؛ محمد إشبيري، "قاضي عسكر"، *موسوعة إسلامية لوقف الديانة التركية*، (أنقرة: نشر وقف الديانة التركي، 1989م)، 140/25-142؛ أحمد موجو، "ديوان همايون"، *موسوعة إسلامية لوقف الديانة التركية*، (أنقرة: نشر وقف الديانة التركي، 1989م)، 430/9-432.

⁷⁷ يتولّى صاحب هذه الرتبة ذات المهام الموكلة لقاضي عسكر الأناضولي، ولكن قراراتها تخص الولايات العثمانية في أوروبا، وقد كان الجهاز القضائي العثماني العام تحت إشراف قاضي العسكر -الرؤملي والأناضولي- وشيخ الإسلام، يُنظر: بركات، *الوظائف العثمانية*، 137؛ عوض، *الإدارة العثمانية*، 111.

ولم تكن هذه النياشين أو الميداليات مقصورةً على أبي الهدى وحده بل تعدّته لتشمل أفراداً ممن قدم إليه من عائلته إلى إستانبول؛⁷⁸ وإلى جانب هذا كله تجدر الإشارة إلى أنّ أبا الهدى منذ أن قدّم إستانبول كان قد باشر نشاطاتٍ علميّةٍ في التدريس والتأليف، ففي سنة (1296هـ/1879م) كان قد تلقى الأمر من السلطان عبد الحميد بتدريس مادّة العقائد وشروحها ومادّة الحديث النبوي بحضور السلطان لهذه الدروس بصورةٍ خصوصيّةٍ،⁷⁹ كما انتدب لتدريس الأمراء العثمانيين -شهادة- أركان العلوم الشرعيّة سنة (1300هـ/1883م)، وانتدب سنة (1301هـ/1883م) لتأليف بعض الكتب الشرعيّة فأتمّ تأليفها خلال سنةٍ واحدةٍ، وعلى ضوء هذا الجهد العلميّ نال رتبة قاضي عسكر الرّوملي، وكان قد ترأّس سنة (1304هـ/1886م) اللجنة العلميّة في القصر لفحص بعض الشؤون العلميّة الشرعيّة.⁸⁰

وقد كانت شخصيّة السلطان عبد الحميد الثّاني وما حازّه من نظرةٍ سياسيّةٍ ثابتةٍ محطّ انتباهٍ لافتٍ لكلّ من أمعن النّظر فيها، وقد أشار الدكتور سيف الله أرباجي إلى أنّ المسيرة التي سار بها السلطان عبد الحميد الثّاني في سياسته للدولة يُمكن أن تُلخّص بأنّها ربطٌ لكلّ أمور الدولة على اختلاف شؤوناتها بالقصر السّاكن فيه، ليُمسك بكلّ مقاليد السّلطنة في يده، ويُدير الدولة من وراء جدران ذلك القصر، فكان يحرص على أن يُحيط بكلّ شاردةٍ وواردةٍ، حتى أنّه "كان يطّلع بنفسه على السيرة الدّاتيّة لكلّ موظّفٍ مطلوبٍ تعيينه وإذا لم ترقّه يرفض تعيينه"، كما أنّه كان "يسأل عن

⁷⁸ منهم نجله حسن خالد، وأخوه عبد الرزّاق ونور الدين، وصهره سيف الدين الكيلاني، يُنظر: الطويراني، القول القُصّل، 48؛ عبد العزيز العظمة،

مرآة السّام تاريخ دمشق وأهلها، تحقيق: نجدة فتحي صفوة، (لندن: رياض الرّيس للكتب والنّشر، 1987م)، 151.

⁷⁹ يُنظر: الصّيّادي، التّاريخ الأوحد، 142.

⁸⁰ يُنظر: الصّيّادي، التّاريخ الأوحد، 143، 144.

كلّ شيءٍ ويُدَقَّق في طباع كلّ شخصٍ، وكان أصحابُ الكفاءة يحظونَ باعتماده أكثرَ من الآخرين".⁸¹

وإذا ما استصحب الذّهنُ هذه العقليّة الحميديّة في تقديم وتأخير الشّخصيّات من حوله؛ فلا بُدَّ أن يلمَحَ مما سبقت الإشارة إليه الثّقّة التي أولاها السُّلطان لأبي الهدى داخلَ هذا القصر الذي رُبّطت به كلّ شؤونات الدّولة، ومما يُؤكِّدُ هذه الثّقّة أنّ السُّلطان عبد الحميد كان قد خصَّصَ منزلاً خاصّاً قريباً من القصر لينتقلَ إليه أبو الهدى ويسكنَ فيه،⁸² وليكونَ هذا المنزل في ما بعد هو المأوى لكبار الوجهاء من ضيوف السُّلطان، وعلى وجه الخصوص العرب منهم، وقد أشارت ابنة السُّلطان عبد الحميد الأميرة عائشة عثمان أوغلو (ت. 1380هـ/1960م) إلى تقدير والدها لذكاء أبي الهدى واعتماده عليه في الشُّؤون السِّياسيّة الخاصّة بالعرب،⁸³ حيث كان أبو الهدى دائماً بقرب السُّلطان وإلى جانبه في مواقفه⁸⁴ إلى أن لُقِّبَ بـ: "مُسْتَشَار الملك"؛⁸⁵ ولم يُخفِ السُّلطان في مُذَكِّراته تقديره لأبي الهدى بأنّه "الحلّي الذي يلقي الاحترام في كلّ البلاد العربيّة"⁸⁶ وليس فقط داخل أسوار القصر السُّلطانيّ.

ومن الممكن القول إنّ من أهمّ الجوامع التي جمعت بين الرّجلين التّقاربُ العمريّ بينهما،⁸⁷ إضافةً إلى القواسم الفكرية والروحيّة، والتطلّعات المُشتركة بين الشّخصيّتين، فالسُّلطان عبد الحميد

⁸¹ يُنظر: أرباجي، السُّلطان عبد الحميد، 77، 78.

⁸² يُنظر: بوزينار، "الصّيادي"، 217/36.

⁸³ يُنظر: الأميرة عائشة عثمان أوغلو، والدي السُّلطان عبد الحميد الثّاني، مترجم: صالح سعداوي الصّالح، (عمّان: دار البشير، 1991م)، 81.

⁸⁴ يُنظر: أرباجي، السُّلطان عبد الحميد، 76.

⁸⁵ يُنظر: حرب، السُّلطان عبد الحميد، 189.

⁸⁶ يُنظر: حرب، مذكّرات عبد الحميد، 148.

⁸⁷ ولادة السلطان 1842 ولادة أبي الهدى 1849.

بعد ارتقائه لعرش السلطنة أخذ على عاتقه النهوض بجسد الدولة العثمانية المنهك، عبر ما سمّاه الدكتور محمد حرب "الاتجاه إلى داخل الأمة لإصلاح الدولة"، وذلك بتجميع المسلمين ضمن حركة واحدة يقودها شعور إسلامي موحّد في كلّ البلاد الإسلامية يواجه أطماع الأعداء المتربّسين بالدولة العثمانية،⁸⁸ وهي الرؤية التي صرّح بها السلطان بقوله: "إنّ الإسلام هو القوة الوحيدة التي تجعلنا أقوياء"،⁸⁹ ولم يفهم المعسكر الأوربي هذه الرؤية إلا بالهجمة المضادة حيث رأوا في عبد الحميد أنّه "كان يهدف من سياسته الإسلامية إلى تجميع مسلمي العالم تحت راية واحدة، وهذا لا يعني إلا هجمة مضادة يقوم بها المسلمون ضدّ هجمة العالم الغربي التي استهدفت عالم المسلمين".⁹⁰

ولم يكن تسليط الضوء على هذه الرؤية السياسية الإسلامية التي تحرك عبد الحميد لتحقيقها في فكرة "الجامعة الإسلامية"، إلا لإبراز حقيقة إيمان أبي الهدى بالفكرة ذاتها، بل وتصديده لأن يكون من أخلص الصادقين لتحقيق أهداف هذه الرؤية، فقد كان "المستشار الأول للسلطان في تنظيم أمور حركة الجامعة الإسلامية" بل ورئيس اللجنة المركزية لهذا المشروع التي يُشرف عليها مباشرة السلطان عبد الحميد.⁹¹

لكنّ ما يسترعي الانتباه هو أنّ تلك المكانة العالية وهذا القرب الشديد من السلطان لم يكونا كفيّلين بجعل حياة أبي الهدى هانئة خالية من الهموم والأكدار، بل على العكس تمامًا، فإلى جانب سياط الغربة التي كان يكتوي بنيرانها بعيدًا عن والده وقومه ووطنه، فقد رُمي بحراب أعداء السلطان

⁸⁸ حرب، السلطان عبد الحميد، 169.

⁸⁹ حرب، مذكرات عبد الحميد، 31.

⁹⁰ يُنظر: حرب، السلطان عبد الحميد، 169؛ إحسان ثريّا صيرما، السلطان عبد الحميد الثاني وسياسة الجامعة الإسلامية، مترجم: كمال أحمد خوجة، (pdf: د.ت.ن)، 34.

⁹¹ حرب، السلطان عبد الحميد، 190.

عبد الحميد الثاني وكيّلت له أقذع التُّهم والشتائم من ذات القوس التي رمت السُّلطان بِسِهامِها، فهو بنظرٍ خصومه نصيرُ الاستبداد وخائن القومية العربية، ولم يكن منشأ كل تلك الاتِّهامات إلا الحسد،⁹² ويرى الدكتور محمد حرب أنَّ العُصص التي تجرّعها أبو الهدى من حملات التَّشويه وسيل الاتِّهامات أكثرها من تلفيق بعض أبناء وطنه الحاسدين له بسبب ما وصل إليه، وبعضها لا تخرج عن نطاق النزاعات الأسرية التي استعرت نارها في حلب تلك الفترة.⁹³

ولمّا مرضَ في أيَّامه الأخيرة بمرض القلب لازم البيت ولم يخرج منه مُدَّة من الزَّمن فلجَّت خصومُه وحُسادُه بالإشاعة -فريّة- أنَّه قد عقد العزم على مُغادرة البلاد العثمانية واللَّجوء إلى بلادٍ أخرى وترك السُّلطان عبد الحميد، فما كان منه إلا أن كتبَ مقالة نُشرت في الجرائد الرِّسميّة بعنوان "الخائن الخائف"، أعلنَ فيها عن استمرارية مُساندته للدولة العثمانية ووقوفه إلى جانب السُّلطان عبد الحميد، واستعدادِه لأيِّ مُساءلة أو تحقيق، فأوقفَ فترةً وجيزةً مع ولده حسن خالد (ت. 1355هـ/1936م) ثم أطلقَ سراحهما لمّا ثبتَ بشكلٍ قطعيٍّ براءتهما من التُّهم التي وُجِّهت إليهما؛⁹⁴ ومما تجدر الإشارة إليه أنَّه لمّا وصلت أيدي الاتحاد المُعارض للسُّلطان عبد الحميد إلى مخازن السُّلطان الخاصّة ومُحافظِ أوراقِه تبيَّن لهم عكس ما كانوا يظنُّونه من التُّهم التي رَمَوْا بها شخصَ أبي الهدى، بل وجدوا في بعض تلك المُحافظِ "أوراقاً كلّها تخوِّف السُّلطان من بطش الله تعالى، وتحذِّره من سوء العواقب في أثناء عَرَضِه له إزالة بعض المظالم"،⁹⁵ وبذلك يكونُ الزَّمن قد قَشَعَ عِجاجة الاتِّهامات الوهميّة عن حقيقته النَّاصِعة فأبانت أنَّه كان مُخلصاً ناصِحاً أميناً للسُّلطان طيلة ثلاثين

⁹² يُنظر: بوزينار، "الصِّيادي"، 217/36.

⁹³ يُنظر: حرب، السُّلطان عبد الحميد، 190.

⁹⁴ آل جندي، أعلام الأدب والفن، 312/1.

⁹⁵ إبراهيم محمد الرّاوي، بلوغ الأرب في ترجمة السيد الشَّيخ رجب وذريته أهل الحسب (بيروت: مطبعة جريدة الإقبال، 1330هـ/1912م)، 88.

عامًا "لم يُخاطبه في مدّة اتّصاله إلّا بما فيه نفع الأمّة والدّولة ورعاياها"؛⁹⁶ ولم يزل هذا دأبه مع السّلطان طوال تلك المدّة التي أمضاها في إستانبول.

وبعد إعلان الدّستور العثمانيّ الجديد وقبل نزول السّلطان عبد الحميد عن العرش بفترة وجيزة اشتدّت وطأة المرض على أبي الهُدَى بعد مُغادرته إستانبول إلى جزيرة الأمراء، وداهمه فيها مرضُ الاستسقاء، فعاجله الأجل لست ليالٍ خلّت من ربيع الأوّل سنة (1327هـ/1909م)، وواراه الثّرى في "بشكطاش" بمدينة إستانبول؛ وقد سُطّرت في رثائه المراثي، ومن أشهرها قصيدة إبراهيم بن محمّد الرّاويّ العراقيّ (ت. 1365هـ/1946م) التي قال في مطلعها:

تعالوا بنا نذري الدّموع الجوّاريا وننشُد في هذا المُصابِ المَراثيا
مُصابٌ أصابَ الدّينَ غاربٌ⁹⁷ سهمه ففرّح منّا بالدّموعِ المَاقيا⁹⁸
وذلك فقدُ الفضلِ فقدُ أبي الهُدَى على مثله فليبك من كانَ باكيًا⁹⁹

ولعلّ من أحزّ ما قيل في رثائه قولُ الشّاعر الطّرابلسيّ عبد الحميد الرّافعيّ (ت. 1350هـ/1932م) من مرثية فيه طويلة:

ورُبّ صُدورٍ لو تُعاضُ عن الثّرى لما كانَ إلّا في الصّدورِ قبورها
خَليليّ هل بعدَ الإمامِ أبي الهُدَى يَباتُ سَخِينُ العينِ وهو قَريّها
مَضَى العَلَمُ المنشورُ للرّشدِ وانطوت سَمَواتُ فضلٍ غابَ عنها مُنيرُها

⁹⁶ يُنظر: حرب، السّلطان عبد الحميد، 190.

⁹⁷ الغارب هو القسم الأعلى من كلّ شيء، يُنظر: ابن منظور، "غرب"، 644/1.

⁹⁸ جمع واحدُه موقٌ وهو مؤخّر العين وقيل مقدّمها، يُنظر: ابن منظور، "مأق"، 235/10.

⁹⁹ الرّاوي، بلوغ الأرب، 95.

مَضَى الْعِلْمُ¹⁰⁰ الْمَقْصُودُ لِلْعِلْمِ وَالنَّدَى إِذَا اشْتَدَّ بِالْهِيمِ¹⁰¹ الْعِطَاشِ حُرُورُهَا¹⁰²
لَقَدْ أَدْهَشَ الدُّنْيَا سَنَاهُ وَإِنْ تَكُنْ أُمِيلَتْ عَلَى بَعْضِ الْعَيُونِ سَتُورُهَا¹⁰³
وَبَعْدَ مُضَيِّ ثَلَاثَةِ عَقُودٍ عَلَى دَفْنِهِ فِي إِسْتَانْبُولِ نُقِلَ جَثْمَانُهُ إِلَى وَطَنِهِ - حَلَبَ - لِيُدْفَنَ فِي بَيْتِ عَائِلَتِهِ
الصِّيَادِيَّةِ الَّذِي لَا يَزَالُ إِلَى يَوْمِ النَّاسِ هَذَا مَقَرًّا لِلدَّائِرَةِ الرَّسْمِيَّةِ لِلْإِفْتَاءِ فِي مَدِينَةِ حَلَبِ السُّورِيَّةِ.¹⁰⁴



¹⁰⁰ البحر، يُنْظَرُ: ابن منظور، "علم"، 421/12.

¹⁰¹ جمعٌ وَاحِدُهُ أَهِيْمٌ وَهِيْمَاءٌ وَيَعْنِي بِهِ الْعَطْشَى، يُنْظَرُ: ابن منظور، "قنس"، 183/6.

¹⁰² هِيَ الرِّيحُ الْحَارَّةُ الَّتِي تَهْبُ فِي اللَّيْلِ فَتَكُونُ كَالسَّمُومِ فِي النَّهَارِ، يُنْظَرُ: ابن منظور، "حرر"، 177/4.

¹⁰³ الرَّأْوِي، بَلُوغُ الْأَرْبِ، 95.

¹⁰⁴ يُنْظَرُ: آل جندى، أعلام الأدب والفن، 313/1؛ الرَّأْوِي، بَلُوغُ الْأَرْبِ، 88.

المبحث الثاني: آثاره العلميّة ودواوينه

لم يزل دأبُ العلم وأهله وشأنُ الأدبِ والتّاهلين من كاسِه الانكباب على معينِ القراءة والإبحار في محيطِ الكُتب والمُصنّفات مُطالعين لها تارةً ومنقّحين ما حَبَّتْهُ ثناياها تارةً أخرى، ولربّما انشئوا لنشر ما انقَدَحَ في أذهانهم من دُرر الأفكار أو جواهر الأشعار لِيُزَيَّنُوا بها الطُّروس؛ فكانت أعمارهم القصيرة جَمْعًا لسيولٍ من الإنتاجِ فكريًا وأدبًا وعلمًا، ويشهدُ لذلك ما سَطَّرَ في صحائفِ تراجمهم قديمًا وحديثًا، فقد بَلَغَ أبو الوفاء ابن عقيلٍ الحنبليّ (ت. 513هـ/1119م) في كتابٍ واحدٍ -وهو كتاب الفنون- ثمانمئةً مجلّدةً¹⁰⁵ سوى ما كتبه من المؤلّفات الأخرى، ولمّا قُسمَت مؤلّفات مُحيي الدّين يحيى بن شَرَفِ التَّوَوِيّ (ت. 676هـ/1277م) على سِنِّي عُمره منذ ولادته إلى وفاته كان نصيب كلِّ يومٍ تأليفُ كُرّاسَيْنِ،¹⁰⁶ ولم يخلُ من هذا الحال المُتأخّرون المعاصرون لزمان أبي الهُدَى كعبد الحيّ اللّكنويّ (ت. 1304هـ/1886م) الذي ألّف أكثرَ من مئةٍ مؤلّفٍ، وكذلك مَنْ جاء بعد أبي الهُدَى كأشرفُ التّهانويّ (ت. 1362هـ/1943م) الذي رَبَتَ مؤلّفاته على ألفٍ مؤلّفٍ؛¹⁰⁷ وهذا كُلهُ باغتنام الأوقات والحرص على ملئها بما ينفع.

ويبدو للتّناظر في سيرة أبي الهُدَى أنّه مَنَّ سارَ على هذا المنوال، ولعلَّ عاملاً الغربة والبعد عن مَرايحِ الوطنِ وديارِ الأهل، كانا من العوامل المُهمّة التي جعلته يتّجه بقوةٍ إلى العلم والأدب مُطالعًا ومؤلّفًا، وناظرًا وناظرًا، ولم يكن وجوده في قلب عاصمة الدُّنيا -إستانبول- ولا جماها السّاحر بأخذٍ لِنَبِيّه ولا بصارفٍ لَهُ عن العلم والأدب على الرّغم من تمام قِيامِهِ بالوظائف الرّسميّة التي أُنيطت به، وها هو ذا يَصِفُ بلسانه حاله الذي استمرَّ عليه منذُ قدومه إلى إستانبول قائلاً: "إِنِّي وَلِلّهِ الْفَضْلُ وَالْمِنَّةُ

¹⁰⁵ يُنظر: زين الدّين بن رجب الحنبليّ، ذيل طبقات الحنابلة، تحقيق: عبد الرّحمن العبيكان، (الرياض: مكتبة العبيكان، 2005م)، 345/1.

¹⁰⁶ يُنظر: عبد الغني النّقر، الإمام التّوويّ (دمشق: دار القلم، 1994م)، 157.

¹⁰⁷ يُنظر: عبد الفتّاح أبو غُدّة، قيمة الزّمن عند العلماء (حلب: مكتب المطبوعات الإسلاميّة، د.ت.ن)، 82.

لم أتقيد بحب طعامٍ أو شرابٍ ولم أذكرُ أني تشهيتُ أو طلبتُ طعامًا وتمنيتُ، بل أنا على سيرتي في وطني، ولم أُقيد همّي للنوم والقيام بوطاءٍ ليلٍ وغطاءٍ جميلٍ، وأمضيتُ السنين العديدة وها أنا لم أخرج من بيتي لا لسوقٍ ولا لمنتزهٍ ولا لمحلٍ فُرجةٍ، بل حديقةً نظري الكتبُ، أقرأ وأكتبُ تصنيفًا وتأليفًا، وأنظم الشعرَ وأرصعُ الصّحائف بالنثر"؛¹⁰⁸ فإذا كان هذا وصفُ الرَّجل لحاله فلا غرو من أن يغزُر نتاجُ قلمه فيرو على مئتي عنوانٍ نشرَ طيها في علومٍ شتى من تفسيرٍ وحديثٍ وفقهٍ وعقيدةٍ وتاريخٍ وأنسابٍ وحكمةٍ وتصوّفٍ وأدبٍ منثورٍ ومنظومٍ، ولا يبعدُ عن الصّوابِ إذا ما قُسمت عموم تلك العُنوانات على قسمين: علميٍّ وأدبيٍّ.

1 آثاره العلميّة

إنَّ الرّاعبَ في الاطّلاعِ على نتاجِ هذا الرَّجل سيصطدمُ بيدِ الفقدِ والضّيعِ التي أتت بتغيبِ غالبِ تلكِ المؤلّفات بسببِ الحقبة التي مرّت بطروفها القاسية على السُّلطان عبد الحميد الثّاني ومن كان مُلتصِفًا به من حاشيته، ولم يبقَ من تلك الآثار العلميّة والأدبيّة إلا ما سمحت الأيّام بحفظه في مديريّة المتاحف والمكتبات ببلديّة إستانبول الكبرى أو على رفوفِ المكتبات الوطنيّة والجامعات العالميّة الأجنبيّة.¹⁰⁹

ومن حسنِ الطّالع أن ذاكرة الأيّام قد احتفظت بتلك العناوين، وذلك من خلالِ كتابٍ لأبي الهُدَى مُسمّى بـ: "خُلاصة البيان في حُكم نوع الإنسان" طُبِعَ في حياته -وبالتّحديد قبل عامٍ من

¹⁰⁸ يُنظر: الصّبيّادي، الفرقان، 96.

¹⁰⁹ يُنظر: آل جندي، أعلام الأدب والفن، 313/1؛ وقد وجدَ بعضُ من مؤلّفاته مخطوطاً أو مُصَوَّراً عن المطبوع في: المكتبة الوطنيّة الفرنسيّة، والمتحف البريطانيّ، والمكتبة البريطانيّة، ومكتبة برلين، ومكتبة أوقاف حلب، ومكتبة الكونغرس الأمريكيّ، ومكاتب جامعات هارفرد وبرنستون وميشيغان والينيوي بأمريكا، وجامعة ليدن بهولندا، وجامعة الإمام محمّد بن سعود بالرياض، والجامعة الأمريكيّة ببيروت، والجامعة الإسلاميّة بالمدينة المنورة، ومكتبة أسعد أفندي، ومكتبة دار الكتب القطريّة، والمكتبة التّيموريّة، والمكتبة الطّاهريّة بدمشق، ومكتبة الإسكندريّة.

وفاته - سنة (1326هـ/1908م) بمطبعة كلمة الحق في مدينة إستانبول، وقد وصلت يدُ البحث إلى هذا الكتاب فألفته مُترجماً إلى اللغة العثمانية عن الأصل العربي المطبوع بمصر سنة (1321هـ/1903م)، وقد سُردت في صدر صفحاته عنوانات مؤلفات أبي الهدى المخطوط منها والمطبوع إلى ذلك الحين، مُرتبةً على مجموعات حسب الإطار العام الذي كُتبت ضمنه في التفسير أو الحديث أو الفقه أو التصوف وتجاوزت تلك العناوين مئة عنوان¹¹⁰ ولم يكن رصد تلك المؤلفات مقصوراً على الكتاب المذكور آنفاً، فقد سُرد طرّف منها في نهاية ديوانه الدر المنتظم المطبوع سنة (1322هـ/1904م) وأشير فيه إلى أن أكثر تلك المؤلفات قد طُبِع،¹¹¹ وقد ذكر طرفاً من مؤلفاته مُعاصره إبراهيم بن محمد الراوي العراقي،¹¹² ويوسف إليان سركيس (ت. 1351هـ/1932م)،¹¹³ وأفاد محمد بن عمر الحريري (ت. 1330هـ/1912م) أن مؤلفات أبي الهدى قد "حرّز أكثرها الطبع"،¹¹⁴ وربما عادَ هذا إلى موقع أبي الهدى ومكانته في قلب عاصمة الدولة العثمانية إستانبول حاضرة الثقافة والعلم آنذاك، وما توفّر فيها من كُتُب أثرية، وحُصّ بذلك المكتبات السلطانية العثمانية العامرة بما أُهدى ويُهدى إليها من آثار العلماء من شتى أصقاع المعمورة؛ إضافةً إلى وجود المطابع الوفيرة فيها، التي كان لها بفضل مساعيه دور كبير في إصدار العديد من الكتب العربية الثمينة.¹¹⁵

¹¹⁰ يُنظر: محمد أبو الهدى الصيّادي، خلاصة البيان في حكم نوع الإنسان (إستانبول: مطبعة كلمة الحق، 1326هـ/1908م)، 22.

¹¹¹ محمد أبو الهدى الصيّادي، ديوان الدر المنتظم مختصر براهين الحكيم (د.ن، 1326هـ/1908م)، 302؛ المؤلف نفسه، ديوان الرّوض البسيم، (د.ن، 1322هـ/1904م)، 75-76.

¹¹² يُنظر: الراوي، بلوغ الأرب، 82.

¹¹³ يُنظر: يوسف إليان موسى سركيس، معجم المطبوعات العربية والمُعَرّبة (مصر: مطبعة سركيس، 1346هـ/1928م)، 355/1.

¹¹⁴ يُنظر: محمد بن عمر الحريري، نتيجة المفاخر في أخبار بني رفاعه السادة الأكابر (ميشيغان: مكتبة جامعة ميشيغان، Puplic Domain، 595)، 79.

¹¹⁵ يُنظر: صوت الشعب، "الحسيب النسيب أبو الهدى الصيّادي"، (5/كانون الأول/1931م)، 1.

ومن الجدير بالذكر أنَّ من أهمِّ الكتب التي خطَّها قلم أبي الهُدَى كتابان مُهمَّان نال كُلُّ منهما فائقَ عنايةٍ وعظيمَ أثرٍ لَمَّا رأى النورَ لأوَّلَ مرَّةٍ وتلقَّته الأيدي في المُجتمَع آنذاك.

أمَّا الأوَّلُ فهو الكتاب الموسوم بـ: "داعي الرِّشاد لسبيل الاتِّحاد والانقياد" وفيه يلحج النَّاطِرُ كَوْنَ أبي الهُدَى في قلب الحَدَثِ السِّيَاسِيِّ في تلك الأيَّام الحميدِيَّة التي عَطَّلَ في أَثنائها السُّلطان عبد الحميد المجلس النِّيابيَّ العثمانيَّ -مجلس المبعوثان- وسبقَ ذلك أن حطَّت الأساطيل الرُّوسِيَّة مراسيها حول عاصمة الخلافة إستانبول وثارت ثائرة النَّاسِ على تفَرُّد السُّلطان بالحكم وأخذهُ لِحَاجَمِ الأمورِ وربط زمامها بسلطَةِ الباب العالي، مما جعل أبا الهُدَى يُجَرِّدُ قَلَمَهُ في هذا الكتاب لِيدافعَ عن موقفِ السُّلطان داعيًّا إلى وجوب طاعته والانقياد لأوامره والالتفاف حوله، فهو بِنَظَرِهِ الخليفةُ الأوحد للمسلمين وآخرُ قلعةٍ تلتجئُ إليها أُمَّةُ الإسلام التي تكالَبَ عليها "البُغاة والأعداء الظَّالمون"، ولهذا فهو يرى أنَّ على كُلِّ مسلمٍ مُهتَدٍ أن يسعى جهده "لإخماد نار الفتن التي تدور في المسلمين" بكلِّ ما أوتيَ من قوَّةٍ ولو بكلمةٍ "تدفع دسيسةَ الفاتنين المعترِضين والمُنسَلِّين من جمعيَّة الاتِّحاد"، وينعتُ هذه الفئة الفاتنة بأنَّ أربابها هم "القائمون على ساق الهوى والجهالة والأفكار الفاسدة والأقاويل الكاذبة"¹¹⁶ ويمكنُ القولُ: إنَّ هذا الكتاب هو تلخيصٌ للجانب الفكريِّ والحركيِّ الذي قام به أبو الهُدَى في خدمة مشروع "الجامعة الإسلاميَّة"¹¹⁷ إضافةً إلى أنَّ هذا الكتاب قد جعلَ قلم أبي الهُدَى ينطبع بطابع الفكر الإسلاميِّ القائم على وحدة الأُمَّة الإسلاميَّة بكافَّة عناصرها وشَتَّى قومياتها، وهذا يعني أنَّه كان يسير عكسَ التِّيَّار الذي بدأت أصواتُ أربابه تتعالى آنذاك وتُصعِّى لها المَسماعُ في البلادِ العربيَّة عبر وسائلِ الإعلامِ المُتاحة آنذاك، وهو التِّيَّار الدَّاعي إلى تعزيزِ القوميَّة العربيَّة والمنادي

¹¹⁶ محمَّد أبو الهُدَى الصِّيَّادي، داعي الرِّشاد لسبيل الاتِّحاد والانقياد (د.ت.ن)، 16، 20، 22.

¹¹⁷ يُنظر: حرب، السُّلطان عبد الحميد، 190.

بضرورة النهوض ضدّ غيرها من القوميّات التي يراها هذا التّيّار مُحْتَلَّةً ظالِمةً، في حين أنّ أبا الهُدَى كان يرى أنّ هذه الأفكار ما هي إلاّ دعواتٌ مرفوضةٌ تهدف لانسلاخ المسلمين من جسد الأُمّة الإسلاميّة الواحد المُتَمَثِّل بالخلافة العثمانيّة، وتجزُّ إلى الانزلاق -عَرَّاء- للوقوع بفخاخ الأعداء المُتَرَبِّصِينَ شَرًّا بأُمّة الإسلام؛ وهذه المناهضة لهذا التّيّار لا شكَّ أنّها ستقدِّفُ به في مرمى أقذع الأوصاف من القوميّين العرب ومَن سار سيرهم من المُعادين للخلافة العثمانيّة عمومًا وللسلطان عبد الحميد الثّاني على وجه الخصوص، والكتاب يدلُّ على أنّ أبا الهُدَى قد اعتنقَ هذه الرّؤية في مرحلةٍ مُبَكِّرةٍ من حياته، إذ طُبِعَ هذا الكتاب بعدَ سنة (1293هـ/1876م).

وأما الكتاب الثّاني فهو الموسوم بعنوان: "ضوء الشّمس في قوله صلّى الله عليه وسلّم بُني الإسلام على خمس"، وهو يلي الأوّل في الشّهرة وفي زمن التّأليف، فقد انتهى من تأليفه سنة (1300هـ/1883م)، وقُدِّرَ للكتاب أن يَرى النّور بأوّل طبعةٍ في زمن المؤلّف سنة (1301هـ/1883م) في مطبعة محرّم أفندي البوسنويّ، والثّانية طُبِعَت بعد ما يقربُ من قرنٍ من الزّمان في دمشق سنة (1394هـ/1974م)، وفي هذا الكتاب تكلّم على أركان الإسلام الخمس شارحًا لأحكامها على المذاهب الأربعة الشّيئيّة مُضَمِّنًا شرح الأحكام بفرائد الحِكم ولطائف الإشارات، فهو كتابٌ فقهيٌّ مُحرَّرٌ مسائلُهُ على المذهب الحنفيّ ومن ثمّ قورِنَت بالمذاهب الأخرى،¹¹⁸ وقد قدّمه أبو الهُدَى نبراسًا للأُمّة الإسلاميّة في مشارق الأرض ومغاربها -حسبما يرى شيخ قراء بلاد الشّام حسين خطّاب (ت. 1408هـ/1988م)- وحظيَ بنصيبٍ وافٍ من تقاريظ العلماء سواءً في حياة المؤلّف كالفقيه خير الدّين نعمان بن محمود الألوسي (ت. 1317هـ/1899م) ونقيب السّادات بمكّة ومفتيها علوي بن أحمد السّقّاف (ت. 1335هـ/1916م)، أو بعد وفاته حيثُ صُدِّرت الطّبعة الثّانية للكتاب بتقاريظ

¹¹⁸ يُنظر: الصيّاديّ، ضوء الشّمس، 31/1، 64، 484، 489، 511، 339/2، 343.

لجملة من علماء العصر في بلاد الشام يُذكر منهم حسن حنّكة الميداني (ت. 1398هـ/1978م) الذي وجد الكتاب "نفساً فريداً في بابه حوى من المسائل الفقهية المعتمدة والحكم المفيدة والمواظ المؤثرة ما تفرّق في كثير من الكتب العلمية والمؤلفات النادرة ولخص ما طال الكلام فيه من مسائل التوحيد"؛ وفي هذا الكتاب يبرز إطلاع أبي الهدى الواسع والبعيد الغور على العلوم الشرعية إضافة إلى الجانب الصوفي الذي سكب من معينه الصافي على دقائق الأحكام ليغدو الكتاب ضياءً للقلوب ومهدباً للنفوس،¹¹⁹ وقد انتظم سلك تلك المقاصد العلمية كلّها برائق لسان أبي الهدى الأدبي الناثراً لها والمضمين لثناياها شيئاً من رقيق الأشعار.¹²⁰

وقد يكون من الحسن أن يلحق بالأثرين المذكورين آنفاً كتابه الموسوم بعنوان: "صوت الهزار وزيق العذار"، الذي طبع في حياته بمطبعة التمدن سنة (1320هـ/1903م)، وطوّره أبو الهدى على نسق يجعله "روضةً بديعةً تُسلي الخاطر القاتر" فلم يوّبه أو يجعله على فصول، بل جعله سطرًا واحدًا طويت في ثناياه لطائف الحكم "وملتقطات الدرر" ومتفرقات من الأبيات الشعرية البليغة؛ والباعث على إلحاقه بالأثرين السابقين المشهورين، هو ما يشد انتباه القارئ فيه إلى بعض الإشارات التي يلمح فيها ما ترسخ في ذهن أبي الهدى من رؤية أخلاقية وسياسية راصدة للمظاهر التي سادت ذلك العصر، فبين نبذه لشعار الحرية أو الوطنية المطروح في بلاد مصر إذ لم يره إلا ستاراً أسدله الأجنبي لغرس برائنه في جسد المجتمع المسلم، لكي يُرخى له العنان في هدم القيم والأخلاق والدين والشرف والأشراف، فيتسنى له بذلك أن يبسط نفوذه الغاشم على تلك الديار بكل سهولة،¹²¹ ورغم أن أبا

¹¹⁹ يُنظر: الصيادي، ضوء الشمس، 8/1، 15، 43.

¹²⁰ يُنظر: الصيادي، ضوء الشمس، 118/1، 136-137، 142، 185، 346/2.

¹²¹ يُنظر: محمد أبو الهدى الصيادي، صوت الهزار وزيق العذار (مصر: مطبعة التمدن، 1321هـ/1903م)، 22-23.

الهْدَى قد بسطَ الكلام في معاني الصِّدْقِ والصَّدَاقَةِ والوفاء¹²² إلا أنَّ أبرزَ ما يلمَحُهُ النَّاطِرُ في تلك الصَّفحات هو ما لَمَحَ إليه من أنَّ مِيزَةَ النَّسَبَةِ الشَّرِيفَةِ إلى آل البيتِ النَّبَوِيِّ لا تشفَعُ لصاحبها في أن يستهينَ بعهدِ الوفاءِ ويخونَ من أحسنَ إليه ويغدرَ بمن أَعَدَّقَ بالإكرامِ عليه، ثم لا يلبَثُ أن يُعَرِّجَ إلى أنَّ الخيانةَ العُظمَى إنما هي خيائَةُ "خليفة النَّبِيِّ في العصر، الإمام الذي وَلَّاه الله على المُسلمين السُّلطان عبد الحميد"،¹²³ وقد يكون هذا العرض من أبي الهُدَى مثارًا للاهتمام، حيث لا يُدرى أكانَ بكلماتِهِ يُشيرُ إلى ما قد استشفَّه من ساحةِ الأحداثِ في دار الخِلافةِ العثمانِيَّة؛ فقد تمَحَّضَت الأيَّامُ - بعد كتابَتِهِ لهذه السَّطورِ بسنواتٍ عِدَّةٍ - عما صَدَّقَ رؤْيَتَهُ للأحداثِ السِّياسِيَّةِ التي بدَت واضحةً في سطورِ هذه الكتاب إذا ما ضُمَّ إليها ما قبلَها في "داعي الرِّشاد".

تلك كانت هي أبرزُ مضامينِ ما وقفَ الباحثُ عليه من الكُتُبِ التي سَطَّرَها أناملُ أبي الهُدَى، وأمَّا الكتبُ الأخرى فسيُكتَفَى بسرِدِ عناوانِها حسب ورودِها في صدرِ كتابِهِ "خلاصة البيان"، ومُضافاً إليه ما عداها مما وصلَ إليه الباحثُ من عناواناتٍ أخرى؛ وقد يحسنُ قبلَ السَّرْدِ الفِطْنَةُ إلى أنَّ عناواناتِ مؤلِّفاتِهِ كانت تُذكِّرُ طائِفَةً منها في ذيلِ خواتيمِ كُتُبِهِ المطبوعةِ إلى جانبِ ما أشارَ إليه مترجمو أبي الهُدَى من أسماءِ تلك العناوانات؛ وهي:

"نفحة الرَّحْمَنِ في تفسير القرآن، الصِّراطُ المستقيم في تفسير بسم الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، ضوء الشَّمْسِ في معاني بُنْي الإسلام على خمس، شفاء القلوب بكلام النَّبِيِّ المحبوب،¹²⁴ الحقيقة الباهرة في

¹²² يُنْظَرُ: الصِّيَّادِي، صوت الهِزَار، 24.

¹²³ يُنْظَرُ: الصِّيَّادِي، صوت الهِزَار، 26، 30-31.

¹²⁴ مطبوع، (مصر: مطبعة جريدة الفلاح، 1313هـ/1895م).

أسرار الشريعة الطاهرة،¹²⁵ الحقيقة المحمدية في شأن سيد البرية، فصول الحكماء،¹²⁶ آداب المسلمين المأخوذة عن سيد المرسلين، التحفة الهدائية في السنن النبوية،¹²⁷ الفخر المخلد،¹²⁸ أسرار أسماء الله الحسنى، فرقان البيان، حكم التوحيد، الفرائد في العقائد،¹²⁹ الديانة المحمدية، الدرر النضيد في التوحيد، شفاء صدور المؤمنين، شرف القواعد، قواعد النظر، عقائد السادة الحنفية، حجة المتكلمين، الأبحاث الرائقة، أحكام التقليد، حكمة اختلاف المذاهب، فرقان القلوب،¹³⁰ أسرار سياسة الشريعة، أحكام السياسة، طريق الصواب،¹³¹ نور الإسلام، أخبار المصافحة، خواص ذكر الله، التفحات المحمدية في الأحاديث الأربعين الأحمديّة،¹³² أسانيد الواسطيين، أحاديث أكابر واسط، الثبث الخاص، حكم التواتر، نسب النبي صلى الله عليه وسلم، أنساب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أحكام الأركان الخمسة، آية الله الكبرى، الأخلاق المحمدية، أسرار فاتحة الكتاب، أسرار سورة الإخلاص، أسرار الملاحم، معنى الشروع، بركة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، أصول الحنفية، أصول الشافعية، علم حال (حنفي)، علم حال (شافعي)، البارقة،¹³³ البارقة الثانية، الكليات الهدائية، الرقائق، حل مشكلات الأخيار، طريق السلامة،¹³⁴ حكم الفلسفة، فضيلة الحكمة،¹³⁵ المدينة الإسلامية، أسرار الهجرة النبوية، روح

¹²⁵ مطبوع، (مصر: مطبعة هندية، 1323هـ/1905م).

¹²⁶ مطبوع، (مصر: مطبعة هندية، 1324هـ/1906م).

¹²⁷ مخطوط، (المملكة المتحدة، المتحف البريطاني، OR9090).

¹²⁸ مطبوع، (بيروت: المطبعة اللبنانية، 1305هـ/1887م).

¹²⁹ مطبوع، تحقيق: أمير خرنوب، (دمشق: دار الدقائق، 1440هـ/2019م).

¹³⁰ مطبوع، (مصر: مطبعة الهندية، 1323هـ/1905م).

¹³¹ مطبوع، (إستانبول: مطبعة المعارف، 1302هـ/1884م).

¹³² مطبوع، (مصر: المطبعة العلمية، 1313هـ/1895م).

¹³³ مطبوع، تحقيق: عبد الحكيم عبد الباسط، (دمشق: دن، 1389هـ/1969م).

¹³⁴ مطبوع، تحقيق: عبد الحكيم عبد الباسط، (دمشق: دن، 1389هـ/1969م).

¹³⁵ مطبوع، تحقيق: عبد الحكيم عبد الباسط، (دمشق: دن، 1389هـ/1969م).

الحكمة،¹³⁶ حديقة المعاني،¹³⁷ خلاصة البيان،¹³⁸ تسلية البال في أحكام منافذ الخيال،¹³⁹ فصول
الحكمة، البرهان الصادق،¹⁴⁰ أخلاق المسلمين، الإرشاد العام، حكم التساوي، الرقائق الرواسية،¹⁴¹
النصيحة القدسية،¹⁴² الأجوبة المسكتة، لزوم محبة المصطفى، ذكرى الحبيب، أسرار الإخلاص،
كشف الغطاء، بر الوالدين، صوت الهزار وزيق العذار،¹⁴³ العبرة في حكم الهجرة،¹⁴⁴ صوت العندليب،
لوعة يعقوب، حال البادية، فلسفة التاريخ الأحمدي، حديقة الأنس، أحكام الفراسة، سياحة القلم،
أسرار القيامة، حكم الحب الصادق، معرفة الشعوب، بغية أولي الأفهام،¹⁴⁵ لمعة النصر في لزوم
الصبر،¹⁴⁶ أسرار الوجود، نور الإنصاف،¹⁴⁷ تحقيق مسألة الجهة، وجوب تقديم العلماء، أحكام
المدنية، كشف نقاب الإشكال، الجوهر الشفاف في طبقات السادة الأشراف، تنوير الأبصار،¹⁴⁸
الروض البسام،¹⁴⁹ النخبة في أحكام النسبة،¹⁵⁰ بطون الآل الكرام، المشجر الأكبر، المشجر الثاني،

¹³⁶ مطبوع، (مصر: مطبعة علي سكر، 1326هـ/1908م).

¹³⁷ مطبوع، (مصر: مطبعة الإصلاح، د.ت).

¹³⁸ مطبوع، (مصر: مطبعة الإصلاح، د.ت).

¹³⁹ مطبوع، تحقيق: عبد الحكيم عبد الباسط، (دمشق: د.ن، 1389هـ/1969م).

¹⁴⁰ مطبوع، (مصر: مطبعة علي سكر، 1326هـ/1908م).

¹⁴¹ مطبوع، تحقيق: محمد نورس الكيلاني، (بيروت: المطبعة الأدبية، 1324هـ/1906).

¹⁴² مطبوع، تحقيق: محمد نورس الكيلاني، (بيروت: المطبعة الأدبية، 1324هـ/1906).

¹⁴³ مطبوع.

¹⁴⁴ مطبوع، تحقيق: عبد الحكيم عبد الباسط، (دمشق: د.ن، 1389هـ/1969م).

¹⁴⁵ مطبوع، تحقيق: عبد الحكيم عبد الباسط، (دمشق: د.ن، 1389هـ/1969م).

¹⁴⁶ مطبوع، تحقيق: عبد الحكيم عبد الباسط، (دمشق: د.ن، 1389هـ/1969م).

¹⁴⁷ مطبوع، (مصر: مطبعة محمد أفندي مصطفى، 1306هـ/1888م).

¹⁴⁸ مطبوع، (مصر: مطبعة محمد أفندي مصطفى، 1306هـ/1888م).

¹⁴⁹ مطبوع، (الاسكندرية: مطبعة الإهرام، 1310هـ/1892م).

¹⁵⁰ مطبوع، تحقيق: عبد الحكيم عبد الباسط، (دمشق: د.ن، 1389هـ/1969م).

قواعد التَّسَابُح، خزانة الأمداد،¹⁵¹ سلسلة الإسعاد، ذخيرة المَعَاد،¹⁵² عقود الجواهر، بارقة العرفان، حب الوطن، البارقة الكبرى، غاية المدارك، سلسلة النّجاح، شؤون الفاروق، نضارة الحاضرة في آداب المُحاضرة،¹⁵³ النُّور المُبين، نور السُّنَّة، تطبيق حكم الطريقة العليّة على الأحكام الشَّرعيّة النّبويّة،¹⁵⁴ الغارة الإلهيّة،¹⁵⁵ إبهات الجاحد،¹⁵⁶ فضائل العلماء، العناية الرّبانيّة،¹⁵⁷ الواعظ المُعرب عن حقيقة المسلم المُتأدّب،¹⁵⁸ الحقّ المبين،¹⁵⁹ برهان الرّحمن، الشّرف الباذخ، أسرار حزب الجوهرة، قلائد الرّبرجد،¹⁶⁰ بلاغ المرام، قلادة النّحر،¹⁶¹ الكوكب الدّرّي، تُحفّة المُوحّدين، الطّريقة الرّفاعيّة،¹⁶² شوارذ الأدب، نفحات الإمداد،¹⁶³ أسرار الأرواح، التّحفّة الجامعة، حِكْم الصّالحين، فرحة الأحاب، راحة الأرواح،¹⁶⁴ غُنيّة الصّادقين، القلادة العسجديّة، قلادة الجواهر،¹⁶⁵ غُنيّة الطُّلاب، الكليّات

¹⁵¹ مطبوع، (مصر: مطبعة الواعظ، 1326هـ/1908م).

¹⁵² مطبوع، (مصر: مطبعة محمّد أفندي مصطفى، 1307هـ/1889م).

¹⁵³ مطبوع، تحقيق: عبد الحكيم عبد الباسط، (دمشق: د.ن، 1389هـ/1969م).

¹⁵⁴ مطبوع، تحقيق: عبد الحكيم عبد الباسط، (دمشق: د.ن، 1389هـ/1969م).

¹⁵⁵ مطبوع، (القاهرة: المطبعة الميريّة بولاق، 1310هـ/1892م).

¹⁵⁶ مطبوع، (د.ن، 1322هـ/1904م).

¹⁵⁷ مطبوع، تحقيق: أحمد رمزة جحا، (دمشق: د.ن، 1428هـ/2007م).

¹⁵⁸ مطبوع، تحقيق: عبد الحكيم عبد الباسط، (دمشق: د.ت).

¹⁵⁹ مطبوع، تحقيق: عبد الحكيم عبد الباسط، (دمشق: د.ن، 1389هـ/1969م).

¹⁶⁰ مطبوع، تحقيق: أحمد رمزة جحا، (دمشق: د.ن، 1429هـ/2008م).

¹⁶¹ مطبوع، (مصر: المطبعة العمومية، 1315هـ/1897م).

¹⁶² مطبوع، تحقيق: محمّد بدر الدين التّعساني، (مصر: مطبعة السعادة، 1325هـ/1907م).

¹⁶³ مطبوع، (بيروت: مطبعة المعارف، د.ت).

¹⁶⁴ مطبوع، (مصر: المطبعة المصريّة، 1321هـ/1903م).

¹⁶⁵ مطبوع، (بيروت: المطبعة الأدبيّة، 1301هـ/1883م).

الأحمدية،¹⁶⁶ الثور الجلي، آداب القوم، بارقة الهداية، هداية الساعي،¹⁶⁷ القواعد المرعية،¹⁶⁸ العقد
النضيد،¹⁶⁹ راتب الطريقة، نفثة مصدور،¹⁷⁰ سلاسل رجال الخرقه، كلمة شهادة لا إله إلا الله، تعطير
المحاضر،¹⁷¹ وسيلة العارفين،¹⁷² وسيلة المرسلين، معنى المحبة، حضرة الإطلاق،¹⁷³ الفجر المُنير،¹⁷⁴
خلوة متكين، محبة السالكين،¹⁷⁵ الشمس اللّماء، حكمة التّصوف، واجبات الشّلوک، سرّ
الحال،¹⁷⁶ رياضة الأسماع،¹⁷⁷ السيرة الرّفاعيّة، حديقة الفتح، المقام الأَمنع، وجوب الطّاعة، اللّباب
الجامع للعجب العجّاب، الفرقان الدّامغ بالحقّ أباطيل أهل البُهتان،¹⁷⁸ فرقان المعاني، تاريخ الخلفاء،
حال الخلفاء الأربعة، مشاهير الأولياء في ديار الشّام، الكوكب الزّاهر،¹⁷⁹ تعطير المَشّام،¹⁸⁰ القول
الفصل ليس بالهراء ولا بالهزل،¹⁸¹ بهجة الزّمان، حال دمشق، الرّحلة البغداديّة، مفاخر البيت العثماني،

¹⁶⁶ مطبوع، (مصر: مطبعة الواعظ، 1326هـ/1908م).

¹⁶⁷ مطبوع، (إستانبول: د.ن، 1289هـ/1872م).

¹⁶⁸ مطبوع، (مصر: مطبعة محمّد أفندي مصطفى، 1305هـ/1887م).

¹⁶⁹ مطبوع، (مصر: مطبعة محمّد أفندي مصطفى، 1307هـ/1889م).

¹⁷⁰ مطبوع، تحقيق: أمير خرنوب، (دمشق: د.ت).

¹⁷¹ مخطوط، (الولايات المتّحدة الأمريكيّة، جامعة برنستون، 2447 els no).

¹⁷² مطبوع، تحقيق: محمود محمّد الدّرّة، (دمشق: د.ن، 1422هـ/2001م).

¹⁷³ مطبوع، (د.ن، 1301هـ/1883م).

¹⁷⁴ مطبوع، (القاهرة: مطبعة بولاق، 1300هـ/1882م).

¹⁷⁵ مطبوع، تحقيق: أحمد رمزة جحا، (دمشق: دار الدّقّاق، 2020م).

¹⁷⁶ مطبوع، تحقيق: عبد الحكيم عبد الباسط، (دمشق: د.ن، 1389هـ/1969م).

¹⁷⁷ مطبوع، (مصر: مطبعة التّمذّن، 1321هـ/1903م).

¹⁷⁸ مطبوع.

¹⁷⁹ مطبوع، (إستانبول: مطبعة المعارف، 1313هـ/1895م).

¹⁸⁰ مطبوع، تحقيق: حسن بن عبد الحكيم عبد الباسط، (دمشق: دار البشائر، 2005م).

¹⁸¹ مطبوع، تحقيق: عبد الحكيم عبد الباسط، (دمشق: د.ت).

عجائب الزّمان، السّهم الصّائب، المدد النبويّ، رياضة العقول، الكنز المُطلَسَم،¹⁸² نزهة أهل النّظر في الأخبار اللّطيفة والسّمر، حكّم العامّة، توحيد المَشارب وإن جَهَلها المُؤارب، رِقّة الانتقال لسابحة الطّرف دون المقال، الشُّكوت إذا العيون تتكلّم، لطائف الإشارات، الكلمات المُفردّة، سلاسل القوم،¹⁸³ الكلمات الطّيّبات، صريح الكلام في حكم عالم المنام،¹⁸⁴ ألواح الأفكار، مسامرة النّظر، الكلام المُبهم، محجّة العظماء،¹⁸⁵ حُسْنُ التّعبير ولطف التّقرير، عقود الألماس،¹⁸⁶ بهجة الحضرتين،¹⁸⁷ رياضة الخيال في ضروب الأمثال، غنية الطّالِبين في إيضاح طريق المشايخ العارفين،¹⁸⁸ النقاط جواهر الآداب من سفاِسف الثّراب، بلاغة قريش، الدُّر المنظوم في شأن بني مخزوم، غاية المطلوب، منظوم الدّراري الثّمينة في سيرة ساكن المدينة، منظوم معارضة الزّمان، ديوان بلبل الأفراح، ديوان براهين الحِكم، (ديوان اللؤلؤ والمرجان، أزهار الحديقة، نوابغ الحِكم، منظوم زاد القيامة في أخبار المظلل بالغمامة، منظوم آيات العرفان، ديوان روضة العرفان، ديوان الفيض المحمّدي، ديوان الرّوض البسيم، ديوان مرآة الشّهود، ديوان قُرّة العين، ديوان الدّر المنتظم، ديوان التّبيان)¹⁸⁹.

وبالاستقراء والاطّلاع على ما توفّر بين يدي الباحث من مؤلّفات أبي الهُدَى يُلاحظ ما

يلي:

¹⁸² مطبوع، (القاهرة: المطبعة العلميّة، 1313هـ/1895م).

¹⁸³ مطبوع، (مصر: مطبعة السّعادة، 1325هـ/1907م).

¹⁸⁴ مطبوع، تحقيق: عبد الحكيم عبد الباسط، (دمشق: دن، 1389هـ/1969م).

¹⁸⁵ مطبوع، تحقيق: عبد الحكيم عبد الباسط، (دمشق: دن، 1389هـ/1969م).

¹⁸⁶ مطبوع، (مصر: المطبعة العموميّة، 1315هـ/1897م).

¹⁸⁷ مطبوع، تحقيق: محمّد كامل الكيّالي، (حلب: مطبعة النّهضة العربيّة، د.ت).

¹⁸⁸ مطبوع، تحقيق: عبد الحكيم عبد الباسط، (دمشق: دن، 1390هـ/1970م).

¹⁸⁹ يُنظر: الصّبّاويّ، خلاصة البيان، 22؛ وما وُضِعَ بين قوسين سياقي الحديث عنه مُقَصَّلاً ضمن الدّواوين الأدبيّة.

- اصطباغٌ مؤلَّفات أبي الهُدَى - حتى العلميَّة منها- بالصَّبغة الأدبيَّة حيث كان قلمُ أبي الهُدَى لا يخلو من الأساليب البلاغيَّة البديعيَّة في نثره وخاصَّةً في مقدِّمات كُتُبِه¹⁹⁰ بل حتى في اختياراته لعنواناتها، كما لم يخلُ أغلبها من الشِّعر العربيِّ سواءً كان من نظمِه أو من نظمٍ غيره؛¹⁹¹ ولا تخلو بمجملِها من النَّفس الصُّوفيِّ والمصطلحات الصُّوفيَّة.
- إنَّ الكمَّ الكثير من العناوين التي تُسرَّدُ في قائِمة مؤلَّفاتِه ليس بالضرورة أن يكون كلُّ عنوانٍ منها يندرجُ تحتَه المجلَّدات الضَّخمة أو الصَّفحات الكثيرة؛ فبعض تلك الآثار التي بين الأيدي كان ضخمًا -قد يصلُّ إلى مجلَّدين-،¹⁹² وبعضها الآخر يَصِحُّ أن يُطلَق عليه بلسان اليوم أنَّه مقالةٌ علميَّةٌ أو خاطرةٌ أدبيَّةٌ لا تتجاوز ثلاثين أو عشرين صفحةً.¹⁹³
- مرَّ أنَّ أبا الهُدَى كان مُتمتِّعًا بذاكرةٍ تزخرُ بفيضٍ واسعٍ من المحفوظات المتنوّعة المجالات، إضافةً لعينين طالما جالتا في نواذر الكُتبِ ونفائس المخطوطات التي كانت تُعْبُّ بها المكتبة السُّلطانيَّة، فمن الشِّعر فقط كان قد حَفِظَ مئة ألف بيتٍ؛ ويبدو أنَّ غالبَ كُتُبِه كانت من عُبابِ هذه الذاكرة الرَّاخِرة بالمحفوظات، وبهذا قد صرَّح في آخر ما خطَّه قلمُه وهو على فراش الموت -في رسالةٍ أسماها "الفِلْدَة الخضراء"- حيث قال فيها: "كتبْتُها وأنا أسيِّرُ الفراش، قليلُ الانتعاش، حليفُ همومٍ يكاد يَرْجُفُ لها الطَّودُ العظيم، ويرِقُّ لما في رَقٍّ معناها قلبُ العَريم، لم أَسْتَعِنْ بها بِآلَةٍ، بل -كعادي- لم أنظر بكتابٍ

¹⁹⁰ يُنظر: محمَّد أبو الهُدَى الصِّيَّادِي، حضرة الإِطلاق في مكارم الأخلاق (د.ن، 1301هـ/1883م)، 10-11؛ المؤلِّف نفسه، صوت الهزار، 3؛ المؤلِّف نفسه، ديوان روضة العرفان المُدَيَّلَة منظوماته منشور الدَّرَر الحيسان (د.ن، 1322هـ/1904م)، 2-3.

¹⁹¹ يُنظر: الصِّيَّادِي، صوت الهزار، 6، 7، 10؛ المؤلِّف نفسه، أزهار الحديقة، تحقيق: عبد الحكيم عبد الباسط وآخرين، (دمشق: د.ن، 1395هـ/1975م)، 55، 83، 150.

¹⁹² منها: ضوء الشَّمس، قلادة الجواهر، غنية الطَّالِبين.

¹⁹³ منها: البارقة، تسلية البال، لمعة النَّصر، نضارة الحاضرة، نفثة مصادور.

أنقل منه، أو أُنطرح مع ذي رواية أروي عنه، بل هي من محفوظاتي التي امتنَّ الله عليَّ باستيداعها خزانة الفؤاد"،¹⁹⁴ وفي كلامه يُلمح حجم الألم الذي تملك قلبه في منفاه الأخير - جزيرة الأمراء-، وهو يشاهد رأي العين تهاوي جسد الدولة التي اجتمعت عليها معاول الشرق والغرب.

- وبناءً على ما سبق تقريره من أنَّ أبا الهدى كان يكتب مما تفيض به ذاكرته الزاخرة وقريحته الشعريَّة المتوقَّدة، على الرَّغم مما كان يعانيه من آلام العُربة والفقد والمرض والسَّهام الموجهة له وللخلافة التي يُدافع عنها وعن رأسها السُّلطان عبد الحميد؛ فإنَّ هذا ربما يُعَلِّل ما قد يجده قارئ من نَزَرٍ لاح فيه اضطرابٌ في بعض سطور كُتِبِه؛ ولم يكن أبو الهدى يناسٍ استماعة القارئ عُذراً، فخاطب قارئه قائلاً: إِنَّ ما خطَّته يدي "من فكري الذي زلله صادمُ السَّقمِ فارتعدَ ومادَ، فما شُوهدَ من الغلط في بعض الجُمْل فاعذرُ بذلك أكبرُ من الغلط وإن جَلَّ"،¹⁹⁵ ويقول في موضعٍ آخر: "ولا بُدَّ للصَّارِم من نُبوةٍ، وللِفكرِ الحاذِق من هَفوةٍ، فما الظَّنُّ بمثلِ فِكْرٍ سَدَّتْ منافذَ لَطَائِفِهِ كَتَائِفُ الهُمومِ، وانسدَّلت عليه من غيوم الأغراضِ المُظْلِمَةِ غَيَاهِبُ الهُمومِ، فاعذرَ العذرَ كرامَ الأدباء إذ تعثرون في هذا الدِّيوان على الهَفوات وخذوا ما طاب فإنَّ الكريم لا ينظر إلى العَثَرَات".¹⁹⁶

¹⁹⁴ يُنظر: محمَّد أبو الهدى الصَّيَّادي، *الفِلْدَة الخضراء*، تحقيق: عبد الحكيم عبد الباسط، (دمشق: المطبعة العلميَّة، 1389هـ/1969م)، 3، 4.

¹⁹⁵ الصَّيَّادي، *الفِلْدَة الخضراء*، 4.

¹⁹⁶ يُنظر: محمَّد أبو الهدى الصَّيَّادي، *ديوان التَّبيان الجامع بين الحكمة والبيان* (مصر: المطبعة العموميَّة، 1315هـ/1897م)، 4.

- ويُضافُ إلى جميع ما سبق أنَّ تلك المؤلفات العلمية قد حُظيت باستحسانِ علماء وأدباء كبار في بلاد الشام ومصر والحجاز والمغرب العربي وغيرها، ويظهرُ هذا فيما حُطَّتْهُ أَقلامُ كُلِّ منهم من تقاريطَ دُيِّلَتْ بها تلك المؤلفات.¹⁹⁷

2 دواوينه

إنَّ هذه الآثارَ التي أمكنَ الوصولُ إليها قد تَنَوَّعتْ ما بينَ منشورٍ ومنظومٍ، وإن كانَ الكَمُّ الأكبرُ منها يندرجُ في بَوْتَقَةِ النَّظْمِ الشَّعْرِيِّ عبرَ دواوينٍ مُتَفَرِّقَةٍ، كما قد حُصِّتْ بعضُ القصائدِ أو المنظوماتِ ذاتِ الطَّابعِ الدِّينِيِّ الخاصِّ بإفرادها ضمنَ رسائلٍ طُبِعَتْ بشكلٍ مُستَقِلٍّ، وقد أثبتتْ عنواناتُ دواوينه في أكثر من موضعٍ من كُتُبِهِ، كما صُدِّقَتْ بعضها بتقاريطِ جُمْلَةٍ من الأعيان؛ ولم يكن -في غالبِ هذه الآثارِ- ثَمَّةُ دليلٍ يُحَدِّدُ الزَّمنَ الدَّقِيقَ الذي حُطَّ فيه قَلَمُ أبي الهُدَى أثره الأدبيّ، فلم يُتَخَ ترجيحٌ مُعَيَّنٌ يُرتَّبُ به أقدمُ تلك الآثارِ على غيره؛ ومما تجبُّ الفِطْنَةُ إليه أنَّ آثارًا أدبيَّةً أخرى -سبقَ المرورُ عليها في عنواناتِ آثاره- لا يزالُ الفقدانُ يطويها في غياهبِ الضَّياعِ، منها النَّثْرِيُّ مثل "شوارد الأدب"، ومنها الشَّعْرِيُّ مثل "ديوان بلبل الأفراح" ومنظومة "الدَّراري الثَّمينة في سيرة ساكن المدينة"، ولعلَّ أبرزَها ديوانٌ يُعَدُّ أكبرَ دواوينه الشَّعْرِيَّةِ وهو المُسمَّى "ديوانُ بَراهِينِ الحِكمِ"؛ وقد سَنَحَتْ تواريطُ طَبَعَاتٍ ما تَوَفَّرَ من هذه الآثارِ أن يكونَ ترتيبها وفق ما يلي:

أ. ديوان الفيض المَحْمَدِيّ

لعلَّ الأشعارَ التي ضَمَّتْها دَفَّتَا هذا الدِّيانِ هي أقدم ما وصلت إليه الأيدي المُلتَمِسَةُ لشعر أبي الهُدَى، مما يعني أنَّ أبا الهُدَى نَظَّمَ هذه الأشعار وهو في عنفوانِ شبابه قبل أن يبلغ الثلاثين من

¹⁹⁷ من ذلك ما قُرِطَتْ به كتب: نور الإنصاف، شفاء القلوب، ضوء الشَّمْسِ.

عمره، إلا أنَّ هذا الديوان لم يكن أبو الهُدَى جامعَهُ بنفسِهِ، بل إنَّ جامعَ هذه الأشعار هو رئيس محكمة الحقوق ببيروت القاضي يوسف بن إسماعيل النَّبْهائي الذي استأذَنَ أبا الهُدَى في أن يجمع أشعارَهُ وَيُنَسِّقَها لِيضمَّها ديوانُ يوضع بعد طبعِهِ في مكتبة السُّلطان عبد الحميد الثَّاني، فأذِنَ لَهُ أبو الهُدَى بذلك،¹⁹⁸ وبعد جمع تلك الأشعار وترتيبها تحت عنوان "ديوان الفَيْض المُحمَّديّ والمَدَد الأحمديّ"، قام النَّبْهائيّ بعرضِهِ على أبي الهُدَى فَصَحَّحَ ما فيه من تصحيفٍ ونَقَحَه وراجَعَهُ ووافق على نشرِهِ فَطُبِعَ بمطبعة الجوائب بإستانبول سنة (1298هـ/1881م)، بمجلدٍ واحدٍ يقع في مئتي صحيفة، كانت الأشعار فيه خاليةً من أيِّ ضبطٍ في الشَّكل، ولم تكن تلك الأشعار مُرتَّبةً وفق الحروف الهجائيَّة بل صُنِّفَتْ بترتيبٍ على حسب موضوعاتها؛ وبما أنَّ نسخةً إستانبول هي التي وقَّعت في يد أبي الهُدَى ونالت تصحيحَهُ وموافَقَتَهُ فقد كانت هي النُّسخةُ المعتمَدةُ في هذا البحث، وأُهمِلَت الطَّبعةُ الأخيرة التي صَدَرَت في بيروت سنة (2021م) بتحقيق عبد الله محمود عمر.

وقد قام النَّبْهائيّ بالتَّقديم لهذا الديوان بمقدمةٍ تكَلَّمَ فيها على فضلِ الشِّعر وأنواعِهِ، ثمَّ أثنى على أبي الهُدَى وشعرِهِ، ولم يُغفلِ الثَّناء على السُّلطان عبد الحميد؛ وساقَ أشعارَ أبي الهُدَى مصنَّفةً على سبعة أبواب:¹⁹⁹

- الباب الأوَّل: لأشعار التَّوحيد والدُّعاء والابتهاال إلى الله.
- الثَّاني: لأشعار المديح النَّبويِّ وهو أوسع الأبواب في هذا الديوان - حيث بلغ فيه أكثر من ستين صحيفةً -.
- الثَّالث: لأشعار المدح التي أفردَها لآل البيت النَّبويِّ وذكر شمائلهم وسجايهم.

¹⁹⁸ يُنظَر: محمَّد أبو الهُدَى الصَّيَّاديّ، ديوان الفَيْض المُحمَّديّ والمَدَد الأحمديّ، إعداد: يوسف النَّبْهائيّ، (إستانبول: مطبعة الجوائب، 1298هـ/1881م)، 5.

¹⁹⁹ يُنظَر: د.ف.م، 3، 6، 7.

- الرَّابِع: لأشعار المدح التي أفردتها لصحابة رسول الله وذكر أوصافهم وأخلاقهم، وهو أقلُّ الأبواب حظوةً بالأشعار - حيث نال تسع مقطوعاتٍ توزَّعت على أربع صفحات-.
- الخامس: لأشعار المدح التي أفردتها لأهل العلم والصَّلاح والتَّقَى من أعيان الأُمَّة المُحَمَّدِيَّة.

- السَّادس: لأشعار تنطوي ضمن أغراض متنوّعة بين الرِّثاء والمديح والهجاء والفخر والحكمة والوعظ والزُّهد.

- السَّابع: لأشعار الغزل والنَّسب، وهو يلي باب المديح النَّبَوِيَّ في السَّعة وكثرة الأبيات. ومن المُمكن القول إنّ الموضوعات التي نظم فيها أبو الهُدَى شعره بشكلٍ عامٍّ لا تكاد تتجاوز ما بَوَّها به النَّبْهائي في هذا الدِّوان، إذ ينطبق هذا التَّبويب على المجموع العامِّ لشعر أبي الهُدَى في ديوان الفيض المُحَمَّدِيَّ وغيره من جملة الدَّواوين الأخرى.

ب. ديوان قُرَّة العَيْن

هذا الدِّوان يلي سابقه في القَدَم إذ أشار أبو الهُدَى إلى أنَّه قد انتهى من نظمِه وترتيبه سنة (1301هـ/1883م)، وطُبِعَ في المطبعة العثمانِيَّة في إسطنبول سنة (1302هـ/1884م)، بمجلدٍ واحدٍ يقع في أربع وستين صحيفةً، تحت عنوان "قُرَّة العَيْن في مدح الإمام أبي العَلَمِينَ"، ولم يُراعَ في ترتيب قصائده أيُّ ترتيبٍ لا على الحروف الهجائيَّة ولا على غيرها، ولم تُمَيِّز القصائد بفصلٍ خاصٍّ بها ولا

الموشّحات كذلك، بل وُجِدَت القصيدة الطويلة بجانب التخميسة القصيرة لبيتين أو أكثر وقد يتلوها موشّحٌ تفتتح بعده قصيدة أخرى على قوافٍ مُختلفة وموضوعاتٍ متفرقة.²⁰⁰

ويُلمَح من خلال عنوان هذا الديوان أنَّ أبا الهُدَى أراد له أن يكون خالصًا مُجرَّدًا لمدح أبي العَلَمين، وهذا الشَّخص أحدُ أعلام أجداده وهو أحمد الرِّفاعي (ت. 578هـ/1182م) -صاحب الطَّرِيقَة الصُّوفيَّة-، وبالإمكان أن يُقال إنَّ هذا المدح من أبي الهُدَى لجدِّه يحملُ في ثناياه غرض الفخر أيضًا، إذ الرَّجل يفخر بإظهار مزايا جدِّه الحُسَينِيِّ ويُحِرُّ في الثَّناء عليها.

ومما يسترعي الانتباه في هذا الديوان هو ما تميَّز به من وجود الموشّحات التي يُمكنُ القول إنَّها كانت لخدمة الإنشاد الدينيِّ، مما يعكس للنَّاظر صورة ذلك الجوّ الصُّوفيِّ الطُّرقيِّ المُحيط بأبي الهُدَى في تلك الفترة؛ وقد حظي الديوان بتقريظٍ واحدٍ للمدِّرس بالجامع الأمويِّ آنذاك محمَّد صالح بن أحمد سعيد المُنيِّر (ت. 1321هـ/1903م).

ج. ديوان التَّبيان

هذا الديوان ثالث أقدم مجموعة شعريَّة يُوصَل إليها من شعر أبي الهُدَى بقرينة تاريخ طباعته، وقد قام بجمع أشعاره وترتيبها أبو الهُدَى نفسه وسَمَّاهُ "التَّبيان الجامع بين الحكمة والبيان"، ثم طُبِعَ تحت عنوان "التَّبيان"، وذلك بالمطبعة العموميَّة بمصر سنة (1315هـ/1897م) بمجلدٍ واحدٍ يقع في مئة وخمسين صحيفةً، ولم يُراعَ فيه ضبط الشَّكلِ في القصائد.

²⁰⁰ يُنظر: محمَّد أبو الهُدَى الصَّيَّادي، ديوان قَرَّة العين في مدح الإمام أبي العَلَمين (إستانبول: المطبعة العثمانيَّة، 1302هـ/1884م)، 11، 12، 14، 19.

وقدّم أبو الهُدَى لهذا الديوان بمقدِّمة أدبيّة عرّف فيها الشّعر من منظوره الأدبيّ أنّه: "نتيجة العقل وعقيلة الفضل وزبدة الأفكار وخزانة الأسرار وأتمودج الهَمَم ومراة الشّيم وجاذبة الأبواب وفاكهة الأنجاب وسيف الخطباء ونسمة الأريحية التي تهزُّ أطوار العُظماء"، ثمّ أشار إلى أهميّة الشّعر ورفع من شأنه فربط بين قوله تعالى: "يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا"²⁰¹ وبين الحديث النبويّ: "إنّ من الشّعرِ حكمة"²⁰²، ولم يُغفل أبو الهُدَى أن يلفت الأنظار إلى أنّ غرْبته وبعده عن أهله وقبيلته كانتا من أهمّ المُثيرات لأشجانه الشاعريّة التي دفعته لينظم في فنون الشّعر عدّة دواوين كان منها هذا الديوان الذي هدّبه وقدمه للقراء "ليكون طُرفةً إلى سوق الأدب وتحفةً يطربُّ بها أهل الميل لأدب العرب".²⁰³

وأبرز ما يميّز هذا الديوان ليس ترتيبُ قصائده على حروف الهجاء فحسب، بل ما قام به أبو الهُدَى من الإشارة إلى أسبابِ نظمهِ للكثير من تلك القصائد، وذكره للوقائع المُرتبطة بها،²⁰⁴ ويكاد الديوان يخلو من الموشّحات سوى ثلاثٍ منها،²⁰⁵ إضافةً إلى تضمينه لثلاثة نصوصٍ نثرية، الأوّل كان رسالةً بعثها إلى شخصيّاتٍ مرموقةٍ في الدّولة يُعلّق فيها تعليقاً على مسألةٍ لغويّةٍ²⁰⁶ دار النَّقاش فيها بينه وبينهم ويظهر فيها اطلاعُه الحثيث على كتب اللّغة والبلاغة العربيّة؛ والنّص النّثريّ

²⁰¹ البقرة 269/2

²⁰² محمّد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصّحيح، إعداد: محمّد زهير النّاصر، (بيروت: دار طوق النّجاة، 1422هـ/2001م)، "الأدب"، 78 (رقم 6145).

²⁰³ يُنظر: د.ت.ب، 2، 4.

²⁰⁴ يُنظر: د.ت.ب، 20، 32، 127.

²⁰⁵ يُنظر: د.ت.ب، 44، 117.

²⁰⁶ الشخصيّات هي الوزير جودت باشا وقاضي العسكر إبراهيم كمورجي ووكيل درس المشيخة الإسلاميّة بدار الخلافة عاصم أفندي، والمسألة هي قضية تعدي اسم الفاعل "ممثل" بنفسه أو بحرف جر.

الثاني يتضمن تعليقه على مسألة عقدية يُفصل فيها معاني التوحيد ويردُّ مذهب أهل الوحدة المطلقة ويبيِّن بطلانهُ قائلاً:

والوحدة الصِّرفُ وهُمَّ مَنْ يَقُولُ بِهَا بَعِيرٍ فَرَّقِ تَعَدَّى الْحَقُّ أَوْ كَفَرَا

وأما النص الثالث فلم يكن إلا خاطرةً خاطرت له في تحقيق عبارة "رَبِّ علم ثمرته جهل"،

حيث نظم في معناها بيتين ومن ثمَّ علَّقَ عليها.²⁰⁷

ومما يستدعي الاهتمام تنوُّع موضوعات هذا الديوان وتوزُّعها على أغراض الشعر كافة مع جودة النَّظم والسَّبك قياساً بديواني الفيض المَحْمَدي وقرة العين، ولربما يعود هذا إلى غنى التجربة الشعرية عند أبي الهُدَى وتطوُّرها عبر مرور عقد ونصف من الزَّمان على نظم أشعار الديوانين السَّابِقين؛ ولعلَّ كثرة التَّقارِيط التي نالها هذا الديوان تُفسِّرُ ما ذُكِر، حيث قرَّظهُ مجموعة من الأدباء والعلماء وأساتذة العربية منهم: الشَّاعر عبد الله فريج القبطي المصري (ت. 1325هـ/1907م) و أسمى تقرِيطه بـ: "قلائد العُفَيَّان"²⁰⁸ إلى التَّبيان"، ومنهم الشَّاعر الموسيقار المُلَّا عثمان الموصلي (ت. 1341هـ/1923م)، ومنهم الصَّيدلانيّ الأديب نقولا حدَّاد (ت. 1373هـ/1954م)، وآخرون من علماء مصر والأزهر، كلُّهم أثنوا على هذا الديوان وسجَّلوا ذلك بالنَّثر والنَّظم وأرَّخوا زمان طبعه وأجزلوا المدح لناظمه أبي الهُدَى.²⁰⁹

²⁰⁷ يُنظر: د.ت.ب، 11، 51، 60.

²⁰⁸ هو الذَّهب الخالص والعسجد وقيل أنَّه الذَّهب الذي ينبت نباتاً ولا يُسْتَدَّاب، يُنظر: ابن منظور، "عفا"، 81/15.

²⁰⁹ يُنظر: د.ت.ب، 135.

د. ديوان مرآة الشُّهُود

وهو ثاني أضخم مجموعة شعريّة لأبي الهُدَى، انتهى من جمعه وترتيبه سنة (1315هـ/1906م)، وطُبِعَ تحت عنوان "مرآة الشُّهُود في مدح سلطان الوجود"، وذلك في مصر بالمطبعة العموميّة سنة (1316هـ/1907م) بمجلدٍ واحدٍ يقع في مئتين وثمانين صحيفةً، رُتِبَت قصائدهُ وفق الحروف الهجائيّة، وضُبطَت بالشَّكل، وأُفِرِدَ القسم الأخير من الدِّيوان للموشَّحات التي زادت على العشرين.²¹⁰

وفي مُقدِّمة هذا الدِّيوان ينوّه أبو الهُدَى أنّ الباعث له على جمع هذه الأشعار هو إشارةُ والدِه إليه بجمع أشعاره المُتعلِّقة بغرض المديح النَّبويّ على وجه الخصوص، فتحركت همّته لذلك وقام بجمع هذا الدِّيوان وتنسيقه وترتيبه.

وأهمّ ما يلفت النَّظر في هذا الدِّيوان هو ظاهرة النَّفس الطَّويل لقصائده، لا سيّما إذا عُرف أنّ أوّل قصيدة افتُتِحَ بها الدِّيوان كانت تربو على ثلاثمئة بيتٍ ومطلعها:

لَكَ فِي مَهْمِهِ²¹¹ التَّجَلِّيُ الْبَهَاءُ يَا نَبِيًّا نُؤَابُهُ الْأَنْبِيَاءُ

ويُضافُ إلى هذه القصيدة أختها في الطُّول، وهي التي شَطَّرَ بها أبو الهُدَى قصيدة شرف الدِّين البوصيريّ (ت. 696هـ/1294م) المُسمّاة بـ: البُرّة - والمشهورة باسم "البُرّة" وغيرها من الأسماء-،²¹² وهي قصيدة ذاتُ حظوةٍ لدى شعراء العربيّة من لدن صاحبِها إلى عصر أبي الهُدَى،

²¹⁰ يُنظَر: محمّد أبو الهُدَى الصَّبَّادِي، ديوان مرآة الشُّهُود في مدح سلطان الوجود (مصر: المطبعة العموميّة، 1316هـ/1907م)، 212.

²¹¹ واحدُ المَهَامِ، وهي المفازة المُتراميّة الأطراف، يُنظَر: الجوهري، "مه"، 2250/6.

²¹² يُنظَر: رابع بوحوش، الثُّبَيْتَةُ اللَّغَوِيَّةُ لِبُرَّةِ البوصيريّ (الجزائر: ديوان المطبوعات الجزائريّة، 1982م)، 11.

تخميسًا وتشطيرًا وشرحًا ومعارضةً،²¹³ وقد بلغت مع تشطير أبي الهُدَى إلى ثلاثمئة وعشرين بيتًا،²¹⁴ ومطلعها:

(مَولاي صَلِّ وَسَلِّمْ دائِمًا أَبَدًا) على نَبِيِّكَ رَبِّ التَّاجِ والعَلَمِ
مَولاي جُدْ بِتَحِيَّاتٍ مُبارَكَةٍ (على حبيبِكَ خَيْرِ الخَلْقِ كُلِّهِم)

ويبدو أنَّ هذا التَّشطير انفرَدَ بفائقِ عنايةٍ من ناظمِهِ، فبعد أن أنْهَاه سنة (1308هـ/1890م)، قام بطبعِهِ في كُرَّاسَةٍ صَغِيرَةٍ بَلَّغَتْ ثَمَانِي عَشْرَةَ صَحِيفَةً بالإسْكَندَرِيَّةِ بالمطبعةِ الحَلَمِيَّةِ سنة (1309هـ/1891م)، أي أنَّ هذا التَّشطير قد رَأَى النُّورَ قَبْلَ إِعَادَةِ نَشْرِهِ مَرَّةً أُخْرَى مُكَرَّرًا في ديوانِ مَرَاةِ الشُّهُودِ ضَمِنَ قَافِيَةَ حَرْفِ الميمِ.²¹⁵

وتجدرُ الإِشارةُ إلى أنَّ هذا الدِّيوانَ على الرَّغْمِ من تجريدِ أبي الهُدَى فيه قَلَمَ نظمِهِ لغرضِ المديحِ النَّبَوِيِّ فإنَّ هذا لم يَحْرَمِ النَّاظِرَ في تلكِ القِصائِدِ من لَمَحِ أَغراضٍ أُخْرَى في ثَنائِها، وإنْ كانَ الغرضُ الرَّئِيسُ من تلكِ القِصائِدِ هو المديحُ النَّبَوِيُّ؛ وأَمَّا الموشَّحاتُ فَقَدْ تَجَرَّدَتْ كُلُّها لغرضِ المديحِ النَّبَوِيِّ وأُشْرِبَتْ شَيئًا من الغزلِ الرَّقيقِ والنَّسيبِ، وَقَلَّ تَدَاخُلُ أَغراضٍ أُخْرَى ضَمِنَ تلكِ الموشَّحاتِ. وحظيَ هذا الدِّيوانُ بتقارِيطٍ عَدِيدَةٍ من أَقطارِ شَتَّى من الشَّامِ وأَزهَرِ مِصرَ والجزائرِ والمِغربِ ومن هؤُلاءِ المُقَرِّطِينَ عبدُ الرِّزاقِ البِيطارُ وعضوُ لَجنةِ كِبارِ عِلماءِ الأَزهَرِ مَفْتِي المالكِيَّةِ أَحْمَدُ الجِيزاوي (ت. 1323هـ/ 1905م) وعبدُ الرَّحْمَنِ مُحَمَّدُ عَليش المالكِي (ت. 1346هـ/ 1928م) والقاضي عبدُ الرَّحْمَنِ عَليش (ك. ح. 1316هـ/ 1907م) وجماعةٌ آخرون.

²¹³ يُنْظَرُ: أَحْمَدُ بنُ حَجَرِ الهَيْتَمِي، العُمْدَةُ في شَرْحِ الثُّبُوتِ، تَحْقِيقُ: بَسَامُ بارود، (عَمَّانُ: دارُ الفَتْحِ، د.ت)، 44، 54، 57.

²¹⁴ يُنْظَرُ: د.م.ش، 5، 6، 159.

²¹⁵ يُنْظَرُ: مُحَمَّدُ أبو الهُدَى الصَّبَّادِي، تَشْطِيرُ الثُّبُوتِ (الإسْكَندَرِيَّةُ: المطبعةُ الحَلَمِيَّةُ، 1309هـ/1891م)، 2.

هـ. ديوان الرّوض البسيم

وهو ديوانٌ صغيرٌ الحجمُ جمعه أبو الهُدَى وطُبِعَ سنة (1322هـ/1904م) بمجلدٍ واحدٍ يقع في ثمانٍ وسبعينَ صحيفةً تحت عنوان "ديوان الرّوض البسيم" ولم يُعَلَم مكان النّشر والنّاشِر، ورتّبت قصائدهُ وفق قوافيها على الحروف الهجائية، وتراوحت بين القصّر والطُّول فأطولها همزيّة افتتح بها الدّيوان وصلت إلى مئة بيت ومطلعها:

"ماردّدت في الأيكة²¹⁶ الورقاء إلا ورّدَدَ للشّجّي بُكاءُ"²¹⁷

وقصّرت بعض أشعار الدّيوان حتى لم تتجاوز البيت والبيتين، ولم يُراعَ في جميع الدّيوان ضبط الشّكل، ولم تُردف صَفحاته الأخيرة بأيّ تقريظ؛ وقد غلبَ على هذا الدّيوان الطّابع الغزليّ الرقيق، وإليه أشار أبو الهُدَى في صدرِ الدّيوان حيث قال: إنّه جمع فيه شعره "رقيق المبنى لطيف المعنى".²¹⁸

و. ديوان روضة العرفان

هذا الدّيوان كسابقه في صغر الحجم إذ جمعه أبو الهُدَى ورتّبه فطُبِعَ سنة (1322هـ/1904م) بمجلدٍ واحدٍ يقع في ثمانٍ وسبعينَ صحيفةً تحت عنوان "ديوان روضة العرفان المُدَيَّلة منظوماته بمنثور الدُرر الحسان"، ولم يُعَلَم مكان النّشر والنّاشِر، واشتمل هذا الدّيوان على تسعٍ وعشرين قصيدةً مُرتبةً وفق قوافيها على الحروف الهجائية لكلِّ حرفٍ قصيدةٌ واحدةٌ، وصُدّرت مقدّمته بقصيدتين، وتراوحت

²¹⁶ الشّجرة الكثيفة المُلتقّة، وهي واحدُ الأيك، يُنظر: الجوهري، "أيك"، 1573/4.

²¹⁷ د.ر.ب، 3.

²¹⁸ يُنظر: د.ر.ب، 2.

قصائد الديوان بين القصّر والطول ولم تلمح فيما بينها قصيدة فارعة الطول كما في الدواوين السابقة، وخلّت هذه الطبعة من ضبط للشكل وكثرت فيها الأخطاء الإملائية والمطبعية.

ويتميّز هذا الديوان عن غيره من دواوين أبي الهدي بالامتزاج بين نتاجه الأدبي، الشعري منه والنثري، فقد أعقب كلّ قصيدة بتعليق لطيف على معنى من المعاني التي وردت فيها، وتارةً يتلو القصيدة بخاطرة سنحت لباله أحب أن يُشير إليها، مُستشهدًا بكلام أهل العلم والأدب السابقين وأشعارهم التي تؤيّد ما يذهب إليه، ولذلك فيمكن القول: إنّه ديوانٌ مزدوجٌ بين نثر الرجل ونظمه؛ ويُضاف إلى هذا أنّ من مميّزات قصائده غلبة الطابع الحكميّ عليها إضافةً للطابع العزليّ في كثيرٍ من الأحيان وخلوّه من أغراضٍ أخرى تمامًا كالرثاء مثلاً.²¹⁹

وقد يحسّن الاستشهاد بقطعةٍ من نثره الأدبيّ عرضَ فيها حقيقةً فناء الدنيا وتحول أحوالها وتقلُّبها فقال:

"هذه الأكوانُ حقائقٌ حكيمٌ لرقائقٍ فهمٍ "إنّما يتذكّرُ أوّلُ الألبابِ"،²²⁰ ظلالٌ ورأها زوالٌ، وحيالٌ يعقبه انتقالٌ، من أمعن النظرَ في ماضيه رفعَ الهمةَ عن آتیه، وما حرصَ على ما هو فيه، لا تبدؤ في نسيجه فرحةً إلا واندمجَ فيها ترحّةً، ولا انبلجَ من سمكه صُبْحٌ وجدانٌ إلا احلوكَ فيه ليلٌ فقدانٌ، طريقٌ فراقٍ ما فيه رفاقٌ، دوامُ الحالِ فيه مُحالٌ، حالٌ حائلٌ وظلٌّ زائلٌ".²²¹

²¹⁹ يُنظر: د.ر.ع، 3، 4، 8.

²²⁰ الرَّعد 19/13.

²²¹ د.ر.ع، 4.

ز. ديوان الدر المنتظم

وهو أضخم مجموعة شعرية وصلت إليها الأيدي من أشعار أبي الهدي، طبع سنة (1322هـ/1904م) تحت عنوان "ديوان الدر المنتظم مختصر براهين الحكم" بمجلد واحد يقع في اثنتين وثلاثمائة صحيفة، ولا يعرف مكان النشر والناشر، ورُتبت قصائده وفق قوافيها على الحروف الهجائية، ولم يُراعَ فيه ضبط الشكل، ولم يُردف بأي تقريب على الرغم من أنه الأكبر حجمًا بين دواوين أبي الهدي، كما خلا من النشر فيما عدا المُقدِّمة والخاتمة التي ذيلها بها بشيء من الكلام على الشعر العربي وموضوعاته، وفي صفحاته الأخيرة ذُكرت ترجمة أبي الهدي الرسمية وأشير فيها إلى سلسلة نسبه الحسيني، وسُردت عناوين مؤلفاته.

وقد عمد أبو الهدي إلى اختصاره من ديوان له آخر كثير المادّة ضخم الحجم صعب الحمل -على حدّ قوله- وهو "ديوان براهين الحكم"، فقام بتنسيقه وترتيبه مُختصرًا ليسهل تداوله بين الأيدي، وأودعه "الأساليب الأدبية الرقيقة والأعاجيب العرفانية الرشيقة".

وأبرز ما يميّز به هذا الديوان غزارة الموضوعات التي دار في فلكها شعر أبي الهدي، وتراوح ما أودع فيه من الأشعار بين الطول والقصر، بينما ندرت فيه الموشّحات، ومما يسترعي الانتباه في هذا الديوان أنّ ناظمه كان يحرص على تأريخ الوقائع التي نظم لأجلها هذه الأشعار، عبر ذكر التوقيات السنوي أو بذكر سبب النظم لغالب تلك القصائد والأبيات.²²²

²²² يُنظر: د.ر.ت، 2، 3، 92، 261، 395.

ح. ديوان أزهار الحديقة

وهو مجموعة شعرية لطيفة انتهى أبو الهدي من ترتيبها وتنسيقها سنة (1323هـ/1905م)، وطُبعت في زمانه، ثم طُبعت مرّة ثانية سنة (1395هـ/1975م)، بتحقيق الأستاذ عبد الحكيم عبد الباسط وآخرين، تحت عنوان "أزهار الحديقة" بمجلد واحد يقع في مئتي صحيفة، وقد روعي في غالب أبياتها ضبط الشكل، وفي كثير من المواضع لم يحرص المحققون على عزو الأبيات إلى مظانها أو إلى قائلها؛ على أنّ البحث قد اعتمد هذه الطبعة المُحقّقة، لعدم توفّر النسخة التي طُبعت في زمان المؤلف.

والديوان قائم على فكرة مُنقّدة في ذهن أبي الهدي، قوامها أن يأتي بلطائف أشعار الحكماء والبلغاء والشُعراء وفُضلائهم بمن سبقوه في العصور السابقة على اختلاف أزمانهم حتى بمن عاصره من الفضلاء، فيذكر قصائدهم أو مقطوعاتهم أو حتى يتيم أبياتهم -بعد نسبتها إليهم- ثم ينسج على منوالها تذيلاً من نظمه فيأتي بالبيت أو البيتين أو يسترسل فيتمّها بالقصيدة الكاملة، أو يكتفي بتشطير أو تخميس لأبيات السابقين، فيزيد معانيها غزارةً بمعانٍ آخر ويأتي بصورٍ مُختلفةٍ أو يوضح ما غمض وأغلق من مُراداتها التي نُظمت لأجلها، ولعلّ أكثر من اهتم بسوق أشعاره هو أستاذه العراقي بهاء الدين الرّوّاس؛ وقد يُعرض عن كلّ ما سبق فيأتي بقصائد له مُفردةٍ أو بمقطوعاتٍ لم يلحقها بقول أحدٍ من السابقين.

ومما يلفت النظر في هذا الديوان سعة اطلاع أبي الهدي على الأدب وعصوره بدءاً من العصر الجاهليّ إلى زمانه، إضافةً إلى أنّ اختياراته تُبرّز ذائقته الشعرية، إذ اختيارُ الأشعار ليس من السّهولة

بمكانٍ فقد قيلَ في أبي تَمَّام واختياراته في حماسيته أنه فيها "أشعرُ منه في شعره"،²²³ لأهميته باب الاختيار والانتقاء من سجلّ الأدب العربي؛ وإلى جانب هذا كله فقد كانت موضوعات الشعر التي اختارها متنوّعة يغلب عليها النفس الحكيمِي والصوفي والغزلي.²²⁴

ط. ديوان اللؤلؤ والمرجان

الذي يظهر للباحث أنّ هذا الديوان لم يُطَبَّع لا في حياة الناظم ولا بعدها، وقد عُثِرَ على مخطوطةٍ لهذا الديوان محفوظةٍ بدار الكتب والوثائق القومية في مصر برقم: (75277ز)، مكتوبةٍ بخطٍ واضحٍ، نُسِّقَت فيه القصائد وفق القوافي على الحروف الهجائية، وزادَ عددها على العشرين، ولم يُلَمَح فيها تخميسٌ أو موشحٌ، ولم يُرَاعَ فيها ضبطُ الشكل، ولم يُعرَف اسمُ ناسِخِها، وبلغت عدد صحائفها تسعًا وأربعين صحيفةً.

وقد أشار أبو الهدى في مُقَدِّمَةِ هذا الديوان إلى أنه عَزَمَ على أن يكون ديوانًا جامعًا لمنظوماتٍ شعريّةٍ في المديح النبويّة مُرتَّبَةٍ وفق قوافيها على الحروف الهجائية، ولم يقتصر على القصائد المدحية التي نظمها هو فحسب، وإِنَّمَا ضَمَّ إلى جانبها مدائح نبويّة أُخِرَ من نظم أستاذه الرّؤاس، وحرصَ في كلّ قافيةٍ على تقديم قصائد أستاذه أوّلًا ومن ثَمَّ الإتيان بقصائده، وكان يسمّي القصيدة التي من نظم أستاذه بـ: "اللؤلؤة"، والتي من نظمه هو بـ: "المرجانة"، ولعلّ هذا التّرتيب هو الذي وراء عنوان الديوان، حيثُ سَمَّاهُ: "ديوان اللؤلؤ والمرجان في مدائح حبيب الرّحمن عليه صلوات الملك الدّيان".²²⁵

²²³ عبد القادر بن عمر البغدادي، خزائن الأدب ولُبُّ لُبَابِ لِسَانِ الْعَرَبِ، تحقيق: عبد السلام هارون، (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1418هـ/1997م)، 357/1.

²²⁴ يُنظر: در.ح، 6، 11.

²²⁵ يُنظر: محمد أبو الهدى الصّبادي، ديوان اللؤلؤ والمرجان في مدائح حبيب الرّحمن عليه صلوات الملك الدّيان (القاهرة: دار الكتب والمخطوطات والوثائق القومية المصرية، 75277ز)، 2، 3، 49.

إلا أنَّ هذه المخطوطة التي وصلت إليها يدُ البَحث لم تصل قصائدها إلى كافَّة الحروف الهجائيَّة، بل وصلت فيها القوافي إلى حرف الحاء، ولا يُدرى أهو نقصٌ لم يُتمِّمه ناسِخُ المخطوطة؟، أم هو نقصٌ في المخطوطة نفسها؟، أم أنَّ أبا الهُدَى لم يُتمِّ مشروع ديوانه هذا؟، ولم يُلح في الأفق - إلى الآن - ما يُرَجِّح واحداً من هذه الاحتمالات الواردة على الآخر.

ي. نَوَابِغُ الْحِكَمِ

رسالةٌ لطيفة الحجم، مزدوجةٌ بين النثر والنظم، انتهى يراعُ أبي الهُدَى من رَقْمِهَا سنة (1323هـ/1905م)، وطُبِعَتْ في مصر بمطبعة علي سكر سنة (1326هـ/1908م)، وتقع في ستِ وثلاثين صحيفةً، وتحتوي على تخميسٍ واحدٍ وخمسة عشرَ قصيدةً شعريَّةً، لم تُرتَّب على الحروف الهجائيَّة، بل على حسب موضوعاتها، ولم يُراعَ في كامل الرِّسالة ضبط الشَّكل وخَلَّت من أيِّ من علامات التَّرقيم.

وحقيقةُ الرِّسالة هذه إمَّا هي عُصَارَةُ خُلَاصَةِ تجربةِ رجلٍ جَرَّبَ الحياة وخَبِرَها بكلِّ أطوارها خفَضاً وارتقاءً، كَدَرًا ونقاءً، وخالط النَّاس على اختلاف طبقاتهم وأشكالهم، وتمايُرِ عِلَاقَتِهِم وألوانِهِم، وعائِنَ وعائِي صنوفَ طبائعِهِم وتعدَّدَ أغراضِهِم، وخَبِرَهُم حقَّ الخِبرة، ثم خرجَ للقارئ بخلاصة ما عاينَه وما عاناه في زمانه لينصَحَهُ ويعطِيَهُ حقائقَ حياةٍ ذلك العصر، ومن هنا فلن يُتَّعَدَ عن الحقيقة إن قيلَ إِنَّ الرِّسالة هذه مرآةٌ لَذاك الزَّمان عكست صورَهُ وحقائقَهُ بلسان الحكيم العاقل.

وقد حرص أبو الهُدَى في هذه الرِّسالة ألا يأتي إلا بكلامِهِ، ولم يُلحِق به أيَّ كلامٍ آخر، لا للسَّلَف ولا للخَلَف، على الرَّغم من أنَّها لم تبتعد عن ساحلِ بحرِ أفهامِهِم ومعانيهِم؛ ويسترعي الانتباه أنَّ الرَّجلَ صاغَ الرِّسالة بصورةَ الحِكم، الحِكْمَة تلو الأخرى، على تنوُّعٍ في موضوعاتها، مُراعياً في كُلِّ

ذلك بلاغة العبارات ومَوْثِيًّا لها بالمُحَسِّنَات البديعية والسَّجْع والمَجَاز، مُضَفِّيًا عليها بذلك الصَّبْغَةُ الأدبِيَّة؛ وتخلَّل ذلك إتيانه ببعض قصائده وأبياته التي نظمها متناسبةً مع مقام كلِّ حكمةٍ من تلك الحِكَم، وقد أفرَدَ الكلام على الشِّعْرِ بقصيدةٍ مطلعها:

هل الشِّعْرُ إلا حكمةٌ ورقيقةٌ تُفاضُ لذي السَّمْعِ النَّقِيِّ الذي يدري²²⁶

وفي هذه القصيدة بيَّن جميع أنواع الشِّعْرِ -برأيه- ثم ساق بعد هذا على كلِّ نوعٍ من الأنواع الشِّعْرِيَّة التي ذكرها قصيدةً أو أبياتاً له كي تكون مثلاً على هذا النوع، وبهذا يصحُّ أن يُقال: إنَّ هذه الرِّسالة احتوت على اختيارات نفائس قصائد أبي الهُدَى التي يراها تصلح أن تكون أنموذجاً على ذائقته الشِّعْرِيَّة وسليقته الأدبِيَّة.²²⁷

ك. منظومة آيات العرفان

وهي منظومةٌ شعريَّة، انتهى أبو الهُدَى من نظمها سنة (1302هـ/1884م)، وجاوزت أبياتها مئةً بيت، وطُبعت في ذات السَّنَةِ في إستانبول بمطبعة مهران، بكرَّاسَةٍ لطيفةٍ تقع في بضع عشرة صحيفة، تحت عنوان "آيات العرفان في مولد سيِّد ولد عدنان عليه أفضل الصَّلَاة والسَّلَام كلَّ آن"، ومطلع المنظومة:

نحمدُ اللهَ لَدَى بَدْءِ الكَلَامِ وعلى سِرِّ الوَرَى أَرْكَى السَّلَامِ
وعلى الالِ الميامينِ الخِيَارِ وعلى الأصحابِ أصحابِ الفَخَارِ²²⁸

²²⁶ يُنظر: محمد أبو الهُدَى الصَّبَّادِي، نوابغ الحِكَم (مصر: مطبعة علي سكر، 1326هـ/1908م)، 23.

²²⁷ يُنظر: الصَّبَّادِي، نوابغ الحِكَم، 2، 13، 25، 29.

²²⁸ محمد أبو الهُدَى الصَّبَّادِي، آيات العرفان في مولد سيِّد ولد عدنان (إستانبول: مطبعة مهران، 1302هـ/1884م)، 2.

ويُتضح من خلال عنوانها الغرض الذي قامت عليه وهو نظم قصّة المولد النبويّ، وقد أشار زكي مبارك (ت. 1371هـ/1952م) إلى اندراج هذا النوع من النظم ضمن موضوع المديح النبويّ،²²⁹ وإن كان هذا النوع يعني بما يتعلّق بأخبار ولادة النّبيّ الكريم على وجه الخصوص، ولم يكن شأنُ النّاظم غريباً في هذا الاعتناء، بل هو شأنُ العديد من السّابقين الذين اعتنوا بقصّة المولد النبويّ، من أمثال ابن الجزريّ (ت. 833هـ/1429م)²³⁰ وابن حجر الهيتمي (ت. 974هـ/1566م)،²³¹ وملاً علي القاري (ت. 1014هـ/1605م)²³² وغيرهم ممّن قبلهم وممن جاء بعدهم -على اختلافٍ مناهجهم في تناول القصّة؛²³³ وإذا كان الحافظ ابن ناصر الدّين الدّمشقيّ (ت. 842هـ/1438م) وغيره قد صاغوا القصّة بأسلوبٍ أدبيّ نثريّ،²³⁴ فإنّ أبا الهدى صاغ قصّة المولد النبويّ بالأسلوب الأدبيّ الشّعريّ، واختار لمنظومته بحر الرّمل، ولربما كان السّبب في هذا الاختيار هو ما يحمله وزنه العروضيّ من نغم غنائيّ بسيطٍ²³⁵ يتناسب مع الأجواء الإنشاديّة في البيئة الصّوفيّة التي أحاطت بالنّاظم، إلا أنّ عين النّاظر لا تقع في هذه المنظومة على أبوابٍ أو فصولٍ مُحدّدة تُنبئُه بموضوعات المنظومة، وإنّما يُلمح الانتقال بين موضوعاتها من خلال تكرار البيت الذي يقول فيه:

²²⁹ يُنظر: زكي مبارك، المديح النبويّة (القاهرة: دار المحجّة البيضاء، 1354هـ/1935م)، 200.

²³⁰ يُنظر: أبو الخير محمّد بن الجزري، عرف التّعريف بالمولد الشّريف، تحقيق: محمّد أبو الخير الملقّي، (بيروت: دار الحديث الكتّانية، د.ت)، 7.

²³¹ يُنظر: أحمد بن حجر الهيتمي، المُختصر من إتمام النّعمة الكبرى على العالم بمولد سيّد ولد آدم، تحقيق: مُرهف عبد الوهّاب الهوّاس، (د.ت.ن)، 3.

²³² سمّاه "المورد الرويّ في المولد النبويّ"؛ يُنظر: ملا علي بن سلطان القاري، مجموع رسائل الملا علي القاري، إعداد: ماهر أديب حبوش وآخرين، (إستانبول: دار اللباب، 1437هـ/2016م)، 373.

²³³ يُنظر: عبد الرّحيم بن الحسين العراقي، المورد الهني في المولد السنّي، تحقيق: عمر أعميري، (القاهرة: دار السّلام، 1431هـ/2010م)، 63، 88.

²³⁴ يُنظر: شمس الدّين بن ناصر الدّين الدّمشقيّ، مورد الصّادي في مولد الهادي، تحقيق: إبراهيم راشد المريخي، (القاهرة: الدّار الغنّاء، 1429هـ/2008م)، 29.

²³⁵ يُنظر: أحمد الهاشمي، ميزان الدّهَب في صناعة شعر العرب، تحقيق: علاء الدّين عطية، (دمشق: دار البيروني، 1427هـ/2006م)، 81.

فَعَلَى الْمُخْتَارِ هَادِي الْكَائِنَاتِ وَعَلَى آلِ وَصَحْبِ صَلَوَاتِ

فبعد افتتاحه لها بالحمد والصلوات والصعود إلى ذكر أشرف السمات للنبي الكريم، انتقل إلى بدء خلق الله للخلقة، ثم إلى ذكر نسبه الطاهر من سفاح الجاهلية، وحمل أمه آمنة به وما رافق مولده من إرهابات، وفي ختام المنظومة دعا الناظم للسُّلطان عبد الحميد "أمير المؤمنين" و"ملك الأمة" و"عزّ المسلمين"، وأنهاها بالصلاة والسلام على النبي الكريم.²³⁶

ل. منظومة زاد القيامة

وهي منظومة طُبعت سنة (1323هـ/1905م) في مصر بمطبعة الطاهر في كراسٍ يقع في عشرين صحيفةً، تحت عنوان "قصيدة زاد القيامة في شيء من أخبار الحبيب المظلل بالغمامة"، صُدّرت بمقدِّمة لناظمها بيّن فيها غرضه من نظمها؛ وفاق عدد أبياتها ثلاثمئة بيتٍ مضبوطة بالشكل، اختار لها ناظمها وزن البحر الخفيف،²³⁷ واستهلها بمطلع يقول فيه:

هي ذي الشمسُ أشرقت للعبادِ فضَحَّ الضَّوءُ جَحَدَ أَهْلِ الْعِنَادِ²³⁸

وفي هذه القصيدة يصبُّ الناظم اهتمامه على أخبار السيرة النبوية وأحداثها، فينشر ما انطوت عليه كُتُبُ السِّيَرِ والمغازي من حياة النبي الكريم وأخباره، بدايةً بذكر نسب النبي الطاهر صلى الله عليه وسلم وإرهابات مولده، وتتنقّل أبيات المنظومة بين أحداث حياته من رضاعته إلى يُتمِّهِ وصولاً إلى شبابه، وسفره للشَّام والإرهابات التي رافقت بعثته، وما تلا ذلك من الدَّعوة إلى الإسلام وهداية الخلق

²³⁶ يُنظر: الصَّيَّادِي، آيات العرفان، 4، 15.

²³⁷ يُنظر: الهاشمي، الميزان، 95.

²³⁸ محمّد أبو الهدى الصَّيَّادِي، قصيدة زاد القيامة في شيء من أخبار الحبيب المظلل بالغمامة (مصر: مطبعة الطاهر، 1323هـ/1905م)، 3.

لمنهج الحق وإعراض بعضهم وإقبال الآخرين، ويتخلل الأبيات مدح للنبي الكريم وشمائله وشيمه وأخلاقه ومعجزاته، وإشادةً بمجاهده بذكر غزواته وسراياه ضد أعداء الدين، ولمّا انتهى أبو الهدي إلى وفاته شرع بمدح شريعته المظهرة من كل زيغ وضلال، ثم اختتمها بشكوى الزمان المرير الذي تعدت عليه فيه الهموم والأكدار، ورَجَا أن ينال شفاعته النبي الكريم، ليختتم المنظومة بقوله:

قل بِذَيْلِي مَطْوِي نُشْرِ أَمَانٍ كُلَّ آنٍ أَبُو الْهُدَى الصِّيَادِي²³⁹

ولا غرو أن يُفرد أبو الهدي من شعره نصيباً للسيرة النبوية والشمائل، -وهو الذي طالما سرح نظره في حداثق كتبها-، فإذا كانت السيرة النبوية قد بُدئ بتدوينها -نثراً- في القرن الأول للهجرة، فإنه من المهم معرفة أن نظم السيرة النبوية والشمائل تأخر عدة قرون حتى بدأ في القرن الخامس الهجري، ولعل أول ما يلوح في سماء هذه المنظومات قصيدة أبي محمد عبد الله بن زكريا الشنقراطي (ت. 466هـ/1073م) التي كانت عدتها مئة وثلاثة وثلاثين بيتاً، افتتحها بقوله:

الحمد لله مِنَّا بَاعَثَ الرُّسُلَ هدى بِأَحْمَدَ مِنَّا أَحْمَدَ السُّبُلِ²⁴⁰

ثم توالى بعده المنظومات بين مكثر أبياتها ومقل، إلى أن وصلت أشهرها إلى ألف بيت، وبعضها انمالت عليها الشروح والحواشي -كألفية الحافظ زين الدين عبد الرحيم العراقي (ت. 806هـ/1403م)-،²⁴¹ وقد رصد-لا على سبيل الحصر- جلال شوقي هذه المنظومات فقيّد أكثر من مئة وأربعين

²³⁹ الصِّيَادِي، زاد القيامة، 19.

²⁴⁰ يُنظر: أبو محمد عبد الله الشنقراطي، القصيدة الشنقراطية، تحقيق: نزار حنّادي، (تونس: دار الإمام ابن عرفة، د.ت)، 3.

²⁴¹ يُنظر: زين الدين عبد الرحيم العراقي، نظم الدرر السنية في السير الزكية، تحقيق: محمد علوي المالكي، (جدة: دار المنهاج، 1426هـ/2005م)،

منظومة في السَّيَر والشَّمَائِل، على امتداد العصور منذ القرن الخامس إلى نهاية القرن الرَّابِع عشر الهجري.²⁴²

ومن الممكن أن يُقال إنَّ منظومة أبي الهُدَى لا تقوم في جوهرها على تفصيل أدقِّ دقائق السَّيرة كما حصل في بعض مطوَّلات المنظومات - مثل ألفية العراقي -، بل تقوم على سرد تلك الأحداث سرداً موشَّى بحليَّة الصَّنعة الأدبيَّة، ولعلَّ ما يدلُّ على ذلك أنَّ أبا الهُدَى لمَّا وصل به المَطاف إلى ذكر غزوات النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اكتفى بتعدادِ أسمائها فقط؛ فقال:

وَبِيدِرْ زَهَا لَهُ بَدْرُ نَصْرِ وَلأَصْحَابِهِ أُسُودُ الْجِهَادِ
بَنِي قَيْنُقَاعَ أَفَلَتْ حَيَّلاً كَمْ بِبَاسٍ دَاسَتْ رُؤُوسَ الْأَعَادِي
جَنْدَلُ الْمَارِقِينَ²⁴³ فِي غَزْوَةِ الْجَنْدِ سَلَّ سُلْطَانُ عَزَمِهِ الْوَقَادِ
أَيَّدَتْهُ الْآيَاتُ وَالْمَدْدُ الْوَضَّا حُ فُلُونُ الْأَعْدَاءِ لُونُ الْجِسَادِ²⁴⁴

وكأنَّ أبا الهُدَى أراد لَمَن يلمَحُ هذه الأبيات أن يجولَ في ميدان البيان الأدبيِّ والصَّنعة البديعيَّة التي رفَلَتْ بها، وتركَ لروح السَّامع أن تستقي من معاني الحبِّ المُتَدَقِّقة من بين جوانبها، وبهذه العيِّنة من الأبيات قد يُوَكَّدُ أنَّ الخوض في التَّفصيل لم يكن غرضاً أساساً فيها.

²⁴² يُنظر: جلال شوقي، "منظومات السَّيرة النَّبويَّة حتى نهاية القرن الرَّابِع الهجري"، مجلة مركز بحوث السُّنَّة والسَّيرة 2/2 (1407هـ/1987م)، 614، 532.

²⁴³ صَرَعَهُمْ وَطَعَنَهُمْ وَطَرَحَهُمْ أَرْضاً، يُنظر: أحمد مختار عبد الحميد، معجم اللُّغة العربيَّة المعاصرة (بيروت: دار عالم الكتب، 2008م)، "جندل"، 404/1.

²⁴⁴ الصَّبَّادِي، زاد القِيامة، 14-15؛ والجِسَادُ من أسماء الرِّعَفران وغيره من كلِّ صُبْغَةٍ حمراء شديدة الحمرة أو صفراء شديدة الصَّفرة، يُنظر: ابن منظور، "جسد"، 121/3.

3 ملاحظات في دواوينه الشعرية

إنَّ المُطَّلِعَ على دواوين أبي الهُدَى سيلمَحُ عدَّةَ ظواهرٍ لعلَّ أهمَّها:

■ حِرْصُهُ على تسمية هذه الدَّواوين وعدم إهمالها، مُخَالِفًا بذلك ما دَرَجَ عليه غالبُ الشعراءِ الأوائل.

■ تفاوتُ هذه الدَّواوين في القِصَرِ والطَّوْلِ، كما تفاوتت الأشعارُ ما بين أبياتٍ يتيمةٍ ونُتْفٍ شعريَّةٍ أو مقطوعاتٍ قصيرةٍ أو قصائدٍ مُطَوَّلَةٍ؛²⁴⁵ وقد حَظِيَ ديوان "الدُّرِّ المنتَظَم" بالنَّصيبِ الأوفى من غزارةِ الأشعار، وفي مُقابله لم يحظَ ديوانُ "روضةِ العرفان" إلا بثمانٍ وعشرين قصيدةً فقط؛ ولمَّا كان جُلُّ هذه الدَّواوين طُبِعَ قبل ما يزيد على قرنٍ من الزَّمان، فقد كان غالِبُها يحتاجُ إلى إعادةِ نظرٍ في ضبطِ الكلمات، ومزيدٍ تدقيقٍ في الاقتباساتِ والتَّضميناتِ والتَّشطيراتِ أو التَّخميساتِ التي قام بها الشَّاعرُ نافيلاً من سَبَقُهُ دون أن يُحيلَ القارئُ إلى مظانِّ هذه النُّقولاتِ أو حتى أن يُشيرَ إليها.

■ وإنَّ تنوُّعَ هذه الدَّواوين لم يكن سَبَبًا في تنوُّعِ أغراضِ أشعارها المودَّعةِ فيها، بل قد اقتَصَرَ بعضها على غرضٍ مُعيَّنٍ دونَ غيره من الأغراضِ؛²⁴⁶ كما يُلَمَحُ أنَّ الأشعارَ التي تندرجُ تحتَ غرضٍ مُعيَّنٍ قد تكونُ في ديوانٍ ما مفقودةً تمامًا، أو ربما نادرةً أو ضحلةً المعاني، وفي آخرٍ غزيرةً تصلحُ للتدقيقِ والتَّعمُّقِ فيها؛²⁴⁷ مما يعني أنَّ مَنْ أرادَ الإلمامَ بأغراضِ

²⁴⁵ البيت الواحد يُسمَّى بيتيًّا، والبيتان والثلاثة نثقةً، والأبيات السبعة قطعاً، فإن تجاوزت الأبيات ذلك سُمِّيت قصيداً، واستحسن الرَّافعي قَصَرَ مُسمَّى القصيدة على ما جاوزَ عشرين بيتاً؛ يُنظر: الرَّافعي، آداب العرب، 3/29؛ عيسى علي العاكوب، موسيقا الشعر العربي (دمشق: دار الفكر، 1421هـ/2000م)، 52.

²⁴⁶ كديوان قَرَّةِ العين المقصور على غرضِ المديح، وديوان مرآة الشُّهود المقصور على غرضِ المديح النَّبويِّ.

²⁴⁷ فديوان روضة العرفان خلا من غرضِ الرِّثاءِ تماماً، ولم يَرِدْ غرضُ الوعظِ في ديوان الفيضِ المُحمَّديِّ إلا نادراً.

الشاعر فإنه سيظفر بها إذا ما نظر في مجموع دواوينه كلها، ولم يقصر نظره على واحد من هذه الدواوين ويهمل بقيتها.

■ ظاهرة التكرار هي أبرز الظواهر في جملة دواوين أبي الهدي، فلربما تكررت القصيدة الواحدة في أكثر من ديوان، ولعل أكثر الدواوين تداخلاً في تكرار القصائد ديوان "الفيض المحمدي" وديوان "مرآة الشهود"، وفي بعض الأحيان تختلف رواية بعض أبيات القصائد اختلافاً بسيطاً عن رواية ديوان آخر.

■ كما أن هذه الدواوين دلت على غزارة الإنتاج الشعري لأبي الهدي، فقد ربا عدد أبياتها على عشرة آلاف بيت، استوفت كل أوزان البحور الشعرية إضافة إلى بعض أوزان الموشحات؛ غير أن الأمر الأبرز الذي يلاحظ على جملة هذه الأبيات، هو ترددها على وتيرتين مختلفتين هما النظم والشعر، فليس من الصواب أن يطلق على هذا الكم الكبير من الأشعار كلها مسمى الشعر - وإن كان هو الأغلب في عمومها -، كما أن الإنصاف لا يسمح بوصفها كلها بالنظم المبتدل؛ وهذا يؤدي بالضرورة إلى الوقوف على مفهوم الشعر بمعناه الحقيقي وتمييز افتراقه عن مفهوم النظم؛ وهي مهمة الصفحات القادمة.

الفصل الثاني

(أَغْرَاضُهُ الشَّعْرِيَّةُ)

تمهيد: حول مفهومي الشعر والغرض الشعري

لَمَّا كَانَ جوهرُ البحثِ قائمًا على ركنين أساسيين هما الشَّاعر وأغراضُه الشعريَّة، لم يكن بدُّ من المرورِ أوَّلاً على مفهومِ الشَّعرِ لِيَتَوَصَّلَ إلى كَيْفِيَّةِ تَقْيِيمِ نِتَاجِ أَبِي الهُدَى الشعريِّ وفقَ هذا المفهوم؛ ومن ثَمَّ المرورُ على مفهومِ الغرضِ الشعريِّ ثانيًا، لكي يُسَلِّطَ الضَّوءَ على العصرِ الذي يُمكنُ أن تُعزى إليه أغراضُ الشَّاعرِ وتنتمي إليه.

1 الشعر

إنَّ لفظَ الشَّعرِ في اللُّغةِ يأتي بمعنى العلمِ بالشَّيءِ والفِطنةُ لَهُ، وهو واحدُ الأشعارِ؛²⁴⁸ أمَّا من حيث الاصطلاح فبشكلٍ عامٍّ يُمكنُ أن يُطلقَ هذا المُسمَّى -تَجَوُّزًا في التَّعْرِيفِ- على كلِّ "كلامٍ موزونٍ مُقَفَّى مُقَيَّدٍ بشرطينِ اثنينِ أحدهما وضعُهُ على سبيلِ القَصْدِ، و الثَّاني دِلَالَتُهُ على معنًى"،²⁴⁹ والقيدُ الأخيرُ جعله قُدَّامة بن جعفر فيصلاً بين الشعر وما سواه مما جرى على الوزنِ والقافية من غيرِ دلالةٍ على معنًى حيث يرى قدامة أنَّه "لو أراد مريدٌ أن يعملَ من ذلك شيئاً كثيراً على هذه الجهة لأمكن وما تعذر عليه"؛²⁵⁰ وهذا التَّعْرِيفُ للشَّعرِ يصدِّقُ عليه إذا ما أُريدَ تمييزُهُ عن قسيمِهِ في الكلامِ العربيِّ -النثر-؛ فالشَّاعرُ يشقُّ لكلامِهِ طريقاً آخَرَ مُغَايِراً لطريقِ النَّاثِرِ، إذ هو لَمَّا أَرَادَ إِبْصَالَ ما يَرنو إليه من الأفكارِ لم يَشَأْ أن يَحْتَوَهَا حَثَوًا في مَسَامِعِ الْمُتَلَقِّينَ، بل عَمَدَ إلى كَسَوَتِهَا بَثْوِبِ الأوزانِ لِتَلَكِّدَ في الأسماعِ وتكتسي رَوْقًا خاصًّا يزيدُ من قابليَّةِ النُّفوسِ في تَلَقُّفِهَا والانجذابِ نحوها.

²⁴⁸ يُنظر: الجوهري، "شعر"، 699/2؛ مرتضى محمد بن محمد الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مصطفى حجازي وآخرين، (الكويت: دار الهداية، 1965م)، "شعر"، 176/12.

²⁴⁹ يُنظر: علي بن محمد الشَّريف الجرجاني، التَّعْرِيفَات، تحقيق: محمد عيون السُّود، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1424هـ/2003م)، 127؛ جار الله محمود بن عمرو التُّمَحْشَرِي، القسطاس في علم العروض، تحقيق: فخر الدِّين قباوة، (بيروت: مكتبة المعارف، 1410هـ/1989م)، 21.

²⁵⁰ قُدَّامة بن جعفر، نقد الشَّعر (إستانبول: مطبعة الجوائب، 1302هـ/1884م)، 3.

إلا أنَّ كلمة النُّقاد لم تتفق في رؤية هذا التعريف لائقًا بحقيقة مُسمَّى الشعر، لأنَّهم رأوا الشعرَ ترجمانًا لِلْعَةِ العواطفِ والمشاعرِ والرُّؤى الممتزجة بالمواقف والأفكار،²⁵¹ فلا يكفي أن تكون الكلمات المرصوفة إلى بعضها البعض والمُترابطة ضمن قالب الأوزان كَفيلةً لبثِّ روح الحياة في الكلام وإمكان إطلاق مُسمَّى الشعرِ عليه، وإنَّما ما وافق هذا الوصفَ سُمِّيَ بالمعنى الأدقِّ "نظمًا"، وهو المُميِّزُ له عن النَّثر؛ أمَّا إذا أُريدَ للنَّظم أن يرقى إلى مراقي الشعرِ فلا بُدَّ أن تُثبتَ بين جنَّاتِ جسده روح الحياة ليصحَّ أن يُطلقَ عليه مُسمَّى الشعر، وما روحه هذه إلا المعاني المُستطرفة والاستعارات والتشبيهات والأمثال حتى إذا ما توفَّرت فيه، وضمَّ إليها أناقةً في اللَّفظ وجودةً في السِّبكِ ودقَّةً في التعبير وسعةً في الخيال فعندئذٍ صحَّ أن يُسمَّى "شعرًا"، ولذلك قال فيه ابن قُتيبة (ت. 276هـ/889م) أنَّه "ما حَسُنَ لفظُهُ وجادَ معناه"،²⁵² فبتوافُر هذه الشُّروط لا يُمكنُ أن يُعدَّ نظمًا عاديًّا وإنَّما هو الشعرُ الذي حُقَّ فيه وصفُ ابن طباطبا (ت. 322هـ/934م) بأنَّه "الوشى المُنمَّم، والعقدُ المُنظَّم، والرياضُ الزَّاهرة"²⁵³ وقد شقَّ أبو نصر الفارابيَّ (ت. 339هـ/950م) لنظريته لمفهوم الشعرِ طريقًا على ذات النَّسق الذي أُشيرَ إليه آنفًا، وزادَ عليه بأنَّ عدَّ الشعرَ فنًّا مُستقلًّا من جُملةِ الفنون، له أدواتُه الخاصَّةُ به التي أعظمُها مُحاكاةُ الواقعِ والمهارةُ في استخدامِ الأشياءِ التي تُصوِّره ببراعةٍ، وأدناها هو النِّعم والإيقاع الموسيقيَّ العروضي؛²⁵⁴ ولو وقَّفَ عند ما أشارَ إليه الفارابيَّ من "الأشياء" التي تُصوِّرُ الواقعَ وتُحاكيه فإنَّ تفسيرها لن يكونَ سوى عُنصر الخيال بقسميه، اللذين أحدهما: هو التَّخيُّل المُمثِّل بملكَّةٍ ازدانت بها عقليةُ الشاعر، وثانيها: هو التَّخييل المُمثِّل بالآثر الذي يتركه النَّصُّ الشعريُّ في نفس المُتلقي، إذ الإنسانُ

²⁵¹ يُنظر: محمد صالح الشنطي، فنَّ التحرير العربيّ ضوابطه وأماطه (حائل: دار الأندلس، 1422هـ/2001م)، 231.

²⁵² يُنظر: عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، الشعر والشُّعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، (القاهرة: دار المعارف، 1386هـ/1967م)، 65/1.

²⁵³ محمد بن أحمد بن إبراهيم طباطبا العلوي، عيار الشعر، تحقيق: عبد العزيز المانع، (القاهرة: مكتبة الخانجي، د.ت)، 7؛ والمنعم أي المُزخرف المنقوش، يُنظر: الزبيدي، "نم"، 11/34.

²⁵⁴ يُنظر: محمد بن محمد الفارابي، جوامع البشعر، تحقيق: محمد سليم سالم، (القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1971م)، 172.

المُتَلَقِّي للخطاب -أيّ خطابٍ- "كثيراً ما تتبع أفعاله تَحْيَلَاتِهِ أَكْثَرُ مما تتبع ظَنُّهُ أو عِلْمُهُ"،²⁵⁵ فلا يبعد أن تتبع من هذه النقطة أهمية الشعر؛ ولا غرو أن يتبارى فيه الشعراء وتتفاوت في درجاتهم حسبما وُفِّقَ كُلُّ منهم في تحقيق التوازن بين جميع العناصر الشعرية -المحاكاة والخيال والإيقاع العروضي-، إذ التأثيرُ مقرونٌ بالتوفيق بينها جميعاً دون إهمالٍ واحدٍ منها على حساب الآخر،²⁵⁶ وبناءً على ما سبق فيمكنُ التقريرُ بأنَّ الشعرَ هو مزيجٌ من عناصر يعتصرها قائلها ليس من نتاج عقله فحسب وإنما من نتاج قلبه أيضاً، ليكون بهذا شعراً صرفاً يعلو على منزلة النظم.²⁵⁷

وبتقرير هذا المفهوم لمصطلح الشعر فإنه ليس من الصواب تعميمُ مُسمّى "الشعر" على كلِّ التركة الأدبية المنظومة التي ضمتها صفحات دواوين أبي الهدي، إذ إنَّ هذا المُقرَّر لمفهوم الشعر ليس من السهولة بمكان أن يرقى إليه كلُّ منظوم للشاعر، فإنَّ فيه ما نبأ عن هذا المُقرَّر ولم يستوفِ جميع عناصره المُقرَّرة آنفاً، بل كان نتاجاً نزلَ إلى رتبة النظم العادي الذي لم يأت إلا بعنصر الوزن والإيقاع العروضي، ولا تكاد دواوينه تخلو من نزرٍ يسيرٍ جرى على هذه الشاكلة، نحو قوله ناصحاً واعظاً:

كلُّ شيءٍ سواه فانِ فلازمِ بابِ مولاك إنَّه هو باقي
وتوصَّلْ إليه بالصدق والرَّه دِ وحسن الأفعال والأخلاق²⁵⁸

²⁵⁵ محمد بن محمد الفارابي، إحصاء العلوم، تحقيق: عثمان محمد أمين، (القاهرة: مطبعة السعادة، 1350هـ/1931م)، 27.

²⁵⁶ يُنظر: أبو علي الحسين بن عبد الله ابن سينا، الحكمة العروضية، تحقيق: محسن صالح، (بيروت: دار الهادي، 1428هـ/2007م)، 106؛ محمد علي التهانوي، كشاف اصطلاحات العلوم والفنون، مترجم: عبد الله الخالدي، تحقيق: علي دحروج، (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 1996م)، 1030/1، 1033.

²⁵⁷ يُنظر: جابر عصفور، مفهوم الشعر دراسة في التراث النقدي (القاهرة: مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1995م)، 189، 191؛ عبد الرؤوف أبو السعد، مفهوم الشعر في ضوء نظريات النقد العربي (القاهرة: دار المعارف، د.ت)، 15.

²⁵⁸ د.ف.م، 22.

ونحو قوله في نتفة شعريّة أخرى:

حُبُّ سَلْمَانَ حِينَ صَحَّ لِأَهْلِ الْبَيْتِ ذِي الْمَنْصَبِ الْعَزِيزِ الْمُثَنَّى

فَالْتَبَّى الْكَرِيمُ عَظَّمَ هَذَا الْبَيْتَ قَدْرًا وَقَالَ (سَلْمَانُ مِنْهُ) ²⁵⁹

فِيْلَحْظُ فِي كِلَا الْمَثَالَيْنِ أَنَّ أَبَا الْهَدَى أَرَادَ تَقْرِيرَ فِكْرَةٍ سَنَحَتْ لِبَالِهِ فَلَمْ يَشَأْ إِلَّا أَنْ يُلْبَسَهَا ثَوْبَ الْوَزْنِ الْعُرُوضِيِّ -البحر الخفيف-، ²⁶⁰ وَيَقْدِّمَهَا لِلْمَسَامِيعِ دُونَ آيَةٍ حَلِيَّةٍ أُخْرَى مِنْ تَشْبِيهِ أَوْ اسْتِعَارَةٍ أَوْ بَدِيعٍ أَوْ خِيَالٍ يُذَلِّلُ طَرِيقَهَا إِلَى الْمَسَامِيعِ؛ وَشَاعِرٌ كَأَبِي الْهَدَى لَمْ يَخَفْ عَلَيْهِ أَنْ يَرَى الشَّعْرَ بِأَنَّهُ "نَتِيجَةُ الْعَقْلِ وَعَقِيلَةُ الْفَضْلِ، وَجَاذِبَةُ الْأَلْبَابِ وَفَاكُهُ الْأَنْجَابِ" ²⁶¹ وَلَمْ يَغِبْ عَنْ بَالِهِ أَنْ يَرَاهُ "تَرْجُمَةً خِيَالٍ، وَطَلَائِعَ بَالٍ، وَحِكَايَةَ حَالِ الْوَجْدَانِ وَالرُّوحِ، يَصِيرُ الْغَائِبُ بِهِ كَالْحَاضِرِ"، ²⁶² قَدْ لَا يُمَكِّنُ تَعْلِيلُ وَجُودِ مِثْلِ هَذِهِ التَّوَعُّيَّةِ مِنَ النَّظْمِ فِي تَرَاثِهِ الْمَنْظُومِ إِلَّا إِذَا مَا أُخِذَ بِعَيْنِ الْإِعْتِبَارِ عُنْصُرُ "الدُّرْبَةِ"، إِذْ هُوَ الْعُنْصُرُ الَّذِي عَدَّهُ الْقَاضِي الْجَرَجَانِيُّ (ت. 392هـ/1001م) مَادَّةً أَسَاسِيَّةً مُقَوِّمَةً لِأَسْبَابِ الشَّعْرِ -وهي الطَّبْعُ وَالرَّوَايَةُ وَالذِّكَاؤُ-، ²⁶³ فَحِينَئِذٍ قَدْ تُفَسِّرُ ظَاهِرُهُ النَّظْمَ الْعَادِيَّ فِي تَرَاثِ أَبِي الْهَدَى الْأَدَبِيِّ بِإِرْجَاعِهَا إِلَى مِرَاسِهِ وَدُرْبَتِهِ فِي مِيَادِينِ الْأَدَبِ، فَأَيَّاتُ نَظْمِهَا أَبُو الْهَدَى فِي صِغَرِهِ وَبِدَايَةِ مَسِيرَتِهِ الشَّعْرِيَّةِ لَا تَرْقَى أَنْ تَتَسَنَّمَ ذُرُوءَ مَكَانَةٍ قَصِيدَةٍ نَظْمِهَا فِي مَرَاكِحِ مُتَأَخِّرَةٍ مِنْ سِنِّي حَيَاتِهِ، بَعْدَ أَنْ صَفَلَتْهُ التَّجَارِبُ وَزَادَتْ مِنْ إِذْكَاءِ قَرِيحَتِهِ الْمَطَالَعَاتُ وَقَوَّتْ مِنْ مَلَكَتِهِ الشَّعْرِيَّةِ وَأَهْلَتْهُ إِلَى الْإِنْتَاكِجِ الْأَدَبِيِّ الْمَنْظُومِ الَّذِي

²⁵⁹ د.ف.م، 146؛ وَذَيْلُ الْعَجَزِ الْآخِرِ "سَلْمَانُ مِنْهُ" أَثَرُ يُرْوَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُنْظَرُ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْحَاكِمُ النَّيْسَابُورِيُّ، الْمُسْتَدْرَكُ عَلَى الصَّحِيحَيْنِ، تَحْقِيقُ: مُصْطَفَى عَبْدِ الْقَادِرِ عَطَا، (بَيْرُوتُ: دَارُ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ، 1411هـ/1991م)، 691/3، (رَقْمُ 6541).

²⁶⁰ يُنْظَرُ: الْهَاشِمِيُّ، الْمِيزَانُ، 95.

²⁶¹ يُنْظَرُ: د.ت.ب، 2، 134.

²⁶² يُنْظَرُ: د.ر.ب، 69.

²⁶³ يُنْظَرُ: عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْقَاضِي الْجَرَجَانِيُّ، الْوَسَاطَةُ بَيْنَ الْمُتَنَبِّئِي وَخُصُومِهِ، تَحْقِيقُ: مُحَمَّدُ أَبُو الْفَضْلِ إِبْرَاهِيمَ -عَلِيٌّ مُحَمَّدُ الْبَجَاوِيُّ، (الْقَاهِرَةُ: مَطْبَعَةُ عَيْسَى الْبَابِي الْخَلِيفِي، د.ت)، 15.

يرقى إلى مراقي الشَّعر الذي طَمَح إليه واعتنق رؤيةً واضحةً لتذوقه فجعلته يقول فيه مُعْظَمًا شأنه: إنَّه "أَنموذجُ الهَمَمِ ومِراةُ الشَّيَمِ، ونِسمَةُ الأَريحيَّةِ"²⁶⁴ التي تَهزُّ أطوارَ العُظَمَاءِ، فكم حلَّ عِقالًا وطَيِّبَ بالاً"،²⁶⁵ ويؤكدُ هذا التَّعليلُ لوجودِ ظاهرةِ النِّظَمِ العاديِّ إشارَةً أبا الهُدَی إلى حرصِه على تنقيَّةِ نِتاجِه الأدبيِّ عما كان قد نَظَّمَهُ أَيَّامَ الصِّبا في بداياتِ مسيرتِه الشَّعريَّةِ، وإلى اقتصارِه على ما يُطابقُ ما ارتسَمَ في فهمِه وذائقَتِه للشَّعرِ،²⁶⁶ ممَّا يُؤكِّدُ أنَّ عنصَرَ الدُّرَّةِ والمِراسِ قد لَعِبَ دورًا في نِتاجِ أبا الهُدَی الأدبيِّ المنظومِ، ولكنَّ هذا الحِرصَ الذي أشارَ إليه أبو الهُدَی لم يكن شفيعًا في خلوِّ دواوينِه من النِّظَمِ العاديِّ الذي قد يبرز تارةً في بعض جَناباتها.

2 الغرض الشَّعريُّ

قد يَحسُنُ بدايةً تَذَكُّرُ أنَّ أصلَ كلمة "غَرَضٍ" في اللُّغة تعني - كما يرى ابن دريد (ت. 321هـ/933م) - كلَّ ما امْتَثِلَ لِلرَّمي وَتُجمَعُ على أَغْراضٍ كَسَبَبٍ وَأَسْبَابٍ،²⁶⁷ و نصَّ الجوهريُّ (ت. 393هـ/1003م) والصَّغَايِي (ت. 650هـ/1252م) على أنَّ الغرضَ هو "الهِدَفُ الذي يُرْمَى فيه"،²⁶⁸ وقد وَرَدَ في سجعِ أهلِ البلاغة: المرءُ "إذا فَاتَهُ العَرَضُ فَتَهُ العَرَضُ"، وبهذا يأتي للكلمة معنًى آخر هو الضَّجَرُ والمِلالُ، وفعلُهُ يتعدَّى بحرفِ الجَرِّ "مِنْ" فيُقَالُ: غَرَضْتُ مِنْ فلانٍ بمعنى مَلَلْتُ مِنْهُ، ويُضَافُ إلى هذا معنًى آخر هو الشَّوق حيث يقول الرَّخْشَرِيُّ (ت. 538هـ/1143م): "ومنه غَرَضْتُ

²⁶⁴ سَعَةُ الخُلُقِ والانبساط لفعل الأفعال الحميدة، يُنظر: ابن منظور، "ريح"، 467/2.

²⁶⁵ يُنظر: د.ت.ب، 2؛ الصِّيَّادِي، صوت الهزار، 41-42.

²⁶⁶ يُنظر: د.ر.ق، 40.

²⁶⁷ يُنظر: أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد، جمهرة اللُّغة، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، (بيروت: دار العلم للملايين، 1987م)، "رضغ"، 749/2.

²⁶⁸ يُنظر: الجوهري، "غرض"، 1093/3؛ الحسن بن محمد الصَّغَايِي، العباب الزَّخَر واللباب الفاخر، تحقيق: محمد حسن آل ياسين، (العراق: دار الرُّشيد، 1981م)، 650.

إلى لِقَائِكَ، عُذِّي بِحَرْفِ الْجَرِّ "إلى" لتضمينه معنى اشتقتُ وَحَنَنْتُ"؛²⁶⁹ وما يهمُّ البحثَ ويعنيه مما سبق من المعاني هو المعنى الأول -الهدف-، الذي يمكنُ أن يُطلقَ عليه مُسمًى "الغاية" التي يُتحرَّى إدراكها على قول زين الدين المناوي (ت. 1031هـ/1621م).²⁷⁰

وإذا كانت الغاية هي المعنى الأنسب -لغةً- لكلمة الغرض، فهذا يُفضي إلى إمكانية القول: إنَّ الغرض الشعريَّ في الاصطلاح هو الغاية التي قصدها الشاعر والهدف الذي رمى إليه من وراء ما نظمته من الأبيات والقصائد؛ غير أنَّ هذا المُصطلح بمعناه المُشار إليه قد ظفرَ بتسمياتٍ أخرى، فهو البابُ بلسان أبي تمام -أول من قسمَ الشعرَ ورَّبَّه على عشرة أبوابٍ في حماسيته-،²⁷¹ وهو الركن والنوع عند ابن رشيق القيرواني (ت. 456هـ/1064م)،²⁷² وفي بعض الأحيان سُمِّيَ صنفًا أو فنًّا؛²⁷³ وعلى الرغم من تنوع التسميات بين أغراضٍ وأبوابٍ وأنواعٍ وفنونٍ وصنوفٍ وموضوعاتٍ، فكلُّها تلتقي على المعنى الاصطلاحي المذكور آنفًا، فهي مُسمَّياتٌ مختلفةٌ لمعنى اصطلاحِيٍّ واحدٍ.

وبتحديد المعنى اللغوي والاصطلاحي للأغراض الشعرية، يصلُ المطاف إلى تنوع هذه الأغراض وتعدُّدها، فإذا ما أُريدَ سبُرُ هذه الأغراض فسيُرجعُ إلى صَيَارِفَةِ الأدب من نُقَادِهِ ومُؤَرِّخِيهِ؛ فمنهم قائلٌ: إنَّ جميع الأغراض الشعرية تنبُع من أصلٍ واحدٍ رئيسٍ ألا وهو "الوصف"، إذ يصحُّ اندراجها كلها ضمنه، فالشاعرُ بتعبيره عما يدورُ بداخله من المشاعر أو الأفكار إنما هو واصِفٌ لها

²⁶⁹ يُنظر: جار الله محمود بن عمرو الزَّحَّاشي، *أساس البلاغة*، تحقيق: محمَّد باسل عيون السُّود، (بيروت: دار الكتب العلميَّة، 1419هـ/1998م)، "غرض"، 699/1.

²⁷⁰ يُنظر: زين الدين عبد الرُّؤوف بن علي المناوي، *التوقيف على مهمات التعاريف*، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، (القاهرة: عالم الكتب، 1410هـ/1990م)، 251؛ الزَّبيدي، "غرض"، 451/18.

²⁷¹ يُنظر: أبو تمام حبيب بن أوس الطائي، *ديوان الحماسة*، تحقيق: أحمد حسن بسج، (بيروت: دار الكتب العلميَّة، 1418هـ/1998م)، 7.

²⁷² يُنظر: القيرواني، *العمدة*، 120/1-121.

²⁷³ يُنظر: فروخ، *تاريخ الأدب*، 48/1.

لا غير، وإلى هذا ذهب عمر فروخ (ت. 1407هـ/1987م)²⁷⁴ مُتَابِعًا الْقَيروانيّ في رأيه القائل: إنّ "الشَّعْرَ إِلَّا أَقْلَهُ رَاجِعٌ إِلَى الْوَصْفِ"²⁷⁵ وبسبب اتِّسَاعِ مُسَمَّى الْوَصْفِ وَكَوْنِهِ يَنْطَبِقُ عَلَى جَمِيعِ أَغْرَاضِ الشَّعْرِ، كَانَ لَا بُدَّ مِنْ تَفْصِيلِ لِكُونِهِ شَامِلًا عَمُومَهَا، فَسُمِّيَ وَصْفُ الْبَشَرِ بِالْمَدْحِ وَالْهَجَاءِ، فَإِنْ كَانَ الْمَوْصُوفُ مِنْهُمْ مِيتًا سُمِّيَ وَصْفُهُ بِالرِّثَاءِ، وَإِنْ كَانَ امْرَأَةً سُمِّيَ وَصْفُ جَمَالِهَا بِالْغَزْلِ، فَإِنْ كَانَ الْوَصْفُ لَشَكْوَى هَجْرَانِهَا وَبُعْدِهَا وَتَدَلُّلِهَا سُمِّيَ نَسِيبًا، وَاسْتَقْلَّ وَصْفُ الْخَمْرِ بِاسْمِ الْخَمْرِيَّاتِ، وَوَصْفُ الصَّيْدِ بِالطَّرْدِيَّاتِ، وَلَمْ يَبْقَ لِمُطْلَقِ مُسَمَّى الْوَصْفِ إِلَّا وَصْفُ الطَّبِيعَةِ وَمَا تَفَرَّعَ مِنْهَا.

وَمِنْ النُّقَادِ قَوْمٌ ذَهَبُوا إِلَى أَنَّ الشَّعْرَ كُلَّهُ قَائِمٌ عَلَى غَرَضَيْنِ اثْنَيْنِ هُمَا "الْمَدْحُ وَالْهَجَاءُ"، وَالْبَاقِي مِنْ غَالِبِ الْأَغْرَاضِ إِنَّمَا هُوَ مُتَفَرِّعٌ عَنْهُمَا،²⁷⁶ وَمِنْهُمْ مَنْ رَتَّبَ الشَّعْرَ فَرَادَ أَغْرَاضُهُ إِلَى أَكْثَرِ مِنْ مِئَةٍ وَأَرْبَعِينَ غَرَضًا، وَمِنْهُمْ مَنْ رَتَّبَهُ عَلَى أَقَلِّ مِنْ ذَلِكَ، وَرَغْمَ هَذَا فَقَدْ رَأَى مُصْطَفَى صَادِقُ الرَّافِعِيّ (ت. 1356هـ/1937م) أَنَّ هَذِهِ الْأَبْوَابَ أَوْ الْأَغْرَاضَ مُتَدَاخِلَةٌ مِنْ حَيْثُ الْوَصْفُ الشَّعْرِيّ؛²⁷⁷ وَلَعَلَّ غَرَضَ الْمَدِيحِ هُوَ الْأَكْثَرُ اسْتِعْمَالًا مِنْ بَيْنِ الْأَغْرَاضِ الشَّعْرِيَّةِ حَيْثُ جَعَلَهُ أَبُو هَلَالٍ الْعَسْكَرِيُّ (ت. 395هـ/1005م) فِي صَدْرِهَا ثُمَّ أَرَدَفَهُ بِالْأَغْرَاضِ الْآخَرَى وَهِيَ: "الْهَجَاءُ، وَالْوَصْفُ، وَالنَّسِيبُ"، ثُمَّ يَلِي هَذِهِ الْأَغْرَاضَ فِي كَثْرَةِ الِاسْتِعْمَالِ غَرَضَا الرِّثَاءِ وَالْفَخْرِ وَهُمَا فَرَعٌ عَنِ الْمَدِيحِ -حَسَبَ رَأْيِ الْعَسْكَرِيِّ-.²⁷⁸

²⁷⁴ يُنْظَرُ: فُرُوح، تَارِيخُ الْأَدَبِ، 49/1.

²⁷⁵ الْقَيروانيّ، الْعُمَلَةُ، 294/2.

²⁷⁶ الْقَيروانيّ، الْعُمَلَةُ، 121/1.

²⁷⁷ يُنْظَرُ: الرَّافِعِيّ، آدَابُ الْعَرَبِ، 69/2.

²⁷⁸ يُنْظَرُ: أَبُو هَلَالٍ الْحَسَنُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْعَسْكَرِيُّ، الصَّنَاعَتَيْنِ، تَحْقِيقُ: عَلِيِّ الْبَجَاوِيِّ -مُحَمَّدُ الْإِبْرَاهِيمِ، (بِירוْت: الْمَكْتَبَةُ الْعَصْرِيَّةُ، 1419هـ)، 121.

ولربما كان من الحسن الإشارة إلى أنَّ هذه الأغراض بتنوعها واختلافها شهدت مدًا وجزرًا، وضيئًا واتساعًا، واحتفالًا وإهمالًا، وموتًا وولادةً، على امتداد العصور الأدبية، فالشاعر الجاهلي لم تخلُ جلُّ قصائده من وقوفٍ على طللٍ وبكاءٍ عليه، لكنَّ أبا نواس (ت. 198هـ/813م) ومن سار سيره في العصر العباسي لم يعد الاحتفال بهذا الغرض يعني لهم شيئًا بل صار مُستهجنًا في عيونهم، فمات في عصرهم هذا الغرض وُولدَ غرضٌ وصفِ الرِّياضِ والحدائقِ النَّضرة؛ كما أنَّ وصفَ الخمر الذي وجدَ له مُتَّسَعًا في قصائدِ العصر الجاهليِّ قد ضاقت به حروف الشعر في العصر الإسلاميِّ، ثم لم يلبث أن امتدَّ مرَّةً أخرى في العصر العباسيِّ ليستقلَّ بقصائدٍ اتَّخذته غرضًا مُستقلًّا فسُمِّيت بالخمريات؛ أمَّا غرضُ الغزلِ المُذكَّر فلم يكن ليُعرفَ قبل العصر العباسيِّ بل هو غرضٌ وُلدَ فيه على ألسنة شعرائه المُحدثين ثم انتقل إلى غيرهم في العصور التي تلتُهُ.²⁷⁹

ثم إنَّه إذا ما تفرَّزَ تنوعُ الأغراضِ الشَّعريةِ وتوزُّعها على العصور الأدبيةِ وتمدُّدها في بعض العصور وانحسارها في أخرى، فسيؤدِّي إلى ضرورةِ تحديدِ العصر الأدبيِّ الذي ينتمي إليه أبو الهُدَى، لمعرفةِ الأغراض التي سادت في ذلك العصر، ومن ثمَّ تحديدِ موقعِ أبي الهُدَى في كلِّ غرضٍ من هذه الأغراض، وما أكثرَ من النِّظم فيه وما أقلَّ.

فبالرَّغم من أنَّ الأدبَ هو ثمرةٌ فكريَّةٌ عاطفيَّةٌ نَضجت عند أربابها عبر مرورها بفتراتٍ زمنيَّةٍ مُتتاليَّةٍ، إلا أنَّه لا يُمكنُ لهذه الثَّمرة الفكريةِ العاطفيَّةِ أن تلبسَ ثوبًا وتخلعَ آخرَ بسقوطِ دولةٍ وقيامِ أخرى، بل لا بُدَّ أن تبقى فيها آثارٌ من ماضيها، ثم لا تلبث مع مرور الزَّمن أن تبدأ بالتَّزييِّ بقالِبٍ جديدٍ يتناسب مع زمانها الحاضر -إذ الزَّمنُ هو إناءُ الأفكار فتتلوَّنُ بلونه وتنصبُ بقوالبه-، وبهذا

²⁷⁹ يُنظر: فروخ، تاريخ الأدب، 40/2.

يُعلّم أنّ تقسيم الأدب العربيّ حسب العصور السياسيّة التي مرّت عبر تاريخ العرب فيه تجوُّز كثير،²⁸⁰ بل إنّ مصطفى الرّافعيّ رفض ذلك التّقسيم وردّه تمامًا وعدّه من صنع العقليّة الاستشراقيّة؛²⁸¹ ولكن مع هذا كلّهُ فقد رأى شوقي ضيف (ت. 1426هـ/2005م) أنّ أكثر مؤرّخي الأدب العربيّ اعتمدوا له التّقسيم السياسيّ على خمسة عصور، واصطلحوا على تسمية الفترة الممتدّة منذ بدء الحملة الفرنسيّة على مصر (1213هـ/1798م) إلى هذه الأيّام بـ: "العصر الحديث"؛²⁸² وزاد بالتّفصيل عمر فروخ بأن قسّم هذا العصر الحديث إلى قسمين، فسَمّى الأوّل الممتدّ بين 1800م و1875م "عصر النهضة العربيّة"، وما جاء بعد هذه الفترة من نتاج أدبيّ فقد سمّاه "الأدب المعاصر"؛²⁸³ إلا أنّ محمّدًا الخفاجي (ت. 1427هـ/2006م) كان له رأي آخر لعلّه أكثر دقّة من غيره، حيث لم يرتض أن يُسمّى النّتاج الأدبيّ العربيّ قبل أخريات القرن التّاسع عشر أدبًا حديثًا، وذلك برأيه يعود إلى أنّ الظروف الاجتماعيّة والسياسيّة والثّقافيّة لم تكن لتسمّح بظهور أدبٍ حديث، بل كان نتاج الشعراء والأدباء في تلك الحقبة إنّما هو في حقيقته تقليدٌ وامتدادٌ للعصر العثمانيّ قبله، إذ لم يزل الشعراء فيه يُحاكون من قبلهم في أغراضهم وأسلوبهم نثرًا وشعرًا؛²⁸⁴ وبناءً على كلام الخفاجي يمكن القول: إنّ أبا الهدى على الرّغم من تصنيفه زمنيًا في عداد شعراء العصر الحديث، إلا أنّه ينتمي بنتاجه الأدبيّ إلى العصر العثمانيّ.

²⁸⁰ يُنظر: أحمد محمّد الحوفي، الأدب العربيّ وتاريخه (القاهرة: دار المعارف، 1977م)، 24.

²⁸¹ يُنظر: الرّافعيّ، آداب العرب، 13/1.

²⁸² شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربيّ (القاهرة: دار المعارف، 1960م)، 14/1.

²⁸³ يُنظر: فروخ، تاريخ الأدب، 58/1.

²⁸⁴ يُنظر: محمّد عبد المنعم خفاجي، دراسات في الأدب العربيّ الحديث ومدارسه (بيروت: دار الجيل، 1412هـ/1992م)، 56/1.

وبإطلالة على الأغراض الشعريّة في العصر العثمانيّ، يلمح المُطلّع جميع الأغراض التقليديّة القديمة ومعانيها، ولكنّها جاءت مكسوةً بأسلوبٍ خاصٍّ بزمان شعرائها النّاطمين لها، فهم لم يقتصروا على الأغراض التقليديّة من مدحٍ وهجاءٍ وغزلٍ ورناءٍ وغيرها من الأغراض، بل أضافوا إليها الأغراض الجديدة التي لم تكن بالمعروفة بشكلها الجديد في عصورٍ سابقةٍ، مثل غرض "التّأريخ" حيث صار الشاعر يُورّخُ لكلِّ حَدَثٍ مُهمٍّ يَمُرُّ به في حياته، وقد ازدهر فنُّ التّأريخ في مُعظم موضوعات القصائد إلى أن صار له أربابُه المُتخصّصون به من أمثال البهلول عبد الرّحمن بن محمّد الشّاكر (ت. 1163هـ/1750م)،²⁸⁵ ومحمّد قيادو التّونسيّ (ك.ح. 1276هـ/1859م)،²⁸⁶ كما شهّد غرضُ المديح النّبويّ اهتمامًا بالغًا في هذا العصر ومُنَّ برعٌ فيه بهاء الدّين الرّؤاس أستاذ أبي الهُدَى، ومعاصِرُه يوسف النّبهايّ،²⁸⁷ وكذلك بلغت القصائد الصّوفيّة أوجهاً الفنّي العالي بأقلام شعرائها ومنهم شيخُه الرّؤاس أيضًا،²⁸⁸ وعبد الغني النّابلسيّ (ت. 1143هـ/1731م)، وكثرت الموشّحات على ألسنة ناظميها من مُتصوِّفة ذلك العصر، كما اتّجه الشعراء إلى فنٍّ مُستحدّثٍ آخر هو تضمين اللّغز في أشعارهم وصناعة الأحاجي فيها، كما أنّهم أكثروا في أشعارهم من الشّكوى وأنجّوها نحو ذواتهم بعد ما شهدوه من قسوة الزّمان وفساد أهله مما جعل بعض أشعارهم تصطبّع بالغرابة وتكتوي حروفها بنار الاغتراب؛ ويُضافُ إلى هذا كلّهُ أنّ شعراء العصر العثمانيّ ومَن سارَ سيرتهم مَن بعدهم كانوا جامعين بين صنعتيّ النّثر والشّعر آخذين من كلّ علمٍ بطرفٍ؛²⁸⁹ وليس ببعيدٍ أن يكون أبو الهُدَى معدودًا من جملةّهم،

²⁸⁵ يُنظر: أبو الفضل محمّد خليل المُراديّ، سلك الدّرر في أعيان القرن الثّاني عشر (بيروت: دار ابن حزم، 1408هـ/1988م)، 310/2.

²⁸⁶ يُنظر: الرّافعيّ، آداب العرب، 343/2.

²⁸⁷ يُنظر: محمّد محمود كالو، الأدب العربيّ عبر العصور (تركيا: منشورات كليّة التّربية بجامعة أديمان، 2018م)، 26.

²⁸⁸ يُنظر: محمّد بهاء الدّين الرّؤاس، ديوان معراج القلوب إلى حضرات الغيوب، تحقيق: عبد الحكيم عبد الباسط، (دمشق: المطبعة العلميّة، 1389هـ/1969م)، 291.

²⁸⁹ يُنظر: عمر موسى باشا، تاريخ الأدب العربيّ العصر العثمانيّ (دمشق: دار الفكر، 1409هـ/1989م)، 77، 78، 80، 126.

سارٍ على نهجهم في كلّ هذه الأغراض، إذ انتظم نظمُهُ في عقد كلّ تلك الأغراض التي مرّ ذكرها، فصَدَّقَ ما حَطَّه قلمُهُ من الأغراضِ الشَّعريةِ الرَّأيِ القائلِ بإلحاق شعراءِ حِقْبَةِ أَبِي الهُدَى بشعراءِ العصر العثمانيِّ، ودمغ نتائجهم الأدبيِّ الشَّعريِّ بمحاكاة أغراضٍ مَنْ سَبَقَهُمْ من شعراءِ ذلك العصر.

وإنَّ مما يجدرُ ذكره في مطلعِ الكلامِ على أغراضِ أبي الهُدَى الإشارةُ إلى أنَّ شعْرهُ على الرَّغمِ من كونه قد جمعه جُلُّه بنفسه وأودعه في عدَّةِ دواوين إلا أنَّه لم يحرص على ترتيبه على الأغراضِ الشَّعريةِ، بل ولا على أيِّ ترتيبٍ آخر، كما في بعضِ الدَّواوين -مثل ديوان الدُّرِّ المنتظم-؛ وهذا جعلَ الطَّرِيقَ وَعِراً تكتنِّفه المشقَّةُ على مَنْ سعى محاولاً تصنيفَ شعره وترتيبه على حسب الأغراضِ الشَّعريةِ؛ وقد سَبَقَت الإشارةُ إلى اعتمادِ ما أقرَّه أبو الهُدَى بنفسه من الأغراضِ الرَّئيسةِ التي رَتَّبَ على نظامها النَّبْهائيُّ باكورةَ أعماله -ديوان الفيض المحمَّدي-، وقد تَفَاوَتَت أغراضُهُ في رَتَّبِ الإكثارِ والإقلالِ، فتصدَّرَ غرضُ المديحِ النَّبويِّ المرتبةَ الأولى في غزارةِ الأشعارِ، بينما جاءت أغراضُ المديحِ العامِّ والغزلِ ثم الوعظُ في الرُّتْبَةِ الثَّانِيَةِ، ويُمكنُ إجمالُ الأغراضِ وترتيبها وفق ما يأتي:

(1) الدُّعاء	(5) الوعظ
(2) المديح النَّبويِّ	(6) الهجاء
(3) المديح	(7) الرِّثاء
(4) الغزل	(8) أغراض أخرى

وإفرادُ مَبَحْثٍ خاصٍّ لما سوى الأغراضِ المُشارِ إليها، إنَّما هو للعنايةِ بما تَفَرَّقَ مُنْتَشِراً في عمومِ الدَّواوين من الأشعارِ التي انطَوَّت تحت أغراضٍ قلَّتْ نسبُهُ ورودُها -حتى وصلَ بعضها إلى درجةِ النُّدرةِ- وذلك إذا ما قيسَت غزارةُ ورودِ أشعارها بسالفها من الأغراضِ المُفَرَّدةِ بمباحثٍ خاصَّةٍ.

المبحث الأول: غرض الدُّعاء

قد يحسنُ قبل الخوض في غمار الغرض الفِطنةُ إلى أنَّ الدُّعاء في أصل اللُّغة هو طلب إحضار الشَّيء،²⁹⁰ أو طلبُ الفعل، ويأتي بمعنى النَّداء،²⁹¹ والفرقُ بين النَّداء والدُّعاء أنَّ الأوَّل يكون برفع الصَّوت والثَّاني يكون برفعه وخفضه،²⁹² وجمعُ الدُّعاء أدعيةٌ، وأصلُّه من الفعل (دَعَا) الذي إذا تعدَّى باللام فهو لطلب نوال الخير، وإن تعدَّى بعلى فهو لطلب نزول الشَّرِّ؛ فدعاء المؤمن ربَّه رغبةٌ إليه لاستجلاب خيرٍ أو صدٍّ لشرٍّ؛²⁹³ والاجتهادُ في الدُّعاء يُسمَّى الابتهاًل؛²⁹⁴ ويمتدُّ معنى الدُّعاء في اللُّغة ليشمل معانيً أُخر كاستغاثةٍ والنَّدبِ والصَّياحِ والتَّشويقِ والسَّوقِ إلى الشَّيء وإمالةِ الشَّيء إلى الدَّاعي بالصَّوت والكلام؛²⁹⁵ والمعنى المقصودُ المُرادُ في هذا الغرض هو الابتهاًل والرَّغبة إلى الله؛ وإنَّ الثَّمسَ المعنى الاصطلاحيَّ للدُّعاء فإنَّ من أقرب ما عرِّفَ به الدُّعاء هو تعريفُ المناويِّ له حينما قال: هو "لسانُ الافتقارِ بشرحِ الاضطرار" و"طلبُ المراد بنعتِ الفؤاد"، و"طلبُ كشفِ الغمَّة"،²⁹⁶ فهو بذلك يقترب به من الأصل اللُّغويِّ لِيُقَرَّرَ أنَّه ترجمةُ الإنسان لمطالبه التي تعترُّك في داخله وعرضها بالتَّوجُّه إلى الله بلسان التَّذلُّلِ والعبوديَّة، ورجاؤه أن يدفعَ الضَّرَّ عنه ويُمِدَّهُ بالعون.²⁹⁷

²⁹⁰ يُنظر: إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط (الاسكندرية: دار الدَّعوة، د.ت)، "دعا"، 286/1.

²⁹¹ الجوهري، "دعا"، 2336/6.

²⁹² يُنظر: أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، الفروق اللُّغويَّة، تحقيق: محمَّد إبراهيم سليم، (القاهرة: دار العلم والتَّحافة، د.ت)، 38.

²⁹³ يُنظر: ابن منظور، "دعا"، 258/14؛ الزَّبيدي، "دعو"، 46/38.

²⁹⁴ يُنظر: الزَّحَّاشي، أساس البلاغة، 85/1.

²⁹⁵ يُنظر: مصطفى وآخرون، "دعا" 286/1؛ أحمد بن فارس الرَّايزي، معجم مقاييس اللُّغة، تحقيق: عبد السَّلام هارون، (بيروت: دار الفكر، 1399هـ/1979م)، 279/2.

²⁹⁶ المناوي، التَّعاريف، 166.

²⁹⁷ يُنظر: حمد بن محمَّد الخطَّابي، شأنُ الدُّعاء، تحقيق: أحمد يوسف الدَّقَّاق، (القاهرة: دار التَّحافة العربيَّة، 1412هـ/1992م)، 4.

وغيرُ الدُّعاءِ في الشِّعرِ العربيِّ ضاربٌ في القِدَمِ على ألسنة الشعراء حتى قبل بزوغ فجر الإسلام، فتارةً يردُّ في أبياتٍ مُتفرِّقةٍ على لسانٍ من تحنَّف من الجاهليِّين، كقول ورقة بن نوفل (ت. 11ق.هـ/611م) في تمجيد الإله الخالق تبارك وتعالى واللياذ به:

فسبحان من تهوي الرياحُ بأمره ومن هو في الأيام ما شاء يفعل²⁹⁸
وقوله المنسوب إليه:

سبحانه ثم سبحاناً يعودُ له وقبل سبَّحه الجوديُّ والجمدُ²⁹⁹
وتارةً أخرى يلمحُ الدُّعاءُ في أشعارٍ بقيَّة الجاهليِّين غير المُتحنِّفين، حيثُ دَعُوا الله لأنفسِهِم ولأحبائِهِم، فهذا هي الخنساء (ت. 24هـ/644م) تدعو لأخويها صخر ومعاوية فتقول:

فَلا يُبْعِدَنَّ اللهُ صَخْرًا وَعَهْدَهُ وَلا يُبْعِدَنَّ اللهُ رَبِّي مُعَاوِيَا
وَلا يُبْعِدَنَّ اللهُ صَخْرًا فَإِنَّهُ أَخُو الْجُودِ بَيْنِي لِلْفَعَالِ الْعَوَالِيَا
سَقَى اللهُ أَرْضًا أَصْبَحَتْ قَدْ حَوَتْهُمَا مِنَ الْمُسْتَهْلَاتِ السَّحَابِ الْعَوَادِيَا³⁰⁰

وإلى جانب دُعاء الشعراء لاستجلابِ الخيور، فقد دعوا على خصومِهِم بالويل والشُّرور، ومن ذلك قول الشَّاعر المُخَضَّرم الحُطَيْيَّة (ت. 45هـ/665م) داعياً على خصمِهِ مخاطباً لها:

جَزَاكَ اللهُ شَرًّا مِنْ عَجُوزٍ وَلَقَاكَ الْعُقُوقُ مِنَ الْبَيْنَا

²⁹⁸ أبو القاسم علي بن حسن بن عساكر، تاريخ دمشق، تحقيق: عمر غرامة العمروي، (بيروت: دار الفكر، 1415هـ/1995م)، 11/63.
²⁹⁹ مصعب بن عبد الله الزبيري، نسب قريش، تحقيق: ليفي برونفسال، (القاهرة: دار المعارف، 1402هـ/1982م)، 208؛ ويُنسب البيت إلى أمية بن أبي الصلت وغيره، يُنظر: سيبويه عمرو بن عثمان، الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1408هـ/1988م)، 326/1.

³⁰⁰ الخنساء تماضر بنت عمرو، ديوان الخنساء، تحقيق: حمدو طماس، (بيروت: دار المعرفة، 1425هـ/2004م)، 120.

تَنْحِي فَاجِلِسِي مِنَّا بَعِيدًا أَرَاخَ اللَّهُ مِنْكَ الْعَالَمِينَا³⁰¹

وإذا كان غرضُ الدُّعاءِ حاضرًا حتى في الجاهليَّة فلا بدَّ أن يستمرَّ ويشتدَّ عُودُهُ بعد إشراقِ نورِ الإسلام، ويبرزُ في قصائدِ الإسلاميين ومَن جاءَ بعدهم في العصورِ التي تلت عصرهم وصولًا إلى عصرِ أبي الهُدَى.

إلا أنَّ هذا الغرضَ لمَّا كان مُعَبِّرًا عن علاقةٍ تقوم بين عبدٍ ورَبِّه المعبود، فقد استلزمَ من المُعَبِّرِ عن هذه العلاقة، والمُترجمِ لهذه الصِّلَة الفريدة، أن يمتلِكَ لسانًا معنويًّا يَخْتَلِفُ عن ذلك اللِّسان الذي اعتادَ أن يسرِّحَ يمينه ويسرِّه في ميادين الألفاظ مُعَبِّرًا عن علاقة المخلوقين فيما بينهم من مدحٍ وثناءٍ وغزلٍ وهجاءٍ وغيرها من الأغراض، إذ ثمة فرقٌ فيما بين الموقفين، وتفاوتٌ بين المقامين، فالتَّواصلُ هنا مع الخالقِ وليسَ مع المخلوقين؛ ولعلَّ هذا هو السَّببُ الكامِنُ وراءَ قِلَّةِ أشعارِ هذا الغرضِ إذا ما قيسَت بأشعارِ الأغراضِ الأخرى في عمومِ الأدبِ العربيِّ، فغرضُ الدُّعاءِ غالبًا ما يكون حضورُهُ في مُقَتَّطَاتٍ شِعْرِيَّةٍ عند الوُعَاظِ والزُّهَّادِ خاصَّةً مَن تَزَهَّدَ من الشُّعراءِ الذين رجعوا من تيههم في دروبِ العصيانِ وآبوا إلى ربِّهم من أمثالِ أبي نُؤاسٍ (ت. 198هـ/814م)، وأبي العتاهية (ت. 211هـ/826م).

وقد كان هذا الغرضُ حاضرًا في شعرِ أبي الهُدَى ماثلاً أمام الناظرِ فيه بوجوهٍ مُخْتَلِفَةٍ وضروبٍ متنوِّعةٍ، تمتدُّ حينًا لتكونَ في قصائدِ دعائيَّةٍ مُسْتَقِلَّةٍ، وتقتصر حينًا آخر فتبلغ قطعًا أو نُتْقًا مصوَّعةً لغرضِ الدُّعاءِ والتَّوجُّهِ إلى الله تعالى، وفي بعض الأحيان تحتبئ الأبياتِ الدُّعائيَّة بين أبياتٍ قصيدةٍ مُتَعَدِّدَةِ الأغراضِ.

³⁰¹ الحُطَيْبَةُ جُزول بن أوس العبسي، ديوان الحُطَيْبَةِ، تحقيق: حمدو طَمَّاس، (بيروت: دار المعرفة، 1426هـ/2006م)، 144.

ولعلَّ المنظومة الرَّائِيَّةُ أَوَّلُ بَارِزٍ مِنَ الشَّكْلِ الْأَوَّلِ -القَصَائِدِ الدُّعَائِيَّةِ الْمُسْتَقْلَةِ- وهي التي صُدِّرَ بِهَا أَوَّلُ دَوَاوِينِهِ وَتَقَعَ فِي سَبْعَةٍ وَسَبْعِينَ بَيْتًا، وَيَبْدُو أَنَّهَا مِنْ أَوَائِلِ مَا نَظَّمَهُ أَبُو الْهَدَى فِي رِبْعَانِ شَبَابِهِ، وَمَطْلَعُهَا:

بَدَأْتُ بِبِسْمِ اللَّهِ فِي مَبْدَأِ الْأَمْرِ وَصَلَّيْتُ تَعْظِيمًا عَلَى الْكَامِلِ الْقَدْرِ
دَخَلْتُ بِأَسْمَاءِ الْإِلَهِ لِبَابِهِ أُؤَمِّلُ بِالْأَسْمَاءِ مِنْ بَابِهِ جَبْرِي³⁰²

وَيَبْيُنُّ مِنْ هَذَا الْمَطْلَعِ أَنَّ أَبَا الْهَدَى يَتَوَجَّهُ إِلَى اللَّهِ مُتَوَسِّلًا إِلَيْهِ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى، وَلِذَلِكَ فَهُوَ يَشْرَعُ بَعْدَ هَذِهِ الْبَدَايَةِ بِسَرْدِهَا عَلَى التَّرْتِيبِ الْوَارِدِ فِي الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ³⁰³، مَعَ حَرْصِهِ عَلَى أَنْ يُرْدِفَ كُلَّ اسْمٍ بِدَعْوَةٍ تَتَنَاسَبُ مَعَهُ، فَعَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ أَتَى بِاسْمِ "الْمُحْيِي" طَالِبًا حَيَاةَ لُبِّهِ بِالْفِكْرِ، وَدَعَا بِاسْمِ "الْمُمِيتِ" أَنْ يَمُوتَ عَلَى حَسَنِ الْخِتَامِ ذَاكِرًا مُوَحِّدًا، وَأَمَّا اسْمُ "الْمُقَدِّمِ" فَجَاءَ بِهِ مَشْفُوعًا بِطَلَبِ التَّقَدُّمِ وَالْعُلُوِّ فِي الرُّتَبِ، وَاسْمُ "الْمُوَخِّرِ" شُفِعَ بِالدُّعَاءِ عَلَى الْأَضْدَادِ بِأَنْ يَكُونَ التَّأَخُّرُ حَلِيفَهُمْ دَائِمًا، وَرَجَا بِاسْمِ اللَّهِ "الْأَوَّلِ" أَنْ تَحْسُنَ خَاتَمَةُ عَمْرِهِ عَلَى الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ، فَقَالَ:

مَعِيدٌ وَنُحْيِي فَآخِي بِالْفِكْرِ مُهْجَتِي مُمِيتٌ أَمْتَنِي نَاطِقَ الْقَلْبِ بِالذِّكْرِ
وَمُقْتَدِرٌ كُنْ لِي وَبِالْقُدْرَةِ أَكْفِي مُقَدِّمٌ قَدَّمَنِي بِشَأْنِي عَلَى غَيْرِي
مُوَخِّرٌ أَخَّرَ رَكْبَ ضِدِّي عَنِ الْمُنَى وَيَا أَوَّلُ اخْتَمْ لِي بِحَسَنِ انْتِهَا عُمْرِي³⁰⁴

³⁰² د.ف.م، 8.

³⁰³ يُنْظَرُ: مُحَمَّدُ بْنُ مَاجَةَ الْقُرُونِيُّ، سَنَنُ ابْنِ مَاجَةَ، إِعْدَادُ: مُحَمَّدُ فَوَّادُ عَبْدَ الْبَاقِي، (بِירוْت: دَارُ إِحْيَاءِ الْكُتُبِ الْعَرَبِيَّةِ، د.ت)، "الدُّعَاءُ"، 34 (رَقْمُ 3861).

³⁰⁴ د.ف.م، 9.

واستمرَّ على هذه الشَّكلة في سرد الأسماء الحُسنى جميعها -إلا اسم "الجليل" فلم ينل مكانه بين الأبيات-،³⁰⁵ مع ملاحظة صبغه لمنظومته ببعض المُحسِّنات البديعية اللفظية، كالجناس (بدأت/ مبدأ، أسماء/ الأسماء، مقدّم/ قدّمني، مؤخّر/ أخّر، مُقتدِر/ القُدرة)، والطِّباق (قدّم/ أخّر، أحي/ أمت، مُحيي/ مُيت).

ثم ذيل المنظومة بالدُّعاء له ولوالديه وأساتذته والصَّلاة والسَّلام على النَّبي وآله وأصحابه العشرة، وختم المنظومة بالدُّعاء للسُّلطان عبد الحميد وجنوده وتمنّى من الله أن يدوم العدل في ممالكه وأن يُكفى الزَّمانَ وشروءه، وقال في الختام:

بأسمائك الحُسنى دَعَاكَ أبو الهُدَى وترجمَهَا ضِمْنَ القصيدة بالشَّعر
فيا ربَّ خُذْهَا بالقَبُولِ لِأَنِّي بدأتُ بِبِسْمِ اللَّهِ فِي مَبْدَأِ الْأَمْرِ³⁰⁶

ومما أفرَدَ أبو الهُدَى من القصائد الكاملة لغرض الدُّعاء من بدايتها إلى نهايتها، تلك القصيدة المختوم بها ديوانه "التَّبيان"، التي يقول في مطلعها المُفعم بوسع الأمل وحسن الرِّجاء بالله:

رَفَعْتُ يَدَيَّ وَالْقَلْبُ رَاحَ مُنَاجِيَا أَغِثْ يَا عَظِيمَ الطَّوْلِ³⁰⁷ وَاقْبَلْ دُعَائِيَا
لِحَاشَ إِلَيْكَ ارْحَمْ صَمِيمَ ضِرَاعِي وَحَاشَاكَ مَا خَيَّبَتْ يَا رَبِّ رَاجِيَا³⁰⁸

وفيها يُصوِّرُ إخلاص التجائي وتضرُّعه لمولاه مُسندًا للقلب المناجاة الصَّادقة وذلك من طريق المجاز العقليّ، مع أنَّ المناجي هو صاحب القلب، ولكن لما كان القلب محلَّ الخشوع وصدق اللّجوء

³⁰⁵ لربّما يكون سقط البيت المتضمن له أثناء طباعة الديوان أو أنّه سقط من قلم النّاظم.

³⁰⁶ د.ف.م، 11.

³⁰⁷ الطَّوْلُ بالفتح هو المُنْ والعطاء ومنه طَالَ على المرء وتَطَوَّلَ، يُنظَر: الجوهري، "طول"، 1755/5.

³⁰⁸ د.ت.ب، 132.

اقتضت الملاسة والعلاقة الحتمية بين القلب وصاحبه أن يؤتى بهذا المجاز العقلي ليدلّل الشاعر على كمال الصديق في هذا الدعاء، وأمّا القلب الجسماني فقد مدّ كفّ الرجاء للإله الذي لا يخيب من أرتجأه؛ وتصويره لصدق دعائه وحسن آماله بمولاه، دفعه لتصوير الحالة الاضطرارية التي يكتوي بنيرانها فقال:

دعوتك والجلّي³⁰⁹ أحاطت بذلّي وشنت أُمامي خيلها وورائيا
تَنَاهَبني الأسقام حتى كأنني أشابه مِرْطًا مَسَّهُ الدَّهْرُ بَالِيَا
بُلِيتُ بأنواع الهموم لَهْمَةً عَلت بي فَمَزَّقَ بِانْتِصَارٍ بَلَايَا³¹⁰

فأبو الهدى بأبياته يستمطر الإغاثة الإلهية للمضطرّ الداعي، فيعرض حالة لمولاه بأنّه العبد الذليل الذي هجّمت عليه الدّواهي العظام، واستعار -استعارة مكنية مُرَشَّحَةً- لهذه الدّواهي وصف الهجوم والجيوش التي أقبلت بخيلها ورجلها عليه فأحاطت به من كلّ جانب، ناهيك بالأسقام التي تسابقت إلى شخصه المُنْهَك الذي شَبَّهه -بعد أن ذكر أداة التشبيه وحذف وجه الشّبه (الاهتراء)- تشبيهًا مُرسلاً مُجَمَّلاً بأنّه صار كالخِرْقَة البالية التي اهترأت بتعاقب الأيام الصّعبة عليها، ثم جاء بحسن التعليل لتحذّر هذه الهموم عليه، إذ ما كانت تلك البلايا لتحلّ في ساحته لولا الهمّة التي أعلت من شأنه فارتفع إلى قمّة المجد فصار هدفًا لصنوف البلايا والهموم التي يرجو من الله تفتيتها ومحوها بالنّصر والفرج القريب، وفي بيته الأخير سلك درب الاستعارة المكنية حيث جعل البلاء قميصًا، ثم حذفه وذكر صفة من لوازمه وهي التَّمزُّق، فطلب من الله تمزيق حلّة البلايا التي خلعتها عليه الأيام؛ ولم

³⁰⁹ الأمر العظيم، الجوهرى، "جلل"، 1658/4.

³¹⁰ د.ت.ب، 132.

يقف بتصوير حالته عند هذا بل استدعى صوراً تشبيهيةً أخرى، تجعل الناظر إليها ينعطف عليه بالرفقة والشفقة لحاله، فاستطرد قائلاً:

وَأَصْبَحْتُ كَالضَّبِّ الْمُحَاطِ بِمَوْجَةٍ يُرَى طَامِسًا حِينًا وَآخَرَ عَالِيًا
وَكَالْحَوْتِ فِي قَفْرِ تَغْلَعَلْ حَرُّهُ وَلَمْ يُلَفِ إِلَّا أَنْتَ يَا رَبِّ رَاعِيًا
تَنَكَّرْتَ الْأَيَّامَ حَتَّى كَأَنَّهَا عَدَتْ بَانْقِلَابَاتِ الشُّؤُونِ لَيَالِيًا³¹¹

فهو يصوّر أنّه وصل إلى أوج الاضطراب وقمته، لذا فقد استدعى التشبيه التمثيلي لتصوير حالته في الكرب مع اشتداد الاضطراب مُشَبِّهًا لها بصورتين، فما حاله الاضطرابيُّ هذا إلا كحال ضبِّ صحراويٍّ أحاطت به أمواج المياه من كلّ مكانٍ فبدأت تلفظه تارةً فيعلو فوقها، وتبتلعه تارةً أخرى فيهوي في أعماقها، وهو يكاد يختنق إذ البيئة المائيةُّ ليست بيئته، ويتابع أبو الهُدَى تشبيه حاله بصورةٍ مُعَاكِسَةٍ لِسَابِقَتِهَا فهو كالحوت الذي أُخْرِجَ من بجره إلى أعماق القفار الالهبة فوا عجبًا هل له غير إغاثة الله وعونه، فما كان القفر يومًا بيئةً للحوت ابن البحار، ولا الماء بمناسبٍ للضبِّ ابن القيا في والقفار، فكأنَّ أبا الهُدَى أراد أن يقذفَ بِمُخَيَّلَةِ القارئ وسطَ جَوْه الذي عاش فيه من ضنك الاضطراب، فهو كما مثّل بالمثالين -الضبِّ والحوت- في بيئةٍ تكاد تخنقه من أوداجه إذ ليست الأجواء بأجوائه ولا النَّاسُ بناسه ولا المكان بمكانٍ له، فتغيّرت حاله، حيث قلبت له الأيامُ ظهرَ المِجَنِّ، فصارت أوقائه مُدْهِمَةً سوداء من الهموم والأكدار والمصائب المنحدرة فوق رأسه؛ وتعكسُ مرآة الكلمات الواردة في هذه الأبيات انقلابات أحواله واضطرابها من خلال الطِّبَاق (الأيام/ الليالي، طامس/ عالي)؛ وبعد كلّ هذا انثنى لسانُ اضطرابه منادياً مولاه:

إلهي تَدَارَكْنِي بِلُطْفِكَ إِنَّنِي ضَعِيفٌ وَقَدْ حَمَلْتُ ضَعْفِي الْمَسَاوِيَا

³¹¹ د.ت.ب، 133.

جعلتُ لِقَلْبِي من تَجَلِّيكَ حَضْرَةً تُنَاجِيكَ فاجعَلِي بذكرِكَ نَاجِيًا
 وَنَوَّزَ حَيَاتِي بِالْخُشُوعِ وَبِالرِّضَا وَأَكْمِلْ عَلَيَّ دِينَ النَّبِيِّ مَمَاتِيَا
 وَلَا تُقْصِنِي عَنْ إِثْرِ أَشْرَفِ مُرْسَلٍ لِأَقْضِي وَأَلْقَى الْمُصْطَفَى الطُّهْرَ رَاضِيًا³¹²
 فغَايَةُ مَا يَرْجُوهُ أَبُو الْهَدَى بِدَعَائِهِ هُوَ أَنْ يَشْمَلَ اللَّطْفُ الْإِلَهِيُّ أَجْزَاءَ كُلِّهِ، فَقَدْ هَدَّ ضَعْفُهُ تَحْمُلُهُ
 لِلخَطَايَا، إِلَّا أَنَّهُ جَعَلَ مِنْ قَلْبِهِ لِسَانًا بَلَّ حَضْرَةً يَنَاجِي اللَّهَ فِيهَا بِالذِّكْرِ وَالِدُّعَاءِ عَسَى أَنْ يَحْظِيَ
 بِالنَّجَاةِ وَحَسَنَ الْخِتَامِ عِنْدَ مُوَافَاةِ الْأَجَلِ الْمُحْتَمِ، إِذْ إِنَّ أَقْصَى مَا يَرْنُو إِلَيْهِ هُوَ أَلَّا يَشْطَطَّ عَنِ النَّهْجِ
 السَّنِيِّ مِنَ الْإِتِّبَاعِ لِسُنَّةِ النَّبِيِّ الْأَكْرَمِ، وَغَايَةُ مَا يَطْمَحُ إِلَيْهِ أَنْ يُثَبِّتَ الْمَوْلَى خُطَاهُ إِلَى أَنْ يَلْقَى النَّبِيَّ
 الْكَرِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَحْظِيَ بِلِقَايِهِ وَرِضَاهُ؛ وَيُظْهَرُ فِي دَعَوَاتِهِ عَدَمُ إِهْمَالِهِ لُمُحَسِّنَاتِ أَلْفَاظِهَا
 وَمَعَانِيهَا، فَقَدْ أَتَى بِالْمُبَالَغَةِ لَمَّا جَعَلَ الْقَلْبَ حَضْرَةً مُنَاجَاةً لِلرَّبِّ الْكَرِيمِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَضَمَّنَ أَلْفَاظَهُ
 الطَّبَاقَ (حَيَاتِي/ مَمَاتِي)، وَالْجِنَاسَ النَّاقِصَ وَالِاشْتِقَاقِيَّ (ضَعِيف/ ضَعْفِي، تَجَلِّيكَ/ تُنَاجِيكَ/ نَاجِيًا).
 وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ كَانَ لِسَانُ حَالِهِ يَعْتَرِفُ بِالْعِجْزِ وَالتَّقْصِيرِ وَالْإِفْلَاسِ أَمَامَ رَبِّ النَّاسِ،
 فَصَحَائِفُ كِتَابِهِ اسْوَدَّتْ بِمَا نُشِرَ فِي مَطْوِيَّهَا مِنَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبِ، وَلَمْ تَبْقَ لَهُ وَسِيلَةٌ إِلَّا الْوُقُوفُ
 بِالذَّلِّ فِي بَابِ الْخَالِقِ الْعَزِيزِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَقَالَ:

تَنَكَّرَ مِنِّي الْحَالُ وَالطَّوْرُ وَالزَّيُّ وَنُشِرَ ذُنُوبِي فِي صَحَائِفِ مَطْوِيٍّ
 وَمَا لِي سِوَى ذُلِّي بِبَابِكَ حُجَّةٌ إِلَهِي وَإِنِّي فِي فَنَائِكَ مَرْمِيٌّ
 إِذَا مَا انْتَهَى عُمْرِي أَمْنِي مُوَحِّدًا عَلَى الْمِلَّةِ السَّمْحَاءِ يَا بَرُّ يَا حَيُّ³¹³

³¹² د.ت.ب، 133.

³¹³ د.ر.ت، 290.

فهو منطرحٌ بذِّله في ساحة الجود الإلهي وباب الكرم الربَّاني وأقصى ما يرجوه هو حسن الختام عند موافاة الأجل على التَّوحيد والإيمان، وباستعارته التَّصريحِيَّة للجود الإلهي وجعله فناءً يُنزل به أضفى على الأبيات جَماليَّة تُعَبِّرُ عَمَّا انطوى في صدره من فسيح الأمل بقبول الدُّعاء وتحقيق الرِّجاء.

وفي غرض الدُّعاء حرصَ أبو الهُدَى في غالبِ المواضع على التَّكلم بذات اللِّسان، وهي لسان المُذنب الخاطئ الخالي الوفاض من الأعمال الصَّالحات، ولم يفتأ جاعلاً هذا الحال هو السَّبب في إحاطته بأنواع الهموم والبلايا، ولهذا فما ثمة بابٌ إلا بابُ الإله، ولا ثمة رجاءٌ إلا به وبِعظيم عفوه وغفرانه، ومن أكثر ما طلبَ أبو الهُدَى في دعائه هو الغفران لذنوبه والثَّبات على النَّهج السَّنيِّ السُّنيِّ وحسن الحِتام على الإيمان، ففي القصيدة التي مطلعها:

لَمَنْ أَشْتَكِي إِلَّا إِلَى اللَّهِ دَائِيَا وَأَرْفَعُ آمَلِي لَهُ وَرَجَائِيَا³¹⁴

يُكْرِزُ هذه المعاني مرَّةً أُخرى ويبسطُ خوفه من الحساب يوم القيامة ويأملُ من الله أن يُحسِّن ختامه، ويختتم القصيدة بالصَّلَاة والسَّلَام على النَّبي وآله، ويأتي بمعنى آخر، وهو أَنَّهُ مُسْتَمْسِكٌ بعروة صدق المَحَبَّة لله ولرسوله ولعترته الطَّاهرين، وما في جعبته من شيءٍ سواها، فيقول:

إِذَا مَا بَدَتْ يَوْمَ الْحَسَابِ مَعَائِي بِرَحْمَتِكَ اسْتَرْ كُلُّ مَا كَانَ بَادِيَا
وَصَلَّ عَلَى الْمُخْتَارِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ إِمَامَ الْبَرَايَا سَادَةً وَمَوَالِيَا
فَلِيَّيْ سَوَى حُيِّي لَهُ وَلَآلَهُ وَحَبِّكَ رَبِّي لَا عَلَيَّ وَلَا لِيَا³¹⁵

³¹⁴ د.ر.ع، 77.

³¹⁵ د.ر.ع، 78.

وقد ضُمَّت الأبيات طباق التَّضاد (سادة/ موالى، عليّ/ لي)، وأمّا المعنى المذكور من التَّمسُّك بالمَحَبَّة كوسيلةٍ تُرَجى بها النِّجاة، وقصرِ كلِّ آماله عليها، فقد جاءَ في شعرِ السَّيِّدِ الحِميري (ت. 173هـ/789م) ما يقرُّب من هذا المعنى، حيث قال:

وَإِذَا الرِّجَالُ تَوَسَّلُوا بِوَسِيلَةٍ فَوْسِلَتِي حُجِّي لَأَلِ مُحَمَّدٍ³¹⁶

وتكرَّز المعاني التي وَرَدَت على ألسِنَةِ الشُّعراءِ السَّابِقِينَ أَمْرٌ ظَاهِرٌ في غرضِ الدِّعاءِ، ففي ثنايا شعره يبدو للنَّاظِرِ تكرَّزُهُ للمعنى الذي أتى به قبلَهُ أبو نُؤاسَ لَمَّا قال:

يَا رَبِّ إِنْ عَظُمَتْ ذُنُوبِي كَثَرَةً فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ
إِنْ كَانَ لَا يَرْجُوكَ إِلَّا مُحْسِنٌ فَيَمَنُ يَلُودُ وَيَسْتَجِيرُ الْمُجْرِمُ³¹⁷

وَرَدَ منسوجًا على منواله في مُحَمَّسَةٍ لأبي الهُدَي؛ وكِلا الشَّاعِرِينَ في أبياتهما اعترَفَا بالخطأ وارتكاب الذُّنُوب مع بسَطهما عَظِيمَ الأمل ليقينهما بجزيل العفو الإلهي، وكلاهما خاطبا المولى عَزَّ وَجَلَّ بطلب قبولهما على عصيانهم، فالرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إذا لم يقبل إلا الصَّالِحِينَ فَمَنْ ذا الذي سيقبل الطَّالِحِينَ ويُثِقِلُ عَثَرَتَهُمْ إذا ما أُغْلِقَ في وجههم بابُ العُفْرِانِ الإلهي؟ يقول أبو الهُدَي:

إِلَهِي بِذَنْبِي رُجُوعِي إِلَيْكَ وَشُكْوَايَ رُدَّتْ بِذُلِّي لَدَيْكَ
وَكُلُّ اتِّكَالِي بِأَمْرِي عَلَيْكَ فَسَامِخْ فَجُودُكَ جَمًّا جَزِيلًا
وَإِنِّي فَقِيرٌ وَآهِي طَوِيلٌ

إِلَهِي إِذَا كُنْتَ لِلْمُحْسِنِينَ فَمَنْ لِعَبِيدٍ أَتَوْا مُذْنِبِينَ
إِلَهِي يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ دَعُوتُكَ فَارْحَمْ نِدَاءَ الْحَاجِلِينَ

³¹⁶ د.ر.ع، 77.

³¹⁷ أبو نؤاس الحسن بن هانئ، ديوان أبي نؤاس، تحقيق: مجت عبد الغفور الحديشي، (أبو ظبي: دار الكتب الوطنية، 1431هـ/2010م)، 716.

غَيْرَ أَنَّ أبا الهُدَى فِي أَيْيَاتِهِ قَدْ تَوَسَّعَ فِي شَرْحِ حَالِهِ وَزَادَ عَلَى أَبِي نَوَاسٍ بَأَنَّ بَالِغَ بِالْإِنْطِرَاحِ فِي رِحَابِ الْكَرَمِ الْإِلَهِيِّ، فَهُوَ الْعَبْدُ الَّذِي طَالَتْ لِيَالِيهِ بِالْأَهَاتِ وَحِيدًا مُفْلِسًا، وَتَحَلَّتْ عَنْهُ الْأَيْدِي الْحَانِيَّةُ وَالصَّدِيقَةُ، فَجَاءَ خَجَلًا مُعْتَرِفًا لِإِلَهِهِ رَاجِيًا رَحْمَتَهُ مَتَوَكِّلًا بِكُلِّيَّتِهِ عَلَيْهِ عَسَى أَنْ يُقْبَلَ دَعَاؤُهُ وَيَحْصُلَ رَجَاؤُهُ؛ وَلَرَبَّمَا أَخَذَ الْقَارِئُ مِنْ إِطْنَابِ أَبِي الْهُدَى بِأَسْلُوبِ التَّكْرَارِ لِكَلِمَةِ (إِلَهِي) وَشَرْحِهِ لَوَحْدَتِهِ وَبَيَانِهِ لِحَجَلِهِ مِمَّا بَدَرَ مِنْهُ، دَلِيلًا يُوَكِّدُ صِدْقَ مَشَاعِرِهِ فِي الرَّغْبَةِ إِلَى مَوْلَاهُ وَالْإِبْتِهَالِ بَيْنَ يَدَيْهِ.

وَفِي مَعْرِضِ الْكَلَامِ عَلَى الْقَصَائِدِ الَّتِي خَصَّصَهَا أَبُو الْهُدَى لَغَرَضِ الدُّعَاءِ، يُلَمَّحُ أَنَّ مَا سَبَقَ عَرَضُهُ مِنْ مَطَالِعِ الْقَصَائِدِ قَدْ اسْتُهْلَتْ بِالدُّعَاءِ وَلَمْ تَحْطَ بِتَمْهِيدٍ قَبْلَ الْخَوْضِ فِي غَمَارِ الْغَرَضِ، إِلَّا أَنَّ أبا الْهُدَى لَمْ يَسِرْ هَذَا السَّيْرَ فِي كُلِّ قَصَائِدِهِ، فَهَذِهِ قَصِيدَةٌ دُعَائِيَّةٌ أُخْرَى اسْتَهْلَهَا بِمَطْلَعٍ يَخْتَلِفُ عَنْ سَابِقِ مَطَالِعِ الْقَصَائِدِ، حَيْثُ قَالَ:

سَارَتْ تُزْمَرْ³¹⁹ لِلْحِمَى الرُّكْبَانُ وَأَعَاقِي التَّسْوِيفِ وَالْحِرْمَانُ
يَا سَائِقِ الْأَظْعَانِ³²⁰ يُجْهِدُهَا وَقَدْ طَارَتْ لِسَاحَةِ حَبِّهَا الْأَظْعَانُ
هَلَّا اتَّكَدَتْ³²¹ لِيَذِي عَنَاءٍ ضَالِعٍ³²² تَبَعَ الْهَوَى إِنَّ الْهَوَى حُسْرَانُ
وَاحْسَرَتِي دَنِي طَمًا وَتَفَجُّعًا نَارِي تَوُجُّ³²³ وَمَدْمَعِي هَتَّانُ³²⁴

³¹⁸ د.م.ش، 154.

³¹⁹ زمزم الحادي ترنم ودندن، وتزمرم الجمل هدر، يُنظر: مصطفى وآخرون، "زمزم"، 400/1.

³²⁰ جمعٌ واحدٌ طعينة وهي الهودج الذي فوق الرّاحلة سواءً أكانت فيه امرأةٌ أم لم تكن، يُنظر: الجوهري، "ظعن"، 2159/6.

³²¹ أي هَلَّا تَأَنَّىت، يُنظر: ابن منظور، "أود"، 75/3.

³²² مُذْنِبٍ أَوْ مَائِلٍ عَنِ الطَّرِيقِ، يُنظر: الزَّيْدِي، "ضَلَع"، 421/21.

³²³ مِنْ أَجْ أَجْبَجًا، وَالْأَجْبِجُ هُوَ تَلَهُبُّ النَّارِ وَاضْطِرَامُّهَا، يُنظر: الجوهري، "أجج"، 297/1.

³²⁴ مِنْ هَتَّنَ أَيْ صَبَّ صَبًّا، وَهُوَ مِنَ الْمَطَرِ فَوْقَ الْمَطَلِ، يُنظر: ابن منظور، "هتن"، 430/13.

يَارِبِّ لَا تَقْطَعْ رَجَائِي مِنْكَ يَا مَنْ نَدَاهُ يُؤْمَلُ الْإِحْسَانُ³²⁵

ففي هذا المطلع يُلحَظُ أَنَّ أبا الهُدَى تفرَّدَ به عن سوابقه من سالفِ المطالع بأن جعله مطلعاً رمزياً، فلربما كان أبو الهُدَى قد عَنَى برمزيَّة الحمى المنازلِ العالية في الدَّارِ الآخرة، حيث سارت إليها ركبان المؤمنين الصَّالحين، في حين أَنَّ رِكَابَهُ قد أقعدتها الدُّنُوبُ والتَّسْوِيفُ واتِّبَاعُ الهوى، فلم يقوَ على اللَّحاق بركب الصَّلاح والفلاح، ولذلك فقد اشتعلت في حشاه نار الأسى والنَّدَم على ما فاتته، ففاضت عيونه بالدموع السَّاكبة، ولكنَّ ما يُبرِّدُ لظى أحشائه يقينه أَنَّ باب الرَّجاء في الله والأوبة إليه لا يزال مفتوحاً، وأنَّ المؤمِّلَ برَبِّ العالمين لا يخيب؛ ويسترعي الانتباه في هذا المطلع إيداعُ أبي الهُدَى فيه جملةً من الاستعارات، حيث استعار للدُّنُوب وصفَ الطُّمُوءِ وللمدَامع التَّهْطَال ولِلأَطْعَان الطَّيْران وكلُّ ذلك على سبيل الاستعارة المكنيَّة؛ ومن هذا المطلع الذي استهلَّ به القصيدة خلَصَ أبو الهُدَى إلى غرض الدُّعاء في باقي أبياتها راجياً الإحسان وتحقيق الآمال.

وإذا كانت القصائد هي الشَّكل الأوَّل لغرض الدُّعاء، فإنَّ الشَّكل الثَّاني لهذا الغرض هو القِطْع الدُّعائيَّة التي تَخَلَّلَت القصائد المتنوعة الأغراض، ومن ذلك قول أبي الهُدَى في قصيدته المطوَّلة التي مطلعها:

لَكَ فِي مَهْمِهِ³²⁶ التَّجَلِّيُ الْبِهَاءُ يَا نَبِيَّا نُؤَابُهُ الْأَنْبِيَاءُ³²⁷

يقول في أواخر أبيات هذه القصيدة مُنتَقِلاً إلى غرض الدُّعاء:

³²⁵ د.ر.ت، 249.

³²⁶ المفازة، يُنْظَرُ: الجوهري، "مهه"، 2250/6.

³²⁷ د.م.ش، 6.

رَبِّ إِيَّيْ مدَحْتُ عَبْدَكَ طَهَ وَبَطَهَ يَسْتَشْفِعُ الْفُقَرَاءُ
نَقَّ سِرِّي يَا رَبِّ مِنْ كُلِّ سَوْءٍ فَبَسِرِي مِنْ زَلَّتِي أَصْدَاءُ
وَتَدَارَكَ عَجْزِي بِقُدْرَتِكَ الْعُظْمَى فَإِنَّ مَطِيَّتِي هَزَلَاءُ
الغِيَاثَ الْغِيَاثَ يَا رَبِّ فَالرَّكَّ سُبُّ أَمَامٍ وَالْعَزْمُ مَيِّ وَرَاءُ³²⁸

ويلاحظُ حسنُ تخلصِهِ بالانتقال من غرضٍ إلى آخر، والشُّروع في الدُّعاء والطلب من المولى أن يُصَقِّي باطنَهُ من الكَدَرِ والآثَامِ، ويصفُ هِمَّتَهُ في المسير إلى الله بالعجز والضعف عن الطَّاعات والصَّالحات ويسطُّ أبو الهُدَى أمام القارئِ صُورًا بالغة الدِّلالة على فتورِ هذه الهِمَّة حيثُ كَتَبَ عنها بِإِتْيَانِهِ بلفظِ (المَطِيَّة) التي تُركب في المسير لكنَّ الضَّعف والعجز قد هَدَّأَ منها القُوَى، حتى صارت مَطِيَّةً هَزِيلَةً لَا يُعْتَمَدُ عليها في السَّير إلى منازلِ الهُدَى، مما جعله يستطرِدُ ويجأُر - بأسلوب الإطناب - مُكْرِرًا طلب الغوث والإعانة من الله في نهوضِ هذه العزيمة المُتخلِّفة عن الرِّكب الذي هو كنايةٌ عَمَّنْ تَقَدَّمَ أمامَهُ من قافلة السَّارِبين في درب الصَّلاح والفلاح، ويجعلُهُ عزيمةً مُتفَهِّرةً إلى الوراء استعارةً مكنيَّةً توكِّدُ ما يحرصُ عليه دائماً من التَّكَلُّم بلسان العجز والاضطرار في شعرهِ الدُّعائي.

وقد كان أبو الهُدَى في شعرهِ الدُّعائي -بالإضافة إلى تكلُّمِهِ بلسان العجز وعرض فقرهِ لمولاه- يحرصُ أيضاً على التَّوسُّل إلى الله بكلِّ ما يُتوسَّلُ بِهِ إِلَيْهِ، فتوسَّل إلى الله بالأسماء الحُسنى - كما مرَّ ذِكرُهُ - وتوسَّل إليه بالقرآن الكريم وبِعَظَمَةِ الأمر الإلهي وبالقدرة الرِّبانيَّة على الإيجاد والإفناء وبالعطاء الإلهي الذي أكرم به الله الأنبياء والمرسلين، وبالمرسلين جميعاً وبسَيِّدِهِم كُلِّهِم سراج الهُدَى أبي الزَّهراء عليه السلام؛ حيث يقول في مطلعِ قصيدةٍ مُتنوِّعةٍ الأغراض استهلَّها بالدُّعاء، مُستعيراً للهَمَّ صورة النَّار

³²⁸ د.م.ش، 22، 23.

التي تذيب الأحشاء، من طريق الاستعارة المكنية، لينطلق خيال القارئ حيث شاء في تصوّر ثقل وطأة هذا الهم الذي نزل بساحة صدر أبي الهدي فراح يبتشكوا إلى مولاه أرحم الراحمين:

لَكَ أَشْكُو يَا أَرْحَمَ الرَّحْمَاءِ دَاءَ هَمٍّ أَذَابَ لِي أَعْضَائِي³²⁹

ثم انثنى مُتَوَسِّلاً لقبول دعائه، مُبْتَهِلاً بخضوع وانكسارٍ، عسى أن يجبر مولاه ما انكسر من صلب صبره وعزمته، ويرأب ما تصدّع من كل كُله:

وَأُنَاجِيكَ بَانْكِسَارٍ وَذُلِّ فَاجِبِرِ الْكَسْرِ يَا مُجِيبَ الدُّعَاءِ
بِمَعَانِي الْقُرْآنِ فِي عَالَمِ الْأُمِّ رِ بِمَجْلَى حَقَائِقِ الْأَسْمَاءِ
بِخَوَافِي أَسْرَارِ غَيْبِكَ بِالْإِبِّ سِدَاعٍ بِالطَّمْسِ بَالْفَنَّا بِالْبَقَاءِ
بِتَدَلِّي فَيَوْضِ عِزَّتِكَ الْعُظْمَى إِلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْأَنْبِيَاءِ
وَبِهِمْ كُلِّهِمْ وَبِأَعْظَمِهِمْ جَا هَا سِرَاجِ الْهُدَى أَبِي الزَّهْرَاءِ³³⁰

وقد زخرت أشعاره الدعائية بالتوسلات، فلم تقف عند هذا المقدار بل تعدته إلى التوسل بأمور أخرى يراها من عجائب التكوين والتصريف الإلهي في هذه الأكوان، فبعد أن توسل إلى الله بذاته المقدسة وبعظمته الجليلة وبكتابه الكريم وبرسوله، توسل إليه بمحبته لأبويه وبصدق دعواتهم له، وبالأسرار التي جاء القرآن ليبرزها ويفتح رتقها في هذا الوجود، وتوسل إليه بالعزائم الصادقة التي مالت بكلياتها إلى ربها حتى حكّت ميل الأفنان في الأفياء، واستشفع بأنين العاشقين الحقيقيين للجمال الأقدس وبأنين قلوبهم التي أذابها ألم الغرام، وبما انطوت عليه قلوب الصادقين من علوم، فقال في موضع آخر:

³²⁹ د.م.ش، 31.

³³⁰ د.م.ش، 31.

فوسيلتي لك قدسُ ذاتِكَ سيّدي وحيبيُّكَ المختارُ والقرآنُ
 ومحَبَّتِي للوالدين ومنهما حسنُ الدُّعاءِ فلي بذاك أمانُ
 بجليلِ طَوْلِكَ يا قديمُ بِكُلِّ ما قد جاءَ يُبرِّزُ سرَّهُ الفرقانُ
 بكلامِكَ القدسيِّ بالهممِ التي مالتْ إليك كأثما أغصانُ
 بحنينِ ركبِ العاشقينِ إليك حيـ سِ تُذِيبُهَا الآلامُ والأحزانُ
 بفنونِ أصحابِ القُلُوبِ كأثمِّ أشجارِ معرفةٍ لها أغصانُ³³¹

وبتشبيهه المرسل المفصل -بذكره لأداة التشبيه (كأنَّ) ووجه الشَّبه (الميلان)- لعزائم الصّادقين بالأغصان، واستعارته المكنية لأحزان العاشقين وصفَ إذابة النيران، وبالإضافة إلى تشبيهه المرسل المُجمل -بذكره لأداة التشبيه وحذفه لوجه الشَّبه (الإثمار)- لفنون أرباب القلوب الطاهرة بأشجارٍ تَدَلَّتْ منها أغصانُها، كلِّ هذا قد يأخذُ بالمتأملِ في رحلةٍ إلى أعماقِ شخصيّةِ أبي الهُدَى، فيكادُ يكشفُ ما انطوى عليه قلبُ الشّاعرِ من تعظيمٍ ومحَبَّةٍ لعزيمةِ الذين صدّقوا ما عاهدوا الله عليه، والعاشقين الحقيقيين للباقي القديم الذين يحبُّهم ويحبُّونه، كما يُلْتَمَسُ إجلالُهُ لبِضاةِ أهلِ القلوب وما حوته قلوبُهم من طهرٍ أثمرَ طيِّباتِ الفنون والمعارف؛ فقدَّم بين يدي دعائه أعظمَ ما انطوى عليه قلبُهُ من عظيمِ الوسائلِ وراحَ يناجي مولاهُ بلسانِ الرّجاءِ قائلاً:

اغفر ذنوبي واجتذب قلبي إلى عَليّكَ يا رَحْمَنُ يا دَيَّانُ
 والطُفِّ بحالي حينَ أُحشِرُ في غَدٍ حينَ الحسابُ يقومُ والميزانُ³³²

وإذا كان أبو الهُدَى في شعره الدُّعائيّ وتوسُّلاتِهِ قد دعا لنفسِهِ ولغيرِهِ ولعامّةِ المسلمين ولسلطانِهِم، فقد امتدَّتْ بتوسُّلاتِهِ ليشملَ الدُّعاءَ على أعدائِهِ أيضاً، ومن ذلكَ ما نَظَّمَهُ من الدُّعاءِ

³³¹ د.ر.ت، 251.

³³² د.ر.ت، 251.

على رجلٍ مفترٍ على أعيان رجالات حلب، فانبى أبو الهدى بقصيدةٍ مُستَقَلَّةٍ يدعو عليه، فقال فيها بعد أن قدّم بين يديها توسُّله واستغفاره من ذنوبه:

دَمَّرَ عَدُوًّا بَغَى وَاصْرَفَ مَكَايِدَهُ عَنَّا وَشَتَّتَهُ حَتَّى لَا يَرَى حَلَبًا
وَاضْرِبُهُ جَهْرًا بِسَيْفِ الْعَدْلِ يَا حَكَمًا يُرْجَى إِذَا ضَاقَ صَدْرُ الْعَبْدِ وَاضْطَرَبَا
يَا مَنْ إِلَيْكَ التَّجَاءُ الْخَاشِعِينَ أَعِثْ بِخِزْيِهِ مِثْلَمَا عَاجَلْتَ قَوْمَ سَبَا³³³

وبدعائه على عدوه أن يُعَاجِلَهُ اللهُ بالعذاب كما عاجلَ قَوْمَ سَبَا،³³⁴ إشارةً منه إلى اشتراكِ عدوه مع أولئك القوم بنفس الفعل والخِصال، مما يعني أنَّ عدوه قد جحدَ إنعامه عليه، وجازى الإحسان بالكُفران، فَحَقَّقَ لِلشَّاعِرِ أَنْ يَرْغَبَ إِلَى رَبِّهِ لِيُغَيِّثَهُ بتعجيل العقابِ على هذا العدوِّ الباغي كما عاجل أولئك القوم.

ومن دعائه على مَنْ بَغَى عليه، وقد ضَمَّنَ البيتَ الكناية عن إضرار الباغي نار العداوة والبغي عليه (زنده الواري)، لذا فقد طَلَبَ من الله أن يُخِمِدَ هذه النَّارَ، ويصيبَ تلك اليدَ الباغية بالشَّلَلِ فلا تمتدَّ إليه بالبغي مرَّةً أُخرى؛ فقال:

وَكُفَّ يَدَ الْبَاغِي عَلَيْنَا وَشَلَّلَهَا لِيُخِمِدَ عَنْ رَغْمٍ لَهُ زَنْدُهُ الْوَارِي³³⁵

ويُخِيلُ إِلَى النَّظَرِ فِي هذه الأبيات الدُّعَائِيَّةُ أَنَّ أبا الهدى قد تعرَّضَ خلالَ حياتهٍ لشيءٍ من الظُّلم والأذِيَّات والخيانات وكفران العشير، ولذلك يستطيع النَّاظِرُ أن يقرأ بين السُّطورِ الألم الكبير الذي

³³³ د.ت.ب، 20؛ وكلمة "المكائد" هكذا وَرَدَتْ فِي الدِّيَّوَانِ، وَالصَّوَابُ أَنْ تَكُونَ بِتَسْهِيلِ الْهَمْزِ "مكايِد"، إِذِ الْيَاءُ أَصْلِيَّةٌ فِي لَفْظِ "مَكِيدَةٌ".

³³⁴ يُنْظَرُ: سَبَا، 15/34.

³³⁵ د.م.ش، 104؛ وَالزَّنْدُ هُوَ الْعُودُ الَّذِي يُقَدِّحُ بِهِ النَّارَ، الْجَوْهَرِي، "زند"، 481/2؛ وَالْوَارِي مَنْ وَرَى الزَّنْدَ إِذَا خَرَجَتْ نَارُهُ، يُنْظَرُ: الْجَوْهَرِي، "ورى"، 2522/6.

اجتاح جوانحَ الشَّاعرِ، فدفعَهُ إلى هذا الدُّعاءِ على أعدائِهِ، ومن ذلك دعاؤُهُ على خائنٍ غدارٍ مَكِرٍ بالتَّدْمِيرِ والقَهْرِ والدُّلِّ والخِذلانِ:

وَحُذِّ بِسَهَامِ الْمَكْرِ يَا رَبَّ خَائِنًا تَعَدَّى حُدُودَ الْحَقِّ وَانْسَابَ بِالْمَكْرِ
وَصُبَّ عَلَيْهِ الدُّلَّ وَقَطَعَ حِبَالَهُ بِسَيْفِ التَّجَلِّيِّ وَاسْقِهِ لَوْعَةَ الْقَهْرِ
وَسَرَبَلُهُ³³⁶ بِالْخِذْلَانِ وَاحْمَقُهُ عَاجِلًا فَعُونُكَ يُرْجَى لِلْإِغَاثَةِ وَالنَّصْرِ³³⁷

ويُلاحَظُ في دعائه على الخصوم التفاتُهُ إلى وصفِهِم، فالباغي نصبَ لَهُ فِخَاخَ المكايدِ وشبَّ لَهُ نيرانِ العداوةِ والحقْدِ، والتَّحَفَ بِزُرِّ الخِدايعِ والمَكْرِ، وتعدَّى كلَّ الحدودِ في بغيهِ وعدوانِهِ، فجاء الدُّعاءُ بِحُلَّةِ الاستعاراتِ والتَّشبيهِاتِ قاسيًا قد يحكي شِدَّةَ ما قاساهُ أبو الهُدَى من ذلك الخصمِ؛ حيثُ شبَّهَ -تَشبيهًُا بليغًا بجامعِ (الإصابة)- المَكْرَ الإلهيَّ بالسَّهامِ التي ترمي مَن بغي وطغى فتعدَّى الحدودَ، وكذلك استعار للدُّلِّ صفةَ هطولِ الماءِ وصَبِّهِ، وأمَّا القَهْرُ فقد استعارَ لَهُ الماءَ ثم حذفه وذكر شيئًا من لوازمِهِ وهي السُّقيا التي يأملُ أن يتجرَّعَ منها خصمُهُ، وما الخِذلانُ إلا قميصٌ أَمَلَّ أبو الهُدَى أن يتسرَّبَلَ به مَن بغي عليه ويتدرَّعَ به -وكلَّ ذلك من طريقِ الاستعارةِ المكنيَّةِ-، فيما جاءت الاستعارةُ التَّصريحِيَّةُ جاعلةً لمَكْرِ الخصمِ حبالًا رجا الشَّاعرُ من الله قطعها بتجلِّيِ العدالةِ الإلهيَّةِ الذي جعل منه بالتَّشبيهِِ البليغِ -بحذفِ الأداةِ ووجهِ الشَّبهِ (القُطْع)- حُسامًا بَنَارًا يقطعُ الخائنينَ الماكِرِينَ، علَّ أن يُشَفِّى غليلُهُ وتَقَرَّ عينُهُ بمجازاةِ الله لهذا الباغي، إذ انتقامُ الله وعدالتُهُ ونصرُهُ للمظلومينَ لم تزل غايةَ الآمالِ ومطمَحُ الأنظارِ ومُنيَّةُ القلوبِ المكَلُومَةِ.

³³⁶ أَلْبَسَهُ سَرِبَالَ الخِذلانِ، والسَّرِبَالُ هو القميصُ أو اللِّبَاسُ، يُنْظَرُ: ابن منظور، "سَرِبَالٌ"، 335/11.

³³⁷ د.ر.ت، 130.

وَتُعَدُّ النُّتْفُ الدُّعَائِيَّةُ الشَّكْلُ الثَّلَاثُ لغرض الدعاء، ومنها نُتْفَةٌ يرفع بها شكواه إلى الله من هموم الزَّمان التي استعار لها وصفَ الحملِ الثَّقِيلِ الذي أثْقَلَ بِالعَنَا كاهلَهُ، فراح يستغيثُ طالبًا كشفَ الكُربِ ودفعَ العُطَبِ، ولا ريبَ فالرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ أولى بعبده وأحنى عليه من الأمِّ برضيعها، فيقول:

إلهي لقد قَلَّتْ وَحَقِّكَ حِيلَتِي وَأَقْلَقَنِي دَهْرِي وَأَثْقَلَنِي هَمِّي
أَغْنِي وَفَرِّجْ يَا مُهَيِّمُنْ كُرْبَتِي فَإِنَّكَ أَوْلَى بِالرَّضِيعِ مِنَ الْأُمِّ³³⁸

ومما تجدرُ الإشارةُ إليه أنَّ ابنَ منظورَ قَسَمَ الدُّعَاءَ على ثلاثةِ أَصْرِبٍ: أحدها طلبُ العفوِ ومُدُّ يدِ الاستغفارِ، وثانيها طلبُ الحاجاتِ ومُدُّ يدِ الافتقارِ، وكلاهما أخذَ مكانًا في شعرِ أبي الهُدَى الدُّعَائِيِّ - كما مرَّتَ عليهما السُّطورُ السَّابِقَةُ -، وأمَّا الضَّرْبُ الثَّلَاثُ من الدُّعَاءِ فهو توحيدُ الله تعالى وتمجيدُ ذاتهِ العَلِيِّ،³³⁹ وهذا الضَّرْبُ لم تخلُ منه أشعارُ أبي الهُدَى الدُّعَائِيَّةُ، فمن ذلك قولُهُ:

عَقُولُ الْوَرَى تَاهَتْ بِسُلْطَانِكَ الْأَعْلَى وَحَارَتْ بِمَعْنَى شَأْنِ عُنْوَانِكَ الْأَجْلَى
وَقَدْ خَضَعَ الْأَكْوَانُ خَوْفًا لِعِزِّكَ الْوَعْدِ عَظِيمِ وَقَادَاتُ الْمَلَا سَجَدَتْ ذُلًّا
وَبَرَّقَعَتْ سِرَّ الذَّاتِ فِي سِرِّكَ الَّذِي تَطَرَّرَ بِاللُّطْفِ الْخَفِيِّ وَمَا انْخَلَا
صِفَاتُ لِدَاتٍ تِلْكَ جَلَّ جَلَالُهَا هَا الْمَنْعُ وَالْإِعْطَاءُ وَالْوَضْعُ وَالْإِعْلَاءُ³⁴⁰

³³⁸ د.ت.ب، 91.

³³⁹ يُنْظَرُ: ابن منظور، "دعا"، 257/14.

³⁴⁰ د.ف.م، 11، 12.

ولربما إذا لحت عينُ القاريِّ هذه الأبيات فإنَّ من أوَّل ما يمثلُ أمامها كلماتُ أبي بكرٍ الصِّديِّقِ (ت. 13هـ/634م) رضي الله عنه: "العجزُ عن دَرَكَ الإدراكِ إدراكٌ"،³⁴¹ وقولُ أبي إسحاق النَّفزيِّ الغرناطيِّ (ك. ح. 580هـ/1184م):

كَبَّرَ وَقَدَّسَ وَنَزَّ مَا أَطَقْتَ فَلَمْ يَصِلْ إِلَى مَلِكِ الْأَمْلَاكِ أَمْلَاكُ
كُلُّ يُقَرُّ بِأَنَّ الْعَجْزَ قَيْدُهُ وَالْعَجْزُ عَنْ دَرَكَ الْإِدْرَاكِ إِدْرَاكُ³⁴²

فغايته ما أرادَه أبو الهُدَى بأبياتِه هو أن ينقلَ هذه الحقيقة، فالذَّاتُ الإلهيَّةُ لا يُعرَفُ كُنْهها، والعقولُ مُعقَّلةٌ من أن تَصِلَ إلى سرِّ سُلطانها، والذَّاتُ الإلهيَّةُ تحجَّبتْ باللَّطف فلا تُدرِكها الأبصار، وهي ذاتٌ جليَّةٌ تفرَّدتْ بالخفضِ والرَّفعِ وبالسَّلبِ والعطاء، فأنتَ للذي برَزَ من العدمِ وحُلِقَ من الثُّرابِ أن يُدرِكَ ذاتَ ربِّ الأربابِ جلَّ وعلا. ولكنَّ إنما هو التَّمجيدُ والتَّقدیسُ وإظهارُ العبوديَّةِ بالوقوفِ في ساحاتِ العجزِ أمامَ القدرةِ الإلهيَّةِ التي بُسِطَ سُلطانُها على الأكوانِ وما حوتُه من المُكوِّناتِ، إذ لا سلطانَ لقدرةٍ أخرى فوق سلطانِ دولةِ القَدَرِ الإلهيِّ، وفي هذا يقول:

يَا مَنْ إِلَيْكَ بَسَطْتُ كَفَّ رَجَائِي وَرَفَعْتُ آمَالِي بِصَدَقِ دُعَائِي
لَكَ دَوْلَةُ الْأَقْدَارِ وَالْأَمْرِ الَّذِي هُوَ نَافِذُ الْأَحْكَامِ فِي الْأَشْيَاءِ
سُلْطَانُ قُدْسِكَ عَزَّ شَأْنُكَ حَاكِمٌ فِي كُلِّ أَرْضٍ بَلْ وَكُلِّ سَمَاءٍ³⁴³

³⁴¹ طاهر بن محمَّد الإسفراييني، التبصير في الدِّين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، تحقيق: كمال يوسف الحوت، (بيروت: دار عالم الكتب، 1403هـ/1983م)، 160.

³⁴² أبو عبد الله محمَّد لسان الدِّين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: يوسف علي الطَّويل، (بيروت: دار الكتب العلميَّة، 1424هـ/2003م)، 1/195.

³⁴³ د.ر.ت، 10، 11.

ومن ثمة يمكن القول: إِنَّ أبا الهُدَى قد استوفى في شعره جميع ضروب الدُّعاء التي أوردها ابن منظور، من استغفارٍ وافتقارٍ وتوحيدٍ للذَّات الإلهية وتمجيدٍ لها. وآخر ما يمكن أن يُشار إليه في هذا الغرض إلحاقه الشَّعرية، ولعلَّ من أبرزها ما ألحقه بقول أبي عبد الله محمد بن زيد اللَّحْمِي (ت. 307هـ/919م) الذي قال داعياً مولاه:

يا ربَّ صَفْحًا وَغُفْرانًا وَمَعْدِرَةً لِمُذنبٍ كَثُرَتْ مِنْهُ الْمَعَاذِيرُ
يُيَكِّيه إِجْرَامُهُ طَوْرًا وَيُضَحِّكُهُ رَجَاؤُهُ فَهُوَ مَحْزُونٌ وَمَسْرُورٌ³⁴⁴

ففي هذه الأبيات يعمد أبو عبد الله إلى وصف حالته من التَّقْصير والذُّنوب، ويجمع بطريق الطِّباق بين التَّقْيِيزِ الضَّحْكِ والبكاء، والحزن والسُّرور، كنايةً منه عن تقلُّبه بين الخوف والرجاء؛ فجاء أبو الهُدَى مُلحِقاً بهذه الأبيات قوله:

وظَلَمَةُ الذَّنْبِ إِنْ طَمَّتْ فَتَامَتْهَا³⁴⁵ فَحُبُّ عَبْدِكَ طَهَ الْمُصْطَفَى النُّورُ
ارْحَمْ لِأَجْلِ أَبِي الزَّهْرَاءِ صَادِعِي فَلَوْلُو الدَّمْعِ مِنْ عَيْنِي مَنثورُ
واجْبُرْ كَسِيرَ فَوَادِي إِنْني وَجِلُّ عَلَيْكَ حُسْنُ رَجَائِي الدَّهْرَ مَقْصُورٌ³⁴⁶

وبهذا يكون قد تابع اللَّحْمِي في الإتيان بالطِّباق، ولكنَّ الطِّباق الذي أتى به كان بين نور الحبِّ للرَّسول الكريم وظلمة الذُّنوب، وفي هذا تشبيهٌ بليغٌ للمحبَّة بالنُّور الفريد المُفَرِّد وللذُّنوب بالظُّلُمات الكثيفة، ثم مضى مُسترسلاً راجياً بنور المحبَّة أن تُحقِّق ظُلُماتُ الذُّنوب، وتوسَّلَ إلى الله بالمُصْطَفَى أن يرحم حاله، وجاء بالمبالغة فجعل من الذُّنوب صادعة³⁴⁷ ليُكَيِّ بذلك عن عَظَمِها الذي قصَمَ

³⁴⁴ ابن القطَّاع علي بن جعفر السَّعدي الصَّقَلِي، الدُّرَّةُ الْخَطِيرَةُ فِي شِعْرَاءِ الْحَزِينَةِ، تحقيق: بشير البَكَّوش، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1415هـ/1995م)، 213.

³⁴⁵ من قَتَمَ قَتَامَةً وهو سوادٌ ليس بشديد؛ يُنْظَر: ابن منظور، "قَتَم"، 460/12.

³⁴⁶ د.ر.ح، 35.

³⁴⁷ من الصَّدْع وهو الشَّقُّ في الشَّيْء الصَّلْب؛ يُنْظَر: الرَّيْدِي، "صدع"، 320/21.

كُلُّهُ وشَقَّ عليه أحوالُهُ، واستعار - مُصَرِّحًا - للدموع لفظة اللؤلؤ المنتثر، ليشير بذلك إلى مزجه لدعائه بين خوفه ورجائه الذي حَسُنَتْ به آمالُهُ فقصرها طول المَدَى على مولاه الكريم تبارك وتعالى.

ومما سَبَقَ عَرَضُهُ من تناول أبي الهُدَى لغرض الدعاء يُمكن أن يُستخلص ما يلي:

■ إنَّ هذا الغرض جاء في شعر أبي الهُدَى على ثلاثة أشكالٍ: (القصائد والقِطْع والنُتْف)؛ وتنوَّعت مطالِعُ القصائد، وضُمِّنت خواتمُها الدعاء أو الصَّلَاة والسَّلَام على النَّبيِّ الأكرم صلى الله عليه وسلم.

■ وضُمِّنت أشعارُ الغرض في صُلُبِها كُلِّ صُروبِ الدعاء، وشملت دُعَاءَ الخير ليس للشَّاعر فحسب بل ربما تعدَّته إلى غيره، وابتهلَ فيها بتوسُّلاتٍ كثيرةٍ قدَّمها بين يدي دَعَوَاتِهِ؛ إلى جانبِ اشتغالها على دعاءِ الشَّرِّ على خصومِهِ وأعدائِهِ الذين ظلمُوهُ.

■ وقد جاءت تلك الأشعارُ الدُّعائية ونورُ الأملِ بالإجابة يلمعُ بين حروفها، فقد تَكَرَّرَتْ فيها معاني الرَّجاء مثل: (حاشاك ما خيَّبتَ راجيًّا، لي واسعُ الرَّجا، عونُك يُرجي، بسطتُ كفَّ رجائي)، ودلالاتُ الأملِ بالاستجابة مثل: (أؤمِّلُ جبري، من نَدَاهُ يُؤمِّلُ الإحسانُ، إنَّكَ أولى بالرَّضيعِ من الأمِّ، يا مُجيبَ الدعاء)، كما لم تخلُ مما يدلُّ على الآلامِ والأحزانِ التي اعتلَّجت في أعماقِ أبي الهُدَى؛ وبناءً على هذا يمكنُ القولُ إنَّها جاءت أشعارًا ممزوجةً بالأملِ والألم؛ وعمومُ ألفاظِهِ لم تحوِ الغريبَ أو الوحشيَّ، أمَّا التَّراكيبُ فقد كانت سهلةً واضحةً لا تستعجمُ على القارئ.

■ والمُنتَبِعُ لتلك القصائدِ الدُّعائية يلاحظُ أنَّ أبا الهُدَى اختارَ لها -جُلَّها- القوافي المُطلَّقة الممدودة (آماليا، جبري، منشور، دعائي، الأجلَى، سَبَا، الواري) التي قد تكون علامةً إلى

طول آهاته مع امتداد أنفاسه بهذه الأبيات الدعائية، مما يجعلها تضارع ما أطلقه من طول الأمل بالإجابة والإعانة المنتظرة من ربه الكريم.

■ كما يلحظ أن أبا الهادي في هذا الغرض لم يُعَدِّم أشعاره من حُلَّةِ بلاغية جميلة من الصور البيانية والتشبيهات والاستعارات، كما أنه قد أودعها بعض ما يُرِيئُها من توشيات المحسنات البديعية اللفظية والمعنوية، ولم يلحظ في ذلك إسرافاً في الصنعة البديعية ولعلّ هذا يعود إلى ما قدّم ذكره من أن طبيعة هذا الغرض تجعله مختلفاً عن غيره من الأغراض لارتباطه بمخاطبة الخالق العظيم الذي يعلم السر وأخفى.

المبحث الثاني: غرض المديح النبوي

قبل الإبحار في عباب هذا الغرض قد يكون من الحسن المرور على معناه اللغوي والاصطلاحي؛ فالمَدْح لغة: لفظة أعم من الحمد،³⁴⁸ أصلها من (انمَدَحَت الأرض) أي اتسعت،³⁴⁹ فكأن القائل: مَدَحْتُ الرَّجُلَ يقصد وَسَعْتُ أمره³⁵⁰ أو شكره،³⁵¹ والمَدْح هو الثناء على الشخص "بما فيه من الصفات الجميلة خَلْقِيَّةً كانت أو اختياريَّةً"،³⁵² والتَّمْدَحُ تَكْلُفُ المديح وفخر المتمدح بما ليس فيه، وأمَّا لفظة المديح فتُطْلَقُ على ما يُمدَحُ به من الشعر، ومرادفها المَدْحَةُ والأمدوحة،³⁵³ وتُجمَعُ لفظة المديح على أماديح ومدائح،³⁵⁴ فإذا ما التفت إلى المعنى الاصطلاحي للمديح النبوي فسيمكن تعريفه بأنه: شعر الثناء الحسن الجميل المقصور على شمائل رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلقية والخلقية، وسياحة الشعراء بشعرهم في ما امتن به الله عليه من خصائص وتشريف لم ينله أحد من المخلوقين قبله ولا بعده؛ وهذا يجعل منه باباً بديعاً من أبواب الأدب الرفيع، ولوناً فريداً من ألوانه إذ اختص بالتعبير عن العواطف الدينية الصادقة.³⁵⁵

³⁴⁸ أحمد بن محمد الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (بيروت: المكتبة العلمية، د.ت)، 566/2.

³⁴⁹ أحمد بن فارس الرّازي، مُجَمَّلُ اللّغة، تحقيق: زهير سلطان، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1406هـ/1986م)، 826/2.

³⁵⁰ أبو العلاء أحمد بن عبد الله المعري، الألامع العزيري شرح ديوان المتنبي، تحقيق: محمد سعيد المولوي، (الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، 1429هـ/2008م)، 558.

³⁵¹ الفيومي، المصباح، 566/2.

³⁵² الفيومي، المصباح، 566/2.

³⁵³ يُنْظَرُ: الزبيدي، "مدح"، 111/7.

³⁵⁴ يُنْظَرُ: ابن منظور، "مدح"، 589/2.

³⁵⁵ مبارك، المدائح، 17.

وَمَنْ يَتَّبِعْ هَذَا الْغُرْضَ يَجِدُ أَنَّهُ مَرَّ بِأَطْوَارٍ مُخْتَلِفَةٍ، اِحْتَوَى كُلُّ طَوْرِ فِيهَا جَمَلَةً مِنَ الْمَعَانِي تَلَوَّنَتْ أَلْوَانُهَا بِصِبْغَةِ الْعَصْرِ الَّذِي قِيلَتْ فِيهِ تِلْكَ الْأَشْعَارُ؛ فَالنَّبِيُّ الْكَرِيمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَخُلْ عَصْرٌ مِنْ عَصُورِ الْأَدَبِ مِنْ مِدْحَةٍ شِعْرِيَّةٍ نُظِمَتْ فِي جَنَابِهِ الْعَزِيزِ.

إِلَّا أَنَّ مِدْحَةَ قَبْلَ الْإِسْلَامِ لَا شَكَّ أَنَّهَا تَخْتَلِفُ عَنْ مِدْحَةِ قِيلَتْ فِيهَا بَعْدَهُ، وَمِدْحَةُ قِيلَتْ فِي صَدْرِ الْعَصْرِ تَخْتَلِفُ عَنْ أُخْرَى جَاءَتْ فِي عَصْرِ مُتَأَخِّرٍ عَنْهُ، وَلَا يُقْصَدُ بِهَذَا الْاِخْتِلَافِ اِخْتِلَافٌ جَوْهَرِيٌّ، فَالْكُلُّ يَمْدَحُ الرَّسُولَ الْأَكْرَمَ، وَلَكِنَّ اِخْتِلَافَ وَقَعٍ فِيهَا اِنْعِقَادَ فِي قُلُوبِ الشُّعْرَاءِ مِنَ الْأَوْصَافِ الْحَمِيدَةِ وَالْخَصَائِصِ الَّتِي اِنْبَرَوْا لِإِبْرَازِهَا وَالتَّعْيِي بِهَا.

وَقَدْ يَكُونُ قَلَمُ الْبَحْثِ مُضْطَرًّا إِلَى تَعْيِينِ الْأَنْمَاطِ الَّتِي مَرَّ بِهَا الْمَدِيحُ النَّبَوِيُّ وَصَوْلًا إِلَى عَصْرِ أَبِي الْهَدَى، وَذَلِكَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَضَعَ بِدِقَّةٍ مَدَائِحَ أَبِي الْهَدَى فِي مَوْضِعِهَا الصَّحِيحِ، وَيَنْسِبُهَا إِلَى الطَّرَازِ الَّذِي اِتَّمَتَ إِلَيْهِ وَرَفَلَتْ بِثَوْبِهِ، وَقَامَ بِنَاؤُهَا عَلَى مَعَانِيهِ.

فَفِي الطَّرَازِ الْأَوَّلِ قَبْلَ ظَهْوَرِ الْإِسْلَامِ جَاءَ الشَّاعِرُ الْجَاهِلِيُّ لِيَمْدَحَ الْإِنْسَانَ الْكَامِلَ مُحَمَّدًا بَنَ عَبْدَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَدْحًا تَقْلِيدِيًّا، حَيْثُ قَامَ فِي ذَهْنِهِ أَنَّهُ الشَّخْصِيَّةُ الْمُسْتَقِيمَةُ الْمُتَخَلِّقَةُ بِشَرِيفِ الْأَخْلَاقِ مِنْ كَرَمٍ وَأَمَانَةٍ وَرَافَةِ بِالْيَتَامَى وَالْمُحْتَاجِينَ وَرَحْمَةٍ بِالْكِبَارِ وَالصِّغَارِ وَشَجَاعَةٍ وَإِعَاثَةٍ لِلْعَشِيرَةِ وَكَوْنِهِ مَفْخَرَةً لَهَا، وَلَمْ يَتَعَدَّ تَصَوُّرُهُ أَبْعَدَ مِنْ هَذَا، وَمِنْ ذَلِكَ مِدْحَةُ أَبِي طَالِبٍ (ت. 3 ق. هـ/ 619م) إِذْ فِيهَا مَا يُمَثِّلُ هَذَا الطَّوْرَ، بِقَوْلِهِ:

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ ثَمَالُ³⁵⁶ الْيَتَامَى عِصْمَةً لِلْأَرَامِلِ

³⁵⁶ ثَمَالُ الْقَوْمِ هُوَ غِيَاثُهُمْ وَمَنْ يَقُومُ بِأَمْرِهِمْ، يُنْظَرُ: الْجَوْهَرِيُّ، "ثَمَالٌ"، 1649/4.

يلوذُ به الهُلاَفُ³⁵⁷ من آلِ هاشِمٍ فهُم عندَهُ في رحمةٍ وفواضِلِ³⁵⁸
ومن هذا الطِّرازِ قولُ طالبِ بنِ أبي طالب (ت. 2/624هـ) -وهو لم يزل بعدُ على دين قُريش-:

فما إن جَنِينًا في قريشٍ عَظِيمَةً سوى أن حَمِينًا خَيْرَ مَنْ وَطِئَ الثُّرْبَا
أَخًا ثِقَةً في النَّائِبَاتِ مُرَّرًا³⁵⁹ كَرِيمًا نَثَاءً³⁶⁰ لا بَخِيلًا ولا ذَرْبًا³⁶¹

ففي هذا المدح لم يطرق الشاعرُ بابَ مَيِّزَاتِ دِينِيَّةٍ اخْتُصَّ بها نبيُّ كَرِيمٍ، من رسالةِ سَماوِيَّةٍ ومُعْجَزَاتٍ
تَأْيِيدِيَّةٍ أو عَطَاءَاتٍ رِبَانِيَّةٍ، وإِنَّمَا قَصَرَ المدحَ على أوصافٍ قد يُشارِكُهُ فيها أيُّ ممدوحٍ آخَر. في حين
أنَّ الطِّرازَ الثَّانِي جاءَ بعدَ الإسلام ليكوْنَ المَدِيحُ النَّبَوِيُّ فيه ليسَ تعبيرًا عن مشاعرِ المَحَبَّةِ لِإنسانٍ
كاملٍ فحسب، وإِنَّمَا دَفَاعٌ عن عَقِيدَةٍ قَائِمَةٍ في ذاتِ المَدِيحِ، تدفعُهُ للجِهَادِ بهذا المَدِيحِ أَمَامَ مَنْ
كَفَرَ ولم يقبل الإيمانَ بالرَّسولِ المُرسَلِ من عند الله المؤيِّدِ بالملائِكَةِ، وصاحبِ المُعْجَزَاتِ، ولهذا
الطِّرازِ شعراؤه المُتَبَرِّونَ في ساحاتِهِ، ويتقدَّمُ طليعتُهُم الصَّحَابَةُ الكِرَامَ رضوان الله عليهم³⁶² عبد الله بن رَوَاحَةَ
(ت. 8هـ/629م) وحسَّان بن ثابت (ت. 54هـ/673م) القائلُ:

أَعْرُ عليه للنُّبُوَّةِ حَاطَمٌ من الله مشهودٌ يلوخُ ويشهدُ

³⁵⁷ جمعٌ واحدُهُ الهَلُوفُ بمعنى الطَّاعِنِ في البَيْتِ، يُنظَرُ: ابن منظور، "هلف"، 350/9.

³⁵⁸ محمَّد بن عمر بحرق الحَضْرَمِيِّ، حداثقُ الأنوار ومطالعُ الأسرار في سيرةِ النَّبِيِّ المختار، تحقيق: محمَّد غَسَّان عَزْقُول، (جَدَّة: دار المنهاج، 1436هـ/2016م)، 181.

³⁵⁹ كَرِيم، يُنظَرُ: الجوهري، "رزأ"، 53/1.

³⁶⁰ مُرادفُ النَّثَاءِ إلا أَنَّهُ يكوْنُ في الخيرِ والشَّرِّ والنَّثَاءِ لا يكوْنُ إلا في الخيرِ بشكْلِ خاصٍّ، يُنظَرُ: الجوهري، "نثأ"، 2501/6.

³⁶¹ أبو الفداء إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله عبد المحسن التَّركي، (مصر: دار هجر، 1424هـ/2003م)، 290/5؛ ورجلٌ
ذَرَبٌ أي حادَّ اللِّسان وفاحشه، يُنظَرُ: ابن دريد، "بذر"، 304/1.

³⁶² يُنظَرُ: أبو العباس أحمد بن عبد السَّلام الجَزْائِيُّ التَّالِدِيُّ، الحماسةُ المَغْرِبِيَّة، تحقيق: محمَّد رضوان الدَّايَّة، (دمشق: دار الفكر، 1411هـ/1991م)،
41/1.

وَأَنْذَرَنَا نَارًا وَبَشَّرَ جَنَّةً وَعَلَّمَنَا الْإِسْلَامَ فَاللَّهُ نَحْمَدُ³⁶³

ويعدو هذا الطراز من كونه مديحاً نبوياً إلى كونه وسيلة إعلامية تُجابه الفريق الآخر المضاد للإسلام ورسوله وأصحابه، ومن ذلك قول كعب بن مالك (ت. 50هـ/670م) رضي الله عنه:

فينا الرسول شهابٌ ثمَّ يتبعه نورٌ مُضيءٌ له فضلٌ على الشُّهبِ
نَجْدُ الْمُقَدَّمِ³⁶⁴ مَاضِي³⁶⁵ الهمِّ مُعْتَرِمْ حِينَ الْقَلُوبِ عَلَى رَجْفٍ مِنَ الرُّعْبِ
ليساً سواءً وَشَتَّى بَيْنَ أَمْرِهَا حَزْبُ الْإِلَهِ وَأَهْلُ الشِّرْكِ وَالنُّصَبِ³⁶⁶

بهذه الكلمات القتالية يُجابه كعب الطرف المضاد للإسلام ونبیه، ويأخذ بالأسماع إلى ذكر تقديم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقدمه وإقدامه وعزمه وعزماته في الجهاد ضدّ المشركين، ويُلحظ في هذا الطراز تركيزه على المسائل العقديّة من نجاة في الجنّة وهلاك في النّار، وانقسام الخلق إلى فريقين فريق الإيمان وفريق الكفر.

وأما الطراز الثالث فقد عدا المديح النبوي فيه ظاهرةً فنيّةً مُتميّزةً من ظواهر الأدب، بل غرضاً رئيساً له شعراؤه المتصدّون لمعانيه التي زادت على الطرازين الأوّلين، أو بعبارة أخرى يُمكن القول: إنّ تركيزهم في هذا الطراز صار على معانٍ دون أخرى؛ ولعلّ بداية انبثاق هذا الطراز كانت في أوائل القرن الرابع الهجريّ،³⁶⁷ ويستطيع المتنبّع لهذا الغرض أن يلمح هذا الطراز بأجلى صورهِ في

³⁶³ حستان بن ثابت الأنصاريّ، ديوان حستان بن ثابت، تحقيق: عبده مهنا، (بيروت: دار الكتب العلميّة، 1414هـ/1994م)، 54.

³⁶⁴ رجلٌ نَجْدٌ أي شديد البأس، يُنظر: علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، المخصّص، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، (بيروت: دار إحياء التراث العربيّ، 1417هـ/1996م)، 274/1.

³⁶⁵ الرّجل الماضي الهمّة والعزيمة أي المُجَدّد في أموره، يُنظر: ابن دُرَيْد، "زعم"، 817/2.

³⁶⁶ كعب بن مالك الأنصاريّ، ديوان كعب بن مالك الأنصاريّ، تحقيق: سامي مكّي العاني، (بغداد: مكتبة النهضة، 1386هـ/1966م)، 174.

³⁶⁷ يُنظر: ضيف، تاريخ الأدب، 409/5.

القرنين السادس والسابع، إذ وصل فيه المديح النبوي إلى قمّة الازدهار -من الناحية الفنيّة-، فمدح هذين العصرين برزت فيها بوضوح معالم المديح النبوي، وبني في أبيتها صرخ من التقاليد والأصول التي صار مهمّاً لكلّ مديح للجناب النبوي أن يدخل في أفنائها، ويسير على خطى ناظميها الذين كُتبت لهم الشهرة في التخصّص في هذا الغرض.³⁶⁸

وقد اشتمل هذا الطراز الثالث على كلّ ما ضمّته الأنماط السابقة من المعاني وبرزت فيه أخرى جديدة زادت عليها. ويمكنُ لمدائح أبي الهدي أن تُنمى إلى هذا الطراز الأخير، بما ضمّته من المعاني، وما بُنيت عليه من الشكّل العامّ؛ إذ لم يكن أبو الهدي بمقلِّ في هذا الغرض، بل قد أكثر منه وخصّص له ديواناً كاملاً،³⁶⁹ وإن كان قد سار على خطى من سبقه في المديح النبوي فإنّ هذا لم يمنعه من أن يتفنّن في مدائح جديدة ويزيد عليها عدداً ليس بقليل من الموشحات التي خلّدها الزمن إلى اليوم هذا.³⁷⁰

وتقتضي إرادة الإحاطة بهذا الغرض الإمام به من كلّ جوانبه، ومن أبرزها المطالع الاستفتاحيّة للمدح ومحاورها التي دارت عليها والخواتيم التي خُتِمت بها للوصول إلى فكرة عامّة عن المديح النبوي في شعر أبي الهدي.

³⁶⁸ يُنظر: محمود سالم محمّد، المدائح النبويّة حتى نهاية العصر المملوكي (دمشق: دار الفكر، 1417هـ/1997م)، 18.

³⁶⁹ هو ديوان مرآة الشهود.

³⁷⁰ منها موشح "يا إمام الرسل ياسندي" وموشح "يا أيّها النبي" ولقد أفرد الشاعر هذه الموشحات فصلاً كاملاً في ديوانه المخصّص لغرض المديح النبوي، يُنظر: د.م.ش، 212.

1 مطالع المدائح

إِنَّ الدُّخُولَ إِلَى غرض المديح النبويّ عند أبي الهُدَى يستلزمُ بدايةً النَّظَرَ فِي المطالع التي استهلَّ بها مدائحه النَّبَوِيَّة، إذ هي أوَّل ما تقع عليه العيون فيها؛ ولم تكن تلك المطالع لتتخذ قالبًا مُعيَّنًا أو شكلاً مُوحَّدًا في كل مدائح أبي الهُدَى بل قد تنوعت إلى عدَّة أشكال.

فأوَّل هذه المطالع ما جرَّت عليه سنَّة الشعراء الأوَّلين من استهلالٍ بذكر الأماكن وساكنيها والأطلال وتذكُّر قاطنيها والوقوف بساحاتهم؛ فمنه قوله في مطلع:

عُج بالركائبِ ساحةَ الجرعاء³⁷¹ وانزل بتلك البقعة الفيحاء
وأُنحِ بعيسك³⁷² حولها فلاهلها فضلٌ على الخدام والأمرء
قد أغرقوا الدنيا برأفتهم كما داسوا ببأسٍ جبهةَ الجوزاء³⁷³
قومٌ رئيسُهُم الرسولُ المصطفى الـ مبعوثٌ بالآياتِ والأنباء³⁷⁴

فهو يطلبُ من رفيقه أن يجعلَ مسيره للجرعاء ونزوله بساحتها وبقومها الكرام، الذين بالغ في وصفِ رأفتهم فاستعار لها وصفَ الإغراق، ولم يشأ أن يجعلَ غلا عزهم وشديدَ منعتهم وشجاعتهم يُحدُّ بحدود الغبراء بل تجاوزَ به هامَ السماء، فاستدعى لأبياته الكناية التي تُشيرُ إلى تلك المنعة وذاك البأس (داسوا جبهة الجوزاء)، وشفَّع ذلك بالاستعارة المكنية التي جعلت أعزَّ نجمٍ في السماء -

³⁷¹ اسم مكان والجرعاء معناها الرّائية من الرَّمْل، يُنظر: أبو عبيدة معمر بن المثنى، شرح نقائض جرير والفرزدق، تحقيق: محمد إبراهيم حور - وليد محمود خالص، (أبو ظي: الجمع الثقافي، 1418هـ/1998م)، 1070/3.

³⁷² جمع أَعْيَس وهي الإبل البيضاء التي خالط بياضها شقرة، يُنظر: الجوهري، "عيس"، 954/3.

³⁷³ نجم يُقالُ إنَّه يتوسَّطُ السماء، يُنظر: الجوهري، "جوز"، 871/3.

³⁷⁴ د.ف.م، 42.

الجوزاء- جَسَدًا له جَبْهَةٌ تُوطَأُ من ممدوحيه الأَعَزَّة، ولا غرَوَ فعزُّهم من مُقَدِّمِهِم ورأسِهِم المُصطفى المُجتبي عليه السلام؛ ومن هنا التَّفَتَ أبو الهُدَى بحسنِ تَخُلُّصٍ ليشرَعَ في المديح النبويِّ بعد هذا المطالع. ومن مُقَدِّماتِهِ بين يدي المديح النبويِّ ما استهلَّ به بعض القصائد من الفخر بالشرف الباذخ والمجد الشامخ، ومن أبرز هذه المطالع قوله:

كَيْفَ لَا تَزْدَهِي بِنَا الْعِلْيَاءُ وَلَنَا الْمَجْدُ طِينَةٌ وَرْدَاءُ
أُمَّةٌ (خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) وَالنَّاسُ بَعْدَهَا أَكْفَاءُ
قَامَ مِنْهَا فِي الْأَعَصْرِ السُّودِ أَقْمَا رُجَالٌ لَهَا الشُّمُوسُ حِذَاءُ
نَصَرُوا شِرْعَةَ الْإِلَهِ وَنَابُوا عَنْ نَبِيِّ عَزَّتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ³⁷⁵

وهو مطلعٌ فخريٌّ بالأُمَّةِ المُحمَّديَّة، التي صارَ الفخارُ معدنًا لها وحُلَّةً تُسرِبُها بعد قول ربِّ العالمين علِّ وعَلَّ: "كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ"³⁷⁶ وقد رَصَّعَهُ النَّاطِمُ بالاستعارات والاقْتباس، فالعِلْيَاءُ استعار لها وصف الزَّهْوِ والافتخار -من طريق الاستعارة المكنية- لِيُبَالِغَ في سَمَاتِ الفخرِ التي حُبِّيت بها الأُمَّة فجعل العِلْيَاءَ هي التي تفتخر بهم، واستجَلَبَ التَّشْبِيهَ البليغَ للمجدِ بالطِّينَةِ والرِّدَاءِ، وكأنَّه يجعل من المجدِ خصوصيَّةً لأُمَّتِهِ وأَصْلًا ممتزجًا بها، وأمَّا عَصُورُ الجاهليَّةِ فقد كَتَّى عنها بِالْأَعَصْرِ السُّودِ التي تَنَوَّرَتْ بِالرِّجَالِ الْأَفْذَاذِ مِنَ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ الَّذِينَ شَبَّهَهُمْ تَشْبِيهًا بليغًا -بإِهْمَالِهِ لأدَاةِ التَّشْبِيهِ ووجه الشَّبه (النُّور)- بِالْبَدْوِ الطَّلَاعَةِ التي تُنِيرُ دِيَاغِي الظُّلَمِ وَالْجَهْلِ بِأَنْوَارِ الْعَدْلِ وَالْعِلْمِ الَّتِي حَاكَتْ طَالِعَةَ نَوْرِ الشَّمْسِ، وَيُطَنِبُ مُسْتَطَرِدًّا فِي مَدْحِهِمْ بِأَنَّهُمْ نَاصَرُوا الدِّينَ وَوَرَّاثَ نَبِيِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي أَزْدَهَتْ بِهِ

³⁷⁵ د.م.ش، 40.

³⁷⁶ آل عمران، 110/3.

كلُّ الأنبياء والمُرسلين؛ وينطلقُ بعد هذا المطلع الفخريّ، من حسن التَّخلُّص بالعجزِ الأخيرِ إلى غرض المديح النبويّ.³⁷⁷

ومن أنواع مُقدِّماتِ المدائحِ النَّبويَّةِ عند أبي الهُدَى، ذلك التَّوَعُّ الذي جَرى به مجرى قصائد المِدَح التَّقليديَّة التي تُبدَأُ بالغَزَل قبل التَّعرُّض للممدوحين، الذي دأب عليه شعراءُ المديح النَّبويِّ منذُ "بانتُ سَعَادُ"،³⁷⁸ فكان أن أودَّعه أبو الهُدَى مطالعٌ مدائحِهِ النَّبويَّةِ، وحرصَ على أن تكونَ المطالعُ متراوِحةً بين الغزلِ الرِّقيقِ والنَّسيبِ الرَّائقِ المضبوطان بالحشمة،³⁷⁹ وهذا الضَّبْطُ للمطالعِ الغزليَّةِ للمِدَح مما يُشترطُ على المادِحِ للجنابِ النَّبويِّ الالتزامُ به، حيثُ ترى عائشة الباعونيَّة (ت. 922هـ/1516م) أنَّ ما خالفَ الانضباطَ والحشمةَ والرِّقَّةَ في هذا المقام "مُشعرٌ بِقِلَّةِ الأدب" وعدم الاحترام للنبيِّ الكريم عليه السلام؛³⁸⁰ ومن أمثلة هذه المُقدِّمات الغزليَّة ما قاله أبو الهُدَى في مطلعِ مدحِهِ نبويَّة:

لِلَّهِ مِنْ رِيَمِ الْحُجُونِ³⁸¹ شُرُودٌ لَهْفًا عَلَيْهِ هَجَرْتُ طَيْبَ رُقُودِي
يَرْتُو وَيَرْمِي مِنْ قِسِيٍّ حَوَاجِبٍ نَبْلَ الْجُفُونِ بِقَلْبِي الْمَكْمُودِ³⁸²
وَحَلَفْتُ أَنِّي لَا أَمِيلُ عَنِ الْهَوَى حَاشَايَ أَنْقُضُ ذِمَّتِي وَعُھُودِي

³⁷⁷ تجدر الإشارة إلى أنَّ هذه القصيدة قد نالت تخميسًا من أحد الشعراء المعاصرين لأبي الهُدَى وهو محمَّد رشيد الطَّرابلسي، يُنظر: محمَّد رشيد بن عبد اللطيف الزَّافعي الطَّرابلسي، تخميس القصيدة الغزليَّة (طرابلس: مطبعة البلاغة، د.ت)، 2.

³⁷⁸ إشارةً إلى قصيدة البردة الأولى المشهورة التي أنشَدَت أمام النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ومطلعها:

"بانتُ سَعَادُ فقلبي اليومُ متبولٌ مُتَيِّمٌ إثرها لم يُفدَ مكبولٌ"

يُنظر: كعب بن زهير، ديوان كعب بن زهير، تحقيق: علي الفاعور، (بيروت: دار الكتب العلميَّة، 1417هـ/1997م)، 60.

³⁷⁹ يُنظر: تقي الدِّين أبو بكر بن حجَّة الحمويّ، خزانة الأدب وغاية الأرب، تحقيق: عصام شقيو، (بيروت: مكتبة الهلال، 1406هـ/1986م)، 36/1.

³⁸⁰ يُنظر: عائشة بنت يوسف الباعونيَّة، شرح الفتح المبين (القاهرة: المطبعة الخيريَّة، 1304هـ/1886م)، 312.

³⁸¹ موضعُ بكَّة، يُنظر: الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي-إبراهيم السَّامرائي، (بيروت: مكتبة الهلال، د.ت)، "حجج"، 82/3.

³⁸² من الكَمَد وهو أشدُّ الحزن، يُنظر: ابن سيده، المخصَّص، 89/4.

وَهَجَرْتُ إِلَّا مَدَحَ أَشْرَفِ مُرْسَلٍ سِرِّ الْوُجُودِ وَعِلَّةِ الْمَوْجُودِ³⁸³
فمُسْتَهْلُ الْقَصِيدَةِ هُنَا نَسِيبٌ مُحْتَشَمٌ مُؤَدَّبٌ، خِلا مِمَّا يُخَالِفُهُ وَيُنَاقِضُهُ مِنَ الْغَزْلِ بِالْمُرْدَانِ أَوْ الْوَصْفِ
الْحِسْبِيِّ الْفَاحِشِ، فَالْمَحْبُوبُ مَا هُوَ إِلَّا ظَبْيٌ "الْحَجُون" ذَلِكَ الْمَكَانُ الْمُرْتَبِطُ بِالذِّيارِ الْمُقَدَّسَةِ، إِذْ ذَكَرُ
تِلْكَ الْمَوَاطِنَ وَمَا ارْتَبَطَ بِهَا مِنْ أَوْدِيَةٍ وَشِعَابٍ - كَسَلَعٍ وَلَعْلَعٍ وَالْعَقِيقِ وَرَامَةِ - مِمَّا يَتَعَيَّنُّ عَلَى الشَّاعِرِ
التَّعْنِي بِهِ فَهُوَ الْأَلِيقُ فِي مَقَامِ الْمَدِيحِ النَّبَوِيِّ وَعَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ فِي صَدْرِ الْمَدَائِحِ النَّبَوِيَّةِ حَسْبَمَا يَرَى
ابْنُ حُجَّةِ الْحَمَوِيِّ (ت. 837هـ/1433م)³⁸⁴؛ فَلَا غَرَابَةَ أَنْ يَكُونَ الظَّبْيُ حِجَازِيًّا نَافِرًا أَسْهَرَ لَيْلَ الشَّاعِرِ
وَأَفْقَدَهُ لَذِيذَ الْمَنَامِ، لَجَمَالِهِ الْأَخْاذِ وَعَيُونِهِ السَّاحِرَةِ الَّتِي جَعَلَ مِنْ حَوَاجِبِهَا قَوْسًا رَامِيَةً سَهَامُهَا
الْأَلْحَاطُ الْفَاتِكَةُ - عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِعَارَةِ التَّصْرِيحِيَّةِ -، وَمَا كَانَتْ تِلْكَ الْقِسْيُ لِتَضْرِبَ إِلَّا إِنْسَانَ قَلْبِهِ
الْمَحْزُونِ، الَّذِي أَقْسَمَ النَّاطِمُ عَلَى أَنْ لَا يَمِيلَ بِهِ عَنِ الْحُبِّ وَلَا يَنْبَذَ عَهْدَ الْعَشْقِ الْمُبْرَمَةَ مَعَ الْمَحْبُوبِ،
الَّذِي تَرَكَ مِنْ أَجْلِهِ كُلَّ مَا عَدَاهُ، غَيْرَ أَنَّهُ عَادَ أَدْرَاجَهُ مُسْتَدْرِكًا لِيَقُولَ: تَرَكَتُ كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا مَدِيحَ
الْمُصْطَفَى الْمُجْتَبَى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ وَعَلَى هَذَا الْمَنَوَالِ يَمْضِي قُدُمًا فِي مَدْحِهِ لِلنَّبِيِّ الْكَرِيمِ جَامِعًا بَيْنَ الْمَطْلَعِ الْغَزَلِيِّ
وَحَسَنِ التَّخْلِصِ إِلَى الْغَرَضِ الرَّئِيسِ.

وَمِنْ جَمِيلِ مَطَالِعِهِ الَّتِي حَوَتْ أَرْقَ رَائِقِ النَّسِيبِ، مَا وَصَفَ بِهِ شَجْوَهُ الَّذِي أَثَارَهُ صَادِقُ
الْحُبِّ، وَعَرَّجَ عَلَى تَجَرُّعِهِ لُغْصَصٍ جَرَّهَا عَلَيْهِ وَلَوْعُهُ بِمَحْبُوبِهِ رَيْمِ الْغَرِيِّ، حَيْثُ مَضَى وَاصِقًا مَا خَامَرَ
فَوَادَهُ مِنْ لَوَاعِجِ الْعَشْقِ وَدَوَاعِي الْحُبِّ وَالْغَرَامِ مَا أَدَّاهُ إِلَى أَنْ يَسْتَعِيرَ لَهُ وَصْفَ ذَاتٍ عَاقِلَةٍ مَثَلَتْ بَيْنَ
يَدَيْهِ ثُمَّ حَذَفَهَا وَذَكَرَ شَيْئًا مِنْ لَوَازِمِهَا وَهِيَ الْمَنَاجَاةُ - عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِعَارَةِ الْمَكْنِيَّةِ -، ثُمَّ جَرَى عَلَى
عَادَةِ الْمَادِحِينَ فِي نَسِيبِهِمْ فَتَشَوَّقَ إِلَى دِيَارِ نَجْدِ النَّائِيَةِ الَّتِي يَشْمُ شَذَا رِيَاضِهَا الْجَمِيلَةِ، مُشَبِّهًا آثَارَهَا
تَشْبِيهًا مُرْسَلًا مُجَمَّلًا - لَمَّا ذَكَرَ أَدَاةَ التَّشْبِيهِ وَحَذَفَ وَجْهَ الشَّبْهِ الْجَامِعَ بَيْنَ الْعَنْصَرَيْنِ (الْجَمَالِ) -

³⁸³ د.م.ش، 97.

³⁸⁴ يُنْظَرُ: الْحَمَوِيُّ، خَزَانَةُ الْأَدَبِ، 38/1.

بالرموز التي تُشيرُ إلى النَّبيِّ الكريم عليه السلام؛ وقد زاد من حُسنِ هذا النَّسبِ ما أتى به من المُحسِّنات
البديعيَّة التي زَيَّنَت المطلع من جناسٍ (يُنَاجِي/النَّجِي) وطَبَاقٍ (المَشُوق/الحَلِّي) وإطنابٍ بأسلوبِ
التَّكرار (العَرِي)؛³⁸⁵ فقال مُستفْتِحًا القصيدة بالتَّصريح (صَفِيّ / الحَلِّي):

تَرْفُقُ بِي فَدَيْتُكَ يَا صَفِيّ وَلَا تَقْسِ الْمَشُوقَ عَلَى الْحَلِّي
وَسَاعِدُنِي عَلَى غُصَصِي³⁸⁶ فَإِنِّي وَلَعْتُ بِرِيمٍ مُنْعَرَجِ الْعَرِي
يُنَاجِينِي الْغَرَامُ لَهَا بِفَكْرِي فَوَا هَفَاءَهُ مِنْ ذَاكَ النَّجِي
أَشُمُّ مِنَ الْعَرِي عَرَارَ³⁸⁷ نَجْدٍ عَلَى شَطَطِ³⁸⁸ النَّوَى بَعْدَ الْعَشِي
كَأَنَّ لَطَائِفَ الْأَثَارِ مِنْهُ رُمُوزٌ قَدْ أَشْرَنَ إِلَى النَّبِيِّ³⁸⁹

وفي بيته الأوَّل اقترابٌ من قول عبد الرَّحيم البُرعي (ت. 803هـ/1400م) لَمَّا التمسَ أيضًا من رفيقه
الرَّفِيقَ به، إذ ما حالُ الشَّجِي بعينه السَّاهِرَة كحالِ الحَلِّي بعينه الغافية، فقال في مدحةٍ نبويَّةٍ له:

تَرْفُقُ بِي فَدَيْتُكَ يَا رَفِيقِي فَمَا عَيْنُ سُويَهْرَةٍ كَوَسْنَا³⁹⁰

ويُلحِظُ حسنَ التَّخلُّصِ مرَّةً أُخرى في البيت الأخير وانطلاقُ أبي الهُدَى منه مُستطردًا في المديح
النَّبويِّ بعد تمهيدِهِ له بهذا المطلع من النَّسبِ.

³⁸⁵ موضع في الكوفة قرب قبر عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، يُنظر: ياقوت، البلدان، 196/4.

³⁸⁶ واحدهُ الغُصَّة وهي الشَّجَى والحزن، يُنظر: الجوهري، "غصص"، 1407/3.

³⁸⁷ نباتٌ طَيِّبُ الرِّيح وهو التَّرجِسُ البرِّي، يُنظر: ابن منظور، "عرر"، 560/4.

³⁸⁸ مجاوزة القدر في كلِّ شيء، ابن منظور، "شطط"، 334/7.

³⁸⁹ د.م.ش، 210.

³⁹⁰ عبد الرَّحيم بن أحمد البُرعي، ديوان البُرعي، تحقيق: علي الهواري، (القاهرة: مطبعة التَّقدِّم العلميَّة، 1324هـ/1906م)، 93.

وَمُقَدِّمَاتُ أَبِي الْهُدَى لِمَدَائِحِهِ لَمْ تَسِرْ عَلَى وَتِيرَةٍ مُوَحَّدَةٍ، كَمَا لَمْ تَكُنْ مُنْخَصِرَةً فِي مَجَالٍ وَاحِدٍ، فَقَدْ يُرَى مُفْتَتِحًا مَدَائِحَهُ بِمَطْلَعٍ يُوَدِّعُ فِيهِ عَرْضَ حَالِهِ، فَيَتَنَهَّدُ لِيَصَوِّغَ كَلِمَاتٍ تَكَادُ تُسْمِعُ أَجِيجَ مَا اضْطَرَمَّ فِي صَدْرِهِ مِنَ الْآلَامِ الَّتِي أَلْهَبَتْهَا فِيهِ أَعْدَاؤُهُ؛ وَبِذَلِكَ يَكُونُ قَدْ أَضْفَى عَلَى الْقَصِيدَةِ الطَّابِعَ الذَّائِيَّ، لِيَجْعَلَهَا مُتَنَفِّسًا لِتَبَارِيحِ أَسْقَامِهِ، وَمِنْ هَذَا الشَّكْلِ قَوْلُهُ فِي مَطْلَعِ:

وَهَى حِمْلِي وَضِئْتُ لِثِقَلِ حَوْبِي³⁹¹ وَعَزَّ الصَّبْرُ مِنْ أَلَمِ الذُّنُوبِ
وَمَا لِي مُنْجِدٌ يَحْمِي حِمَائِي وَيُطْفِئُ لِي بُنْصَرَتِهِ لَهْيِي
وَقَدْ قُوبِلْتُ مِنْ رَهْطِ الْأَعَادِي وَأَهْلِ الْحَقْدِ بِالْعَجَبِ الْعَجِيبِ
وَأَفْشُوا الْإِفْتِرَا وَبَغَوْا وَجَارُوا وَجَاؤُونِي بِبُغْضِهِمُ الْغَرِيبِ
هُنَالِكَ ضَقْتُ ذَرْعًا مِنْ هُمُومِي وَقَدْ رَوَّحْتُ نَفْسِي بِالنَّحِيبِ³⁹²

والمطلع يطوي في طَيَّاتِهِ وصفَ الحالة التي أَلَقَتْ بِرَحَالِهَا فِي صَدْرِ النَّاطِمِ، بَعْدَ أَنْ جَعَلَهَا تَمَثُّلًا أَمَامَ الْقَارِئِ لَمَّا اسْتَعَارَ -اسْتِعَارَةً مَكْنِيَّةً- لِلْآثَامِ الَّتِي ارْتَكَبَهَا وَصَفَ الْحَمْلَ الثَّقِيلَ، وَجَعَلَ لِلذُّنُوبِ آلَامًا مُبَرِّحَةً لَا طَاقَةَ لَهُ بِالصَّبْرِ عَلَيْهَا، ثُمَّ كَتَبَ عَنْ هُمُومِهِ وَأَكْدَارِهِ بِلَهْيِهِ النَّارِ؛ فَانْجَلَّتْ بِهَذَا الْمَطْلَعِ الْحَالَةُ النَّفْسِيَّةُ الدَّاخِلِيَّةُ عِنْدَ أَبِي الْهُدَى، الَّتِي حَرَّكَتُهُ مَدْفُوعًا إِلَى الْمَدِيحِ النَّبَوِيِّ، إِذْ إِنَّ نَفْسَهُ أَلَمَّتْهُ بَارْتِكَابُ الذُّنُوبِ، وَلَمْ تَمْتَدَّ لِنَصْرَتِهِ يَدٌ تُطْفِئُ اضْطِرَامَ آلَامِهِ الْمُتَوَقَّدَةِ، وَلَكِي يَتَسَنَّى لَهُ شَرْحُ آلَامِهِ الدَّائِيَّةِ وَحَالَتِهِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي أَثَّرَ فِيهَا حُسْنَادُهُ فَقَدْ أَطْنَبَ فِي الْكَلَامِ عَلَيْهِمْ، إِذْ هُمْ الْعُدَاةُ وَالْحَاقِدُونَ الَّذِينَ رَمَوْهُ عَنِ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ بِسَهَامِ الْإِفْتِرَاءِ وَالْبَغْيِ وَالْإِشَاعَاتِ الْكَاذِبَةِ، فَزَجُّوا بِهِ فِي جُبٍّ مِنَ الْهَمِّ وَالْأَحْزَانِ، وَقَدْ سَعَى أَبُو الْهُدَى فِي عَجْرِ الْبَيْتِ الْأَخِيرِ إِلَى اسْتِخْدَامِ أُسْلُوبٍ بُدِئَ بِدَايَةِ مُطْمَعَةٍ وَخُتِمَ بِنَهَايَةِ مُؤَيَّسَةٍ،

³⁹¹ إغمي وذنوبي، يُنظر: الجوهري، "حوب"، 116/1.

³⁹² د.ف.م، 66.

إذ بدأ بوصف حالته التي طمَع فيها بالاستراحة، غير أنها لم تكن إلا بالنحيب؛ وبهذا ازداد انجلاء صورة حالته النفسية الداخلية بوضوح عند القارئ -عبر ما أتى به من الإطناب والاستعارة والكناية-؛ ثم لم يلبث أن وثب بأبياته من عمق هذا الحزن الذي خيم على قلبه المكمود، فخطب نفسه كي تنهض من جديد: أن قومي من وهدّة الأحزان فإنك على النهج السامي السني نهج المصطفى عليه السلام:

وقلتُ لِنَفْسِي ارتاحي وَحَلِّي عَناءَكَ واركِني³⁹³ طَبَعًا وَطِيبِي
لَكَ اتَّضَحَتْ طَرِيقُ النُّجْحِ حَقًّا بظِلِّ عِنايةِ الهادي الأديبِ
إمامِ المرسلين حمى البرايا مُغيثُ المُلتجِي حصنُ الغريبِ
أبو الزُّهراء أبو الأكوان جدُّ آلِ حُسينِ ابنِ النّجيبِ³⁹⁴ أبي النّجيبِ

فبعد استهلاله قصيدته بمطلع عرض الحال ومخاطبته لنفسه وتطمينه لها بالتغاضي عن كل آلامها ينتقل بحسن تخلص إلى غرض المديح للنبي الكريم مُقدّم الرُّسل أجمعين وعون الغرباء الرحمة الشاملة للعالمين أجمعين.

ومن مُقدّماتِه شكلٌ آخر يقترب به من الشكل السابق لكنّه لا يجعل من عرض حاله سبيلًا للانتقال إلى الممدوح بل يعرض حالة الزّمان وما وصلت إليه من التّردّي في وهاد الفساد والحزّي ويجعل من هذا العرض طريقًا للوصول إلى المدح؛ ومن أمثلة ذلك قوله مُستهلًّا قصيدته ومُخاطبًا لمحبيّته "نعم"، وذلك جريًا على عادة الشعراء في مخاطبة محبيهم:

يا نُعم ضائِعَةُ المَكارِمِ تُنشِدُ ولكلِّ يَومٍ في ثَقَلِهِ عَدُوٌّ

³⁹³ من ركن بمعنى سَكَن، يُنظر: الجوهري، "ركن"، 2126/5.

³⁹⁴ د.ف.م، 66.

والحرُّ يُصِرُّ فِي الزَّمانِ غَرائبًا نَكَدًا³⁹⁵ يَكَادُ لَهَا يَذُوبُ الْجَلْمَدُ³⁹⁶
وَلَرُبَّ وَقْتٍ رَحْتُ أَنْضَحُ³⁹⁷ دَمْعِي فِيهِ وَجَمْرٌ حَشَّاشَتِي يَتَوَقَّدُ³⁹⁸

فالمطلعُ هذا يعرِّضُ حالةَ زمانِ الشَّاعرِ المُزْمِنِ بالأدواءِ، وما حَمَلَتْ أَيَّامُهُ من ولادةٍ لغرائبٍ وعجائبٍ يراها الأحرارُ فتكادُ تذوبُ مُهْجُهُمُ مما يُعَايِنُونَهُ وَيُعَاثُونَهُ، فَكَنَّى بِقَوْلِهِ (يَذُوبُ الْجَلْمَدُ) عن غرائبٍ مظاهرِ ذاكِ العصرِ وفجائعهِ وشِدَّتِها التي تفلُقُ الصَّخرَ القاسيَ فينْفِطِرُ أَسَى من بأسِها؛ وَلَكَمْ قد مرَّ من وقتٍ اتَّقَدَتْ فِيهِ نيرانُ الكَمَدِ في صدرِ أبي الهُدَى، فهو ذاكِ الصَّدْرُ الذي بَالَعَ في تشبيهِ حَشَّاشَتِهِ وَاتِّقَادِها كَمَدًا وَحُزَنًا بِالْجَمْرِ الْمُتَّقَدِ الْمُضْطَرِّمِ -عبر التشبيهِ البليغِ بِجامعِ الاتِّقَادِ والإِتْلَافِ-، فإذا به قد راح يَسْكُبُ دَمْعُهُ أَسَى وَحُزَنًا من هذا الزَّمانِ؛ وَلَكِنَّهُ عادَ لِيُطْفِئَ ذاكِ الاضطرامَ مُقْتَبِسًا مَعْنَى من معاني قولهِ تبارك وتعالى: "حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ"³⁹⁹:

وَبِكُلِّ غَلْغَلَةٍ الشُّؤُونِ⁴⁰⁰ فَحَسْبُهُ لِلدِّينِ وَالْدُّنْيَا الْحَبِيبِ مُحَمَّدٌ
صَدْرُ النَّبِيِّينَ الْأَعْظَمِ رَأْسُهُمْ سُلْطَانُهُمْ وَلَهُ عَلَى الْكُلِّ الْيَدُ⁴⁰¹

فهو قد انثنى بهذه الأبيات لِيُعَبِّرَ عن كونه رجلاً لم يُعَلِّقْ آمالَهُ على هذا الزَّمانِ وَمَعَامِعِ شُؤُونَاتِهِ، بل إِنَّ آمالَهُ اتَّصَلَتْ بِرَسُولِ رَبِّهِ الْكَرِيمِ، وَمَنْ ثَمَّ يَلْتَفِتُ مُسْتَدْعِيًا بِالْجَازِ الْمُرْسَلِ ذِي الْعِلَاقَةِ السَّبَبِيَّةِ (له على الكلِّ اليدُ) ما يُفَصِّحُ عن مَقَامِ الْجَنَابِ النَّبَوِيِّ الْأَكْرَمِ، فيمدحه بأنَّه ذو الإِحْسَانِ الْجَمِّ والعطاءِ

³⁹⁵ كلُّ أمرٍ عادَ على صاحبه بشرٍّ، ونَكَدُ العيش اشتدادُهُ وَتَعَسُّرُهُ، يُنْظَرُ: ابن منظور، "نكد"، 427/3.

³⁹⁶ الصَّخْرُ، يُنْظَرُ: الجوهري، "جلمد"، 459/2.

³⁹⁷ من النَّضْحِ بمعنى الرَّشِّ، يُنْظَرُ: ابن منظور، "نضح"، 618/2.

³⁹⁸ د.ر.ت، 73.

³⁹⁹ التَّوْبَةُ، 59/9.

⁴⁰⁰ اختلاطها ودخول بعضها ببعض، يُنْظَرُ: ابن دريد، "غلغل"، 217/1.

⁴⁰¹ د.ر.ت، 74.

الأئمة الذي شَمَلَ جميعَ العالمين - المُعَبَّر عنهم بلفظة "الكل" - إذ هو المبعوث إليهم أجمعين، ولا بدع فهو سيّد الأنبياء عليه وعليهم الصّلاة والسلام، وعلى هذه الشّاكِلَة ينطلق في أبيات القصيدة مُستَطرِدًا في ميادين غرض المديح النبويّ.

ومما يسترعي الانتباه أنّ أبا الهُدَى لم يقصُر مُقدِّمات مدائحه على الأشكال التي مرّ ذكرها، بل لربما باشر المديح النبويّ من أوّل بيتٍ في المدحَة، مستعمِلًا صيغة الخطاب المُباشر للرّسول الكريم عليه السلام، مادِحًا سُمُو قدره العالي، ومن ذلك قوله مُضَمِّنًا مطلعَه بالجناس الاشتقاقيّ (علا/ العلياء، سما/ السّما/ تَسامى) والتّصريح (الأنبياء/ الاصطفاء):

يا نبياَ علاَ على الأنبياءِ بمقام التّعظيم والإصطفاءِ
وسمّا وارتنقى السّما وتسامى قدره في المراتبِ العلياءِ⁴⁰²

وقد استهلّ مدحتَه في موضع آخر بتفدية رسول الله إذ هو الرّحمة المرسلَة للعالمين، فقال:

روحي وأرواحُ مَنْ في الكائناتِ فدا لظلّ بابِ الذي عمّ الوجودَ ندّا⁴⁰³

ويُلاحظُ بتناول هذه المطالع التي مرّت التّنوع الذي حظيت به مُقدِّماتُ المدائح النبويّة عند أبي الهُدَى، وتعدُّدها إلى ستّة أشكالٍ، وقد كان في كلّ مرّة يُحسِّنُ التّخلُّصَ في الدُّخول من المطالع إلى الغرض الأساس الذي بُني لأجله صرّحُ الأمدوحة؛ ولعلّ التّساؤل المُلحّ الذي يبرزُ بعد هذا الاستطلاع للمطالع، عما كَمَن وراءها من المحاور التي دارت في فلكها هذه المدائح عند أبي الهُدَى، وهو ما سنتناوله السّطور القادمة.

⁴⁰² د.م.ش، 36.

⁴⁰³ د.م.ش، 36.

2 محاور المدائح

إِنَّ مِنْ أَوَّلِ مَا يَتبادَرُ إِلَى الْأُذْهَانِ - إِذَا مَا طَافَتْ فِي مَضَامِينِ محاور المديح النبويِّ عمومًا -، هو تذكُّرُ مَدْحِ الخالقِ العظيم لهذا النَّبِيِّ الكريمِ عليه السلام، وخلودِ هذا المدح بقرآنٍ يُتلى إلى يومِ الدِّينِ، فلا لسانَ لمخلوقٍ يصلُ إلى شامخِ سموِّ ثناءٍ "وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ"،⁴⁰⁴ ولن تُخْطِئَ عَيْنٌ حِفَاوَةَ خِطَابِ "يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ"⁴⁰⁵ و"يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا" * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا"،⁴⁰⁶ ولا علوُّ شَرَفٍ "لَعَمْرُكَ"،⁴⁰⁷ فهي آياتٌ مدَّتْ بأسبابها إلى المادحين كي يرتقوا إلى عالي سمائها، لتتدفَّقَ بعد هذه الآياتِ أفواجُ الشعراءِ بسيلٍ من المدائح النبويَّةِ، التي قد تكون صروحٌ محاورها قد أُقيمت على أساسِ أمدَّتْهُ الآياتُ الآنيَّةُ بمنبَعٍ من معانٍ ما انفكَّ الشعراءُ يستقون منها في أشعارهم المديحيَّةِ، إذ من الممكن القول: إِنَّ الآيةَ الأولى هي أصلٌ للمحور المتكلم على شمائل النَّبِيِّ الكريمِ عليه السلام، والثَّانيةُ أصلٌ للمحور المتكلم على رسالته وشرفها وما تَعَلَّقَ بها، والثَّالثةُ أصلٌ للمحور المتكلم على هديه وسيرته ومدحه بسامي الأوصاف، وأمَّا الأخيرة فقد تكونُ أصلًا للكلام على ما وهبه الله من خصوصيَّاتٍ لم يُعْطَها أحدٌ سواه. غيرَ أنَّ محاور المديح النبويِّ لها ميزاتها الذي وُضِعَ على لسان الممدوح الأكرم صلَّى الله عليه وسلَّم بقوله: "لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ"،⁴⁰⁸ وإلى هذا أشارَ شرف الدِّين البوصيري (ت. 696هـ/1296م) بقوله:

⁴⁰⁴ القلم، 4/68.

⁴⁰⁵ المائدة، 41/5.

⁴⁰⁶ الأحزاب، 46/33.

⁴⁰⁷ الحجر، 72/15؛ والقسمُ محمولٌ في هذا الموضع على أَنَّهُ قَسَمَ من ربِّ العالمين بحياةِ نبيِّه عليه السلام مما يدلُّ على أَنَّهُ أكرم الخلق على الله، يُنظر:

فخر الدِّين محمد بن عمر الرَّازي، التفسير الكبير (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1420هـ)، 156/19.

⁴⁰⁸ البخاري، "أحاديث الأنبياء"، 48 (رقم 3445)؛ والإطراء هو مدحُ الرَّجل بما هو ليس فيه ولا له، فالنَّصارى مدَّحت عبداً من عبيد الله بأنَّه

إله وابن إله، يُنظر: ابن منظور، "طرا"، 6/15.

دَعَّ مَا أَدْعَتْهُ النَّصَارَى فِي نَبِيِّهِمْ وَاحْكُمْ بِمَا شِئْتَ مَدْحًا فِيهِ وَاحْتَكِمْ⁴⁰⁹

وبهذا البيت يُعْلَمُ أَنَّ أَشْهَرَ الْمَدَاحِ يُثْبِتُ إِطْلَاقَ الْعِنَانِ لِلْمَادِحِينَ مَا لَمْ يُطَقِّقُوا فِي الْمِيزَانِ، فَيَتَجَاوَزُوا بِهِ حَدَّهُ الْمَعْلُومَ كَمَا تَجَاوَزَتِ النَّصَارَى بِقَوْلِهَا فِي عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ وَقَدْ تَعَدَّدَتِ مَحَاوِرُ الْمَدِيحِ النَّبَوِيِّ عِنْدَ أَبِي الْهَدَى وَتَشَعَّبَتِ فِي مَدْحِ كُلِّ مَا تَعَلَّقَ بِالنَّبِيِّ الْكَرِيمِ مِنْ هَدْيٍ وَدَعْوَةٍ وَمُعْجَزَاتٍ وَشَمَائِلِ خَلْقِيَّةٍ وَخُلُقِيَّةٍ وَمَا مَرَّ بِهِ مِنْ أَحْدَاثٍ فِي سَفَرِهِ وَحَضْرِهِ وَسِلْمِهِ، إِلَى جَانِبِ مَا سَكَبَهُ الشَّاعِرُ مِنْ فَيْضِ مَشَاعِرِهِ وَمَا بَنَتْهُ مِنْ أَشْوَاقٍ إِلَى دِيَارِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ إِلَّا أَنَّ الْمُتَتَبِعَ لِمَدَائِحِ أَبِي الْهَدَى يَسْتَطِيعُ الْقَوْلَ: إِنَّ أَبْرَزَ مَا دَارَتْ عَلَيْهِ مَدَائِحُهُ مِنْ مَحَاوِرٍ كَانَتْ فِي الْمَدِيحِ الْعَامِ، وَالْمُعْجَزَاتِ وَالتَّشَوُّقِ وَالتَّشْفُّعِ وَغَيْرِهَا مِنْ مَحَاوِرٍ أُخْرَى تَرَدَّدَتْ فِي تَضَاعِيفٍ مَدَحِهِ النَّبَوِيَّةِ، مِمَّا سَتَتَوَلَّى السُّطُورُ الْقَادِمَةُ بِيَائِهَا.

أ محاور المدح العام

حقيقته هذا المحور تنشأ من المدح التقليدي المعروف من قِبَلِ الشعراء لممدوحِيهِمْ، ولكنها هنا تزيد عليه بما اقتضته طبيعته الممدوح واختلافه عن أيِّ ممدوحٍ آخَرٍ، فهو هنا رسول الله وهو أفضلُ الخلق وسيدُّ وَلَدِ آدَمَ وَوَاحِدُ الْخَلْقِ فِي أَخْلَاقِهِ وَمَكَانَتِهِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي لَا تُسَامَى؛⁴¹⁰ فَالْقِيَمُ الْمَطْرُوحَةُ فِي هَذَا الْمَدْحِ لَيْسَتْ تِلْكَ الْقِيَمُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ التَّقْلِيدِيَّةُ الْمَعْرُوفَةُ فَحَسَبَ -عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَلَغَ فِيهَا

⁴⁰⁹ شرف الدين محمد بن سعيد البوصيري، ديوان البوصيري، تحقيق: محمد سيد كيلاي، (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي، 1374هـ/1955م)، 193.

⁴¹⁰ يُنْظَرُ: محمد بن عبد الباقي الزرقاني، شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية (بيروت: دار الكتب العلمية، 1417هـ/1996م)، 239/5.

أعلى قِمَّتِهَا- بل طُرِحَ إلى جانبها القِيمُ الدِّينِيَّةُ؛ ولأجلِ هذا كَلِّهَ فيمكن القول: إِنَّ المحور هو (محور المدحِ الخالصِ للنَّبِيِّ الكَرِيمِ بِشَكْلِ عَامٍّ، مع إبراز ما انطوى عليه أبو الهُدَى من خالصِ المحبَّةِ لَهُ).

ولعلَّ من أوَّلِ ما يلمَعُ في أفقِ هذا المحور تلك القصيدةُ التي استهلَّها بمطلعٍ مدحِيٍّ، يُبرِّزُ أعظمَ القِيمِ الدِّينِيَّةِ مشفوعةً بقيَمٍ تقليديَّةٍ أخرى جاءت إلى جانبها، حيث قال بعد أن أتى بالتَّصريحِ في أوَّلِ بيتٍ لِيُطَرِّبَ الأسماع:

لَجَأْتُ بِأَعْتَابِ الْحَبِيبِ ابْنِ هَاشِمٍ إِمَامِ صُدُورِ الْمُرْسَلِينَ الْأَكَارِمِ
رَسُولِ الرِّضَا رَبِّ الْمَعَالِي مُحَمَّدٌ مُثِيبُ الْغَيِّ مِفْتَاحِ كَنْزِ الْعَنَائِمِ⁴¹¹

واستطردَّ بعد هذا المطالعَ ماضياً في مدحِ رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأبياتٍ رَكَزَتْ على القِيمِ الدِّينِيَّةِ والمكانةِ العاليةِ له وما حَبَّاهُ اللهُ بِهِ من نورٍ وَهُدًى استضاءَ به العالمون، فكان لهذا النَّبِيِّ الكَرِيمِ الرُّتْبَةُ التي دونها كلُّ المراتب حيثُ عَلَتْ على العُلا، وَلَئِنْ كَانَ هذا النَّبِيُّ الكَرِيمُ يَمُوجُ بِحَرِّ عِلْمٍ وَثَقَى وَهُدَايَةٍ وَرَحْمَةٍ لِكُلِّ الْعَالَمِينَ فَلَا شَكَّ أَنَّهُ سَيِّدُ كُلِّ مَنْ تَقَدَّمَ مِنْهُمْ وَمَنْ تَأَخَّرَ بَلْ وَزَيْنُهُمْ وَتَاوَجُّهُمْ؛ يقول في هذه المعاني:

سَرَايُ بَطَاحِ الْقِبْلَتَيْنِ وَكَوْكُبُ الْ- وَجُودِ وَمَصْبَاحِ الْهُدَى لِلْعَوَالِمِ
لَهُ الدَّوْلَةُ الْعُظْمَى لَهُ الرَّفْعُ⁴¹² الَّذِي تَسَامَى عَلَى الْعُلَا بِأَعْلَى الدَّعَائِمِ
هُوَ الْبَحْرُ بِحَرِّ الْعِلْمِ وَالِدِّينِ وَالتُّقَى وَبَحْرُ الْمَعَانِي وَالْهُدَى وَالْمَرَاحِمِ
وَمَوْلَى أَسَاتِيدِ الْوُجُودِ وَتَاوَجُّهُمْ وَأَعْظَمُهُمْ مِنْ كُلِّ مَاضٍ وَقَادِمٍ⁴¹³

⁴¹¹ د.ف.م، 61.

⁴¹² البساط أو جانب الفسطاط أو جانب الخيمة، يُنْظَرُ: ابن منظور، "رفف"، 126/9.

⁴¹³ د.ف.م، 62.

ولعلَّ أبا الهُدَى قد حرصَ في هذه الأبيات على تَلْمُسِ التَّشْبِيهَاتِ التي تنسابُ مع الآية القرآنيَّة: "قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ"،⁴¹⁴ فتابعَ بذلك ما قاله غيرُ واحدٍ من المُفَسِّرِينَ بأنَّ النُّورَ هو النَّبِيُّ الكريم صلَّى الله عليه وسلَّم،⁴¹⁵ ولذلك فقد جاءت تشبيهُاتُهُ منسجمةً مع هذا فأتى بالفاظ (السَّراج، المصباح، الكوكب) وكلُّها مشتركةٌ بالنُّور، وفي وصفه للنَّبِيِّ الكريم بالبحر والتَّاج لأساتيد الوجود تشبيهٌ بليغٌ - إذ أهمل أداة التَّشْبِيهِ ووجه الشَّبه (السَّعة والجمال والعظَمَة) -، وبتكراره للألفاظ (البحر، الوجود، الهُدَى) ترسيخٌ للمعنى وتأكيدٌ مؤثِّرٌ في السَّماع قد يُبرِّزُ ما انطبعَ في ذهن أبي الهُدَى من حُبٍّ ومن تعظيمٍ وتبجيلٍ للممدوح الأكرم صاحبِ الخُلُقِ العظيم الذي أثنى عليه خَلَّاقُهُ العظيم، فلا مجالَ لِمُتَكَلِّمٍ أن يصلَّ إلى كُنْهِ هذه العظَمَة، ولذلك انثنى أبو الهُدَى ليعبِّرَ عن أنَّ خِلالَ هذا النَّبِيِّ وشمائلُهُ علَّت على سماءاتِ المعالي حتى تقاصرت عنها الكلمات والأشعار، فقال:

معاليه لا تُحصَى وآياتُ فضله مُطرَّزةٌ من مجده بالكمالِ
مظاهره العُلَيَا وأوصافُ ذاتِهِ تَسَامَت عن التَّعْرِيفِ في شعرٍ نَاطِمٍ⁴¹⁶

وبإمعان النَّاظِرِ إلى هذا المعنى الأخير يجده لم يكن جديدًا في المدائح النَّبَوِيَّة، فلطالما كرَّره المادحون مُعَبِّرِينَ عن عجزِ كلماتِهِم عن الإحاطة بسامي صِفَاتِهِ وشريفِ أخلاقِهِ، فمن ذلك قول صَفِيِّ الدِّين الحَلِّي (ت. 750هـ/1349م):

⁴¹⁴ المائدة، 15/5.

⁴¹⁵ يُنظر: جلال الدِّين الحَلِّي - جلال الدِّين السيوطي، تفسير الجلالين (القاهرة: دار الحديث، 1416هـ/1996م)، 139؛ الحسين بن مسعود البغوي، معالم التَّنزيل، تحقيق: محمد التمر وآخرين، (الرياض: دار طيبة، 1409هـ/1988م)، 33/3؛ علي بن أحمد الواحدي، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: صفوان داوودي، (دمشق: الدَّار الشَّامِيَّة، 1415هـ/1995م)، 313.

⁴¹⁶ د.ف.م، 62؛ وتكرَّرَ هذان البيتان بروايةً مُتخِلِّفةً في ديوانٍ آخَر، فجاء العجز الأوَّل "لقد هَطَلَتْ من أفقهِ بالكمالِ" والصَّدر الثَّاني "فمظهرُهُ الأعلى وسلطانُ ذاتِهِ"، يُنظر: د.م.ش، 183.

ولو أَنِّي وَفَّيْتُ وَصْفَكَ حَقَّهُ فَنِي الْكَلَامُ وَضَاقَتْ الْأَوْزَانُ⁴¹⁷

ومنه قول البوصيري:

لو أَجْمَعَ الْخَلْقُ أَنْ يُحْصُوا مُحَاسِنَهُ أَعْيَتْهُمْ جَمْلَةٌ مِنْهَا وَتَفْصِيلُ⁴¹⁸

بل إِنَّ أبا الهُدَى كَرَّرَهُ مَرَّةً أُخْرَى قَائِلًا:

أَعْيَا الْعُقُولَ فَلَنْ تُحِيطَ بِوَصْفِهِ دَهْرًا وَلَوْ سَمَحَتْ بِكُلِّ نِظَامٍ
ضَاقَتْ صِحَافُ الْغَيْبِ فِي سَفَرِ الْعَمَى عَنْهُ فَأَيْنَ الرَّقْمُ بِالْأَقْلَامِ⁴¹⁹

فكلُّ ما سَبَقَ من الأبيات يُشِيرُ إلى معنى تَفَرُّدِ جمالِ شمائلِهِ وأوصافِهِ حتى تَقَاصَرَتْ عن وصفِها العقولُ وتَلَكَّأتْ فيها فِصَاحُ الألسنة ولم تبلغها بلاغة الكلمات؛ ولعلَّ هذا المعنى تَرَدَّدَ ما يَقْرُبُ مِنْهُ على ألسنة الصَّحابة الكرامِ لَمَّا تَرَجَمَتْ شَيْئًا من كوامن مَحَبَّتِهِمْ بوصفِ هذا النَّبِيِّ الكريمِ، إذ إِنَّ أَحدهم ليرنو إلى طَلْعَتِهِ المنيرة فيقول: "كَأَنَّ الشَّمْسَ تَجْرِي فِي وَجْهِهِ وَإِذَا ضَحَكَ يَتَأَلَّأُ فِي الْجُدُرِ"،⁴²⁰ ويقول الآخر: "بل مثل الشَّمْسِ والقمرِ"،⁴²¹ "كَأَنَّ عِرْقَهُ اللَّؤْلُؤُ"،⁴²² وما إن يشرع أَحدهم مَسْتَرْسِلًا في نعتِ أوصافِهِ حتى يرجع القهقري مُعَبِّرًا عن عجزِهِ عن الإحاطة بتلك الصِّفَاتِ قَائِلًا: "لم أَرِ قَبْلَهُ

⁴¹⁷ صفِّي الدِّين عبد العزيز بن سرايا الحلبي، ديوان صفِّي الدِّين الحلبي (بيروت: دار صادر، د.ت)، 82.

⁴¹⁸ البوصيري، ديوان البوصيري، 183.

⁴¹⁹ د.م.ش، 186.

⁴²⁰ عياض بن موسى اليحصبي، التَّيْفُ بتعريف حقوق المصطفى (بيروت: دار الفكر، 1409هـ/1988م)، 61/1.

⁴²¹ يُنْظَر: مسلم بن الحجاج، المسند الصحيح، إعداد: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1412هـ/1991م)، "الفضائل"،

2344.

⁴²² مسلم، "الفضائل"، 2330.

ولا بعده مثله صلى الله عليه وسلم،⁴²³ ولقد أحجم خالد بن الوليد (ت. 21هـ/642م) رضي الله عنه عن تفصيل وصفه عليه السلام واعتذر، ف قيل له: أجمل، فقال: "الرسول على قدر المرسل"،⁴²⁴ ودفع هذا الحال ابن حجر الهيتمي إلى أن يُقر بأن "مما يتعين على المكلف أن يعتقد أن كمالات نبينا لا تُحصى، وأنّ المادحين له ما جاؤوا إلا بغيض من فيض إذ لا وصول لغايته".⁴²⁵

إلا أنّ أبا الهادي في مدحه لأخلاق هذا النبي الكريم وشمايله لم يكن بجاعل لها مماثلة لصفات أيّ ممدوح إطلاقاً، بل كان يحرص على تمييزها بأنّها في النبي صلى الله عليه وسلم أصلية طبيعية وليست عارضة كسببية كما هي عند غيره من الممدوحين، فلا يمكن لأحد أن يرقى إلى غلاها، ومن ترداده لهذا المعنى قوله مخاطباً النبي الكريم عليه السلام:

وقد طُبِعَ بطينتك المعالي وحكم الطبع ليس به مرأ
ترعرع⁴²⁶ فيك طبع ما تثنى لغيرك فاق من ذهبوا وجاؤوا⁴²⁷

فالبارئ تبارك وتعالى قد فطر حبيبه صلى الله عليه وسلم على أسمى الطبائع وأعلى الأخلاق، فهي ليست تطبعاً يُكتسب من البيئة والمجتمع المحيط به وإنما أخلاقه طبع أصيل يعرج به دائماً لعلّي الفعل لأنّ "الطبع جاذب متفاعل بينما التّطبع مجذوب مُفتعل مُتكلف لا يلبث أن يزول مع الاسترسال"،⁴²⁸

⁴²³ محمد بن عيسى الترمذي، الجامع الكبير، إعداد: بشار عواد معروف، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1416هـ/1996م)، "المناقب"، 8 (رقم 3637).

⁴²⁴ يُنظر: أحمد بن محمد القسطلاني، المواهب اللدنية بالمنح المحمدية (القاهرة: المكتبة التوفيقية، د.ت)، 5/2.

⁴²⁵ يُنظر: أحمد بن حجر الهيتمي، المنح المكنية في شرح الحمزية (القاهرة، مطبعة التّقدم، 1326هـ/1908م)، 2.

⁴²⁶ نشأ، أصله من الرّعزة وهي حسن شباب الغلام، يُنظر: ابن منظور، "رعي"، 128/8.

⁴²⁷ د.ر.ت، 7.

⁴²⁸ يُنظر: علي بن محمد الماوردي، تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملوك وسياسة الملوك، تحقيق: حسن الساعاتي - هلال السرحان، (بيروت: دار النهضة العربية، د.ت)، 267.

ولم يشأ أبو الهُدَى أن يقفَ في وصفِ عِظَمِ هذا الطَّبَعِ عندَ حَدٍّ محدودٍ ولكنَّهُ أرادَ لخيالِ القارئِ أن يسبَحَ في تصوُّره لعِظَمَ هذا الطَّبَعِ وتجذُّره في هذه الذَّاتِ النَّبَوِيَّةِ، فاستعار له -استعارةً مكنيَّةً- وصفَ التَّرعُّعِ، فانتقلَ بالأخلاقِ من المعنى المجرَّد الجامدِ إلى المعنى الحِسِّيِّ المتحرِّكِ، فالأخلاقُ الطَّبَعِيَّةُ عندَ هذا النَّبيِّ ما هي إلا إنسانٌ نشأ في هذه الذَّاتِ المحمَّديَّةِ وراح ينمو ويكبر كلَّ آنٍ؛ فلا بدَّ أن يكونَ الطَّبَعُ المحمَّديُّ واحدًا مُتَّفَرِّدًا لم يُحْزَهِ أوَّلٌ ولا آخِرٌ من المخلوقين، وفي عجزِ البيتِ الأوَّلِ أتى بالإطنابِ عبرَ أسلوبِ التَّذييلِ (الطَّبَعُ ليس به مرء) الذي أكَّدَ المعنى الذي وردَ في صدره (طُبِعَتْ بطينتك المعالي) وزادَهُ تقويَةً في الأسماع. ويتكرَّرُ هذا المعنى مرَّةً أخرى على لسانِ أبي الهُدَى، لكنَّهُ يزيدُ عليه معنًى آخرَ حيثُ مدَّحَ النَّبيَّ بما حصَّه اللهُ به من إيصالِ هذه الأخلاقِ إلى الخلائقِ، وقيامِهِ بدعوةِ الخلقِ للتَّحليِّ بها، وكأنَّ عجزَ البيتِ الثَّاني ضمَّ اقتباسًا يُشيرُ إلى معنى قولِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم: "إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ"⁴²⁹.

وَحَصَّهُ اللهُ بِكُلِّ حَصْلَةٍ عَظِيمَةٍ بِالسَّعْيِ لَنْ تُكْتَسَبَا

طَوَى بِهِ اللهُ الْمَعَالِيَ كُلَّهَا وَهَزَّهَ لِنَشْرِهَا فَانْتَدَبَا⁴³⁰

وبالنَّظرِ إلى هذين البيتين والذين سبقهما يمكن ملاحظة أنَّ القيمةَ التَّقليديَّةَ -التي هي حسن الأخلاق- لم تأتِ مُجَرَّدَةً في المديح النَّبَوِيَّةِ عندَ أبي الهُدَى بل أُضِيفَتْ إليها الخصوصيَّةُ الدِّينيَّةُ التي امتنَّ اللهُ بها على نبيِّه الكريم، وعلى هذا جَرَى في جُلِّ مدحِهِ النَّبَوِيَّةِ؛ ومن ذلك أنَّ المادحين قد ساروا بمدحِ النَّاسِ الطَّيِّبَةِ بشرفِ النَّسبِ وطهارةِ الأُصلِ، فجاءت هذه القيمةُ التَّقليديَّةُ في المدحِ النَّبَوِيَّةِ عنده مكسوَّةً بصبغةِ الخصوصيَّةِ المحمَّديَّةِ، فالنَّبيُّ الأكرم عليه السلام لا يُدَانِيهِ أَحَدٌ بشرفِ المحتد ولا

⁴²⁹ أحمد بن عمرو البزَّار، البحر الرَّخَّار، إعداد: محفوظ الرحمن زين الله وآخرين، (المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، 1427هـ/2006م)،

364/15 (رقم 8949).

⁴³⁰ د.م.ش، 51.

بطهارة النسب وهو القائل: "خرجت من نكاحٍ ولم أخرج من سيفاحٍ من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبي وأمي فأنا خيركم نسبًا وخيركم أبا"، "وأنا خيركم قبيلًا وخيركم بيتًا"،⁴³¹ ولمّا تناول أبو الهدي هذه القيمة في مدحه كان يُكرّر صبغها بخصوصيّة زائدة وهي أنّ النسب شرف برسول الله وليس العكس، ومن هذا قوله وقد استعار -استعارةً تصرّيجيّةً- لفظ (القلادة) لسلسلة النسب الهاشمي النبوي الأطهر الأجد الذي تشرّفت به الفروع والأصول:

شَرَفُ الْعَصَائِمِ فِي قِلَادَةِ هَاشِمٍ وَالْفَخْرُ لِلآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ⁴³²

وقد عاد في موضع آخر ليؤكّد المدح بما يُشبهه الذمّ فأتى باستدراكٍ بعد صفة المدح لمجد النسب النبويّ ليذكر تشريف رسول الله للنسب بتمامه، حتى غدا أصل الفخار لمن تقدّمه من أصوله، فزادهم شرفاً إلى شرف:

وَنَاهِيكَ بِالْمَجْدِ الْمُؤْتَلِ⁴³³ فَخْرُهُ لآبَائِهِ لَكِنْ حَبَا أَصْلَهُمْ فَخْرًا
أَقَامَ لَهُمْ فِي ذُرْوَةِ الْعِزِّ مَنْصِبًا يَحْطُّ عَلَى أَعْتَابِ سُدَّتِهِ الْبَدْرَا⁴³⁴

ويُلمح في البيت الأخير جمال الصّورة البيانيّة في الاستعارة التّصريحيّة المرشّحة التي جعلت للعزّ قمّةً يُبنى عليها منصبٌ له أعتابٌ، وشفعها باستعارته للبدر صفة الوقوف على هذه الأعتاب -من طريق الاستعارة المكنيّة-، ليصعد بفكر القارئ إلى علو المجد الذي أناله رسول الله لسلسلة آبائه حتى شرف

⁴³¹ يُنظر: عبد الكريم بن محمّد السّمعاني، الأنساب، تحقيق: عبد الرحمن اليماني وآخرين، (حيدر أباد: مجلس دائرة المعارف العثمانية، 1382هـ/1962م)، 14/1؛ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، دلائل النّبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق: عبد المعطي قلنجي، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1405هـ/1984م)، 169/1.

⁴³² د.ر.ت، 5.

⁴³³ المجد الأصيل الضارب في القدم، يُنظر: ابن منظور، "أثل"، 9/11.

⁴³⁴ د.ر.ب، 24.

بِهِ نَسَبُهُمْ وَازْدَانِ عِزُّهُمْ؛ وَهَذِهِ الْفِكْرَةُ كَثِيرًا مَا تَرَدَّدَتْ عِنْدَ الْمَادِحِينَ السَّابِقِينَ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ أَبِي
النَّثَاءِ شَهَابِ الدِّينِ الْحَلَبِيِّ (ت. 725هـ/1325م):

بِكَ كَرَّمَ اللَّهُ الْجَدُودَ وَطَهَّرَ الْآبَاءَ إِذْ وَلَدُوكَ جِيلاً جِيلاً⁴³⁵

وقول عائشة الباعونية لما مدحت النسب الطاهر وما حازه من عظيم كمال المفاخر بالنبي الأكرم
عليه السلام:

أَنِّي وَطَهُ بَدْرُ أَفْقِ سَمَائِهِ وَلَهُ بِهِ فَخْرٌ وَأَيُّ فَخَارٍ⁴³⁶

وهذا يعني أنَّ أبا الهادي في هذا المحور لم يجد عن إثر من سبقه من المادحين للجناب النبوي، وكرَّرَ
ما حرصوا عليه من إبراز القيم المدحية التقليدية بصبغة الخصائص الحمديَّة؛ فإن كان الممدوحون
يُمدِّحون بالأخلاق الحسنة فإنَّ مدح أبي الهادي - كسابقيه - قائمة على أنَّ رسول الله هو منبعها بل
كأنَّها منه فاضت إلى غيره، فترى ابن حجر الهيتمي لما تطرَّق إلى مدح سخاء النبي الأكرم، استشهد
ببيت يجعل جزءاً من الكرم الحمدي يغمر بفيضه كلَّ أجزاء الدنيا:

لَهُ رَاحَةٌ لَوْ أَنَّ مِعْشَرَ جَوْدِهَا عَلَى الْبِرِّ كَانَ الْبِرُّ أُنْدَى مِنَ الْبَحْرِ⁴³⁷

ولذلك فإنَّ أيَّ صفةٍ يمدِّح بها النبي المجتبي فهو الذروة فيها تحقُّقاً وهو المعيار لها أساساً، وكلُّ خُلُقٍ
محمودٍ في البرية فرسول الله قد علا به على أربابه، وينجلي هذا المعنى في مدح أبي الهادي، فلئن كانت

⁴³⁵ شهاب الدين محمود بن سليمان الحلبي، أهني المنائح في أسنى المنائح (القاهرة: مطبعة جريدة الشورى، د.ت)، 9.

⁴³⁶ عائشة بنت يوسف الباعونية، مولد النبي صلى الله عليه وسلم، تحقيق: عبد القادر عمر نبهان، (دمشق: المطبعة الحفنيَّة، 1301هـ/1883م)،
21.

⁴³⁷ نسبته ابن حجر لحسان لكنَّ الصحيح أنَّ قائله هو بكر بن التَّطَّاح؛ يُنظر: الهيتمي، العمدة، 202؛ محمد بن يزيد المبرِّد، الكامل في اللغة
والأدب، تحقيق: محمد إبراهيم، (القاهرة: دار الفكر العربي، 1417هـ/1997م)، 95/3.

العَذَارَى رَمَزًا لِلْحَيَاءِ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ "أَشَدُّ حَيَاءً مِنَ الْعَذَرَاءِ فِي خِدْرِهَا"،⁴³⁸ وهكذا فهو بكلِّ فضلٍ أخرى وكلِّ حسنٍ فعنه يُروى؛ حيث يقول في هذا المعنى، وقد قام بتكثير أخلاق المصطفى عليه السلام وتنويعها (صدق، برّ، رافة، عفو) في إشارة منه يُدَلِّلُ بها على عَظَمَةِ هذه الأخلاقِ وكمالها بعد أن دَلَّت على إرادة التَّعْظِيمِ قرينةٌ تمجيدِ المادح للممدوح عليه السلام بأنَّه نظامُ المعالي الآتي بأصناف العلوم والأفضال:

نِظَامُ الْمَعَالِي رُوحُ كُلِّ حَقِيقَةٍ إِمَامُ النَّبِيِّينَ الْعِظَامِ أَبُو الزَّهْرَا
أَتَى بِصُنُوفِ الْعِلْمِ وَالْفَضْلِ وَالتُّقَى وَكَانَ لِفَرْطِ الْفَضْلِ أَحْيَا مِنَ الْعَذْرَا
فَأَخْلَقَهُ صِدْقٌ وَبِرٌّ وَرَافَةٌ وَعَفْوٌ بِهِ مِنْ كُلِّ ذِي قُدْرَةٍ أُخْرَى⁴³⁹

ويُلاحظُ إتيانه بمدح تلك الصفاتِ العَلِيَّةِ رَافِلَةً بِقَالَِبِ الْجُمَلِ الإِسْمِيَّةِ التي تُفيدُ ثبوتَ تلك الصفاتِ المجيدةِ ودوامها في ذات الممدوح، كما شُفِعَ عَجْزُ الْبَيْتِ الْأَخِيرِ بِأَسْلُوبِ الْإِطْنَابِ عبر الاحتراز بأنَّ الممدوحَ كَانَ عَفْوًا عن قُدْرَةٍ، فلا يَتَأَتَّى للأذهان أن يتسرَّب إليها أَنَّهُ عَفْوٌ من غير قُدْرَةٍ.

ولمَّا وَرَدَ البوصيريُّ موردَ المدح لصفات النَّبِيِّ الْأَكْرَمِ أَتَى لها بتشبيهاتٍ مُفَصَّلَةٍ مُرْسَلَةٍ، فجعل جمالَ المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَالزَّهْرِ وَعُلُوَّ مَقَامِهِ وَمَكَانَتِهِ كَالْبَدْرِ وَكَرَمَهُ كَالْبَحْرِ وَقُوَّةَ عَزِيمَتِهِ وَشَجَاعَتِهِ كَقُوَّةَ أَهْلِ الزَّمَانِ أَجْمَعِهِمْ،⁴⁴⁰ فقال:

كَالزَّهْرِ فِي تَرَفِّ وَالبَدْرِ فِي شَرَفٍ وَالبَحْرِ فِي كَرَمٍ وَالدَّهْرِ فِي هِمٍّ⁴⁴¹

⁴³⁸ محمد بن إسماعيل البخاري، الأدب المفرد، إعداد: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار البشائر الإسلامية، 1409هـ/1989م)، 467.

⁴³⁹ د.ر.ب، 23.

⁴⁴⁰ يُنظر: الهيثمي، التمهيد، 298.

⁴⁴¹ شرف الدين محمد بن سعيد البوصيري، الكواكب الدررية في مدح خير البرية، تحقيق: يوسف النبهاني، (طنجة: دار الحديث الكائنانية، د.ت)،

لكنَّ أبا الهُدَى لم يشأ في مدحه أن يجعل لهذه الأخلاق شبيهاً يُشَبَّه به أبداً، إذ لمَّا وَرَدَ مَدَحَ شَجَاعَةِ المصطفى وشِدَّةَ عزمِهِ وعزيمَتِهِ وفيض كَرَمِهِ، راح يُسائلُ نفسه ويخرج بهذا الاستفهام عن مقتضاه الحقيقي، ومرادُه من ذلك إظهارُ شيءٍ من التَّعْظِيمِ والتَّفْخِيمِ لصفات الجَنَابِ النَّبَوِيِّ، إذ ما هيبةُ مُدَلِّهِمِ الدِّيَاجِي ورَهْبَتُهَا؟ بجانبِ مناقِبِهِ، وما هيبةُ القِفَارِ بِجَحَافِلِ عساكرِها؟ أمامَ الهيبةِ العظيمةِ لذاته الشَّريفةِ، وما شجاعةُ الضَّرْغامِ المَنْتَفِضِ؟ إذا ما لاحَت شجاعةُ النَّبِيِّ الأَكْرَمِ، وما هِمَّةُ أَهْلِ الزَّمانِ؟ وما فيضُ سخاءِ البحرِ؟ بل مَنْ هم سادَةُ الدُّنيا والآخِرَةِ؟ مُقَابِلَ هذا السَّيِّدِ العَظِيمِ الأَفْخَمِ،⁴⁴² ومضى مُتَابِعاً باستعارةٍ جعلت كلَّ مَنْ ذُكِرُوا قد أعارَهُم المصطفى جَنَاحاً من أخلاقِهِ التي أكرمَهُ اللهُ بها، وبهذا الجناح المصطفوي حَلَّقُوا طائرين في سماءات الفضائل والمحاسن:

وبأس عزمك كم آثاره نَشَرَتْ من عالمِ الطِّيِّ أحكاماً وأدواراً
ما الخيلُ ما اللَّيْلُ ما البِيداءُ⁴⁴³ إن قَفَلَتْ بالجُنْدِ ما الأسدُ الضَّاري إذا ثاراً
ما الدَّهْرُ ما البحرُ ما الدُّنيا وضَرَّتْها إذ كُلُّهُمْ بِجَنَاحٍ منك قد طارا⁴⁴⁴
وفي ميدان هذا المحور كان أبو الهُدَى يهتمُّ بمدحِ المكانةِ العاليةِ والخصائصِ المحبوبةِ بها هذا النَّبيُّ الكريمُ عليه السَّلامُ، مُستلِهماً ذلك مما وَرَدَ في كُتُبِ السَّيِّرةِ النَّبَوِيَّةِ، فهو النَّبيُّ الذي رَجَا جَدُّهُ بتسميته أن "يحمدهُ أهلُ السَّماءِ والأرضِ" وكان له ذلك، إذ لكثرةِ الخصالِ الشَّريفةِ والصِّفاتِ المُنيقةِ التي تَجَمَّعَ

⁴⁴² لعلَّه اقْتَبَسَ هذا المعنى من الحديث الذي رواه بإسنادٍ جَيِّدٍ قَوِيٍّ ابنُ كثيرٍ وأبو يَعْلَى وابن عساكر وأبو نعيم وغيرُهُم من قول الملائكة لبعضهم في حادثة شَقِّ صدرِهِ الشَّريفِ عليه السَّلامُ: "دَعُوهُ فَلَوْ وَزَنَموه بِأَمَّتِهِ كُلُّهَا لَرَجَحَهُمْ"؛ يُنْظَرُ: جلال الدِّين عبد الرحمن بن أبي بكر السُّيوطي، الخصائص الكُبرى (بيروت: دار الكتب العلميَّة، د.ت)، 96/1؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 413/3.

⁴⁴³ يظهر في هذا البيت ما يُسمِّيهِ البلاغيُّون بالتَّشابُه، فهو -على اختلافٍ بين الغرضين- قريبٌ من قول المتنبي:

"الخيْلُ واللَّيْلُ والبِيداءُ تعرفني والسَّيْفُ والرُّمْحُ والقرطاسُ والقَلَمُ"

يُنْظَرُ: حَبَّكَة، البلاغة، 555/2؛ أحمد بن الحسين المتنبي، ديوان المتنبي (بيروت: دار بيروت للطباعة، 1403هـ/1983م)، 332.

⁴⁴⁴ د.ف.م، 37.

كلُّ ما تفرَّقَ منها في ذاتِهِ اللَّطِيفَةِ، صارَ مُحَمَّدُ الأرضَ محمودَ السَّماءِ، والرَّسُولُ الذي أنثى عليه الله في التَّورَةِ والإنجيلِ بل حتى في الزُّبور - حسب ما وردَ في كُتُبِ السِّيَرِ -⁴⁴⁵

مُحَمَّدُ الأرضِ محمودُ السَّماءِ أَحْيَ دُ⁴⁴⁶ الكُلِّ أَحْمَدُ أَهْلِ الجَاهِ وَالشَّانِ
بِحُرِّ المِكارِمِ سُلْطانُ الأكارِمِ عِيدُ سُنِّ الكائناتِ مُعِينُ العاجِزِ العائِي⁴⁴⁷
أَشْتاتُ أَشْرَفِ أنواعِ الصِّفَاتِ بِهِ تَجَمَّعَتْ فَهُوَ مَوْلى كُلِّ بُرْهانِ
وَجاءَ يُذَكِّرُ في الإنجيلِ مَظْهَرُهُ مَعَ الثَّنَا بِرموزٍ بَعْدَ تَبَيانِ
وفي الزُّبورِ وفي التَّورَةِ مِدْحَتُهُ مَسْطُورَةٌ وَلِسانُ المَدْحِ رَبَّانِي⁴⁴⁸

ثم يَسْتَطِرِدُّ في مَدِيحِ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مُصَوِّراً أَهْلَ الأرضِ وَهم يَفْاخِرُونَ بِهِ مَلَائِكَةُ السَّماءِ، بَلْ
إِنَّ الغِبراءَ لَتُفَاخِرُ فِيهِ الحَضَراءُ وتَعْلُو عَلى ثُرَيَّاها بِالنَّزْرِ الذي ضَمَّهُ، وَيَحاولُ أَبُو الهُدَى باقْتِباسِهِ
لِلآياتِ القُرْآنِيَّةِ أَنْ يَجْعَلَ مِنَ المَعاني المَجَرَّدَةِ في الآياتِ صَوْراً حَسِيَّةً تُثَمِّلُ أَمامَ النَّاظِرِ فينْجَلِي مَعناها
بِصُورَةٍ أُخْرَى تَطْبَعُ في الأذهانِ ما قامَ في عَمقِ ذاتِهِ ونَفْسِيَّتِهِ مِنْ تَعْظِيمٍ لِمُحْصِيَّاتِ رَسولِ اللهِ،
فَعَمَدَ إلى الآيةِ التي اخْتَصَّ اللهُ بِها نَبِيِّه بِالْحِفْظِ والحِمايَةِ بِقَوْلِهِ مُحْاطَباً لَهُ: "وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ
النَّاسِ"،⁴⁴⁹ فَجَعَلَ مِنْ مَعنى العِصْمَةِ التي في هَذِهِ الآيةِ قَلْعَةً حَفِظَ ورِعايَةَ رَبانِيَّةِ سَوْرَتِ بُجْدِرانِها
الطَّلَعَةَ البَهِيَّةَ لِهَذَا النَبِيِّ الأَكْرَمِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَعَصَمَتْهُ وَصانَّتُهُ مِنْ كُلِّ طارِقٍ شَرٍّ:

(وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ) احتاطت بِطَلْعَتِهِ لِلْحِفْظِ مِنْ كَيْدِ دُرى زُورٍ وَهُتَانٍ

⁴⁴⁵ يُنْظَرُ: علي بن إبراهيم الحلبي، إنسان العيون في سيرة الأئمة المأمون (بيروت: دار الكتب العلمية، 1427هـ/2006م)، 307/1.

⁴⁴⁶ أصلُهُ مِنَ الفِعْلِ حادَ، وَهُوَ مِنْ أَسْماءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَعْنِي الَّذِي يَمْنَعُ نارَ جَهَنَّمَ عَنْ أَقْنِيهِ وَيَمِيلُ بِهَمِّ عَنْها، يُنْظَرُ: الحلبي، سيرة الأئمة، 307/1؛ ابن منظور، "حيد"، 159/3.

⁴⁴⁷ الأَسير، يُنْظَرُ: ابن منظور، "عنا"، 101/15.

⁴⁴⁸ د.ف.م، 55.

⁴⁴⁹ المائدة، 67/5.

سُلْطَانُ حَضْرَةِ قُدْسٍ ضِمْنَ حَضْرَتِهِ فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مُلْكُ سُلَيْمَانِي
بَاهَتْ بِهِ النَّاسُ أَمْلَاكَ السَّمَاءِ شَرْفًا وَالْأَرْضُ سَامَتْ دُرَى الْعُلَا بِعُلُوٍّ⁴⁵⁰

وفي البيت الثاني مَدَحَ الخصوصية التي اختصَّ بها رسولُ الله من العروجِ إلى حضرةِ القُدسِ الأقدسِ في سَمَواتِ العُلا ليلةَ الإسراءِ والمعراجِ وما أكرمَهُ به رَبُّهُ من جَزِيلِ العطايا وتُخَفِ الإكراماتِ التي لم يُعْطَها مخلوقٌ قطَّ، ويُلَمَّحُ فيه أيضًا كيف استطاعَ أبو الهُدَى أن يَصِلَ بهذا المعنى المراد إلى الدُرَّةِ القصوى من خلال الكناية التي أتى بها (ملكٌ سليمانِي)، وهي كنايةٌ عن مُلكٍ لم يُعْطَ لأَحَدٍ من الخلقِ، كالذي طَلَبَهُ نَبِيُّ الله سُلَيْمان من رَبِّهِ فَأُعْطِيَهُ -لَمَّا قَالَ: "رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ"⁴⁵¹، فجاء أبو الهُدَى بهذه الكناية ولم يجعل حضرةَ الإكرام التي نالها النَّبِيُّ مُلْكًا سُلَيْمانِيًّا بل جعلَ كُلَّ جُزْءٍ من أَجْزائها مُلْكًا سُلَيْمانِيًّا لم يَنْلَهُ أَحَدٌ من العالمين؛ وأمَّا المعنى الذي تَضَمَّنَهُ البيتُ الأخير فقد ساقَهُ مُكْرَّرًا في مَوْضِعٍ آخَرَ فقال:

لقد تاهتِ الأفكارُ في طَوْلٍ⁴⁵² سِرِّهِ وباهتْ به الخضرَاءُ في مجْدِهَا الْعَبْرِ⁴⁵³

ولئن كان أبو الهُدَى قد اتَّخَذَ من السَّيِّرةِ النَّبَوِيَّةِ مُلْهِمًا لِمَدَحِهِ، فقد استلهمَ - كما ظَهَرَ آنفًا - الكثيرَ من المعاني والصُّورِ من القرآنِ الكريمِ، فمن ذلك مَدْحُهُ لِلنَّبِيِّ الْكَرِيمِ بَأَنَّهُ (الأُذُنُ الْوَاعِيَةُ) التي

⁴⁵⁰ د.ف.م، 55.

⁴⁵¹ ص، 35/38.

⁴⁵² من العلوِّ والفضل والسَّعة، يُنْظَرُ: ابن منظور، "طول"، 414/11.

⁴⁵³ د.ر.ب، 23.

امتثلت فهما لأسرار القرآن، وهو اقتباس من قوله تعالى: "وَيَقُولُونَ هُوَ أَدْنَىٰ قُلْ أَدْنَىٰ خَيْرٌ لَّكُمْ يَوْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ"،⁴⁵⁴ "وَتَعِيَهَا أَدْنَىٰ وَاعِيَةً":⁴⁵⁵

وَأَنْتَ دَائِرَةُ الْعِلْمِ الْمُقَدَّسِ وَالْ (أَدْنَىٰ) الَّتِي كُلُّ أَسْرَارِ الْكِتَابِ وَعَتَّ⁴⁵⁶

ومن ذلك أيضاً ما جاء به لما مدح أسمى خصائصه الشريفة وهي رسالة التوحيد التي بلغها للبشرية فنور الظلمات بها ورفع رايات العدل والهدى في كل مكان، فاستلهم أبو الهدى من القرآن الكريم معنى قوله تعالى: "وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ"⁴⁵⁷ فذكرها من بين خصائص النبي الكريم، فقال مادحاً مُضْمِنًا لأبياته الاستعارة المكنية لما أتى للظلم بوصف الحُجب التي تُزقُّ بيدٍ ممدوحه الأكرم، وأتى بلفظة (العتَم) ليُكنِّي به عن الشرك وظلماته:

جَاءَ وَالنَّاسُ فِي ظَلَامٍ وَظُلْمٍ وَضَلَالٍ وَمُنْكَرٍ وَفَسَادٍ
كَشَفَ الْعَتَمَ مَزَقَ الظُّلْمَ أَهْدَىٰ بِالْهُدَىٰ لِلْقُلُوبِ نَوْرَ اعْتِقَادٍ⁴⁵⁸

ومن المعاني المقتبسة من القرآن ما استلهمه من قوله تبارك وتعالى لما خاطب بني إسرائيل بأن يدخلوا القرية وأمرهم بقول "حِطَّةٌ"⁴⁵⁹ لِتُغْفَرَ لَهُمْ خطاياهم، فأخذ أبو الهدى هذه الكلمة من خلال اقتباس

⁴⁵⁴ التوبة، 61/9.

⁴⁵⁵ الحاقة، 12/69.

⁴⁵⁶ د.ف.م، 46.

⁴⁵⁷ آل عمران، 81/3.

⁴⁵⁸ الصيادي، زاد القيامة، 4.

⁴⁵⁹ يُنْظَرُ: البقرة، 58/2.

التَّلميح⁴⁶⁰ ليصفَ النَّبِيَّ الكريمَ ببابِ حِطَّةٍ تُغْفَرُ عنده ذنوبُ المؤمنين إذا ما قصدوه ليستغفروا لهم، فقال:

شَمْسٌ سَرَى فِي فِجَاجِ الْمُلْكِ لَامِعُهَا وَعَيْلَمٌ⁴⁶² أَغْرَقَ الْأَمْلَاكَ سَاجِمُهُ⁴⁶³
فَالنَّاسُ وَالْمُلْكُ الْعُلُويُّ جَحْفَلُهُمْ⁴⁶¹ بِيَابِ حِطَّتِهِ حُطَّتْ عَوَالِمُهُ⁴⁶⁴

والقارئ لهذه الأبيات يطرق سمعه الجرس الموسيقيّ المُجَلِّجِل الذي اختاره الشاعر لِيُنَاسِبَ المعنى المدحِيّ الذي أرادَهُ، وتكاد الكلمات تَبْرُقُ بعاطفة المحبة المتأججة في جوانح أبي الهدى، فهو يبسطُ للعيون صورة المدح للحبيب الكريم صلى الله عليه وسلم ويُسَبِّهه بالشَّمْسِ التي سَطَعَتْ أنوارها في فضاءِ مُلْكِ الله، وبالبحرِ الكبير الذي عَمَّتْ هَوَاطِلُ أنوارِ رِسالَتِهِ العوالمَ الدُّنيويَّةَ والعُلويَّةَ، لِذَا فكلُّ البرايا تَقِفُ بأدبٍ على أعتابِ بابه العالي يَرجوْنَ رحمةَ الله باستغفارِ نبيِّهِ هُهم، ويبدو أَنَّهُ جاءَ بهذا المعنى مُعْتَمِدًا باقتباسِهِ على قوله تبارك وتعالى: "وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا"،⁴⁶⁵ لِذَا فَقَدَ كَرَّرَ المعنى في موضعٍ آخَرَ، مُضِيفًا إِلَيْهِ وَصْفًا آخَرَ لهذا الباب، ومَادِحًا للحبيب بِخُصُوصِيَّةِ قَسَمِ رَبِّ العالمين بِعَمْرِهِ الشَّرِيفِ كما جاءَ في قوله تعالى: "لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ"،⁴⁶⁶ فخاطَبَ النَّبِيَّ الكريمَ مَادِحًا:

⁴⁶⁰ يُنْظَرُ: عبد الرَّحْمَنِ حَسَنُ حَبْنَكَةَ، البلاغة العربيَّة (دمشق: دار القلم، 1416هـ/1996م)، 536/2.

⁴⁶¹ الجَحْفَلُ هو الجيش الكبير وتَجَفَّلَ النَّاسُ أي تَجَمَّعُوا، ولعلَّ المقصود في البيت جَمْعُهُمُ الكبير، يُنْظَرُ: ابن منظور، "جحفل"، 102/11.

⁴⁶² بَجَرٌ، يُنْظَرُ: ابن منظور، "علم"، 421/12.

⁴⁶³ سَيَّالُهُ، وأصلُهُ من سَجَمَ بمعنى سَالَ وأَمْطَرَ، يُنْظَرُ: ابن منظور، "سجم"، 280/12.

⁴⁶⁴ د.ف.م، 44.

⁴⁶⁵ التَّيسَاءُ، 64/4.

⁴⁶⁶ الحجر، 72/15.

أَنْتَ وَاللَّهُ الَّذِي فِي بَابِهِ عَظُمَ الْعَابِي 467 وَذَلَّ الْعُظْمَا
 أَنْتَ وَاللَّهُ الَّذِي شَأْنًا لَهُ فِيهِ خَلَأْتُ الْبِرَايَا أَقْسَمَا
 أَنْتَ وَاللَّهُ رُؤُوفٌ كُلَّمَا جَاءَ بِالذَّنْبِ مُحِبٌّ رَحِمًا 468

ولأنَّ المقامَ مقامَ بسطِ المدح للجنابِ النَّبَوِيِّ ومخاطبته فقد أطنب أبو الهُدَى بأسلوبِ التَّكرارِ للقسمِ وضميرَ الخطابِ في الأبياتِ إمعاناً منه في ذكرِ تفصيلاتٍ جديدةٍ عند كلِّ تكرارٍ ليحلوا لدى الأسماع تأكيداً مديحه للجنابِ النَّبَوِيِّ الأكرم، ثم عرَّجَ على وَصَفِ بابِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم بالباب الذي يتساوى عند أعتابِ عدالته جميعُ الخلق، فيُعزُّ كلُّ صاحبِ حقٍّ وإن كان ذليلاً، ويصعُرُ كلُّ مَنْ عدلَ عن الحقِّ وإن كان عظيماً؛ وقد كرَّرَ مدحَ عدالةِ النَّبِيِّ الكريمِ بما يقربُ من هذا المعنى حينما قال مُستعمِلاً الجنسَ (مَهْدٌ/مَهْدٌ) والطِّباقَ (العبد/الحر):

ومَهْدٌ مَهْدٌ الأَمْنِ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ ففي الحقِّ سَاوَى الْعَبْدُ بَيْنَ الْمَلَا الْحُرِّ 469
 وقد يسترعي الاهتمام -من كلِّ ما سبق- أَنَّ النَّصِيبَ الأوفى في هذا المحور انصبَّ أكثرُهُ على مدحِ الصِّفَاتِ الخُلُقِيَّةِ، على أَنَّ أبا الهُدَى لم يكن ليُهْمَلِ الصِّفَاتِ الخُلُقِيَّةُ تماماً، فقد تحلَّلَ قصيدتهُ في السِّيرةِ النَّبَوِيَّةِ -زاد القيامة- قِطْعَةً ضَمَّتِ اقْتِبَاسَاتٍ مما انتثرَ من أوصافٍ للمصطفى عليه السلام في كُتُبِ الشَّمَائِلِ النَّبَوِيَّةِ، من وصفِ وجهه وعينه وعُنُقِهِ وطُولِهِ ومَشْيِهِ، حيث قال في تضاعيفها المدحِيَّة:

وَجْهُهُ طَالُعُ الصَّبَاحِ يَفِيضُ النُّورَ مِنْ لَمَعِ ضَوْئِهِ الْوَقَادِ

467 الأسير، يُنظَر: الجوهري، "عنا"، 2440/6.

468 د.ف.م، 50.

469 د.ر.ب، 24.

أَبْيَضُ الْإِبْطِ لَمْ يُخَامَرْ⁴⁷⁰ بِلَوْنٍ مِثْلَمَا النَّاسِ حُسْنُهُ ذُو انْفِرَادٍ
رَبْعَةٌ كَانَ إِنْ وَصَفْنَاهُ لَكِنْ هُوَ إِنْ قَامَ أَطْوَلَ الْأَفْرَادِ
غَيْرُ ذِي أَحْمَصٍ⁴⁷¹ لَهُ قَدَمٌ قَدْ تُفْرِغُ اللَّيْنُ فِي الصُّخُورِ الصِّلَادِ⁴⁷²
وَلَدَى مَشْيِهِ الْأَرْضُ تُطَوَّى فَيَرَى الْإِقْتِرَابُ فِي الْإِتِّعَادِ
أَزْهَرَ اللَّوْنَ جَيِّدُ الْجَيِّدِ وَالْوَجْدِ بِأَحْدَاقِهِ لَطِيفُ السَّوَادِ⁴⁷³

ولربما لم تكن بغية الأبيات إلا نظم المنشور من شمائل المصطفى الخلقية التي جاءت عن الصحابة الكرام من أنه عليه السلام كان "أزهر اللون، وله نورٌ يعلوه"،⁴⁷⁴ مربوعاً لا بالطويل ولا بالقصير،⁴⁷⁵ جميل العنق كأنَّ جِيدَهُ جِيدٌ دُمِيَّةٌ فِي صَفَاءِ الْفَضَّةِ،⁴⁷⁶ وما رُويَ من صفة بياضٍ إبطيه،⁴⁷⁷ وطَيَّ الأرضَ لَهُ، وممدح أبي الهُدَى لجمال العينين بالسَّوَادِ، وإطنابه بأسلوب الاحترازِ بأنَّه سَوَادٌ لَطِيفٌ - فلا يتسرَّب إلى ذهن السَّامِعِ أَنَّهُ سَوَادٌ مِنْ عِلَّةٍ أَوْ دَاءٍ -، وبهذا الاحترازِ يبرزُ حرصُ أبي الهُدَى على الإتيان بالمعنى الذي وُصِفَ بِهِ النَّبِيُّ الْأَكْرَمُ بِأَنَّهُ كَانَ أَكْحَلَ الْعَيْنَيْنِ وَلَيْسَ بِأَكْحَلِهِمَا؛⁴⁷⁸ وعلى الرَّغْمِ من اندراج الأبيات هذه ضمن قالب المديح النبوي، لكنَّ من الممكن ملاحظة اقترابها من الوصف المنظوم أكثر

⁴⁷⁰ خَالَطَ وَدَاخَلَ، يُنْظَرُ: أَحْمَدُ مَخْتَارٌ، "خمر"، 659/1.

⁴⁷¹ الْأَحْمَصُ مِنَ الْقَدَمِ هُوَ الْمَوْضِعُ الَّذِي لَا يَلْتَصِقُ بِالْأَرْضِ عِنْدَ الْوُطْءِ لَهَا، وَهِيَ صِفَةٌ مَخْصُوصَةٌ مِنْ صِفَاتِ الْحُسْنِ الَّتِي حُصِّ بِهَا النَّبِيُّ الْأَكْرَمُ؛ يُنْظَرُ: أَحْمَدُ بْنُ حَجَرَ الْهَيْتَمِيِّ، أَشْرَفُ الْوَسَائِلِ إِلَى فَهْمِ الشَّمَائِلِ، تَحْقِيقُ: أَحْمَدُ الْمَزِيدِي، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1419هـ/1998م)، 68.

⁴⁷² الْحِجَارَةُ الصَّبْلَةُ الْمَلْسَاءُ، يُنْظَرُ: الْجَوْهَرِيُّ، "صلد"، 498/2.

⁴⁷³ الصِّيَادِي، زَادَ الْقِيَامَةَ، 7.

⁴⁷⁴ يُنْظَرُ: التِّرْمِذِيُّ، الشَّمَائِلُ الْمَحْمَدِيَّةُ، 22.

⁴⁷⁵ يُنْظَرُ: التِّرْمِذِيُّ، الشَّمَائِلُ، 16.

⁴⁷⁶ يُنْظَرُ: التِّرْمِذِيُّ، الشَّمَائِلُ، 22.

⁴⁷⁷ يُنْظَرُ: أَبُو عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ الشَّيْبَانِيُّ، الْمُسْتَدْرَكُ، إِعْدَادُ: شُعَيْبُ الْأَرْنَؤُوطُ وَآخَرُونَ، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1421هـ/2001م)، 43/22، (رقم 14138).

⁴⁷⁸ يُنْظَرُ: التِّرْمِذِيُّ، الشَّمَائِلُ، 136؛ وَمَعْنَى أَكْحَلَ الْأَوَّلَى مِنَ الْكَحْلِ وَهُوَ سَوَادٌ خَلَقِيٌّ يَعْلُو مَنَابِتَ أَهْدَابِ الْعَيْنِ، وَالثَّانِيَّةُ مِنَ الْكَحْلِ الْمَعْرُوفِ، يُنْظَرُ: الزَّيْدِيُّ، "كحل"، 317/3.

من شعر المديح، إلى جانب ما أُردفت به هذه الأوصاف من خصائص جلاها أبو الهُدَى لَمَّا أُطنبَ بأسلوب الاحتراز، فالنَّبِيُّ الكريم وإن كان (رَبْعَةً) فقد كان يعلو كلَّ مَنْ قَارَبَهُ مهما كان طولُهُ، وهو وإن كانت عيناه دعجاءوتان فإنَّ السَّوَادَ الذي فيهما (لطيفٌ) يزيدُ حُسْنَهُ حُسْنًا.

ويستجمعُ أبو الهُدَى كُلَّ ما سبقَ من المعاني الفضيلة والصِّفَاتِ الأثيلة التي طَوَّها الله في أكرم العباد، والمصطفى المختار من جملة الأجواد، فيُخاطبه مادِحًا:

جَلَسْتَ عَلَى مَنْصَةِ كُلِّ فَضْلٍ لَدَيْكَ مَلُوكٌ رُتِبَتْهَا قِيَامٌ⁴⁷⁹
وَيُخَاطَبُهُ عَلَى ذَاتِ الْمَنَوَالِ مَرَّةً أُخْرَى قَائِلًا:

فَأَنْتَ رُوحُ بَنِي الدُّنْيَا وَعَيْنُ بَنِي الْـ أُخْرَى وَأَعْظَمُهُمْ شَأْنًا وَمَقْدَارًا
بَسَطْتَ ذِكْرًا جَمِيلًا رَكَّبَ مِدْحَتِهِ فِي كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ طَيِّبٍ سَارًا⁴⁸⁰

وقد لا يُتَعَدُّ عن الصَّوَابِ إِذَا مَا قِيلَ إِنَّ أَبَا الهُدَى اختصر كلَّ ما أُسْلِفَ ذِكْرُهُ من معاني بهذا المحور في هذين الموضعين، إذ في الأوَّل استعار -استعارةً تصرُّحيةً- للفضائلِ مَنْصَةً وملوكًا يملكون زمام أعالِيها ومدح النَّبِيِّ العظيم عليه السلام بأنَّه الجالسُ على تلك المنصَّة والمتربِّع على عرشها وأساطينُ ملوك الفضائلِ متواضعون مُتضائلون أمام فضله وقدره العالي؛ وأمَّا الموضع الثَّاني فيُلاحَظُ في البيت الأخير منه أنَّ ما تحتَمِلُهُ الكلمات من معاني تترك خيالَ القارئ ليسرَّحَ حقيقةً في دروبٍ طويلةٍ ممتدَّةٍ تنتشر على أطرافها حُلَا جمالِ هذا النَّبِيِّ الأكرم عليه السلام، ولعلَّ هذا ما أراده أبو الهُدَى من استعارته للذكر النَّبَوِيِّ العَظِيمِ وصفَ البِساطِ الذي يمتدُّ على مَرِّ الأَيَّامِ والدُّهورِ، واستدعى للمدحِ استعارةً تصرُّحيةً

⁴⁷⁹ د.م.ش، 221.

⁴⁸⁰ د.ف.م، 37.

جعلت منها ركبا يسير، في كلِّ ما تتخيَّله العقول من فجاج الحُسن والجمال الوهبيِّ الإلهيِّ الذي حُقَّ لصاحبه المصطفى عليه السلام أن يكون به أعظمِّ العالمين في الدارين.

وعلى الرَّغم من أنَّ (عاطفة المحبَّة) عند الشَّاعر لم تكن لتخفى بين جميع أبيات المدح فقد خلَّع عليها أسبغَ حُللِ مشاعر المحبَّة الصَّادِقة، إلا أنَّ بوحه بفيضاتها ووصفه لهدير موجها في صدره عبرَ أبياتٍ مُستقلَّةٍ في ثنايا هذه المدح، يجعل من الكلام عليها جزءًا ثانيًا لهذا المحور المدحيِّ.

ولربَّما كانت انعطافاتُ أبي الهُدَى بين أجزاءِ مدحه وتعرُّجه نحو البوح بعواطفه أشبه ما يكون بما أطلق عليه أحد علماء النَّفس مُسمًى "الوثبات النَّفسية" عند الشَّاعر، إذ في طريقِ نظمه للقصيدة لا يُمكن أن تنساب إليه أبياتها كلّها بدفقةٍ واحدة، بل إنَّ نفسيَّته تثبُّ إلى مجموعةٍ من الأفكار والعواطف فتُبدعُ في وصفها أبياتٍ معدودةٍ قد تطول أو تقصر، ثم ما تلبث أن تقفَ قليلاً لتعود مرَّةً أخرى إلى جملةٍ جديدةٍ من الأفكار والمعاني، وهكذا دواليك إلى أن يُفرغَ الشَّاعرُ كلَّ ما في جُعبته من الأفكار والأحاسيس.⁴⁸¹

وقد كان بوحه بعواطفِ المحبَّة مُتنوِّعاً ومُتعدِّداً على وجوه، فتارةً تكلم بلسانه مُخاطباً النَّبيِّ الأكرم عليه السلام ليُعبرَ عن حاله الخاصِّ وتفردِه بمحبَّته لمحَبوبه النَّبيِّ الفريد في شؤوناته وأوصافه، كقوله:

أنتَ الوحيدُ بشأنِهِ وصِفَاتِهِ وأنا بِحُبِّكَ في الأنامِ وحيدُ
كم صيغَ من شعري لِحُسْنِكَ سيِّدي عَقْدُ تَنَظَّمٍ في القَرِيضِ نَضِيدُ
ولقد ملأتُ بكِ الدَّفَاتِرَ ناثِراً دُرّاً ومنكَ به تحلَّى الجيِّدُ⁴⁸²

⁴⁸¹ يُنظر: مصطفى سويف، الأسس النَّفسية للإبداع الفُتِّي في الشعر خاصَّة (القاهرة: دار المعارف، 1959م)، 226.

⁴⁸² د.ت.ب، 32.

فقد أتى في البيت الأول بالجملة الإسمية الدالة على الثبوت والاستمرار في حقيقة تفرّد شؤونات ممدوحه (أنت الوحيد)، ولم يشأ لها إلا أن ترقّل بأسلوب الحصر -لَمَّا حَلَّى الخبر المُسند (الوحيد) بلام التعريف- لتنطبع في ذهن السامع عظمة مخاطبه الممدوح الأكرم عليه السلام ولتستبين حقيقة شؤوناته المتفرّدة، ثم التفت من الخطاب إلى التكلّم عن ذاته فساق بالجناس (الوحيد/وحيد) ما يوضّح تفرّده هو الآخر في الهيام بممدوحه الفريد؛ ثم خرّج في البيت الثاني بالاستفهام عن مقتضاه الظاهر إلى معنى الإخبار عن كثرة مدحه لمخاطبه الكريم، فبدًا كأنّه يستعطفه، إذ هو الذي نظم الأشعار في مدحه عقودًا من الجوهر، ونثر بأوصافه ومن قياض بحر حسنه الدرر الحسان؛ وقد ضمت أبياته استعارةً تصريحيةً يجعله من حروف شعره عقدًا نضيدًا، ثم أردفت الاستعارة بالتشبيه البليغ في البيت الأخير فانتقل من توصيف شعره المدحي إلى نثره فجعل منه دُرًّا تتحلى بحلى جوده الأجياد.

وقد يتكلّم بلسان الرمز ويخاطب النبي الأكرم بصيغة الجمع مُعْظَمًا مُبْجَلًا دون أن يذكر اسمه، ويقصر أبو الهدى الكلام في أبياته على وصف صادق أحاسيسه ومشاعره، مما يترك في انطباع القارئ تصوّرًا لتلك المحبة العظيمة التي هدّرت أمواجه في محيط روح الشاعر، بعدما كساها حُلّةً بيانيةً ضافيةً من الاستعارات والكنایات والمحسنات البديعية -من جناس ناقص (فرّق/فرق) واشتقاقيّ (بصارعنا/يصرعنا)، وطباق التّضاد (جمع/فرق)-:

متى شمّ الحبّ لكم نسيماً	تلت عيناه آي المرسلات
عشقناكم ولا عتب علينا	فكلّ اللطف في تلك الصفات
لكم بقلوبنا ولّة ملحّ	أحد من السيوف الماضيات
يُصارعنا فيصرعنا بجمع	له فرق طوى فرق الشتات ⁴⁸³

⁴⁸³ د.ر.ب، 11.

وتكاد هذه الأبيات تجلي أمام مُتأملِها صورةً تحكي لَه حالَ العاشِقِ الصَّادِقِ الوالِه بأشرفِ المخلوقين عليه السلام، فنسيَمُ ذِكرىَ المحبِوبِ الأعظمِ عليه السلام إذا ما مرَّ شَدا عِطِرِهَ بالمحبِّ فإنَّ عينيه لتفيضان بسيلِ الدُّموعِ التي تَرَشَّحتْ من لَهِيبِ حَشَاشَةِ المُحِبِّ المُتَقَدِّةِ شَوْقًا، فاستعارَ لهاتين العينين -استعارةً مكنيَّةً- وصفَ التَّالي للقرآن الكريم، وكَتَى بسورةِ المُرسَلات عن استرسالِ سيلِ دموعِه شَوْقًا لمعشوقِه العظيم الذي لا يُلامُّ على فرطِ هُيامِه وعشقِه له فقد تجمَّعت أَشتاتُ الفُضائلِ ومحاسِنُ الشَّمائلِ في ذاتِه الشَّريفة، ثم يَلْتَفِتُ من تصويرِ الحالةِ الخارجِيَّةِ مُنتَقِلًا إلى تصويرِ الحالةِ الدَّاخِلِيَّةِ في أعماقِ نفسِه، وينتقي بِدِقَّةٍ الوصفَ الأعلى من العشق وهو "الولَه"،⁴⁸⁴ ثم يُضْفِي على هذا الولَه -بالاستعارة المكنيَّة- وصفَ المحاربِ المُصارِعِ الشَّدِيدِ البأسِ، ويسترسِلُ باستطرادٍ يصفُ فيه هذا الولَه بأنَّه ولَه مُتَقَدِّدٌ اشْتَدَّتْ سَورَتُه في سَويداءِ قلبِه حتى صارتَ أَحَدًا من السُّيوفِ البَواتِرِ، فكأنَّ ساحةَ قتالٍ قد قامَت في أرجاءِ هذا القلبِ فصَرَغَ الولَهُ كُلَّ ما سواه من الأوصافِ والمُشاعِرِ الأخرى، حتى صارَ قلبًا خالِصًا صِرْفًا للمحبِوبِ الأعظمِ عليه السلام، ومما يسترعي الانتباه في البيت الأخير اصطلاحًا "الجمع والفرق"، فلربما كان أبو الهُدَى يريدُ أن يُعبِّرَ عما يفعلُه هذا الولَه من تَهَيُّؤٍ لتلقِّي الإحسان والكرم الرِّبائيِّ للعبد الذي تَمَكَّنَ في قلبِه خالِصُ الحَبَّةِ، فيجتمعُ عليها بعد أن كان مُفترَقًا عنها بما سواها؛⁴⁸⁵ وهذه المعاني التي انطَوَى عليها البيت الأخير تُبرِّزُ أثرَ التَّصَوُّفِ في شعرِ الشَّاعِرِ بشكلٍ واضحٍ وجليٍّ. ولربما تَمَثَّلَت هذه الحَبَّةُ بلسانِ التَّفديَّةِ للحبيبِ الأكرمِ عليه السلام، بل تعدَّت تلك التَّفديَّةُ حاكِيَّةً أسمى ما وصَلَت إليه الحَبَّةُ الصَّادِقَةُ الخالِصَةُ عند الشَّاعِرِ، فَلَمَّا كان خالد بن الوليد رضي الله عنه قد قَذَفَ بروحِه وسطَ المعامِعِ كي يَسْتَرِدَّ مَغْفَرًا فيه شعراتٌ لرسولِ الله ﷺ فإنَّ أبا الهُدَى لَيَفدي بروحِه

⁴⁸⁴ شِدَّةُ الوجد إلى درجةٍ يكادُ يَفْقَدُ فيها الوالِهَ عقلَه لفرطِ مَحَبَّتِه، يُنظَرُ: الجوهري، "وله"، 2256/6.

⁴⁸⁵ يُنظَرُ: الجرجاني، التَّعريفات، 82.

عُبَارًا مَسَّ نَعْلَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِذْ يَرَاهُ بَعَيْنَيْهِ الْوَاهِتَيْنِ عُبَارًا شَرِيفًا فَاقَ التَّبَرَّ وَأَزْرَى بِالْأَلْمَاسِ وَالذَّرَّ عِنْدَ كُلِّ
مُحِبِّ وَالِهِ، فَرَّاحَ يَقُولُ:

روحِي فِدَاءُ تَرَابِ نَعْلِكَ إِنَّهُ شَرَفًا يَفُوقُ عَصَائِمَ الْأَلْمَاسِ
أَنَا مِنْ عِلَاقَاتِ الْوَرَى عَارٍ وَمِنْ أَمْرَاطٍ حُبِّكَ بِالْمَفَاخِرِ كَاسِي⁴⁸⁶

وَفِي الْبَيْتِ الثَّانِي أَوْضَحَ أَبُو الْهَدَى حَالَهُ فِي الْمَحَبَّةِ فَجَعَلَ مِنَ الْعِلَاقَاتِ الَّتِي تَرِبُ بَيْنَ الْخَلَائِقِ ثِيَابًا
تُكْسَى، لَكِنَّهُ لَمْ يَشَأْ لِدَايَةِ أَنْ تَكْتَسِيَ بِشْيًى مِنْ تِلْكَ الثِّيَابِ، فَاسْتَعَارَ -اسْتِعَارَةً تَصْرِيحِيَّةً- لِمَحَبَّتِهِ
لِلنَّبِيِّ الْأَكْرَمِ وَصَفَ الْكِسْوَةَ، فَأَبَانَ عَنْ كَوْنِهِ عَارٍ مِمَّا سِوَى تِلْكَ الْكِسْوَةِ الْفَخْرِيَّةِ الْمُرْتَبِطَةِ بِالْجَنَابِ
الْأَفْخَمِ النَّبَوِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَمِنَ الْوُجُوهِ الَّتِي بَرَزَتْ فِيهَا جَلِيلَةٌ عَاطِفَةُ الْمَحَبَّةِ، مَا تَكَلَّمَ بِهِ أَبُو الْهَدَى بِلِسَانِ جَمِيعِ الْمُحِبِّينَ
لِلنَّبِيِّ الْمُصْطَفَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَجَعَلَ أَرْوَاحَ الْمُحِبِّينَ بِفَطَرَتِهَا يَتِمَلَّكُهَا الْحَنِينَ وَيَسُوقُهَا سَائِقُ الشَّوْقِ إِلَى هَذَا
الْحَبِيبِ وَلَا يَدَعُ فَهُوَ حُجَّةُ الدِّيَانِ وَمِثَالُ الْقُرْآنِ، فَكَيْفَ لِلْقُلُوبِ وَالْأَرْوَاحِ أَلَّا تَهَيِّمَ بِذِكْرِهِ وَتَتَنَعَّشَ
بِجَمِيلِ أَوْصَافِهِ:

حَبِيبٌ لَهُ الْأَرْوَاحُ حَنَّتْ بِكُونِهَا فَلَمْ تَسْتَطِعْ عَنْ ذِكْرِهِ أَبَدًا صَبْرًا
كَأَنَّ الْفَضَاءَ الْبَحْتَ وَالْأَرْضَ وَالسَّمَاءَ صَحَافٌ لَهُ وَالْخَلْقُ وَجَدًا لَهَا تَقَرًّا⁴⁸⁷

وَفِي الْبَيْتِ الثَّانِي يُلْعِقُ أَبُو الْهَدَى الشَّأْوَ الْقَصِيَّ فِي تَصْوِيرِهِ الْبَدِيعِ لَشُؤُونَاتِ الْمُؤَلِّهِينَ بِالْجَنَابِ النَّبَوِيِّ
الَّذِينَ بَلَّغُوا أَسْمَى رُتَبِ الصِّدْقِ فِي مَحَبَّةِ الْحَبِيبِ الْأَكْرَمِ، فَإِذَا كَانَ عَاشِقٌ لَيْلَاهُ يَقُولُ:

⁴⁸⁶ د.م.ش، 128؛ والأمرات والمروط جمعٌ واحدٌ مِرْطٌ وهي مِلْحَفَةٌ يُؤْتَرُّ بِهَا، يُنْظَرُ: ابْنُ دُرَيْدٍ، "رَطَم"، 759/2.

⁴⁸⁷ د.ر.ب، 22.

أُرِيدُ لِأَنْسَى ذِكْرَهَا فَكَأَنَّمَا تَمَثَّلُ لِي لَيْلَى بِكُلِّ سَبِيلٍ⁴⁸⁸

حيثُ خيالُ لَيْلَى لا يَكادُ يَفَارِقُ عَيْنِي مُحِبِّهَا وَكَأَنَّهُ يَرَاهَا أَيْنَمَا تَوَجَّهَ فِي كُلِّ الدُّرُوبِ، فَهَلْ سَتَكُونُ حَالَةُ الْمُحِبِّينَ الصَّادِقِينَ بِأَقْلٍ مِنْ هَذَا الْعَاشِقِ؟!، بَلْ إِنَّهُمْ يَرَوْنَ الْحَبِيبَ وَأَنْوَارَ رِسَالَتِهِ تَمَلُّهُ الْأَكْوَانُ، حَتَّى لَيْتَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاءَ وَمَا بَيْنَهُمَا مَا هِيَ إِلَّا صَحَائِفُ يَتَمَلَّى بِهَا الْمُحِبُّونَ فَيَقْرَأُونَ مِنْهَا سَطُورًا لَا يَسُوعُ شَرْحَهَا إِلَّا دَمُوعُ الشَّوْقِ وَالْحُبِّ وَالْوَلَهِ الْمُنْحَدِرَةِ مِنْ عِيُونِهِمْ. وَبِهَذَا يَكُونُ أَبُو الْهَدَى فِي مَدْحِهِ جَمَعَ بَيْنَ الْكَلَامِ عَلَى حَالَتِهِ الْعَاطِفِيَّةِ وَصَدَقِ مُحِبَّتِهِ لِلنَّبِيِّ الْأَكْرَمِ، وَالْكَلَامِ عَلَى أَحْوَالِ غَيْرِهِ مِنَ الْعَاشِقِينَ الْمُحِبِّينَ لِلْجَنَابِ النَّبَوِيِّ.

وَبِنَاءً عَلَى كُلِّ مَا سَبَقَ يُمْكِنُ الْقَوْلُ إِنَّ الْمَحْوَرِ الْأَوَّلَ انْبَنَى عَلَى جُزْأَيْنِ، أَحَدُهُمَا تَضَمَّنَ الْمَدْحَ الْعَامَّ لِلْجَنَابِ النَّبَوِيِّ عِبْرَ إِيرَادِ الْقِيَمِ الْمَدْحِيَّةِ التَّقْلِيدِيَّةِ - الْكَرَمِ، الشَّجَاعَةِ، الْعَقْلِ، الْحَيَاءِ، الْعِزَمِ، طَهَارَةِ الْمُحْتَدِ، الرَّأْفَةِ، الْعَدَالَةِ، وَغَيْرِهَا مِنْ حَمِيدِ الصِّفَاتِ وَالْفَضَائِلِ - مَعَ الْحَرَصِ عَلَى طَبْعِهَا بِطَابَعِ الْخُصُوصِيَّةِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي مَيَّزَتْهَا عَنْ غَيْرِهَا مِنَ الْقِيَمِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَرَبَطَتْهَا بِالْعَطَاءِ الْإِلَهِيِّ الْوَهْبِيِّ، وَتَحَلَّلَ هَذَا الْمَحْوَرُ مِنَ الْمَدِيحِ الْعَامِّ قِطْعَةً وَاحِدَةً فِي مَدْحِ الصِّفَاتِ الْخَلْقِيَّةِ تَكَادُ تَكُونُ مِنَ الْوَصْفِ الْمَنْظُومِ أَقْرَبَ مِنْهَا إِلَى الْمَدْحِ، وَأَمَّا الْجُزْءُ الثَّانِي مِنَ الْمَحْوَرِ فَقَدْ ظَهَرَ فِيهِ كَيْفَ كَانَ أَبُو الْهَدَى يَحَاوِلُ فِيهِ شَرْحَ تَوْقَدِ عَاطِفَةِ الْحُبَّةِ الْمَشْتَعِلَةِ بَيْنَ جَوَانِحِهِ وَمَا اكْتَنَفَ قَلْبُهُ مِنْ حَالَةِ الْوَلَهِ بِالنَّبِيِّ الْكَرِيمِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ب محوَر التَّشَوُّقِ وَالشَّكْوَى وَالتَّشَفُّعِ

وَتَرْجِعُ جَذْوُهُ إِلَى الْوَضْعِ الْعَامِّ الْمَحِيطِ بِالشَّاعِرِ مِنْ جَمِيعِ النَّوَاحِي، فَلَوْ نُظِرَ إِلَيْهِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ لِأَبْصَرَتُهُ الْعْيُونَ مُلْمَأً عَلَى سَاحِلِ الْاِغْتِرَابِ بَعِيدًا عَنِ الْأَهْلِ وَالْوَطَنِ يَتَجَرَّعُ غُصَصَ

⁴⁸⁸ كُنَيْزٌ بَنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْخَزَاعِي، دِيوَانُ كُنَيْزٍ عَزَّةً، تَحْقِيقُ: إِحْسَانُ عَبَّاسٍ، (بِירוَت: دَارُ الْمَعْرِفَةِ، 1391هـ/1971م)، 108؛ وَالْبَيْتُ يُنْسَبُ لِلْمَتَوَكِّلِ

الْبَيْهَقِيِّ، يُنْظَرُ: بِحْيُ الْجُبُورِيِّ، شَعْرُ الْمَتَوَكِّلِ الْبَيْهَقِيِّ (بَغْدَاد: مَكْتَبَةُ الْأَنْدَلُسِ، 1971م)، 273.

الآلام من فراق أبويه اللذين غادرا عالم الدنيا قبل أن يجتمع لهما به شمل، ولم ترأف به عيون الحسد فسوّرتُه بأسوارٍ من الهموم، وأمّا الحقد فقد سلّقه أهله بالسّنة حدادٍ ما فتى أبو الهدى يُشيرُ في أشعاره إلى فريتها وطيش أصحابها؛ ولم تكن النّاحية السّياسيّة بأحسن من أختها فقد مرّ أنّه كان بوسطٍ معامعها جنباً إلى جنبٍ مع السّلطان عبد الحميد الثّاني،⁴⁸⁹ وكان يرى بأنّ عينه الأيدي وهي تُمسكُ المعاول هادِمةً الدّولة العثمانيّة -آخر معاقل المسلمين بزعمه- التي أهلك جسدّها الخطر الجاثم عليها من أعداء الدّاخل والخارج، إلى جانب ما رافق ذلك من تدهورٍ للأوضاع الاقتصاديّة في عموم أرجاء الدّولة بسبب ما تمرّ به من أحداثٍ جسام، مما جعل النّاحية النّفسيّة عند أبي الهدى تفقد شيئاً من الهدوء الذي يتمتّع به من لم يبصر حقيقة ما يجري كما كان يُبصرها هو عن كتّابٍ في الباب العالي إلى جانب السّلطان.

ويرى بعضُ النّقاد -كعمر موسى باشا- أنّ هذا الاضطراب للأحوال السّياسيّة والاجتماعيّة والنّفسيّة سببٌ رئيسٌ في تحريك قرائح الشعراء وتشبيب عواطفهم الدّينيّة وجعلهم يفرعون إلى المديح النبويّ، وعلى وجه الخصوص ما هرعوا إليه في مديحهم من التّشعُّع برسول الله وكأنّهم يشكون إليه ما حلّ بأمّته من ترديّ الأحوال وهجوم الأهل،⁴⁹⁰ وما حفّل به النتاج الأدبيّ الأندلسيّ يمكن أن يكون شاهداً على هذا الرّأي،⁴⁹¹ ويُضافُ إلى جانب التّشعُّع والشّكوى ما صاحبهما من التّشوّق إلى ديار الحبيب وتميّي زيارتها بعد أن حالت القفار والبحار والأهوال دونها، حتى اشتهر بعضهم -كأبي القاسم بن الجدّ (ت. 515هـ/1121م) ولسان الدّين بن الخطيب (ت. 776هـ/1374م)- بإرسال الرّسائل إلى

⁴⁸⁹ يُنظر: ص 27-28.

⁴⁹⁰ يُنظر: باشا، الأدب العثمانيّ، 408؛ سالم، المدايح، 22؛ ضيف، تاريخ الأدب، 409/5.

⁴⁹¹ يُنظر: ضيف، تاريخ الأدب، 370/8.

الحجرة النبوية، معيّنين عن امتلاء قلوبهم بالشوق واستجدائهم للشفاعة من النبي الكريم؛⁴⁹² ولتضافر كل تلك العوامل التي أشار إليها النقاد وانطباقها على حال أبي الهدي فمن الممكن أن يُعتمد القول: إنها السبب وراء بروز هذا المحور في مدحه النبوية.

ويبدو أن بُعد المزار بين أبي الهدي وديار الحبيب لم يكن وحده هو المحرك لدواعي أشجانه وأشواقه بل إنَّ الرجل لم يتأتَّ له أن يحجَّ أو يزور تلك البقاع طوال حياته، ولذلك فلطالما كانت أشواقه تهمس في أذنيه حديثاً ملؤه الأمل بالوصول إلى ذِيَاكَ الحِمَى والاحتفال برؤية ربوع الحبيب المصطفى عليه السلام لتبرّد جمره الأشواق المستعرة في خافقه إلى تلك الديار الطاهرة؛ فمن هذه الشاكلة قوله مُشَبِّهاً تشبيهاً بليغاً - بإهماله لأداة التشبيه ووجه الشبه بين العنصرين (الشفاء) - تُراب أرض طيبة بكحل الإثم الذي يُداوي عينيه المشتافتين، ثم شفع هذا التشبيه البليغ بآخر مثله فشبه قلبه بالعين الناضرة المرتقبة برق أرض الحبيب المتألئ، ليجعل من هذا التشبيه دلالة تؤكد هذا الشوق المُحرِّق والتوق المُقلق إلى تلك الديار:

آه على تقيل أعتابه فترجها لمقلتي إثم
لبارق اللّماع من طيبة مُقلّة قلبي دائماً ترصد
يعدني الظنُّ بقربي لها متى أراه يُنجز الموعد⁴⁹³

وكأنه في البيت الأخير قد استبطاً تحقيق الأمل بالزيارة فخرج بالاستفهام عن حقيقته ليُعبر عن ذلك الاستبطاء، فقد كان أبو الهدي في تشوّق دائم وتلهّف عارٍ إلى ربوع الحجاز، حتى لكأنه بقلبه وقد

⁴⁹² يُنظر: ضيف، تاريخ الأدب، 422/8، 480؛ شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت: دار صادر، 1388هـ/1968م)، 355/6، 361؛ محمد بن الأبار، الحلة السيرة، تحقيق: حسين مؤنس، (القاهرة: الشركة العربية، 1963م)، 284/2.

⁴⁹³ د.ر.ت، 97.

ارتحل بعواطفه ومشاعره نائياً عنه إلى الأبد، مُرْتَحِلاً إلى تلك الحياض الطاهرة، فيصف حاليته في الغربة وما اكتنفه في ربوعها من أشواقٍ إلى أرض الحبيب الأكرم، مُضَمِّناً بيتيه التَّجْنِيسَ الاشتقائيَّ (فارقه/فروق) وطباق التَّنَافُض (حقيقة/مجازي):

لي فؤادٌ فارقه بفروق⁴⁹⁴ فسرى طائرًا لأرض الحجاز

غاب عني حقيقةً ولعمري قمتُ بعده بقلبٍ مجازي⁴⁹⁵

فقلبه مُعلّقٌ أبدًا بتلك الرياض الحجازية وهي كنايةٌ مُنبئةٌ عن عِظَمِ مُشْرِفِ تلك الربوع العامرة والرياض الطاهرة الممدوح الذي حلَّ فيها وهو الحبيب الأكرم عليه السلام، وصوّر حالة اضطرام الشوق في مُهجته بإسناده فعل السرى والغياب إلى القلب - من طريق المجاز العقلي -، بعد أن جعل هذا القلب - بالتشبيه البليغ - طائرًا أخذَه الحنينُ مُغادرًا إستانبول إلى الديار الحجازية، أمّا القلب الذي في صدره فلم يبق فيه من أثر الحياة إلا تلك التنبضات التي تجعل منه شكلاً بلا معنى أو مجازاً بلا حقيقة؛ وهو بهذين البيتين يقترب مما قاله أبو فراس الحمداني (ت. 357هـ/967م):

إنَّ في الأسرِ لَصَبًا دَمْعُهُ في الحَدِّ صَبٌ

هُوَ في الرُّومِ مُقِيمٌ وَلَهُ في الشَّامِ قَلْبٌ⁴⁹⁶

فكلاهما نأياً عن حلب الشام، ورمت بهما أيّام البعاد في أرض الرُّوم، وكلاهما قيّدته الظروف ومنعته من أن يقفل عائداً إلى بقاء أحبّته، فغدّت قوالبُ جُسومهم في أرض اغترابهم، وأمّا قلوبهم فقد غادرتهم مُرْتَحِلَةً إلى مواطنٍ أحبّتهم ومرايعها.

⁴⁹⁴ لَقَّبَ من ألقاب مدينة إستانبول، يُنظر: ياقوت، البلدان، 4/258.

⁴⁹⁵ د.م.ش، 127.

⁴⁹⁶ أبو فراس الحارث بن سعيد الحمداني، ديوان أبي فراس الحمداني، تحقيق: سامي الدّهان، (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، 1945م)، 25/2.

وتعودُ المعاني الصُوفيّة لتبرز مرّةً أخرى فتُلمَح في ثنايا التَّشَوُّق عند أبي الهُدَى، فهو في موضعٍ آخر جعل الارتحالَ القلبيّ إلى طيّبة وربوعها سبباً في خلوّ القلبِ عن "السَّوى" وهو في قاموس التَّصَوُّفِ كلُّ ما سوى الله،⁴⁹⁷ فكأنّه بقلبه وقد تَطَهَّرَ عن الفانيات بهذا الارتحال لمحبة الله ورسوله، وهو يُقسِمُ على هذا باقتباسٍ أتى به من قوله برك تعالى: "والتَّجَمُّ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى"،⁴⁹⁸ فيقول:

والتَّجَمُّ من سَمَكٍ⁴⁹⁹ الغيوبِ إِذَا هَوَى ما ضَلَّ قلبي في هَوَاكَ وما غَوَى
طَارَتْ بِهِ لِبِقَاعِ طَيِّبَةٍ لَهْفَةً قَطَعَتْهُ فِي كُلِّ الشُّؤُونِ عَنِ السَّوَى⁵⁰⁰

ولربما هاجت به الأشواق فعَصَفَتْ بذهنِهِ، وتوقَّدت مشاعرُ التَّلهُّفِ فألْقَتْ به عند تلك الاعتبار، فراح يتخيَّلُ حالَّتُهُ وقد حطَّتْ به عصا التَّسيار في تلك الرِّحاب الطَّاهِرة، فانكَبَّ لِيُقْبِلَ ثَرَى تلكم الأرض الطَّيِّبَةِ، فها هو ذا وقد تراخمت عليه سيول المشاعرِ الفَيَّاضَةِ فتارةً يضحك سروراً وتارةً أخرى يبكي شاكياً، ويبالغُ في الغلَوِّ واصفاً بكاءَهُ فينفخ الرُّوح في الجُمادِ جاعلاً منه يبكي رثاءً له ورقةً عليه، فراح أبو الهُدَى يصيحُ وجداً مخاطباً النَّبِيَّ الأكرم عليه السَّلام، بقطعةٍ زخرت بالخللِ البيانيَّة، حيثُ استعار -استعارةً مكنيَّةً- للجُمادِ وصف البُكاء، وكَتَبَ عن عَزِيمَتِهِ بعنانِ الفَرَسِ ليشرَحَ بهذه الكنايةِ حال عَزِيمَتِهِ التي أقعدها الوزرُ وسَدَّ عليها انطلاقَها في ميادين الحياة، أمَّا العناء فقد أسندَ إليه فعل الاعتراض والقطع -من طريق المجاز العقليّ-، وإنَّ هذا الإسنادَ ليُجْعَل المُمْتَأَمِلُ لكلماتِ الشَّاعرِ يُلاحِظُ ما أرادَ إبرازَهُ من الأثرِ القويِّ للعناءِ الذي كانَ به لَمَّا امتطى فَرَسَ عَزِيمَتِهِ، فجعلَهُ يقطعُ عِنَانَ

⁴⁹⁷ يُنظر: المناوي، التَّعاريف، 199.

⁴⁹⁸ النَّجم، 1/53.

⁴⁹⁹ السَّقْفُ العالي، يُنظر: الجوهرى، "سمك"، 1592/4.

⁵⁰⁰ د.م.ش، 204.

هذه الفرس ويعترضها، وكلُّ ذلك مُشعرٌ بثقلٍ وطأةِ العناء الذي حلَّ بالشاعر فأثقله عن المسيرِ إلى ديارٍ ممدوحه الحبيب الأكرم عليه السلام؛ وليحسُن نغم هذه القطعة في الأسماع فقد أتى بالجناس الاشتقاقي (عينائي/عنّ/العنان/عنائي، يكي/باكيًا/بكائي)، وطباق التناقض (باكيًا/ضاحكًا)، وأسلوب الترادف⁵⁰¹ (ولو عا/ولوها) المؤيد لما يريد شرحه من مشاعر الحب والشوق والحنين، فقال:

ليت شعري والحادثات خيالٌ هل ترى قطُّ يثرِبًا عينائي
وأراني مُمرِّغًا حرَّ حدي حول أعتاب دارك الفيحاء
باكيًا ضاحكًا ولوعًا ولوها ذا حُشوعٍ يُكي الجماد بكائي
وأناديك يا حبيبي وروحي وبهائي وبهجتي وضيائي
أنا عبدٌ قد أثقلتني دنوبي ولوزري عنّ العنان عنائي⁵⁰²

وفي البيتين الأخيرين يتضح لحوق أبي الهدى بركب الشعراء الذين أبرزوا في مدائحهم الشكوى وعرضوا الحالة المتردّية التي حلّت بساحتهم، فأنتمجوا لونًا أدبيًا خاصًا يزهو بين أغراض الشعر العربي عمومًا والمديح النبوي خصوصًا بأحرّ اللواعج الصادقة والمشاعر الجياشة بالحب والحنين،⁵⁰³ فأبو الهدى هنا يشكو إلى النبيّ ذنوبه وأوزاره التي أثقلت كاهله فتعكّرت حالته المعنوية الروحية، وربما عرض في موضع آخر حالته النفسية التي أضنت بقلبه الحزون، شاكيًا ما أوقده الحساد في قلبه من نارٍ أججها الاغتراب في بلاد الرّوم، وزاد من أوارها تذكّره لأبيه الشيخ المسنّ الملتاع من فراق ولده، فراح يشكو حالته إلى الرّسول، مُعتنيًا بالإطناب في شرح انكساره عبر تكرار لفظ (الانكسار)، فقال:

⁵⁰¹ يُنظر: سيبويه، الكتاب، 1/24؛ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، المزهرة في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: فؤاد علي منصور،

(بيروت: دار الكتب العلمية، 1418هـ/1998م)، 1/316.

⁵⁰² د.ر.ت، 9؛ وعنّ بمعنى اعتراض، يُنظر: الجوهري، "عنن"، 6/2166.

⁵⁰³ يُنظر: بكرى شيخ أمين، تحليل بلاغيّ وجماليّ في نصوص أدبيّة (بيروت: دار العلم للملايين، 2004م)، 100.

وَحَسَادِي عَلَيَّ عَدَّوَا بُزُورٍ وَطَاشُوا يَا ابْنَ أَمْنَةٍ وَحَارُوا
وما لي في بلادِ الرُّومِ خِلٌّ يُوَاسِينِي إِذَا صَارَ الْمَصَارُ
وَجُنَحِي آهٍ وَالْهَفْيِ كَسِيرٌ وَيَجْبِرُنِي إِلَيْكَ الْإِنْكَسَارُ
أَبُ لِي فِي الْحِمَى شَيْخٌ كَبِيرٌ عَرَاهُ لِفُرْقَتِي ثُمَّ انْكَسَارُ⁵⁰⁴

ففي شكواه التي بَنَّها ليشرح حالته استعار -استعارةً مكنيةً- لذاته وصف الطائر الذي هاض جناحه تعدي الحساد وبغيهم عليه وطيشهم، وهو ما حرص دائماً على تكراره من أوصافهم، فهم مخرومو المروءة، يرى أنَّ الموت يهونُ أمام الانحطاطِ إلى حضيضهم، وبحرصه على ذكرهم في شكواه أكثر من مرة يمكن أن يُلمَح الأسى والعنا الذي عاناه منهم، حيث يقول شاكياً في موضع آخر، مُكنياً بالسَّهام عن افتراءات عُداته وحاسديه:

وَأَعْدَاءٌ وَلَوْ كَانُوا رَجَالًا لَلَّذَإِلَيَّ إِذْ تُرْمَى السِّهَامُ
ولكن من طَعَامٍ⁵⁰⁵ النَّاسِ رُدُّوا جَوَابُ لِهِمْ يَهُونُ لَهُ الْحِمَامُ
أَبَا الزَّهْرَاءِ يَا شَرَفَ الْبَرَايَا وَيَا مَنْ شَأْنُ دَوْلَتِهِ الدَّوَامُ⁵⁰⁶

وتنجلي شكواه بشكل أوضح في موضع آخر فتبدو فائضةً بمعاني الاغتراب حاكيةً ما جرَّت عليه غربته من الوحدة والافتقار، حيث لا صديق صدوق، ولا قريب ولا نسيب، ولا مُعين ولا معين يستند إليه بمالٍ أو جاهٍ، وقد علَّت الأصوات اللاذعة من فقهه الشامتين حتى كدَّرتَه وكلَّ مُحِبٍّ لَهُ، فراح يبتُّ شكواه أثناء مدحه للنبي الأكرم، قائلاً:

لَقَدْ شِمَّتِ الْأَعْدَا بِمَا حَرَّكَ الْقَضَا عَلَيَّ مِنَ الْبَلَوَى وَكَدَّرَ خُلَايَا

⁵⁰⁴ د.م.ش، 105.

⁵⁰⁵ أرذال النَّاسِ وأوغادهم؛ ابن منظور: "طعم"، 368/12.

⁵⁰⁶ د.ر.ت، 221.

فلا نصرهً بالمال حتى تشدَّ لي عصابةً ظهري أو تشيِّدَ أركاني
ولا عصبهً من آل عمِّي قويَّةً أقولُ رجائي أو أعانُ بإخواني
ولا مخلصًا زينَ الصِّداقةَ صادقًا صديقًا يُعاني سقمَ كربى وأشجاني⁵⁰⁷

وإنَّ الواقِفَ إزاءَ هذه الأبيات وما سبقها من شكوى أبي الهُدَى ليشعرُ بأنَّها شكوى غريبٍ بعيدٍ
فقدَّ يدًا حانيةً تربتُ على ظهره المثقلَ بالحمول، وقد مرَّقت كبدهُ خناجرُ الحُسَّادِ والحاقدِين، فراح
يقذفُ بأحزانه في بحور الشَّعر، وكأنَّه يتكلَّمُ مع ذاتٍ إنسانِيَّةٍ باتت تستمعُ إليه بأذنٍ صاغِيَةٍ وترأفٍ
بجاله، وقد زاد من تمكُّنِ هذا الشُّعورِ لديه وأدكت من توقُّدِ عواطفه الصَّادِقةِ وألهبت مشاعره وشائجِ
النِّسبةِ الحُسينِيَّةِ التي تربطه بالنَّبِيِّ الكريم عليه السَّلام التي طالما لهجَ بها في شكاويه، كقوله:

إليك عَلت بسِلْسِلَتِي جُودًا يَبْضَعُكَ الحَسِينِ لها انتِظامٌ⁵⁰⁸

ومنها شكواه واصفًا لحالِ غُرْبَتِهِ وعائِلَتِهِ في بلاد الرُّوم -إستانبول-:

وحولي عَيْلَةٌ وصغارُ آلٍ لهم نَسَبٌ إليك به الفَخارُ

عسى بجليلِ قدرِكَ عندَ ربِّي أرى فرَجَ الصَّبَاحِ له ازدهارٌ⁵⁰⁹

وبذلك يكونُ أبو الهُدَى قد مَيَّزَ مدائحَهُ النُّبُوَّةَ بأنَّ انتقلَ بها من الطَّابعِ التَّقليديِّ العامِّ إلى الطَّابعِ
الدَّائِي، الذي يبرزُ جليًّا في هذا المحور من خلالِ مجاوِزَتِهِ من المديحِ إلى الكلامِ عن ذاته وغُرْبَتِهِ والوحدةِ
التي كان يمرُّ بها، والفقر الذي عاشَ فيه، ويُضافُ إلى ذلك كلِّه ما أشارَ إليه من مُعاناته من تطاولِ
حُسَّادِهِ عليه ورميهم له بسهامِ الافتراءات. وإلى جانبِ هذا التَّشوُّقِ والشَّكوى كانت تبرزُ -كما في
آخر بيتٍ- معاني (التَّشْفُعِ) إلى الله بجاه النَّبِيِّ الكريم والتَّوسُّلِ به في انكشافِ ليلِ الكرب، ومن

⁵⁰⁷ د.ف.م، 65.

⁵⁰⁸ د.ر.ت، 221.

⁵⁰⁹ د.م.ش، 105.

الأشكال التي برزَ فيها التَّشَفُّعُ عند أبي الهُدَى ما كان يستحضرُهُ في أبياتِهِ من موقفِ الحشرِ وأهوالِهِ
ثم ينثني بعدها ليطلبَ الشَّفاعةَ من الرِّسولِ الكريمِ، كقولِهِ مخاطبًا له، ومُمكنًا عن تلك الشَّفاعةِ بذيلِ
العَرِّ الذي يَتَشَبَّثُ به الخلائقُ:

يَتَشَبَّثُونَ بِذَيْلِ عَرِّكَ كُلُّهُمْ يَوْمَ اللَّقَاءِ كَلِيمُهُمْ وَخَلِيلُ
وَتَقُولُ فِي ذَاكَ الْمَقَامِ (أنا لها) والخلقُ تحت يدِ القضاءِ ذُهولُ
فَيَقَالُ مِنْ بَابِ الْمُهَيِّمِ لِلرَّيِّ هَذَا قَوْلُ عِنْدَنَا وَفَعُولُ⁵¹⁰

وهو بهذه الأبيات مُقتَبَسٌ للصَّوَرَةِ الْوَارِدَةِ فِي الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ مِنْ أَنَّ النَّاسَ يَهْرَعُونَ يَوْمَ الْحَشْرِ إِلَى
أُولَى الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ لِيَشْفَعُوا لَهُمْ فَلَا يَجِدُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَهُمْ، فعندئذٍ يقولُ المصطفى "أنا لها"، وينادي
عليه رَبُّهُ: "ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعُ لَكَ، وَسَلِّ ثُغَطَ، وَاشْفَعْ تُشَفِّعْ" فيقولُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "أُمِّي
أُمِّي"،⁵¹¹ فهذه هي الشَّفاعةُ التي طَلَبَهَا مِنْ قَبْلِ الصَّحَابِيِّ سَوَادُ بْنُ قَارِبٍ (ت. 15هـ/636م) رضي الله
عنه في شعرِهِ الذي قال فيه مُخاطبًا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

فَكُنْ لِي شَفِيعًا يَوْمَ لَا ذُو شَفَاعَةٍ بِمُغْنٍ فَتِيلاً عَنْ سَوَادِ بْنِ قَارِبٍ⁵¹²
وعلى هذا السَّنَنِ انْتَهَى أَبُو الْهُدَى بَعْدَ أَنْ سَافَرَ بِكَلِمَاتِهِ إِلَى تِلْكَ الْعَرَصَاتِ لِيَطْلُبَ تِلْكَ الشَّفَاعَةَ
مُخاطبًا الرَّسُولَ الْكَرِيمَ، مُسْتَعِملاً الْجِنَاسَ الْاِشْتِقَاقِيَّ (حملها/محمول) والتَّرَادُفَ (بكاء/عويل):

هَا أَنْتَ نُصْرَةُ عَاجِزٍ مِثْلِي أَتَا لَكَ لَهُ بَكَاءٌ تَلْهُفُ وَعَوِيلُ
وَأَنَا أَقْلُ ضَعْفٍ أُمَّتِكَ الَّتِي هِيَ فِي ظِلَالِكَ حَمْلُهَا مَحْمُولُ⁵¹³

⁵¹⁰ د.ف.م، 40.

⁵¹¹ البخاري، "التَّوْحِيدُ"، 36 (رقم 7510).

⁵¹² يوسف بن عبد الله ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي البجاوي، (بيروت: دار الجيل، 1412هـ/1992م)، 675/2.

⁵¹³ د.ف.م، 41.

وإذا كان هذا المحور قد انبنى على ثلاثة أجزاء فإنَّ الرابطة الجامع الذي يظهر في كلِّ منها ليس فقط دافع الحنين والمحبة التي تفيض بها الكلمات، وإنما ذلك التذلل الذي لم تخل منه جميع أبيات المحور، وما رافقه من ألفاظ تدلُّ عليه من ضعف وبكاء وعجز وانكسار.

ج محور المعجزات

ومما دارت عليه محاور مدح أبي الهدي الكلام على (المعجزات) التي أئد الله بها نبيّه، حيث يرى المتأمل في مدائحه تناثراً بين ثنايا أبياتها لقبس من أخبار المعجزات البينات التي حفلت كتب السير بنشر عبيرها، ولعلَّ أبرز مُعجزة نالت القسط الوافر في مدائحه هي معجزة الإسراء والمعراج، ولا غرو فقد نالت هذه المعجزة النصيب الأوفى لدى أرباب فنِّ المديح النبوي،⁵¹⁴ ولربما رجَّع هذا الاهتمام إلى أنَّها أشهر المعجزات وأظهر البراهين حيث أُعطي الرسول الكريم في ليلة الإسراء ما لا يُحيط به الحد،⁵¹⁵ حتى رجَّح ابن تيمية (ت. 728هـ/1328م) تفضيل ليلة الإسراء والمعراج-بالنسبة للنبي عليه السلام- على ليلة القدر.⁵¹⁶ وقد برع أبو الهدي في تصوير تلك الليلة ووصف سحاح الجود الإلهي الذي أكرم فيه رسول الله لما رقا السموات الطباق، وشاهد ما تضيق عنه الأوراق، فكلت عيون الزمان عن أن تبصر مُنتهى شرف غلاه ومقامه السامي ذراه، فقال:

أنت الذي لما رُفعت إلى السما بركابك العالي مشى جبريل
أنت الذي عن مُنتهى عليك طر ف الدهر في كلِّ الشؤون كليل

⁵¹⁴ ويكفي أن يُعلم إفراد البوصري لها فصلاً خاصاً بما في بُردته المشهورة، ثم انسحب ذلك على كلِّ من عارضها أو زاد عليها مُشطراً أو مُخسّساً أو مُستبغاً.

⁵¹⁵ يُنظر: أحمد بن حجر الهيتمي، شرح متن القصيدة الممزجة للبوصري (القاهرة: المطبعة الخيرية، 1307هـ/1889م)، 79.

⁵¹⁶ يُنظر: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، الفتاوى الكبرى، تحقيق: محمد عطا - مصطفى عطا، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1987م)، 477/2.

أَنْتَ الَّذِي رُفِعَتْ لَكَ الرَّايَاتُ فِي الْـ مَلَكُوتِ إِذْ خِيلُ الْقَبُولِ تَجُولُ
أَنْتَ الَّذِي صُفِّتَ لَكَ الْأَمَلَاكُ فِي الْـ عَلِيَا وَكُلُّ هَيْبَةٍ مَذْهُولٌ⁵¹⁷

والأبيات تجعل من حادثة المعراج التي تناقلتها كُتُب السِّير مشهدًا تنجلي أحداثُ ليله المضىء أمام العيون، فهذا هو النَّبِيُّ الكريم بمركبه السَّامي ووراءه جبريل يخترق ملكوت السَّماء ويقرّع بابها فتفتح له الملائكة التي اصطفت بوقارٍ مُستبشرةً بقدوم هذا النَّبِيِّ العظيم، وكأنَّ لهذا الاحتفاء الملكوتيّ أعلامًا نُصِبَتْ فرحًا بقدوم سيِّد أهل القبول عند ربِّ العالمين؛ ولكي يتأتَّى للكلمات أن تُعرب عن باذخ مجدِّ هذا الإكرام فقد أتى أبو الهُدَى مُستعيرًا للدَّهر -استعارةً مكنيَّةً- عينا كَلَّتْ عن أن تُدرِكَ غاية المجدِّ التي وَصَلَ إليها ممدوحه الأعظم عليه السَّلام، أمَّا القبول الذي ناله فقد شَبَّهه تشبيهاً بليغاً -بإهماله لأداة التَّشبيه ووجه الشَّبه (الجولان والانتشار)- بحافل الخيل المُنحدرة في ساحات السَّماء تؤذُن بوفوده؛ ولأنَّ المقام مقام بسطٍ لمَدح الحبيب الأكرم فقد حَسُنَ الإتيانُ بأسلوبِ الإطنابِ عبر التَّكرار لضمير الخطاب في كلِّ بيتٍ، فأتى به مُردِّفاً لكلِّ تفصيلاً جديداً من المديح، ليحلَّو في آذان السَّامعين، ولما لهذا التَّكرير من أَمَارَاتٍ تدلُّ على احتدام العاطفة الصَّادقة في أعماقِ الشَّاعر.

ومن المعراج إلى الإسراء ينتقل أبو الهُدَى مادِّحاً ما تضافرت عليه الرِّوايات⁵¹⁸ من تقدُّم النَّبِيِّ الأكرم على جميع الأنبياء والمرسلين، لمَّا صَلَّى بهم إماماً في بيت المقدس ليلة الإسراء، فَلَكَّأَنَّ مقام النبوة والرِّسالة تمثَّلَ ببهاءٍ واسعةٍ امتلأت أرجاؤها بقوافل الأنبياء المرسلين، فقام في جمعهم المصطفى إماماً مُتَفَرِّداً كأنَّه القائدُ لجحافلهم أجمعين؛ حيثُ يقول:

⁵¹⁷ د.ف.م، 39.

⁵¹⁸ يُنظر: محمد بن يوسف الشَّامي، سبيل الهُدَى والرشاد في سيرة خير العباد، تحقيق: عادل عبد الموجود - علي معوض، (بيروت: دار الكتب العلميَّة، 1414هـ/1993م)، 112/3.

طَلَعَتْ بِنَبْعَةٍ⁵¹⁹ الشَّرَفِ الْمُعَلَّا رَسُولًا جُنْدُهُ الرُّسُلُ الْكَرَامُ
وَفِي دَسْتٍ⁵²⁰ الرِّسَالَةِ قُتِمَتْ فَرْدًا لِكُلِّ الْأَنْبِيَاءِ هُوَ الْإِمَامُ
لِمَجْدِكَ فِي مَعَارِجِ التَّدَايِي مَقَامٌ لَا يُدَانِيهِ مَقَامٌ⁵²¹

ومعجزة الإسراء والمعراج لم يُقَصَّرَ عليها هذا المحور فقد تعدّاها إلى مدح المعجزات الأخرى التي وهبها الله لنبيه المصطفى، فمن ذلك مدح معجزة انشقاق القمر إلى نصفين،⁵²² وحبس الشمس له عليه السلام؛⁵²³ وهي المعجزة العظيمة التي يرى الخطّابي (ت. 388هـ/998م) أنّها معجزة "لا يكاد يعدّها شيء من معجزات الأنبياء، لأنّها ظهّرت في ملكوت السّماء"،⁵²⁴ وفي هذا المعنى يقول أبو الهُدَى:

وَأَتَى رَفِيعُ جَنَابِكَ السَّامِي الْعَلَا بِمَآثِرٍ مَا شَابَهَا التَّمَثِيلُ
وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ الْمَنِيرُ كِلَاهُمَا وَافَاكَ فِي ذِيلِ الْخُضُوعِ يَسِيلُ
وَبَدَا بِأَمْرِ الْإِنْشِقَاقِ عَجَائِبُ شَقَّتْ حِجَابَ الْكُفْرِ فَهُوَ هَزِيلٌ⁵²⁵

ويُلحِظُ إلى جانبِ مدحِ أبي الهُدَى للمعجزات ما يكسوه لأبياتِهِ من الحُلُلِ البيانيّة، فها هنا قد أتى بأسلوبِ الاستعارة المكنيّة، إذ جعلَ الشَّمْسَ والقَمَرَ إنسانين تَشَرَّفَا بموافاةِ النَّبِيِّ الْأَكْرَمِ فَأَتِيَاهُ طَائِعِينَ قد لَبَسَا ثَوْبَ الْخُضُوعِ والانقيادِ، كما استعار -استعارةً مكنيّةً- لعجائبِ معجزة انشقاق القمرِ

⁵¹⁹ الشَّجَرَة، يُنْظَرُ: الجوهري، "نبع"، 1288/3.

⁵²⁰ أصلها دشت وهي لفظةٌ فارسيّةٌ مُعرّبةٌ معناها الصَّحراء، يُنْظَرُ: عبد الله بن قتيبة الدّينوري، غريب الحديث، تحقيق: عبد الله الجبوري، (بغداد: مطبعة العاني، 1397هـ/1977م)، 341/2.

⁵²¹ د.ر.م، 221.

⁵²² يُنْظَرُ: البخاري، "تفسير القرآن"، 54 (رقم 4864)؛ محمّد بن سيّد التّاس اليعمرّي، عيون الأثر في فنون المعازي والشّمائل والسّيَر، تحقيق: إبراهيم رمضان، (بيروت: دار القلم، 1414هـ/1993م)، 134/1.

⁵²³ يُنْظَرُ: علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، إعداد: حسام الدّين القدسي، (القاهرة: مكتبة القدسي، 1414هـ/1994م)، 296/8 (رقم 14096).

⁵²⁴ يُنْظَرُ: أحمد بن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق: عبد العزيز بن باز، (القاهرة: المكتبة السّلفيّة، د.ت)، 185/7.

⁵²⁵ د.ف.م، 39.

وصفَ السَّيْفِ البَّتَّارِ حينَ يشقُّ الحُجُبَ، بعد أن شَبَّهَ تشبيهاً بليغاً الكُفْرَ بالحجابِ الهزيلِ - إذ أهملَ
الأداةَ ووجهَ الشَّبهِ (التَّعْطِيَّةُ) -، وفي دمجِهِ للفظيَّيَّ الشَّمْسِ والقَمَرِ يكونُ قد أتى بالمحسنِ البديعيِّ
مراعاةَ النَّظيرِ، وضمَّه إلى الجناسِ الاشتقائيِّ (الانشقاق/شَقَّتْ)؛ ثم تابعَ على ذاتِ المنوالِ مدحَهُ
لمعجزاتٍ أُخرَ، كسَلامِ الجُمادِ على المصطفى،⁵²⁶ وانقيادِ الأشجارِ وسعيها إليه،⁵²⁷ وتفجُّرِ الماءِ من
بين أصابعِهِ الشَّريفةِ عليه السَّلام،⁵²⁸ الذي جاءَ بذكره مشفوعاً بالاحتراسِ حيثُ وصفَهُ بالطَّيِّبِ فهو
كالعسلِ طيباً، إذ يُستغَرَّبُ نبعُهُ صافياً من غيرِ منابعٍ الاعتياديَّة:

حَيَّتِكَ السِّنَةُ الجُمادِ فأفصَحَتْ نُطْقاً به الإيجازُ والتَّرتيلُ
ولأَمْرِكَ الأشجارُ سَعياً قد أَتَتْ ويقودُها التَّعْظِيمُ والتَّبْجِيلُ
وسَقَيْتَ ماءً طَيِّباً من كَقْلِكَ السَّ سَمَحَ الكَرِيمُ فكَاسُهُ مَعْسُولُ⁵²⁹

وقد عمدَ في موضعٍ آخَرَ إلى مدحِ معجزةِ القرآنِ المحفوظةِ إلى آخرِ أَيَّامِ الدُّنيا لتشهدَ على
صِدْقِ هذا النَّبِيِّ الأَكْرَمِ ومعجزاتِهِ جميعها، فقد أحرَسَ باهرُ بيانها أفصَحَ الألسُنِ العربيَّة، وانعجَمَت
أمامَ معانيها مَصَاقِعُ البُلغاءِ من البريَّة، فقال:

ولهُ القرآنُ أعلى شَاهِدٍ قائمٌ بالمعجزاتِ الأبديةِ
أحرَسَ الفُصَحَ بما في سِلْكِهِ نَظَّمَ الآيَ عقوداً جوهريَّة
فكأنَّ العُربَ عَجَمٌ حينما تنجلي منه المعاني العربيَّة⁵³⁰

⁵²⁶ يُنظر: مسلم، "الفضائل"، 2277؛ الترمذی، "المناقب"، 6 (رقم 3626).

⁵²⁷ يُنظر: مسلم، "الزهد والرقائق"، 3012.

⁵²⁸ يُنظر: البخاري، "المناقب"، 25 (رقم 3572).

⁵²⁹ د.ف.م، 40.

⁵³⁰ د.م.ش، 208.

ولم يخرج محور المدح للمعجزات عن هذه الأساليب التي مُرَّ عليها، ولكنَّ من الجدير بالذكر أنَّ منظومته الموسومة بزد القيامة قد تضمَّنت مدحاً للمعجزات الحمديَّة ولكنَّها كانت أقرب إلى النظم منها إلى الشعر.

د محاور أخرى

لم تقتصر مدائح أبي الهدي على ما سبق من المحاور - وإن كانت تلك هي الأبرز فيها-، وإنما دارت على محاور أخرى قد تقلُّ كمًّا شعريًّا عن تلك، فهي بذلك لا ترقى إلى إفراذٍ كُلٍّ منها بمحورٍ خاصٍّ، ومن أجل هذا فقد لا يُتَّعدُّ عن الصَّواب إذا ما سُمِّيت بالمضامين المدحيَّة التي حوت أفكارًا تختلِفُ عن المحاور السَّابقة. ومن جملة تلك المضامين ما عمدَ إليه أبو الهدي من مدحٍ خاصٍّ بجهاد النَّبيِّ المصطفى وعزيمته في قِراع أعدائه، ولم يخلُ مديحُه هذا من صورٍ بيانيَّةٍ تزيد المديح طربًا في الأسماع؛ ومن ذلك أنَّه لَمَّا مدَّح جهاد المصطفى وتوطيده لأركان الدِّين أتى -من طريق الاستتباع⁵³¹- بذكر الغزوات التي انتصر فيها ثم تابع يمدحُ تمزيقه جموع أهل الهوى، ولَمَّا ذكر فتحه لمكة استتبع بجعل الدُّنيا تتنَوَّرُ به وبرسالتِهِ السَّماويَّة، فقال:

وأقامَ رُكنَ الدِّينِ بالعزم الذي ذلَّتْ لَهُ الآساُ في البيداءِ
واذكر حُنينًا حين أحنى ظهرَ جَحْ فُلِها ومزَّقَ عُصبةَ الأهواءِ
وبفتحِ مَكَّة ضاءَت الدُّنيا به مُذ جاءها بعمامةٍ سوداءِ⁵³²

⁵³¹ يُنظر: حبَّكة، البلاغة، 429/2.

⁵³² د.ف.م، 43؛ وثبت أنَّ المصطفى عليه السلام لما فتح مكة دخلها وعليه العمامة السوداء ولواؤه كان أسودًّا، يُنظر: محمد بن عمر الواقدي، المغازي،

تحقيق: مارسدن جوس، (بيروت: دار الأعلمي، 1409هـ/1989م)، 824/2.

وفي مدح الجهاد حرص أبو الهُدَى على الإتيان بالألفاظ الجزلة القويّة (عقنقل، هدر، عوجاء، أحدب، جلّ) وهي كلمات يكاد يرتطم جرسها الموسيقي بالآذان فيعبرُ إليها قوّةً وشدّةً المعنى الذي أرادَهُ من مدح عظمة جهاد النّبي الأكرم وعزيمته، ومن ذلك قوله وقد قدّم بين يدي مديحه ما يُعبرُ عن جليل محبّته ففداهُ بأبيه وأمه:

بأبي وأمي كم أثارَ عقنقلاً⁵³³ هدرت نوائبه على الأعداء

واستلّ أحدب همّة نبويّة جلت فوقم أحدب العوجاء⁵³⁴

وفي البيت الأخير مدح عزيمة النّبي الأكرم فجعلها صارماً مسلّواً -على سبيل الاستعارة التّصريحية- وجعل من سيف هذه العزيمة يُعدّل كلّ مائلٍ معوجٍ، ليُكيّ بالمعوج عن ملّة الشّرك والضّلال، وحلّى هذه المعاني بخلى الجناس اللفظي التّام (أحدب/ أحدب)، ولمح طباق التّناقض بين لفظي (قوم/ العوجاء).

وما تضمّنته مدح الشّاعر من المضامين الفكرية، فكرة النور المحمّدي وأوليّته وكون الوجود لم يكن ليُخلَق لولاه، وهي الفكرة التي تردّدت كثيراً منذ القرن الرّابع الهجري⁵³⁵ وأدّكتها البيئّة الصّوفيّة، وعُدّ محيي الدّين بن العربي (ت. 640هـ/1442م) في مقدّمة المتغنّين بها وأبرزهم،⁵³⁶ ويرى محمود سالم محمّد أنّ التصاق هذه الفكرة بالمديح النّبويّ وصدور الجَمّ الغفير من المادحين عنها -غير مبالغين بصحّة أو بطلان- هو أنّ هذه الفكرة "تتجاوب مع تحليق الخيال، ومع المبالغة الشّعريّة، وقد مدّهم

⁵³³ الكيبث المتراكم المتداخل المتعقّل بعضه ببعض، الزّبيدي، "عقل"، 37/30.

⁵³⁴ د.ر.ت، 5.

⁵³⁵ يُنظر: ضيف، تاريخ الأدب، 351/7.

⁵³⁶ يُنظر: شوقي ضيف، فصول في الشّعر ونقده (القاهرة: دار المعارف، د.ت)، 232.

أصحاب السيرة والخصائص والدلائل بفيضٍ من هذه الروايات"،⁵³⁷ ولعلَّ مما يؤيد رأيه ما تكرَّر في جمعٍ من المصادر من شعرٍ لعَمِّ النَّبِيِّ الكريم عليه السلام العباس بن عبد المطلب (ت. 32هـ/653م) رضي الله عنه يتضمَّنُ تردادَ فكرةِ خَلْقِ نوره قبل بروز آدم في الجنان؛⁵³⁸ وأبو الهُدَى لم يكن يبعدُ لا عن البيئَةِ الصُّوفيَّة ولا عن كُتُب السِّير، فلا غرو أن تظهرَ هذه الفكرة في مدائجه، فمن ذلك قوله مادحًا للنَّبِيِّ الأكرم بأنَّه الثُّور الذي أبرَزَ الله ضيائَهُ قبل خَلْقِ الأكوان واصطفاهُ خاتمًا للنُّبوَّة قبل خَلْقِ آدم:

الحبيبُ الذي تألَّقَ بدرًا في سَمَا الغيبِ والوجودُ هَبَاءُ

والذي عَزَّزَ بالنُّبوَّةِ إذ آ دُمَ قَبْلَ البروزِ طِينٌ وماءٌ⁵³⁹

ومما يلحقُ أيضًا بغرضِ المديحِ النَّبَوِيِّ ما كان ينظمُهُ أبو الهُدَى لدى زيارته للآثار النَّبَوِيَّة المحفوظة في إستانبول حيثُ كان يزورها دوريًّا برفقة السُّلطان عبد الحميد الثَّاني، فمن ذلك ما قاله لَمَّا زار أثر الخِرقة الشَّريفة المنسوبة للنَّبِيِّ الأكرم:

شَمَمْنَا لطيفَ المسكِ من رُحْبِ خِرْقَةٍ لأشرفِ ساداتِ الوجودِ ابنِ هاشمٍ

وفُزْنَا ووطننا والإشارةُ أثبتت حصولَ الأمانِ واتِّصالَ المكارِمِ⁵⁴⁰

⁵³⁷ سالم، المدائح، 249.

⁵³⁸ وهي قوله:

مِنْ قَبْلِهَا طُبِتَ فِي الظَّلَالِ وَفِي مُسْتَوْدَعٍ حَيْثُ يُخَصَفُ الْوَرَقُ
ثُمَّ هَبَطَتِ الْبِلَادُ لَا بَشَرٌ أَنْتَ وَلَا مُضَعَّةٌ وَلَا عَلَقٌ

يُنظَر: سليمان بن أحمد الطبراني، المعجم الكبير، إعداد: حمدي عبد المجيد، (القاهرة: مكتبة ابن تيمية، د.ت)، 213/4 (رقم 4167)؛ البيهقي، الدلائل، 268/5؛ الشَّامي، سُبُلُ الهُدَى، 69/1؛ أحمد بن علي المقرئ، إمتاع الأسماع، تحقيق: محمد عبد الحميد التَّميسي، (بيروت: دار الكتب العلميَّة، 1420هـ/1999م)، 190/3، 194.

⁵³⁹ د.م.ش، 41.

⁵⁴⁰ د.ف.م، 85.

وَيُمْكِنُ الْقَوْلُ: إِنَّ جَمِيعَ مَا سَبَقَ عَرْضُهُ قَدْ أُلِّمَ بِأَبْرَزِ الْمَحَاوِرِ وَأَهَمِّ الْمَعَانِي الَّتِي حَفَلَتْ بِهَا الْمَدَائِحُ النَّبَوِيَّةُ عِنْدَ أَبِي الْهُدَى فِي ضُلَيْبِهَا، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ سُبِقَ هَذَا الْعَرْضُ بِالْكَلامِ عَلَى مَطَالِعِ تِلْكَ الْمَدَائِحِ، وَقَدْ بَقِيَ الْكَلَامُ عَلَى الْخَوَاتِيمِ الَّتِي حُتِّمَتْ بِهَا، وَخِلَاصَةُ مَا يُمْكِنُ اسْتِنْتَاجُهُ أَخِيرًا، وَسَتَتَوَلَّى السَّطُورُ الْقَادِمَةُ هَذِهِ الْمَهْمَةُ.

3 خواتيم المدائح

يُلاحَظُ فِي أَغْلَبِ الْمَدَحِ عِنْدَ أَبِي الْهُدَى أَنَّهَا حَظِيَّتْ بِنُوعَيْنِ مِنَ الْخَوَاتِيمِ، فِيمَا أَنْ تُحْتَمَّ بِالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى النَّبِيِّ الْكَرِيمِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَتَابِعِيهِمْ وَالصَّالِحِينَ، أَوْ أَنْ تُحْتَمَّ بِدَعَوَاتٍ يَرْجُو الشَّاعِرُ تَحْقِيقَهَا مِنَ اللَّهِ، وَقَدْ أَحْرَزَ فِي كُلِّ تِلْكَ الْخَوَاتِيمِ بَرَاعَةً الْمُقْطَعِ وَالْخَتَامِ، حَيْثُ كَانَتْ أَيْبَاتُهُ الْأَخِيرَةُ تَطْرُقُ الْأَسْمَاعَ فَتَجْعَلُ النَّفُوسَ تَعَلَّقَ بِهَا وَتَتَحَرَّكَ بِالشَّوْقِ إِلَى الْمَزِيدِ مِنْ تِلْكَ الْمَعَانِي؛ وَمِنْ أَمْثَلَةِ ذَلِكَ قَوْلُهُ خَاتِمًا:

وَعَلَيْكَ صَلَّى اللَّهُ مَا لَمَعَ الضُّحَى وَكَسَاهُ مِنْ ثَوْبِ الظَّلَامِ حُمُولُ
وَالْأَلِ وَالْأَصْحَابِ مَنْ بَشَائِهِمْ جُمِعَتْ مِنَ الدِّينِ الْقَوِيمِ شَمُولُ
مَا أُنْشَدَ الْعَبْدُ الضَّعِيفُ أَبُو الْهُدَى شَرَحَ الْحَامِدِ فِي ثَنَاكَ طَوِيلُ⁵⁴¹

فَهُوَ حَتَّى فِي الْخَتَامِ يَأْتِي بِصُورٍ جَمِيلَةٍ تَرْتَاحُ لَهَا الْعْيُونُ وَتَحْلُو فِي الْأَسْمَاعِ، فَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جَعَلَهُمَا مُتَمَدِّينَ أَبَدًا كَلِمًا لَمَعَ شُعَاعُ الضُّحَى صَبَاحًا أَوْ أَخْمَلَ ضَوْؤُهُ سَوَادُ الدُّجَى مَسَاءً، وَقَدْ اسْتَعَارَ لَذَاكَ الشُّعَاعَ وَصَفَ اللَّبَاسِ عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِعَارَةِ الْمَكْنِيَّةِ، وَشَبَّهَ الظَّلَامَ بِالثُّوبِ الَّذِي يَكْتَسِيهِ هَذَا الشُّعَاعُ -بِالتَّشْبِيهِ الْبَلِيعِ الَّذِي حُذِفَ مِنْهُ وَجْهَ الشَّبْهِ (التَّغْطِيَةُ وَالسِّتْرُ)-؛ وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ جَعَلَ الصَّلَاةَ

⁵⁴¹ د.ف.م، 41.

والسَّلام يمتدَّانِ مدى الأزمان كلَّما آبَ غريبٌ إلى وطنِهِ أو كلَّما سارت المطايا نحو مكَّة المكرَّمة،
ليظهر مرَّةً أُخرى شيءٌ من أثرِ العُربةِ التي علَّقت في نفسيَّةِ الشَّاعرِ وأثَّرت في مديحِهِ، حيث قال:

مدى الدهرِ ما وافى غريبٌ لأهله وما سارت الرُّكبَانُ يوماً لمكَّة⁵⁴²

ومن أمثلة الخواثيم الدُّعائية قوله وقد أمَّل من الله أن يتلطفَ به وبأسرته ومن لآدَ به من قومه، وأن
يُحسنَ ختامهم جميعاً في "مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ"⁵⁴³ ترعاهم رعاية الرَّحمن وعنايته الأبدية:

وتشملي وعائلي وقومي يدُ الرَّحمنِ باللَّطفِ الحَفِيّ
بسِدرَةِ مقْعَدِ الصِّدْقِ المَعْلَى بعينِ الله في عيشِ هَنِيّ
لدى آبائنا عقداً فعقداً لفاطمةٍ وسيدنا علي⁵⁴⁴

ويسترعي الانتباه تأكيدُهُ المتكرِّرَ لنسبتهِ الحسينيَّةِ واهتمامه بها ليس فقط في مضامين المحاور بل حتى
في خواثيم المدح.

ومن جميع ما سبق يمكن أن يُخلصَ إلى التَّأنيُّدِ التَّالِيَةِ:

■ إنَّ غرضَ المديحِ النَّبويِّ قد نالَ قسطاً وافراً من شعرِ أبي الهُدَى وأكثرَ منه حتى احتوى
على معانٍ وأفكارٍ متنوِّعةٍ، جعلت من مديحِهِ يندرجُ تحتَ كُلِّ طرازٍ من الطُّرُزِ التي مرَّ
بها المديحُ النَّبويُّ عبرَ العصورِ، على الرَّغمِ من كونِ مديحِهِ يميلُ إلى الطِّرازِ الثَّالثِ الذي
جُعِلَ فيه المديحُ النَّبويُّ غرضاً بل فنّاً مُستَقِلاً له أركانهُ ولَبَنائُهُ التي يقومُ عليها صرْحُ
قصائدهِ المديحيَّةِ.

⁵⁴² د.م.ش، 75.

⁵⁴³ القمر، 55/54.

⁵⁴⁴ د.م.ش، 212.

- ومن أكثر ما اهتم به أبو الهُدَى في مَدَحِهِ هو مدح الصِّفَات الخُلُقِيَّة، بينما نَدَرَ تناوُلُهُ للصِّفَات الخُلُقِيَّة إلا بأبياتٍ هي إلى النِّظَم والوصفِ أقرب منها إلى المَدح والشِّعر.
- وقد أبرزت مدائحُ أبي الهُدَى إطلاَعًا منه على كتب السِّير والشَّمَائِل، بالإضافة إلى أشعار غيره من المادحين حيثُ تلاقى معهم في معانيهم المدحِيَّة ولربَّما زادَ عليها بما يُميِّزها عنهم؛ وقد جَرَّه هذا إلى الإكثارِ من الاقتباسات من القرآن الكريم والحديث الشريف.
- كما تميَّزت قصائدُ هذا الغرض - إلى جانب سيرها على مسار المدح النبويِّ التقليديِّ الذي سار عليه المادحون - بما طَبَعها به أبو الهُدَى من الطَّابع الذَّاتي لَمَّا تحدَّث عن نفسه من خلال الشُّكوى والألم والاعتراب، حيثُ ضَجَّت مقاطعُ مدائِحِهِ بكلِّ ذلك.
- وبرَز أثرُ التَّصوُّفِ جليًّا في مدائِحِهِ من خلال الاصطلاحات الصُّوفيَّة التي تحلَّلتها - كاصطلاحاتٍ زَحَرَتْ بها قواميسُ التَّصوُّفِ: (السَّوى، الفَرْق، الجَمع) - ومن خلال الأفكار التي وَرَدَتْ فيها - كفكرة أوليَّة النُّور المحمَّديِّ -.
- ولُوَحِظَ أنَّ اللَّبَنَات الأولى التي قام عليها تعبيرُهُ الشِّعريُّ من الألفاظ والتَّراكيب كانت تتناسب مع كلِّ مقامٍ ومع كلِّ وثبةٍ نفسيَّةٍ من وثبات القصائدِ في مقاطعِها، ففي مقام بسط المديح والمعاني القويَّة، أتى بالكلمات الغريبة المجلجَلة ذات الجرس الموسيقيِّ المؤثِّر في الأسماع، وعلى العكس من هذا لَمَّا كان يتعرَّض للمعاني الرِّقِيَّة في المديح فقد أتى بما يُناسب مقامها من الرِّقَّة واللَّطف، إلا أنَّ أكثرَ ما تردَّدَ من الألفاظِ هو تلك التي دَلَّت على التَّذلُّ والانكسار؛ وأمَّا التَّراكيب فقد جاءت متينةً قويَّة السَّبك متماسكةً ومتآخيةً مع الألفاظ ولم يشدَّ أبو الهُدَى عن هذا السَّنَنِ إلا نادِرًا.

- لم تعدّ تعابيره من كسوة الصّور البيانيّة والحلّل البديعيّة، وقد كادت استعارات أبي الهدي تطلق لخيال القارئ العنان ليسرّح في ميدانٍ من التّصوّرات، مما يجعل بالإمكان أن يُقال: إنّ بعض أبيات المدائح قد حمّلت معانٍ تزيد على كلماتها.
- ولعلّ آخر ما يُمكن الإشارةُ إليه في هذا الغرض ليس امتزاج العاطفة بمشاعر الحبّ والإجلال تارةً والحبّ والحزن تارةً أخرى فحسب، وإنّما هو ذلك الصّدق الحقيقيّ في العاطفة أي أنّها "تنبعث عن سببٍ صحيحٍ غير زائفٍ ولا مُصطنع"،⁵⁴⁵ ويبدو أنّ أبرز العوامل التي أثّرت هذا الصّدق هو عامل النّسبة الحسينيّة التي طالما كرّر ذكرها في أبياته، إضافةً إلى عوامل الاغتراب وما جرّته عليه من أحوالٍ طالما ردّد ذكرها في تضاعيف مدحه النبويّة.

⁵⁴⁵ أحمد الشّايب، أصول النّقد الأدبيّ (القاهرة: مكتبة النّهضة، 1994م)، 190.

المبحث الثالث: غرض المديح

سَبَقَ التَّعَرُّضُ لمعنى المدح وتعريفه لغويًا واصطلاحيًا بأنه الثناء على الأشخاص بما فيهم من صفاتٍ جميلةٍ محمودَةٍ؛⁵⁴⁶ وغرض المدح من الأغراض الأصيلّة في الشّعر العربيّ عدّه أبو الحسن الرُّمائيّ (ت. 384هـ/994م) من الأغراض الخمسة التي قام عليها الشّعر العربيّ،⁵⁴⁷ ولعلّ ذلك لما حظي به هذا الغرض من مزيدٍ عنايَةٍ من الشعراء إذ قلّما أهملهُ نابهٌ منهم، حيثُ كانوا "يتباهون بالمدح ويفتخرون به".⁵⁴⁸

وَمَنْ يَطَّلِعَ على تناول أبي الهُدَى لهذا الغرض يجدُ أنّه ما اتَّخَذَ شَخْصِيَّةً وَاحِدَةً أَفْرَدَهَا بمدحِهِ دون غيرها، بل مدَحَ العديد من الشَّخْصِيَّاتِ، على اختلافٍ في مَرَاتِبِهَا ومَكَانَاتِهَا، غيرَ أنّه من الممكن تصنيفُ هذه الشَّخْصِيَّاتِ الممدوحة إلى فئاتٍ وفق ما يلي:

■ مدح آل البيت والصّحابة

■ مدح العثمانيّين

■ مدح الفضلاء

وكلُّ فئةٍ من هذه الفئات التي حظيت بالمدح قد تضمّنت أشعارها عددًا من الأفكارِ والجزئيّاتِ والأشكالِ، ستتولى السّطورُ القادمةُ بيانَ كُلِّ منها على حدة.

⁵⁴⁶ يُنظر: ص 101.

⁵⁴⁷ والأخرى هي: التّسبيح والهجاء والفخر والوصف، يُنظر: الفيروانيّ، العمدة، 120/1.

⁵⁴⁸ نجم الدّين أحمد بن إسماعيل بن الأثير الحلبيّ، جوهر الكنز (تلخيص كنز البراعة في أدوات الصّناعة)، تحقيق: محمّد زغلول سلام، (الاسكندريّة: منشأة المعارف، د.ت)، 350.

1 مدح آل البيت والصَّحابة

إنَّ جذورَ هذا المدح تعودُ إلى غرضِ المديح النَّبويِّ، حيثُ اقترَن مدحُهم بمدحِ رسولِ الله منذ صدرِ الإسلام؛ ولعلَّ غالبَ المدائحِ النَّبويَّةِ قد استطرَدَ فيها قائلوها مُعَرِّجينَ إلى مدحِ الصَّحابةِ وآلِ البيتِ، فلطالما ذُكِّلوا مدائحُهم بالسَّلامِ والتَّرضيِ عليهم وعنهم؛ غيرَ أنَّ أفرادَ الشُّعراءِ لقصائدَ مخصوصةٍ بمدحِ آلِ البيتِ أو الصَّحابةِ قد يجعلُ تلكَ القصائدُ تخرجُ من إطارِ غرضِ المديحِ النَّبويِّ إلى إطارِ غرضِ المدحِ العامِّ -على الرَّغمِ من أنَّ مدحَ هذه الفئةِ نَبَعَ من التصاقها بالنَّبِيِّ الأكرمِ عليه السَّلامِ-.

وقد حَظَّيتِ هذه الفئةُ بنصيبٍ وافٍ من شعرِ أبي الهُدَى سواءً بالقصائدِ المستقلَّةِ أم بالمقاطعِ التي استطرَدَ فيها بمدحهم ضمنَ القصائدِ الطَّوالِ، ومما تجدرُ الإشارةُ إليه أنَّ الرَّجَلَ قد انطوى على عظيمِ التَّبجيلِ والمحَبَّةِ للفريقينِ -الصَّحابةِ والآلِ- فلم يَلِ إلى فريقٍ دونَ آخرٍ؛ ولعلَّ أوَّلَ ما يبتدُرُ النَّاظِرُ في مدحه هذا هو قصيدتهُ التي دَمَجَ فيها المديحَ للفريقينِ، فقال وقد شَبَّهَهُما -تشبيهاً مُرسلاً مُجَمَّلاً، بذكرِ الأداةِ وإهمالِ وجهِ الشَّبهِ (الدِّلالةُ العادِلَة)- بالميزانِ المبيِّنِ لحقيقةِ حُبِّ النَّبِيِّ الكريمِ، وكلُّ مَنْ طَفَّفَ في هذا الميزانِ فقد تجاوزَ حدودَ الدِّينِ المبيِّنِ:

الآلُ والأصحابُ كَقَتَّانٍ حُبِّ طه الطُّهرِ كالميزانِ
مَنْ مَالَ عنِ واحدَةٍ فقد طَعَى والدِّينُ محفوظٌ من الطُّغيانِ
أكابرُ الدِّينِ دعائمُ التُّقى أقمارُ سَمَكِ عَالَمِ الإمكانِ
وهم لوجهِ الدِّينِ دونَ مِرْيَةٍ برغمِ أهلِ الجحدِ مُقْلَتَانِ⁵⁴⁹

فهو بعدُ أن شَبَّهَهُم تشبيهاً بليغاً بأقمارٍ تلوحُ في أعالي الكونِ -حيثُ أهملَ أداةَ التشبيهِ ووجهَ الشَّبهِ (النَّورِ)- استعار -استعارةً مكنيَّةً- للدِّينِ وجهَ إنسانٍ وجعلَ له عينينِ هما الصَّحابةُ والآلُ الكرامُ، ثم

⁵⁴⁹ د.ر.ب، 57.

انثنى بعد هذا مُبرِّزاً محبته لهم جميعاً، فجعلهم نورَ العيون وحياة القلوب، وبَيَّنَّ أمله بأن يُحشَرَ في زمرتهم يوم القيامة، من خلال إتيانه بالجملة الإسمية التي تُفيد الثبوت، ليؤكد ثبات الأمل وشدة الرجاء في أن يُحشَرَ في زمرة الصالحين -الصحابة وآل البيت- فقال:

ساداتنا والروح في قلوبنا وفي العيون ضوءها الثوراني

فنحن في غدٍ لدى ركبناهم أنعم بها والله من ركبنا⁵⁵⁰

غير أن هذه المحبة للفريقين لم تكن بمناعة من تخصيص بعض القصائد لمَدح الصحابة وأخرى لمَدح آل البيت، وقد يحسُن تناول كلٍّ على حدة فيما يلي:

أ آل البيت

من الممكن أن يُقال: إنَّ مدح آل البيت قد برزَ جلياً في أئامٍ مُبكرةٍ من عمر دولة الإسلام، مع انحياز الآراء القائلَةِ بأحقية علي بن أبي طالب رضي الله عنه وآل البيت من بعده في الخلافة، ليناوئ الشُّعراءُ بذلك بني أمية، وبالتالي فإنَّ هذا النوع من المدح قد انصبَّ بالصُّبغة السياسيَّة فصارَ شعراً سياسياً، وقد اختارَ بعضُ الشُّعراءِ لشعره أن يكونَ رايةً منصوبةً لآل البيت، ولعلَّ خيرَ مَنْ مثَّلَ هذا التوجُّه هو الكميث بن زيد الأسدي (ت. 126هـ/744م) صاحب القصائد "الهاشميات"⁵⁵¹ في آل البيت؛ فافترقَ الشُّعراءُ بالمدح لآل البيت إلى مدحٍ سياسيٍّ وآخر دينيٍّ؛ وقد شقَّ أبو الهدى لنفسه طريقَ المدح الدينيِّ، وبالاطِّلاع على مدائحه يظهرُ للنَّاظرِ أنَّه مدَحَ آل البيت بشكلٍ عامٍّ، ومدح شخصياتٍ منهم بشكلٍ خاصٍّ.

⁵⁵⁰ د.ر.ب، 57.

⁵⁵¹ يُنظر: محمد محمود الرفاعي، شرح الهاشميات (مصر: مطبعة شركة التَّمدن الصناعيّة، د.ت)، 4؛ أحمد محمد الحوفي، أدب السِّياسة في العصر الأموي (بيروت: دار القلم، د.ت)، 182.

وتلمع في سماء تلك المدائح التي اختصت بمدح عامة آل البيت قصيدته التي افتتح مطلعها بمدحهم بعلو المجد والشجاعة في ساحات الوعى، وقد ملأ المطلع بالطباق (طارف/تليد، قريب/بعيد، قدم/جديد، والد/وليد)، فقال:

سبقوا البرية طارفاً وتليداً⁵⁵² وعلوا عليهم والدًا ووليداً
قومٌ إذا اجتذبوا أعنة خيلهم جعلوا قريب الغالين بعيداً
خلقت أحاديث الزمان وذكرهم تلقاه مع قدم الزمان جديداً⁵⁵³

فهو يراهم السابقين في ميادين المجد من غابر الأزمان إلى حاضرها، والذين سمو على جميع الناس صغاراً وكباراً، كيف لا؟ وهم أسود الوعى من تنحني لشدة بأسهم هامت الصناديد، ولئن أفلت أجداد الأجداد السابقين فهؤلاء الرجال الأفذاذ الذين سطرت ذكرى أجدادهم في كتاب الخلود فلا يخلقه تقادم الأزمان بل يزيده ألماً ولمعاً في سماوات العلا والفخار، ويكفيهم من الشرف الباذخ أنهم آل الرسول وأنجال البتول:

سربائهم في الحرب هكل ذكرهم والغير يجعل للحروب حديداً
ما الناس إلا هم لعمري إنهم جعلوا لأيام البرية عيداً
أشباه أحمد آل حيدرة الوعى⁵⁵⁴ أنجال فاطمة كفاك جدوداً⁵⁵⁵

ويستطرد في مدح شجاعتهم فيجعل ما هجت به ألسنتهم من الذكر لمولاهم برك تعال هو الدرع الذي تسربلوا به في المعارك خلافاً لمن تسربل بالحديد، ثم شفع التشبيه بأسلوب القصر الإضافي

⁵⁵² الطارف هو الجديد والتاليد هو القديم، يُنظر: ابن منظور، "تلد"، 99/3.

⁵⁵³ د.ف.م، 97.

⁵⁵⁴ الحرب، الجوهرى، "وعى"، 2526/6.

⁵⁵⁵ د.ف.م، 98.

فجعل من مدح آل البيت مُحَرَّجًا مخرج الحصرِ المخصوصِ بالنَّفي وبالأداة (إلا)، وما ذلك إلا ليؤكدَ حكم مدحهم أنَّهم النَّاسُ الحقيقيُّون وهذا من كمال زيادة الاعتناء بشأن مدحهم، ثم انعطَفَ بعد ذلك إلى التشبيهِ البليغ - بإهماله لأداة التشبيه ووجه الشَّبه (البهجة والسرور) -، فلئن كان غيرهم من البشر أَيْامًا فإنَّهم هم الأعياد بين سائر الأيَّام، وهذان المعنيان يقتربان كثيرًا من قول أستاذِه الرَّؤاس لَمَّا قالَ مَفْتَحِرًا بلسانِ أهل البيت:

دروغٌ غَيْرِنَا حديدٌ وترى أجسامنا بذكرِه مُدَّرَعَةٌ
والقومُ كالأيَّامِ يا صويحي ونحْنُ بينهم كيومِ الجُمُعَةِ⁵⁵⁶

فكلاهما قد جعل من ذكر الله دِرْعًا لهم إذا ما لبسَ النَّاسُ الحديد، وكلاهما جعل سائر النَّاسِ أَيْامًا، لكنَّ الرَّؤاسَ شَبَّهَ آلَ البيتِ بيومٍ مخصوصٍ هو يومُ الجُمُعَةِ، وشَبَّهَهُمُ أبو الهُدَى بالأعياد؛ في دِلَالَةٍ تزيُدُ من إعلاءِ شأنِهِم بمدحهم بالتميّزِ والخصوصيّة.

ويعضي أبو الهُدَى في مدح آل البيت بالعلم الوافر والفضلِ الجَمِّ الذي شاعَ في الإسرار والإجهار، ويُضفي عليهم صِفَةَ الإعراضِ عن كلِّ ما سوى الله وعدم الالتفاتِ إلى ما عداهُ من الفانيات، ويقولُ إِنَّهم لَمَّا تركوا هوى نفوسِهِم وقهروها اندَلَّتْ لهم كلُّ النفوسِ الأخرى وصارت لهم كالعبيد، وفي هذا المديح يبرزُ ما انطوى عليه أبو الهُدَى من تربيَةِ صوفيّةٍ مُعْظَمَةٍ لشأنِ تركِ "البتوى"⁵⁵⁷ وطرحِ أهواءِ النفوس:

⁵⁵⁶ محمد بهاء الدّين الرَّؤاس، ديوان مشكاة اليقين ومحجّة المتّقين (دمشق: دار الفكر، د.ت)، 178.

⁵⁵⁷ اصطَلَحُوا على أنَّ البتوى هو كلُّ ما سِوى الله، يُنْظَر: ص 141.

أُسُودٌ وَسَادَاتٌ سُرَاةٌ⁵⁵⁸ أَمَاجِدٌ مَنَاقِبُهُمْ جَهْرًا نَمَتْ وَسَمَتْ سِرًّا
 سِبَاحٌ بِغَابِ الْعَيْبِ غَابُوا عَنِ السِّيَوى وَخَلُّوا الْهَوَى فَاستَعْبَدُوا الْعَبْدَ وَالْحَرَا
 هُمْ مَوْجَةُ الْبَحْرِ الْجَلِيلِ الَّتِي عَلَى سَوَاحِلِ أَلْبَابِ الْوَرَى قَذَفَتْ دُرًّا⁵⁵⁹

وقد اختار أبو الهُدَى تنكير الصفات التي مدَحَهُمُ بها (أُسُودٌ، سُرَاةٌ، سَادَاتٌ، أَمَاجِدٌ، سِبَاحٌ) لِيُدِلَّ بذلك على عظمة هؤلاء الأفراد وتبؤُّيهم لأرفع مكانة في كلِّ صِفَةٍ مدَحَهُمُ بها، وبتعريفه للمناقب وإتيانه بها مسوَّقةً بتركيب الجملة الإسميَّة (مناقبهم سَمَتْ وَنَمَتْ) دلٌّ على تأكيد تأصُّل وثبوت هذه المناقب في آل البيت وعدم ارتباطها بزمانٍ دون آخر وكأنَّها قائِمةٌ بذواتهم مَدَى الأزمان، وفي البيت الأخير رسمُ صورةٍ فنيَّةٍ تَنَقَّذُ إلى ذهن السَّامِعِ بعدَ قلبه، فلربما كان أبو الهُدَى قد عَنَى بالبحر الجليل كنايةً عن النَّبِيِّ الأَكْرَمِ، وشَبَّهَ ممدوحه من آل البيت بالأمواج الهدَّارة المتحفَّة لعقول الطَّالِبِينَ بِدُرَرٍ تلك العلوم النَّبَوِّيةِ الجليلة، فهو بذلك صَوَّرَ العلم بصورة البحر وجعل العقول سواحلًا محيطَةً به وما الأمواجُ إلا آل البيت، والفوائد التي تأتي منهم هي الجواهر التي تُقَذَفُ على سواحل ذاك البحر.

وقد تَعَدَّى مدحُ أبي الهُدَى لآل البيت عمومًا إلى مدح شخصيَّاتٍ منهم على وجه الخصوص، فخصَّ بالمدح زين العابدين عليًّا بن الحسين (ت. 95هـ/713م)، فجعلَ مشاعره تطيرُ بجناح الشِّعرِ إلى رحاب ذلك الإمام وراح يمدحه مُفَتِّحًا قصيدته بقوله:

إلى أعتابِ زين العابدينَا سَرَتْ أرواحُ حزبِ العاشقينَا
 له الشَّرَفُ المورَثُ من حُسَيْنٍ إمامُ بني الرِّسُولِ الطَّاهرينَا

⁵⁵⁸ ذوي المروءة والشرف والسَّخاء والرَّئاسة، يُنظَر: ابن منظور: "سرا"، 378/14.

⁵⁵⁹ د.ف.م، 109.

وأَبَرَزَ مَظْهَرَ الهادي بطُورٍ تَجَلَّتْ فِيهِ نَفْحَةُ طُورِ سِينَا⁵⁶⁰

فَأَبُو الْهُدَى ابْتَدَرَ الْقَصِيدَ دُونَ آيَةٍ مُقَدِّمَاتٍ، مِمَّا قَدْ يَدُلُّ عَلَى تَوْقُدِ عَاطِفَةِ الْحُبَّةِ، وَكَأَنَّ التَّعْبِيرَ عَنْهَا شَغَلَهُ عَنْ أَيِّ شَيْءٍ سِوَاهَا، فَعَبَّرَ عَنْ سَرَيَانِ أَرْوَاحِ الْمُحِبِّينَ الْعَاشِقِينَ لِآلِ الْبَيْتِ إِلَى رِحَابِ زَيْنِ الْعَابِدِينَ، ذِي الْمَجْدِ الْأَثِيلِ مِنْ لَدُنْ أَبِيهِ الْحُسَيْنِ وَجَدِّهِ الْمُصْطَفَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، الَّذِي كَانَ خَيْرَ وَارِثٍ لِعِلْمِهِ وَلِحَالِهِ النَّبَوِيِّ، حَتَّى لَكَأَنَّهُ انْجَلَى رَافِلًا بِثَوْبِ الْإِتِّبَاعِ السَّنِيِّ الَّذِي يَحْكِي طَوْرًا مِنَ الْإِكْرَامَاتِ الْإِلَهِيَّةِ وَالْعَطَاءَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي يَمُنُّ اللَّهُ بِهَا عَلَى عِبَادِهِ الْمُقَرَّبِينَ، حَيْثُ كَتَبَ بِقَوْلِهِ (تَجَلَّتْ فِيهِ نَفْحَةُ طُورِ سِينَا) أَنَّ هَذَا الْمَمْدُوحَ يُصَدِّقُ تِلْكَ النَّفْحَةَ الرَّبَّانِيَّةَ الَّتِي أَكْرَمَ اللَّهُ بِهَا نَبِيَّهُ مُوسَى جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ.

وَمِنْ شَمْلِهِ أَبُو الْهُدَى بِمَدِيحِهِ مِنْ أَعْيَانِ آلِ الْبَيْتِ مُوسَى الْكَاطِمِ بْنِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ (ت. 183هـ/799م)، حَيْثُ رَاحَ يَمْدَحُهُ بِأَصَالَةِ الْمُحْتَدِّ وَشَرَفِ النَّبْعَةِ الْمُوصُولَةِ بِالنَّبِيِّ الْهَاشِمِيِّ وَبُضْعَتِهِ الزَّهْرَاءِ، فَقَالَ:

أَسَدٌ حُسَيْنِي الْفَضِيلَةِ سَيِّدٌ ضَخْمُ الْمَفَاخِرِ فِي عَصَائِبِ هَاشِمٍ
قَمَرٌ غَدَا يُجَلَى بِرُجِّ عَنَايَةٍ سَامِي السَّنَا مِنْ كُلِّ عَيْبٍ سَالِمٍ
فَعَلَّتْ عَنِ التَّشْبِيهِ نَفْحَةُ جُودِهِ بَيْنَ الْوَرَى بُعْرَابَةٍ أَوْ حَاتِمٍ
دُخْرِي الْهَزْبُ الْأَرْوَعُ الْفَحْلُ الَّذِي يعلو ارتفاعًا عَنْ تَحْيَلٍ نَاطِمٍ⁵⁶¹

فَالْكَاطِمُ هُوَ السَّيِّدُ الَّذِي وَرِثَ الْمَجْدَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ حَتَّى طَلَعَ فِي بُرْجِ الْفَخَارِ مُتَأَلِّقًا بَعَلُو لَمْ يَشُبْهُ أَيُّ عَيْبٍ، فَهُوَ الَّذِي سَمَتْ مَفَاخِرُهُ حَتَّى جَلَّتْ عَنِ التَّشْبِيهِ بغيره، حَيْثُ أَتَى بِالتَّشْبِيهِ الضَّمْنِيِّ، فَإِذَا كَانَ الطَّائِيُّ حَاتِمًا (ت. 46ق.هـ/605م) وَعُرَابَةُ الْأَوْسِيِّ (ت. 60هـ/680م) يُضْرَبُ بِهِمَا الْمَثَلُ فِي الْجُودِ

⁵⁶⁰ د.ر.ت، 270.

⁵⁶¹ د.ر.ب، 53.

والسَّخاء،⁵⁶² فَأَتَى لكرمهما وجودهما أَنْ يَرْقَى إِلَى فَيَاضِ جودِ كَفِّ موسى الكاظمِ وهل يُشَبَّهُ الْبَحْرُ بِالْقَطْرِ؟، أم كيف لمفاخرِهِ أَنْ تُحِيطَ بِهَا الْأَخِيلَةُ إِذْ هِيَ الَّتِي جَلَّتْ عَنْ أَنْ تُحِيطَ بِهَا أَشْعَارُ شَاعِرٍ أَوْ نَظْمُ نَازِمٍ؛ وقد جاءَ في البيت الأخير بالبدِيعَةِ المعنويَّةِ المُسمَّاةِ بحسن التَّعْدِيدِ حيث استدعى لممدوحِهِ صفاتٍ مدحيَّةً مُفْرَدَةً مُعَرَّفَةً مُتَلَايِمَةً في معاني القوَّةِ والإجلالِ فيما بينها (ذخري، الهزبر، الأروع، الفحل)، فتجاوَرَت مُتْرَاصَّةً إلى بعضِها البعض محشودةً للدَّلالةِ على فائقِ تعظيمِ المادِحِ لممدوحِهِ وإِعجابِهِ بِشَمَائِلِهِ وَخِصَالِهِ.

وممن مدحهم أبو الهُدَى من أعيان أهل البيت عليّ الرِّضا بن موسى الكاظم (ت. 203هـ/818م)، إِذْ أَلْحَقَ مَدِيحَهُ بِمَا يُنْسَبُ لِأَبِي نَوَاسٍ لَمَّا سُئِلَ عَنْ عَدَمِ مَدْحِهِ لِعَلِيِّ الرِّضَا فَأُجَابَ:

قُلْتُ: لَا أَسْتَطِيعُ مَدْحَ إِمَامٍ كَانَ جَبْرِيلُ خَادِمًا لِأَبِيهِ⁵⁶³

فَأَلْحَقَ بِهِ أَبُو الْهُدَى مَا يَقْرُبُ مِنْ مَعْنَاهُ، فَجَعَلَ مَدِيحَ هَذَا الْإِمَامِ فَخْرًا يَفْخَرُ بِهِ نَازِمُهُ، وَكَيْفَ لَا وَأَبُوهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي كَانَ بَيْتُهُ مَهْبَطًا لِلْمَلَائِكَةِ وَمُتَنَزِّلًا لِرَحْمَاتِ السَّمَاءِ وَبَرَكَاتِ الْقُرْآنِ:

إِنَّ مَدْحَ الرِّضَا عَلِيِّ لِعَمْرِي يَفْخَرُ الْمَادِحُ الْمَفَاخِرُ فِيهِ
كَعَبَةِ الْأَمْنِ مَهْبَطُ الرُّوحِ جَبْرِيلُ لَ الْأَمِينِ بَيْتُ أَبِيهِ⁵⁶⁴

⁵⁶² يُنْظَرُ: الزَّركلي، الأعلام، 151/2؛ المحسن بن علي التَّنُوخِي، المُستَجَادُ مِنْ فَعَالَاتِ الْأَجْوَادِ، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، (بيروت: دار الكتب العلميَّة، 1426هـ/2005م)، 64.

⁵⁶³ شمس الدين بن خَلِّكَان، وَفَيَاتُ الْأَعْيَانِ، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت: دار صادر، 1970م)، 270/3؛ (والبيت لم أجدهُ في ديوانِ أبي نواس).

⁵⁶⁴ د.ر.ح، 147.

وقد فُطِنَ المادحون إلى تَهْمَةِ الرِّفْضِ المَوْجَّهَةِ إِلَيْهِمْ إذا ما هم بادروا إلى مدح آل البيت وأعيانهم من الأئمة، فراحوا ينفون ما أُصِيقَ بهم، معبرين عن ولائهم الشريف الأُسْنَى لآل البيت، ومنهم الشَّافِعِيُّ (ت. 204هـ/819م) فيما نُسِبَ إليه أَنَّهُ نفى أن تكون محبة آل البيت رفضاً، وَلَئِنْ كانت كذلك بزعم الزاعمين فقد راح يُشْهِدُ الإنس والجنَّ على أَنَّهُ رافضيٌّ، فقال:

إِنْ كَانَ رَفْضًا حُبُّ آلِ مُحَمَّدٍ فَلْيَشْهَدْ الثَّقَلَانِ أَنِّي رَافِضِيٌّ⁵⁶⁵

وَتَبَعَهُ أَبُو الْهَدَى الَّذِي خَاطَبَ حُسَّادَهُ الَّذِينَ رَمَوْهُ بِتَهْمَةِ الرِّفْضِ لما انطوى عليه من محبة علي المرتضى وآل بيته، فقال:

حَسِبَ الْجَاهِلُ الْحُسُودُ بَأَنَّ الـ حُبَّ لِلْمُرْتَضَى وَلِلآلِ رَفْضًا
مَا دَرَى أَنَّ حَظَّهُ قَدَّمَ الرَّاءِ ءَ وَقَبْلَ التَّقْدِيمِ قَدْ كَانَ فَرَضًا⁵⁶⁶

فهو يُعَلِّلُ اتِّهَامَهُ بِالرِّفْضِ تَعْلِيلًا لَطِيفًا، إذ يجعل الحاسد سيء الحظِّ في حبِّ أهل البيت حيثُ قَدَّمَ حرفَ الرَّاءِ على حرفِ الفاء فصار (رفضاً) بعد أن كان (رفضاً)، لذا يجد النَّاطِرُ في مدح أبي الهُدَى تكراره لهذا المعنى من أَنَّ محبة أهل البيت فرضٌ دينيٌّ على كلِّ مؤمنٍ، وقديماً ردَّدَ الفرزدق (ت. 110هـ/728م) هذا المعنى فقال:

مِنْ مَعَشَرٍ حُبُّهُمْ دِينٌ وَبُغْضُهُمْ كُفْرٌ وَقُرْهُمُ مَنَجَى وَمُعْتَصَمٌ⁵⁶⁷

⁵⁶⁵ أبو القاسم الحسين بن علي المغربي، أدب الخواص، تحقيق: حمد الجاسر، (الرياض: دار اليمامة، 1400هـ/1980م)، 96.

⁵⁶⁶ د.ف.م، 159.

⁵⁶⁷ الفرزدق همام بن غالب، ديوان الفرزدق، تحقيق: علي فاعور، (بيروت: دار الكتب العلميَّة، 1407هـ/1987م)، 511.

وقد جاء أبو الهدي بالمعنى ذاته مسوقاً مع الاقتباسات القرآنية التي تُشيرُ إلى فضل أهل البيت، وجاعلاً من محبتهم حبل النجاة يوم القيامة، فقال وقد شبه حُبهم -تشبيهاً بليغاً- بحبل السلامة الذي يُتَشَبَّثُ به إن ما أُريدت النجاة في الآخرة:

مودَّةُ أهل البيتِ فرضٌ كما يُدرى وحُبُّهم حبلُ السلامةِ في الأخرى
وقد نزل القرآن حولُ بُيوتهم وفي (قل تعالوا) زادهم ربُّهم قدراً
وفي آية (القربي) وفي (هل أتى) أتى لمجدِهم شأنٌ سما في الورى ذكرًا⁵⁶⁸

فهو يمدحهم بعروجهم إلى أفق المعالي لما تنزل القرآن في بيوتهم، وجاءت آيات الذكرِ مُعْظَمَةً لشأنهم، مشيراً إلى الآيات القرآنية الثلاثة، التي أوَّلها: هي قول الله مخاطباً نبيّه المصطفى عليه السلام بشأن أهل الكتاب: "فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ"،⁵⁶⁹ فلم يكن من النبيِّ الكريم إلا أن أتى بالحسن والحسين وعليٍّ وفاطمة رضوان الله عليهم ليباهلهم، فما إن رأوهم حتى قال قائلهم: "إني لأرى وجوهاً لو سألو الله أن يزيلَ جبلاً من مكانه لأزاله"⁵⁷⁰ ثم أشار إلى الآيات الأخرى وهي قوله تبارك وتعالى: "قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى"،⁵⁷¹ وقوله: "وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا"،⁵⁷² حيث أشار المفسِّرون إلى أنَّها نزلت في أبي الآل الكرام عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه،⁵⁷³ وفي تلك الآيات

⁵⁶⁸ د.ف.م، 103.

⁵⁶⁹ آل عمران، 61/3.

⁵⁷⁰ أبو إسحاق أحمد التُّلَعِيّ، تفسير التُّلَعِيّ، تحقيق: الطاهر بن عاشور، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1422هـ/2002م)، 85/3.

⁵⁷¹ الشورى، 23/42.

⁵⁷² الإنسان، 8/76.

⁵⁷³ يُنظر: البغوي، المعالم، 294/8.

جميعاً يرى أبو الهُدَى إشاراتٍ إلى علوِّ رفعةِ أهل البيت، وتخليد ذكرهم، فما كان منه إلا أن سحر تلك الآيات باقتباسٍ ليزيد من قوَّة حضورِ مديحه وأثره في نفوس المتلقين.

ويمكن القول بناءً على ما سبق: إنَّ المديح لآل البيت عند أبي الهُدَى كان مُقيِّداً بمذهبه السُّنِّي المعتدل فلم يَمِلْ كُلَّ الميل فيذهب مذهب الإفراطِ القائل بعصمة آل البيت وتنزيههم عن المعاصي، أو الحطِّ من رُتبة غيرهم من الصحابة الكرام.

ب الصحابة

سبقت الإشارة إلى أنَّ أبا الهُدَى جعلَ محبةَ الفريقين -الآل والصحب- كفتان لا يُطَقَّف مؤمنٌ خالصُ الإيمانِ فيهما، فلا غرو أن يكون قد أفردَ للصحابة حظاً وافراً من مدائحه، وهي التي جاءت تارةً بمقاطع تخللت القصائد الطوال، وتارةً أخرى بقصائد مُستقلة كلُّ واحدةٍ منها تمدح فرداً من أفرادهم وعلماً من أعلامهم. فمما مدح به جمع الصحابة الكرام، مقطعٌ تضمَّنَتْه قصيدته التي يقول في مطلعها:

ما الرَّادُّ من دارِ العُزورِ بزادٍ إلا التُّقى وخلائقُ الزُّهادِ⁵⁷⁴

فهو بعد أن استهلها بهذا المطلع الذي يُرغَّب في الآخرة ويُرَهَّد في الدنيا ومتاعها الزَّائل ثم استطرَد في التَّحذير من المغترِّين بالغرور، أحسنَ التَّخلُّص إلى مدح الصحابة بعد أن وصم طوائف المغترِّين بأنَّهم الضَّالُّون عن منهج السَّلامة، ثم عرَّج إلى هذا المنهج المُقامة أركانه من قِبَل أعظم النُّقاد، فقال مُستطرِّداً:

لم يهدهم رأيٌ سليمٌ للذي درجت عليه أعظمُ النُّقادِ

⁵⁷⁴ د.ر.ع، 27.

فأولئك النُّقَّادُ قَوْمٌ طَوَّرَهُم طَوْرُ النَّبِيِّ وَحَزَبِهِ الْأَمْجَادِ⁵⁷⁵

ومن أعاضِمِ النُّقَّادِ الذين عرفوا حقيقةَ الدُّنيا التَّفتَ شَارِعًا في مدحِ جُمْلَةِ الصَّحَابَةِ الْكَرَامِ رَضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهِمُ،
الذين هم حَزْبُ النَّبِيِّ الْأَكْرَمِ، فمدَحَ جهادَهُم في سبيلِ اللَّهِ لإِعْلَاءِ كَلِمَةِ الْحَقِّ ونشرِ دينِ الْهُدَى،
فقال:

صَانُوا حِمَى الدِّينِ الْمُبِينِ بِعِزِّهِمْ وَحَمَوْا مَعَالِمَهُ مِنَ الْأَضْدَادِ
نَهَضُوا لِإِعْلَاءِ الْهُدَى فَسَيَّوْفُهُمْ فِي اللَّهِ لَمْ تَدْخُلْ إِلَى الْأَغْمَادِ
مَحَقُّوا قَتَامَ⁵⁷⁶ الظَّالِمِينَ وَفِي الْوَعَى مَزَجُوا بِيَاضَ رِقَائِهِمْ بِسَوَادِ
فَكَأَنَّمَا الْقَرْيُوسُ⁵⁷⁷ كَعْبَةُ أَنْسِهِمْ فِي سُوحِ مَعْرَكَةٍ وَعَجَّ جِهَادِ⁵⁷⁸

وهنا يُبرِّزُ أبو الْهُدَى مَدَى اهْتِمَامِهِ بِمدحِ جِهَادِ الصَّحَابَةِ مِنْ خِلَالِ إِيْتْيَانِهِ بِالْكَلِمَاتِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى
عِظَمِ ذَلِكَ الْجِهَادِ وَبُلُوغِهِ الذَّرْوَةَ فِي كُلِّ وَصْفٍ أَتَى بِهِ (نَهَضُوا، مَحَقُّوا، كَعْبَةُ أَنْسِهِمْ)، فَالصَّحَابَةُ نَهَضُوا
بَأَمْرِ الْجِهَادِ مَتَيْقِظِينَ وَقَامُوا بِمَهْمَّتِهِ أَتَمَّ الْقِيَامِ، لَتَعْلُو رَايَاتُ الْحَقِّ الْمُبِينِ وَتُصَانَ بَيِّضَةُ الْإِسْلَامِ،
وَبِإِخْلَاصِهِمْ لَمْ يُعَمَّدُ سَيْفٌ لَهُمْ فِي قِرَابِهِ كَنَائَةً عَنْ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مُخْلِدينَ إِلَى الْأَرْضِ وَزِينَةِ الدُّنْيَا وَمَتَاعِهَا
الرَّائِلِ، فَقَدْ تَنَقَّلُوا مِنْ حَرْبٍ إِلَى حَرْبٍ لَتَعْلُو كَلِمَةُ الْعَدْلِ وَيُحْيَى الظَّالِمُونَ مُحَوًّا لَا يَبْقَى مَعَهُ أَيُّ أَثَرٍ
لَهُمْ، وَفِي الْبَيْتِ الْأَخِيرِ سَاقُ التَّشْبِيهِ الْمُرْسَلِ الْمُجْمَلِ -بِحَذْفِهِ لَوَجْهِ الشَّبْهِ (التَّعْظِيمِ وَالْإِجْلَالِ)-
فَجَعَلَ مِنْ سُرُوجِ الْخَيْلِ لَيْسَتْ ذُرْوَةً لَدَّتْهُمْ بَلِ الْكَعْبَةُ الَّتِي يَقْصِدُونَهَا حُبًّا وَإِجْلَالًا لَيْتَمَ لَهُمُ الْأَنْسُ
وَالْارْتِيَاخُ فِي سَاحَاتِ الْوَعَى.

⁵⁷⁵ د.ر.ع، 27.

⁵⁷⁶ السَّوَادُ، يُنْظَرُ: ابْنُ مَنْظُورٍ، "قَتَمَ"، 460/12.

⁵⁷⁷ جَنُوسُ السَّرَجِ، وَالْقَرْيُوسَانِ هُمَا مُتَقَدِّمُ السَّرَجِ وَمُؤَخَّرُهُ، وَهُمَا فِي سَرَجِ الْخَيْلِ كَالشَّرِيحَيْنِ فِي رَحْلِ الْإِبِلِ، يُنْظَرُ: الزَّيْبِيدِي، "قَرْبَسَ"، 361/16.

⁵⁷⁸ د.ر.ع، 27.

ومن مدح جمع الصحابة ينتقل أبو الهدي فيخصص مدحا مستقلة في أعيانهم، حيث نال الخلفاء الأربعة قسطاً من مدائحهم، وإلى جانبهم خالد بن الوليد وأبو أيوب الأنصاري (ت. 52هـ/674م) رضوان الله عليهم، وقد كانت المدح ضمن مقاطع في قصائده الطوال، أو في قصائد خاصة بكل شخصية على حدة. وفي طليعة الممدوحين الصديق أبو بكر رضي الله عنه، فقد مدحه أبو الهدي بقصيدة مفردة جاءت بواحد وثلاثين بيتاً، استهلها بقوله:

بعزم أمير المؤمنين أبي بكرٍ لقد خفقت للدين ألوية النصر
حبيب رسول الله صديقه الذي طوى حبه في حالي العسر واليسر
وهام به في مذهب الصديق موقناً به قبل أن تبدؤ الشؤن من الخدر⁵⁷⁹
ويلاحظ أن أبا الهدي قد تجاوز مرة أخرى التقليد المتبع لدى عامة الشعراء من التمهيد بالنسيب وغيره، واستفتح القصيد بالمديح المباشر لعزيمة خليفة المسلمين الأول، الذي جعل رايات الحق مرفقة خفاقة، وهي كناية تحكي نصر المؤمنين ودين الإسلام، ومضى أبو الهدي مختاراً لممدوحه المعاني الدينية البحتة التي ارتبطت بعلاقته برسول الإسلام وهيامه بهذا الرسول الكريم وتجاذب المحبة بينهما، وصدق يقينه وإيمانه به في كل الأحوال، وفي عجز البيت الأخير كناية عن أن إيمانه وتصديقه كان قبل أن يستوي زرع الدين على سوقه ويشتد أمره؛ ثم يستطرذ إلى مدح حال أبي بكر وعزيمته الشماء بعد وفاة النبي الأكرم وما نهض به من حزم بقتال أهل الردة في القرى والبوادي، فقال:

ولما قضى المختار قام مقامه وأحكم أمر الدين في المدين والقفر
ولولاه شل العزم وانقصم الرجا وفل نظام الحكم في النهي والأمر
وراح بأمرات القناعة زاهداً كأحمد أفنى العمر في ذلك الإثر⁵⁸⁰

⁵⁷⁹ د.ر.ت، 119؛ والحدرد واحد الأخدار ويراد به الستارة والحجاب وكل ما يوارى، يُنظر: أحمد مختار، "خدر"، 618/1.

⁵⁸⁰ د.ر.ت، 120.

ولتقوية المعنى الذي أرادَهُ في البيت الأوّل من مدحٍ لعزيمة الصّديقِ وحزمِهِ، عمد أبو الهُدَى إلى تلكَ المعاني المجرّدة -من همّةٍ ورجاءٍ وسياسةٍ- فنفعَ فيها روحَ الحياة، فجعل من عزيمة أهل الإسلام ذاتًا أصابها الشّكل لولا أن تداركها ماضي همّة الصّديق، ومن رجاء أهل الإسلام ذاتًا انقصمَ ظهرها لولا صارمُ عزمه، أمّا نظامُ الحكم فقد جعلهُ حُسامًا أصابتهُ فُلُولُ التّفلّتِ والانفراط لولا ثاقبُ رأيهِ -وكلُّ ذلك على سبيل الاستعارة المكنيّة-، ثم انبرى يخلعُ على ممدوحِهِ حُلَلِ السّيرِ على إثرِ الهادي أحمدَ عليه السّلام فجعلَ القناعةَ -بالتّشبيه البليغ- والرّهدَ حُلّةً قد تزيّا بها الصّديقُ وراح يرفُلُ بها عُمرُهُ كُلُّهُ إلى أن لقيَ الله.

وخلال مدحِهِ النّبويّة الطّويلة التي يقولُ في مطلعِها:

لَكَ فِي مَهْمِهِ⁵⁸¹ التّجَلّي البهاءُ يا نبيّا نُؤابُهُ الأنبياءُ⁵⁸²

يستطرّد أبو الهُدَى فيها منتقلًا إلى مقطعٍ يمدّخ فيه الصّديقَ فينتقلُ بأسلوبِ التّفريع من الصّفات الدّينيّة إلى الصّفات التّقليديّة التي منها -الكرم والجود-، مُحلّيًا البيت الأوّل بإطناب التّكرير (الكلّ/سيّد الكلّ) وكأنّه يتلذّدُ بتكرارِ هذه المفاخر التي حازها ممدوحُهُ الصّديق:

باذلّ الكلّ في هوى سيّد الكلّ لٍ ويتلو صدق الغرام السّخاءُ

شيمٌ تنضحُ العبيرَ ومنها لاح للعينِ جنةٌ خضراءُ⁵⁸³

وبتعرّيجِهِ على الصّفات الحميدة أجمعها لهذا الممدوح أوجزَ فاستعارَ لها ندى الورود التي ترشّخ بالشّدَى العاطر -على سبيل الاستعارة المكنيّة-، واستعارَ لهذه الأخلاق نضارة الجنان الحُضر التي يزدهي

⁵⁸¹ المفازة، يُنظر: الجوهري، "مه"، 2250/6.

⁵⁸² د.م.ش، 6.

⁵⁸³ د.م.ش، 18.

أَلْفُهَا فِي عِيُونِ النَّاطِرِينَ - مِنْ طَرِيقِ الاسْتِعَارَةِ التَّصْرِيحِيَّةِ -؛ جَاعِلًا مِنَ الْمَدْحِ عِبْرَ اسْتِخْدَامِهِ لِهَاتَيْنِ
الاسْتِعَارَتَيْنِ قُوَّةً مُؤَثِّرَةً فِي الْمُتَلَقِّي تَوْكِّدَ عِظَمِ هَذَا الْمَمْدُوحِ، وَتَغْرِسُ فِي أَفْئِدَةِ السَّامِعِينَ لِهَذَا الْمَدْحِ غَرْسَ
الْحُبَّةِ وَالْإِجْلَالِ لَهُ.

وَيَبْنَعُ الصِّدِّيقُ فِي الْمَدِيحِ الْفَارُوقُ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الَّذِي نَالَ قَصِيدَةً مُفْرَدَةً مِنْ أَبِي
الْهُدَى جَاءَتْ بِثَلَاثَةِ وَثَلَاثِينَ بَيْتًا، ابْتَدَرَ مَطْلَعُهَا بِالْمَدِيحِ الْمُبَاشِرِ دُوْنَمَا تَمْهِيْدٍ، قَارِنًا السَّلَامَ عَلَى أَمِيرِ
الْمُؤْمِنِينَ عَمْرٍ مَفْحَرَةً الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، مُوَشِّيًا الْمَطْلَعَ بِالتَّصْرِيحِ قَائِلًا:

عَلَيْكَ دَهْرًا سَلَامٌ اللَّهُ يَا عَمْرُ ففِيكَ لَا زَالَ دِينُ اللَّهِ يَفْتَخِرُ
عَالِي الْجَنَابِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَبُو حَفْصٍ كَرِيمُ الْخِصَالِ الْأَوْرَعُ الْخَطِرُ⁵⁸⁴
ثَانِي الْوُزَيْرِينَ وَالْقَرْمُ⁵⁸⁵ الْمُهَابُ وَمَنْ مِنْ أَرْزِهِ قَامَ عَنْ دِينِ الْهُدَى وَزَرُ⁵⁸⁶

وَيَحْشِدُ فِي الْبَيْتِ الثَّانِي وَالَّذِي يَلِيهِ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ الَّتِي يُمدِّحُ بِهَا ممدوحه، فَتُضْفَى عَلَيْهِ صُورَةٌ مِنْ
صُورِ الْكَمَالِ الْإِنْسَانِيِّ، فَالْفَارُوقُ هُوَ السَّيِّدُ الْمَهِيْبُ الَّذِي لَا يُدَانِي شَرْفًا وَسُؤْدَدًا، وَهُوَ الرَّفِيعُ الشَّانِ
وَالْحَمِيدُ الشَّمَائِلِ الَّذِي يَرُوقُ فِي عَيْنِ كُلِّ نَاطِلٍ إِلَيْهِ، ثُمَّ يَنْتَقِلُ بِمَدْحِهِ إِلَى مَدْحِ الصِّفَاتِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي
نَالَهَا فَهُوَ الَّذِي قَرَّتْ بِهِ عَيْنَ الْوَرَعِ حَتَّى صَارَ مِثَالًا لَهُ، وَهُوَ الْوَزِيرُ الثَّانِي لِلْمُصْطَفَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْجَبِلُ
الشَّامِخُ الَّذِي بَعَزَمَهُ وَهَمَّتْهُ أَنْهَدَ جَبَلٌ مِنَ الْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ وَالْأَخْطَارِ الَّتِي أَحَاطَتْ بِالْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَلَا
يُنْسَى أَبُو الْهُدَى تِلْكَ الْمَآثِرَ الَّتِي تَلَأَلَّتْ بِهَا كُتُبُ التَّارِيخِ عِنْدَمَا أَتَتْ بِتَرْجُمَةِ الْفَارُوقِ، فَجَعَلَهَا - مِنْ
طَرِيقِ الاسْتِعَارَةِ الْمَكْنِيَّةِ - تَعْصُ بِمَا امْتَلَأَتْ بِهِ مِنْ تِلْكَ الْمَآثِرِ الْعُمَرِيَّةِ:

⁵⁸⁴ الْخَطِرُ هُوَ الْعَالِي الشَّرَفِ وَالْمَقْدَارِ، يُنْظَرُ: ابْنُ مَنْظُورٍ، "رُوع"، 251/4.

⁵⁸⁵ السَّيِّدُ الْمَكْرُمُ الَّذِي لَا تَعْتَرِيهِ ذُلَّةٌ، يُنْظَرُ: الْجَوْهَرِيُّ، "قَرْمٌ"، 2009/5.

⁵⁸⁶ د.ر.ت، 120.

آيَاتُكَ الْبَيْضُ لَا تُحْصَى مَفَاخِرُهَا غَصَّتْ بِهَا كُتُبُ الْإِسْلَامِ وَالسِّيَرِ
(لو كان بعدي نبي) في الحديث أتى بشأن عِزِّكَ إِرْغَامًا لِمَنْ كَفَرُوا
فَرَحْمَةً تَجْعَلُ الْأَطْفَالَ فِي مَرْحٍ وَبَأْسٍ عَدِلٍ لَدَيْهِ يَرْجِفُ الْحَجَرُ⁵⁸⁷

وقد وصف آياته ومآثره بناصع البياض كناية عن حسنها ورفيع شرفها النقي الذي لم تشبه شائبة من النقايس أو المعايير، ولتأييد هذا المعنى حرص على أن يستحضر في البيت الثاني الاقتباس من كلام النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم "لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب"،⁵⁸⁸ ثم عرج إلى الميزان الفاروقي المنصوب في رعيته فنكر الرحمة التي حواها قلبه إعظاماً لشأنها الذي امتد ليشمل حتى صغار الرعية، وعرف شدة العدل ليدل على عظمه وشموله كل أركان دولته، واستعار -استعارة مكنية- وصف الارتجاف للحجر ليبرز باهر قوة تلك العدالة الفاروقية التي ازدانت بها مناقب الفاروق، وهي تلك المناقب التي مدحها في موضع آخر ضمن مقطع في مدحة نبوية قال فيها:

ما ذكرنا منه المناقب إلا أسكرتنا من دورها صهباء⁵⁸⁹

فهو يجعل من سمو تلك المناقب العمرية وجمال تلك المآثر الفاروقية سلافاً تُثْمِلُ الحاضرين إذا ما جال ذكرها في مسامعهم؛ ويؤكد هذا المعنى المراد بأسلوب القصر الإضافي ليُعْلِي عبر هذا الأسلوب شأن مناقب ممدوحه الفاروق رضي الله عنه.

⁵⁸⁷ د.ر.ت، 120.

⁵⁸⁸ أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني، فضائل الصحابة، تحقيق: وصي الله محمد عباس، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1403هـ/1983م)، 436/1، (رقم 694).

⁵⁸⁹ د.م.ش، 18؛ والصهباء هي الخمر المعصورة من العنب الأبيض، يُنظر: أحمد مختار، "صهب"، 1326/2.

وقد أنال أبو الهُدَى رابعَ الخُلفاءِ عليّاً رضي الله عنه الخطَّ الوافر من مدائِحِهِ، فقد أفردَهُ بعدَّةَ قصائدٍ⁵⁹⁰ مُستقلَّةٍ سوى التَّنَفِّ الصِّغار التي أُودِعَتْ في ثنايا دواوينِهِ، كمثَّل تلك التي يُخاطِبُ فيها مَنْ يَكِيلُ لَهُ اللُّومَ في محبَّةِ عليٍّ، فراح يُخاطبه مُقَرَّعاً مُتَعَجِّباً من قُبْحِ كلامِهِ:

عَجَبًا من قائلٍ حُبُّ عليٍّ لك دأبٌ قلتُ يا هذا الحَلِيَّ
قد تَطَاوَلَتْ بقولٍ سَمِجٍ⁵⁹¹ أنا ديني في الورى حُبُّ عليٍّ⁵⁹²

فأبو الهُدَى إذا ما كان قد رأى محبَّةَ آل البيت فرضاً فلا غرو من أن يرى محبَّةَ عليٍّ ديناً وفرضاً، لا سيَّما وهو أبو الآل ومُقدِّمُهم، ووزيرُ نَبْعَةِ مجدِّهم المصطفى عليه السلام، والنَّائِلُ لَشَرَفِ مؤاخاتِهِ ومُصَاهَرَتِهِ ومُصَافَاتِهِ؛ ولهذا فهو ينبري في مديحِهِ بموضعٍ آخر من قصيدةٍ مُفردةٍ، مُسبِّلاً عليه هذه الصِّفات وجاعلاً منها إكسيرَ شفاءٍ لمن ابتليَ بَعْضَالٍ داءٍ أعماهُ عن ضوءِ هذه المناقب، فيقول مُضْمِنًا أبياتَهُ ما يُطَرِّبُ السَّمْعَ من الجناس الاشتقاقي (روح/راح/روحي):

عَلَّمُ الآلِ وصِنُو المصطفى روحُ تريقِ السَّقَامِ المعضِلِ
حُبُّهُ رَاحِي ورُوحِي أبداً رأسُ مالي حين يبدو عَمَلِي⁵⁹³

فهو يُرَكِّزُ على محبَّةِ هذا الإمام ويجعلُ من هذه المحبَّةِ ذُخْراً لَهُ عند عرضِ الأعمالِ على الله، وهذا المعنى مما ردَّدَتْهُ كثيراً ألسنةُ الشُّعراءِ، حيثُ جعلوا من المحبَّةِ للمصطفى عليه السلام ومَنْ يلوذُ بِهِ من عتَرَتِهِ الطَّاهِرَةِ زاداً لهم يومَ المعاد، كقول أحمد الكيواني (ت. 1173هـ/1760م):

⁵⁹⁰ يُنظر: د.ف.م، 114-116؛ د.ر.ت، 159، 179، 181؛ د.ر.ع، 65.

⁵⁹¹ من السَّماجة وهي الفُحج، يُنظر: الجوهري، "سمج"، 322/1.

⁵⁹² د.ر.ح، 173.

⁵⁹³ د.ر.ت، 181.

مالي سوى حُيِّي لآل مُحَمَّدٍ أَمَلٌ به أرجو فَكَأَكْ صِفَادِي⁵⁹⁴

وقول ابن الوردي (ت. 749هـ/1349م) وقد جعل محبَّتهم دُخْرَهُ وإكسيرَ الغفران لخطاياهم الجَمَّة:

وماليَ إلا حبُّ آلِ مُحَمَّدٍ فكم جَمَعُوا فضلاً وكم فُضِّلُوا جَمْعًا
محبَّتُهُمْ تَرِيَّاقُ زَلَّاتِي التي يُحِيلُ لي مِنْ سِحْرِهَا أَنَّمَا تَسْعَى⁵⁹⁵

أَمَّا أَبُو الهُدَى فقد جعلَ من محبَّة المصطَفَى وهيامِهِ بصنْوِهِ أَبِي الْآلِ الْكَرَامِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ذَخْرَهُ الْمُتَيْنِ وَزَادَهُ لِيَوْمِ الدِّينِ، فقال من قصيدةٍ مُفْرَدَةٍ استهلَّ مطلعُها بشرحِ غرامِهِ وهُيَامِهِ المتوقِّدِ، فاستعارَ - استعارَةً مَكْنِيَّةً - للغرامِ وصفَ الإنسانِ الذي يمشي إلى أن حَطَّتْ به الرَّحَالُ في قلبِ الشَّاعِرِ، لِيُعَبِّرَ عن تغلُّغِ تلكِ المحبَّةِ والصَّبَابَةِ بِمَدْوَحِهِ في قلبِهِ الْوُلُوهِ، ثم أَحَسَّنَ التَّخْلُصَ إلى مدحِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - الذي كَتَبَ عَنْهُ إِعْظَامًا بِسَاكِنِ النَّجَفِ -، بعدَ أن كَرَّرَ حَرْفَ النِّدَاءِ (يا) ليرنَّ في سَمْعِ الْقَارِئِ صوتُ ممتدٍّ يحكي شِدَّةَ ما يعانِيهِ الشَّاعِرُ من هذا التَّلَهُّفِ والتَّشَوُّقِ:

سَارَ الْعَرَامُ بَقَلْبِي فَاسْتَقَرَّ بِهِ يَا طُولَ وَجْدِي وَيَا آهِي وَيَا لَهْفِي
وَلَيْسَ لِي فِي عَدِّ مَا أَسْتَعِينُ بِهِ إِذَا سَأَلْتُ عَنْ التَّفْرِيطِ وَالسَّرَفِ
سَوْى وُلُوهِي بَطَّةَ الْمَصْطَفَى أَبَدًا وَصَدُقْ حُيِّي لَذَخْرِي سَاكِنِ النَّجَفِ⁵⁹⁶

ثم يستطرِدُ مادِحًا هذا الإمامَ ومُعَبِّرًا عما انطَوَّتْ عَلَيْهِ سِرِّيَّتُهُ من بالغِ الغرامِ وخالصِ المحبَّةِ التي امتزجتَ بِرُوحِهِ وَعُجِنَتْ بِدَمَاءِ قَلْبِهِ وَسَرَتْ فِي كُلِّ أَرْجَاءِ ضَمِيرِهِ وَسِرِّهِ، وَيُشِيرُ مَرَّةً أُخْرَى وَلَكِنْ

⁵⁹⁴ أحمد بن حسين الكيواني، ديوان أحمد الكيواني، تحقيق: عمر نبهان، (دمشق: المطبعة الحنفيّة، 1301هـ/1883م)، 68؛ والصِّفَادُ واحدُ الأصْفَادِ وهي القيود، يُنظَرُ: أحمد مختار، "صفد"، 1301/2.

⁵⁹⁵ زين الدِّين عمر بن الوردي، ديوان ابن الوردي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، (القاهرة: دار الآفاق العربيّة، 1427هـ/2006م)، 263.

⁵⁹⁶ د.ر.ت، 159.

بطرفٍ خَفِيٍّ إلى الأَصَالَةِ الْعَلَوِيَّةِ التي حازَهَا بالانتسابِ إلى هذا الإمامِ إذ مَدَحَهُ فجَعَلَهُ أَصْلَ المَجْدِ الذي قد حِيزَ لَهُ، وذلكَ بعد أن استعارَ للمجدِّ وصفَ البيتِ وذكرَ لازِمَهُ وهو العمودُ -من طريق الاستعارة المكنيَّة-، ثم أَرَدَفَ بذكر صفات المدح الأخرى فهو حَيْدَرَةُ الشَّجَاعَةِ سامي المقام وإمام سَادَةِ الأُمَّة من السَّلفِ الماضين:

عمودٌ مَجْدِي الوَصِيِّ الأروغ⁵⁹⁷ الأسدُ الـ عالي الجَنَابِ إمامُ السَّادَةِ السَّلفِ
وَفِي عَهْدٍ بَقَلِي ذِكْرُهُ أَبَدًا يجري وفي طَيِّ رُوحِي والضَّمِيرُ وَفِي⁵⁹⁸

وقد ظهرَ في البيتِ الأخيرِ البديعَةُ اللَّفْظِيَّةُ التي أتى بها فردَّ بها العجزَ على الصِّدْرِ (وفي/وفي) زيادةً في جماليَّةِ مدحِهِ لممدوحِهِ وتقويَّةً لانبلاجِ العاطِفَةِ الصَّادِقَةِ التي دفعَتْهُ لمدحِهِ؛ ولَمَّا كانت الشَّجَاعَةُ هي أبرُّ الصِّفَاتِ التي التصَّقتُ بهذا الممدوحِ فَإِنَّ أبا الهُدَى لم يكن بِمُهْمِلٍ لها في مديحِهِ فقد كَرَّرَهَا في موضعٍ آخرٍ من قصيدةٍ أُخرى زادت على أربعين بيتًا، استهلَّها بالمديحِ المباشِرِ للصِّفَاتِ الدِّينِيَّةِ التي على رأسِها أَنَّهُ أميرُ المؤمنين ورابعُ أئِمَّةِ المسلمين، ومدحَهُ قُرْبَةً يَحُوزُهَا من قَلٍّ زَادُهُ من أمثالِ المادِحِ، حيثُ قال:

كنزُ المُقِلِّ سلاحُ الخائفِ الوَجِلِ مدحُ الإمامِ أميرِ المؤمنين عَلِيٍّ⁵⁹⁹

ثم تعرَّضَ بعد ذلكَ لمدحِ صفةِ الشَّجَاعَةِ فاخترَ لها الكلماتَ ذاتِ الجَرَسِ المجلجلِ والحروفِ الجهرِيَّةِ والمعاني القويَّةِ التي تَرُنُّ في الأسماعِ قبل أن تستقرَّ في القلوبِ (جحججاج الكتائب، الفقار، العجّ، الموج، جموع، مدوّر) وكلُّها يحكي قوَّةَ تلكِ الصِّفَةِ وتمكُّنِها لدى الإمامِ علي:

⁵⁹⁷ الأروغ من الرجال الذي يتعجب كل من ينظر إليه من حسنه وكماله، يُنظر: ابن منظور، "روع"، 135/8.

⁵⁹⁸ د.ر.ت، 159.

⁵⁹⁹ د.ر.ت، 179.

رَبُّ الْعَجَائِبِ جَحْجَاحٌ⁶⁰⁰ الْكَتَائِبِ فَيْدِ يَاضُ الْمَوَاهِبِ وَالْحَلَّالُ لِلْعُقُلِ
 كَمَ مَرَّةٍ مَرَّ فِي صَفٍِّ وَعَارَضُهُ بَذِي الْفِقَارِ فَصَارَ الصَّفُّ فِي شَلِّ
 وَثَارٍ وَالْعَجُّ يَرْمِي مِنْ مُدَوَّرِهِ مَوْجًا فَرَدَّ جُمُوعَ الْعَيِّ بِالْفَشَلِ⁶⁰¹
 فهو يمدح الإمام بأنه "الحلال العُد" وكأنَّ لام التعريف تحكي الكمال لرجاحة هذا العقل، وهي التي
 جعلته يقلُّ كُلُّ الْعُقُلِ التي عُقِلَتْ عن إدراكها عقول العقلاء، حتى قال قائلهم إذا ما استعصت عليه
 عُقْدَةٌ مُشْكِلَةٌ: "قَضِيَّةٌ وَلَا أبا حَسَنٍ لها"⁶⁰² ثم راح أبو الهُدَى يَصَوِّرُ أمام ناظري القارئ ساحة
 الوغى وقد ثار النَّفْعُ فوق كتائبها واصططمت فِرْقُهَا مُتَحَفِّزَةً، فكم من مَرَّةٍ انْحَدَرَ الإمام هَادِرًا يَمُرُّ
 بِالصَّفِّ فيقْدُ بَذِي الْفِقَارِ⁶⁰³ جُمُوعَ فرسانه فيتركهم وقد شُلُّوا بعزمه وشيلت جموعهم أشلاء متبعثرة.
 ولربما أراد الشاعر أن يُؤَكِّدَ ما سَبَقَ من معاني القوَّة والشَّجَاعَةِ لممدوحه وعمد إلى أن يُلقِي بنفسية
 القارئ شيئًا من التَّهْوِيلِ والتَّعْظِيمِ لهذه الصِّفَات، فيلجأ إلى الإتيان بكلمات غريبة أو وحشية تَرِنُ في
 سمع المتلقِّي، كمثل (الزَّعْزَعَان، التَّهْتَهَان، القسطل، العقنقل⁶⁰⁴)، وقد سَلَكَ هذا السَّبِيلَ في ممدوحه
 الإمام عليٍّ لَمَّا قال:

وَسَيِّدَنَا عَلِيٌّ ذُو الْأَيَادِي إِذَا دَهَمَ الْوَغَا بِالزَّعْزَعَانِ⁶⁰⁵
 يَخْبُ بِمُكْفَهَرٍ دَمِ الْأَعَادِي وَحَاصِلُ ضَرِيهِمْ كَالْتَّهْتَهَانِ⁶⁰⁶

⁶⁰⁰ مَفْرَدُ الْجَحَاجِحَةِ مِنَ الرِّجَالِ وَهُوَ السَّيِّدُ السَّمُوحُ الْكَرِيمُ، يُنْظَرُ: ابن منظور، "جحجج"، 420/2.

⁶⁰¹ د.ر.ت، 159.

⁶⁰² مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ الْمُبَرِّدِ، الْمُقْتَضَبُ، تحقيق: مُحَمَّدُ عَبْدِ الْخَالِقِ عَظِيمَةَ، (بيروت: عالم الكتب، د.ت)، 363/4.

⁶⁰³ اسم للسَّيْفِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ الْخُفَرُ الصِّغَارُ الْحِسَانُ، يُنْظَرُ: ابن منظور، "فقر"، 63/5.

⁶⁰⁴ الْكَثِيبُ، الرَّيْدِيُّ، "عقل"، 37/30.

⁶⁰⁵ مِنَ الزَّعْزَعَةِ وَهِيَ تَحْرِيكُ الشَّيْءِ بِشِدَّةٍ وَقُوَّةٍ، يُنْظَرُ: الجوهري، "زاع"، 1225/3.

⁶⁰⁶ لَعْلُهُ مِنَ التَّهْتَهَةِ وَهِيَ لَكْنَةٌ فِي اللِّسَانِ، فَيَكُونُ الْمَضْرُوبُ لَشِدَّةِ الضَّرْبِ لَكْنًا مِنَ الْخَوْفِ وَهَوْلِ الصَّدْمَةِ، أَوْ أَنَّ شِدَّةَ الضَّرْبِ وَالطَّعَانِ مِنَ الْمَدْحِ مُشَبَّهَةٌ بِالْخِيَالِ إِذَا مَا اعْتَمَدَ مَعْنَى التَّهْتَهَةِ بِأَنَّهَا الْأَبَاطِيلُ وَالتُّهَاتُ، يُنْظَرُ: الجوهري، "تهته"، 2229/6؛ ابن منظور: "تهته"، 482/13.

إذا ما قَسَطَلٌ⁶⁰⁷ نَشَرْنُهُ زُرْقُ الـ حوافِرِ فوقَ أبطالِ الطِّعانِ
وثَارَ عَقْنَقُلُ البِداءِ حتى غَشَاها حينَ جَلَجَلَ بالدُّحَانِ⁶⁰⁸

فالأبيات تزجُّ بالقارئ المتلقِّي في ساحةِ الحربِ، وتغمِسُهُ في وسط أجواء المعارك، فلكنَّ حروفها وكلماتها تصطكُ ببعضها وترنُّ كما لو أنَّها صَنَجُ الحروبِ، بل إنَّ أبا الهُدَى حرص على الاختيار الدَّقِيق، فحتى الأفعال قد أخذت بأعناقها جميعاً معاني القوَّة والسِّدَّة (دَهَمَ، حَبَّ، ثَارَ، غَشَى، نَشَرَ، جَلَجَلَ)، فالممدوحُ في ساحةِ الوغا ما كانت التفاتاته وحركاته لتكون عاديَّةً وإِنَّمَا هي الحَبَبُ فكأنَّه من العاديَّات من بنات الرِّيحِ، راح يسبِّحُ في بحرٍ من دماءِ الأعادي، بعد أن عمَّ الغبارُ فضاءَ ساحاتِ القتال من وقع الخيولِ، وماجت كتائبُ الجحافلِ في تلك القِفارِ حتى لِيُحَيِّلُ لِمَن يرمقها من بعيدٍ كأنَّ دُخَانًا قد علاها وغَشَى صفوفها، وفي عَصَبِ تلك السَّاعَةِ أرعدت وأبرقت شجاعةُ فتى الهيجاءِ عليَّ ذي الأيادي البيضاء.

ولمَّا مضى أبو الهُدَى قُدُماً في تعدادِ صفاتٍ مديحه للإمام عليٍّ وصلَ به المطاف إلى الوقوف عن الإطناب في تعدادها، فتوقَّفَ وكأنَّ بأنوارِ بوارقِ تلك المناقبِ العُلُوِّيَّةِ قد خطفتُه فراح يقول:

مناقبُ لو رَأَتْهَا الشَّمْسُ لَانْحَجَبَتْ دَهْشًا ولو أُنْهَتْها في دَارَةِ الحَمَلِ⁶⁰⁹

وفي هذا البيت استعار -استعارةً مكنيَّةً مُرَشَّحَةً- للشَّمْسِ وصفَ الإنسانِ العاقلِ الذي يرى، ليُقَال: إنَّ مآثرَ الممدوحِ ومناقبه علَّت وسمت شرفاً وألقاً حتى لَيُنَّ الشَّمْسَ -وإن كانت في أوج توهُّجها

⁶⁰⁷ الغبار، الجوهري: "قسطل"، 1801/5

⁶⁰⁸ د.م.ش، 198.

⁶⁰⁹ د.ر.ت، 179؛ ودارَةُ الحَمَلِ علَّها أول برج من منازل الكواكب وكأنَّ الشَّمْسَ تكون في أوج توهُّجها وتألُّق شعاعها الذهبي، يُنظر: كمال الدِّين محمد بن موسى الدِّميرى، المقصد الأتم في شرح لامية العجم، تحقيق: هاني الميران - عباس الجراخ، (عُتَان: دار الرضوان، 1433هـ/2012م)، 221.

وضيائها- لتخجلُ اندهاشاً ويُعشى بصرُها فتتوارى بحجابها إذا ما بدت لمقلتيها أنوارُ هذه المناقب
العلوية الهاشمية.

ومن الإمام عليٍّ تحبُّ بالنَّظرِ الأشعارُ إلى الخليفةِ الثالثِ عثمانَ بنِ عفَّانَ (ت. 35هـ/656م)
رضي الله عنه فلا يلمحُ مديحهُ إلا في موضعين ربما يكون السِّباقُ في القصيدة استلزاماً أن يُمرَّ على مديحِهِ،
ولذلك اكتفى الشَّاعرُ بسردِ صفاتِهِ الحميدة فقط، من نيْلِهِ لَشَرَفِ مصاهرةِ النَّبيِّ الأكرم، وكونِهِ ذا
المُحتدِ الأصيلِ القرشيِّ وصاحبِ العِفةِ والكرمِ الجليل:

صهرُ طه على ابتنيه وفي هـ ذا اختصاصٍ من ربِّهِ وانتقاءُ
قرشيٍّ زاكي السَّمائلِ وضاً حُ المُحيّا مُهذَّبٌ مِعطاءٌ⁶¹⁰

وفي الموضعِ الآخرِ يُضيفُ إلى حميدِ خِصالِهِ ومزاياه ما أكرمه الله به من نيلِ مقامِ الشَّهادة:

شَهِيدُ الدَّارِ محمودُ المزايا رفيعُ القدرِ محمودُ المعاني⁶¹¹

ومن أعيانِ الصَّحابةِ الذين خصَّهم الشَّاعرُ بالمديحِ سيفُ الله خالد بن الوليد رضي الله عنه، ويُرجَّحُ
أنَّ من دواعي هذا التَّخصيصِ من بين الأعيان هي تلك العلاقة بهذا الممدوح، فقد ربطتُهُ به صلةُ
القربة إذ هو - حسبما ذَكَرَ أبو الهُدَى - جَدُّهُ من جهةِ الأمومة،⁶¹² ومن أجل هذه القربة فقد كان
له مزيدُ تَعَلُّقٍ بهذا الممدوح، فجاءت مِدْحَتُهُ بما يزيد على ثلاثين بيتاً، استهلَّها بمطلعٍ فرَّ فيه من لَظَى

⁶¹⁰ د.م.ش، 18.

⁶¹¹ د.م.ش، 198.

⁶¹² يُنظر: الصَّبَّادِي، الفرقان، 44.

الزَّمانِ وأتباعِهِ إلى نعيمِ النَّظَرِ في شمائلِ هذا الممدوح، سليلِ السَّادَةِ الأُمجاد، صاحبِ الهِمَّةِ الفَعَساءِ
والبَّاسِ الشَّدِيدِ والعقلِ الرَّشِيدِ، فقال:

نَدَبْتُ لِهَمِّي والزَّمانِ المُعَانِدِ شمائلَ سيفِ اللهِ ذي البَّاسِ خالدِ
سليلاً الصَّنَادِيدِ⁶¹³ الأُلى آلِ غالِبِ جُدُودُ رسولِ اللهِ أهلُ المشاهِدِ
أخو الهِمَّةِ العُلياءِ والعزمِ والحِجاءِ⁶¹⁴ أبو الفَتكِ بالأعداءِ يومَ الشَّدائِدِ⁶¹⁵

ثم يستطرِدُ في مديحِهِ وهو يصبُّ اهتمامَهُ على الشَّجَاعَةِ التي جَمَعَتْ أَشْثاتُ معاليها فيه حتى عَدَا
يُلَقَّبُ بِحَقِّ سيفِ اللهِ الذي لم تفلُهُ معامِعُ المِعارِكِ، فمَضَى يُعَدِّدُ الفُتُوحَ التي أَجراها اللهُ على يديه،
مُؤَشِّياً أَبيائَهُ بالتَّشْبِيهِ المَرسَلِ المُجَمَّلِ - بحذفه لوجه الشَّبه (الاستساغة) - فالسُّمُّ يُكَرِّعُ كأَنَّهُ ماءٌ طيِّبٌ
مُستَساغٌ، ثم شَفَعَ التَّشْبِيهِ بِالْجِناسِ (أعرق/العراق، كسرى/كسيرا، فرسان/الفرس)، والطِّباقِ (أَبَقَتْ/لم
تُبَقْ)، فقال:

وأعَرَكَ في فَتَحِ العِراقِ خيولُهُ فلم تُبَقِ للأعداءِ عِزَمَ مُطارِدِ
وفرسائِهِ في الفُرسِ أَبَقَتْ مَآثِرًا تَعَالَتْ على كَيَواهِمِ وَعُطَّارِدِ⁶¹⁶
وأصبحَ كِسرَهُم كَسِيرًا بِسيفِهِ وفي جِمرِهِ اللَّهَّابِ خِزْيَةُ حَامِدِ
وقد شَرِبَ السُّمَّ النَّقِيعَ⁶¹⁷ مُبَسِّمًا فَكانَ كِماءِ طيِّبِ الطَّعَمِ بَارِدِ
وقد جاءَ (نِعَمَ العَبْدُ) في النَّصِّ خالِدًا فِيا حُسْنِها من نِعَمَةٍ عِندَ نَاقِدِ⁶¹⁸

⁶¹³ مفردُهُ صِنْدِيد وهو السِّبْدُ الشَّجَاعُ، يُنْظَرُ: الجوهري، "صند"، 499/2.

⁶¹⁴ العقل، ابن دريد، "جحو"، 1037/2.

⁶¹⁵ د.ر.ت، 85.

⁶¹⁶ من الكواكب السَّبعة وهي أسماءُ فارسيَّة، يُنْظَرُ: عبد النَّبي بن عبد الرَّسول الأحمَدنكري، جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، تحقيق: حسن هاني فحص، (بيروت: دار الكتب العلميَّة، 1421هـ/2000م)، 108/3؛ ابن سيده، المُخَصَّص، 382/2.

⁶¹⁷ القاتل، أحمد مختار، "نفع"، 2273/3.

⁶¹⁸ د.ر.ت، 86.

ففي هذه القطعة استعرض الشاعر فتح خالد رضي الله عنه للعراق وكيف فلّ بجيشه فلول فرسان فارس وكسر كسراهم، وكفى بقوله (جره حامد) عن طمسه لدين الضلالة المجوسي وإخاذه للنار الموقدة التي يعبدها المجوس، ثم انثنى مُشيرًا إلى الحادثة التي أعزّ الله بها دين الحقّ لمّا شرب خالد السّمّ الرُعافَ كأنّه ينهلُ كأسًا من زلال الماء فكان على إثر ذلك خضوع العدو واستكانته له،⁶¹⁹ وفي البيت الأخير مدحه بالاعتباس من الأثر المنسوب للنبي الأكرم عليه السلام أنّه قال لمّا رأى خالدًا مُقبلاً: "نعم العبدُ خالدٌ"،⁶²⁰ حيث جعل من هذه الإشادة النبويّة مزيّة لا تُداني ولا تُجاري؛ ولم ينس أبو الهدي أن يُشير إلى وشائج النسبة التي تصلّه بهذا المجد الخالديّ فمن ثمة راح في ختام القصيدة يخاطب ممدوحه بتقديم المدحة إليه وينعتها - بالتشبيه البليغ - أنّها قلادة الدرّ:

فلي نسب يُنمى إليك علّت به جُودٌ لعمري نُظّموا كالفرّاقِدِ⁶²¹
وهاك نظامًا قال تاليه إنّ قلادة دُرّ في فضائل خالدٍ⁶²²

وتجدر الإشارة إلى أنّ الشاعر قد مدح صحابيًا آخر هو أبو أيّوب خالد بن زيد الأنصاريّ (ت. 52هـ/672م) رضي الله عنه، ولكنّ دواعي هذا المدح لا تتعدّى كونها منبعثة من زيارةٍ لذلك القبر المنسوب إلى هذا الصّحابيّ في إستانبول،⁶²³ ومن أجل هذا فقد أفردّه بقصيدةٍ يتيمة - في سبعة أبيات - سردَ فيها بعض مناقبه التي من أجلّها استضافته للنبي الأكرم في داره، فحقق بذلك علم

⁶¹⁹ يُنظر: أحمد بن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل أحمد - علي معوض، (بيروت: دار صادر، 1425هـ)، 218/2؛ أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، التنبؤات، تحقيق: عبد العزيز الطويان، (الرياض: أضواء السلف، 1420هـ/2000م)، 825/2.

⁶²⁰ جار الله محمود بن عمرو الزمخشري، ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، تحقيق: عبد الأمير مهنا، (بيروت: مؤسسة الأعلمي، 1412هـ/1992م)، 167/2.

⁶²¹ واجده الفرقد وهو نجم معروف من نجوم السماء، يُنظر: ابن دُرّيد، "در"، 1147/2.

⁶²² د.م.ش، 18.

⁶²³ يُنظر: أبو عبد الله محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت: دار صادر، 1968م)، 485/3.

مجده وسما علواً على كواكب السماء، ثم أشار إلى أن هذا الممدوح كأنه -وهو ثاوٍ في سُرارة أرضِ
الرُّوم- ملاذٌ يؤنسُ كلَّ غريبٍ طريدٍ في تلك البقاع، حيثُ قال:

وأكرمهُ المختارُ إذ صارَ ضيفهُ وناختَ لَهُ فضلاً على البابِ ناقتهُ
رئيسُ بني النَجَّارِ سيِّدُهُم ومن تَعَالَتْ على هامِ السِّمَّاكِينِ⁶²⁴ رايتهُ
حمى غُرباءِ الرُّومِ إذ ذاكَ مثلهُ مَدَى الدَّهْرِ يحمي جَنَسَهُ وعصابتُهُ⁶²⁵
وبناءً على ما سبق يُمكنُ القولُ: إنَّ أبا الهُدَى قد شَمَلَ الصَّحَابَةَ كُلَّهُم بمدحٍ عامٍّ وخصَّ
أفراداً منهم بمدحٍ خاصٍّ امتدَّ عند مدح بعضهم -كعليٍّ رضي الله عنه- إلى العديد من القصائد والمقاطع،
وانحسَرَ عند بعضهم الآخر حتى لم يتجاوز القطعة أو القطعتين -كعثمانَ رضي الله عنه-، وإلى جانب ما
أملتهُ عليه عاطفةُ المحبة ودفعتهُ إلى هذا المدح فإنَّ هناك أسباباً أخرى دفعتهُ إليه أيضاً كصلةِ القرابةِ
أو الجوار -كما عند عليٍّ وخالدٍ وأبي أيُّوب رضي الله عنهم-.

2 مدح العثمانيين

إنَّ مدحَ العثمانيين -والسُّلطان عبد الحميد بشكلٍ خاصٍ- أمرٌ برَزَ في أشعار المتأخرين،
حتى اندفعَ بعضُ النُّقادِ إلى إطلاقِ الحكمِ القائلِ: "ما من شاعرٍ في الجيلِ الماضي -ويقصد به الجيل
المعاصر للفترة العثمانية وخاصةً في نهاياتها- إلا ومدحَ عبد الحميد وغير عبد الحميد من سلاطين آل
عثمان، وفرَّحَ بانتصار الأتراك في معاركهم وحزَنَ لأحزانهم" وهو حكمٌ لا يبتعدُ عن الصَّواب كثيراً،

⁶²⁴ نجمان في السِّماء أحدهما يُسمَّى السِّماك الأعزل والآخر يُسمَّى السِّماك الرَّامح، يُنظَر: الجوهري، "سمك"، 443/10.

⁶²⁵ د.ف.م، 117.

إذ بجولة في أشعار المبرزين من تلك الحقبة يُبرهن على هذا الكلام، فقلما ترى مُحجماً منهم عن إبراز تلك العاطفة الدينية تجاه خليفة الإسلام.⁶²⁶

وأبو الهدي لم يكن بخارج عن دائرة ذلك الزمان ولا ببعيدٍ عن الخطِّ العام الذي انسلَّ فيه عامَّة شعرائه، ويلوح هذا جلياً في هذا الموضع بما سطره من مدح في السلطان عبد الحميد والعثمانيين وانتصاراتهم ومناسباتهم والإشادة بأعمالهم في مواطن عدَّة، حيث تُطالع الناظر في الدواوين أكثر من سبعة مواضع في هذا الصَّدَد،⁶²⁷ منها خمسة جُرِّدت خالصةً لمدح السلطان؛ ولعلَّ الخوض فيها يستدعي تذكُّر العلاقة الوطيدة التي جمعت بين الشخصيتين الشَّابَّتَيْن ذاتا التَّوجُّه المُشترك في العديد من الجوانب ولعلَّ فكرة الجامعة الإسلامية أبرزها - لا سيَّما إذا استذكر المرء أنَّه كان رئيسَ اللِّجنة المركزيَّة فيها-، ولهذا فإذا كان غيره من الشعراء قد أدكت العاطفة الدينية مدائحهم فإنَّ أبا الهدي قد شدَّ أزرها بإيمانه الجازم بضرورة الالتفاف حول هذا الخليفة ووجوب طاعته والإخلاص في نصِّحه والتَّصدِّي لسهام المارقين عن حكمه والخارجين عليه، لذا فقد يجدُّ المُطلِّع على دواوينه ما يُبرِّز هذه العاطفة وهذا الإيمان ولو في غير مَعْرِضٍ المديح، ومما يدلُّ على هذا الكلام خطَّابُه لصديقه وهو يندبُه كي يفرِّغَ لُصْرَتِه بعد أن رماه المفترِّون ببهتانهم، وما ذنبُه إلا محبَّة (أمير المؤمنين) وبغض (أهل المروق والباطل)، فقال:

فافرغ إلى الله بنصرٍ امرئٍ من قومك الزهرِ صديقٍ صدوقٍ
حُبُّ أمير المؤمنين انطوى في سرِّه رغمَ صنوفِ المروقِ
فحقُّه حقُّ مُصانٍ الحمى وإنما باطلهم في زُهوقٍ⁶²⁸

⁶²⁶ عمر دسوقي، في الأدب الحديث (القاهرة: دار الفكر العربي، د.ت)، 85/2، 89.

⁶²⁷ يُنظر: د.ف.م، 144؛ د.ت.ب، 6، 74، 77، 94، 101؛ د.ر.ت، 139، 49، 131.

⁶²⁸ د.ر.ت، 170.

ومما يسترعي الانتباه في مدح السلطان عبد الحميد الثاني أنَّ أبا الهُدَى ما اقتصرَ في بنائها على شكلٍ واحدٍ بل نوعٍ في المقدمات وتنقل عبر وثباتٍ نفسيّةٍ بين عدّة مضامين وأفكار؛ فإذا كان قد افتتح أولى قصائده بالمديح المباشر لسلطان العثمانيين مُشَبِّهًا -تشيبيهاً بليغاً- إيَّاه بالسيف الصّائل الصّارم، فقال:

عبد الحميد خلاصه الخلقاء سيفٌ أصولُ به على الأعداء⁶²⁹

فإنَّه في قصيدةٍ أخرى قد اهتمَّ بالمطلع فجري به على عادة الشعراء من التمهيد بالغزل أو التسيب الرقيق، وذلك بقصد أن تهيّج قرائح السّامعين وترتاح نفوسهم وتتحرك مُتَهَيِّئَةً لتلقّي الشعر الذي سيُلَقَى إليها بعد هذا التمهيد،⁶³⁰ ولذلك استهلَّ مدحتَه بقوله:

ننى الرِّيمُ الدَّلَالَ إلى المِطَالِ⁶³¹ وقد يبدو المِطَالُ من الدَّلَالِ
ورُبَّ حُشِيْفَةٍ⁶³² عَبَثَتْ بقلبي فيا للقلبِ من طعنِ الغزالِ
يخفُّ من الغرامِ ثَقِيلُ طَوْرِي فيخطفني لآرامِ التِّلالِ⁶³³

فالمطلع مُضَمَّنٌ للتسيب الرقيق الذي يبتُّ فيه الشّاعرُ ما يُعانيه من محبوبه وما هو إلا الظّيّ جمالاً، وقد سلّبه بجماله لُبَّ قلبه ورماه بسهمِ العشق فيا لطول آلامه وأتاعيه من هذا المحبوب المتدلّل المماطل بوعود الوصال، فراح الشّاعرُ ينزاح عنه تَصَبُّرُهُ وثباتُهُ لما فيه من هوى هذا الظّيّ وحبه.

⁶²⁹ د.ت.ب، 6.

⁶³⁰ يُنظر: دسوقي، الأدب الحديث، 84/1.

⁶³¹ التّسويق والوعود الكاذبة الطويلة، يُنظر: ابن منظور، "مطل"، 624/11.

⁶³² تصغير مؤنث لخشف وهو الظّيّ أوّل ما يُؤلّد، يُنظر: ابن منظور، "خشف"، 70/9.

⁶³³ د.ت.ب، 6.

ولربما طرَحَ الشَّاعِرُ فِي مُقَدِّمَاتِ مَدَائِحِهِ كُلِّ هَذَا النَّسِيبِ، فَمَضَى مَعَ دَوْلَةِ الرِّيَاضِ وَالرَّوَضِ وَبَهْجَةِ الْحَدَائِقِ وَالْبَسَاتِينِ يُسَرِّحُ الطَّرْفَ مُسَطِّراً وَصَفَ تِلْكَ الْحُلُلِ الْبَدِيعَةِ الَّتِي اكْتَسَتْ بِهَا الْأَرْضُ فِي فَصْلِ الرَّبِيعِ جَاعِلاً مِنْ شَعْرِهِ مِرَاةً تَعَكِّسُ مَا انْعَقَدَ فِي قَلْبِهِ مِنْ صَمِيمِ الْأَشْوَاقِ وَخَالِصِ الْمَحَبَّةِ لِمُحِبِّهِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَلْمَحُ - فِي مَطْلَعِ مِدْحَةٍ مِنْ مَدَائِحِهِ - هَفْهَافَ النَّسِيمِ وَقَدْ مَاسَتْ بِهِ فِي الرُّبَى الْوَرُودُ، وَدَاعَبَ الْأَزْهَارَ حَتَّى جَعَلَهَا تُعَانِقُ بَعْضَهَا، فَاسْتَهْلَّ رَاسِمًا بِكَلِمَاتِهِ هَذَا الْمَشْهَدَ الطَّبِيعِيَّ مُفَتِّحًا بِهِ الْقَصِيدَ لَتُطْرَبَ الْأَسْمَاعُ وَتُرْتَاحَ النُّفُوسُ، وَقَدْ تَأَنَّقَ فِي اخْتِيَارِ الْأَلْفَاظِ (الْيَاسْمِينِ، الْبَنْفَسَجِ، الْبَانَ، الْوُلْهَانَ، الْأَلْوَانَ، الرَّبِيعَ، الدَّرَّ)، فَجَاءَتْ مُتَسِقَةً مَعَ الْمَقَامِ الْأَنِيقِ وَالْمَعْنَى الْجَمِيلِ الَّذِي طَرَحَ فِيهَا، حَيْثُ يَقُولُ:

مَا بَيْنَ مُنْعَرَجِ اللَّوَى وَالْبَانَ⁶³⁴ أَضْنَى الْمَحَبَّ تَلَقُّتُ الْغُزْلَانَ
وَجَدَاوِلُ الْأَنْهَارِ تَلَطُّمُ بَعْضَهَا هَدَرَتْ كَدَمْعِ الْعَاشِقِ الْوُلْهَانَ
نَسَجَ الرَّبِيعُ بِهَا بَسَاطَ أَزَاهِرٍ رَقَمَتْ صُنُوفَ بَدَائِعِ الْأَلْوَانَ
مَا بَيْنَ دُرٍّ أَيْضٍ أَوْ عَسْجَدٍ⁶³⁵ قَدْ فَصَّلَتْهُ قَلَائِدُ الْعَقِيَانِ⁶³⁶
وَالْيَاسْمِينُ عَلَى الْبَنْفَسَجِ عَاكِفٌ إِنْفَانٍ لِلتَّوْدِيعِ مُعْتَنِقَانِ⁶³⁷

وَيَلَاخِظُ فِي الْبَيْتِ الْأَخِيرِ كَيْفَ شَهِدَ أَبُو الْهُدَى مَجْلَى تَمَائِلِ الْوَرُودِ وَتُعَانِقِ الْأَزْهَارِ صُورَةً لِعَاشِقَيْنِ قَدْ احْتَضَنَا بَعْضُهُمَا وَكَأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا يُرِيدُ تَوْدِيعَ حَبِيبِهِ الْآخَرَ، وَقَدْ سَاقَ هَاتَيْنِ الصُّورَتَيْنِ عِبْرَ التَّشْبِيهِ

⁶³⁴ اللَّوَى اسْمٌ لِأَحَدِ وَدَيَانَ بَنِي سُلَيْمٍ تُكْثِرُ الشَّعْرَاءُ مِنْ ذَكَرِهِ، وَالْبَانَ مَوْضِعٌ قَرِيبٌ مِنَ الْكُوفَةِ، يُنْظَرُ: يَاقُوت، الْبَلَدَانِ، 23/5، 332/1.

⁶³⁵ اسْمٌ يَجْمَعُ الْجَوَاهِرَ كُلَّهَا، يُنْظَرُ: ابْنُ مَنْظُورٍ، "عَسْجَد"، 290/3.

⁶³⁶ الذَّعْبُ الْخَالِصُ، يُنْظَرُ: ابْنُ مَنْظُورٍ، "عَقَا"، 81/15.

⁶³⁷ د.ت.ب، 99.

التَّمثِيلِيّ، ففَرَنَ بين صورة عكوف الياسمين على البنفسج وصورة وداع عاشقين قد مالا على بعضهما في حنوٍّ ولُطفٍ.

ومما يسترعي الانتباه في مضامين المدائح أنَّ أبا الهُدَى قد تَدَرَّجَ فيها -مع حسن التَّخَلُّص- من المَقَدِّمَات إلى ما يُريدُ أن يطرقه من أفكارٍ في مقاطع هذه المِدَحِ وذلك عبر "وَثَبَاتٍ نَفْسِيَّةٍ"،⁶³⁸ تَتَنَقَّلُ بالمخاطَب من فِكْرَةٍ وشعورٍ إلى غيرها من بناتِ أفكاره؛ مع حرصه على كونها محصورةً في إطارٍ واحدٍ يَضُمُّها وهو المدح؛ ففي مِدْحَةٍ تَدَرَّجَ في قَصِيدِهِ من المطلعِ العَزَلِيِّ بِالظُّبَاءِ والآرامِ الخَلَابَةِ إلى الفخر بعدم الالتفاتِ إلى كُلِّ ذلك بمدح أسلافِهِ الأطوادِ الشَّامِخَةِ الْمُتَحَلِّينَ بِجَلِيَةِ اتِّبَاعِ الرَّسُولِ الأَكْرَمِ عليه السَّلَامُ:

يُجَاذِبُنِي إِلَى الْعِلْيَاءِ بَيْتٌ تَسَنَّمَ أَهْلُهُ هَامٌ⁶³⁹ المعالي
وَمَنْ يَكُنِ الرَّسُولُ لَهُ دَلِيلًا فغَايَتُهُ الْوَصُولُ بِلَا جِدَالٍ⁶⁴⁰

ثم يقفُ هُنَيْهَةً - كمن يلتقط أنفاسَهُ ويستجمع أفكارَهُ - فيمدحُ رسولَ الله ﷺ ببضعة أبياتٍ يذكر فيها عدلَهُ وشجاعَتَهُ ومنها يتخلَّصُ إلى مديح الخلفاء الذين نابوا عن هذا النَّبِيِّ الأَكْرَمِ فحموا شريعَتَهُ السَّمْحَاءَ ورفعوا رايات العدل ونشروها بجهادهم ونضالهم، وما مُرَادُهُ بهذا المديح إلا العثمانيِّين أسلاف السُّلْطَانِ عَبْدِ الْحَمِيدِ، حيثُ انثنى بوَثْبَةٍ نَفْسِيَّةٍ أُخْرَى قَائِلًا:

حماها بعده الخلفاء فينا أسودُ الله ساداتِ الرِّجَالِ
وذا عبدُ الحميدِ الآنَ مِنْهُمْ إمامُ العَصْرِ ينبوغُ الكمالِ

⁶³⁸ يُنْظَرُ: سويف، الأسس النَّفْسِيَّةُ لِلإبداعِ القَلْبِيِّ، 226.

⁶³⁹ جُمِعَ وَاحِدُهُ هَامَةٌ وَهِيَ الرَّأْسُ، وَرئيسُ القَوْمِ يُسَمَّى هَامَةً، يُنْظَرُ: الجوهري، "هيم"، 2063/5.

⁶⁴⁰ د.ت.ب، 75.

تَسْلَقُ بَيْتُهُ صَهَوَاتٍ⁶⁴¹ مَجْدٍ لَعَمْرُكَ لَا تُكَيِّفُ بِالْخَيَالِ

بِحَقِّكَ هَلْ بَنُو عَثْمَانَ إِلَّا سَحَابُ الْفَضْلِ سَحَّ بِلَا انْفِصَالٍ⁶⁴²

وقبل أن يقرَعَ باب المديح للسلطان يُمَهِّدُ بقطعةٍ يمدح بها أسلافه من الخلفاء العثمانيين فيشبههم تشبيهاً بليغاً بأنهم ليوث الشجاعة - ووجه الشبه بين عنصري التشبيه (الجرأة والإقدام) -، فهم ذوو المجد الأثيل الذي ارتقى مرقى لا يرقى له خيالٌ إذ تسنمت مزاياهم أعالي قمم الشرف والسُمو، ولكي يصعدَ بمدحهم لجودهم ومجدهم وسخائهم ويجعل منه مدحاً مستقراً في أعماق المتلقي فقد أتى بأسلوب القصر الإضافي، ليجعل حكمة قاطعاً بأن ممدوحيه قد قُصروا على الفضل والشرف فلا يعرفون سواه، وشبَّههم بالديمة المدرار، ثم طرَحَ هذا الأسلوب بصيغة الاستفهام الذي خرج به عن مقتضاه الظاهر مُعَبِّراً عن جزيل المدح والإعجاب بهؤلاء الممدوحين؛ وكثيراً ما كان يتعرَّضُ لمدح شجاعة العثمانيين وإقدامهم في الجهادِ وساحات الوغى والنزال، وقد أوجَزَ بقوله (عيدُهم يومُ القتال) مُدْجِجاً التشبيه البليغ بالاختصاص - إذ عَرَّفَ طَرِيقَ الإسناد - فكما أنَّ لكلِّ قومٍ عيداً مُختصّاً بهم، فإنَّ ممدوحيه خُصُّوا بكونِ عيدِهِم هو يومُ القتالِ، وساقَ هذا التَّركيبَ المدحِيَّ، بتركيب الجملة الاسميَّة دالاً بذلك على رسوخ هذه الصِّفة فيهم وثبوتها مدى الأزمان، ولمَّا أتى على شدَّةِ بأسِهِم أغرَقَ في مدحها، فجعل ممدوحيه إذا ما شامُوا خصمَهُم قد شَبَّتْ منه شرَّارَةُ العِدااءِ فإنَّهُم يَنْقُضُونَ عليه مُسْعِرِينَ الجبالَ الشَّاهِقَةَ يطبقونها لهيباً عليه، ثمَّ عرَّجَ على علَمِهِم الأعلَم ساقِي العِدَى كأسَ الرِّدى، السلطان محمد الفاتح (ت. 886هـ/1481م)، فكانت أبياتُهُ قد رَفَلَتْ بأسلوب الإطنابِ عبرَ ذكرِ الخاصِّ (الفاتح) بعد إيرادِ العامِّ (عمومُ الخلفاء العثمانيين)، فقال:

⁶⁴¹ واحده صهوة وهي من كل شيء أعلاه وهي من الفرس مقعد الفارس، يُنظر: ابن منظور، "صها"، 471/14.

⁶⁴² د.ت.ب، 75.

لديهم من كرام القوم شُوس⁶⁴³ كِرامَ عيدُهم يومَ القتالِ

يُعيدُونَ الجبالَ الشُّمَّ نارًا إذا ما الخصمُ أوقَدَ بالذُّبالِ⁶⁴⁴

وهذا الفاتِحُ الجَحْجَاحُ فيهم مُذِيقُ الخصمِ كاساتِ الوَبالِ⁶⁴⁵

وأكثرُ ما قام بصدِّه مديحُ العثمانيِّين هو تمسُّكُهم بالدِّينِ الحنيف وإقامة العدل، إلى جانبِ نشرِهم ببسالتِهم وإقدامِهم راياتِ الحقِّ والدِّينِ في الآفاقِ غيرَ آبهينَ بأعدائِهِم، حتى عَدَا وجه الأيَّامِ مستنيرًا بِخِصالِهِم وشمائِلِهِم الكريمة، وفي هذا يقول:

من آلِ عثمانَ الذين تَسَنَّموا قِمَمَ الفَخَّارِ بكلِّ أَحَدَبٍ دَامِي

حَكَمُوا بَعْدَ في الأمورِ فَقَوَّمُوا عُوجَ الشُّوونِ بِأَقْوَمِ الأحكامِ

أخذوا بِشَرعِ الهاشِمِيِّ وَنَسَّقُوا من حُكْمِهِ المَرْضِيِّ كُلَّ نِظامِ⁶⁴⁶

ويحكي أوَّلُ هذه الأبياتِ حكايةَ الفخرِ الذي صعدَ العثمانيُّونَ إلى أعاليهِ من خلالِ الكنايةِ (بكلِّ أَحَدَبٍ) التي جَلَبَها الشَّاعِرُ ليقَرَنَ فَخارَهُم بأعظمِ مزيَّةٍ تحلَّوا بها وهي إشهارُ سيفِ الجِهادِ إذ هو أبرُّ ما قامتِ عليه أركانُ دولتِهِم، وينتني مادِّحًا عدالتَهُم وقيامَ أساسِ حكمِهِم على الشَّرعِ المحمَّديِّ حتى نالوا بذلكَ أشرفَ مراتبِ العُلياء والأعجاء، وعلى هذا النَّسقِ مضى الشَّاعِرُ إلى أن وصلَ به مطافُ المديحِ إلى الكلامِ على مقامِهِم ومكانتِهِم بين الملوكِ، فراح يُصَوِّرُ ملوكَ الأرضِ والزَّمانِ بالقالبِ الجِسمانيِّ ويجعلُ من بني عثمانَ أشرفَ وأرفعَ ركنٍ فيه إذ هم رأسُ هذا القلبِ الجِسمانيِّ:

⁶⁴³ جمعٌ واحدُه أَشُوسٌ وهو الشُّجاعُ الجريءُ والشَّدِيدُ في القتالِ، وأصلُ الكلمة من الفعلِ شَوَسَ، يُنظَرُ: ابن منظور، "شوس"، 116/6.

⁶⁴⁴ واحدُه دُبالةٌ وهي الفتيلة التي تُسَرِّج، ابن منظور، "ذبل"، 256/11.

⁶⁴⁵ د.ت.ب، 76.

⁶⁴⁶ د.ت.ب، 92.

وتوسَّطوا بجبوحه⁶⁴⁷ العليا فهُم في جسم أملاك الورى كالهَام

بيت الخلافة والإمامة والثقى والعز والمجد الصميم النَّامي⁶⁴⁸

وفي مدح شجاعتهم يقول مُضَمَّنًا أبياته الجنس الناقص (أبيض/أبيضًا)، وطباق التناقض (فتحوا/المغلقات)، ومكْنِيًا عن علو أعلامهم وشموخ مجدهم وزين فعالهم ونقائهم عن كل شائبة تشوبها من العيوب بلفظة (أبيض) وحرص على تنكيرها زيادةً في مدح عظم عظمائهم:

فتحوا البلاد المغلقات وآمنوا روع العباد بشرعة العدنان

من كل أبيض لم يُحْدَر أبيضًا إلا وخضبه بأحمر قاني

هو ذا ينبعثهم خلاصة بيتهم رحب الرحاب الشامخ الأركان⁶⁴⁹

وقد كان أبو الهدى يحرص على الانتقال من مدح العثمانيين بحسن التخلص إلى مدح السلطان عبد الحميد - كما يظهر في البيت الأخير -، وتجدر الإشارة إلى أن التركيز على مسألة حق الخلافة الشرعية في العثمانيين وتجسّد هذا الحق في السلطان عبد الحميد كان الأبرز من بين كل الأفكار التي تواردت في غرض المديح عنده، ومن هنا صحّ القول: إنَّ العاطفة الدينيّة لم تكن وحدها هي المحرك لقريحة أبي الهدى في سكب أفكاره بقال شعريّ وإنّما تلك القاعدة الفكرية التي آمن بها وانطلق داعيًا إليها عبر رئاسته للجنة المركزية فيها - الجامعة الإسلامية -، التي كانت تُنادي بحق السلطان عبد الحميد في الخلافة، وتصرّخ في وجه من خالفه بأنّه معدود من المارقين عن الدين والجنود القابعين في خندق أعداء الملة - شاء أم أبى، علّم أم لم يعلم -، وبذلك يُفهم تعرّض أبي الهدى في تضاعيف مدحه للعثمانيين إلى التأكيد على قضية البيعة للسلطان عبد الحميد وتأييد فكرة القيام بحقوقها الواجبة في

⁶⁴⁷ مجبوحه كل شيء وسطه وخياره، ابن منظور، "مجم"، 407/2.

⁶⁴⁸ د.ت.ب، 93.

⁶⁴⁹ د.ت.ب، 101.

أَعْنَاقِ رَعِيَّتِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى امْتِدَادِ رُقْعَةِ الْمَمَالِكِ الْعُثْمَانِيَّةِ، وَهِيَ الَّتِي دَفَعَتْهُ إِلَى إِطْلَاقِ حَكْمِ
"الخَوَارِجِ" عَلَى كُلِّ مَنْ خَلَعَ هَذِهِ الْبَيْعَةَ لِلسُّلْطَانِ، كَقَوْلِهِ فِي مِدْحَةٍ عُثْمَانِيَّةٍ لَمَّا وَصَلَ بِهَا إِلَى ذِكْرِ
السُّلْطَانِ عَبْدِ الْحَمِيدِ:

وَرِثَ الْخِلَافَةَ بِانْعِقَادِ الْبَيْعَةِ الـ غَرَا بِهَا التَّهْلِيلُ وَالتَّكْبِيرُ
قُلْ لِلشَّقِيِّ الْخَارِجِيِّ تَعَانُدًا عَنْ طَاعَةِ الْخُلَفَاءِ لَيْسَ
يَا غَافِلًا عَنْ أَصْلِ حِكْمَةِ شَأْنِهِ ذَا شَبَلٍ آلٍ بَيْتُهُمْ مَعْمُورٌ⁶⁵¹

وبهذا يُعْلَمُ أَنَّ هَذَا التَّوَعُّدَ مِنَ الْمَدْحِ عِنْدَ أَبِي الْهَدَى قَدْ تَأَكَّدَ مِنْ إِيمَانِهِ بِالْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ
تَبْتَ بَيْنَ شُعُوبِ الْإِسْلَامِ وَجُوبِ الْإِنْضَاءِ تَحْتَ ظِلِّ رَايَةِ السُّلْطَانِ الْوَاحِدِ وَالْإِتْفَافِ حَوْلَهُ فِي زَمَنِ
أَرَعَدَتْ فِيهِ الْأَجْوَاءُ بِأَصْوَاتِ الْمُرْجِفِينَ وَأَمْطَرَتْ بِالْخَائِنِينَ، وَكَانَتْ تُحَذِّرُ تِلْكَ الشُّعُوبَ مِنْ أَنَّهُمْ إِذَا
مَا تَرَكُوا هَذَا الْخَلِيفَةَ وَحِيدًا فِي مِيَادِينِ الصِّرَاعِ ضِدَّ أَعْدَائِهِ فَسَيُسْأَلُونَ يَوْمَ الدِّينِ عَنْ هَذِهِ الْحَقُوقِ إِنْ
أُهْلِكَتْ وَلَمْ يَقُومُوا بِوَاجِبِهَا؛⁶⁵² وَتَتَجَسَّدُ كُلُّ تِلْكَ الْأَفْكَارِ فِي قَوْلِهِ بِمَوْضِعٍ يُشِيرُ فِيهِ إِلَى حَقِّ الْأَسْرَةِ
الْعُثْمَانِيَّةِ فِي الْخِلَافَةِ:

وَأَلْ عُنْمَانَ بَيْتٌ مُكْتَرٍ وَبِهِمْ لَا زَالَ عَهْدُ رَسُولِ اللَّهِ فِي رَجُلٍ
هُوَ الْخَلِيفَةُ مِنْ بَيْتِ الْخِلَافَةِ لَمْ يَبْرَحْ بِهَا الْفِرْدُ رَغْمَ الْمَارِقِ الْحَبْلِ⁶⁵³

وعلى هذا المنوال راح يُسَطَّرُ هَذِهِ الْأَفْكَارُ فِي ثَنَائِهَا مِدْحَةً؛ وَلَعَلَّ النَّاطِرَ فِي تِلْكَ الْمَدْحِ يَلْمُحُ -إِلَى
جَانِبِ مَا سَبَقَ- تَرْكِيزُهُ عَلَى فِكْرَةٍ مُهِمَّةٍ نَبَعَتْ هِيَ الْآخَرَى مِنَ الْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَهِيَ فِكْرَةُ أَخَوَّةِ

⁶⁵⁰ مِنَ الْخَوَرِ وَهُوَ الرَّجُوعُ، يُنْظَرُ: أَحْمَدُ مَخْتَارٌ، "حور"، 578/1.

⁶⁵¹ د.ف.م، 144.

⁶⁵² يُنْظَرُ: حَرْبُ، السُّلْطَانُ عَبْدِ الْحَمِيدِ، 169، 171، 189، 190.

⁶⁵³ د.ت.ب، 74.

الإنسانية والإسلام ونبذ العرقية والقومية التي كانت رايحها تعصفُ بأناسٍ في ذاك العصر، مما يعني أنَّ أبا الهُدَى قد كان يسبِّحُ بشعره عكسَ تيارٍ آخر برزت فيه بوادرُ الأفكارِ القوميةِ وأنفاسُ الدَّعَوَاتِ الانفصاليةِ للانسلاخ عن جسدِ الدولةِ العثمانيةِ؛ ويظهرُ صدقُ هذا في قوله ضمنَ مدحةٍ للعثمانيين تعرَّضَ فيها إلى مخاطبةٍ من يُريدُ أن يجرَّ بساطَ الخلافِ منهم، نابذاً لأخوةَ الإسلام مُتَعَصِّباً لنزعةٍ عرقيةٍ أو قوميةٍ:

قل للجَهِولِ لقد أوردتَ فلسفَةً سقيمةً قستَها طيشًا على زَلَلِ
النَّاسِ كُلُّهُمْ أبناءُ آدَمَ إِنَّ نَسَبَتَهُمْ واختصاصُ اللهِ للرُّسُلِ
فَقِفْ مع العلمِ تحتَ العقلِ مُستَنِدًا للنَّصِّ أو كُنْ سَفِيهًا كيف شئتَ قُلِ⁶⁵⁴

وراحَ في موضعٍ آخر مُنتَقِلًا بحسن التَّخْلِصِ من مدحِ العثمانيين إلى مدحِ السُّلطان عبد الحميد، ليؤكدَ في مديحه على حقوقِ هذا الخليفة التي تأكَّدَت ذمَّةُ الوفاءِ بعهودِها في أعناقِ المسلمين المستَظِلِّين تحت الرِّايةِ العثمانيةِ، ومضى يحثُّ على الوفاءِ بها جاعلاً من هذه الحقوق عهداً مسؤولاً عنه يوم القيامةِ كلُّ مُسلمٍ ذي دين، دخلَ قلعةَ الأخوةِ الإسلاميةِ واحتمى بِحِمَاها، فقال:

أَتانا من أواخرِهِم مليكٌ برفعةٍ قَدَرِهِ سَبَقَ الأوَّلي⁶⁵⁵
تُؤدِّيهِ القلوبُ حقوقَ عهدٍ مؤكَّدةِ العهودِ على التَّوالي
ويُسألُ كلُّ ذي دينٍ عليها إذا عُرِضَ البريَّةُ للسَّؤالِ⁶⁵⁶

⁶⁵⁴ د.ت.ب، 74.

⁶⁵⁵ الأوَّلي واحدُها الأوَّلَى وتعني الأجدَر والأحرى، وهي على غرارِ الأعلى والأعالي، يُنظر: الجوهري، "ولى"، 2531/6.

⁶⁵⁶ د.ت.ب، 77.

ثم نادى بأن يربأ المسلمون بأنفسهم عن هرطقة القوميات والعرقيات، ويكتفوا بشرف أخوة الإسلام والإيمان، ويجعلوا منها حصناً جامعاً ارتضاه الله لشمْلِ المسلمين وعُصَبَتِهِمْ، مُكْتَفِينَ بها وبعهد الوفاء لحاملِ راية الخلافة الإسلامية السُّلْطَان عبد الحميد، فقال:

كفى عصبية الإسلام فينا وهذا العهد عن قيل وقال⁶⁵⁷

ومما يسترعي الانتباه في هذه المقطوعات الآنفة الذكر أنَّها لما تخلَّلت قصائد المديح لوحظ فيها أنَّها لا تعدو عن كونها نظماً صُبَّت في قالبه أفكار أبي الهدى التي أراد طرحها خلال هذه المدائح، وكأنَّه أراد لهذه الأفكار أن تنجلي أمام القارئ بتجرُّد وصدقٍ دون أيِّ تزويقٍ أو تحميلٍ، فهو لم يشأ أن يجعلها مصبوغةً بصبغة صورةٍ بيانيةٍ أو كسوةٍ بدعيَّةٍ؛ ولكن إذا ما انعطفت عينُ المُطالع لهذه المدح إلى الصَّور البيانية التي وُشِّى بها أوصاف ممدوحه -السُّلْطَان عبد الحميد- فسيجد اهتماماً أغرق فيه بالمبالغة؛ ومما جرى به على هذا المنوال قوله مادِحاً شمائل عبد الحميد ودهائه في سياسته التي أنقذ بها جسد الدولة المتهالك، حتى صمدت زهاء ثلاثين عاماً أمام عتوِّ العواصف التي هبت لتقويضها ودكِّ حصونها من الدَّاخل والخارج:

فمطبوعٌ على شرفِ المزايا ومفطورٌ على بيضِ الخلالِ
وكم من رأيه أبدى شُؤناً لصونِ المُلْك لم تخطُر ببالِ
فأحياءه وكان على شفيرِ بمرطٍ من رسيسِ العهدِ بالِ⁶⁵⁸

فهو قد جعل من شريف الخصال وكريم الشَّمائلِ فِطْرَةً طُبِعَتْ عليها ذات هذا الممدوح، وهبها الله له، فما هي بالمكتسبة العارضة التي تزول بمحادثات الأيام والليالي، بل هي المزايا الطَّبعِيَّة التي لم يشبها

⁶⁵⁷ د.ت.ب، 77.

⁶⁵⁸ د.ت.ب، 77؛ والرَّسِيسُ هنا بقيةُ الشيء وأثره، يُنْظَر: الزَّيْدِي، "رَسَس"، 123/16؛ أبو عمرو إسحاق بن مرار الشَّيْبَانِي، كتاب الجيم،

تحقيق: إبراهيم الأبياري، (القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، 1394هـ/1974م)، 297/1.

أدنى تَكْلُفٍ، وأما سياسته وثاقب آرائه فقد أحييت كلَّ مَوَاتٍ من شأنِ عِزِّ الدَّوْلَةِ، وهي السِّيَاسَةُ التي استعارَ لَشَأْنِهَا -استِعَارَةً مَكْنِيَّةً مُرَشَّحَةً- وصفَ إنسانٍ ارتدى رِداءً قد مُرِّقَتْ أوصالُهُ، وانحدَرَ في دَرَكَاتِ الانحطاطِ حتى بَلَغَ شَقًّا جُرْفِ الهاوية، فقد كَادَ يَتَرَدَّى في مهاوِهَا وينهارَ في دَرَكَاتِهَا السَّاحِقَةِ لولا أن تداركتُهُ سِياسَةُ عبد الحميد برأيه الثَّاقِبِ وعزمِهِ الصَّلْدِ.

وانبرى في مقطعٍ آخرٍ ليتوسَّعَ أكثرَ مُتَعَرِّضًا في مديحِهِ لأَخْلَاقِهِ وَخِصَالِهِ وما تَسَنَّمَ لذِروَتِهِ من المجدِ والشَّرَفِ الأثيلِ الذي وَرَّثَهُ ممدوحُهُ عن أسلافِهِ من الخُلَفَاءِ العُثمانيِّين الأماجد، فأتى بالاستِعَارَةَ المَكْنِيَّةَ لَمَّا جعلَ العِظَائِمَ خِيَلًا وذكرَ لازِمَهَا -وهي الصَّهَوَات- التي يَمْتِطِي رِكَابَهَا فرسائُهَا من أَشَاوِسِ الأماجد، ولمَّا مدَحَ هِيئَةَ هذا الممدوحِ شفعها بالاحتراس فلم تكنْ تلكَ الهِيئَةُ مشوَبَةً بكِبَرٍ مَقِيَّتٍ بل أُشْرِيتْ بالتَّوَضُّعِ فازدَهَتْ تلكَ الهِيئَةُ بِبُرْدَةِ الأخلاقِ المحمَّديَّةِ ونتاجِ المدرِسةِ المصطفويَّةِ من أخلاقِ الصَّحَابَةِ الكرامِ:

فخرُ الملوكِ عِمَادُ دينِ المصطَفَى عبدُ الحميدِ خَلِيفَةُ الإسلامِ
والمتمتطي صَهَوَاتٍ كُلِّ عَظِيمَةٍ من كُلِّ مَجْدٍ مُشْمَخِرٍ سَامِي
وشريفُ أخلاقٍ وزُهْرُ مَنَاقِبٍ ويدُ مُعَوَّدَةٍ على الإنعامِ
ومَهَابَةٌ مشمولَةٌ بتواضعٍ خُلُقُ النَّبِيِّ وصَحْبِهِ الأعلامِ⁶⁵⁹

وتجدرُ الإشارةُ إلى ما اتَّفَقَ عليه النُّقَادُ من ضرورةِ مُلائِمَةِ المديحِ للممدوحِ فَقُدَّامَةُ بن جعفر (ت. 337هـ/948م) اشترطَ أن يكونَ مدحُ الممدوحِ "بما يكونُ له وفيه، وبما يليقُ به ولا يُنافِرُهُ"⁶⁶⁰، وبما أنَّ طَبِيعَةَ الممدوحِ تختلفُ في هذا المقامِ -وخاصَّةً بكونِهِ خَلِيفَةَ المسلمين وسلطانَهُم- فإنَّ هذا

⁶⁵⁹ د.ت.ب، 92.

⁶⁶⁰ قُدَّامَةُ، نقدُ الشَّيْخِ، 20.

سيدفع المادح إلى الإغراق في المبالغة في مديح صفاته والبلوغ بها إلى أقصى درجات التفضيل، ويُعلّل ابن رشيّق هذه الظاهرة إذا ما وُجدت في المديح فيقول: "إنّ الملوك لا تُمدح بما يلزمها فعله كما تُمدح العامة، وإنّما تُمدح بالإغراق والتّفضيل بما لا يتّسع غيرهم ليدلّه"،⁶⁶¹ ولربما كانت هذه الآراء تُعلّل الدّوافع التي جعلت من أبي الهُدَى يسلك هذا المسلك من الإغراق في المبالغة في المديح؛ وقد يُفسّر هذا التّعليل ويُدلّل عليه ما عاد به أبو الهُدَى في موضع آخر حيث يُلمح فيه إغراقه في المبالغة في مدح ممدوحه - حسب ما اقتضاه المقام - فإذا كان ممدوحه في المقطع الآنف الذّكر فخراً لكلّ ملوك الأرض فهو هنا ليس سلطان المسلمين فقط بل هو ملك البريّة كلّها بل وتاج ملوك الدّنيا أجمعهم، وهو خليفة الرّحمن والنّاصر للشّريعة، وهو صاحب العزم الذي علّا على يافوخ الثّريا لمّا جعله مطيّة لرضاء باريه وطاعته، فعبد الحميد مثلما هو قُطب رَحا الدّنيا بسياساتها وعلومها فهو كذلك في الدّين والتّقوى والقنوت والإخبات لمولاه الكريم، وكأنّه قد حيّزت لذات هذا الممدوح أطراف النّبل والمحاسن أجمعها؛ يقول أبو الهُدَى عَقِبَ إحسانه التّخلّص من المطالع التّقديمي الممهّد لقصيدته إلى مديح عبد الحميد بعد أن وصف حال حادي الأظعان الذي طارَ بركبانه إلى إستانبول ليؤمّ رحاب عبد الحميد الممدوح الذي هو السّراج الوهّاج والشمس المنيرة لآفاق -فروق- عاصمة دار الخلافة:

بيغي فروقَ يريدُ شمسَ سمائها	ملك الورى عبد الحميد الثاني
والنّاصر الدّين المبين بهمة	دنت السّماك بطاعة الدّيان
تاج الملوك حليمهم وسليمهم	هو جدّه ذو البأس والسّلطان
ورث الفخار مؤثلاً ⁶⁶² ومُسلسلاً	عبد الحميد خليفة الرّحمن

⁶⁶¹ القيرواني، العمدة، 130/2.

⁶⁶² أصيلاً ضارباً في القِدَم، يُنظر: ابن منظور، "أثل"، 9/11.

فَلَكُ السِّيَاسَةِ وَالْفِرَاسَةِ وَالثَّقَى وَالِدَيْنِ وَالْعِرْفَانِ وَالْإِذْعَانِ⁶⁶³

فهو قد عادَ ليمدح عبد الحميد بما حازه من طيب المحتد وعراقة النسب الذي زها بالمجد الأصيل
المُسلَّسِلِ بأجداده كابرًا عن كابرٍ، ويُطنَّبُ بذكر الخاصِّ بعد العامِّ فيذكرُ منهم أحدَ أعلامهم
السُّلطان سليم (ت. 926هـ/1520م) ذي الشَّكِيمة والأَيادي؛ وقد يكادُ مديحُه لأجدادِ عبد الحميد
يتكرَّرُ في كلِّ مِدْحَةٍ حميديَّةٍ، وكأنَّه أرادَ بمدحهم أن يبتَرَعَ من صدر القارئ أيَّ استغرابٍ قد يُراوِّدُه
في ذاتِ هذا الممدوح إذ ما هو إلا ورثتهم وناهيك بها من ورائته، فهي لم تشمل عرشَ خلافتهم
فحَسَب وإِنَّمَا هي وراثته لِفَعَالِهِمْ وَخِصَالِهِمْ؛ ومن المواضع التي حَشَدَ فيها مدحُه لعبد الحميد بنيله
لباذخ الشَّرَفِ المتسلسل فيه عن أجداده من بني عثمان تلك القصيدة التي كانت انتصاراتُ عبد
الحميد في حربِه الأخيرة على اليونان (1315هـ/1897م)⁶⁶⁴ سببًا مُحَرِّكًا لِقَرِيحَةِ أَبِي الهُدَى كي يهرعَ
ناظِمًا لأبياتها في تهنئة السُّلطان ومُسْتَهَلًّا لها بمطلعٍ ضَمَّنَهُ التَّشْبِيهَ البليغ، حيثُ جَعَلَ من هذه
الفتوحاتِ أقلامًا صريرها يصدحُ بهتافِ النَّصرِ المبين الذي تقرُّ به عينُ الإسلام والمسلمين بل ونبِيُّهم
الكريم عليه السلام الذي كَتَبَ عنه بالقمر المنير بطيبة إعْظَامًا وإِجْلَالًا، وكلُّ هذا بعد أن انبثَقَ فجرُ النَّصرِ
وعَمَّ بضياؤه الآفاق، فقال مخاطبًا للسُّلطان:

بَدَا لِلنَّصْرِ صُبْحٌ مُسْتَنِيرٌ وَسُرَّ بِطِيبَةِ الْقَمْرِ الْمُنِيرُ
وَجَلَّجَلَتْهُ الْفَخَارِ لَهَا سَنَاءٌ وَأَقْلَامُ الْفُتُوحِ لَهَا صَرِيرُ
وَبِئْتِكَ حِينَ تَنْظِمُهُ الْمَعَالِي خَطِيرُ⁶⁶⁵ الشَّانِ يَعْقُبُهُ خَطِيرُ
وَجَدُّكَ فَاتِحُ الْأَقْطَارِ يُدْعَى بِنَصِّ الْمِصْطَفَى (نِعَمَ الْأَمِيرُ)⁶⁶⁶

⁶⁶³ د.ت.ب، 100.

⁶⁶⁴ يُنظر: كامل صدقي - عبد الواحد حمدي، تاريخ حرب الدولة العليَّة ودولة اليونان (القاهرة: المطبعة الكبرى الأميرية، 1315هـ/1897م)، 37.

⁶⁶⁵ رفيع وشريف وذو أهمية، يُنظر: أحمد مختار، "خطر"، 662/1.

⁶⁶⁶ د.ر.ت، 131.

فأبو الهُدَى يُعَرِّجُ على تَسْلُسُلِ الرِّفْعَةِ في أُسْرَةٍ ممدوحِهِ وتعاقُبِها فيهِم عَلَمًا بعدَ عَلمٍ، ويخصُّ في هذا الموضوعِ جدَّه السُّلطانَ مُحَمَّدَ الفاتِحِ بعدَ أن أتى بالاقْتباسِ من حديثِ النَّبِيِّ الأكرمِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "لَتَفْتَحَنَّ القُسْطَنطِينِيَّةُ فَلَنَعِمَ الأميرُ أميرُها ولنَعِمَ الجيشُ ذلكَ الجيشُ"،⁶⁶⁷ وينطلقُ من مديحِ أجدادِهِ إلى تهنِئَتِهِ بالنَّصرِ على أعدائِهِ في حربِ اليونانِ، ولأنَّ الأذهانَ قد تَشَرَّبَتْ إلى معرفَةِ الشَّرارةِ التي أوقَدَتْ تلكَ النَّارَ فقد أحسنَ أبو الهُدَى بتقديمَ مدحِ خِصالِ العفوِ والإحسانِ والبرِّ الذي عَمَّتْ أنداؤُهُ من السُّلطانِ لعمومِ رعيَّتِهِ، فقال وقد ضَمَّنَ البيتَ الثَّاني تشبيهًُا ضمنيًّا جعلَ من الغيثِ المنهمرِ يقصرُ عن أن يُداني فيضَ إحسانِ ممدوحِهِ:

عَفَوْتَ عن المُسيءِ وليسَ بدعًا فمثلك عَفُوهُ عَفْوٌ كبيرٌ
وأتَحَفَّتَ البلادَ وساكنيها بِبرٍّ دونَهُ الغيثُ المطيرُ⁶⁶⁸

فهو قد مَهَّدَ بمدحِ الصِّفَاتِ الرَّقِيقَةِ من كرمٍ وعفوٍ وإحسانٍ لينتقلَ بعدها إلى الصِّفَاتِ القويَّةِ التي حازَها ممدوحُهُ، وهذا من حسنِ الاحتِراسِ بمكانِ، إذ حرصَ ألا يتبادَرَ إلى الأذهانِ تفرُّدُ الممدوحِ بصفةِ البطشِ وطيشِ القراراتِ السَّريعةِ وسفكِ الدِّماءِ، فمضى في مديحِهِ مُصَوِّرًا صبرَ السُّلطانِ وحِلْمَهُ على أعدائِهِ الذين ما قَدَرُوا هذا الحِلْمَ حقَّ قدرِهِ، بل طَغَوْا وتَمَادَوْا فما كان إلا أن انقضَّتْ عليهم جيوشُ السُّلطانِ لتفتِكَ بهم وتسقيهم من كؤوسِ الرَّدَى والهزيمةِ، وقد حرصَ أبو الهُدَى على الإتيانِ بالاستعارةِ التَّصريحِيَّةِ المرشَّحةِ لمدحِ قوَّةِ الجيوشِ العثمانِيَّةِ بجعلِ أفرادِها (ليوثًا لهم زئيرٌ)، ثمَّ كَتَبَ عن

⁶⁶⁷ أحمد بن حنبل، المسند، 287/31 (رقم 18957)؛ مُحَمَّد بن إِسماعيل البخاري، التَّاريخ الكبير، إعداد: مُحَمَّد عبد المعين خان، (حيدر آباد: دائرة المعارف العثمانِيَّة، د.ت)، 81/2 (رقم 1760).

⁶⁶⁸ د.ت.ب، 77.

شِدَّةِ تِلْكَ الْحَرْبِ بِقَوْلِهِ (قَدْ يَشِيبُ لَهَا الصَّغِيرُ) وَهِيَ كِنَايَةٌ قَدْ تَكُونُ مُقْتَبَسَةً مِنَ التَّصْوِيرِ الْقَرَّانِيِّ
لَأَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ: 669

وَجَهَّزَ عِزْمَكَ الْعَالِي لُيُوثًا لَهَا فِي الْحَرْبِ عَنْ شَمِّ 670 زَيْيْرُ
وَلَمَّا أَنْ طَغَى الْيُونَانُ جَهْلًا غَدَوْتَ بِنُورِ صَبْرِكَ تَسْتَيْرُ
فَسَامَتْهُمْ جِيوشُكَ يَوْمَ طَاشُوا بِحَرْبٍ قَدْ يَشِيبُ لَهَا الصَّغِيرُ 671

ثم استطرد أبو الهُدَى فراح يُصَوِّرُ سَاحَةَ تِلْكَ الْحَرْبِ، وَلَكِنَّ تِلْكَ السَّاحَةَ إِنَّمَا هِيَ سَاحَةُ الْإِنْتِصَارِ،
فَلِكَاثَتَهَا صُورَةٌ مَرْسُومَةٌ بِرِيشَةِ الْكَلِمَاتِ أَمَامَ الْقَارِي، فَهَا هِيَ هَامَاتٌ صِنَادِيدُ الْيُونَانِ تَتَقَادَفُهَا الرِّيحُ
مُتَطَايِرَةً، وَجَنْدُهُمْ مَا بَيْنَ مُرْتَجِفٍ كَادَ قَلْبُهُ يَنْخَلِعُ فَالْتَوَى هَائِمًا عَلَى وَجْهِهِ يَلْهَثُ وَيَلْتَهُمُ الْفِرَارَ هَرَبًا
مِنْ حَتْفِهِ الْمَحْتومِ، وَآخِرُ قَدْ أَثَخَنَتْهُ الْجِرَاحُ فَلَا الْمَوْتَ يُنْهِي عَذَابَهُ بِهَا، وَلَا هِيَ بِالْمُلْتَمِئَةِ فَتُطْلِقُ عِنَانَ
قَدَمِيهِ لِلرِّيحِ لِيَفِرَّ مِنَ الْمَوْتِ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ هَذَيْنِ الصَّنَفَيْنِ فَقَدْ اقْتَادَتْهُ الْأَصْفَادُ فَكُبِّلَ بِهَا أُسِيرًا
لَدَى تِلْكَ الْجِيوشِ الْعُثْمَانِيَّةِ، الَّتِي مَدَحَ بِأَسْهَائِهَا أَبُو الْهُدَى وَمَا سَامَتْ بِهِ أَعْدَاءُهَا مِنَ الْمَنَايَا، إِذْ اسْتَعَارَ
لِلْمَنَايَا -اسْتِعَارَةً مَكْنِيَّةً- وَصَفَ ذَاتِ ثَلَاعِبٍ جَرَحَى الْعَدُوَّ، فَقَالَ:

فَمُنْفَلِتٍ مِنَ الْمَوْتِ ارْتِعَاشًا يَفِرُّ وَرَأْسُ مَقْدَامٍ يَطِيرُ
وَمَجْرُوحٍ ثَلَاعِبُهُ الْمَنَايَا وَمُعْتَقَلٍ بِسِلْسِلَةٍ أُسِيرُ
وَبِلْدَانٍ جَنُودُكَ ذَلَّلْتُهَا بِهَا لِدِمَائِ صَائِلِهَا خَرِيرُ 672

669 من قوله تعالى: "يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا"، المزل، 17/73.

670 الشَّمَمُ هُوَ ارْتِفَاعُ قَصَبَةِ الْأَنْفِ، وَمُدَحُّ الْمَدُوحِ بِالشَّمَمِ إِذَا مَا كُنِيَ عَنْ رَفْعَتِهِ وَعُلُوِّ شَأْنِهِ، يُنْظَرُ: ابْنُ مَنْظُورٍ، "شَمَمٌ"، 327/12.

671 د.ر.ت، 132. وَفِي الدِّيَّانِ "يَشِبُّ" بِدَلِّ يَشِيبُ، وَ"لَهُ" بِدَلِّ لَهَا، وَلَعَلَّ الصَّوَابَ مَا أُثْبِتَ فِي الْأَعْلَى.

672 د.ر.ت، 132.

ويستلَبُ كلَّ استغرابٍ قد يُساوِرُ القارئَ في هذا الممدوح، إذا ما شخصَ بصرُهُ إلى صرح تلك الشَّمائِلِ الحميديةِ والحِصَالِ السُّلطانيةِ، فهي لم تأتِ إلا من معدنها وَبَعَةِ مجديها وهم جُذودُه وأسلافُه العثمانيُّون، والشيءُ من معدنِه لا يُستغَرَّبُ فينعطفُ مرَّةً أُخرى إلى مدح شَمائِلِ السُّلطان عبد الحميد، وقد وُشِّي مدحُه بالكنايةِ عن طيبِ شَمائِلِ أجدادهِ وزينِ فعالهمِ عبرَ وصفها بقوله (يفوخُ بذكرها الزَّاكي العبير)، وألبَسَ هذه المعاني قوَّةً باستجلابِ وصف الخجلِ للكواكبِ والحسدِ للطَّباءِ -من طريق الاستعارة المكنية-، وذلك لكي يجعل تلك الشَّمائِلِ تَسامى على الكواكبِ رِفْعَةً وتَفوقُ على الطَّباءِ رِقَّةً ولطافةً، فقال وقد ضَمَّنَ البيتَ الأوَّلَ أسلوبَ الإطنابِ عبر التَّذييلِ بجملةِ (والعدلُ رونقُه نضيرُ)، مما يتناسبُ مع مقامِ المديحِ الذي يقتضي بسطَ الكلامِ في الممدوح:

وُسِّتَ المُلْكُ بالعدلِ ابتهاجًا بهِ والعدلُ رونقُه نضيرُ
فِعَالٌ عن جُذودِكَ صَادِرَاتٌ يَفُوخُ بِذِكْرِهَا الزَّاكي العَبِيرُ
خِلَالُ تَخْجُلُ الأَقْمَارُ مِنْهَا وَيَحْسُدُ لُطْفُهَا الطَّيُّ العَرِيرُ⁶⁷³

وبإمعانِ النَّظَرِ في مِدَحِ أبي الهُدَى للسُّلطان عبد الحميد يبرزُ للنَّاظِرِ اهتمامُه بأحقيةِ الخِلافةِ في السُّلطان والتَّركيزُ على ما أحياهُ هذا الممدوح من مَوَاتِ الأُخُوَّةِ الدِّينيةِ لتجتمعَ شعوبُ الدَّولةِ العثمانيةِ متوَحِّدةً تحتَ رايتهِ الإسلاميةِ ولا تتفرَّقَ بهم السُّبُلُ، وهو نابعٌ من إيمانهِ بفكرةِ الجامعةِ الإسلاميةِ، فحتى الذي يخرجُ على عبد الحميد فهو الخارجِيُّ اللَّئيمُ -حسبما يراهُ أبو الهُدَى-؛ ومن ذلك قولُه وقد تزيَّنتْ أبياتُه بالبديعةِ المعنويةِ -التَّفريع- حيثُ استوجِبَ مدحُ ممدوحِه بإعطاءِ الخِلافةِ حقَّها أن يتفرَّغَ عنه مدحُه بإحياءِ قلوبِ المسلمينَ وجمعِ شملِهِم:

أَعْطَى الخِلافةَ حَقَّها بديانةً وصيانةً بَعُدَتْ عن الآثامِ

⁶⁷³ د.ر.ت، 131.

أحيا قلوبَ المسلمين جميعَهُم فكأَنَّهُم كُلُّ أُولُو أَرْحَامٍ
فاستعصمت كلُّ القلوبِ بِحَبِّهِ طُرًّا وما العادونَ غيرُ لِقَامٍ⁶⁷⁴

وأبو الهُدَى لا يفتأ مُكرِّراً مدحَ العدل الذي تحلَّى به ممدوحُهُ - كما في البيت الأخير -، ويستطرِدُ في كلِّ مدحَةٍ في مدحِ هذا السُّلطان بالِرِّقَّة واللُّطْف المعضودِ برجاحة الآراء، مما يعني أنَّ أبا الهُدَى قد شقَّ لنفسِه طريقاً يَضادُّ به النِّظرة المُعاكِسة لهذه الرُّؤية تماماً، وهي التي أشاعها الفريق المعارِض للسُّلطان والواصفَةُ لَهُ بأنَّه السُّلطان الأحمر والمستبِدِّ الجاهل والأخرق البليد وإلى غيرِها من الصِّفات التي تولَّت الصَّحافة الأجنبيَّة والأقلام المُعارِضة آنذاك عِباءً إشاعَتِها في أوساطِ العامَّة،⁶⁷⁵ وهذا قد يُفسِّرُ شيئاً من مدحِه المتكرِّر لِلطُّفِ السُّلطان وإحسانِه وعدلِه وصوابِ سياستِه، كقولِه في مدحَتِه التي قدَّمها بين يدي إهدائه لكتابه "ضوء الشَّمس" الذي ألَّفُه مخصوصاً للسُّلطان عبد الحميد:

فاقَ الذين تَقَدَّموا من أهلهِ بالرِّفقِ والإحسانِ والإغضاءِ
وروى حديثَ العدلِ نقلاً مُسنَّداً عن أهلهِ وصفاتِه العَرَّاءِ
شَهِدَ الزَّمانُ بأنَّه في رأيِه فوقَ ابنِ قيسٍ مُحكِّمُ الآراءِ⁶⁷⁶

فحكمة السُّلطان وآراؤه الثَّاقِبة في سياسةِ سَلْطَنَتِه - ليست بنظرِ الشَّاعرِ فقط وشهادته وحده وإمَّا جعلها بشهادةِ أهلِ عَصْرِه كُلِّهِم - قد فاقت رجاحَتها وعَلَّت على أعلى رموزِ الحلمِ والتَّأنيُّ وأشهرِهِم على ألسِنَةِ العربِ وهو الأحنَف بن قيس (ت. 72هـ/691م)؛⁶⁷⁷ وانطلاقاً من هذه الرُّؤية التي يراها

⁶⁷⁴ د.ت.ب، 93.

⁶⁷⁵ يُنظر: سليمان جوقه باش، السُّلطان عبد الحميد الثَّاني شخصيَّته وسياسَتُه، مترجم: عبد الله أحمد إبراهيم (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2008م)، 219-220.

⁶⁷⁶ د.ت.ب، 6.

⁶⁷⁷ يُنظر: الزركلي، الأعلام، 276/1.

أبو الهُدَى في ذاتِ ممدوحِهِ وإيمانًا منه بها فلا غرو أن يُعَبِّرَ عن مزيدِ محبَّتِهِ في هذا السُّلطان ويجعل ختام المدائحِ تديبًا لها بدعواتِ خالصةٍ لهذا الممدوح في أن يدومَ ظِلُّهُ وتداولَ لدولتِهِ رِقابُ الملوكِ الآخرين خاضعةً، وتبقى دولتُهُ منصورَةً متَفَيِّئَةً لِظلالِ عدالتِهِ، ومن ذلك اختتامُهُ لِمَدْحَةٍ بقولِهِ:

ودامَ لنا إمامُ الدِّينِ كهفًا له تغدو الملوكُ من الموالِ
وظاهرُهُ مدى الأَيَّامِ فتحٌ ونصرٌ في الأمورِ بلا زوالٍ⁶⁷⁸

وهي تحكي براعةَ المقطعِ بختامِ القصيدةِ بما يتناسبُ مع الجوّ العامِّ للمدحةِ، وهو ما تَكَرَّرَ في ختامِ مدْحَةٍ أخرى دعا لَهُ بطولِ البقاءِ وبأن يدومَ موثلاً يُدْخِرُ للإسلامِ وللشريعةِ وأهلِهَا، وأن يبقى في سرورٍ وهناءٍ دائمين فقال:

فدُمُ للدِّينِ والإسلامِ عِزًّا به فَلَكَ المفاخِرِ يَسْتَنِيرُ
وقلْبُكَ بالمَسَرَّةِ مُسْتَضِيءٌ وطرفُكَ بالهنا أبدًا قريرٌ⁶⁷⁹

ومن جميع ما سَبَقَ ذكرُهُ في هذا المطلَبِ يظهرُ أنَّ أبا الهُدَى في مدحِهِ للعثمانيِّين عمومًا وللسُّلطان عبد الحميد خصوصًا ما كان في مديحِهِ شاعرًا مُتَكَسِّبًا - كما درَجَ على ذلك الكثير من الشعراء المُدَّاحُ للخلفاء وذوي المناصب -، بل كان مدحًا نابعًا من محبةٍ حقيقيَّةٍ يرى الشَّاعرُ أنَّهَا محبةٌ أوجبَهَا عليه إخلاصُهُ للإسلام من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى فهو مدحٌ نابعٌ من إيمانه بفكرة الجامعة الإسلامية وسعيهِ الحثيث لخدمةِ مشروعِهَا، فراح في مدحِهِ يُعَبِّرُ عن خَلجاتِ فؤادِهِ تجاه السُّلطان عبد الحميد، ويُخالفُ في تسطيرِهِ لهذه المدحِ الأفكارَ القوميَّةَ والعنصريَّةَ التي وُجِدَتْ عند غيره، من الأطرافِ المعارضةِ للسُّلطان، مما يَرِجَحُ كَفَّةَ القولِ بصدقِ مديحِهِ وخلوّهِ من التَّكَلُّفِ

⁶⁷⁸ د.ت.ب، 78.

⁶⁷⁹ د.ر.ت، 132.

المصطنع، وكأنَّ هذا المديح لم يُشِثْهُ قائلُهُ للمدح فقط، وإنَّما جاءَ به ليكونَ حثًّا على الالتفافِ والتَّوَحُّدِ حولَ هذا الممدوحِ السُّلطانِ عبد الحميد وليكونَ أيضًا تعريفًا بمنزِلَتِهِ ودفاعًا عنه أمامَ ما يُهاجَمُ به من قِبَلِ أعدائِهِ.

3 مدح الفضلاء

قد كان لأهل الفضل والعلم قِسطٌ من مدائح أبي الهُدَى، حَصَّصَهَا للثناءِ عليهم وعلى منهجِهِم، ويعود الفضل في انطلاقه في ميدان هذا النوع من المديح إلى ما كانت تُملِّيه عليه البيئَةُ المحيطَةُ به، فهو الشابُّ الذي نشأ في بيئَةٍ صُوفِيَّةٍ، وشاءَتْ لَهُ الأقدارُ الإلهيَّةُ أن يتعرَّعَ في كَنَفِ والدِهِ فيفتَحَ عينيه على الدُّنيا وهو بين جدران زاويةٍ صُوفِيَّةٍ يستقبلُ الغادي والرائح إليها،⁶⁸⁰ ومن المؤكَّد أنَّ دورةَ الأيام كانت قد دارَتْ لثُسْفَرٍ عن ولدٍ سارٍ سيرَ والدِهِ وأسرَتِهِ المُتَصَوِّفَةِ، فانجَلَّتْ مدائِحُهُ لِيُلاحِظَ النَّاظِرُ فيها أنَّ مُعْظَمَهَا في مشاهير أعلام التَّصَوُّفِ بدءًا من الجُنَيْدِ بن مُحَمَّدٍ البغداديِّ (ت. 297هـ/910م) وانتهاءً بمن أخذَ عنه ممن عاصِرُهُ؛ ويُضَمُّ إلى هذا مديحُهُ في والدِهِ وغيرِهِ من الفضلاء، وعلى ما يبدو أنَّ أبا الهُدَى قد قَصَرَ مدائِحَهُ الخاصَّةَ على فِئَةِ الصُّوفِيَّةِ الذين تربطه بهم علاقةٌ محبَّةٌ خالِصَةٌ، وهي نابعةٌ من كونه مُتَمَيِّيًا إلى منهجِهِم الذي يُجِلُّهُ ويدعو إليه.

ولو اعتمدَ التَّرتيبُ الزَّمنيُّ لأولئك الممدوحين فلا غرو أن يكونَ الجُنَيْدُ أوَّلَهُم، فهو "شيخُ الصُّوفِيَّةِ الذي لم يُرَ في زمانِهِ مثلهُ في عِقَّةٍ وعزوفٍ عن الدُّنيا"⁶⁸¹ - كما يراه شمسُ الدِّينِ الدَّهْويُّ

⁶⁸⁰ يُنظر: 15.

⁶⁸¹ شمس الدِّين محمد بن أحمد الدَّهْوي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، (بيروت: مؤسسة الرِّسالة، 1405هـ/1985م)، 68/14.

(ت. 748هـ/1347م) -، وقد حَصَّه أبو الهُدَى بقصيدةٍ واحدةٍ، استهلَّها بالمديحِ المباشرِ، وانتحَى في مديحِهِ منحى التَّعدادِ للمكارِمِ التي اخْتُصَّ بها، فشَبَّهَ تشبيهاً بليغاً بالبحرِ الهادرِ بصنوفِ المعارِفِ:

بِحُرِّ تَمَوَّجِ بالمعارِفِ وارتقى متنَ الفخارِ بهِمَّةٍ وسَدَادِ
وَأَتَى بِأَحْكَامِ الطَّرِيقِ مُؤَيِّداً شَرَعَ الرَّسُولِ بصحَّةِ الإسنادِ
وأقامَ جدرانَ الحقيقةِ في الورى بيدَ الكمالِ لحاضرٍ ولبادٍ⁶⁸²

وأبرزُ ما يُلَاحَظُ في مدائِحِهِ لهذه الفِئَةِ هو تَدْقِيقُهُ - كما يظهر في الأبياتِ السَّابِقَةِ - على تَخْصِصِهِم بثلاثِ مَزايا هي: التَّبَحُّرُ في العلومِ، والالتزامُ بمنهاجِ الشَّرْعِ الحنيفِ - الكتابِ والسُّنَةِ -، وما ينتجُ عن هذينِ الوصفينِ من الوصولِ بصاحبها إلى كُنْهِ حَقِيقَةِ المعارِفِ أو الحقيقةِ الكبرى التي هي مَعْرِفَةُ اللَّهِ؛ ومن هنا يَتَضَحُّ كيف أتى الشَّاعرُ بالاستعارة المكنيَّةَ لِيُصَوِّرَ تَمَكُّنَ ممدوحِهِ في هذه المزيَّةِ، حيثُ جعلَ الحقيقةَ بيتاً ثم ذكرَ لوازمَهُ وهي الجدرانُ التي جاء ممدوحُهُ - الجنيد - فأقامَ صَرَحَهَا على أكملِ وجهٍ - بما أشارَ إليه من الكناية بقوله (بيد الكمال) - وذلك لكي يُؤمَّ هذه الحقيقةَ مَنْ سيأتي بعده من الأجيالِ على مَرِّ العصورِ وفي مَخْتَلَفِ البقاعِ. والشَّاعرُ يسيِّرُ على هذا المنوالِ في مديحِهِ لأربابِ التَّصَوُّفِ ومشاهيرِهِم كعبدِ القادرِ الجيلانيّ (ت. 561هـ/1166م) الذي كان - حسب ابنِ تَيْمِيَّةٍ - "من أعظمِ مشايخِ زمانِهِم التزاماً بالشَّرْعِ والأمرِ والنَّهي"،⁶⁸³ ومدحَ الشَّاعرُ إلى جانبِهِ الشَّريفَ البدويَّ⁶⁸⁴ (ت. 675هـ/1276م) وأبا المجدِ إبراهيمَ الدَّسوقيَّ⁶⁸⁵ (ت. 676هـ/1277م)، وخصَّ كلَّ واحدٍ منهم

⁶⁸² د.ر.ت، 100.

⁶⁸³ أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن القاسم، (المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1416هـ/1995م)، 488/10.

⁶⁸⁴ يُنظر: أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود أرناؤوط، (دمشق: دار ابن كثير، 1406هـ/1986م)، 602/7.

⁶⁸⁵ يُنظر: الزركلي، الأعلام، 59/1.

بقصيدة مفردة،⁶⁸⁶ ومدائحه فيهم لا تكاد تخرج عن المزايا الثلاثة - آنية الذكر - إلا بما يضيفه عليهم من مدح نبعتهم الشريفة لآل البيت النبوي، وما نالوه من علو كعب في إرشاد الخلق إلى خالقهم، وذلك كقوله في مدح الجيلاني:

وسليل آل عن مراتب قدرهم وسموها يتقاصر القمران
وإمام إرشاد بكعبة هديه طافت شيوخ العجم والعربان⁶⁸⁷

ويبدو جلياً تعظيمه لباع الإرشاد الذي حازه ممدوحه، حيث جعل - بالتشبيه البليغ - ما يصدر عنه من هدي ونصح كعبة عظمى يؤمها أرباب الاسترشاد والإرشاد، شرقاً وغرباً، عجماً وعرباً، فكأنها تطوف حول عظمة إرشاده وهديه؛ وهذا الإغراق في المبالغة في النعوت التي خص بها ممدوحه يؤكد مرة أخرى سمة ارتباط الشاعر بالتصوف واعتناقه لأفكاره، حيث جاءت هذه المدح منسجمة مع ما يقوم في أذهان المتصوفة من تعظيم وتبجيل لمشايخهم؛ وبإمعان النظر في مدح أبي الهدي لمشاهيرهم سيجد الناظر أنها مدح قلائل لا تتجاوز القصيدة الواحدة، لكنه سيلمح أن القدر المعلن من المدح كان الشاعر قد خصصه لجده الأعلى أحمد بن علي الرفاعي،⁶⁸⁸ ذلك الرجل الذي وصفته ألسنة المؤرخين - كالذهبي وابن خلكان (ت. 681هـ/1282م) - بأنه "الزاهد الكبير"، "والفقيه الإمام القدوة عالي المقدار، رقيق القلب، غزير الإخلاص"، "والرجل الصالح الذي أحسن الناس به الاعتقاد"؛⁶⁸⁹ ولم تكن صلة القرابة وحدها هي التي تُفسر إكثاره من مدح الرفاعي بل إن كون هذا الممدوح هو

⁶⁸⁶ يُنظر: د.ف.م، 131؛ د.ر.ت، 127، 128، 173.

⁶⁸⁷ د.ر.ت، 132.

⁶⁸⁸ يُنظر: د.ف.م، 126، 128؛ د.ر.ق، 11، 14، 18، 25، 30، 38؛ د.ر.ت، 25، 41، 52، 67، 84، 77، 174، 185؛ د.ت.ب، 39؛ د.ر.ح، 57.

⁶⁸⁹ يُنظر: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: بشر عواد معروف، (بيروت: دار الغرب الإسلامي،

1424هـ/2004م)، 605/12؛ المؤلف نفسه، أعلام النبلاء، 77/21؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، 171/1.

مؤسس الطريقة الرفاعية⁶⁹⁰ التي انتسب إليها أبو الهدي منذ أوائل حياته يجعل منه مادحاً مُندفعاً بعلاقة المحبة القوية التي انطوى عليها تجاه هذا الممدوح، ليصوغها بقصائد تُترجم مكنونات فؤاده، فقد حرص أن يذكره بألفاظ تدل على انتمائه له ولمنهجه الذي راح يُشيع المدح له ضمن تلك المدائح الرفاعية كقوله، وقد أتى بالاستعارة المكنية ليأخذ بلب القارئ إلى تحيل تلك العزيمة المكنونة في ذات ممدوحه فهي العزيمة التي لم يشبها شطح أو تجاوز للحدود الشرعية، فجعل منها خيلاً لها عنان لم يلو زمامها درك الشطوح والادعاءات الجانحة عن الصواب والحق، فاستهل المدحة متجاوزاً للمطالع التقليديّة، مُبادراً للمديح المباشر، مُنزّهاً منهج ممدوحه وجاعلاً له منهجاً مقصوراً على الشريعة والأدب، قائلاً:

شيخى الرفاعي طريقه الأدب إلى سوى الشرع ليس ينجذب
لا الشطح يلوي عنان همته ولا الدعاوي إليه تقرب⁶⁹¹

وحيثما آخر يرى أبو الهدي مُستهلّاً مطلع قصيدته المدحية بالتشويق إلى مثنوى ممدوحه "واسط العراق"،⁶⁹² منثياً بكلماته إلى ربوعها ليُعبّر عن فيضان تلهفه الصادق وما قد ثار من لواعج شوقه السابق إلى هاتيك الديار التي هاجت نسائماً أشواقه الكامنة، فإذا بهذه الأشواق قد قامت بعجزها وعجيجها ناهضةً لتَهزّ كيان الشاعر، حتى راح يستعطف رفيقه حادي النياق متوسلاً إليه أن يحمل هذه الذات الموهبة على جناح من السرعة إلى بطحاء العراق، إذ بها قد حلّ ممدوحه، ومن ثمّ أحسن التخلّص ليترك فيما تلتّه من الأبيات مديح أحمد الرفاعي؛ فقال:

⁶⁹⁰ يُنظر: الزكلي، الإعلام، 174/1.

⁶⁹¹ د.ر.ت، 25.

⁶⁹² بلدة في العراق تتوسط البصرة والكوفة، يُنظر: ياقوت، البلدان، 347/5.

أَمِنْ نَفَحَاتِ أَزْهَارِ الْعِرَاقِ دَعَاكَ صَمِيمٌ وَجَدَكَ لِلتَّلَاقِ
 بِكَ الْأَشْوَاقُ قَامَ لَهَا عَجِيجٌ⁶⁹³ مَعْرِبَةٌ⁶⁹⁴ عَلَى قَدَمٍ وَسَاقٍ⁶⁹⁵
 بِحَقِّكَ إِنْ تَهَزَّتْ⁶⁹⁶ الْعَيْسَ صُبْحًا فَطَرُ بِأَخِي التَّوْلَةَ لِلْعِرَاقِ
 لِأَعْتَابِ الْإِمَامِ ابْنِ الرَّفَاعِيِّ عَمِيدُ الْقَوْمِ مُتَنَعٌ لِلْحَاقِ⁶⁹⁷

وهكذا ينجلي أمام الناظر تعظيم أبي الهدي لممدوحه لما جعله إماماً مُتَنَعٌ لِلْحَاقِ في كناية منه عن
 رُتَبَتِهِ الرَفِيعَةِ وشأوه القَصِيِّ الذي لا يُبْلَغُ مُرْتَقَاهُ، حتى صارَ بِحَقِّ عَمِيدِ الْقَوْمِ الْمُتَصَوِّفَةِ؛ وتكادُ تكونُ
 مِدْحُ الشَّاعِرِ لهذا الرَّجُلِ مُبَرِّزَةً بوضوحٍ سَمَةِ الْإِغْرَاقِ والمُبَالَغَةِ في نعوت الممدوح، فصوتُ مدائِحِهِ لهذا
 الرَّجُلِ يعلو ويعلو إلى أن يجعل منه إمامَ رجالات التَّصَوُّفِ أَجْمَعِهِمْ بل سيِّدَ جميع الصَّالِحِينَ على
 امتداد العصور التي تَلَتْهُ، ومن ذلك قوله وقد شَبَّهَ -تَشْبِيهًا مُرْسَلًا مُجَمَّلًا- الصَّالِحِينَ بنجوم الليلِ
 المتلألئة ممدوحه الرَّفَاعِيِّ بالقمرِ المنيرِ:

سَيِّدُ الصَّالِحِينَ فِي كُلِّ عَصْرِ شَيْخُ أَقْطَائِهِمْ بِكُلِّ أَوَانٍ
 بَعْدَهُ الْقَوْمُ كَالنُّجُومِ بَلِيلٍ وَهُوَ بَيْنَ الْجَمِيعِ كَالزَّبَرَقَانِ⁶⁹⁸

فإذا كانت سماءُ الصَّالِحِينَ تلمعُ بنجومِ أعلامِهِمْ فإنَّ ممدوحَهُ هو بدرُهُم السَّاطِعُ الكَامِلُ؛ ومما يسترعي
 الانتباه خوضُ الشَّاعِرِ فِي خِضَمِّ الْأَلْقَابِ الصُّوفِيَّةِ -كالقُطْبِ والغوثِ والأبدال-⁶⁹⁹ عندما يمدحُ

⁶⁹³ مصدرٌ عَجَّ وهو رفعُ الصَّوْتِ والصِّيَابِ، يُنْظَرُ: الجوهري، "عَجَجَ"، 327/1.

⁶⁹⁴ من عَرَبِدَ، والمعرِبِدُ هو الذي يُوْذِي نَدِيمَةً فِي سُكْرِهِ، يُنْظَرُ: الجوهري، "عَرَبِدَ"، 508/2.

⁶⁹⁵ إذا قِيلَ: قَامَ فُلَانٌ عَلَى قَدَمٍ وَسَاقٍ فالمرادُ بِقَوَّتِهِ وبطَاقَتِهِ الْكَامِلَةِ، يُنْظَرُ: أحمد مختار، "قدم"، 1785/3.

⁶⁹⁶ حَرَّكَتْهَا ودفعَتهَا لِتَنْهَضَ وتَمَشِّي، يُنْظَرُ: الجوهري، "هَزَّ"، 900/3.

⁶⁹⁷ د.ر.ت، 174.

⁶⁹⁸ د.ر.ق، 62؛ والزَّبَرَقَانُ اسمٌ لِلْقَمَرِ عِنْدَ اكْتِمَالِهِ، يُنْظَرُ: ابن منظور، "زبرق"، 137/10.

⁶⁹⁹ ألقابٌ اصْطَلَحَ عَلَيْهَا الْمُتَصَوِّفَةُ يُضَفَّوْهَا عَلَى أَعْلَامِهِمُ الْمُجْتَهِدِينَ فِي طَرِيقِ التَّصَوُّفِ اِمْتَلَأَتْ بِهَا تَرَاجِمُهُمْ وَيَسْتَنْدُونَ إِلَى ذَلِكَ بِأَخْبَارٍ وَأَثَارٍ مَرْوِيَّةٍ فِي الْأَحَادِيثِ تَحَاذِبَتْهَا الْأَقْوَالُ رَدًّا وَتَصْحِيحًا، يُنْظَرُ: جلال الدِّين عبد الرحمن بن أبي بكر السُّيُوطِي، الخبر الدَّالُّ عَلَى وَجُودِ الْقُطْبِ وَالْأَوْتَادِ وَالنُّجَبَاءِ وَالْأَبْدَالِ، تحقيق: عبد الهادي منصور، (دمشق: دار البيروتي، 2005م)، 11.

ممدوحه، وهذا ينسجم مع اعتقاده الصوفي الذي ينجلي بقوة في مديحه لهذه الشخصية التي يراها أبرز الرجال في هذا المنهج؛⁷⁰⁰ فيقول في قصيدة أخرى مادحاً تواضع ممدوحه وتمسكه بالسنة العراء:

مُتَوَاضِعٌ كَالشَّمْسِ يَلْمَعُ نَوْرُهَا فَوْقَ الثَّرَى وَلَهَا الْعُلَى مِضْمَارُ
غَوَتْ عَلَى قَدَمِ الرَّسُولِ سُلُوكُهُ وَلِغَيْرِهِ فِي سِلْكِهِ أَطْوَارُ⁷⁰¹

ويبدو أنَّ الشاعر لكي يأخذ بعين القارئ إلى صورة التواضع التي اتسمت بها ذات ممدوحه، قام بجلب صورة صب عليها قلمه من سحر البيان بالتشبيه التمثيلي وبالإيجاز، فصوّر تواضع ممدوحه مع حقيقة رفعته بصورة الشمس ذات العلاء في قمة يافوخ الثريا التي تواضعت فتنزّل لامع نورها ليمتدّ منبسطاً على ذرات الثرى، فكذلك ممدوحه امتدّ تواضعه شاملاً من حوله من الأدنى والأعلى مع كونه مرفوع المقدار إلى هام العلاء والمجد، لأنّه سار بسير الاقتفاء للنبي الكريم صلى الله عليه وسلم.

وقد يُكتفى بما وقّف عليه أنفاً من مديح الرفاعي لأنّ ما عداه مما تفرّق في شعره من مدح لأعلام طريقته التي انتسب إليها - كأستاذ الرواس وجده أحمد الصيّاد ووالده حسن وادي-⁷⁰² لا يتعدّى حدود المعاني التي رسمها لممدوحه الرفاعي؛ إلا أنّ من الأهمية بمكان أن يُشار إلى تلك القصيدة ذات النفس الطويل التي أفاض فيها بمدح والده حتى جاوزت المئة، وحرص الشاعر فيها على أن يبني بُناها بمطلع ضمّنه التّشوّق إلى مراح وطنه -حلب الشهباء- التي ازدهت ربوعها بساكنيها الكرام أهلّه وعشيرته وجيرانه وأحابئه فراح يُعدّد نعوّتها التي ازدهت بمكارم أهلها، فمن ذلك قوله في المطلع المزيّن بحليّة التصريح (العرا/الزّهرا)، وحلّل الجناس (كسرة/ كسرى، سُكاري/سُكّرى)

⁷⁰⁰ يُنظر: د.ف.م، 151.

⁷⁰¹ د.ر.ق، 62.

⁷⁰² يُنظر: د.ت.ب، 109؛ د.ر.ت، 14، 18، 90؛ د.ر.ح، 26، 177.

والتَّسْجِيع (كرام/عظام)، إضافةً للإطنابِ الذي يحكي كيفَ يستحلي أبو الهُدَى تردُّدَ مَرابِعِ قَوْمِهِ
على لسانِهِ وذلك لفرطِ أشواقِهِ ومحبَّتِهِ إليها ولها:

رعى الله أطلالاً بشهباينا العرا وحيا ديارا دون أنوارها الزهرا
معاهدُ أحبابٍ كرامٍ وسادةٍ عظامٍ وأعيانٍ سماءٍ شأنهم قدرا
(بنحنُ قسَمنا) أيَدوا السِّرَّ فاكتفوا بكِسرةٍ خبزٍ عن رَشيدٍ وعن كِسرى
تَعاموا عن الأكوانِ حتى كأَنهم سُكاري وتلقى النَّاسَ من شأنهم سَكْرَى⁷⁰³

وها هنا يُلحِظُ انتقالُ أبي الهُدَى بحسنِ التَّخْلِصِ إلى مدحِ أعيانِ حَلَبٍ وساداتها أهلِ الزُّهدِ في المتاعِ
الرَّائِلِ العَرُورِ، الذين مدَحُهم لَمَّا اقتَبَسَ قولَه تبارك وتعالى: "نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ"⁷⁰⁴ بأنَّهم الذين عُمِرَتِ سرائِرُهُم بفهمِ حَقِيقَةِ هذه الآيةِ فتَأَيَّدَتِ
بهذا الفهمِ سِيرَتُهُم في حياتِهِم، فما عادوا يحسُدون رفيعًا ولا يحتقرون وضيعًا، بل كنزوا القناعةَ والرِّضا
بما أعطاهم مولاَهُم فما اشْرأَبَتِ نفوسُهُم لملكِ ملوكِ الأرضِ وما تكالَبَ عليه النَّاسُ، فمضوا سارِينَ
بهذه السَّيرَةِ لا يَلْتَفِتُونَ إلى غَبَشِ دنيا الدُّنيا فلَكأنَّهم سَكِرُوا بنشوةِ حبِّ الله والإيثارِ للدَّارِ الآخِرَةِ،
حتى إذا ما نَظَرَ إليهم النَّاسُ تملَّكَتْهم نشوةُ الإعجابِ والانبهارِ بما تَجَسَّدَ في تلكِ الدَّواتِ من كريمِ
الخِصَالِ وشريفِ الشَّمائِلِ؛ ومضى الشَّاعرُ مُسْتَطَرِّدًا على هذا المنوالِ في المديحِ لأعيانِ بِلادِهِ الشَّهباءِ
إلى أن أحسَنَ التَّخْلِصَ مرَّةً أُخرى إلى مقصودِهِ من المِدْحَةِ والدِّهِّ حسنِ وادي، الذي هو -في
نَظَرِهِ- عَيْنُ أعيانِهِم، في إطنابٍ مدحِيٍّ جميلٍ يُذكِّرُ فيه الخاصَّ -والدُّهَّ- بعد العامِّ -مرباعِ حلبِ

⁷⁰³ د.ف.م، 148.

⁷⁰⁴ الزُّخْرَف، 32/43.

وأهلها-، وذلك بعد أن أحسن التعليل معتدراً عن تقصيره في مديح أعيان الشهباء مُضمّناً لأبياته
الطِّباق (طويل/قصير، خلوة/بارز):

طويلٌ مديحي حين يُثني عليهم قصيرٌ فلا أحتاج أن أبسط العذرا
ولا سيمًا بالشَّهم مولاي والدي ملاذي ومن أعددته في الملا ذخراً
كليث الشَّرى في غابة الشَّانِ بارزٌ وفي خلوة العرفان مُنكسرٌ سراً⁷⁰⁵

فوالده بلغ من علوِّ الكعبِ في مضمارِ شؤوناتِ الشَّرَفِ ما دفعه لتشبيه ذلك المضمار بالغابة التي
برزَ فيها والده هزيراً يزأُرُ بكلِّ فضيلةٍ ومجدٍ، وهو رغمَ هذا الطَّورِ العزيز ينطوي منكسراً ذوياً إذا ما
انزوى مُحتلياً في مناجاته لخالفه العظيم؛ ولا يلبثُ أبو الهدى بالقارئ قليلاً حتى يعرج به في معارج
الطَّابع الدَّائِي الذي صبغَ به هذه المدحة، ليبيِّن العلاقة بينه وبين مدوحه، حيثُ راح يحكي حالَ
هذا الوالد مع ربِّه وصدق التجائاته إليه في الضَّراء والسَّراء، وما أسفرت عنه هذه الدَّعوات من أيادٍ
بيضاء التي كَتى بها عما أجرته الأقدار في مسيرة وَلَدِهِ المادح أبي الهدى فراح يرُقُّ بِرُدَّةِ الإتحافات
والإكرامات الإلهية مجبوراً في كلِّ حلبة صارعه فيها خصومه وراموا كسره فيها، فقال مُضمّناً لأبياته
الطِّباق (فلّ/تجمَّعوا، بسط/انقبضوا):

وكم فلّ عزمًا من رجالٍ تجمَّعوا علينا ببسطِ الكفِّ فانقبضوا دهرًا
وكلُّ يدٍ بيضا لنا بالرِّضا انجلت بسرِّ دُعاه قد مُنحنا بها جبرًا
ولم نره يومًا أقامَ لشأنه مقامًا ولا كَتى بذاك ولا ورى⁷⁰⁶

⁷⁰⁵ د.ف.م، 150.

⁷⁰⁶ د.ف.م، 151.

فكم بدعواتٍ ممدوحِه -التي كُنِّي عنها (ببسط الكفِّ)- تفرَّقت جموعُ الأعداء، فتقهقرت فلوهُم لاويةً عن أذية أبي الهُدَى ورهطِه منقبضةً بانبساطِ هاتيك اليدِ الممدوحةِ المرفوعةِ دعواتُها إلى علياءِ خالقِها، وذيلَ الشَّاعرِ كُلِّ هذا المديحِ بإشارةٍ إلى تواضعِ هذا الوالدِ حيثُ لم يشهدَ لنفسيهِ عظيمَ ولايةٍ أو مقامٍ عند ربيِّه، بل ولم تَفه شفتاهُ يومًا بكنايةٍ أو توريةٍ عن منزلةٍ أو إكرامٍ حصَّه به خالقُه، فهو يزدادُ تواضعًا وانكسارًا لعلِياءِ خالقِه القريبِ المحيِّب.

ويظهرُ أنَّ مَنْ يُريدُ أن يلمَحَ من مدائحِ أبي الهُدَى الخاصَّةِ ما يخرجُ عن خِباءِ خيمَةِ ممدوحيه من المتصوِّفةِ فلن يجدَ إلا النَّزَرَ القليلَ جدًّا ولربَّما كانت المناسباتُ قد أوجَّبت عليه ذلك، ففي مجلسٍ ضمَّه مع الأميرِ عون الرِّفيقِ باشا (ت. 1323هـ/1905م) -أحد الأشرافِ من أعضاء مجلسِ شورى الدَّولة-،⁷⁰⁷ ارتحلَ أبو الهُدَى بيتين في مدحِه، ضمَّنهما حُلَى الجناسِ (فريق/رفيق/الفريق، عين/عون)، وحسن التَّعليلَ لَمَّا علَّلَ تسميتهُ برفيقِ المجدِ لصاحبِه الشَّريفِ عون، حيث قال:

فريقُ بني الرِّسولِ فريقُ خيرٍ وأنتَ بعصرنا عينُ الفريقِ
لِذاكَ رفيقُ مجدِكَ صِرتُ أدعى وإسمُكَ في الوَرَى عونُ الرِّفيقِ⁷⁰⁸

وفي مناسبةٍ أُخرى راح يمدحُ وَلَدَهُ حَسَنَ خالدٍ إذ حَالَتِ المفاوِزُ والقِفَارُ بينهما لَمَّا بَعَثَهُ السُّلطانُ عبد الحميدُ بمهمَّةٍ خاصَّةٍ إلى اليمن،⁷⁰⁹ فانبرى أبو الهُدَى ناظمًا في مديحِه أبياتٍ منها قوله

⁷⁰⁷ يُنظر: إسماعيل حقي جارشلي، أمراء مَكَّة المكرمة وأشرفها في العهد العثماني، مترجم: خليل علي مراد، (بيروت: الدَّار العربيَّة للموسوعات، 1424هـ/2003م)، 226.

⁷⁰⁸ د.ف.م، 154.

⁷⁰⁹ يُنظر: ثمرات الفنون، "مراسلات الحُدَيْدَة" (21/تموز/1902م)، 6؛ مرآة الشُّرق، "لمحةٌ موجزةٌ عن تاريخ المغفور له حسن خالد" (4/كانون الثاني/1937م)، 6.

وقد مدَّحه بالجوْد والكُرم والفصاحة، وطيب السُّمعة حتى استعار -استعاراً مكنيةً- للدَّهر مَسامِعاً
يُنصِتُ بها إلى شمائلٍ ممدوحه وخصاله الزَّاكية:

وَرَأَتْهُ كَرَمٌ جَمٌّ وَمَنْطِقُهُ يَكَادُ يَعشَقُ مِنْهُ اللَّفْظُ سَامِعُهُ

يُثْنِي عَلَيْهِ رَعَاهُ اللَّهُ مِنْ أُمِّمٍ وَالْدَّهْرُ يُصْغِي لِمَا يُثْنِي مَسَامِعُهُ⁷¹⁰

ومما يمكن إلحاقه بهذا المحور ما نظمهُ أبو الهُدَى في مديح نبيِّ الله زكريَّا عليه السلام، قائلاً:

وَأَبُو يَحْيَى شِفَا الْقَلْبِ الْعَلِيلِ وَنَبِيٌّ بَابُهُ بَابُ السُّرُورِ

أَمَلِي فِي رُحْبِهِ اللَّطْفُ الْجَمِيلُ حَاصِلٌ وَالضُّدُّ تَشْوِيهِ السُّرُورِ⁷¹¹

وقد يكون الباعثُ للشاعرِ على هذه المدحة زيارتهُ للمقام الموجود في مدينته حلب، الذي نسبهُ بعضُ المؤرِّخين إلى هذا النَّبيِّ -حسبما يرى كامل الغزِّي (ت. 1351هـ/1933م)-،⁷¹² مما يجعلُ القارئَ للأبيات يُرجِّحُ أن تلك الزيارة هي التي دفعت الشاعرَ لينظِّم تلك القصيدة التي منها هذان البيتان اللذان يشرحان ما أمَّله في رحاب ذلك النَّبيِّ من دعواتٍ توجَّه بها إلى مولاه بأن تغمرهُ الألفاف ويندحر خصمهُ مكتوياً بنيران السُّرور.

ومن جميع ما سبق المرور عليه في غرض المديح ومحاوره التي دارَ عليها يمكن أن يُخلصَ إلى ما

يلي:

■ على الرَّغم من تعدُّد الشَّخصيَّات التي مدحها أبو الهُدَى وانقسامها إلى فئاتٍ عدَّةٍ، إلا

أنَّ قاسماً مُشترَكاً ربطَ فيما بينها جميعاً ألا وهو الرِّابط الدِّيني والصفَّات الدِّينية، فكلُّ

⁷¹⁰ د.ر.ت، 154.

⁷¹¹ د.ف.م، 97.

⁷¹² يُنظر: الغزِّي، تاريخ حلب، 2/188.

ممدوحيه كانوا من ذوي الصِّبْغَةِ الدِّينِيَّةِ الذين ارتبطت أسماءهم بالدِّين وشعاراته، ولهذا يُمكن القول: إنَّه انطلقَ في مُعْظَمِ مدائِحِه من المنطَاقِ الدِّيني، ولم يَنحَظْ هذا المنطَاقُ إلا في مواضعٍ يسيرةٍ عندما مدح ولدَه حسن خالد وصديقه الشَّريف عون الرِّفيق باشا.

■ وإذا ما كان مُنطَلِقُه في مديحِه دينيًّا بحثًا - كما بدا في مدح آل البيت والصَّحابة - أو مُعَبَّرًا عن أفكارٍ دينيَّةٍ أو صوفيَّةٍ أرادَ إبرازها ولفتَ النَّظَرَ إليها - كما ظهرَ في مدح العثمانيِّين والفضلاء - فهذا يعني أنَّه لم يكن مدَّاخًا مُتَكَسِّبًا في مديحِه يَرجو به إفضال هذا أو عطايا ذاك.

■ ولمَّا كانت مدائِحُه تُعَبِّرُ عن كوامنٍ مشاعِرِه أوَّلًا وأفكارِه التي آمَنَ بها ثانيًّا، فقد حَلَّت من تكَلُّفِ المتكسِّبين وتملُّقِهم لمادحيهم، وبالوقوف على تلك المدائح تلوح استجابةُ أبي الهُدَى لصدِّقِ العاطفةِ تجاه ممدوحيه، التي خَلَعها على مُعْظَمِ قصائده، ولربَّما برَزَ في بعض المواضع أنَّه كان يقصدُ بِمدحِه التَّعريفَ بمكانةِ ممدوحيه والدِّفاعِ عنهم ولفتِ الأنظارِ إلى حقوقِهم، أو الإشاعةَ لَمَنَهِجهم.

■ وقد برَزَ هذا الغرضُ ضمن قصائد ومقاطعٍ وُتِفَ، وجاءت أكثرُ المدائح وقد غَلَبَ عليها النَّفْسُ القَصرِ الذي لم يتجاوز أربعين بيتًا، ويُستثنى من ذلك مدحُته في أعيان حلب ووالده حسن وادي - حيث تجاوزت أبياتها المئة -.

■ وبرزت قصائدُ العَرَضِ مبنيةً وفق بُنيانٍ تنوَّعت فيه المطالِعُ بين غزلٍ ونسيبٍ ووصفٍ للطَّبيعةِ وجمالها أو أُعْرِضَ عن كلِّ هذا بالدُّخولِ المباشرِ إلى المديح، وأمَّا الخواتيم فقد كانت تُخْتَمُ بالأدعية والصَّلَاة والسَّلام على النَّبيِّ الأكرم عليه السَّلام.

■ ويُلاحظُ أنَّ أبا الهُدَى في صُلُبِ مدائِحِه تنقَّلَ عبرَ وثباتٍ نفسيَّةٍ بين الأبيات، وصبَّ اهتمامه على الصِّفات الدِّينيَّة لممدوحيه، وقد يُؤخَذُ عليه أنَّ تركيزه هذا ربما أدَّاه - في

بعض المواضع - إلى إهمال الصفات الأخرى، في حين أنَّ بعض النقاد رأى المديح لا يكمل إلا إذا استجمع المادح لممدوحه أربع صفاتٍ وما تفرَّع عنها، وهي صفات: العدل والعقل والشجاعة والعفة،⁷¹³ وعلى هذا يمكن القول: إنَّ بعض مديحه جاء مُقَصِّرًا عن استكمال جميع خصال المدح، وذلك لما ركَّز على صفاتٍ دون أخرى؛ وقد لا يُجانب الصواب إذا ما قيل إنَّ الشاعِر في محور مديحه للعثمانيّين استكمل جميع صفات المديح المطلوبة، فبرزت مدائحه فيهم مُتناسبةً مع مقامهم الملوكيّ السلطانيّ.

■ ويُلاحظ أنَّ أبا الهُدَى في هذا الغرض قد تكرَّرت معانيه المدحيّة في غالب قصائده، وقد يلمح القارئ في بعضها أنَّه إزاء نُسخٍ مُتكرِّرة من معاني المديح، فمجدُّ ممدوحيه طالما كرَّر وصفَ علوّه بأنَّه يناطخ السَّماء والنُّجوم، وشجاعتهم طالما شبَّهها بالأسود، وكرمهم بالغيوث الهوامع.

■ وقد جاءت ألفاظه متناسقةً مع معانيه ومتناغمةً مع سياقها التي سيقت فيه، فشجاعة ممدوحيه في الحروب استدعت منه ما يُناسبها من ألفاظٍ قويّةٍ مُجلجلةٍ جزلّةٍ، ولطافتهم استدعت ألفاظاً أنيقةً تُضفي على المدحة جمالاً آخر، يزيد ما زخرت به من جمال الحُلل البديعيّة والاستعارات والتشبيهات حُسناً وألقاً، بعد أن صُبَّت في قوالب من التراكيب المتينة.

⁷¹³ يُنظر: قُدّامة، نقد النّبيّ، 20.

المبحث الرابع: غرض الغزل

يُعَدُّ هذا الغرض الأكثر التصاقًا بالنفوس والقلوب من بين الأغراض الشعريّة عمومًا، إذ عادةً ما تكون القصائد الغزليّة ذات نغمٍ موسيقيٍّ يعذبُ في الأسماع بما عُزِفَ على أوتارِ الحسِّ المرهفِ والعاطفة الصّادقة والمشاعر الفيّاضة، التي تَلَجَلَجَت بين جوانح الشعراء.

والغزل في أصل اللّغة مادّةٌ اشتملت على ثلاثة معانٍ، أوّلها: من (غَزَلَ الصُّوفَ) وهو مدُّهُ وفتلُهُ خيطانًا، وثانيها: من (أَغَزَلَتِ الظَّبيّةُ) إذا صارَ لها غزالٌ - فوَلَدُ الظَّبيّةِ هو الغزالُ-؛ وأمّا الذي بصَدَدِهِ هذا المبحث فهو المعنى الثالث الآتي من (غَزَلَ بالمرأة)، والاسمُ منه "الغزل" ويعني اللّهُوَ مع النِّسَاءِ، أو بتعبيرٍ آخر "تحديثُ الفتيانِ الجوّاري" ⁷¹⁴ وقد يُقال: غازَلَ مُغازَلَةً، ويُعنى بالمُغازلةِ مُفاكَهةَ النِّسَاءِ ومُراوَدَهُنَّ ومُحَادَثَتَهُنَّ والتَّودُّدُ إِلَيْهِنَّ، ⁷¹⁵ وَمَنْ تَلَبَّسَ بهذا الفعلِ قيلَ لَهُ: "غَزَلَ"، وتكلّفُ الغَزَلَ يُقالُ لَهُ: "تَغَزَّلَ" ⁷¹⁶ وقد عُدَّ الشّاعرُ امرؤُ القيسِ (ت. 80ق.هـ/ 544م) أغزَلَ مَنْ نظَمَ فيه حتى ضُرِبَ به المثلُ الأعلى فقيلَ في الذي يُحسِنُ الغزل: هو "أغزَلَ من امرئِ القيسِ". ⁷¹⁷

وإذا ما وَقَفَ على معناه في الاصطلاح فلن يبتعد عن المعنى اللّغويّ كثيرًا، إلا أنّه سيُوقَفُ إزاءَ ثلاثة مُصطلحاتٍ آخِذٌ بعضها برقابِ بعضٍ، وهي: الغَزْلُ والنَّسيبُ والتَّشبيبُ، وما سببُ هذا الاقترانِ إلا الجامعُ المشترك بينهما، الذي هو حُبُّ المرأةِ ووصفها حسًّا ومعنى، وهو سببٌ أدّى إلى تقارب المدلولات بين هذه المفردات، ولذلك قد يبدو في كلام بعض النُقّادِ واللّغويّين - كابن سَلّام

⁷¹⁴ ابن سيده، المُخصَّص، 375/1.

⁷¹⁵ يُنظر: ابن منظور، "غزل"، 492/11؛ ابن دريد، "زغل"، 819/2.

⁷¹⁶ الزبيدي، "غزل"، 91/30.

⁷¹⁷ أبو الفضل أحمد بن محمد الميداوي، تَجَمُّعُ الْأَمْثَالِ، تحقيق: محيي الدّين عبد الحميد، (مصر: مطبعة السُّنَّةِ المحمّديّة، 1374هـ/1955م)، 65/2.

الْجُمَحِيَّ (ت. 232هـ/846م)⁷¹⁸ وابن قتيبة الدِّينَوْرِيَّ⁷¹⁹ وابن سيده (ت. 458هـ/1066م)⁷²⁰ - ما يُشِيرُ إلى تراوُّفِ هذه المصطلحات ويدفعُ ببعضِ مؤرِّخي الأدب إلى القول: إنَّ هذه الاصطلاحات كثيراً ما تَقَعُ الواحدةُ منها محلَّ أُخْتِهَا؛⁷²¹ وعلى الرَّغْمِ من هذا فقد يُلَمَّحُ عند نُقَادِ آخَرِينَ التَّفْرِيقُ بينها -مع اعترافهم بصعوبة التَّمْيِيزِ بينها-، حيثُ جُعِلَ اصطلاحُ الْغَزْلِ لِمَا نَظَّمَهُ الشَّاعِرُ "لوصفِ المرأةِ مدفوعاً إلى ذلك بعقيدةٍ أو مَسَوِّقاً فيه بِصِنَاعَةٍ" فما الغزلُ إلا "التَّصَابِي" ⁷²² والاستهتار ⁷²³ بمودَّاتِ النِّسَاءِ"، وأَمَّا النَّسِيبُ فقد اختُصَّ بذكر أحوالِ العلاقةِ الغرامِيَّةِ بين المحبِّ ومحبوبِهِ التي غالباً ما تحكي الألمِ النَّاتِجَ عن الصَّبَابَةِ والحُبِّ والفراقِ،⁷²⁴ وما وُجِدَ من الْغَزْلِ أو النَّسِيبِ في مطالعِ قصائدِ الشُّعراءِ سُمِّيَ تَشْبِيهاً. ⁷²⁵

ولمَّا كان هذا الغرضُ الشِّعْرِيُّ مُرْتَبِطاً بِالْمَرْأَةِ فلا بدَّعَ أن يحظى باهتمامٍ بالغٍ من الشُّعراءِ، إذ للمرأةِ حضورٌ تَمَيَّزَ بِاشْغَالٍ حَيَّزٍ كبيرٍ من تفكيرِ الإنسانِ وعواطفِهِ، حيثُ تَمَتَّعَتْ ذَاتُهَا بِكُونِهَا وَهَجًا من الأحاسيسِ وفيضاً من العواطفِ والمشاعرِ، فما إن يطرُقُ الأسماعُ حديثُ الحُبِّ والتَّعَلُّقِ بهذه الدَّاتِ إلا وتنخلعُ قلوبُ السَّامِعِينَ لهذا الحديثِ وتنجذبُ إليه ألبابُهُم وتتحوُّلُ كُلُّ ذَرَّةٍ من كيَانِهِم إلى مَسَامِعٍ كُلُّهَا إصْغَاءً لما جُبِلَتْ على حُبِّهِ، ويرى ابن قتيبة أنَّ هذا الإلفَ للمرأةِ شيءٌ قد رَكَّبَ اللهُ

⁷¹⁸ يُنْظَرُ: مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ الْجُمَحِيَّ، طبقات فحول الشُّعراءِ، تحقيق: محمود شاكر، (جَدَّة: دار المَدَنِي، د.ت)، 545/2.

⁷¹⁹ يُنْظَرُ: ابن قتيبة، التَّعْبِيرُ وَالشُّعراءِ، 554/2.

⁷²⁰ يُنْظَرُ: ابن سيده، الْمُخَصَّصُ، 375/1، 376.

⁷²¹ يُنْظَرُ: مُحَمَّدُ سَامِي الدَّهَّانِ، فنون الأدب العربيِّ، (القاهرة: دار المعارف، د.ت)، 12/1؛ القِيروَانِي، الْعَمَدَةُ، 117/2.

⁷²² التَّصَرُّفُ عَلَى شَاكِلَةِ الصَّبِيَّانِ وَالْمِيلِ لِلْعَبِّ وَاللَّهْوِ، وَتَصَابِي الرَّجُلِ لِلْمَرْأَةِ إِذَا مَا اسْتَمَالَهَا وَجَذَبَهَا لِيَسْتَهْوِيَهَا، يُنْظَرُ: أَحْمَدُ مَخْتَارٌ، "صبي"، 1267/2.

⁷²³ هُوَ أَنْ يُتَّبَعَ الْهَوَى وَلَا يُكْتَرِثُ بِعَوَاقِبِ الْفَعْلِ أَوْ الْقَوْلِ، يُنْظَرُ: أَحْمَدُ مَخْتَارٌ، "هتر"، 2221/3.

⁷²⁴ يُنْظَرُ: قَدَامَةُ، نقد الشعر، 42.

⁷²⁵ يُنْظَرُ: السَّبَاعِي يَوْمِي، تاريخ الأدب العربيِّ فِي الْعَصْرِ الْجَاهِلِيَّ (القاهرة: مطبعة العلوم، 1353هـ/1934م)، 113.

العِبَادَ عليه، فحبُّ الغزل "لا يكادُ أحدٌ يخلو من أن يكونَ متعلِّقًا منه بسببٍ وضاربًا فيه بسهمٍ"،⁷²⁶ ولجذبِ القلوب واستصغاءِ المسامعِ ولفتِ الأنظارِ دَرَجَت عَادَةُ الشُّعراء منذ العصر الجاهليِّ على الحرصِ على تصديرِ قصائِدِهِم بهذا الغرضِ المُحَبَّبِ ومن ثَمَّةَ كانوا يخوضون في خِصَمِّ أغراضِهِم الأخرى، فضلًا عن أنَّهم قد تَمَيَّجُهم عواصِفُ العواطفِ فيشرعون في بناءِ قصائدِ كَامِلَةٍ في الغزلِ يَثْبُونَ فيها فيضًا من تلكِ العواطفِ، فينثَنونَ في الغوصِ إلى أعماقِ علاقتِهِم بمحبوباتِهِم، على اختلافٍ في مجرى حديثِهِم وتباينٍ بينَ كلامٍ عفيفٍ راقٍ وآخر ينحطُّ مُتَرَدِّيًا إلى مهاوي الماديَّة والشَّهوانيَّة.

ولم يكن أبو الهُدَى نائيًا بشعرِهِ عن سَنَنِ مَنْ سَبَقَهُ من الشُّعراء، فقد أودَعَ شِعْرُهُ من الحديثِ عن المرأةِ بِغَزَلٍ تَنَاطَرَ بَعْضُهُ في مطالعِ القصائدِ، وجاءَ بَعْضُهُ الآخر في قصائدِ استقلَّت ببناءٍ جُعِلَ من أَلْفِهِ إلى يَأْتِيهِ مَبْنِيًّا على غَرَضِ الغزلِ، فضلًا عن التَّنَفُّ الشَّعْرِيَّةِ المندرجةِ تحت هذا الغرضِ أيضًا؛ وأيًا كان شكلُ هذا الغرضِ أو موضِعُهُ فإنَّ ما يسترعي الانتباهَ فيه هو إمكانُ تقسيمِهِ إلى ثلاثةِ أقسامٍ هي: (التَّشْيِيبُ والغَزَلُ والنَّسِيبُ)، وذلك باعتمادِ الرَّأي القائلِ بالتَّفريقِ بين هذه المصطلَّحات، وقد يكون من الحَسَنِ تناولُ كلِّ قسمٍ منها على حِدة.

1 التَّشْيِيبُ

على الرَّغْمِ من أنَّ هذا المصطلحَ قد يُرادُفُ — ولو عند بعضِ النُّقاد — مُصطلحُ الغَزَلِ كما قد تَبَيَّنَ آنفًا، إذ ما هو إلا قول الغزل والنَّسِيبِ في المرأةِ وترقيقِ الشَّعْرِ بذكرها،⁷²⁷ لكنَّ الذين ميَّزوا هذا المصطلحَ عما سواه يبدو أنَّهم قد بَنَوْا كلامَهُم على الأصلِ اللُّغويِّ لهذه الكلمة؛ فهو آتٍ من الشَّبَابِ فكأنَّ التَّشْيِيبَ هو عملُ الشَّبَابِ وحالُهُم؛ أو أنَّ التَّشْيِيبَ آتٍ من التَّشْيِيطِ والتَّهْيِيجِ المأخوذِ

⁷²⁶ ابن قتيبة، الشَّعْر والشُّعراء، 76/1.

⁷²⁷ يُنظر: ابن منظور، "شباب"، 481/1، 482.

من شبابِ الفرس أي نشاطها ورفعها ليديها؛ أو أنه آتٍ من إيقاد النار؛⁷²⁸ وكلُّ هذه الأصول تلتقي مع قولٍ من قال بتقييد التشبيب بمطالع القصائد، فكأنَّ الشاعر يُريد أن يُذكي خواطر سامعيه ويهيج عواطفهم ويُشيط أذهانهم بتشبيهه في مطلع القصيدة، ومن ثمَّ ينتقل بهم بعد هذا التشيط والتَّهيج إلى حيثما يريد من ميادين الأفكار والأغراض.

وقد حظيت قصائد أبي الهدى بهذا النوع من الغزل، فكان يعمد إليه إذا ما أراد أن يطرق غرضاً من أغراضه، وقد تبين فيما سبق من الأغراض شيئاً من المطالع التي افتتحها به - كما في غرض المديح النبويِّ ومدح العثمانيين-،⁷²⁹ وقبل أن يُلتمس هذا التشبيب في القصائد الأخرى، تجدر الإشارة إلى أنَّ هذا التشبيب قد تردَّد بين نوعين، فاستهلالٌ بالغزل في موضعٍ واستهلالٌ بالنسيب في موضعٍ آخر؛ فمن الأوَّل قوله في مُفتتح قصيدة مدحية:

هَزَّ مِنْهَا النَّسِيمُ حَصْرًا رَفِيعًا غَزَّرَ حِينَ التَّوَى فَوَادًا وَجِيعًا
وَبَكَشَفَ النَّقَابَ عَنْهَا تَرَاءَى بَدُرُ وَجْهِ دَعَا الْهَيْلَالَ وَضِيعًا
يَسْتَعِيرُ الْخَطَّارُ⁷³⁰ مِنْهَا اهْتَزَّازًا وَالصَّبَاخُ الصَّافِي الشُّعَاعَ طُلُوعًا
وَإِذَا أَرْسَلْتَ مِنَ الطَّرَفِ سَهْمًا صَارَ شَهْمُ الْبَيْدَا طَرِيحًا صَرِيعًا⁷³¹

فالشاعر يسلك في هذا التشبيب مسلك الغزل الماديِّ الحسيِّ، الذي يمضي في تصوير جمال جسد المرأة، وبيان صفاتها الحسيَّة، فيرسم صورةً بصريةً لمحبوَّبته محاولاً أن تنجلي لدى الناظر في هذا المطلع،

⁷²⁸ يُنظر: القيرواني، العمدة، 127/2.

⁷²⁹ يُنظر: ص 108، 183.

⁷³⁰ خطران الرُّمَح هو ارتفاعه وانخفاضه للطعن، والخطار صفة للرُّمَح ذو الاهتزاز، يُنظر: الجوهري، "خطر"، 648/2.

⁷³¹ د.ف.م، 136.

ومستعينًا بما أوتيهِ من ذوقٍ لِيَصِفَ جزئيات الجمال في هذه المرأة؛ حيثُ إِنَّ محبوبَةَ الشَّاعِرِ هَفْهَفَةٌ ذاتُ قِوَامٍ بَدِيعٍ وجسَدٍ صافٍ أبيضَ بِخَصَرٍ رَفِيعٍ مَيَّالٍ ووجهٍ منيرٍ أَبَدَرٍ ومُقَلَّةٍ فَتَّاكَةٍ، ولكي تنطبع صورةُ المحبوبةِ الجميلةِ وأوصافها الحسنى في ذهنِ السَّامِعِ لجأ أبو الهُدَى إلى تردادِ الاستعارات والتَّشبيهِات في هذا التَّشبيبِ، فوجهها شبيهُ البدرِ، والخصرُ لِدَقَّتِهِ مَادَتْ بِهِ نسائمُ الرِّيحِ، فانقَلَبَ - بالاستعارة المكنيَّة - قوسًا تُرْسِلُ بِالحاظِها سَهَامًا تنغُرُ في فؤادِ المُحِبِّ الوهَّانِ، وما إن أُمِيطَ اللَّثَامُ عن وجهِ المحبوبةِ البدرِيِّ حتى انمحقَ بَدْرُ السَّمَاءِ وتضاءَلَ هلالًا وضيئًا أمامَ رِفْعَةِ هذا الجمالِ الأنورِ لمحبوبةِ الشَّاعِرِ، في إشارةٍ منه إلى حُسْنِها الكاملِ المُكتمَلِ اكتمالِ البدرِ وإلى نقصِ جمالِ القَمَرِ الذي جعلَهُ هلالًا ناقصًا مُتضائلًا لَمَّا بَدَتْ بِكمالِ جمالِها الأَخَازِ؛ ولاستطرافِهِ لمحبوبَتِهِ التي يُشَبِّبُ بِهَا فقد استطرَدَ في مبالغةٍ جعلَ منها الأصلَ في التَّشبيهِ إذ جعلَ القارِئُ يُحِسُّ أَنَّ محبوبَتَهُ في عينِهِ أضوُّهُ من طالِعةِ الصُّبْحِ وأهيفُ من الرُّمَحِ، فأتى بالاستعارة المكنيَّةَ جاعلاً من الرُّمَحِ إنسانًا يأخذُ من محبوبَةِ الشَّاعِرِ الهيفَ والرَّشاقةَ، وأمَّا الصُّبْحُ فقد استمدَّ منها نورَهُ وإشراقَهُ ولمعانه، ويكفي عيونَها جمالًا أَنَّهُا تُرْسِلُ بِالحاظِها سَهَامًا تصرِّعُ الصِّندِيدَ من الكُماةِ فترميه طَريحًا على رمالِ قِفارِ المحبَّةِ والعِشْقِ؛ ثم لا يلبثُ أبو الهُدَى بعد هذا التَّشبيبِ حتى يأخذُ بمسامعِ النَّاظِرِينَ إلى غرضِهِ الأساسِ وهو المدحُ لسراجِ الدِّينِ المخزوميِّ (ت. 885هـ/1480م)⁷³² بعد أن أحسنَ التَّخْلُصَ فأشارَ إلى أَنَّ هذه المحبوبةَ قد تَمَنَّعتْ مُتَعَزِّزَةً وتَحَجَّبتْ عمن أرادَ وَصَلَها، كما قد عَزَّ النَّازِلُ في رحابِ ممدوحِهِ:

عَزَّ معنَى وصالها مثلما عَزَّ زَ نزيلُ السِّراجِ عن أن يَضِيعَا⁷³³

⁷³² كان شيخ الإسلام في عصره وله مؤلفات عديدة، يُنظر: الزركلي، الأعلام، 6/238.

⁷³³ د.ف.م، 136.

وإذا ما كان تشبيبُ الشاعرِ في مطلعِ الغزل، فإنَّه لا يرى بأساً في الالتفاتِ إلى صبايئه والتَّشبيبِ بنسبٍ يحكي ألمَ الفراق الذي أجَّجَ نارَ الجوى، حيثُ راحتِ ألسِنَةُ اللَّهَبِ مُتصاعِدةً تتلَوَّى في أحشاءِ المُحبِّ، فيلتوي إذ ذاك مُترجِّماً لها بآهاتِ العويلِ والتَّدبُّ؛ ومن ذلك قوله وقد أتى بالتَّصريحِ، ومراعاة النَّظير (ندبها وعويلها)، والجناس (الوفا/الوفا، الرِّيم/رامة) والطِّباق (كثيرها/قليلها، نقض/وفا):

ألا مَنْ لِنَفْسٍ بَانَ عَنْهَا حَلِيلُهَا وطالَ لهذا نَدْبُها وعويلُها
تَحْنُ لَأَرَامٍ بَسْلَعٍ كَثِيرُهَا أقامَ على نقضِ الوفا وقليلُها
أُجِجَ ثَبَاثُ الرِّيمِ فِي رَامَةِ الوفا وتلكَ على الآسادِ صعبٌ حُلُولُها⁷³⁴

فأول ما يسترعي الانتباه في هذا التَّشبيب، ما عمَدَ إليه أبو الهُدَى من استشارةٍ لشفقةِ المُتلقِّي واستعطافٍ يَسْتَرْجِمُهُ فيه، بعد أن لَفَتَ انتباهه واسترعاؤه بحرف التَّنبيه "ألا"، ونكَّرَ لفظةَ النَّفسِ مُشعِراً بعِظَمِ مُصائبِها بنأي حبيبها عنها، حتى باتت تجرُّ الآهات التي حَكَتْها قافيةُ الأبيات ذاتِ الحرف المَدِّيِّ المُطلَقِ المَدَى، الذي يعكسُ ما أورثه بُعدُ الحبيبِ في نفسِيَّةِ الشَّاعر حتى علت منه أصواتُ التَّدبُّ والعويل؛ ويلفتُ الأنظارَ أنَّ الشَّاعِرَ تميَّزَ بالتَّقيُّدِ بما حرَّصَ عليه أربابُ الشَّعرِ التَّقليديِّ من ذكرِ مواطنٍ محبوباتهم مُقيَّدةً بالأماكنِ والمعالمِ العربيَّةِ وخاصَّةً المشهورة في جزيرة العرب، فنفسه ما اشتاقت إلا إلى مَنْ أَحَبَّ مِنْ كَتَّى عَنْهُمْ بِظَبَاءِ "سَلَعٍ" و"رامة"؛⁷³⁵ ثم ما لبثَ حتى شرَّعَ في وصفِ ما أرهقه به المحبوب من تَدَلُّلٍ وَتَمَنُّعٍ أضناه وذهبَ به كلَّ مذهبٍ من العنا والحزن، ومن ثَمَّةٍ يَخْلُصُ إلى ما يُريدُه من الغرضِ الرَّئيسِ للقصيدَةِ.

⁷³⁴ د.ت.ب، 125.

⁷³⁵ سلع موضعٌ بقرب المدينة، ورامة موضعٌ في الطريقِ من البصرة إلى مكَّة، يُنظَرُ: ياقوت، البلدان، 236/3، 18/3.

تلك كانت أمثلةً لتشبيب أبي الهُدَى الذي عمَدَ إليه في مطالعِ القصائدِ، ويُمكنُ أن يُلاحظَ من خلالها اقتصاره على قطعِ استهلاكيةٍ ليست بالطويلةِ، إلى جانب كونها ليست بالجديدة المبتكرة، وما الغاية منها إلا السَّيرُ على المنوالِ التقليديِّ الذي دُرِّجَ عليه في بناء القصيدة العربية؛ وقد يظهرُ بعضُ التفصيلِ وغازاةِ العناصرِ المتناوِلةِ في القصائدِ المُستَقَلَّةِ التي خَصَّصَها للنَّسبِ والغزلِ، ولذلك قد يكونُ من الأهميةِ بمكانٍ إفراذُ كُلِّ منهما على حدةٍ في مبحثٍ مُستَقِلٍّ، لتتلمَّسَ أيادي البحث تلك العناصرَ والأفكارَ التي احتواها كلُّ من الغزلِ والنَّسبِ.

2 الغزل

إذا ما مُيِّزَ الغزلُ بأنَّه النَّصَّابيُّ والاستهتارُ في ذكرِ النِّساءِ، فلربما استوجبَ هذا التَّمييزُ الخوضَ في غمارِ هذا الغزلِ، لِثُلُثَمَسَ عناصره التي قامَ على أساسها بُنيانه في شعرِ أبي الهُدَى، الذي ضمَّ غرضَ الغزلِ واحتواه بقصائدٍ مُستَقَلَّةٍ ونُتفٍ قصيرةٍ، وأياً كانت هذه الأشكالُ فإنَّ أبا الهُدَى كان يدورُ في فلكِ جمالِ محبوبته، ويُسيطرُ بكلماته ما جَذَبَ نَظْرَهُ وأخذَ بِلَبِّهِ من هذا الحُسنِ الذي حَظِيَّتْ به.

وأوَّلُ ما يسترعي الاهتمامَ أنَّ محبوبَةَ الشَّاعرِ لم يكنْ جمالُها بالجمالِ المُعتادِ بل إنَّها كانت عادةً الحُسنِ البديعِ التي غَدَت أصلاً للجمالِ ومعيّاراً لكلِّ معاييرهِ وميزاناً يقاسُ به أهلُهُ الذين حظوا به، فلا بدَّ أن تتجلَّى صورةُ هذا الجمالِ على لسانِ أبي الهُدَى الشَّعريِّ بصياغةٍ غَزَلِيَّةٍ، تُترجمُ انبهاره بمُتَعَزِّلِهِ الذي سَلَبَ لُبَّهُ بجمالِهِ الأَخَّاذِ؛ وإذا تأمَّلَ النَّاظِرُ لأبياتِهِ التي أتى فيها على جمالِ المحبوبةِ فسيلمَّحُ أنَّ أبا الهُدَى يستجمعُ كُلَّ صفاتِ المَلاحَةِ لِيُضفيها على محبوبتهِ المُتَحَيِّلَةِ، حيث يرى النَّاظِرُ صورةَ امرأةٍ كاملةٍ الحُسنِ لم تجتمع فيها كلُّ صِفَةٍ جَمالِيَّةٍ مُحِبِّبَةٍ إلى فطرةِ الشَّاعرِ فحسب بل إلى كلِّ ما فُطِرَتْ عليه الأذواقُ السَّليمةُ جميعها، فَمَن ذا الذي لا تَسْحَرُهُ سِهامُ الأَلفاظِ وسيوفُ

الحواجبِ ووضاءةُ المُحيّا وهَيْفُ القَوامِ؛ ومما يشهدُ لما ذُكِرَ قولُهُ راسِمًا بأداةِ الشَّرطِ لَدَى مُحَيِّلَةِ القَارِي
لوحةً ناطقةً بحسْنِ محبوبَتِهِ التي أَقبلتْ ترفُلُ بثوبِها إليه، بعد أن كسى كلماتِهِ بِخُلَلِ الجِناسِ
(أقبلتْ/قَابَلتْ، كَسَرَة/كِسَرى/يُكَسِر، النّور/المنير) والطِّباقِ (الفجر/الغروب، السُّود/الْمُنِير،
الغروب/الفجر)، وقد سَحَّرَ كُلَّ ذلِكَ في تَغَزُّلٍ بِجمالِ محبوبَتِهِ الحِسِّيِّ بِكُنَايَاتٍ تُشيرُ إلى دقائقِ
جُزْئِيَّاتِهِ:

كَلَمَّا أَقْبَلَتْ وَقَابَلَتْ الشَّمْسُ سَ يَقُولُ الغُرُوبُ اللهُ أَكْبَرُ
وَإِذَا أَسْدَلَتْ ذَوَائِبَهَا⁷³⁶ السُّو دَ حَسِبْتَ الفَجَرَ المُنِيرَ تَسْتَرُ
وَإِذَا مَا التَّوْتُ بِكَسَرَةٍ عَيْنٍ قُلْتَ كِسَرَى لَوْ كَانَ فِي الجَيْشِ يُكَسِرُ
وَإِذَا مَا تَبَسَّمتْ خِلَتْ فَجَّ الذُّ نُورٍ يَبْدُو مِنْ فَوْقِ جُمْلَةٍ جَوْهَرٍ⁷³⁷

فها هي المحبوبةُ الهيفاءُ قد طَلَعَتْ بطالِعَتِها فأخجَلَتْ طَلْعَةَ الشَّمْسِ حتى صَاحَ الغروبُ بها أن حيها،
فما وَجَدَتْ الشمسُ بُدًّا من اللَّيَازِ بهِ، إذ أتى لها أن تُجَاهِةَ جَمالًا إنسيًّا قد غَطَّى نورُها حتى بُلِيَ
بالخمود، وهو بذلك يُكَيِّ عن وضاءةِ مُحَيّا محبوبَتِهِ ووجهها المنيرِ المُزري بنورِ الشَّمْسِ، ثم استطرَدَ
في وصفِ شعرِها الفَاحِمِ الذي انسَدَّتْ ناصِيئَتُهُ على وجهها المنيرِ، فمَثَّلَ لذلك بالفجرِ الذي تَعَطَّى
بخيوطِ الظَّلامِ بعد أن استعارَ له -استعارةً مكنيَّةً- وصفَ التَّسْتُرِ، والتفتَ بعد ذلك إلى طَرَفِ المحبوبةِ
الذي يفتكُ بِجموعِ الصَّنَادِيدِ مِنَ الرِّجالِ، وراح يُبَالِغُ في وصفِ فتكِه وسحرِهِ بالألْبَابِ، فهو لَحَظٌ لو
شامَهُ كِسَرَى لانكسَرَ خاضِعًا لجمالِهِ الخَلَّابِ، ثم انثنى مُتَعَزِّلًا بِذاك التَّغْرِ البَسَامِ المفتَرِّ عن أسنانِ
كَدَّرِ الجواهرِ، فيُخَالُ إلى مَنْ يرمقُها أَنَّ شُعاعَ النُّورِ تَبَدَّى مِنْ فَوْقِ هذِهِ الدُّرَرِ؛ ولم يطلُ بالشَّاعِرِ

⁷³⁶ جمعٌ واحِدُهُ دُؤَابَةٌ وهي ناصِيَةُ الشَّعْرِ ومنبَتُها مِنَ الرُّأْسِ، وقد يُراوُ بِها ضَفِيرَةُ الشَّعْرِ المُرسَلَةُ أو المُرخاة على الوجه، يُنظَر: الزَّيْدِي، "ذأب"،

416/2.

⁷³⁷ د.ف.م، 171.

المقام في رحاب الغزل بتلك الصِّفات، فقد ضاقت بمحبوبته صفات هذا العالم الدنيوي فارتفع بأوصافها إلى عوالم الملكوت ليقول:

أو شريدًا من حورِ رِضوانٍ بالشَّمسِ تَرَدَّى وجاءنا يَبْخَرُ⁷³⁸

فقد ضاقت بمحبوبته كلُّ الأوصافِ الجميلة التي عهدتها البشرُ في هذا العالم الإنساني، فعلا بها إلى العالم الملكوتي فخلعَ عليها خلعة نعيم الجنان، فلا يحسبُ مَنْ يلقاها إلا أنَّ حوريَّته من جنَّة الرِّضوان نزلت من عالمها الأرفع إلى هذه الدنيا، فأقبلت على الناظرين بصورة إنسيَّة بهيَّة تزدت رداء نور الشمس، وهو يُشعرُ بهذه الأوصافِ مدى الجمال الذي حظيت به هذه المحبوبة؛ فهو جمالٌ خارقٌ عبَّرَ عن سحره الجذاب لَمَّا مضى غزلاً فيه بموضعٍ آخر فرقى في المبالغة مرقى جعل منه جمالاً يُحيي رميمَ الموتى ودارسَهُم، فقال:

نَفَسْتُ في جبينها والمُحيَا سطرَ حُسنٍ يُصِيرُ المَيِّتَ حيًّا
مُدَّ رَأْيَا السُّها سَهَا وتوارى حَجَلًا وانتَحَى مكانًا قَصِيًّا⁷³⁹

فهو إلى جانبِ الجناسِ النَّاقصِ (المُحيَا/حيَّا، السُّها/سَهَا) يأتي بحسن التعليل جاعلاً من جمالِ محبوبته سبباً في خفاءِ نجم السُّها وتواريه عن الأنظارِ حَجَلًا من حُسْنِها البديع، وهو حسنُ النَّفْتِ إلى الحديث عنه بغزلٍ ماديٍّ حسيٍّ، ليَصِفَ صَبَاحَةَ حَدِّها المنيرِ مُشَبِّهاً له بالهِلال، ومُؤَكِّداً لهذه الوضاعة بما يُشبهه الدَّم فاستدرك بأنَّ وجهها رَغَمَ صَبَاحَتِهِ وتنوَّره إلا أنَّه يكوي القلوب بناره الحمراءً مُكَنِّياً بذلك عن حُمرةِ الحَدِّ وتضُرُّجِه الوردِيِّ الجميل، حتى حكى نارَ المجوس، وشابهَ عَبْدَها عاشِقُه

⁷³⁸ د.ف.م، 171.

⁷³⁹ د.ف.م، 181؛ والسُّها كوكبٌ من كواكبِ السَّمَاءِ يترأى نجماً خَفِيًّا بعيداً لأهلِ الأرض فيمتحنون به قوَّةَ أبصارهم، يُنظر: الجوهري، "سَهَا"، 2386/6.

لَمَّا عَبَدَ ذَاكَ الْحَدَّ مَسْلُوبَةً إِرَادَتُهُ لَا يَرَى الْحَقَّ وَالْهُدَى إِلَّا فِي عَشِيقِهِ لِهَذَا الْمَعشُوقِ الْجَمِيلِ، مِثْلَمَا
أَوَّلِكَ لَا يَرُونَ الْهُدَى إِلَّا بِعِبَادَتِهِمْ لَتِلْكَ النَّارِ، فَقَالَ:

حَدُّهَا وَالْهَلَالُ سَيَّانُ لَكِنْ حَدُّهَا لِلْفَوَادِ أَسْرَعُ كَيْثًا
عَبَدَتُهُ الْمَجُوسُ طَوْعًا وَكَرْهًا فَرَأَوْا فِي الْهَوَى صِرَاطًا سَوِيًّا⁷⁴⁰

والمعنى الذي أوردَهُ أَبُو الْهُدَى مِنْ مُبَالَعَةٍ فِي حُبِّ الْمَحْبُوبَةِ وَتَحَوُّلِ هَذَا الْإِغْرَاقِ فِي مُبَالَعَةِ الْحُبِّ إِلَى دِينٍ
يُدَانُ بِهِ وَيُرى الضَّلَالُ فِيهِ عَيْنَ الْهُدَى، يُمكنُ أَنْ يَقْتَرِبَ مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَنْبَرِ الطَّرَابِلَسِيِّ
(ت. 548هـ/1153م):

أَنَا مِنْ أَجْلِ حَدِّهِ دِنْتُ لِلنَّارِ وَفِي حَالِهِ عَبَدْتُ الشَّعْرَى
فَضْلَالِي بَعْدَ الْهُدَى فِي هَوَاهُ هُوَ عِنْدِي خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا⁷⁴¹

وَقَدْ أَحَاطَ غَزَلُ أَبِي الْهُدَى بِجَزَائِيَّاتِ مَحَبَّتِهِ الَّتِي غَزَلَ بِهَا، فَرَاحَ يَتَحَدَّثُ عَنْ عِذَارِ الْمَحْبُوبَةِ مُوَلِّيًا إِيَّاهُ
نَصِيبًا مِنْ غَزَلِهِ، حَيْثُ جَعَلَ مِنْ تَدَلِّيِ خَصَلَاتِهِ السَّودَاوَاتِ الْمَلْتَوِيَّةِ فَوْقَ صُدْغِهَا⁷⁴² عَقَارِبًا تَلْدَغُ
قُلُوبَ الْمُوَهَّيْنَ بِهِ - وَذَلِكَ مِنْ طَرِيقِ الْاسْتِعَارَةِ التَّصْرِيجِيَّةِ الْمُرَشَّحَةِ -، فَقَالَ:

وَلَهَا مِنْ عَقَارِبِ الصُّدْغِ لَدَغٌ كَمْ بِهِ عَاشِقٌ غَدَا مَرْمِيًّا⁷⁴³
وَإِذَا مَا كَانَ الْعِذَارُ عَقْرَبًا، فَإِنَّ غَدَائِرَ الشَّعْرِ الْفَاحِمِ الْمُسْتَرْسِلِ مِنْ بَدْرِ جَبِينِ الْمَحْبُوبَةِ عَلَى كَتِفَيْهَا لَهَا
شَأْنٌ آخَرُ مَعَ أَبِي الْهُدَى، إِذْ هِيَ حَيَّةٌ تَلْدَغُ بِالْبُعْدِ الْمُحِبِّ وَتُحْيِي بِالْقُرْبِ مَوَاتَ الْقُلُوبِ الْعَاشِقَةِ،

⁷⁴⁰ د.ف.م، 181.

⁷⁴¹ أحمد بن منبر الطَّرَابِلَسِيِّ، ديوان ابن منبر الطَّرَابِلَسِيِّ، إعداد: عمر عبد السلام تدمري، (بيروت: دار الجيل، 1986م)، 83.

⁷⁴² مفرَّدة الصُّدْغِ وهو ما بين اللَّحَاطِ وَأَصْلِ الْأُذُنِ، الرَّيْدِي، "صدغ"، 524/22.

⁷⁴³ د.ف.م، 182.

فقال، بعد أن ضَمَّن البيت إيجازًا بحذفه لكلمة المُقَرَّب، وحَلَّاهُ بحلية البديع من الجنس الناقص (حَيَّات/الحَيَّات، حياة/الحياة) وحِلْيَةٍ رَدَّ العجزِ على الصِّدرِ، مُضْفِيًا بذلك إيقاعًا يَرُنُّ في الأسماع مُتَناعِمًا مع لطيفِ المعنى الغزليِّ الذي يرنو إليه:

هُنَّ حَيَّاتٌ مُبَعَدٌ وَحِياةٌ ما سَمَعنا الحِياةَ في الحَيَّاتِ⁷⁴⁴

أَمَّا العيون فقد كان لها هي الأخرى نصيبٌ من رسمِ الشَّاعرِ لها وتَعَزُّلِها بها، فقد شَبَّهَها بأزهارِ النَّرجسِ النَّدىَّةِ تشبيهاً مُرسَّلاً مُجَمَّلاً -بحذفه وجه الشَّبه (وهو الجمال الأخاذ والرَّونق المتناسق بين البياض والاصفرار في النَّرجس والبياض والسَّواد في العيون)- لما ملكته من جمالٍ مُشعِّ رائقٍ، لِيُشيرَ بذلك إلى اتِّساعِها وجمالِها فقال وقد ضَمَّن بيتيه الجنس (الغَض/عَضَّت/بالعَضَا)⁷⁴⁵ الذي أضفى على التَّعبيرِ رونقًا خاصًّا يزيدُ في حُسْنِهِ لما زانَ البيت من جرسٍ موسيقيٍّ جَدَّابٍ مُتناسِقٍ، فغَضُّ الطَّرَفِ الغَضِّ الجميلِ أدَّى إلى إحراقِ قلبِ العاشِقِ أيَّما إحراقٍ، حتى لَكَأَنَّ غَضَّ العيونِ تحوَّلت إلى جمرِ العَضَا الذي لا تَحْمَدُ نَارُهُ في أحشاءِ هذا المُحِبِّ:

وعيونٌ كالنَّرجسِ العَضِّ عَضَّتْ فَكَوَتْ بِالْعَضَا فَوَادِي البالي

وانعقادِ الثَّونينِ من حاجِبيها وَلَمَى شَهِدِ ثَغْرِها السِّلْسَالِ⁷⁴⁶

ومن عيني المحبوبةِ ينتقلُ إلى حاجبيها اللذين استعارَ -استعارةً تصرُّحيةً- لتقوِّسِهما حرفَ الثَّونِ، وأَمَّا ريقُها فما هو إلا الرُّضابُ الخالصُ الصَّافي؛ والمُتَأَمِّلُ لأوصافِ الجمالِ في هذه المحبوبةِ المُتَعَزِّلِ بها

⁷⁴⁴ د.ف.م، 182.

⁷⁴⁵ الغَض: الطَّرِي، وَغَضَّتْ بمعنى خَفَضَتْ بَصَرَهَا، يُنْظَرُ: الجوهري، "غَضض"، 1095/3؛ وَالْعَضَا نَوْعٌ مِنْ شَجَرِ الْبَادِيَةِ خَشْبُهُ صَلْبٌ وَجَمْرُهُ مُتَوَقَّدٌ لَا يَنْطَفِئُ، يُنْظَرُ: أحمد مختار، "غَضِي"، 1626/2.

⁷⁴⁶ د.ف.م، 164؛ وَاللَّمَى سَوَادٌ وَسُمْرَةٌ اصْطَبَعَتْ بِهَا الشَّفْتَانِ وَاللِّثَاتِ وَهِيَ صِفَةٌ جَمَالِيَّةٌ تَزِيدُ الْمَرْأَةَ حُسْنًا، يُنْظَرُ: ابن منظور، "لَمَى"، 258/15؛ وَالسِّلْسَالُ هُوَ الْخَالِصُ الصَّافِي، يُنْظَرُ: ابن منظور، "سَلَل"، 340/11.

قد يجدُّ أنَّ هذه التشبيهات مكرورةٌ قد انسابت على ألسنة الشعراء قبل أبي الهندي، فعلاقة العيون وجمالها بجمال عيون أزهار الترجس، لطالما تحدّثت عنها الشعراء فهذا ابن الرُّومي (ت. 283هـ/896م) يقول:

وأحسنُ ما في الوجوه العيون وأشبهُ شيءٍ بها التَّرجسُ⁷⁴⁷

وأما الخصلات المتدلّية على الأصداع، فكثيراً ما تخيلتها عيونُ الشعراء عقارباً تتلوّى على صفحات الحدود فتلدغُ قلوب المُدنفين، ومن ذلك قولُ أبي بكر الصَّنوبري (ت. 328هـ/939م):

عقرب الصُّدغِ لماذا سألتهُ وهو وحده
تلدغُ النَّاسَ جميعاً ثم لا تلدغُ خدّه⁷⁴⁸

وإذا شوهدت الأصداعُ عقارباً فإنَّ ذُبابَ المحبوبةِ وغدائرَها بدت حَيَّاتٍ في عيونِ الشعراء، كقول صفيِّ الدِّين الحليّ وقد رأى شعر محبوبتهِ انسدل على ظهرها والتوى حول صُدغها:

فعلى الظَّهرِ حَيَّةٌ وعلى الصُّدغِ عَقْرَبُ⁷⁴⁹

وكثيراً ما قرأ الشعراءُ الحُسنَ المكتوبَ على صفحاتِ حدودِ محبوباتهم، فانجلت لهم الحواجِبُ نوناً تحكي تقوُّساً جميلاً يسحرُ الألباب، كما قال ابن الوردي:

⁷⁴⁷ علي بن العباس بن الرُّومي، ديوان ابن الرُّومي، إعداد: أحمد بسج، (بيروت: دار الكتب العلميّة، 1423هـ/2003م)، 236.

⁷⁴⁸ أبو القاسم الحسين بن محمّد الزَّاعب الأصفهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء (بيروت: دار الأرقم، 1424هـ/2003م)، 329/2.

⁷⁴⁹ الحليّ، الديوان، 421.

أفدي الذي صُدغهُ لأمّ وحاجبُهُ نونٌ وقامتُهُ مَمْشُوقَةٌ ألفٌ⁷⁵⁰

وقد يُكتفى بهذه الأمثلة التي سبقت دليلاً على دوران التشبيهات على ألسنة الشعراء وتكرّرها لتقريب جزئيات صورة الجمال التي حظين به محبوبات الشعراء المُتغزلين.

ولربّما التفت أبو الهدي من الجزئيات إلى الإحاطة بكلية هذه المحبوبة فعزل بكامل قوامها الممشوق، فإذا به يُصوّر بألة الكلمات مشيتها، ولا غرو "فالشعرُ جنسٌ من التصوير"⁷⁵¹ كما يراه الجاحظ (ت. 255هـ/869م)، وإذا بتصوير أبي الهدي يجعل القارئ ينظر محياً هذه المحبوبة مُنجلياً أمام عينيه، فاستطاع أن يجمع بين الصورة الحسية للمحبوبة والصورة المعنوية لحالة قلبه الجروح بحبها:

مَاسَتْ⁷⁵² بِحُلَّةٍ دِيَاغٍ مُسَهَّمَةٍ سُدَاءَ قَدْ سَحَبَتْهَا فِي سُوَيْدَائِي
كَأَنَّهَا وَهِيَ تَمْشِي فِي مُنْقَبِهَا رُمُحٌ مِنَ الْبَرْقِ يَلُوي دَاخِلَ الْمَاءِ⁷⁵³

وهنا قد أضفى التشبيه التمثيلي رونقاً جعل من هذه التتفة القصيرة صورة حية تحكي هيف المحبوبة بمشيتها المُتثنية، فها هي قد أقبلت رافلةً بُرد الحرير الأسود، وهي تتبختر وتجر أذيالها المُسهمة بالألوان، وليت أذيال بُرد النعيم هذا كانت تُسحب على الأرض العادية، بل إنها سُحبت سهاماً مُنغرةً في سويداء قلب العاشق المكلوم، وهذه الصورة التي هي مشيتها الهيفاء وهي رافلةً بِحُلَّتِهَا تُمَثِّلُهَا صورة الماء الرقيق وقد لمع فيه برق السماء المُتَنِّي على صفحاته المتأللة.

⁷⁵⁰ ابن الوردی، دیوان ابن الوردی، 259.

⁷⁵¹ عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق: محمد باسل عيون السود، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1424هـ/2003م)، 67/3.

⁷⁵² من الميس وهو التبختر، يُنظر: الجوهری، "ميس"، 980/3.

⁷⁵³ د.ت.ب، 10؛ ويُروى "مَرَّتْ" بدل "مَاسَتْ"، يُنظر: د.ف.م، 173.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ انشغال أبي الهُدَى بجمال محبوبته الماديِّ لم يكن ليصرفه عن الغزل بجمالها المعنويِّ، حيثُ كان يُشيرُ إلى أنَّ محبوبته لطيفة الطبع رقيقة، فطباؤها صفت حتى شَبَّهها - تشبيهاً مُرسلاً مُجمالاً أهمل فيه وجه الشَّبه (العدوبة والصِّفاء) - بالماء الرِّقراق، لكنَّها جمعت بين الصِّدين، حيثُ رَقَّ طبعها لكنَّ قلبها قد فسا على مُحِبِّها العاشق لجمالها، فَجَفَتْهُ ولم تُعِزَّهُ اهتماماً:

قد رَقَّ كالماء القراح⁷⁵⁴ طبع من أحببته لطفًا وقلبه قسا⁷⁵⁵

وبثني في موضع آخر ليعبر عن هيامه بهذه الطبيعة الرقيقة اللطيفة لمحبوبته، التي أوصَلته إلى حالة من السكر جعلته ينتشي بخمر هذه الرقة والدَّمَاءة:

وبلطف قد أسكرتني وما ظنَّ نيت أنَّ المُحبَّ باللطف يسكر⁷⁵⁶

ويلتفت إلى حلو منطقها وعذب معانيها التي سلَّبت لُبَّهُ وسحرتُه حتى احترق من وجدٍ ومن هَفٍ بها وعليها، مُشَبَّهاً - تشبيهاً مُرسلاً مُجمالاً - قلبه المحروق بسوادِ خالها الذي زاد حُسْنها حُسناً:

ومعانٍ من حلو منطقها العذِّ ب دَعَت مُهَجَّتِي كلونِ الخال⁷⁵⁷

ويقول مُضيفاً إلى لطف الطبع، صورةً مُبتكرةً جعلت من عينِ المحبوب النَّاعِسة نشوانةً ثَمَّلاً بخمر الجمال الذي أترعت به، فبَثَمَلِها هذا جرَّحت طَرْفَ عاشقها الذي راح يرمقها في انجلائها البديع:

⁷⁵⁴ الماء الصَّافي الخالص الذي لم يُخالطه شيء يُطَيَّب به، يُنظر: الزبيدي، "فرح"، 48/7.

⁷⁵⁵ د.ر.ح، 53.

⁷⁵⁶ د.ف.م، 171.

⁷⁵⁷ د.ف.م، 164؛ والخال شامة سوداء في البدن، الزبيدي، "خيل"، 451/28.

لطيفة الطبع تجلى وهي ناعسة ثملاء تطرف عين العاشق الرائي⁷⁵⁸

ويكرّر شغفه برقة طبعها، ويقرن صورة الحاظها الفاتنة بلوازم صورة الحروب التي تقيمها المحبوبة في ساحات قلوب العاشقين، فهو يُزوّج إذن بين رقة حسائه التي ولع بها وبين ما ملكته من قوة جعلتها تطعن بسهام العيون وتقتل بنظرات المقل التي استعار لها سيف الإمام علي رضي الله عنه - من طريق الاستعارة التصريحية -، ليقول محلياً غزله بمبالغة تحكي جمال صفات المحبوبة:

رقية الطبع أخت الطبي قاتله الـ عشاق طعانه في أسهم المقل
محبوبة برداء الحسن طلعتها شمس وفي طرفها سيف الإمام علي⁷⁵⁹

وهكذا يتضح اهتمام أبي الهدي - ولو لماماً - بالجمال المعنوي لمحبيته إلى جانب بلوغه بها الذروة من الجمال الحسي المادي الذي بثّ ولوعه به في غزلياته.

واللأفث للانتباه هو أنّ أبا الهدي رغم إقامته الطويلة في مراح الرّوم والتّرك، إلا أنّه لا يلمح في غزله غير العنصر العربي، فلم ير متغزلاً بعناصر تركية أو رومية، بل على العكس من هذا فقد كرّر الموروث التقليدي لصفات المحبوبة العربية التي درج عليها أرباب الغزل - كما يدلّ عليه ما سبق من صفات المحبوبة -، ولطالما تكرّرت معالم الجزيرة العربية وبلاد الرّافدين التي ماس فوق ثراها ريمه الذي يتغزل به، فتبرز بين ثنايا غزلياته أسماء تلك المعالم، مثل: "الصفا" و"الكتم"⁷⁶⁰ و"الأجرع"⁷⁶¹

⁷⁵⁸ د.ت.ب، 10.

⁷⁵⁹ د.ف.م، 188.

⁷⁶⁰ يُنظر: د.ف.م، 187.

⁷⁶¹ يُنظر: د.ف.م، 203.

و"الجرعاء" و"النَّقا" و"اللوى" و"البان" و"ذي سلم" ⁷⁶² و"بغداد" ⁷⁶³ و"الغوير" ⁷⁶⁴؛ بل تارةً يَتَعَزَّلُ بعريَّةٍ طِبَاعٍ محبوبِهِ، فيَصْرُخُ قائلاً عنه إِنَّهُ:

عَرَبِيَّ الطَّبَاعِ عَالِي الْمَزَايَا مُخْجِلٌ بِأَلْبَهَا سَنَّا الْأَقْمَارِ ⁷⁶⁵

وإذا كان بعضُ الشعراء الذين انتقلوا للإقامة خارج بلادِ العربِ قد أخذتْ بألبائهم حسنات الإفرنج، حتى قال قائِلُهُم وقد ملأ عينه حُسْنُ الإفرنجيَّة "مارياً" فأنساه ذكر "سُعدى ورياً" من العربيات، فراح مُتَعَنِّياً:

إِذَا مَا زُرْتُ مَارِيًّا فَمَا سُعدَى وَمَا رِيًّا ⁷⁶⁶

فإنَّ أبا الهُدَى لم يَتَسَرَّبْ إليه شيءٌ من ذلك، فقد صاحبَ غَزَلُهُ بِالصِّفَاتِ العَرَبِيَّةِ تَرَدُّدُ أَسْمَاءِ العَرَبِيَّاتِ فِي غَزَلِهِ مِثْلُ: "ليلي" ⁷⁶⁷ و"سلمى" ⁷⁶⁸ و"زينب" ⁷⁶⁹ و"مي" ⁷⁷⁰ وهذا التَّردُّدُ لأكثر من اسمٍ لِلْمُتَعَزِّلِ بَهْنٍ من المحبوبات يُتَبَيَّنُ إِمكَانِيَّةُ الْقَوْلِ: إِنَّ هَذَا الْمُتَعَزِّلَ بِهِ لَا وَجُودَ لَهُ إِلَّا فِي مُخَيَّلَةِ الشَّاعِرِ، وَقَدْ لَا يَكُونُ لَهُ وَجُودٌ عَلَى أَرْضِ الْوَاقِعِ، مَا يَجْعَلُ النَّاطِرَ فِيهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُطْلِقَ عَلَى عَمُومِ غَزَلِ أَبِي الْهُدَى

⁷⁶² يُنْظَرُ: د.ف.م، 187؛ د.ر.ب، 31.

⁷⁶³ يُنْظَرُ: د.ف.م، 194.

⁷⁶⁴ يُنْظَرُ: د.ر.ب، 59.

⁷⁶⁵ د.ف.م، 164.

⁷⁶⁶ مُحَمَّدُ بْنُ نَصْرِ الْقَيْسَرَانِي، شَعْرُ ابْنِ الْقَيْسَرَانِي، تَحْقِيقُ: عَادِلُ جَابِرِ صَالِح، (الأردن: الوكالة العربيَّة للتَّوزيع، 1991م)، 149.

⁷⁶⁷ يُنْظَرُ: د.ت.ب، 79؛ د.ف.م، 171.

⁷⁶⁸ يُنْظَرُ: د.ت.ب، 123.

⁷⁶⁹ يُنْظَرُ: د.ف.م، 191.

⁷⁷⁰ يُنْظَرُ: د.ر.ب، 30.

بأنَّه غَزَلَ تقليديًّا يسيرُ به سِيرًا تقليديًّا على ما سارَ عليه غيره من الشعراء، وإن كان لم يُعِدِمَ ناظرًا فيه شيئًا من الصُّور المُبتَكِرة.

ولعلَّ مَنْ يَطَّلِعُ على بُنيانِ غَزَلِيَّاتِ أبي الهُدَى سيلَمَحُ شيئًا من السُّهولةِ والتَّناغمِ بين الكلماتِ وجماليَّاتِ معانيها والأوزانِ الخفيفةِ التي كان يسعى إليها في بعض الأحيان⁷⁷¹ ليُكوِّنَ نَعَمًا موسيقيًّا لطيفًا غِنائيًّا يُضافُ إلى خصائصِ الغَزَلِ عنده؛ ومن ذلك قوله -وقد استخدم وزن البحر المُجَنَّث-⁷⁷² مُتَغَزِّلًا بالخَالِ الذي زَيَّنَ وَجَنَةً محبوبِهِ، فاقْتَبَسَ لَهُ من القرآنِ وصفًا استمدَّه من الآية: "صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً"،⁷⁷³ وقد أوجَزَ بالحذفِ مُشيرًا إلى غايةِ بديعِ الحُسْنِ الذي أودَعَتْهُ يَدُ الخَلَّاقِ في هذا الخالِ الذي زَيَّنَ حَدَّ المحبوبةِ:

رَأَيْتُ نُقْطَةَ خَالٍ فِي وَجَنَةِ صَانِهَا اللَّهُ
تَقُولُ ذُوبُوا لِلْطُّفِيِّ فَإِنِّي (صِبْغَةُ اللَّهِ)⁷⁷⁴

وتبرز مرَّةً أُخرى رِقَّةُ الغَزَلِ المُقْتَرَنَةِ بما سعى إليه الشَّاعر من الجرسِ الموسيقيِّ الغِنائيِّ -وهو وزن البحر المتدارك-⁷⁷⁵ الذي يُلائِمُ طبيعةَ الجوّ الغَزليِّ؛ حيثُ مضى يرسمُ بريشةَ الكلماتِ لوحةَ الرِّياضِ الذي استعارَ -استعارةً تصرُّحيَّةً- لأزهاره المتناثرةَ لآلاءِ الجواهرِ، ثم كَتَبَ عن محبوبَتِهِ بالضَّبطِ الذي برَزَ مستويًّا على عرشِ تلكِ الورودِ، واستعارَ -استعارةً تصرُّحيَّةً- لفتكِ عيونِهِ الفاتِنَةِ السَّيْفَ البَتَّارِ،

⁷⁷¹ يُنظر: د.ر.ت، 275، 165، 157، 175، 216، 217، 219.

⁷⁷² يُنظر: الهاشمي، الميزان، 104.

⁷⁷³ البقرة، 138/2.

⁷⁷⁴ د.ف.م، 175.

⁷⁷⁵ يُنظر: الهاشمي، الميزان، 111.

وجَلَبَ بالتَّشْبِيهِ التَّمثِيلِيَّ صُورَةَ اللَّيْلَةِ الَّتِي لَاحَ قَمَرُهَا الْأَبَدَرُ لِيَقْرَئَهَا بِشَبِيهَتِهَا وَهِيَ صُورَةُ الْمَحْبُوبَةِ لَمَّا تَدَلَّتْ أَسْتَارَ غُرَّةِ شَعْرِهَا الْفَاحِمَ عَلَى وَجْهِهَا الْمُقْمِرِ، فَقَالَ:

رَوْضٌ قَدْ لَأَلَا عَسَجْدُهُ وَأَمَالَ الزَّهَرَ زَبَرْجَدُهُ
وَالرَّيْمُ تَبَوَّأَ سَاحَتَهُ فَصَنُوفُ الْوَرْدِ تَوَسَّدُهُ
رَيْمٌ مَا أَفْتَكَ نَاضِرُهُ كَمْ قَدَّ الْقَلْبَ مُهَنَّدُهُ
فَبَطَّرَتِهِ⁷⁷⁶ وَبَعَّرَتِهِ لَيْلٌ قَدْ لَأَلَا فَرَقْدُهُ⁷⁷⁷

ومن هذه الأبيات الغزليَّة يُمكنُ أن يُخلَصَ إلى اقترانِ غَزَلِهِ بِالطَّبِيعَةِ وامتزاجِهِ بِهَا مُسْقِطاً لَهَا عَلَى مُحَاسِنِ مَحْبُوبَتِهِ، وَارْتِبَاطِ نَفْسِيَّتِهِ بِهَا وَجَعَلَهُ مِنْهَا مُتَنَفِّساً وَجَدَانِيّاً يُشَارِكُهُ فِي الْارْتِبَاطِ بِمَحْبُوبَتِهِ وَيُذَكِّرُهُ بِهَا وَيَتَفَاعَلُ مَعَهُ تَفَاعُلاً إِيْجَابِيّاً، وَيَزِيدُ هَذَا الْامْتِزَاجَ مِنْ مَنْسُوبِ الدِّقَّةِ فِي شَعْرِهِ الْمُتَدَقِّقِ فِي الْغَزْلِ، مِنْ خِلَالِ وَصْفِ مُحَاسِنِ الْمَحْبُوبَةِ وَصِفًا حَسِيّاً جَمِيلاً دَقِيقاً، عَلَى نَحْوِ قَوْلِهِ فِي أَبْيَاتٍ ضَمَّنَهَا الْكَثِيرُ مِنَ الصُّوَرِ الْفَنِيَّةِ الَّتِي تَقْدِفُ بِالنَّظَرِ إِلَيْهَا فِي جَوْ خَيَالِيٍّ يَجْمَعُ بَيْنَ جَمِيعِ حَوَاسِّهِ فَيُعْطِي كُلًّا مِنْهَا نَصِيباً مِنَ التَّخْيُّلِ لِحِمَالِ الْمَحْبُوبَةِ، فَالْخَالُ الَّذِي زَيَّنَّهَا هُوَ مَسْكٌ أَسْوَدٌ عِطْرِيٌّ يَعْبُقُ بِالطِّيبِ، وَوَجَنَاتُهَا وَرُودٌ سَقِيَّتٌ مِنْ مَاءِ نَضَارَةِ الْعَيُونِ، وَتَغْرَاهَا الْبَاسِمُ أَقْحَوَانٌ يَنْجَلِي لِلنَّاطِرِينَ بَيْنَ شَقَائِقِ الثُّعْمَانِ الْحَمْرَاءِ، وَجِيدُهَا الْأَبْيَضُ الطَّوِيلُ أَعَارَ الصُّبْحِ إِشْرَاقُهُ وَتَنَوُّرُهُ، وَصَدْرُهَا جَنَّةٌ نَاضِرَةٌ تَلَأَلَتْ عَلَى صَفْحَاتِهَا الْأَزْهَارُ وَمَاسَتْ فَوْقَ رَشِيْقٍ غُصْنِ الْخَصْرِ الرَّفِيعِ الدَّقِيقِ، وَكَأَنَّ الشَّاعِرَ بِهَذَا الْإِسْقَاطِ لِلطَّبِيعَةِ عَلَى مُحَاسِنِ مَحْبُوبَتِهِ يُرْسِلُ لِلْمَتَلَقِّيِّ رِسَالَةً تُفِيدُ حُبَّهُ لِلطَّبِيعَةِ أَيْضاً وَكَأَنَّهَا مَعْشُوقٌ آخَرٌ يُقَارَنُ بِمَحْبُوبَتِهِ الْجَمِيلَةِ:

⁷⁷⁶ الطَّرَّةُ هِيَ قُصَّةُ الشَّعْرِ وَمَا تَتَزَيَّنُ بِهِ الْمَرْأَةُ، يُنْظَرُ: أَحْمَدُ مَخْتَارٌ، "طَرَر"، 1394/2.

⁷⁷⁷ د.ر.ت، 81.

تَبَارَكَ اللهُ يَرْوِي الْخَالُ ذُو الْعَبَقِ عَنْ وَرْدٍ حَدِّدَ بِأَمْوَاهِ الْعَيُونِ سُقْيِي
عَنِ الشَّقِيقِ يَحْفُ الْأَقْحَوَانُ بِهِ وَالْجِيدُ يَجْلُو عَمُودَ الصُّبْحِ لِلْأُفُقِ
عَنْ جَنَّةِ الصَّدْرِ بِالْأَزْهَارِ قَدْ حَفَلَتْ عَنْ عُصْنِ حَصْرِ رَشِيقٍ شَيْقِ الْوَرَقِ⁷⁷⁸

وقد يجعل من جمال محبوبته أصلاً انعكس حسنه على كل جمال يراه من حوله، وهو في هذا يسلك مسلك المبالغة والإغراق في تشبيهه محاسن محبوبته، ومن هذا القبيل قوله:

قَدْ نَرُقُبُ الزَّهَرَ لِأَجْلِ حُسْنِكُمْ وَالْفَجَرَ فِي طُلُوعِهِ وَالْقَمَرَ
وَنَعشُقُ الْأَغْصَانَ إِذْ تَمِيلُ فِي غِيَاظِهَا تَرْسُمُ عَنْكُمْ مَنَظَرًا⁷⁷⁹

ولطالما اتَّخَذَ مِنَ الطَّبِيعَةِ مِرَاةً انْعَكَسَتْ عَلَى صَفَحَاتِهَا أَطْوَارُ الْعَشْقِ وَالْحُبَّةِ الَّتِي اكْتَنَفَتْ عِلَاقَتَهُ بِمَحْبُوبَتِهِ، مُوَشِّيًا تِلْكَ الْانْعِكَاسَاتِ بِحُلُلِ الْبَدِيعِ الَّتِي تُعْطِيهَا رَوْنًا خَاصًّا مِنَ الْجَمَالِ، كَقَوْلِهِ وَقَدْ ضَمَّنَ أَيْيَاتِهِ الْاسْتِعَارَاتِ الْمَكْنِيَّةَ لَمَّا اسْتَعَارَ لِلسَّمَاءِ وَصْفَ الْبُكَاءِ وَلِلْأَرْضِ وَصْفَ الضَّحْكِ، ثُمَّ أَتَى بِالتَّشْبِيهِ التَّمثِيلِيِّ عِبْرَ مُقَايَسَةِ صُورَةِ بُكَاءِ السَّمَاءِ وَضَحْكِ الْأَرْضِ بِصُورَةِ بُكَائِهِ مِنَ الْعَشْقِ وَضَحْكِ مَعْشُوقِهِ عَلَى لَوْعَتِهِ، وَلَمْ يُعْدمِ تِلْكَ الْمَعَانِي مِنَ حَلِيَةِ الْبَدِيعِ اللَّفْظِيَّةِ -الطِّبَاقِ-، فَقَالَ:

بَكَّتِ السَّمَاءُ فَأَضْحَكَتْ وَجْهَ الْفَلَا وَأَتَتْ بِشَأْنٍ مِنْ شُؤْنِ غَرَامِي
أَبْكِي فَيَضْحَكُ مَنْ أُحِبُّ لِلْوَعْيِ وَأَنَا بُكَايَ لِثَغْرِهِ الْبَسَامِ⁷⁸⁰

⁷⁷⁸ د.ر.ب، 45.

⁷⁷⁹ د.ر.ب، 31؛ والغياض جمع غَيْصَةٍ وهي الأجمة مغيض ماءٍ يجتمع فينبت الشجر، الجوهري، "غيض"، 1096/3.

⁷⁸⁰ د.ف.م، 189.

ويَتَضَحُّ مما سَبَقَ تسخيرُهُ لمظاهرِ الطَّبِيعَةِ التي بَدَت حَوْلَهُ وإشراكها في علاقتهِ الوجدانيَّةِ الغرامِيَّةِ مع محبوبَتِهِ؛ وهذه العلاقة الوجدانيَّة لا يُمكن أن يُلَمَّ -بشكلٍ كاملٍ- بجزئياتها ويُحاطَ بملاحمها إلا عندما يخوضُ الشَّاعِرُ في الحديثِ عنها من خلالِ النَّسِيبِ، وهو ما يَلْتَمِسُهُ المَطْلَبُ التَّالِي.

3 النَّسِيب

يُعَدُّ النَّسِيبُ ميدانًا فسيحًا يَبُتُّ فيه الشَّاعِرُ مواجيدَهُ مع محبوبَتِهِ التي وَلَهُ بِها حتى مَلَكَت عليه فؤادَهُ، فيَنطَلِقُ مُسَرِّحًا كَلِمَاتِهِ في ميدانِ الأشعارِ ليسَ لِقَصْرِ الكلامِ على أوصافِ محبوبَتِهِ الجميلةِ وإِنَّمَا لوصفِ علاقَتِهِ بِها وما عَمِلَتْ بِهِ أخلاقُها في مُعاملتها لَهُ وما أَوْرَثَتْهُ من صِبايَةٍ وَجَوَى لَعِبٍ بَلْبَةٍ وكيانِهِ، فما النَّسِيبُ -حسبما يرى قُدَّامة بن جعفر- إلا "ذِكْرُ خَلْقِ النِّسَاءِ وَأَخْلَاقِهِنَّ، وَتَصَرُّفِ أحوالِ الهوى مَعَهُنَّ".⁷⁸¹

وفي بدايةِ طريقِ النَّسِيبِ عند أبي الهُدَى تجدُرُ الإشارةُ إلى ما لَهَجَ به من تحديدٍ لنوعِ المحبَّةِ بينه وبين محبوبَتِهِ، فما هي بالمحبَّةِ العَرَضِيَّةِ التي تزولُ أو تحولُ، وما هو بَمَنْ يَتَنَقَّلُ بفؤادِهِ من واحدةٍ إلى أخرى، مُبَدِّرًا مشاعرَ الحُبِّ بين هذه أو تلك، كَمَن قال:

سَلَامٌ عَلَيْهَا ما أَحَبَّتْ سَلَامَنَا فَإِنْ كَرِهَتْهُ فَالسَّلَامُ عَلَى أُخْرَى⁷⁸²

وإِنَّمَا كان أبو الهُدَى يَحْرِصُ أن تَرْتَسِمَ في ذهنِ المُطَّلِعِ على نسيبِهِ صورةُ الشَّاعِرِ ذي الحُبِّ العُذْرِيِّ الذي لا يرى صاحِبَهُ حَوْلًا أو مُحِيدًا عن حُبِّ محبوبَتِهِ التي امْتَلَأَ غرامًا بِها، كقولهِ -وقد ضَمَّن بيتَ ديك الجنِّ الحمصِيِّ (ت. 235هـ/849م)- مُتَحَدِّثًا عن حُبِّهِ الصَّمِيمِ لمحبوبَتِهِ:

⁷⁸¹ قُدَّامة، نَعْدَةُ الشَّيْعَر، 42.

⁷⁸² يُنسَبُ إلى عمر بن أبي ربيعة، يُنظَر: عمر بن أبي ربيعة، ديوان عمر بن أبي ربيعة، إعداد: فايز مَحْمَد، (بيروت: دار الكتاب العربي، 1416هـ/1996م)، 192.

وَلَعْتُ بِهَا قَبْلَ الرِّضَاعِ وَإِنِّي عَلَى عَهْدِهَا بَاقٍ وَإِنْ مَسَّنِي الضَّنَا
(أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الْهَوَى فَصَادَفَ قَلْبًا خَالِيًا فَتَمَكَّنَا)⁷⁸³

فعشقه وگرامه بمحبوبته خالص خالداً على مَرِّ الزَّمان، وهو يرى قبل كُلِّ شيءٍ أَنَّ حُبَّ محبوبته قِسْمَةٌ
أَزَلِيَّةٌ كَتَبَتْهَا عَلَيْهِ الْأَقْدَارُ الْإِلَهِيَّةُ، فيقول:

كَتَبَ اللَّهُ أَنْ أُوَلِّعَ فِيهَا إِنَّمَا الْعَشْقُ لَوْ عَلِمْتَ مُقَدَّرٌ⁷⁸⁴

وهذا الحبُّ الذي رآه الشَّاعرُ أَزَلِيًّا قَدِيمًا كان قد تَمَلَّكَ عَلَيْهِ كُلَّ أَحَاسِيْسِهِ، وأَدَّى بِنَسِيْبِهِ إِلَى الْإِصْطِبَاحِ
بِصِبْغَةِ التَّهَالُكِ وفَرَطِ الْوَجْدِ واللَّوْعَةِ فِي الصَّبَابَةِ والغرامِ بالمُحِبَّةِ، فَمَضَى فِي نَسِيْبِهِ يَشْرُحُ حَالَهُ مَعَهَا؛
فَهِىَ تِلْكَ الَّتِي أَهْلَكَتُهُ بِدَلَالِهَا وَتَمَنُّعِهَا وَإِفْرَاطِهَا فِي بَعَادِ عَاشِقِيهَا الْمُغْرَمِينَ، وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ مَا يَحْكِيهِ
عَنْ حَالِهِ مَعَ مُحِبَّتِهِ وَقَدْ أَدْرَكَتُهُ الْحَيْرَةُ مِنْ أَهْوَالِ ضُدُودِهَا فَلَمْ يُلَفِّ فِي لُغَةِ الْكَلَامِ مَا يَصْلَحُ أَنْ
يُخَاطَبَ بِهَا بِهِ وَلَعَلَّهُ بِتَحْيِيرِهِ فِيمَا يُخَاطَبُ بِهِ مُحِبَّتَهُ قَدْ حَقَّقَ عُنْصُرًا مِنْ عَنَاصِرِ النَّسِيبِ الْمَهْمَةِ إِذْ يَقُولُ
أَبُو هِلَالٍ الْعَسْكَرِيُّ: "وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِي النَّسِيبِ دَلِيلُ التَّدْلِيلِ وَالتَّحْيِيرِ"،⁷⁸⁵ حَيْثُ يَقُولُ فِي مَوْضِعٍ
افْتَتَحَهُ بِالتَّصْرِيعِ وَالْجَنَاسِ الْمَفْرُوقِ (أَمْلَكَ/أَمَّ لَكَ)، وَآتَى فِيهِ بِأَسْلُوبِ التَّجَاهُلِ⁷⁸⁶ فَتَسَاءَلَ مُتَحَيِّرًا هَلْ
مُحِبُّهُ مِنَ الْبَشَرِ فَهُوَ مِلْكُ الْجَمَالِ وَالْبَهَاءِ أَمْ أَنَّهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْمُطَهَّرِينَ:

⁷⁸³ د.ف.م، 185؛ والبيت الثاني يُنظر: عبد السلام بن رغبان ديك الجن الحمصي، ديوان ديك الجن، تحقيق: أحمد مطلوب-عبد الله الجبوري،
(بيروت: دار الثقافة، د.ت)، 194.

⁷⁸⁴ د.ف.م، 171.

⁷⁸⁵ العسكري، الصناعتين، 131؛ والتدليل هو شدة الهوى إلى حد يكاد فيه يذهب عقل المحب، يُنظر: الجوهري، "دله"، 2231/6.

⁷⁸⁶ يُنظر: أبو المظفر أسامة بن مُنقِذ، البديع في نقد النُّبُور، تحقيق: أحمد بدوي-حامد عبد المجيد، (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي، د.ت)، 93.

يا مَلِكَ الحُسْنِ امرؤُ أَمَلَكُ بالله لا تقطع فتى أَمَّ لك
في حَضْرَةِ الحُسْنِ ودَسَتْ البَها هل مَلِكُ أَنْتَ وإِلا مَلِكُ⁷⁸⁷

وقد يُخاطِبُ محبوبَتَهُ التي كَتى عنها -تعظيمًا- بريم حاجر، بعد أن رَجَا منها أن تطويَ نَشْرَ البِعاد،
وتعذرَه في دهشتِه وانبهارِه بِحُسْنِها الفَتان، وصرَحَ لها بِتَحْيِرِه قائِلًا:

جَهِلْتُ بِلائي فيكَ يا ريمَ حاجرٍ فهل أَنْتَ لي من حيرتي بكِ عاذِرُ⁷⁸⁸

ويُكرِّرُ تَحْيِرُهُ على هذه الشَّاكِلَةِ مُتَسائِلًا (ماذا أقولُ)، لِيُبَرِّزَ في مَقْطَعِ نَسِيبي حكايةَ أَلَمِ الهوى التي
أدرَكَتَ علاقته بِمحبوبته:

ماذا أقولُ لِمَنْ أَقامَ بَعادَهُ حَرَبًا عليَّ وفي الفؤادِ وِدادُهُ
يا أبيضًا جَرَحَ الفؤادَ بِأَسْمَرٍ لي ناظِرٌ وعُلاكَ أَنْتَ سِوادُهُ
سَدَدَتْ بِالسَّهمِ المُراشِ بِمُهجَتِي رَميًا فلم يُخِطِ المرامَ سَدادُهُ
رَفَقًا بذِي وَلِهَ إِلَيْكَ جَرى الهوى بِجميعِهِ مَلَأَ المَلا إِرعادُهُ⁷⁸⁹

فهو يتلو بنسبِهِ على المَسامِعِ خَبَرَ محبوبَتِهِ التي قد حازَتْ من الخِلْقَةِ الجَميلَةِ ما دَفَعَهُ إلى أن يستعيرَ
لعينها الهدباءَ الفاتِنَةَ صِوَرَةَ الرُّمَحِ المُراشِ -من طريق الاستعارة التَّصريحِيَّةِ المُرشَّحة-، حيثُ إنَّها
بالحاظِها قد سَدَدَتْ سَهامًا غَرَزَتْ الحُبَّ في صميمِ فؤادِهِ، فراحَ يَعبُجُ -مُستَخدِمًا الطِّباقَ
(أبيض/أسمر)- من حَسَناءِ بِيضاءِ أَدَمَتْ بِرُمَحِ أَسْمَرٍ من لَحْظِ مُقْلَتِها لُبَّهُ الذي غَدَا مَفْتونًا بِبَواها
السَّاري في كُلِّ كُللِهِ، وتغلَّعَ في رُبوعِ كيانِهِ فَلَكَأَنَّهُ هزيمُ الرَّعدِ، مُكَنِّيًا بِذلكَ عن أَنَّهُ لا يَمْلِكُ لكَتِمانيهِ

⁷⁸⁷ د.ر.ح، 61.

⁷⁸⁸ د.ر.ب، 28.

⁷⁸⁹ د.ر.ب، 20.

سبيلاً، فغدا يستعطف محبوبته ويتذلل بين يديها راجياً أن تمحو بآية السلم والوصال حرب البعاد،
مُستندراً شَفَقَتها بعد أن أقسم بعالي رُبَّتِها أنّها عنده بمنزلة سواد العين، وهو بهذا القسم بمحبوبته
وهذه الكناية عن علو منزلتها يُشعر الناظر مدى تمكّن الحب في مُهجته، الذي دفع به إلى التذلل
بين يديها راجياً وصالها والقرب منها، ولا غرو فالنسيب لا يتم حُسْنُهُ إلا إذا تَضَمَّن الدلّ عند
الحبيب وشرح مُعترَكَ الصَّبابة والغرام المُتَقَدِّ بين جوانح الحب، ولهذا يرى بعض النقاد أنّ "النسيب
الذي يتم به الغرض هو ما كثرت فيه الأدلة على التّهالك في الصَّبابة، وتظاهرت فيه الشواهد على
إفراط الوجد واللوعة والخشوع والدلة"،⁷⁹⁰ فلا غرو من تَضَمَّن نسيب الشاعر لذلك، كقوله مُفَتِّحاً
قصيدة نسيب مُتَذَلِّلاً بين يدي محبوبه مُستعظماً له بأن يُبرِد غليل أشواقه التي أفتته من الحسرة والتوق
لِللقاء المحبوب الصّدود:

يا غزال الشعب الجفول⁷⁹¹ كفاني صرث من حسرتي عليك كفاني⁷⁹²

وهذا المطالع المُتَضَمِّن للتصريح والجناس التام (كفاني/ كفاني)، يعود بالناظر مرّة أخرى ليظهر الآثار
التي علقت بأعماق الشاعر من الأفكار الصوفيّة وما يحمله أربابها من فناء بمحبوبهم وغيبه به وبجماله
عما سواه، وذلك باستخدام أبي الهدى لوصف الفاني المُستَمَدّ من مُصطلح "الفناء" عند
الصوفيّة،⁷⁹³ ثم يشرع بعد ذلك مستطرداً في نسيب يتحدّث فيه عن لوعته وغرامه بمحبوبه، وقد ظهر

⁷⁹⁰ يُنظر: قدامة، نقد الشعر، 43؛ الأصفهاني، محاضرات الأدباء، 1/125.

⁷⁹¹ هو الذي يُسرّع في النّفار والهرب، يُنظر: الجوهري، "جفل"، 4/1657.

⁷⁹² د.ف.م، 165.

⁷⁹³ يُنظر: المناوي، التعاريف، 98، 264.

في أبياتِه الجناس الاشتقائيّ (تسحّ/سَحّ/سَحَابٍ، جيد/وُجُود) الذي بدأ به الاتِّفاقُ والاطِّراد،⁷⁹⁴ إلى جانب مراعاة النَّظير في جمعيهِ بين الغرام والولوع وكذلك بين العزوة والرِّفاق:

ذبتُ من لهفَةِ الغرامِ وُلوعًا وكَوْنِي لواعِجُ الهجرانِ
ودموعي تسحُّ سَحَّ سَحَابٍ وفؤادي يفورُ بالنيرانِ
وأنا بين عَزَوِيَّ⁷⁹⁵ ورفاقي كغريبٍ ناءٍ عن الأوطانِ
خذْ لجِئِدٍ اتَّلَفَتْ فيه وُجُودِي من دموعي قلائِدَ الجُمانِ⁷⁹⁶

فَتَمَنُّعُ المحبِّ وهجره لمحبِّه قد أضرمَ نيرانَ التَّشَوُّقِ والتَّلَهُّفِ في مُهَجَّةِ العاشقِ الولهانِ فاكتوتَ بلهيبها، وأهرقتَ دموعه مُنْهَلَّةً كغيثِ الدِّيمَةِ المِدرارِ، حتى صارَ لفرطِ غرامِهِ وتوهُّهِ بمحبوبِهِ مُنْفَرِدًا ذاهلاً عما حوله من البشرِ ناءٍ بفكرِهِ عما سوى محبوبِهِ مُشَبَّهًا حالَهُ -تشيبيها مُرسلاً مُجملاً حُذِفَ منه وجه الشَّبه (الانفراد والوحدة)- بالغريب الذي حالت الأيَّامُ بينه وبين وطنه، ثم عادَ بعد عرضِ حالته هذه ليستدِرَّ عَطَفَ محبوبِهِ مُتَدَلِّلاً بين يديه بأن يُزَيِّنَ عُقَّةُ بَقلائِدِ الجُمانِ التي سَكَبَتْها مشاعرُ الحُبِّ دموعاً سَيَّالَةً من عيني الشَّاعرِ المُحبِّ، وليتوسَّلَ إليه طالباً نشرَ بُردِ القربِ وطِيِّ ثوبِ البِعادِ، ويناديه مُتَعَجِّباً من شِدَّةِ قربه إلى قلبِهِ رَغَمَ بَعادِهِ لَهُ، فيقول وقد ضَمَّنَ البيتَ إيجازَ الحذفِ -قُرِبَتْ من القلبِ وبُعِدَتْ عن العينِ والجسمِ-:

يا ظريفَ الطِّباعِ قُرِبْتُ بَعُدُ تَ لعمري الضِّدَّانِ لا يجتمعانِ⁷⁹⁷

⁷⁹⁴ يُنظر: أبو المظفر، نقد الشعر، 87.

⁷⁹⁵ القوم الذين ينتسب إليهم الرِّجل ويشدون من أزره، يُنظر: أحمد مختار، "عزو"، 1496/2.

⁷⁹⁶ د.ف.م، 166.

⁷⁹⁷ د.ف.م، 166.

ومضى في موضع آخر يُناقش هذا المحبوب ويطلب منه أن يُرسل التحيات مع نسَمات الصبا إن
تَعذّر القرب واللقاء:

إن تكن لم تر قربي جائزاً مع هَبَابِ الصَّبا ابعث لي سلاماً⁷⁹⁸

ويعضي في شرح حالته مع تمنع محبوه ودلاله العجيب، حيث لازم من أجله البكاء فاستعار لمقلته
التي تسح بالدموع وصف المد والجزر -من طريق الاستعارة المكنية-، في إشارة منه إلى غزارة تلك
الدموع، فقال:

وتأمر عن عجبٍ وتنهى مُغاضباً (وما للهوى نهي عليك ولا أمر)⁷⁹⁹

ألفت بك الدمع المُلح فمقلتي يلدُّ لها في حُبِّك المد والجزر⁸⁰⁰

وإلى جانب التدلُّ وظهور لوعة الوجد تبرز في نسيب أبي الهدي ظاهرة ذكر الأماكن والتشوق لديار
المحوبة ومرايعها فضلاً عن أطلال منازلها، مما يُفيد أنه كان في نسيبه مُستحضرًا للتراث العربي القديم
من جهة، كما يمكن أن يكون من جهة أخرى نوعاً من التعبير عن الشوق الكامن في أعماقه إلى
الديار التي نأى عنها والمرايع التي شطَّ مزأره عنها، ولربما كانت قد ساعدته طبيعة غرض النسيب
على هذا إذ نصَّ قدامة بن جعفر على دخول "التشوق والتذكر لمعاهد الأحبة وآثار الديار العافية،
وأشخاص الأطلال الدائرة" وكون ذلك من مُمَيَّات النسيب وكماليَّاته،⁸⁰¹ ولهذا فقد ردَّد أبو الهدي

⁷⁹⁸ د.ر.ب، 55.

⁷⁹⁹ هذا العجز تضمني لقول أبي فراس الحمداني:

"أراك عصي الدمع شيمتلك الصبر أما للهوى نهي عليك ولا أمر"

يُنظر: أبو فراس، الديوان، 209/2.

⁸⁰⁰ د.ر.ب، 32.

⁸⁰¹ قدامة، نقد البشعر، 43.

على المَسَامِعِ الكثير من أسماء الأماكن المُتَدَاوِلَةِ على ألسِنَةِ الشُّعراء التي ذكروها في أشعارهم، نحو قوله:

هَبْ لَنَا نَسِيمَ سَلْعٍ عَنَبَرًا وَطِيبُهُ بِكَلِّ رَحْبِنَا سَرَى
يا عُرَبَ جَرَعَاءِ النَّقَا بِحَقِّكُمْ لا تَقْطَعُوا بِالصَّدِّ عَنَّا الْخَبْرًا⁸⁰²

وكقوله بعد أن نَزَلَ إستانبول (فروق) مُتَشَوِّقًا لربوعِ بادية الشَّامِ التي ماسَتْ محبوبَتُهُ فوق روايها ومشت فوق ثراها، وها هي الأَيَّامُ واللَّيالي انقَلَبَت بِحَالِ البُعَادِ وسيفِ الاغْتِرَابِ آلامًا وأسقامًا من تباريح الهوى:

رعى الله ظبيًا لي ببادية الشَّامِ لياليَّ آلامٍ عليه وأيامي
لقد أبعدَ المرمى غزالك فأتيد فأين فروقُ الرُّومِ من رُبُوعِ الشَّامِ⁸⁰³

وقد يُلاحَظُ تَفَنُّنُهُ في التَّلَاعُبِ بالكلمات إذا ما عَرَّجَ بكلامه على ذكرِ الأماكن واشتاق إلى مرابع محبوبته، ويجعلُ من هذا التَّفَنُّنِ وسيلةً قد تُعَبِّرُ عن تباريح الوجدِ وتَلَهُّبِ نيرانِ اللُّوعَةِ التي أضرمتها تلك المحبوبة الحسنة، فراح بذكر منازلها يُعالِجُ آخرَ رَمَقٍ تَبَقَّى فيه من الحياة، كقوله في قصيدة نسيبٍ، وقد ذكرَ وادي المحبوبة وسَقَاهُ وفَدَّاهُ، واقتبسَ من القرآن الكريم وصفَ "المُعْصِرَاتِ"⁸⁰⁴ لِيُطْلِقَهُ على عيونِهِ التي اسْتَنْزَفَتْ منها الدُّموعُ المُهْرَاقَةُ على تلك المنازل والآثار، ولكي تُمَثِّلَ أمامَ عيني النَّاطِرِ تلكَ الدُّموعِ التي سَحَّتْ من مُقْلَتَيْهِ العاشِقَتَيْنِ بالغَ أبو الهُدَى فتجاوزَ الدُّموعَ إلى ذكر الدَّمِ المُراق الذي أعقبَ نفاذَ الدُّموعِ، ثم جعلَ من حَيَاتِهِ ومَمَاتِهِ نقودًا تُبَدَّلُ في سبيلِ الوصالِ -

⁸⁰² د.ر.ب، 31.

⁸⁰³ د.ت.ب، 95.

⁸⁰⁴ من قوله تعالى: "وَأُنزَلْنَا مِنْ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً نَجَّاجًا"، النبأ، 14/78.

وذلك من طريق الاستعارة التّصريحية والكناية-، ويظهرُ جليًّا توشيتُهُ لهذه المعاني بِجُلِّ الطِّبَاقِ (السُّكون/الحركات) والجناسِ (مربع/بارع/ربيع، الوادي/وادي، منزل/أنزل) ومراعاة النّظير والتّرادف (المعصرات/السّحائب/الممطرات):

وبؤدّي الوادي الذي سكّنته فهو واديّ رُوحِي وداء حَيَاتِي
مربعٌ بارعٌ ربيعٌ رباه من دموعي سُقي بماء الحَيَاة
طلّلٌ طالما طَلَبْتُ ثراه بنقودِ السُّكونِ والحركاتِ
منزلٌ أنزلَ الدِّما من عيوني الـ مُعَصِرَاتِ السَّحَائِبِ الْمُمَطِرَاتِ⁸⁰⁵

ويظهرُ في هذا المقطعِ النّسيبيّ ما عُمِدَ في الموروثِ التّقليديّ عند فئةٍ كبيرةٍ من الشّعراء العربِ من شدّة تعلّقهم بديار محبوبهم ومرابعهم وأطلالهم،⁸⁰⁶ فوادي المحبوبة لم يُعَدْ في عيني الشّاعرِ ذلك الوادي الذي يضمُّ بين جنباتِهِ الحصباء أو الثّرى بل هو في عينيه الوادي الذي نزلت فيه روحه فصار سِرُّ الحياة مُعلّقًا بين جنباتِهِ، كيفَ لا وقد كان فيه مسكنٌ محبوبته، فلا بدَّ أن تُهراقَ عَبرَاتُهُ على دُراه، وهي تلك العبرات التي أسماها ماء الحياة التي أَحْيَت الرّبيعَ في تلك الرُّبوع؛ وقد يبدو بِإمعانِ النّظرِ في هذا الحديثِ المُستفيضِ عن تلك الدِّيار والمرايع أنّه حديثٌ لم يكنِ القصدُ منه رَصفُ الكلمات وتأنيقُها، وإنّما كان حديثًا يؤدّي به الشّاعرُ وظيفَةً مُهمّةً في سياقِ النّسيب، من خلال ما يُمكنُ أن يُطلقَ عليه مُسمّى "الذاكرة المكانية"، فما المكانُ لولا تلك الرّابطة الموثّقة بينه وبين ذكريات الماضي الجميلة والعهود الأنيسة التي ضَمَّها المكان، فبمجرّد أن يذكرَ أبو الهدى ديارَ محبوبه ومرايعَ إقامته تعودُ به ذاكرةُ الحنين إلى الأيّامِ الماضية، فكأنّهُ لا يرى هذه الرُّبوع بعينِ الحاضر بل بعينِ الماضي

⁸⁰⁵ د.ف.م، 173.

⁸⁰⁶ يُنظر: قُدّامة، نقد النّبيّ، 43.

المشحون بذكريات الحبِّ والحبيبة، ومن هذه الشَّاكِلَة قَوْلُهُ وَقَدْ هَبَّ بِهِ نَسِيمُ الصَّبَا قَادِمًا مِنْ دِيَارِ
المُحِبُّوبِ فَرَّاحٍ يَصِفُ مَا هَاجَهُ مِنَ الشَّوْقِ قَائِلًا:

أَتَى بِأَخْبَارِ غُرَيْبِ الْحَيِّ مِنْ تِلْكَ الضَّوَّاحِي وَالتَّوَّاحِي عَطَّرَا
آهٍ لِأَيَّامٍ مَضَّتْ بِقَرَبِكُمْ رَاحَتْ وَأَبْقَتْ عِبْرَةً لَنْ تَفُتَّرَا⁸⁰⁷

وها هو أبو الهُدَى تُثَارُ رَكَائِبُ مَحْبُوبَتِهِ "مَيِّ" بعد أن أزمعَ قَوْمُهَا عَلَى الرَّحِيلِ، فَثَارَتْ مَعَهُمْ
رَكَائِبُ الْحَنِينِ فِي قَلْبِهِ، وَتَسَعَّرَتْ نِيرَانُ تَبَارِيحِ الْهَوَى فِي أَحْشَائِهِ، وَعَادَهُ طَيْفُ أَوْقَاتِ الْوَصْلِ بِمَحْبُوبَتِهِ،
وَهَاجَهُ خَلُّ رُبُوعِ خِيَامِ الْمَحْبُوبَةِ، فَشَرَعَ يُبْدِعُ فِي تَصْوِيرِ أَوْيَاقَاتِ الْوَصَالِ الَّتِي حَظِيَ فِيهَا بِمَحْبُوبَتِهِ،
فَجَعَلَ مِنْ سَاعَةِ الْقُرْبِ صَفْحَةً كَتَبَ فِيهَا كُلَّ يَرَاعٍ سَطُورَ الْوَصَالِ فَلَمْ يُسَمِعْ حِينَئِذٍ بِصَرِيرٍ لغيرِ تِلْكَ
السُّطُورِ -وَذَلِكَ مِنْ طَرِيقِ الِاسْتِعَارَةِ التَّصْرِيجِيَّةِ الْمُرَشَّحَةِ-، إِذْ قَالَ:

خُذْ إِثْرَ مَيِّ فَالْركَابُ تَطِيرُ بِحَمُولِهَا وَلِذِي الْوُلُوهِ زَفِيرُ
آهٍ عَلَى نَفَّاحِ مَسكِ خِيَامِهَا كَمْ هَبَّ مِنْهَا لِلرِّفَاقِ عَبِيرُ
فِي حَضْرَةِ وَشَى الْعَفَافُ سُجُوفُهَا⁸⁰⁸ فِيهَا لِأَقْلَامِ الْوَصَالِ صَرِيرُ
أَوْقَاتِ أَنْسٍ لَمْ يُدَسِّسْ صَفُوهَا كَدَّرَ وَلَمْ يَجِفْ الْعَشِيرَ عَشِيرُ⁸⁰⁹

وَأَتَى لِلْأُذْهَانِ أَنْ يَجْمَعَ بِهَا خِيَالُهَا بِمَنَّةٍ أَوْ يَسْرَةَ وَقَدْ احْتَرَزَ الشَّاعِرُ بِجَلِيهِ لِكَلِمَةِ (الْعَفَافِ)، لِتُحَيِّمَ
عَلَى جَوِّ اللَّقَاءِ صُورَةَ الصَّفَاءِ الَّذِي يُنْقِيهِ وَيَجْعَلُ مِنْهُ لِقَاءً صَافِيًا طَاهِرًا مِنْ دَنَسِ الْأَكْدَارِ، وَذَلِكَ
لَمَّا اسْتَعَارَ لِلْعَفَافِ وَصْفَ الزَّيْنَةِ الَّتِي وَشَّتِ السِّتَارَ الْمُسَدَّلَ عَلَى ذَلِكَ اللَّقَاءِ الصَّافِي؛ وَكَثِيرًا مَا كَانَ

⁸⁰⁷ د.ر.ب، 31، والعبارة واحدة العبرات وهي الدِّمعة في العين قبل أن تسيل وتفيض، يُنظر: 1451/2.

⁸⁰⁸ جمع واحدة السَّجَف بكسر الهمزة وفتحها وهو السَّتر، يُنظر: الجوهري، "سجف"، 1371/4.

⁸⁰⁹ د.ر.ب، 30.

يحرصُ على هذه النُقطة من تنزيه محبوبته عما سوى العِقة والطُّهر والنِّقاء كقولهِ مُصَرِّحًا بذلك بعد أن ذكر ظرافة المحبوب وورقته:

تَسْلُطَنَّ فِي ظَرَفَتِهِ بِشَأْنٍ عَلاَ عَنْ ذُلِّ شَائِبَةِ الْحَرَامِ

رَعَى اللَّهُ الدِّيَارَ دِيَارَ نَجْدٍ فكم لي في رُبَاها من ذِمَامٍ⁸¹⁰

ولربما التفت أبو الهدى إذا ما تعذّر عليه الوقوفُ على ديارِ محبوبته والأرض التي حلت بها، مُخْبِرًا بلسانِ الحبِّ أنَّه سيُطيرُ بجناحِ الرُّوحِ إليها لينتَشِقَ عَبرَ أثرها، داعيًا لتلك الأرض بسُقيا الخيرات من الغيوث الهامعة قائلاً:

وَإِذَا مَا أَمَّ أَرْضًا بَعُدَتْ سَلَكَتْ رُوحِي سَبِيلَ الْأَثَرِ

لَا عَدَا الْهَطَّالُ أَرْضًا حَلَّهَا وَسَقَاهَا بِالنَّوَالِ الْغَمْرِ⁸¹¹

ومن العناصر التي حرص أبو الهدى على سوقها في نسيبه حتى صارت ظاهرةً من ظواهره، هي ظاهرة الاقتباس من القرآن الكريم، حتى بدا كأنه استمدَّ مُعْجَمَ كلماته وتعابيرهِ منه في كثيرٍ من المواضع، ففي موضعٍ اقتبس من القرآن قوله تبارك وتعالى: "وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ"⁸¹² وقوله: "وَالْعَصْرِ"⁸¹³، ليجعل من ذلك توريةً عن جمال ذلك المحبوب الذي ينجلي كالنَّجم، فتقابلهُ المعصِراتُ من عينيه فتسكبُ الدُموعَ بعد أن اعتصر قلبه الوجدُ واللَّهْفُ على هذا المحبوب ووصاله، فقال:

⁸¹⁰ د.ف.م، 170.

⁸¹¹ د.ت.ب، 36.

⁸¹² النّجم، 1/53.

⁸¹³ العصر، 1/103.

يقرأ لي (والتَّجْم) حينَ ينجلي فتقرأ العينُ له (وَالْعَصْرِ)⁸¹⁴

وعلى هذه الشَّكلة قوله وقد جعل للجمالِ القَتانِ دولةً تَرَبَّعت على عرشِ مُلكِها محبوبتُهُ التي هي عزيزةُ ذلكِ المِصر -مِصر الجمالِ البديع-، فراحَ يُحاطِبُها وقد أزالَ أدواتِ التَّداءِ بينهما لشدةِ القُربِ والحبِّ، قائلاً:

عزيزةُ مصرِ الحُسنِ يُوسُفُكِ انطوى بسجنِ الجُفَا منك على جُرفِ هاري
فَمَيَّي له فضلاً بإطلاقِ قيدِهِ وجُودي بريقٍ يُطفئُ اللَّهْفَ النَّاري⁸¹⁵

فهو قد جعل من نفسه يوسفَ السَّجينِ الذي حَبَسَتْهُ في سجنِ التَّمَنُّعِ والبِعادِ، فراحَ يستعطفُها في المَنِّ بإطلاقِهِ من حَبْسِهِ هذا، بعد أن أضافَ نفسَهُ إليها - (يوسُفُكِ) - إيغالاً منه في استعطافِها واستِدْرارِ شَفَقَتِها عليه، وفقَ ما يقتضيه مقامُ النَّسيبِ من إظهارِ للتَّذلُّلِ والعجزِ من المُحبِّ بين يدي محبوبتِهِ.

ولعلَّ من أجملِ الشُّواهِدِ على تأثُّرِ مُعْجَمِهِ اللَّفْظِيِّ بِالآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ ما اقتبسَهُ من السِّيَاقِ الْقُرْآنِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: "يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا"،⁸¹⁶ فَكُنِيَ بِالنَّارِ وَالْوَرْدِ عَنْ تَضَرُّجِ حَمْرَةِ وَجَنَةِ الْمَحْبُوبَةِ، وَبِالْبَرْدِ عَنْ أَسْنَانِهَا، فَقَالَ:

نَقَشَ الْجَمَالَ عَلَى صَحِيفَةِ حَدِّهَا يَا نَارُ كُونِي وَزْدَةً وَسَلَامًا
وَالْبَرْدُ حَوْلَهُ مُرَوِّقٌ ثَغَرَهَا بَرْدًا بِمِسْمِهَا اللَّطِيفِ تَرَامَى⁸¹⁷

⁸¹⁴ د.ر.ب، 35.

⁸¹⁵ د.ف.م، 204.

⁸¹⁶ الأنبياء، 69/21.

⁸¹⁷ د.ف.م، 200.

وكثيراً ما كان يَحْتَمُّ قصائدَ هذا الغرض بما يُثَبِّتُ صدقَ حُبِّه للمحجوب كقولهِ وقد اقتبسَ

الحديث النبوي: 818

أنا في حبِّها على قدمِ الصِّدِّ ق (وإنَّما الأعمالُ بالنيَّاتِ) 819

أو أنَّه يَحْتَمُّ بالإعراضِ عن كلِّ عَزَلٍ ونسيبٍ، والتفاتٍ من المخلوقين الفانين إلى الخالقِ الباقي، وكأنَّه يربُّاً بقلبه أن يحلَّ فيه ما سوى الله، وبذلك يظهر عليه مُجَدِّداً أثرُ التَّصَوُّفِ المتغلغلِ في أعماقهِ، ومن هذه الشَّاكِلَةِ قولُهُ -وقد ضَمَّنَ الأبيات اقتباساً من المَثَلِ الواردِ في الحديث النبوي-: 820

يُقيِّمُها الخاطِرُ في ألواحِهِ يقرأُ منها خبراً مُسَطَّراً

يا قلبُ حلِّ الفانياتِ واذكرِ الـ باقي (فكلُّ الصِّيدِ في جوفِ الفِرا) 821

فهو ينطوي على قلبه بعد أن هاجتْهُ الذِّكرياتِ وقامت ماثلةً أمام عينيه تُثيرُ في نفسه مشاعرَ الحنين، وكأنَّ القلبَ يتلو من لوحِها أخبارَ أوقاتِ الوصلِ والاتِّصالِ بالمحجوب، حتى إذا ما استرسلَ مع ذكرياتِ تلك الأيَّامِ السَّوالِفِ، عادَ ليصحو من سَكْرَتِها مُحَاطِباً قلبه: أن تَذَكَّرَ -يا قلبُ- القديمَ الباقي واطرح جميعَ الفانياتِ، فبهذا المَسْلَكِ ثَمَّ الخيرَ العميمَ والفضلَ الجَمِّ، إذ سالَكه لا يفوته من لذاذاتِ الحقائقِ فائتٌ قطَّ.

وبعد كلِّ ما سبقَ المرورَ عليه في غرضِ الغزل، يمكن استنتاجُ ما يلي:

818 البخاري، "بدء الوحي"، 1 (رقم 1).

819 د.ف.م، 173.

820 يُنظر: الميداني، الأمثال، 136/2؛ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السَّخاوي، المقاصد الحسنة في بيان كثيرٍ من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، إعداد: محمد عثمان الخشت، (بيروت: دار الكتاب العربي، 1405هـ/1985م)، 515، (رقم 826).

821 د.ف.م، 173.

■ إنَّ هذا الغرضَ رغمَ تداخلِ أقسامِهِ وامتزاجِها بينَ نوعينَ هما الغزلُ والنَّسبُ، فقد تمَّ تقسيمُهُ إلى ثلاثةِ أقسامٍ هي: التَّشبيبُ والغزلُ والنَّسبُ؛ ولم يكن أبو الهُدَى في قسم التَّشبيبِ ذا نفسٍ طويلٍ؛ كما أنَّ الوقوفَ على تشبيبِ أبي الهُدَى استوجبَ عودةَ البحثِ أدراجَهُ كي يقتطفَ من غرضِ المديحِ -بنوعيه النَّبويِّ والعام- التَّشبيبَ الذي افتتحت به القصائدُ المدحِيَّة، حيثُ إنَّه أكثر ما كان يأتي به مُوطَّئًا بأبياتِهِ بينَ يدي غرضِ المديحِ، إضافةً لكونِهِ قد نَوَّعَ في تشبيبه بينَ الغزلِ والنَّسبِ.

■ وقد لُوَحِظَ في الغزلِ عندَ الشَّاعر تركيزه على الأوصافِ الحِسِّيَّة الماديَّة للمحبوبة، وقد حرصَ على وصفِ جزئِيَّات هذا الجمالِ والبلوغ به إلى أعلى مستوياتِهِ التي تَطْمَح إليها النَّفوس من خلال الإغراق بالمبالغة في التَّشبيهات التي استخدمها؛ إلا أنَّ ذلك لم يكن مانعًا له من التَّغزُّل بالجمالِ المعنويِّ -ولو لِمأَمَّا-، إلى جانبِ إيلائه أهميَّةً بالغَةً لصبغ كلِّ ذلك بصبغة الطُّهر والعفاف والبُعد عن شوائبِ الحرام؛ مما جعلَ غَزْلَهُ يَتَنَزَّه عن الفُحشِ أو الغزلِ البذيء بالمُذَكَّر.

■ كما ظهر غَزْلُهُ ممزوجًا بجمالِ عناصر الطَّبيعة، حيثُ كان يقرُن بينَ جمالِها وبينَ جمالِ محبوبته التي يتغزَّلُ بها، فيُسْقِطُ جمالَ هذه على تلك، فتتضافَّرُ عناصرُ جماليَّة خياليَّة في لوحة الغزل التي يرسمها لمحبوبَتِهِ، أشاعت في شعرِهِ الدِّقَّة في وصفِ محاسنِ المُتَغَزَّل.

■ وقد كان غَزْلُهُ عربيًّا بحثًا لم يُلَمَّح فيه تغزُّلٌ بالعنصرِ التُّركيِّ أو الرُّوميِّ؛ فبالنَّظر في هذا الغرض -وخصوصًا قسم النَّسبِ- وُجِدَت الأسماءُ العربيَّة للنِّساء المحبوبات، وأُلفِيَت فيه روحُ الموروثِ التَّقليديِّ العربيِّ من وقوفٍ على الدِّيارِ والمنازل والأطلال، الذي دَفَعَهُ إلى ترداد الكثير من المعالم العربيَّة -في الجزيرة العربيَّة وبلاد الرّافدين- التي دارت على ألسنة الشعراء السَّالِفين؛ ونفَذَ من الدَّاكرة المكَانِيَّة إلى الرِّمانيَّة بتذكُّرِ أوقات الوصالِ بالمحبوبة،

فكأنَّه لم يكتفِ بالوقوفِ على تلك الأماكن الجامدة وإنما بثَّ فيها روح المشاركة له في تحريكِ لوعته واستنهاضِ تشوُّقه؛ ولربما كانت الغربة عن وطنه عاملاً مُساعدًا على صدق التشوُّقِ عنده.

■ إنَّ أبا الهُدَى في غزله بمحبوبته كان قد نظرَ إليها بنظرتين، إحداهما كانت نظرةً كُلِّيةً شاملةً، والأخرى نظرةً جُزئيةً اهتمَّت بالتفاصيل الدقيقة فيها، ثم عاد لِيُسَطِّرَ كُلَّ ذلك في غزله، لكنَّه لم يكد يخرج عن السنن الذي استنَّه الشعراء الذين سَبَقوه، فكَرَّرَ الأوصاف الجمالية والتعوت المِثالية ذاتها التي دارت على ألسنتهم، ولم يبتعد كثيرًا عن المعاني التي أتوا بها، وقد يُعَلَّلُ هذا بطبيعة هذا الغرض التي فرضت هذا التشابه في التناول للأوصاف حتى أشار بعض النُّقاد⁸²² إلى استواء السابقين واللاحقين والمولدين والمُحدثين في مسألة تناولهم للأوصاف الجمالية في ذات المحبوب المُتَغَزَّل به.

■ وقد كان يحرصُ دائمًا على إظهار صدقِ محبته الحقيقية لمحبوبته؛ ويمكنُ القول: إنَّه قد حافظَ على توازنِ العاطفة لَمَّا طرَقَ بابُ الغزل فلم تكن بالباهتة أو المُفْتَعَلَة وإنما كانت تنمُّ عن فرطِ إعجابٍ ومزيدِ محبةٍ في المحبوب، لكنَّها كانت أكثرَ حرارةً لَمَّا طرَقَ بابُ النَّسِيبِ إذ يشعر الواقفُ على أبياتِ النَّسِيبِ بثورةٍ من المشاعر المُتَوَقِّدة في نفسية الشاعر اتَّجَاهَ محبوبته توزَّعت بين حنينٍ وشوقٍ وحُبٍّ وحُزنٍ على الفراق، ويُلَمِّحُ توقُّدُ انفعالات عواطفه في أشعاره بدون أيِّ حجابٍ يسترها عن الناظر فيها.

■ كما لم تخلُ معاني الأبيات من شيءٍ من المعاني المبتكرة البديعة وخاصةً عندما كان يأتي بالاقْتباس، إلى جانبِ ظهور أثر التَّصوُّف في هذا الغرض من خلال بعض المصطلحات

⁸²² يُنظر: عمر موسى باشا، الأدب في بلاد الشام (دمشق: المكتبة العباسية، 1391هـ/1972م)، 488.

التي كَرَّرها فيه، ولم يَعدَم النَّاظِرُ في شعر هذا الغرض من صورٍ بلاغيَّةٍ بَيَّانَةٍ من استعاراتٍ
وكنائياتٍ وتشبيهاتٍ زادَ من بهائها الإكثارُ من المُحَسِّناتِ البديعيَّةِ التي جعلت الألفاظَ
مُتَناعِمَةً مع المعاني وفقَ جرسٍ موسيقيٍّ لطيفٍ يُناسِبُ مقامَ العَزَلِ، إذ كان أبو الهُدَى
يستسيغُ لَعَزْلِهِ أن يُصَبَّ في قوالبِ الأبحرِ الشَّعريَّةِ القصيرةِ الأقربِ إلى النَّفسِ والجاريةِ
على الألسنِ لِحِقَّتْها ونغمها الغنائيِّ، مما يعني أنَّ غَزَلِيَّاتِهِ امتازَتْ بموسيقيَّةٍ خارجيَّةٍ خدمتها
الموسيقا الدَّاخليَّةُ؛ ويمكنُ القول: إنَّ معانيه كانت قريبة للأذهان ولم يكتنفها الغموضُ،
وأما الألفاظُ فقد كانت حلوةً رقيقةً تنسابُ بعدوبةٍ ولينٍ فلم يَشُبُّها تنافرٌ أو غرابةٌ أو
فحشٌ؛ وربما يعودُ ذلك إلى ما اقتضتهُ طبيعةُ العَرَضِ من وجوب تخييم الصِّفَاءِ والرِّقَّةِ على
جميعِ الشَّعرِ الذي يندرجُ تحته، إضافةً إلى مكانةِ الشَّاعرِ والوضعِ الذي هو فيه الذي يُنزِّهُ
لسانَهُ عن الخوضِ بما سوى الطَّهرِ والنِّقاءِ.

المبحث الخامس: غرض الوَعظ

يعودُ أصلُ كلمةِ الوَعظِ لُغَةً إلى كونها مصدرًا للفعل (وَعَظَ) وهي مُرَادِفَةٌ لِلْعِظَةِ والمَوْعِظَةِ؛ وتعني "النُّصْحَ والتَّذْكِيرَ بالعَوَاقِبِ"،⁸²³ وعلى رأي الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت. 170هـ/786م) فإنَّ الوَعظَ هو التَّذْكِيرُ بِالْخَيْرِ ونَحْوِهِ مما تَرَقُّ له القلوب،⁸²⁴ وأمَّا ابنُ فارس (ت. 395هـ/1005م)⁸²⁵ فقد بيَّن أنَّ معناه التَّخْوِيفُ والإنذار؛ وتعبيرٌ آخَرٌ يُقْصَدُ بالوَعظِ الأَمْرُ والوَصِيَّةُ بالطَّاعَةِ،⁸²⁶ أو تذكيرُ المُخَاطَبِينَ بما يجعلُ قلوبَهُمْ تَلِيْنًا لِلثَّوَابِ والعِقَابِ ودَعْوَتَهُمْ إلى إِصْلَاحِ السَّيِّئَةِ وإلى التَّوْبَةِ إلى الله،⁸²⁷ فإذا ما قَبِلَ المُخَاطَبُ الوَعظَ قِيلَ: قد اتَّعَظَ فُلَانٌ، وبهذا يظهرُ أنَّ الاتِّعَازَ هو قبولُ المَوْعِظَةِ، وقد وَرَدَ في الأثر "لأَجْعَلَنَّكَ عِظَةً" فُفْسِرَ: لأَجْعَلَنَّكَ عِبْرَةً ومَوْعِظَةً لغيرِكَ،⁸²⁸ ويُلَحَظُ اقترانُ المَوْعِظَةِ بِالْحِكْمَةِ في قوله تعالى: "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ"،⁸²⁹ وتناقَلَتِ العربُ في أمثالها "لا تَعْظِيْنِي وَتَعْظُوعِظِي -أو تُعْظُوعِظِي -" بمعنى اتركي توصيتي وأوصي نَفْسَكَ أو لا تأمرني بالصَّلاح والاستقامة وتُفْسِدِي في نَفْسِكَ وأنتِ معوجَّةٌ.⁸³⁰

⁸²³ يُنْظَرُ: الجوهري، "وعظ"، 1181/3.

⁸²⁴ يُنْظَرُ: الخليل، "وعظ"، 228/2.

⁸²⁵ يُنْظَرُ: ابن فارس، مقاييس اللغة، "وعظ"، 126/6.

⁸²⁶ الفيومي، المصباح، 665/2.

⁸²⁷ يُنْظَرُ: أحمد مختار، "وعظ"، 2468/3.

⁸²⁸ يُنْظَرُ: مجد الدين المبارك بن محمد بن الأثير، التَّهْيَاة في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر الزاوي -محمود الطناحي، (القاهرة: المكتبة الإسلامية،

د.ت)، 260/3.

⁸²⁹ التَّحْل: 125/16.

⁸³⁰ يُنْظَرُ: الزبيدي، "عظظ"، 237/20، "وعظ"، 289/20؛ الميداني، الأمثال، 213/2.

وهذه المعاني اللغوية المُتقاربة فيما بينها لا تبتعد كثيراً عن المعنى الاصطلاحي للوعظ، فالقاضي البضاوي (ت. 685هـ/1319م) عرّفه بأنّه "الخطابُ المُقنعةُ والعِبْرُ النَّافعةُ"،⁸³¹ أمّا محمّد رشيد رضا (ت. 1354هـ/1935م) فعرّفه بأنّه "الوصيّة بالحقّ والخير، واجتناب الباطل والشرّ، بأساليب التّرجيب والتّرهيب التي يرقّ لها القلب، فتبعث على الفعل والتّرك".⁸³²

وانطلاقاً من استحضار المعاني اللغوية والاصطلاحية للوعظ، وبالإطلاع على شعر أبي الهدي الذي سطره فيه، فإنّه يُمكن تقسيم وعظه -رغم تداخل أجزائه- إلى ثلاثة محاور رئيسية، تندرج كلّها ضمن الإطار العامّ لما اشتمل عليه الوعظ من معاني، وهذه المحاور هي:

- محور النصّح والإرشاد (المنبثق من المعنى الأوّل للوعظ)
- محور التّرهيد بالدُّنيا (المنبثق من معنى التذكير بالعواقب وترقيق القلوب بالتّرجيب أو التّرهيب)
- محور الحكمة (المنبثق من معنى العبرة والاعتبار)

وسيتّم تناول كلّ محورٍ على حدة، في محاولةٍ لتلمّس العناصر والأفكار الأساسية التي بُني عليها كلّ محورٍ.

⁸³¹ ناصر الدّين عبد الله بن عمر البضاوي، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل، تحقيق: محمّد المرعشلي، (بيروت: دار إحياء الثّراث العربيّ، 1418هـ/1997م)، 3/245.

⁸³² محمّد رشيد بن علي رضا، تفسير المنار (القاهرة: دار المنار، 1366هـ/1947م)، 11/328.

1 النصح والإرشاد

إنَّ طَبِيعَةَ الْبَيْتَةِ الَّتِي تَرَعَّرَ فِيهَا أَبُو الْهَدَى - كَمَا تَبَيَّنَ فِي سِيرَةِ حَيَاتِهِ - كَانَتْ تُحَيِّمُ عَلَيْهَا أَجْوَاءَ التَّصَوُّفِ، مِنْ خِلَالِ مَا يُعْرَفُ بِمُسَمًى "الشَّيْخِ وَالْمُرِيدِ"، وَيَبْدُو أَنَّهُ مَعَ انْتِقَالِهِ إِلَى عَاصِمَةِ الْخِلَافَةِ إِسْتَانْبُولَ لَمْ يَنْتَقِلْ عَنْ هَذِهِ الْأَجْوَاءِ فَهُوَ لَمْ يُلَفَّ بَعِيدًا عَنْهَا، بَلْ قَدْ أَوْكَلَ إِلَيْهِ السُّلْطَانُ عَبْدَ الْحَمِيدِ الثَّانِي رِثَاسَةَ مَجْلِسِ مَشَايِخِ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ،⁸³³ وَهَذَا السَّبَبُ قَدْ يَكُونُ مُفَسِّرًا تَخْصِيصَ جُزْءٍ مِنْ إِنْتَاجِهِ الشَّعْرِيِّ فِي النَّصْحِ وَالْإِرْشَادِ، فَقَدْ شَغَلَ حَيِّزًا كَبِيرًا مِنْ حَيَاتِهِ.

وَمِنْ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَكُونَ نُصْحُهُ ذَا طَائِعٍ دِينِيٍّ نَائِعٍ مِنْ مَصَادِرِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَمُسْتَمَدًّا مِمَّا قَامَ عَلَيْهِ مِنْهَجُ سَلَفِ الْأُمَّةِ مِنْذَ فَجْرِ عَهْدِهَا، إِذْ نَصَحَ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَزَلْ دَابَّ أَعْلَامِهِمْ - كَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ (ت. 110هـ/728م) وَسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ (ت. 161هـ/778م) وَالْفُضَيْلَ بْنَ عِيَاضٍ (ت. 187هـ/803م) - وَامْتَدَّ حُضُورُهُ حَتَّى الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ وَارْتَفَعَ مَعَهُ صَوْتُ التَّزْهِيدِ بِالدُّنْيَا الْفَانِيَّةِ⁸³⁴ بَعْدَ انْتِشَارِ التَّرَفِّ وَاللَّهْوِ وَالْمَجُونِ، وَبَرَزَ نِتَاجُهُ مَنْثُورًا وَمَنْظُومًا فِي إِرْشَادِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى مَا ارْتَضَتْهُ الْمَشِئَةُ الْإِلَهِيَّةُ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا مُوَصِّلًا الْمُهْتَدِينَ بِهِ إِلَى بَرِّ النَّجَاةِ وَالْفَوْزِ بِرِضَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَقَدْ كَانَ وَعْظُهُ مَبْنُوثًا فِي شَعْرِهِ بِشَكْلِ مَقَاطِعَ وَتُفَافٍ وَقَصَائِدَ، وَعَلَى مَا يَبْدُو أَنَّهُ لَمْ يُؤَلِّهِمْ أَهْتِمَامًا بِالْعَمَلِ لِلْمَطَالَعِ وَالْمُقَدِّمَاتِ فَكَثِيرًا مَا كَانَ يُبَاشِرُ الْمَسَامِعَ بِمَا يُرِيدُ أَنْ يَطْرُقَهُ مِنْ نَصَائِحَ وَإِرْشَادَاتٍ، وَقَلِيلًا مَا تَجَدَّدَ قَصِيدَةً مُفْتَتَحَةً بِمَطْلَعٍ تَقْلِيدِيٍّ كَقَوْلِهِ فِي مَطْلَعٍ افْتَتَحَهُ بِالتَّصْرِيعِ وَالْجِنَاسِ:

⁸³³ يُنْظَرُ: بوزينار، "الصِّيَادِي"، 217/36.

⁸³⁴ يُنْظَرُ: فَرُوح، تَارِيخُ الْأَدَبِ، 44/2.

أَقُولُ لِمُطَرِّبٍ يَحْدُو الْجَمَالَ رَعَاكَ اللَّهُ كَمْ تَصِفِ الْجَمَالَ
مَرَّرْتَ عَلَى الرِّيَاضِ مُنَمَّنَاتٍ⁸³⁵ فَهَلْ هُيِّمَتْ مُذْ شِمَتْ⁸³⁶ الْعَزَالَ
وَرُبَّ مُهَيِّجَةٍ مَنِي كَوَاهَا هَيْبُ جَوَى وَأَجَجَهَا اشْتَعَالًا⁸³⁷

ففي هذا المطلع يُنادي على سائقِ الأظعان ويدعو له لَمَّا حَدَا رَكَائِبُهَا بِحَدْوٍ أترَعَ سامعيه بوصفِ
الجمالِ وأهلِهِ، وراح أبو الهُدَى يُخَبِّرُ عن سببِ هذا الهُيَامِ لدى الحادي وهو رُؤْيُتُهُ لَغَزَالِ الرُّوضِ ذي
الحُسْنِ البديع، ليخرُجَ بالاستفهام من معناه الحقيقي إلى معنى الإخبار عن سبب الهُيَامِ، إيغَالاً منه
في تثبيتِ صورةِ الجمالِ في نفسِ مُحاطَبِهِ، ومن هذا المَطْلَعِ يَسْتَطِرُّ إلى وصفِ حالَتِهِ مع تباريحِ الهوى
والحُبِّ التي أَلْهَبَتْ فؤَادَهُ، وبعد أن يجذب السَّامِعَ إليه وَيُحَرِّكُ مشاعِرَهُ بما وصفَ من حالَتِهِ الوجدانيَّةِ،
يَتَّبِعُ بِهِ إلى ساحاتِ النُّصحِ والإرشادِ الوعظيَّةِ والحكميَّةِ.

ومن الممكن أن يَمَيِّزَ النَّاطِرُ وصاياهُ الإرشاديَّةَ إلى أقسام:

أحدها: ما كان دينيًّا بحثًا يَرْتَبِطُ بالتَّقْوَى ومُعَامَلَةِ العبدِ الخاصَّةِ مع رَبِّهِ لكسبِ رضاه.

وثانيها: ما كان مُرتَبِطًا بشؤوناتِ الأخلاقِ في الحياة العامَّةِ والمُعَامَلَةِ الحياتيَّةِ التي توَصَّلَ إليها
أبو الهُدَى من خلالِ تجارِبِهِ الطَّوِيلَةِ في مُعَامَلَةِ أَجْناسِ النَّاسِ من قلبِ عاصِمَةِ الخلافةِ على اختلافِ
طَبَقَاتِهِم وتَنوُّعِ مَشَارِبِهِم وأذْوَاقِهِم.

وثالثها: لا يَنفَكُ عن سابِقِيهِ إلا أَنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بما كان يَلْحَظُهُ أبو الهُدَى من فسادٍ استشرى
داخلَ خِيَمَةِ التَّصَوُّفِ فَصار يَنخَرُ جسدَ الأُمَّةِ بعدَ ما كان غرضُهُ إِصْلَاحَ أَفْرَادِهَا ومُجْتَمَعَاتِهَا، فانبَرى

⁸³⁵ منقوشاتٍ مُرْتَبَاتٍ بالحُسْنِ البديع، يُنْظَرُ: ابنُ دُرَيْدٍ، "منمن"، 224/1.

⁸³⁶ رأيتُ، يُنْظَرُ: الجوهري، "شيم"، 1963/5.

⁸³⁷ د.ر.ت، 201؛ والجوى هنا تطاولَ مَرَضُ الحُبِّ والعشق، يُنْظَرُ: ابنُ دُرَيْدٍ، "جوي"، 499/1.

أبو الهدى في شعره يُرشدُ إلى جوهرِ التَّصَوُّفِ وبيِّنُ زيفَ مُدَّعِيهِ، ويمكنُ القولُ: إِنَّهُ نقدٌ للتَّصَوُّفِ وأفرادِهِ الموجودين في زمانِهِ، مطويٌّ بين ثناياه الإرشادُ إلى التَّصَوُّفِ الحقيقيِّ.

أ المعاملة الخاصَّة

وهي التي يُعنى بها ما أوردَهُ في شعره الوعظيِّ من نصائحٍ تُصلِحُ علاقةَ العبدِ برَبِّهِ، ويُعدُّ الأمرُ بالالتزام بالشرع الحنيفِ وبالتَّقوى -التي هي الانضباط بالأوامر الإلهيَّة واجتناب نواهيها- أوَّلَ العناصرِ التي أكَّدَ عليها في شعرِ النُّصحِ، ومن هذا القبيل قوله وقد استعمل طباق التَّضاد (حَطَّ/شالَ)، والإيجاز بالحذف (شالَ حملاً)، بعد أن جعل من تقوى الإله أسّاً لبناءِ الغُلا، الذي تُصدُّ به أثقالُ الحياة فتنزاح من على كواهلِ المُثَقَّلَةِ:

وَشَيْدَ بِالْتَّقَى رُكْنَ المعالي فكم حَطَّ التُّقى حملاً وشالاً⁸³⁸

وقوله حاضاً على التَّقِيْدِ بالحدودِ التي رَسَمَتها أناملُ الكتابِ والسُّنَّةِ وسارَ عليها السَّوادُ الأعظمُ من الأُمَّة، فهي مسلكُ الحقِّ وأهله:

واعمل بشرعِ المصطفى وبحكم ما هو في كتابِ الله من آياته
واهج مع الإجماع غيرَ مُفارقٍ طُرقاتِهِ فالحقُّ في طُرقاتِهِ⁸³⁹

ومن ذلك تذكيره بوسعِ رحمةِ الله وإرشاده لمُخاطَبِهِ إلى تركِ القنوطِ، وإلى تعليقِ الآمالِ بسَحَّاحِ فيضِ العطاءِ الإلهيِّ الذي يُدهِشُ العقولَ، وتَصغُرُ بطويلِ علوِّ تأثيرِهِ كلُّ النَّصائحِ والمواعِظِ

⁸³⁸ د.ر.ت، 203.

⁸³⁹ د.ت.ب، 13.

وتقصر، وتكادُ السِنَّةُ الوعظُ تخرسُ إذا نطقت أفلامُ نفتحته، وقد أشارَ إلى عظمَةِ هذا المنحِ الربانيِّ الرَّحمانِيَّ بأنَّه المنحُ الذي تشيَّب منه النَّواصي، لحيَرَتِها في شُؤناتِ تقديرِه، فقال في مزيَّةِ الرَّحمةِ الإلهيَّةِ:

وبسرٍّ من نَفْحَةِ الغيبِ تُغني عن فنونِ الوُعَاطِ والقُصَّاصِ
فاختصاصُ الرَّحمنِ للعبدِ بالرَّحْمَةِ مَنَحٌ تشيَّب منه النَّواصي⁸⁴⁰

حتى إذا ما انجلت صورةُ تلك الرَّحمةِ، انعطَفَ بمُخاطَبِهِ إلى ساحةِ الأملِ وإخلاصِ العملِ، والفرارِ من اللهِ إليه، ودَبَّ عن ذهنِ سامعِهِ ما يُراوِدُهُ من خيوطِ القنوطِ، لِيُعَلِّلَ له سببَ إحسانِ الظَّنِّ بالبابِ الإلهيِّ، بأنَّه ملجأُ العُصاةِ وملاذُ التَّائِهينَ، فقال:

فَتَحَقَّقْ بالصِّدْقِ خِلَّ ولازم بابَ رَبِّ الأربابِ بالإخلاصِ
واحسِنِ الظَّنَّ لا تُبارِحِ حِمَاهُ فحِمَاهُ حصنُ المُسيءِ العاصي⁸⁴¹

ويُلحِقُ بهذا -الأملِ في رحمةِ الله- من المعاني الدِّينيَّةِ التي أوردَها أبو الهُدَى في إرشادِهِ الشَّعريِّ ما دعا إليه من التَّفَكُّرِ في تدبيرِ الله لعالمِ الدُّنيا الذي يعيشُ فيه الإنسانُ، وضرورةُ أن يسوقَ الإنسانُ نفسه بسائِقِ الرَّجاءِ برَبِّ العالمينِ مشفوعًا بالخوفِ من بطشه وعقابه:

تَدَبَّرْ صنيعَ الله في الأمرِ إن دَجَا وَحَلَّكَ بين الخوفِ يا صاحِ والرَّجا
فكم مَغْرِبٍ غَلْغَالُهُ قامَ أسودًا بكرٍ فجاء الصُّبْحُ باللُّطفِ مُسرِّجًا⁸⁴²
وفي البيتِ الثَّاني تشبيهُ ضمنيٍّ، يُؤكِّدُ ما أرشَدَ إليه من ارتقابِ فَرجِ الله ورجاءِ غاراتِهِ عند ضيقِ الحِنَاقِ واشتدادِ الأَزِمَاتِ -الذي كَتَبَ عنه بالدُّجُوِّ واحتباكِ الظُّلْمَةِ-، فقد شبَّه ذلكَ بحالَةِ إرخاءِ الغروبِ

⁸⁴⁰ د.ر.ت، 147.

⁸⁴¹ د.ر.ت، 147.

⁸⁴² د.ر.ح، 15.

سدول ظلام الليل واختلاط سواد الكروب، فما يلبث الصبح حتى يُشرق بأنوار اللطف الإلهي التي جعلها مُسرحةً لقنديل الصبح - من طريق الاستعارة المكنية -.

ومما أشار إليه في شعره الوعظي نُصحه بأن يلزم الإنسان باب مولاه، وأن لا يُعلق بسواه أملاً، فالأمر بيده بدءاً وختمًا، وما رافق ذلك من حظه على القيام على قدم الطاعات في الليالي استمطاراً للفضل الإلهي، الذي تهب نوائمه في الأسحار، ويخلع الله فيها خلع القبول على عباده الأبرار، نحو قوله بعد أن صَوَّر شدة الأوقات العصبية إذا ما هي عَصَّت بناجها أبناء الزمان، فاستدعى لتوصيف ذلك المشهد الاستعارة المكنية (تَنْضَضُ 843 باس)، إذ استعار للبأس والشدة وصف الحياة النَّضاضة السامة التي تُحرِّك لسانها، ثم لم يُبق إلا على وصفها الملازم لها - وهو التَنْضَضُ -، وما الجامع بين العنصرين إلا الأذية واشتداد الإيلام، فهو يهيب بمخاطبه المنصوح إذا ما هو رأى إقبال شدة أو بأس أن يفزع إلى ربه مُنيباً آيئاً، مذيلاً العجز الأخير باستعارة تصريحية جعل فيها الفضل الإلهي بُردةً تنشرها الليالي والأسحار على من وقف بباب العطاء الإلهي قائماً في جوف الدياجي:

وارجع لربك مُعرضاً عن غيره إن مسَّ كربٌ أو تَنْضَضَ باسٌ

وقم الدجا لله واغتم فضله فالفضل تنشر بُردة الأغلاس⁸⁴⁴

وينعطف بمخاطبه ناصحاً له بالإكثار من ذكر ربه ليتنور قلبه بنور الإيمان، ويشبه الذكر بالسراج الذي يستضيء به الذاكرون إذا ما احتلكت عليهم مُدهمات الحياة فيكون مُنقذاً لهم من مصارع الغفلة والتيه عن الصراط السوي، ويُلمح تقييده لهذا الذكر بزينة الإخلاص لوجه المذكور جلّ جلاله، وبهذا يحصل الرضاء والسُرور والأنس بالخالق في الوقت الذي ينفك عن الإنسان أقرب المخلوقين إليه

⁸⁴³ تحركت الخطوب واشتدت، وأصله من التَنْضَضَة وهي تحريك الحية للسانها، يُنظر: الجوهري، "نضض"، 1108/3.

⁸⁴⁴ د.ت.ب، 57؛ والأغلاس جمع غلس وهي الظلمة التي تكون آخر الليل، يُنظر: أحمد مختار، "غلس"، 1632/2.

ويتركوه وحيداً؛ وفي نُصَحِهِ يُلَحَظُ كَيْفَ اسْتَحْدَمَ أَسْلُوبَ الْإِقْنَاعِ مَعَ الْمُخَاطَبِ لَمَّا بَيَّنَّ لَهُ فَضِيلَةَ الدِّكْرِ فَقَالَ:

نَوَّرَ بِذِكْرِ اللَّهِ قَلْبَكَ مُخْلِصًا فَالذِّكْرُ مِنْهُ لِأَهْلِهِ نِبْرَاسُ
وَأَنْسَ بِرَبِّكَ رَاضِيًا بِجَنَابِهِ إِنْ فَاتَكَ الْخِلَافُ وَالْجُلَاسُ⁸⁴⁵

وَيَتَّضِحُ مِمَّا سَبَقَ أَنَّ نُصَحَ أَبِي الْهَدَى فِي شَعْرِهِ الْوَعْظِيِّ الْمُنْدَرَجِ تَحْتَ الْإِرْشَادِ فِي الْمَعَامِلَةِ الْخَاصَّةِ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ شَمَلَ التَّذْكِيرَ بِالْإِلْتِزَامِ بِالشَّرِيعَةِ وَالتَّقْوَى وَالرِّضَا بِأَقْدَارِ اللَّهِ وَتَعْلِيقَ الْأَمَالِ كُلِّهَا بِفَسِيحِ فَضْلِهِ وَارْتِقَابِ الْفَرْجِ وَتَحْوِيلِ الْأَحْوَالِ إِلَى أَحْسَنِهَا، إِلَى جَانِبِ تَبَشِيرِهِ بِوَسَائِعِ رَحْمَةِ اللَّهِ وَتَذْكِيرِهِ بِوُجُوبِ التَّعَرُّضِ لِنَفَحَاتِهَا بِالْقِيَامِ فِي الْأَسْحَارِ وَمُلَازِمَةِ الْأَذْكَارِ.

ب المعاملة العامة

وَيُقْصَدُ بِهَا مَا أوردَهُ فِي شَعْرِهِ الْوَعْظِيِّ مِنْ إِرْشَادَاتٍ أَخْلَاقِيَّةٍ تَضْبِطُ مِيزَانَ عِلَاقَةِ الْإِنْسَانِ بِالْآخَرِينَ وَفَقَ مَا ارْتَضَتْهُ الْمَرْوَّةُ وَالشَّرِيعَةُ الْغَرَاءُ، لِيَمُزَّجَ أَبُو الْهَدَى فِي هَذِهِ النَّصَائِحِ بَيْنَ خَبَرِيَّتِهِ فِي التَّعَامُلِ مَعَ النَّاسِ، وَبَيْنَ مَا قرَأَهُ مِمَّا تَوَافَقَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ فِي صَفَحَاتِ كُتُبِهِمْ.

وَيُلَمَّحُ فِي بَدَايَةِ هَذِهِ النَّصَائِحِ -إِذَا مَا تَدَرَّجَ النَّاطِرُ فِيهَا مِنَ الْكُلِّيَّاتِ إِلَى الْجُزْئِيَّاتِ- إِرْشَادُهُ إِلَى أَنَّ يَصْطَفَى الْإِنْسَانُ فِي صَفُوفِ حَزْبِ الْحَقِّ، وَبِنَبَذِ الْبَاطِلِ وَأَهْلَهُ، وَلَكِي يُقْنَعَ الْمُخَاطَبُ الْمَنْصُوحُ فَقَدْ اسْتَعْمَلَ التَّشْبِيهَ الضَّمْنِيَّ لَتَنْجَلِيَ النَّصِيحَةُ فِي ذَهْنِهِ وَتَسْتَقَرَّ، فَشَبَّهَ الْحَقَّ وَحِزْبَهُ بِالنُّورِ وَأَضْدَادَهُمْ بِالظُّلُمَاتِ، فَقَالَ:

⁸⁴⁵ د.ت.ب، 56.

كُنْ عِنْدَ أَهْلِ الْحَقِّ وَالزَّمِّ حِزْبَهُمْ مَا بِالضِّيَاءِ عَلَى الظَّلَامِ قِيَاسٌ⁸⁴⁶

وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ قَوْلُهُ:

فاجعلَ الحقَّ طريقًا واستقمَ ليسَ يُعَلِّيَ اللهُ أَهْلَ الزُّورِ قَطُّ⁸⁴⁷

وإلى جانبِ هذا تأكيدُهُ في نُصَحِهِ على ضرورةِ إعمالِ العقلِ ليكونَ لِحَامًا لِشَطَحَاتِ النَّفْسِ وَأَهْوَائِهَا، حيثُ يقولُ مُستخدِمًا أسلوبَ الإطنابِ بالتَّكرارِ (العقل)، ومُحَلِّيًا له بالجناسِ (العقل/العقال):

واجعلَ نظامَ العقلِ تَهْجَكَ لِلْعَالَا فَالعقلُ لِلإنسانِ عَيْنُ عِقَالِهِ⁸⁴⁸

وَيَبْنِي عَنْ هَذَا كُتْلَهُ إِرْشَادُهُ إِلَى أَنْ يَفْهَمَ الْمُسْلِمَ وَاقِعَهُ الْمُحِيطَ بِهِ مِنْ خِلَالِ مُتَابَعَةِ أَهْلِ الرَّأْيِ الثَّاقِبِ فِي الْعِلْمِ بِشُؤْنَاتِ الزَّمَانِ وَسِيَاسَاتِهِ، وَعَدَمِ الانْجِرَافِ بِمَا تَسِيرُ فِيهِ الدَّهْمَاءُ مِنَ الْعَوَامِ وَالْجُهَّالِ، حيثُ يقولُ:

وَأَفْهَمُ شُؤُونََ الْعَصْرِ مِنْ عِلْمَائِهِ وَاحْذَرُ بِأَنْ تَلُويَ إِلَى جُهَّالِهِ⁸⁴⁹

وَمِنْ لُزُومِ حِزْبِ الْحَقِّ وَتَحْكِيمِ حِكْمَةِ الْعَقْلِ، يَنْتَقِلُ أَبُو الْهُدَى إِلَى ضَرُورَةِ مُعَامَلَةِ الْمُسْلِمِينَ فِيمَا بَيْنَهُم بِالنَّظَرِ الْعَادِلَةِ الَّتِي دَعَا إِلَيْهَا نَبِيُّ الْإِسْلَامِ بِقَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبٍ عَلَى عَجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا لِأَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ

⁸⁴⁶ د.ت.ب، 56.

⁸⁴⁷ د.ر.ب، 43.

⁸⁴⁸ د.ر.ت، 207.

⁸⁴⁹ د.ر.ت، 208.

إِلَّا بِالتَّقْوَى"،⁸⁵⁰ فيصوغ من هذا الحديث شعراً يؤكد فيه أن يربأ المسلمون بأنفسهم عن دنيا القومية والعرقية المقيتة، ويذكر بالقاسم المشترك بين جميع الشعوب على اختلاف ألسنتها وألوانها في جميع أصقاع الأرض، ألا وهو دين التوحيد والإسلام، حيث يقول مستعملاً الجنس الاشتقاقي (فِرَقٌ/فُرِقَتْ)، والطباق (شرق/غرب، الأعراب/الأعجام):

وسواءً في ساحة الدين عند الـ عارفين الأعراب والأعجام
فِرَقٌ فُرِقَتْ بشرٍ وغربٍ باختلافٍ والجامع الإسلام⁸⁵¹

ولا تقف تلك العدالة في النظرة الأخوية بين المسلمين فقط، بل إنها تقتضي رعاية حق الإنسانية في عدم احتقار الإنسان لأخيه الإنسان والتعدي عليه وظلمه، فتمّة رابط يربط بين البشر جميعهم وهو رابط الإنسانية التي تعود بهم إلى أصل واحد، إذ "النَّاسُ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ"،⁸⁵² ولذلك يتابع أبو الهادي في إرشاده مشيراً إلى هذه الحقيقة التي أودعها الله في نظام هذا الكون:

وارع حقاً للآدميين طراً ألزمتنا بذلك الأحكام
وافهم السر من نظام بديع جلّ مبدئه زانه الإنتظام⁸⁵³

وفي موضع آخر يُشيرُ بنصحهِ إلى طرح الكبير والنظر إلى السر الخلقى المودع من الخالق في خلائقه إذ "الخلق عيال الله"،⁸⁵⁴ فيقول:

⁸⁵⁰ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، شُعَبُ الإيمان، إعداد: عبد العلي حامد، (الرياض: مكتبة الرشد، 1423هـ/2003م)، 132/7، (رقم 4774).

⁸⁵¹ د.ر.ت، 230.

⁸⁵² البيهقي، الشُعَب، 125/7، (رقم 4764).

⁸⁵³ د.ر.ت، 230.

⁸⁵⁴ البيهقي، الشُعَب، 521/9، (رقم 7045).

وافطن لنظم الخلق وازع كرامة الـ خلاق متحيفها لمخلوقاته⁸⁵⁵

ويُنَادِي بِحَسَنِ الظَّنِّ فِي كُلِّ المخلوقين من عبادِ الله، وينصَحُ بمعامَلَتِهِمْ على ظواهرِهِمْ وأن تُوكَلِ سرائِرُ أهلِ العداوات إلى عالم السرائِرِ النَّاقِدِ البصير:

واصلح ضميرك للعبادِ جميعهم وكلِ العدوِّ لناقدٍ لم يغفل⁸⁵⁶

وإذ لم يزل الكلامُ على الكلِّياتِ العامَّةِ التي أرشدَ إليها ناصِحًا في شعره الوعظيِّ، فإنَّ مما يُضَمُّ إليها دعوتهُ لحُسْنِ الأخلاقِ عمومًا دونما أيِّ تفصيل، كقوله وقد شبَّه -تشبيهاً بليغاً- حياةَ المرءِ بالقِصَّةِ ونصَّحَهُ بأن يجعلَ من حُسْنِ أخلاقِهِ وفعاليهِ في مسرحِ الحياةِ أحداثًا لها، حيث يقول:

أحبيبَ قلبي والمحبةُ لم تزل تُعطي الحبيبَ مكانةً ومقامًا

هذي الحياةُ حكايةٌ فاجعل لها من طيبِ الصَّيتِ الكريمِ نظامًا⁸⁵⁷

وتارةً ينصَحُ بكنزِ ثروةِ الأخلاقِ قبل ثروةِ الأموال فيقول:

أجلْ تُعلي الخلالُ⁸⁵⁸ المرءَ قدرًا فقبل الثَّروةِ اكتسب الخلالا⁸⁵⁹

ويُلَمِّحُ هنا تَلَطُّفُهُ في نُصَحِهِ لمنصوحِهِ المُخاطَبَ، عبر مناداتِهِ بأداةِ نداءِ القريبِ (أ) ويزيدُ على هذا النِّداءِ بما يُفيدُ حُبَّهُ للمُخاطَبِ (حبيبي)، وكأنَّه قد اقتربَ من قلبِهِ فراحَ يُدنيه ويهمسُ في روعِهِ مُتَلَطِّفًا

⁸⁵⁵ د.ت.ب، 14.

⁸⁵⁶ د.ت.ب، 85.

⁸⁵⁷ د.ت.ب، 96.

⁸⁵⁸ جمعٌ واحدُه الحَلَّةُ وهي الحَصْلَةُ، يُنْظَرُ: الجوهري، "خلل"، 1687/4.

⁸⁵⁹ د.ت.ب، 14.

به، ليكون بذلك خطابُ إرشادٍ الوعظيِّ أرجى في أن تُحمَلَ هذه الإرشادات على محملِ الجدِّ وتُنقَلِ إلى حَيِّزِ التَّنْفِيزِ؛ وهذا التَّلَطُّفُ بالمنصوح في خطابه لم يكن فقط في هذا الموضع، فقد سارَ على منواله في جميع شعره الوعظيِّ الإرشاديِّ، ولربما استعملَ كلماتٍ أخرى تنضمُّ إلى هذه المذكورة آنفاً في التَّلَطُّفِ بالمنصوح والرِّفقِ به، مثل مُناداته لهُ: "يا حبيبي" "أي حبيبي" ⁸⁶⁰ "ابن الكرام" ⁸⁶¹ "يا ابن وُدِّي" ⁸⁶² "خَلِّي" ⁸⁶³ "أُحَيِّ". ⁸⁶⁴

أمَّا إذا ما التُّفِتَ إلى جُزْئِيَّاتِ هذا الإرشاد الذي طُوِيَ في ثنايا شعره الوعظيِّ، فسيظهرُ أنَّها قد تنوَّعت وتَشَعَّبَت، فمنها ما كان يدعو إلى مكارِمِ الأخلاقِ الظَّاهِرَةِ التي تواطأ أهلُ المروءاتِ على الدَّعْوَةِ إليها وتركِيَّةِ سيرةِ المُتَحَلِّينَ بها من كَرَمٍ وشجاعةٍ وحِلْمٍ وصَبْرٍ وإلى ما سوى ذلك من الشَّيَمِ والشَّمَائِلِ الطَّيِّبَةِ، وَضُمَّ إلى مُقَابِلِ ذلك كُلِّهِ النَّهْيُ عما يَشِينُ المرءَ من خوارِمِ المروءةِ وشنائعِ الأخلاقِ، ولعلَّ من أكملِ الأمثلةِ على هذا القبيلِ قولُهُ حاديّاً بِسامِعِهِ للسَّعِيِّ إلى ذرَّةِ مكارِمِ الأخلاقِ:

واحرصْ ببذلِ المالِ مجدَّكَ فهو في لَمَّاعٍ وجهِ المجدِ نُقْطَةٌ خالِه
وأفْضُ جميلِكَ فالسِّيَادَةُ للفتى بجميلِهِ الفَيَّاضِ لا بِجَمَالِهِ
وتَوَقَّ شَوْمَ العَدْرِ لا تَعْمَلْ بِهِ فالعَدْرُ يُدْمِي أَهْلَهُ بِنِصَالِهِ
والقِ الأذى مُتَغَايِياً فأخو المروءةِ لم يكن يُجْري الأذى بِخِيَالِهِ ⁸⁶⁵

⁸⁶⁰ يُنْظَرُ: د.ت.ب، 72، 73.

⁸⁶¹ يُنْظَرُ: د.ت.ب، 105.

⁸⁶² يُنْظَرُ: د.ر.ت، 147.

⁸⁶³ يُنْظَرُ: د.ت.ب، 147.

⁸⁶⁴ يُنْظَرُ: د.ر.ت، 203.

⁸⁶⁵ د.ر.ت، 207.

وهذه النصائح تنجلي بصورةً بيانيةً قد تجعل من الكلام ينغرز في أعماق السامع لينهض للعمل بها، إذ استعار الشاعر -استعارةً مكنيةً مرشحةً- للمجد وصف الإنسان الذي يُرعى ويحمى بحارس الكرم والجود، ثم عرّج جاعلاً هذا الجود والكرم زينةً تزين وجه إنسان المجد وتزيده إشراقاً واستنارةً، وذلك عبر جلبه للتشبيه البليغ ليقرن به الكرم بنقطة الخال إذ كلاهما مما يزين الوجه ويكمل بهاءه؛ ثم أشار إلى فعل الجمال ومدّ الأيدي لفعل الخيرات وجعل منها حقيقة السيادة، فالمرء بمخبره لا بمنظره؛ ولما نهي عن خلُق الغدر أتى بفعل التوقي ليبالغ في نهيهِ عن هذا الخُلُق، كما استعار له -استعارةً مكنيةً مرشحةً- وصف القوس ذات السهام الدامية التي ترتد على الغادر فتصيبه بمقتل، وذلك إيغالاً منه في تشنيع صورة الغدر في ذهن المخاطب؛ ثم دعا إلى الصبر واحتمال الأذى وعدم مُقابَلته بمثله؛ وتجدد الإشارة إلى أن هذا النصيح من الشاعر في دعوته إلى حميد الأخلاق ونهيهِ عن ذميمة -قد تكرر مراراً-،⁸⁶⁶ ولكن ما يسترعي الانتباه أن نصحه قد امتد ليشمل تقويم شخصية المخاطب، فكأنه يأخذ بيده فيعلمه السباحة في لجة بحر الحياة، أو يصوغ له بإرشاداته فُلْكا من أساليب التعامل بما يكشف له سرّ النجاح في دُنياه ويضمن له النجاة في أخراه؛ فمن ذلك قوله:

وإذا نطقت فكن حكيماً كيّساً فكمنُ حالِ المرءِ في كلماتِهِ
واقبض زمامك إن جلستَ بمجلسٍ لا ترتفع بالحدِّ عن مِرقاتِهِ
فالمرءُ في حركاتِهِ معروفةٌ أعراقُ نَبْعَتِهِ وفي سَكَناتِهِ
ولربّ ذي عقلٍ أعزَّ مُجالِساً وأهانهُ للرَّمشِ من لَحْظَاتِهِ⁸⁶⁷

⁸⁶⁶ يُنظر: د.ت.ب، 73، 84؛ د.ر.ت، 207.

⁸⁶⁷ د.ر.ب، 14.

فنصحه في هذه الأبيات يتعلّق بتقويم أسلوب الحياة، فهو يجلو أمام المُخاطَب صورة الشخصية التي تُتخَذُ خصائصها في التّعامل والحركات والسّكنات، فيُرشدُه إلى اختيار طيّب الكلام، ويُعلِّل ذلك بأنَّ حقيقة أيِّ إنسانٍ إنّما تُظهرها ألفاظُه ومعانيه، إن حَسَنَه فهو الحَسَنُ، والعكس بالعكس، ثم ينصحه بضبط نفسه وبأن يتنبّه إلى حركاته وسكناته وكلماته من أن تتجاوز الحدود في مجالس الرجال ونواديهم، ويهيب بمُخاطبه في التّدقيق على سمّيه الذي يتعامل به مع الآخرين، فعلى سبيل المثال كم من عاقل قرّب آخر وأجلسه في مكانٍ رفيعٍ لكنّه نزل به في دركات الإهانة بنظرة شزرٍ أو اشمئزازٍ من طرف عينه، ثم انصرف في نصحه مُحترِّراً ليقول:

وَابْهَجْ وَلَا تَقْعُدْ ثَقِيلَ الطَّبَعِ فِي دَسْتِ الْغُرُورِ وَخَلِّ أَهْلَ هِنَاتِهِ⁸⁶⁸

فالانضباط الذي حَضَّ عليه في نصحه قد يُؤدّي بالإنسان إلى مهاوي الانقباض عن الآخرين وطرح بسط الوجه والبشر، فلذلك حذّر مما أسماه "ثِقَلُ الطَّبَعِ" و"الغُرور"، وقد تَكَرَّرَتْ ذَاتُ النَّصِيحَةِ في موضعٍ آخر زَيْنَه بالاعتباس، وحَضَّ فيه على التّواضع والبشر، مُستعيراً له وصف اللباس، ومُكَنِّياً عن الرّسول الأكرم "ربّ الكساء"، فإذا كان الله قد عاتبه لما لم يرَ الأعمى في وجهه البشر، فحريّ بالسّامع أن يتحلّى به؛ يقول في ذلك:

وَلِلتَّوَّاضِعِ انْتِهَاضِ وَالْبِشْرِ حُذْهِ كَالْكِسَاءِ
يَزِينُكَ الْبِشْرُ إِذَا تَخَذْتَ مِنْهُ مَلْبَسًا
قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَبِّ الْكِسَاءِ (عَبَسَ)⁸⁶⁹

⁸⁶⁸ د.ر.ب، 14؛ والهنات جمع مفردة هنة، ويُقصَدُ بها الشُّرُور والفَسَاد، يُنظَر: أحمد مختار، "هنو"، 2371/3.

⁸⁶⁹ الصِّيَادِي، نَوَائِجُ الْحِكَم، 27؛ والاعتباس الأخير من قوله تعالى: "عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى"، عبس، 1/80، 2.

وإذا تُعَدِّي ما يتعلّق بالإرشاد الأخلاقيّ في جُزئيّاتِ شعره الوعظيّ، فسُتلمَح النَّصائحُ العامّةُ التي تتناول علاقة الإنسان بَمَن حوله؛ فمن هذا القبيل ما نصَحَ به من الرّواج بالمرأة الصّالحة ذات المحتدِّ الأصيل حيثُ قال:

واقْتَنِ الطَّيِّبَاتِ إِنْ رُمْتَ يَوْمًا لَكَ مِنْ زُمْرَةِ النِّسَاءِ عِيَالًا

رُبَّ زَاكِ الْأَعْمَامِ أَرَدَاهُ خَالٌ فانتخب للأبناء يا خُلَّ خالاً⁸⁷⁰

فهو يُردِفُ نُصحَهُ بما يُعلِّله ويبيِّن سبب الإرشاد إليه، فإرشاده إلى اختيار المرأة الصّالحة الطّيبة المَنبَت، علَّله بما قد ثَبَتَ عنده بتجربته أو قد يكون من مُطالعاته من تأثير الطّباع على المخلوقات وتأثير الحَوَلة على الإنسان، فالأخلاق الطّبيعيّة تصلُّ من السّلف إلى الخلف إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشرًّا، إذ "النّاسُ مَعَادُنُ والعِرْقُ دَسَاسٌ"⁸⁷¹ وقد تضافرت العربُ على تأييد ذلك كقول الزّبير بن العوّام (ت. 36هـ/656م): "مَن أراد أن يتزوَّج امرأةً فليَنظر إلى أبيها وأخيها، فإنّها تأتيه بأحدهما"⁸⁷²، وقال قائلُها:

إذا كان الطِّبَاغُ طِباغٌ سوءٍ فليس بمُصلِحٍ طَبَعًا أديبٌ⁸⁷³

فالطِّبَاغُ تسري إلى الولدِ فثُرديه أو تُعليه؛ وتُعدُّ مسألة الطِّبَاغ من الأمور التي نالت قِسْطًا وافرًا من جُزئيّات شعر أبي الهُدَى الوعظيّ الإرشاديّ، فكثيرًا ما كان ينصَحُ بمُجانبة الرَّذيل الطِّبَاغ ولئيمها، فمن هذا قوله وقد ميَّزَ بين شريف الأصل والطّبع وضدّه من رذيلهما:

⁸⁷⁰ د.ر.ت، 205.

⁸⁷¹ البيهقي، الشَّعب، 349/13، (رقم 10469).

⁸⁷² الزّبيريّ، نَسَب قريش، 239.

⁸⁷³ أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، جمهرة الأمثال، تحقيق: عبد المجيد قطامش-محمّد أبو الفضل إبراهيم، (بيروت: دار الجليل، 1408هـ/1988م)، 30/2.

كم عديم من الحُطَامِ فخيم الـ عرق لم تَخْطِفْ هواهُ الحُطَامُ

وملِّي دنيّ عرقٍ لِفلسٍ يُجْهِدُ العزمَ كُلُّهُ إِبْرَاهِمُ⁸⁷⁴

فهو يُخْبِرُ عن أخلاقٍ شريفِ الأصلِ والطِّبَاعِ الذي لم تُعَشِّ بِصيرتِهِ بهارجُ الدُّنيا وزخارفُها، إذ هو - رغم فقرهِ المُدَقِّعِ- من المُحَالِ أن يتلجَّلَجَ في صدرِهِ انبهارٌ بزِينَتِها يدفعُهُ إلى السُّقُوطِ من بُرجِ الشَّرَفِ إلى مَهاوي السُّكْرِ واللُّهائِ وراءَ سَرَابِ جمعِ حُطَامِها؛ وبالمُقابِلِ فإنَّ الرَّذِيلَ الطِّبَاعِ والأصلِ يُرى رغمَ غِناءِ لاهِثًا وراءَ أدنى بَهِجٍ من بهارجِ حُطَامِ الدُّنيا -ولو كان فِلَسًا واحدًا- يُعْمَلُ قوَى عزمِهِ جاهدًا للوصولِ إليه، وهو بحالَتِهِ هذه يصيرُ مَدْعَاةً لِلسَّامِ بِمَلُّهُ كُلِّ مَنْ حوَلَهُ لِرِداءَةِ أخلاقِهِ؛ ومن أجلِ هذا انعطَفَ أبو الهُدَى بالمَسامِعِ إلى ضرورةِ مُقاطَعَةِ دَنِيِّ الطِّبَاعِ، فقال:

وَإِذَا قاطَعَ الكَرِيمُ لئيمَ الطِّ طَبَعَ عن غيرِ مُوجِبٍ لا يُلَامُ

إِنَّمَا الجَدْعُ كَيْفَمَا هَزَّ جَدْعٌ يا أَخا اللَّبِّ والحُسَامُ حُسَامُ⁸⁷⁵

وقد أتى بالتَّشْبِيهِ الضَّمْنِيّ لتبدو حَقِيقَةُ ما أَرادَهُ من نَبذِ دَنِيِّ الطِّبَاعِ والأصلِ، فجعلَ من اللَّئيمِ جَدْعَ خَشَبٍ مُحالٌ أن يَنْقَلِبَ سَيْفًا بَتَّارًا في حروبِ الحِياةِ وإن أخذَ صُورَةَ السَّيْفِ، بينما يبقى السَّيْفُ الحَقِيقِيُّ الحَدِيدِيُّ على أَصلِهِ مُهَنَّدًا باتِّرا في ميادينِ مُواجَهَةِ الحِياةِ؛ ويرى أبو الهُدَى أَنَّ دَنِيَّ الطِّبَاعِ غيرُ مُسْتَحَقٍّ لأَيِّ مَكْرَمَةٍ، إذ دَناءَةُ الطَّبَعِ تجعلُها حرامًّا عليه، فيقول:

وَفَتًى أَقامَ على دَناءَةِ طَبَعِهِ تَغْدُو عليه المَكْرُماتُ حَرَامًا⁸⁷⁶

⁸⁷⁴ د.ر.ت، 230.

⁸⁷⁵ د.ر.ت، 230.

⁸⁷⁶ د.ت.ب، 96.

ولم يكتفِ أبو الهُدَى بالتدقيقِ على أهميّة شَرَفِ المحتدِ، فقد عرَّجَ على ما يُغفله الكثيرُ من زَكَتِ أصولهم وشَرُفَتِ أنسابهم، حيثُ إنَّ فعائلهم قَعَدَت بهم في محطَّاتِ العجزِ عن اللُّحوقِ بِدَرَجِ مكارمِ أسلافهم، فاستغنوا بمُفاخَرَةِ الخلقِ بمناقبِ آبائهم وأجدادهم دون أن يُطالبوا أنفُسَهُم بحملِها على نَهْجِهِم والسَّيرِ على مسيرَتِهِم، فقال أبو الهُدَى مُحاطِبًا سامعَهُ وناصِحًا له في هذا الخصوص:

وَإِذَا أَتَاكَ فَنَى بِجَدِّ قُلْ لَهُ قَالَ النَّبِيُّ لِبَنَتِهِ الزَّهْرَا (اعملي)
وَكُنِ الْعِصَامِيَّ⁸⁷⁷ الَّذِي لَمْ يُقْصِهِ عَنْ مَذْهَبِ الْفَضْلَاءِ عَظُمَ قَدْ بُلِيَ
وَإِذَا عَلِقْتَ بِنَسَبَةٍ قُرْشِيَّةٍ فَاحْمِلْ لِصِحَّتِهَا طِبَاعَ الْكُفْلِ
فَدَلِيلُ أَصْلِ الْمَرْءِ حَاصِلُ فَعْلِهِ وَالْكُلُّ مِنْ حَوْأٍ وَآدَمَ فَاعْقِلِ⁸⁷⁸

فهو ينهضُ بِهَمَّةِ السَّامِعِ أَنْ يَتَعَدَّى نَفْعُهُ إِلَى تَنْبِيهِ الْخَلْقِ أَيْضًا، فَضْلًا عَنْ نَفْسِهِ الَّتِي بَيْنَ جَنْبِيهِ، فيقولُ لَهُ إِذَا مَا أَتَاكَ أَحَدٌ بِنَسَبٍ شَرِيفٍ فَارْبَأْ بِهِ أَنْ يَقِفَ مَجْدُهُ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ، فَأَشْرَفُ الْخَلْقِ النَّبِيُّ الْأَكْرَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِبُضْعَتِهِ الزَّهْرَاءَ رَضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهَا: "اعملي لله خيرًا فَإِنِّي لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ"⁸⁷⁹ وَيُتَابِعُ فِي نُصْحِهِ أَنْ يَكُونَ السَّامِعُ فَعَالًا لَا قَوْلًا حُجِبَ بِمَآثِرِ أَجْدَادِهِ الَّذِينَ بَلَّيَتْ عِظَامُهُمْ فِي التُّرَابِ، فَإِذَا مَا كَانَ الرَّجُلُ شَرِيفًا يَنْتَمِي بِنَسَبِهِ إِلَى الْأُرُومَةِ الْقُرْشِيَّةِ الْهَاشِمِيَّةِ فَعَلِيهِ أَنْ يُتِمَّمَ الشَّرَفَ بِحُسْنِ الْفِعَالِ وَجَمِيلِ الْخِلَالِ، إِذْ أَصَالَةُ الْمَرْءِ إِنَّمَا يُظْهَرُ كُنْهَ حَقِيقَتِهَا طَيْبُ الْخِصَالِ وَصَالِحُ الْأَعْمَالِ، وَإِلَّا فَسَيَكُونُ الْمَرْءُ سُبَّةً عَلَى نَسَبِهِ وَأَهْلِهِ وَأَسْلَافِهِ، إِذْ لَا فَرْقَ بَيْنَ النَّاسِ - فَالْكُلُّ ذُووُ أَصْلٍ وَاحِدٍ - إِلَّا بِمَا انطَوَتْ عَلَيْهِ السَّرِيرَةُ مِنَ الْإِيمَانِ وَصَدَّقَتْهُ السَّيْرَةُ مِنْ زَكَاةِ الْجَمِيلِ وَالْإِحْسَانِ؛

⁸⁷⁷ إشارة منه إلى المثل القائل: "كُنْ عِصَامِيًّا وَلَا تَكُنْ عِظَامِيًّا" أي عليك بالفعال الحسنة ودَعَاكَ مِنَ الْإِفْتَخَارِ بِعِظَامِ الْأَجْدَادِ، يُنْظَرُ: الْمِيدَانِي،

الأمثال، 331/2.

⁸⁷⁸ د.ت.ب، 85.

⁸⁷⁹ الهيثمي، مجمع الزوائد، 49/1، (رقم 147).

وَيُكْرَرُ هذا المعنى مرّةً أخرى في موضعٍ آخر فيقول حاثّاً على حُسْنِ السَّيرَةِ التي تنشرُ حَقِيقَةَ أَصْلِ المرءِ:

زَكَ الْأَصُولَ بِكُلِّ فَعْلٍ طَيِّبٍ منشورُ أَصْلِ المرءِ طَيُّ فَعَالِهِ⁸⁸⁰

ومن الجُزْئِيَّاتِ التي طَرَقَهَا في إرشادهِ الوعْظِيّ ما يَتَعَلَّقُ بِمَفْهُومِ الصَّدِيقِ والصَّدَاقَةِ، حيثُ أَرشَدَ السَّامِعَ إلى انتقاءِ الْأَخْيَارِ الْكَرَامِ صَحْبًا وَرِفَاقًا، وَالتَّفَتُّ مَرَّةً أُخْرَى إلى قَضِيَّةِ الْأَصْلِ الْكَرِيمِ وَالْفِعَالِ الْجَمِيلَةِ التي يَجِبُ أَنْ تَتَوَفَّرَ فِي نَوْعِيَّةِ الْأَصْدِقَاءِ، فقال:

وَاصْحَبْ شَرِيفَ الْأَصْلِ مَصْحُوبَ الثُّقَى فالمرءُ مُنْجَذِبٌ إلى أَشْكَالِهِ
وَاجْعَلْ صَدِيقَكَ مَنْ إِذَا الزَّمَنُ اعْتَدَى يَأْتِيكَ بُرٌّ يَمِينُهُ وَشِمَالُهُ⁸⁸¹

فَنَوْعِيَّةُ الْأَصْحَابِ الَّذِينَ أَرشَدَ إِلَيْهِمْ هُمُ الْأَشْرَافُ أَوَّلُو التَّقْوَى الَّذِينَ يُقْتَدَى بِفَعَالِهِمْ إِذَا مَا صُحِبُوا، وَأَمَّا الصَّدِيقُ فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ كَرِيمًا إِذَا مَا أَلَمَّتْ بِصَاحِبِهِ الْمُلَمَّاتُ وَأَزَمَاتُ الزَّمَانِ الْمَرِيعَةِ، فَتَفِيضُ عَلَى مَنْ صَادَقَهُ غِيوْتُ أَيَادِيهِ وَجَمَائِلُ فَعَالِهِ الَّتِي كَتَبَتْ عَنْهَا بِقَوْلِهِ (يَأْتِيكَ بُرٌّ يَمِينُهُ وَشِمَالُهُ)؛ فَإِذَا مَا حَظِيَ المرءُ بِأَحَدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَخْيَارِ فَإِنَّ أَبَا الْهُدَى قَدْ نَدَبَهُ إِلَى التَّمَسُّكِ بِأَذْيَالِهِ وَالتَّبَاعُدِ عَمَّنْ سِوَاهُ مِنَ الْأَضْدَادِ -الِلَّئَامِ-، حيثُ يَقُولُ:

تَمَسَّكَ بِالْكَرَامِ أُخَيٍّ وَاهْجُرْ لِنَافِ النَّاسِ وَاصْطَنِعِ الرِّجَالَ⁸⁸²

⁸⁸⁰ د.ر.ت، 207.

⁸⁸¹ د.ر.ت، 207.

⁸⁸² د.ر.ت، 202.

ويُلمَح في وعظ أبي الهُدَى الإرشاديّ انتهازُهُ بِهَمَّةِ المُخاطَبِ إلى نشرِ الفضائلِ وتصحيحِ المفاهيم، فقد مرَّ آنفًا كيفَ كان يهيبُ بِمُخاطَبِهِ أن يُصَحِّحَ فكرَ الأشرافِ المُتقاعسين بالمفاخرِ عن حميدِ الفِعال، وهو هنا في هذا الموضعِ يهيبُ به أن يجعلَ بِطانتَهُ الخاصَّةَ من الرِّجالِ الحقيقيِّين الكاملين أو أن يَصْطَنِعَهُمْ لِنَفْسِهِ بإحياءِ معاني الرُّجولَةِ وَبَيِّتِها فيهم، ليكونوا من كُملِ الرِّجالِ الذين أشارت إليهم لامُ التَّعريفِ الكمالِيَّةِ (الرِّجالا)، إذ ما الرِّجالُ في مفهومِ أبي الهُدَى أيِّ رجالٍ، بل هم مَن تحقَّقَ بالمكارِمِ وزينِ الشَّمائلِ، وقد يدلُّ على مفهومِهِ هذا ما قالَهُ في قصيدةٍ أُخرى تؤيِّدُ المعنى المذكورَ:

فانتقِ الحَيْرِينَ صحبًا وحاذِرْ أن ترى أكثرَ الرِّجالِ رجالًا⁸⁸³

ويبدو للنَّاظِرِ أنَّ الشَّاعِرَ لَمَّا كان قد اختطَّ لاختيارِ الصَّدِيقِ خطَّةً دَقِيقَةً فقد حملَتْهُ على أن يتَّخِذَ لمنصوبيهِ معيارًا دقيقًا في الحَذَرِ من أهلِ الزَّمانِ وتقلُّبِ أهوائِهِم، التي أدَّتْ إلى قِلَّةٍ مَن يُصَحِّبُ وَنُدْرَةٍ مَن يُصادَقُ، وكأنَّه يعودُ بمعياريهِ عبرَ ذاكرةِ الأيَّامِ إلى ما قاله الفقيه أبو إسحاق الشَّيرازي (ت. 476هـ/1083م):

سألتُ النَّاسَ عن خِلٍّ وفيٍّ فقالوا ما إلى هذا سبيلُ

تمسَّكْ إن ظفرتَ بوَدٍّ حرٍّ فإنَّ الحرَّ في الدُّنيا قليلُ⁸⁸⁴

فإذا كان الشَّيرازيُّ في زمانِهِ قد حَكى انعدامَ الخِلِّ الوفيِّ ونَزَلَ إلى رُتَبَةِ البَحْثِ عن حُرِّ يُصادَقُ فما وَجَدَ إلا القليلَ الذين راحَ يُنادي بالتَّمسُّكِ بأذيالِهِم ومُلازِمَةِ مَوَدَّتِهِم؛ فكيفَ بأبي الهُدَى الذي جاءَ بعَدَهُ بقرونٍ! إذ لا شَكَّ من أن يكونَ لَهُ شأنٌ آخَرُ في رحلةِ البَحْثِ عن الصَّدِيقِ الوفيِّ، وقد تُلمَحُ

⁸⁸³ د.ر.ت، 205.

⁸⁸⁴ السَّمْعاني، الأنساب، 174/1.

في طيِّ إرشاداته الشَّعْرِيَّةِ الوَعْظِيَّةِ، سطورٌ تحكي هذه التَّجَرِبَةُ البَحْثِيَّةُ الْمُضْنِيَّةُ فِي طَلَبِ الْوَفِيِّ مِنَ الْأَصْدِقَاءِ فِي زَمَانِهِ، حَيْثُ يَقُولُ أَبُو الْهَدَى بِلِسَانِ نَاقِدٍ نَقَدَ زَيْفَ مَعَادِنِ النَّاسِ وَاسْتَبَانَ ذَهَبَهَا الصِّرْفَ مِنْ بَهْرَجِهَا، مُضَمِّنًا نُصْحَهُ أَسْلُوبَ الْإِطْنَابِ بِالتَّكْرَارِ (الزَّمان):

النَّاسُ خِلَالُ الزَّمانِ وَلَمْ يَجِدْ أَنَا عَلَى رَغَمِ الزَّمانِ رَفِيقًا
أُمِّمْ تَوْثُوكَ لِلزَّمانِ وَرَبَّمَا جَعَلُوا رَحِيقَكَ لِلزَّمانِ حَرِيقًا
فَارْفُقْ بِنَفْسِكَ لَا تَكُنْ لَكَ خَادِعًا وَتَخَوُّضُ بِحَرًّا بِالْعِنَادِ عَمِيقًا⁸⁸⁵

وها هنا تبرزُ تجربته في رحلة البحث عن الرفيق، حيثُ وَجَدَ أَنَّ النَّاسَ إِنَّمَا هُمْ أَصْدِقَاءُ الْوَقْتِ وَالْحَاجَةِ، يَلْتَفُونَ حَوْلَ الشَّخْصِ لِمَآرِبٍ وَقَتِيَّةٍ، حَتَّى إِذَا مَا انْقَضَتْ تِلْكَ الْمَآرِبُ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نَاكِسِينَ مُنْكَرِينَ لِلْمُتَجَمِّلِ وَجَمِيلِهِ، وَيَا لَيْتَهُمْ اكْتَفَوْا بِصَمْتٍ أَوْ إِنْكَارٍ لِلْجَمِيلِ فَحَسَبَ، بَلْ إِنَّهُمْ يَرُدُّونَ الْإِحْسَانَ بِالْإِسَاءَةِ وَالْجَمِيلَ بِالْقَبِيحِ، حَيْثُ عَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ -مُسْتَعْمِلًا الْجِنَاسَ- بِرَدِّ الرَّحِيقِ بِالْحَرِيقِ، وَمِنْ أَجْلِ هَذَا فَقَدْ التَفَّتْ بِإِرْشَادِهِ إِلَى السَّامِعِ لِيَسْتَفِيدَ مِنْ تَجْرِبَتِهِ قَائِلًا لَهُ: احْذَرِ أَنْ تَغْتَرَّ بِمَنْ يُصَقِّقُ لَكَ مِنْ حَوْلِكَ وَلَا تَتَخَدَّعَ بِالْمَظَاهِرِ الْبَرَّاقَةِ فَتَغْرُقَ فِي بَحْرِ مِنَ الْأَوْهَامِ؛ وَإِذَا مَا كَانَ حَالُ الزَّمَنِ وَأَهْلِهِ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ فَعِنْدَ ذَلِكَ سَتَشْرَبُ النَّفْسُ الْمُتَلَفِّيَّةُ لِلنُّصْحِ بِمَسَامِعِهَا إِلَى الْحَلِّ الْأَنْجَحِ فِي التَّعَامُلِ مَعَهُمْ، فَعِنْدَئِذٍ يَطْرُحُ أَبُو الْهَدَى ذَلِكَ الْحَلَّ لِيَقُولَ نَاصِحًا:

قَلِّدْ أُولَى التَّقْوَى فَصَاحِبُهُمْ لَقَدْ يُرْجَى لَهُ تَقْلِيدُهُ تَحْقِيقًا
وَاضْمِرْ لِكُلِّ النَّاسِ خَيْرًا وَانْتَبِهْ لَا تَتَّخِذْ غَيْرَ الْكَرَامِ رَفِيقًا⁸⁸⁶

⁸⁸⁵ د.ر.ح، 12.

⁸⁸⁶ د.ر.ح، 13.

فهو ينصح بما يراه حلاً عنده، وهو تطهير ساحة القلب بإضمام الخير لجميع الناس، مع أخذ منتهى الحذر، والتركيز مرة أخرى على صُحبة كرام الناس وأشرافهم، وبذلك تبدو النصائح وكأنها تتدرج نزولاً عبر العصور، ففي عصر الشيرازي نُزل من مرتبة الخل الوفي إلى الحر، وبالوصول إلى عصر أبي الهدي نُزل من مرتبة الحر إلى مرتبة الرجل ذي الأصل الكريم، وفي البيت الأول تكرار للمعنى الذي ورد على لسان أستاذه الرّؤاس لما قال:

فَقَلِّدِ الْقَوْمَ يَا هَذَا بِسِيرَتِهِمْ فَكَمْ وَكَمْ جَرَّ لِلتَّقْلِيدِ تَحْقِيقُ⁸⁸⁷

إذ كلاهما يرى تقليد المتقين في أخلاقهم وأحوالهم وحركاتهم وسكناتهم مدعاة تجرّ إلى التحقّق بما كانوا عليه حتى يكون سجيّة في الإنسان، فإنّما "العلم بالتعلّم والحلم بالتحلّم"،⁸⁸⁸ وبذلك نطق الذي لا ينطق عن الهوى عليه السلام.

ومن النصّح بصُحبة الكرام، ينتقل أبو الهدي ليرشد بنصحه إلى كيفية مُعاملة الطّغام من الدّهماء والرّويضة، فلا يرى الهوادة مسلّكاً في مُجابهتهم وقرايعهم، بل يسمو بالسّامع المُخاطب لكي يُجرّد سيف عزمه وعزيمته في قرايعهم، ومن هذه الشّاكلة قوله وقد قيّد بالشرع الحنيف الانتصار حتى يكون به وله:

وَإِذَا حُورِبْتَ فَابْزُ أَسَدًا وَاحْذَرِ الْجَبَّارَ أَنْ يَسْأَلَكَ
حَكِّمِ الشَّرْعَ بِمَا تَقْضِي بِهِ وَاجْعَلْنِ مَذْهَبَهُ مَذْهَبَكَ⁸⁸⁹

⁸⁸⁷ الرّؤاس، ديوان مشكاة اليقين، 99.

⁸⁸⁸ البيهقي، الشعب، 13/236، (رقم 10254).

⁸⁸⁹ د.ت.ب، 73.

وتارةً يُرى قد رَجَحَ بنصِحه وجهًا آخر من وجوه الانتصار وحثَّ عليه، وهو مُعاملُهُ الخصم بالارتفاع عنه بالأخلاق العليَّة، بعد أن استعار لها وصفَ القوسِ الضَّاربةِ لسهامِها في كبِدِ الخصم -من طريق الاستعارة التَّصريحيَّة-، ثم أشار إلى تحيُّنِ السَّاعةِ المُثلى للثَّارِ من الخائنين، فقال:

وَإِذَا رَأَيْتَ الْخَصْمَ فَوْقَ نَحْوِهِ مِنْ قَوْسٍ عَالِيَةِ الطَّبَاعِ سِهَامًا
وَاسْهَرِ لِأَخْذِ الثَّارِ مِنْ مُتَلَصِّصٍ خَبٍ بِأَثْوَابِ الْخِيَانَةِ قَامَا⁸⁹⁰

ورغمَ تَلَبُّدِ سماءِ الزَّمانِ بغيومِ الغدرِ والتَّلَصُّصِ ودعوةِ الشَّاعرِ إلى وجوبِ التَّيقُّظِ وأخذِ الحَذَرِ من النَّاسِ، فَإِنَّ هَذَا لَمْ يُنْسِهْ إرشادَ السَّامِعِ إلى مَدِّ يدِ العونِ والتَّنْفِيعِ للنَّاسِ أَجمعين، على قدرِ الإمكان وجهِدِ الطَّاقَةَ، وغلُظِ طَرَفِ العينِ عما سوى الكمالِ، حيثُ يقول:

صِرْ لِلوَرَى إِنْ سَاعَدَ الْإِمْكَانُ نَفْعًا شَامِلًا وَتَسَوَّدُ فِي أَبْطَالِهِ⁸⁹¹

ويحضُّ مرَّةً أخرى على فعلِ الجميلِ، واصطناعِ البرِّ الذي كَتَبَ عَنْهُ بِالْأَيَادِي، فأصلُ المعاملةِ لَيْسَتْ مع النَّاسِ وَإِنَّمَا هِيَ مع رَبِّ النَّاسِ، وهو ما دَفَعَهُ إلى تشبيهِ أفعالِ المعروفِ بالودائعِ التي تُسْتَوْدَعُ عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَلَا بَدَّ لِلودائعِ مِنْ أَنْ تُرَدَّ بِفَيْضٍ مِنَ الْإِكْرَامَاتِ الْإِلَهِيَّةِ مِنَ الْمودَعِ تَعَالَى الَّذِي لَا تَضِيعُ عِنْدَهُ الْودَائِعُ، حيثُ يقول:

وَلَا تَقْصُرْ جَمِيلَكَ فَالْأَيَادِي وَدَائِعُ حَضْرَةِ الْبَارِي تَعَالَى⁸⁹²

⁸⁹⁰ د.ت.ب، 96.

⁸⁹¹ د.ر.ت، 208.

⁸⁹² د.ر.ت، 202.

وهكذا يَتَضَحُّ أَنَّ نَصَائِحَ أَبِي الْهُدَى فِي شِعْرِهِ الْوَعْظِيِّ الْمُتَعَلِّقِ بِالْمَعَامِلَةِ الْعَامَّةِ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَمَنْ حَوْلَهُ أَوَّلَتْ اِهْتِمَامَهَا بِجَوَانِبِ مُتَعَدِّدَةٍ، كَانَتْ مِنْهَا الْكُلِّيَّةُ الَّتِي أَشَارَ فِيهَا إِلَى لُزُومِ حَزْبِ الْحَقِّ وَتَحْكِيمِ حِكْمَةِ الْعَقْلِ وَالْعَدَالَةِ وَالتَّحَلِّيِ بِعُمُومِ مُحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ وَالشَّمَائِلِ، كَمَا كَانَ مِنْهَا الْجُزْئِيَّةُ الَّتِي خُصِّصَتْ بِالدَّعْوَةِ إِلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ بِتَعْيِينِهَا وَالنَّهْيِ عَنْ ذَمِيمِهَا، وَمَرَّتْ عَلَى الثَّوْبِ الْمِثَالِيِّ الَّذِي يَرَاهُ الشَّاعِرُ رَدَاءَ التَّجَاحِ فِي الْعِلَاقَةِ بِالنَّاسِ، وَيُضَافُ إِلَى هَذَا مَا رَكَّزَ عَلَيْهِ مِنْ أَهْمِيَّةِ الطَّبَاعِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَمَا لَهَا مِنْ تَأْثِيرٍ عَلَى تَصَرُّفَاتِ الْمَرْءِ، إِلَى جَانِبِ مَا أَرْشَدَ إِلَيْهِ مِنْ مَفَاهِيمِ الصَّدَاقَةِ وَالصَّدِيقِ عِبْرَ تَجَرِبَتِهِ الَّتِي عَاشَهَا فِي عَصْرِهِ.

ج التَّصَوُّفِ

قَدْ مَرَّ فِي جُزْئِيَّاتِ نُصْحِ أَبِي الْهُدَى فِي شِعْرِهِ الْوَعْظِيِّ دَعْوَتُهُ إِلَى مُجَابَهَةِ الدَّهْمَاءِ وَالرُّؤُوسِ وَالْمُتَلَكِّصِينَ بِلَا هَوَادَةٍ وَلَا لِينٍ، وَيَبْدُو أَنَّ هَذَا قَدْ جَهَدَ فِي تَطْبِيقِ ذَلِكَ النَّصْحِ عَلَى نَفْسِهِ، وَيُظْهَرُ هَذَا جَلِيًّا فِيمَا سَطَّرَهُ فِي نَظْمِهِ مِمَّا يَتَعَلَّقُ فِي التَّصَوُّفِ؛ حَيْثُ يُرَى نُصْحُهُ الصَّرِيحَ لِكُلِّ مَنْ انْتَسَبَ إِلَى هَذَا الْمَنْهَجِ.

وإِنَّ مَا تَجَدَّرُ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ هُوَ أَنَّ نُصْحَ أَبِي الْهُدَى الْمُتَعَلِّقَ بِالتَّصَوُّفِ وَأَهْلِهِ كَانَ قِطْعَةً شِعْرِيَّةً ذَاتَ وَجْهَيْنِ، نُقِشَ فِي وَجْهِ صَفْحَتِهَا الْأُولَى مَا يَجْلُو لِلْمُطَالَعِ حَقِيقَةَ التَّصَوُّفِ فِي نَظَرِ أَبِي الْهُدَى الَّذِي يَدْعُو بِنُصْحِهِ إِلَيْهِ، وَأَمَّا الصَّفْحَةُ الْأُخْرَى فَقَدْ نُثِّرَ فِي أَطْرَافِهَا انتِقَادُهُ لِلْمَظَاهِرِ الَّتِي رَأَاهَا مِنْ حَوْلِهِ مِنَ الْأَدْعِيَاءِ الَّذِينَ لَمْ يَسِيرُوا وَفْقَ مَا اخْتَطَّتْهُ مَسِيرَةُ السَّلَفِ الْأَوَائِلِ الَّذِينَ يَرَاهُمْ الشَّاعِرُ أَهْلَ التَّصَوُّفِ الْحَقِيقِيِّ.

وقد كانت بداية النصح في تعيين الطريق الصحيح الذي على المرء أن يسلكه، فهو يراه مُتمثلاً بالتَّحَقُّقِ بالشَّريعةِ العِزَّاءِ المحمَّديَّةِ والتَّحَلِّيِ بالفضائلِ وإصلاح القلب، حيثُ يقولُ من قصيدةٍ تخلَّلَتْها عدَّةُ نصائحٍ كان من جُمْلَتِها تعيينُ منهجِ السُّلوكِ:

واجعل سلوكك في الطريق تحقُّقا بشريعة المدثر المزمِّل

واطلب بفضلك منتهى ما ترجي وانحج بقلب خاشع متوكل⁸⁹³

وينعطفُ في موضعٍ آخر مُستخدِماً أسلوبَ القصرِ الحقيقيِّ بجعلِ الطَّريقةِ الحقَّةِ مقصورةً على اتِّباعِ سُنَّةِ المصطفى عليه السلام، وما جلَّته من حقائق ورفائق نُفِلَتْ كابرًا عن كابرٍ من لدنِ الصَّحابةِ والتَّابعينِ وأتباعِهِم من السَّلفِ الصَّالحينِ، ويرأها أبو الهُدَى قد حُفِظَتْ جيلاً بعد جيلٍ مُتسلسلةً من مُتَّقٍ عن مُتَّقٍ من أهلِ العلمِ والمعرفةِ لتكونَ فيصلاً به يميزُ العقلاءُ بين الحقِّ والباطلِ:

واعمل بسنة أحمد خير الورى فهي الطريقة والضلال سواها

وبها تسلسلت الأسانيد التي بعضُ التُّفاهِ العارفين رَواها

وجلَّت لأهل الدِّين نصًّا صادقاً من رَدَّه بالْمُنكَرَاتِ تلاهى

وعليه قد درج الصَّحابةُ كُلُّهُمْ والتَّابعونَ ومن أحبَّ الله⁸⁹⁴

والمُطلِّعُ على هذه الأبيات قد تنجلي أمامه بوضوح تامِّ نظرةُ أبي الهُدَى إلى التَّصوُّفِ وما يُسمَّى بالطَّريقةِ؛ إذ قَصَرَ تعريفها على أنَّه اتِّباعُ السُّنَّةِ المحمَّديَّةِ وذلكَ لَمَّا عَرَّفَ طَرِيقَ الإسنادِ في الجملةِ الإسميَّةِ - (هي الطَّريقةُ) - وقد تَقَصَّدَ سوقَ التَّعريفِ بتركيبها ليزيدَ من تأكيدِهِ ثبوتَ هذا المعنى عند المُتلقِّي لهذا النصِّ ولكي يُرْسِخَهُ في ذهنِهِ مُعلِّياً من شأنِهِ، ثم أتى بالإطنابِ بطريقتِ الطَّرْدِ والعكسِ

⁸⁹³ د.ت.ب، 85.

⁸⁹⁴ د.ت.ب، 127.

فساقَ قوله (والضَّلالُ سواها) ليؤكدَ تعريفَهُ للطَّرِيقَةِ، إذ منطوقُ الجملةِ الثَّانيةِ أفادَ أنَّ ما سوى هذا التعريفِ هو الضَّلالُ، بينما أكَّدَ مفهومُها أنَّ الحقَّ هو التعريفُ المذكورُ -الاتباعُ للسُّنَّةِ السَّنيَّةِ-؛ وبانجلاءِ نظرةِ أبي الهُدَى للمُطَّلِعِ فقد تُفسِّرُ نِصائِحُهُ التي وُجِّهَتْ للمُخاطَبِينَ التي يُمكنُ أن تكونَ أقربَ إلى النِّقدِ منها إلى النُّصحِ رغمَ اندراجِها ضمنَ غَرَضِهِ، ولعلَّ الانحرافَ الذي نَحَرَ في جسدِ التَّصَوُّفِ في عصرِ الشَّاعرِ كانَ مدعاةً إلى نُصَحِهِ لِمُخاطَبِهِ وتبيينه له الوجهَ الحقَّ من بين الوجوه الرَّائِفَةِ المُدَّعِيَةِ الجاهِلَةِ، إذ يُتابعُ أبو الهُدَى هذه الأبياتِ السَّابِقَةَ، بأبياتٍ أخرى تُبيِّنُ كثرةَ الدُّخلاءِ على منهجِ التَّصَوُّفِ، من الذين خالَفَتْ أقوالُهُم وأفعالُهُم الشَّريعةَ الغَرَّاءَ، فكانوا من المُحدِّثِينَ المُبتدِعِينَ في الدِّينِ الذين نصبوا فِخَاخَ الاحتيالِ ليخدعوا بزُورِهِم ومعسولِ أقوالِهِم البُلَهَاءَ والجُهَلَاءَ من عوامِّ المُسلمين -على حدِّ زعمِهِ-؛ ويُمكنُ أن تُعدَّ هذه الأبياتُ تصويرًا من الشَّاعرِ يشهَدُ على الفسادِ الذي استشرى في مُدَّعِي التَّصَوُّفِ في زَمَنِهِ، حيثُ يقولُ:

كم قد تَصَوَّفَ مُحدِّثٌ في دِيننا وأتى لَبِّتَ الزَّيغِ يَرِصُدُ جاهًا
ورأى مُخالِفَةً الرِّسولِ طَرِيقَةً جهلاً وظنَّ بأنَّه يرضاهَا
شَبَكَاتُ سَفْسَطَةٍ يُصَادُ بِمِثْلِهَا بُلَهَاءُ قومٍ جَهِلُهَا أَعْمَاهَا
جاءت تقولُ بوحدةٍ مردودةٍ نصُّ الشَّريعةِ والكتابُ أباهَا⁸⁹⁵

ويُلحِظُ في البيتِ الأخيرِ نَبْذَهُ للاعتقادِ المردودِ الذي يُسمَّى بوحدةِ الوجود؛⁸⁹⁶ وإذا كان حالُ التَّصَوُّفِ على ما قد صَوَّرَهُ من جهلٍ وانحرافٍ وبِدَعٍ، فلا غرو أن يأخذَ بِنُصَحِهِ مُخاطَبُهُ إلى جادةِ الطَّرِيقِ الصَّحيحِ والصِّراطِ السَّويِّ، فينصَحُهُ بأخذِ طَرِيقَتِهِ ومنهجِهِ في السَّيرِ إلى مَحَطَّاتِ النِّجاةِ في

⁸⁹⁵ د.ت.ب، 128.

⁸⁹⁶ وهو قائمٌ على جعلِ وجودِ الخالقِ عينَ وجودِ المخلوقاتِ، يُنظرُ: محمد بن علي الشُّوكاني، الصَّوَامِرُ الحِدَادُ القاطعةُ لعلامتِ أربابِ الاتِّحادِ، تحقيق:

محمد صبحي حلَّاق، (صنعاء: دار الهجرة، 1411هـ/1990م)، 61.

الآخِرَة من مَعِين شريعة الهادي البشير، وطرح كل ما عداها من تزويق المُدَّعين وتزوير المُضِلِّين، وذلك بتحقيق العبودية الخالص للمولى سبحانه وتعالى وقمع حظوظ النفس وأهوائها، حيث يقول:

دَعْ جَهْلَ مَنْ ضَلَّ الطَّرِيقَ وَتَاهَا وَخُذِ الطَّرِيقَةَ مِنْ شَرِيعَةِ طَه
واقطع حبال الزُّورِ والدَّعوى وَكُنْ عَبْدًا نَأَى عَنْ نَفْسِهِ وَهَوَاهَا⁸⁹⁷

وهو لا يفتأ ينصح المُخاطَب بأن لا ينخدع بالفخاخ التي ينصبها المدعون ليصيدوا النَّاسَ بها من مظاهر خداعة تُعشي أبصار الناظرين فينقلبوا مُعْتَرِينَ بها من ارتفاع بناءٍ أو تزويق منطقي وكلام أو تزيي بلباسٍ مُعَيَّن، إذ كُنْه حقيقة الأمور بالجوهر وليس بالمنظر؛ ومن هذا القبيل قوله وقد أُرشد إلى عدم الاغترار بالأزياء والانحجاب بالشكل الظاهر عن الحقيقة والمعنى:

فَكُنْ يَا ابْنَ الْكِرَامِ مَتِينٌ دِينَ وَلَا تَغْلُ بِزَهْوِ الطَّيْلَسَانِ⁸⁹⁸

وينصح المُخاطَب في موضع آخر بطلب العلم الذي يُعلي جدارَ شرف الإنسان ومجده فتسمو به حقيقته، فهو يرى أنَّ البناء الحقيقي لا بعلو الجدران وارتفاع المباني المُشيَّدة وإنما بما كُنَى عنه تعظيمًا وإجلالًا وتفخيماً بالمزية التي لم تُجْهَل ولعلها التَّقوى، حيث يقول:

وأطل جدارك لاقتناء شوارِدِ ال علم الذي يُدنيكَ للشَّرَفِ العَلي
ما المجدُ بالحجرِ الرَفيعِ بناؤُهُ لكنَّه بمزيةٍ لم تُجْهَلِ
وانظر بعين الاعتبار جميع ما أبصرتُهُ واهجرُ طريقَ مُعَقَّلِ⁸⁹⁹

⁸⁹⁷ د.ت.ب، 85.

⁸⁹⁸ د.ت.ب، 105؛ والطَّيْلَسَان وشاخ أخضر أو كساء يضعه بعض العلماء أو المشايخ على أكتافهم، يُنظر: أحمد مختار، "طيلسان"، 1432/2.

⁸⁹⁹ د.ت.ب، 85.

ويتبيّن مما سبق أن نُصحَ أبي الهُدَى الذي تعلّق بالجانبِ الصُّوفيّ كان قد أُجملَ في الدَّعوة إلى اتِّباعِ السُّنَّةِ والشَّريعةِ والتَّحذيرِ من أعرَضَ تائهاً عنها في دروبِ الضَّلالةِ، كما ضمَّنَ شِعْرهُ التَّحذيرِ من الاغترارِ بالمظاهرِ الخداعةِ والأفكارِ الهدامةِ التي استشرت في متصوِّفةِ زمانِهِ.

2 التَّرهيدُ بالدُّنيا

والمرادُ به معناه اللُّغويّ الذي هو خلافُ التَّرجيبِ بها⁹⁰⁰-الدُّنيا-، وكثيراً ما يبرزُ شعْرُ التَّرهيدِ عادةً في الأوقاتِ التي يطغى فيها تيارُ الانكبابِ على اللُّهو والاغترارِ بمتاعِ الدُّنيا والانشغالِ بمشاغلِها عن الآخرةِ، أو شيوعِ التَّقصيرِ في الطَّاعاتِ والهجومِ على المخالفاتِ، فعندئذٍ تنطقُ في المجتمعِ ناطقةُ ألسنةِ الوعظِ لتجلو للنَّاسِ حقيقةَ زوالِ الدُّنيا وفنائِها وتقلُّبِ أحوالِها.

وقد وجدَ التَّرهيدُ طَريقَهُ في وعظِ أبي الهُدَى من خلالِ أكثرِ من محورٍ حاولَ المرورَ عليه، وقد كان من أوَّلِ المحاورِ محورُ التَّنبيهِ على الغفلةِ عن حقيقةِ تحوُّلِ أحوالِ الدُّنيا وتقلُّباتِها بأهلِها خفصاً ورفعاً، حيثُ تابَعَ أبا يعقوبَ الحُرَيْمِيَّ (ت. 212هـ/827م) القائل:

لعمركُ ما الدُّنيا بدارٍ إقامةٍ ولكنَّها دارٌ انتقالٍ لمن عَقَلَ⁹⁰¹

فألحقَ بها قطعةً أودعها استعارةً تصرّيجاً جعلت من خُلُقِ التَّعالي عن الحقائقِ ميلاً تكتحلُّ به عينُ بصيرةِ الغافلِ فيصيرُ أعشى عن حقيقةِ الأيامِ الحُبلى بمخفّياتِ شؤوناتِ القضاءِ التي لا يُحيطُ بها خيالٌ مُتخيِّلٍ، حيثُ يقولُ مُتحدِّثاً عن حقيقةِ الدُّنيا التي لا يقرُّ لها قرارٌ:

⁹⁰⁰ يُنظر: الجوهرى، "زهد"، 481/2.

⁹⁰¹ الأصفهاني، محاضرات الأدباء، 394/2.

وقد تصرعُ الأيامُ صرعةً غادرٍ غفولاً بأميالِ التَّعالي قد اكتحل
نقيمُ شؤونًا لم تُحَيَّلْ لعاقِلٍ ويقصرُ رغم المرءِ في طولهِ الأمل⁹⁰²

ويروحُ تارةً أخرى مؤكِّداً للمعنى السَّابقِ ومُبرِّزاً له بصورةً بيايئةً أخرى، مُستدعيًا التَّشبيهِاتِ البليغةَ البديعةَ، حيثُ شَبَّهَ حكمَ القَدَرِ الإلهيِّ الأزليِّ بالقيدِ الذي كَبَلَتْ به كلُّ أصنافِ البريَّةِ، فكما كانَ المُقيَّدُ لا ينفكُ من قيدهِ المُكبَّلِ به فكذلك الوري لا فرارَ لهم من أقدارِهِم المكتوبةِ عليهم، هذه الأقدار التي لكلِّ منها وقتٌ وإبَّانٌ، ثم راحَ يُشَبِّهُ تلكَ الأوقاتِ بالقَدَرِ التي يُطَبَّحُ فيها، ليجمع بهذا التَّشبيهِه البليغَ بين مثالِ القَدَرِ التي تُحَضَّرُ فيها الموائدُ، ومثالِ المواقيت التي تُحَصَّرُ في ثناياها الأقدارُ، فتنجلي ليأخذ كلُّ نصيبه المُقدَّرُ عليه؛ ثم استعارَ -استعارةً تصرُّحيةً- لتقلُّباتِ الأحوالِ وتغيُّراتها لفظةَ المسك ليجعلَ منها العطرَ الذي كتبَ اللهُ أن يُضَمَّحَ به جميعُ مخلوقاتِهِ، فقال:

فَإِمْ⁹⁰³ الوَرَى في قيدِ حُكْمٍ لأجلِها موائدُ في قَدَرِ المواقيتِ تُطَبَّحُ
تُعَيَّرُها الأيامُ حالاً ومشهداً فكلُّ بِمِسْكِ الانقلابِ مُضَمَّحُ⁹⁰⁴

ويُلحِظُ في تبيانهِ -مُرَهِّداً- لحقيقةَ الدُّنيا اهتمامهُ بجلبِ الصُّورِ والتَّشبيهِاتِ التي قد تُحَفِّزُ من ذهنِ المُسْتَمِعِ فتجعله يُبادِرُ إلى قبولِ الحقيقةِ المطروحةِ في هذا الوعظ؛ فها هنا لما جعلَ من الأقدارِ موائدَ تُطَبَّحُ في قَدَرِ الأيامِ، فقد أشاعَ في نفسِ المُتلقِّي إدراكاً عميقاً لهذه الحقيقةِ، فكما أنَّ حياةَ الإنسانِ مُتلازِمةٌ مع الطَّعامِ والشَّرابِ، فإنَّ حياته مُتلازِمةٌ مع تقلُّبِ تلكَ الأقدارِ فلا بُدَّ أن يتناولَ نصيبه منها. ولربَّما مثَّلَ لحقيقةَ الدُّنيا بما قد مرَّ في مُطالعاتِهِ واستقراءاتِهِ للتَّاريخِ من عدمِ خلوصِ

⁹⁰² د.ر.ح، 102.

⁹⁰³ الجماعات، يُنظر: ابن دُرَيْد، "فمي"، 972/2؛ ابن منظور، "فم"، 447/12.

⁹⁰⁴ د.ر.ت، 72؛ ومُضَمَّحٌ من التَّضَمُّحِ وهو التَّلَطُّحُ بالطَّيبِ، يُنظر: الجوهري، "ضمخ"، 426/1.

صفائِها وهنائِها للطَّاهرين من النَّاسِ وهم آل البيت النَّبويِّ وأَمَّهُم الزَّهراءُ البتولُ رضوان الله عليهم أجمعين، فها هو يهمسُ في الآذانِ أن حريٌّ بَمَن يتأملُ سِيرَهُم وتَعَكَّرُ أَيْامُهُم أن لا يخلُدَ إلى متاعِ الدُّنيا الرَّائِلة التي تتقلَّبُ أَيْامُها مُسرعةً كطيفِ الخيالِ، وإنَّ مَن يظنُّ الخلودَ والبقاءَ فيها فقد توهَّم ضرباً من الخيالِ شَبَّهَهُ تشبيهاً بليغاً بالخبالِ⁹⁰⁵ - بعد أن حَذَفَ وجه الشَّبه (مُخالَفةُ العقل والحقيقة) - وقد أتى الشَّاعرُ بفعلِ المُعارَكة لِيشعِرَ بالنَّكَدِ والكَبَدِ الذي يُعانيه مَن يعيشُ غَمراتِ أَيْامِ الحياة، التي شَبَّهَ أَيْامَها برَمشةِ العينِ، حيثُ يقولُ مُضَمِّناً لأبياته الجناسِ النَّاقص (خيال/ خبال، تمثَّل/ مثالها)، وطباقِ الإيجاب (قصاراً/ طوالها):

خيالُ البقا فيها خبالٌ وإِنَّمَا تمثَّلَ للأبصارِ وهما مثالها
تُعَارِكُنَا أوقامُها وهي رَمِشَةٌ من العينِ إذ تجري قصاراً طوالها
ولو كانَ فيها للمسرَّةِ منزعٌ لَسَرَّ بها الطُّهْرُ البتولُ وآلها⁹⁰⁶

ومن جملةِ المحاور التي دارَ عليها وعظُ أبي الهُدَى التَّزهيدِيُّ ما قامَ به من الالتفاتِ إلى مُخاطَبَةِ المُغتَرِّين الذين أَلْهَاهُم الانغماسُ في سَكْرَةِ دُنْيَاهُم عن إقامةِ أمورِ دينِهِم، علَّ بمخاطَبَتِهِ لهم أن تنقشِعَ عن بصائرِهِم غيومُ الوهم والغفَلات، فمن هذا القبيلِ قولُهُ مُخاطِباً لَمَن غَرَّه إِمهالُ ربِّ العالمين فظنَّه - جهلاً منه وغفلةً - إِمهالاً حيثِ راحَ غيرَ عابِيٍّ بأوامرِ مولاهُ يُحَرِّبُ دينَهُ لأجلِ دُنْياه:

حَرَّبْتَ دينَكَ للدُّنيا وعن طَمَعٍ طَمَّتَكَ من حيثِ لا تدري البليَّاتُ
قد غَرَّكَ اليومُ إِمهالاً رَتَعْتَ بِهِ هَوْنٌ عَلَيْكَ فللإِمهالِ أوقاتُ
تبغي البقاءَ بذِي الدُّنيا اتَّعِظْ وَأَفُقْ هل للبقاءِ الذي تَبغي علاماتُ⁹⁰⁷

⁹⁰⁵ الخبالُ مُرادفُ الخَبَلِ والخَبَلُ وهو الفسادُ والجنون، يُنظر: الجوهري، "خبل"، 4/1682؛ ابن منظور، "خبل"، 11/198.

⁹⁰⁶ د.ت.ب، 124.

⁹⁰⁷ د.ر.ت، 55.

فهو يُخاطِبُهُ ويحاولُ بمخاطَبَتِهِ إيقاظَ شعورٍ قد وأدته سكرةُ محبةِ الدنيا، فينادي عليه بالاعتِاظِ والإفاقة من نومةِ العَقَلاتِ ووهمِ الخلودِ في دارِ الفناء، ويتساءلُ -مُوجَّحًا مُفَرَّعًا- عما رآه هذا المُعْتَزُّ من إشاراتٍ جعلته ينسى الموت ويتوهم خيال البقاء (هل للبقاء الذي تبغي علامات؟)؛ ويستطرِدُ في تساؤلاتٍ أخرى يُثيرُها في نفسِ المُخاطَبِ لِتُحرِّكَ فيه شيئًا من الاعتبارِ والتذكُّرِ والتنبُّه، حيث يقول مُستَعْمِلًا التَّسجيعِ (كانوا/فبانوا):

أَيْنَ النَّبِيِّنَ طُرًّا أَيْنَ آدَمُهُم أَيْنَ الْمُلُوكِ الْأَلَى أَيْنَ الْكُتَيْبَاتِ
كانوا فَبَانُوا فلم تُبَصَّرْ أَمَا كِنْهُمْ كَأَنَّهُمْ قَبْلُ لَا جَاوُوا وَلَا مَاتُوا⁹⁰⁸

وبسوقه لأسلوب الإطنابِ عبرَ تكراره لأداة الاستفهام (أين) أكثرَ من مرّةٍ حرصٌ منه على أن تتأكَّدَ في ذهنِ مُخاطَبِهِ حقيقةُ فناءِ الدنيا وزوالها بما حوته من بهارجِها الخداعة، إذ طَوَّتْ يدُ الفناءِ الملوكَ الجبابرةَ والجيوشَ الجرّارةَ وفنّامًا من البشرِ جاءت ثم سارت عابرةً إلى قدرها من الموتِ المحتوم، فكأنَّ الشاعِرَ يستثيرُ في أعماقِ المُخاطَبِ الاعتِاظَ وأخذ العبرةَ ممن جاء قبله من الأممِ السَّابِقَةِ وسَبَقُوهُ- على اختلافِ طبقاتهم- إلى عالمِ الفناء؛ ويكرِّرُ ذاتِ الأسلوبِ في موضعٍ آخر، ثم يصل به المطاف إلى أن يقول مُشَبِّهًا -تشبيهاً مُرسلاً مُجملاً- الدنيا الفانية بالخيال، ثم يعطفُ بأسلوبِ القصرِ -عبر استخدام الأداة (بل)- مُشَبِّهًا حقيقتها -تشبيهاً بليغاً- بالظلالِ الرَّائِلَةِ:

فِي الدَّهْرِ مَوْعِظَةٌ لِلْمَرْءِ كَافِيَةٌ إِنَّ حَلََّ فِي قَلْبِهِ فَهَمٌّ وَإِيمَانُ
مِثْلُ الْخِيَالِ وَبَلْ عَيْنُ الظَّلَالِ فَمَا لِدَارِ دُنْيَا امْرِئٍ رَكْنٌ وَبُنْيَانُ⁹⁰⁹

⁹⁰⁸ د.ر.ت، 55.

⁹⁰⁹ د.م.ش، 194.

وَيُضَمُّ إِلَى مَحَاوِرِ التَّزْهِيدِ الْوَعْظِيِّ فِي شَعْرِ أَبِي الْهُدَى مَا عَرَّجَ إِلَيْهِ مِنَ الدَّعْوَةِ إِلَى إِعْدَادِ الزَّادِ
مِنْ دَارِ الْفَنَاءِ إِلَى دَارِ الْبَقَاءِ، الَّتِي أَوَّلُ مَنَازِلِهَا حُفْرَةُ الْقَبْرِ، فَيَقُولُ:

وَأَعْمَلْ لِقَبْرِكَ إِنَّهُ الْبَيْتُ الَّذِي بِالصَّالِحَاتِ يُرَى بِهِ الْإِنْسَانُ⁹¹⁰

وَالْقَبْرُ هُوَ الْمَحْطَّةُ الَّتِي يَنْزِلُ عِنْدَهَا جَمِيعُ الْقَادِمِينَ مِنْ عَالَمِ الْفَنَاءِ فَيَجْمَعُهُمُ التُّرَابُ بِمَنْزِلَةٍ تَتَّحِدُ الْمَرَاتِبُ
عِنْدَهَا، وَيَتَسَاوَى فِيهَا الْمَلِكُ وَالْمَمْلُوكُ وَالْأَنْدَادُ وَالْأَضْدَادُ:

وَالْكُلُّ فِي بَحْرِ الْمَعَا مَعَ لِلْفَنَاءِ الْمَحْضِ صَائِرُ

فَلَدَى التُّرَابِ تَسَاوَتْ أَلْ أَشْبَاهُ طُرًّا وَالنَّظَائِرُ⁹¹¹

وَقَدْ يُرَى أَبُو الْهُدَى مُتَكَلِّمًا بِلِسَانِ الْعَصَاةِ الْمُقْصِرِينَ الَّذِينَ اعْتَصَرَهُمُ الْأَسَى عَلَى مَا مَرَّ مِنْ
مَاضِي أَعْمَارِهِمُ الَّتِي أَمْضَوْهَا فِي اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ وَسَكْرَةِ الْعَقَلَاتِ، الَّتِي سَوَّدَتْ كِتَابَ الْأَعْمَالِ
وَصَفْحَاتِهِ الْبَيضَاءِ، نَحْوَ قَوْلِهِ مُضَمِّنًا أَبْيَاتَهُ الْجَنَاسَ الْإِشْتِقَاقِي (شَبَابُ/الْمَشِيبُ) وَالطَّبَاقَ (سُودُ/بَيضُ،
شَبَابُ/مَشِيبُ):

نَمُرُّ عَلَى الْأَيَّامِ بَيَضٌ صَحَافُنَا بِسُودِ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبِ تُكَلِّطُحُ

يُنَبِّهُنَا هَذَا الْمَشِيبُ وَقَدْ مَضَى شَبَابُ لَنَا فِي غَفْلَةِ الْعَيِّ أَشْرَحُ⁹¹²

ثُمَّ يَعُودُ بِلِسَانِ الْوَعْظِ لِيُخَاطِبَ الْغَافِلَ الَّذِي أَهْلَاهُ طَوْلُ الْأَمَلِ وَالْأَمَانِي عَنْ تَذَكُّرِ مَحْطَّةِ الْمَوْتِ وَالْفَنَاءِ
الَّتِي يَقْتَرِبُ مِنْهَا يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ:

⁹¹⁰ د.ت.ب، 57.

⁹¹¹ د.ر.ت، 102.

⁹¹² د.ر.ت، 72؛ وَأَشْرَحُ أَصْلُهَا مِنْ شَرَحِ الشَّبَابِ وَهُوَ قُوَّتُهُ وَنَضَارَتُهُ، يُنْظَرُ: ابْنُ مَنْظُورٍ، "شَرْحٌ"، 29/3.

فيا وَسِنًا⁹¹³ أَقْصَى الْأَمَانِي وَفَرَسَحُ يُقَرِّبُهُ نَحْوِ الْمَنَايَا وَفَرَسَحُ

نعم ها هي الأعمارُ تمضي وهذه شهورُ الأمانِي من يدِ العُمرِ تُسَلِّحُ

كَأَنَّ لَصِيدِ الْمَرءِ فِي كُلِّ خُطْوَةٍ مِنْ الْأَرْضِ جُبٌّ بِالذَّوَاهِي مُفَحِّحٌ⁹¹⁴

فندأؤه الوعظي للغافل يدعوهُ فيه للتنبه والتذكر إذ إن إقامته في الدنيا ستنتهي قريباً بما تحمله له أيامها الحبلَى بالذَّوَاهِي والمصائب، ويُشَبِّهُهَا بِالْجُبِّ الَّذِي نُصِبَتْ فِي قَعْرِهِ الْفِخَاخُ لِكَيْ يُصَادَ الْمَرءُ الْغَافِلُ بِهَا وَيَلْقَى حَتْفَهُ؛ وإتيائه بهذه الصُّورَةِ التَّشْبِيهِيَّةِ يَجْعَلُ الْمَنْصُوحَ يَتَلَقَّى هَذِهِ النَّصِيحَةَ وَقَدْ أَشْبَعَ فِي نَفْسِهِ حَقِيقَةَ الْخَوْفِ مِنَ الْغَفْلَةِ عِبْرَ الْمَثَالِ الْحَسِيِّ الَّذِي ضَرَبَهُ بِهَذَا التَّشْبِيهِ؛ حَيْثُ قَرَنَ بَيْنَ صَوْرَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا صُورَةُ الْأَعْمَارِ وَهِيَ تَمْضِي مَلِيئَةً بِالْأَمَانِي الَّتِي تُقَرِّبُ مِنَ الْمَنَايَا، وَالْأُخْرَى صُورَةُ الْمَرءِ الَّذِي يَمْضِي وَفِي كُلِّ خُطْوَةٍ تَتَرَصَّدُهُ حَفْرَةٌ مَلِيئَةٌ بِالْفِخَاخِ الْمُهِلِكَةِ.

وَمِنْ خِلَالِ مَا سَبَقَ يَتَّضِحُ أَنَّ التَّزْهِيدَ بِالدُّنْيَا فِي شَعْرِ أَبِي الْهُدَى الْوَعْظِي أَكْثَرُ مَا كَانَ تَرْكِيزُهُ عَلَى قَضِيَّةِ فَنَاءِ الدُّنْيَا وَالتَّنْبِيهِ عَلَى زَوَالِهَا وَتَقَلُّبِ أَحْوَالِهَا، فَكَانَتْ هَذِهِ الْقَضِيَّةُ هِيَ الْأَسَاسُ فِي التَّنْفِيرِ مِنَ الدُّنْيَا وَإِثَارِهَا عَلَى الْآخِرَةِ، وَفِي الْمَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ جَاءَتْ مُحَاطَبَةُ الْمَغْتَرِّينَ بِمَتَاعِهَا الزَّائِلِ بِأَنْ يَتَّعِظُوا بِمَنْ سَبَقَهُمْ، كَمَا تَضَمَّنَ التَّزْهِيدُ ذِكْرَ الْقَبْرِ وَوُجُوبَ التَّزَوُّدِ بِالصَّالِحَاتِ، إِضَافَةً إِلَى اسْتِثَارَةِ مَشَاعِرِ النَّدَمِ لَدَى السَّمَاعِ لَمَّا تَكَلَّمَ بِلِسَانِ الْعَصَاةِ عَلَى عَمْرِهِ الْمَنْصَرِمِ بِمَا حُشِيَ مِنَ الْخَطَايَا وَالْآثَامِ، وَلَعَلَّ اسْتِثَارَةَ هَذِهِ الْمَشَاعِرِ قَدْ تَكُونُ إِحْدَى السُّبُلِ الَّتِي انْتَهَجَهَا فِي وَعْظِهِ لِيُثْمَرَ فِي نَفْسِ الْمُخَاطَبِ التَّأَثُّرُ وَالتَّندُّمُ

⁹¹³ مِنَ الْوَسْنِ وَهُوَ النُّعَاسُ، يُنْظَرُ: الْجَوْهَرِيُّ، "وَسْنٌ"، 2214/6.

⁹¹⁴ د.ر.ت، 73.

الذي يُنتِجُ التَّوْبَةَ، إذ النَّدَمُ هو أولى مراتبها وأعظمها،⁹¹⁵ وانْدَرَجَتْ كُلُّ هذه المحاور ضمن الإطارِ الوعظي الذي يقوم على التَّرهيب والتَّغْيِب والتَّذْكِير بالعواقب.

3 الحِكْمَة

ترتبطُ الحِكْمَة في معناها اللُّغويِّ بالعلم،⁹¹⁶ ومن جملةِ التَّعْرِيفَاتِ التي عَرَّفَهَا بها الجرجانيُّ (ت. 816هـ/1413م) قولهم بأنَّها "كُلُّ كَلَامٍ وَافَقَ الْحَقَّ"،⁹¹⁷ وقد طواها الشُّعْرَاءُ في سطورِ أشعارهم منذ العصر الجاهليِّ، حيث يقول شوقي ضيف: "وكانت تجرى على ألسنة كثيرين يقطِّرون خبراتهم شعراً، لينتفع بها أبناء قبائلهم ومن حولهم"،⁹¹⁸ ولربما ربط شوقي ضيف في تصنيفه لشعر شاعرٍ بين "الحِكْمَة والعِظَة الحَسَنَة"،⁹¹⁹ وكذلك كان أبو الهُدَى يودِعُ خِبرَاتِهِ ونتيجة ما أفادَهُ من دروسِ الحياة في أشعاره، وتكادُ تقتربُ كثيراً من النُّصَح والإرشادِ الوعظيِّ، إلا أنَّ ما يجعلها تنفرد عنه هو أنَّها كانت حِكْماً مُلقاةً على جانبي طريقِ القصائد والأشعار، دون أن تُضَمَّن قول الشَّاعرِ فعل أو لا تفعل، ويُضافُ إلى ذلك أنَّ أبا الهُدَى لمَّا تكلَّم عن موضوعاتِ شعره وأغراضه فقد دمجَ بين شعرِ الحِكْمَة والموعظةِ بآنٍ واحدٍ،⁹²⁰ ولعلَّ استنادَهُ في هذا القِرانِ بينهما على الآية الكريمة التي قرنتهما - "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ" -،⁹²¹ وقد كان تصنيفُ الشَّاعرِ لها مُدْجِجَةً مع غرض

⁹¹⁵ يُنْظَر: ابن حجر، فتح الباري، 471/13.

⁹¹⁶ يُنْظَر: الجوهري، "حكم"، 1901/5.

⁹¹⁷ الجرجاني، التَّعْرِيفَات، 91.

⁹¹⁸ ضيف، تاريخ الأدب، 627/5.

⁹¹⁹ ضيف، تاريخ الأدب، 290/9.

⁹²⁰ يُنْظَر: الصِّيَّادِي، نوابغ الحكم، 24، 27.

⁹²¹ النُّحْل، 125/16.

الوعظ، إضافةً إلى تضمّنها لمعاني العبرة -وهي من معاني الوعظ اللغويّة-، يدفعان إلى إفرادها كمحورٍ ثالثٍ ضمن الإطار العامّ للغرض الشعريّ "الوعظ".

وقد لا تبتعد كثيراً تلك النُّقاط التي دارت حولها أبياتُ الحكمة عن تلك التي دارت عليها أبياتُ النَّصح والإرشاد؛ كما أنّها تحلّلت القصائد الطُّوال، أو اتخذت شكلَ قصيدةٍ كاملةٍ ذاتِ نفسٍ قصيرٍ -ولم يرد بهذا الشكل إلا قصيدةٌ يتيمةٌ-،⁹²² وقد تأتي على شكلِ نبتةٍ مُلحقةٍ بقولِ أحدِ الحكماء من الشعراء.

وأبرز ما ورد من النُّقاطِ الحكيمية في شعر أبي الهُدَى هي مسألة الطَّبَعِ الوراثيِّ المُركَّبِ في أعماقِ الإنسان، حيثُ يراه العِلَّةُ التي ليس لصاحبها من بُرءٍ، فهيها أن يُشقى من سوءها ويُبدّل بها طيباً من الطَّباعِ والخِصالِ، ومَن زَعَمَ تبدُّلَ سوءِ الطَّباعِ في هذا الشَّخصِ إلى حَسَنِها فقد ارتكَبَ عيباً شنيعاً، ويزيدُ أبو الهُدَى على ذلك أنّ من العيبِ بمكانٍ أن يُعاتبَ هذا المُبتلى بسوءِ الطَّباعِ على ما يصدرُ منه مما اقتضته طِباعُهُ وأملتها عليه، فإنَّ عتابَهُ سيكونُ عيباً فوقَ العيبِ الأوّلِ الذي لا يراه عاقلٌ من العقلاء؛ يقول في نتفةٍ شعريّة:

إذا ساءَ طَبْعُ المرءِ عَزَّ دَواؤُهُ فزَعُمُ انقِلابِ الطَّبَعِ عَيْبٌ بَلَا رِبِ

وإنَّ عتابَ المُبتلى بطِباعِهِ على حَكَمِها الخَلْقِيِّ عَيْبٌ على عَيْبِ⁹²³

وإذا ما تبادَرَ إلى الأذهانِ تساؤلٌ عن سيِّئِ الطَّبَعِ الذي يذمُّه أبو الهُدَى ويُحذِّرُ منه، فلربما كان في شعرِ أبي الهُدَى ما يرسمُ في مُخيِّلةِ القارئِ انطباعاً عن هذا السيِّئِ الطَّباعِ دينيِّ الأصلِ، فهو -حسب

⁹²² يُنظر: د.ر.ت، 183.

⁹²³ د.ت.ب، 19.

تَجَرِبَةُ أَبِي الْهَدَى - شَخْصٌ عَمِيَتْ عَيْنُهُ عَنْ رُؤْيَا كُلِّ خَيْرٍ وَبَرٍّ حَوْلَهُ فَهُوَ لَا يَرَى سِوَى الْعُيُوبِ
وَالذُّنُوبِ:

ولكن لئيم الأصل والطبع لا يرى سوى العيب شيئاً والكريم حمول⁹²⁴

وقد رأى أبا الهدى أن لئيم الطباع ودني الأصول لا ينفع معه أي معروف ولا اصطناع يد من أيادي
الخير، فهو منكّر لها جحد، بخلاف الرجل الأصل الكريم الطبع فهو يحفظ ذمة أي خير أسدى إليه
أدنى بر أو مد له يد معروف:

دني العرق يكفر كل بر ويشكر بعضه الشهم الكريم⁹²⁵

ويرى أن الحب الديي الأصل لا يفي بعهد ولا يرضى ذمة وفاء، وهيئات أن يرجى منه ذلك، فإنما
يطلب الشيء من معدنه، وهل يرجى الوفاء من غير الكريم الأصل الشريف، ولكي تتضح الصورة
المعنوية هذه فقد أتى بالصورة التشبيهية حيث جاء بالتشبيه الضمّي مشبهاً حالة هذا الديي بالسراب
الذي ببيعة لا يسقى منه الصادي قطرة ماء، وبالسحاب الذي لا ماء فيه فيرجى غيثه للعطاش،
وكذلك الديي الذي لا ترجى منه شيم الكرام والأشراف:

لن يرجى من الديي وفاء إنما يعرف الكرام الكرام
فوفاء العهد خلّة مجد وهي من غير أهلها لا ترام
لا يفيض السراب قط شراباً لا ولا يرسل المياه الجهم⁹²⁶

⁹²⁴ د.ر.ت، 183.

⁹²⁵ د.ر.ت، 236.

⁹²⁶ د.ر.ت، 229؛ والجهم هو السحاب الذي لا يمطر لفرغه من الماء، يُنظر: ابن منظور، "جهم"، 111/12.

وَيُفَصِّلُ حَالَ هَذَا الدَّيِّ الطَّبْعُ فَيَجْعَلُ الْحَقْدَ مَلَأَ قَلْبِهِ وَالشَّوْمَ مَدْمُوغٌ عَلَى سِيَمَا وَجْهِهِ أَمَّا عَيْنُهُ فَهِيَ سُودَاوِيَّةٌ لَا تَرَى سِوَى الْقُبْحِ وَالسُّوءِ، وَهَذَا يَصِلُ بِهِ إِلَى تَصْدِيقِ قَوْلِ الْأَوَّلِ مِنْ أَنَّ عَيْنَ الْمَحَبَّةِ لَا تَرَى إِلَّا الْجَمِيلَ وَخِلَافُهَا عَيْنُ الْبُغْضِ الَّتِي تَرَى الْجَمِيلَ قَبِيحًا، حَيْثُ يَقُولُ وَقَدْ ضَمَّنَ الْبَيْتَ الْآخِرَ قَوْلَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُعَاوِيَةَ (ت. 131هـ/747م):

فَفِي قَلْبِهِ حَقْدٌ وَشَوْمٌ بِوَجْهِهِ وَفِي عَيْنِهِ سَخَطٌ يَرَى الصُّبْحَ دَاجِيًا
(وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ كَمَا أَنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْذِي الْمَسَاوِيَا)⁹²⁷

وَمِنْ أَجْلِ هَذَا فَقَدْ وَصَلَ إِلَى نَتِيجَةٍ فِي حَيَاتِهِ دَوَّهَا بِخُلَاصَةٍ تَفِيدُ وَجُوبَ الْإِعْرَاضِ عَنْ كُلِّ مَذْمَةٍ جَاءَتْ لِلْمَرْءِ الْكَرِيمِ مِنْ لِنَامِ الطَّبَاعِ الْجَا حِدِينَ، إِذَا مَا عَلَى الْمَرْءِ سِوَى التَّحَلِّيِ بِكَرِيمِ الْخِصَالِ وَجَمِيلِ الشَّمَائِلِ، فَإِنَّ أَمْثَالَهُ مِنْ كِرَامِ النَّاسِ سَيَغْضَوْنَ طَرَفَهُمْ إِذَا مَا بَدَأَ لِعْيُونِهِمْ شَيْءٌ مِنْ عَيْبِهِ وَيَعْفَوْنَ عَنْهَا، حَيْثُ يَقُولُ وَقَدْ ضَمَّنَ الْبَيْتَ الْآخِرَ مَا قَالَهُ الشَّاعِرُ الْجَاهِلِيُّ السَّمَوَالُ الْأَزْدِيُّ (ت. 64ق.هـ/560م):

وَمَا ضَرَّ مَدْمُوخَ الْكَرَامِ مَذْمَةٌ أَتَتْ مِنْ لَيْمٍ وَاللَّيْمُ رَذِيلُ
وَلَا عَيْبَ فِي عَيْنِ الْكَرَامِ لِمُخْلِصٍ وَدَادًا وَعَفُوَ الْحَيَّرِينَ جَزِيلُ
(إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللَّؤْمِ عَرَضُهُ فَكُلُّ رِدَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلُ)⁹²⁸

⁹²⁷ د.ر.ت، 289؛ والبيت المضمَّن أصله: "لكنَّ" بدل "كما"، "فعينُ" بدل "وعينُ"، يُنظر: عبد الله بن معاوية، شعر عبد الله بن معاوية بن عبد

الله بن جعفر بن أبي طالب، إعداد: عبد الحميد راضي، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1396هـ/1976م)، 90.

⁹²⁸ د.ر.ت، 183؛ والبيت المضمَّن يُنظر: السَّمَوَالُ بن غريص الأزدي، ديوان السَّمَوَال، صنعة نفطويه، تحقيق: واضح الصَّمَد، (بيروت: دار

الجيل، 1416هـ/1996م)، 66.

وفي مُقابلِ صورةِ الدِّيِّ فَإِنَّ أبا الهُدَى بتضمينه للبيت الأخير بدا وكأنَّه يرسمُ حدودًا للكريم وأخلاقه التي عليه أن يكونَ مُتحلِّيًا بها، فالرجلُ الكريمُ الشَّريفُ بعيدٌ أشدَّ البعد عن اللُّؤمِ وأهله، كما أنَّ أخلاقه وشيمه ومنطقه وأفعاله كلها قد انضبطت وفق حدودٍ تحدُّها معرفةُ قدرِ المرءِ لنفسه وعدمُ تجاوزه لحدودها، حيثُ يقول مُضَمِّنًا قولَ السَّموأل:

إذا المرءُ لم يضبط على حُكمِ حدِّه أَقاويله والفعلَ فهو جهولُ
(وإن هو لم يحمل على النَّفسِ ضيمَها فليس إلى حملِ الثَّناءِ جميلُ)⁹²⁹
وإن جازَ يبغي الصِّدَرَ وهو مُؤخَّرُ تأخَّرَ رَغَمًا عنه وهو ذليلُ⁹³⁰

فهو يُفِيدُ مما علَّمته الحياة أنَّ على المرءِ التَّحَلِّيَ بالصبرِ كي يصلَ إلى المراقي الحميدة، كما أنَّ عليه ألا يتعدَّى حدوده فيتقدَّم في موضعٍ حقُّه فيه التَّأخير فهو -رغمَ أنفه- لن يلقي سوى التَّأخير والذِّلةَ إذ ما عَرَفَ قدرَ نفسه وتجاوزَ حدوده.

ومن جملةِ الحِكَمِ التي أشارَ إليها في شعره ما خَبَرَهُ من تجرِبته في صداقاته مع صنوفِ النَّاسِ، فهو يرى أنَّ أشنعَ صنوفِ الأصدقاءِ مَنْ أَكثَرَ اللُّؤمَ والعِتَابَ وصَحِبَ المرءَ لأغراضٍ متى ما تحقَّقت لوى رأسه وسلكَ طريقَ الجفاءِ وتركَ صديقَه وحيدًا، وأمَّا الصَّدِيقُ المثاليُّ الذي يراه أبو الهُدَى أهلاً للصُّحبةِ والصَّدَاقَةِ فهو الذي يثبُتُ على العهدِ صادقًا على طريقِ المحبَّةِ والوفاءِ تُريه عينُ الرِّضا والحبِّ والوفاءِ كلَّ جمالٍ وحُسنٍ من شيمِ صديقِه، حيثُ يقول مُستعملاً مراعاةَ النَّظيرِ (يروح/يغدو):

⁹²⁹ يُنظر: السَّموأل، الديوان، 66، وفيه فليس إلى "حسن" بدل "حمل".

⁹³⁰ د.ر.ت، 183.

أَحْسُ الصِّحَابِ الْمُكْتَبِرِ اللَّوْمَ وَالَّذِي يَرُوحُ وَيَغْدُو فِي الْمَحَبَّةِ مُغْرَضًا
وَأَشْرَفُ أَحْبَابِ الْفَتَى الصَّادِقِ الْوَفَا وَمَنْ لَمْ يَزَلْ فِي الْحُبِّ مِنْهُجُهُ الرِّضَا⁹³¹

وَمَنْ أَبْرَزَ الْحِكَمَ الَّتِي أَفَادَهَا فِي حَيَاتِهِ وَرَاحَ يُسَطِّرُهَا شِعْرًا، وَصَدَّقَ بِهَا مَا تَوَاتَرَتْ بِتَوَافُقٍ عَلَيْهِ
عُقُولُ الْعُقَلَاءِ، هِيَ أَنَّ الْمَرْءَ بِجَوْهَرِهِ لَا بِمَنْظَرِهِ، وَبِأَفْعَالِهِ لَا بِأَسْمَائِهِ، حَيْثُ يَقُولُ أَبُو الْهُدَى:

وَنُكْبِرُ لِلْخِصَالِ فَتَى نَحِيفًا وَحِينًا نُصْغِرُ الضَّخَمَ الْمُجَنَّتَا⁹³²

وَفِي أَنْفَاسِ هَذَا الْبَيْتِ مَا يَقْتَرِبُ مِنْ قَوْلِ الْأَوَّلِ - وَهُوَ الْعَبَّاسُ بْنُ مِرْدَاسٍ (ت. 18هـ/639م) -:

فَمَا عِظَمَ الرَّجَالِ لَهُمْ بِفَخْرٍ وَلَكِنْ فَخْرُهُمْ كَرَمٌ وَخَيْرٌ⁹³³

وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ يُشِيرُ إِلَى عَدَمِ الْإِنْخِدَاعِ بِالْمَظَاهِرِ وَإِلَى الْإِلْتِفَاتِ إِلَى حَقِيقَةِ الْجَوَاهِرِ، فَالْكَثِيرُ مِنْ لُئَامِ
النَّاسِ وَأَرَادِهِمْ لَمْ يَكُنْ لِحِصَالِهِمْ مِنْ سِتْرٍ سِوَى ثِيَابٍ مُوشَّاةٍ مُطَرَّرَةٍ، فِي حِينٍ أَنَّ الْكَرَامَ وَأَهْلَ الشَّيْمِ
الْحَمِيدَةِ وَالْخِصَالِ الْحَمِيدَةِ قَدْ سَتَرْتَهُمْ جُنَّةُ الْأَسْمَالِ وَقَلَّةُ ذَاتِ الْيَدِ:

فَكَمْ حِطَّةٍ فِي دَرَعِ شَخْصٍ مُقَمَّشٍ وَكَمْ هَمَّةٍ قَعَسَاءَ فِي ثَوْبٍ جَائِعٍ
وَكَمْ مُكْتَبِرٍ لَمْ يَرْفَعْ النَّاسُ قَدْرَهُ وَذِي قَلَّةٍ كَالْبَدْرِ عَالِي الْمَطَالِعِ⁹³⁴

وَهُوَ يَقْتَرِبُ بِهَذَا الْمَعْنَى مِنْ قَوْلِ الْحَرِيرِيِّ (ت. 516هـ/1122م):

⁹³¹ د.ر.ب، 42.

⁹³² د.ر.ع، 15.

⁹³³ العباس بن مرداس، ديوان العباس بن مرداس، تحقيق: يحيى الجبوري، (بغداد: دار الجمهورية، 1388هـ/1968م)، 59.

⁹³⁴ د.ر.ع، 46.

وَلَكُمْ أُخِي طَمْرَيْنٌ⁹³⁵ هَيْبَ لِفَضْلِهِ وَمَقُوفٍ الْبُرْدَيْنِ عَيْبَ لِفُحْشِهِ⁹³⁶

ووفق ما سبق يُمكنُ إجمالُ الحِكمِ التي أودعها شعره بالتركيز على حُكمِ الطِّباعِ وضرورةِ الحذر من اللِّئامِ، فحاول أن يُقدِّمَ للقارئِ خلاصةَ تجربتهِ في كشفِ أخلاقِهِم، ولذلك كان يرى أنَّ من أبرز الحِكمِ في الحياة أن ينتبه المرءُ إلى أخلاقِهِ ولا يتجاوز حدودَهُ، كما دعا في شعره الحِكميِّ إلى التدقيق في جوهرِ الأشخاصِ وحُسنِ اختيارِ الصِّديقِ الصِّدوقِ، وحرصَ على سَوَقِ كلِّ ذلكِ مُجرِّداً من صيغِ الأمرِ ومُرادفاتِهِ، وبذلك يكونُ إفرادُ محورِ الحكمةِ عن محورِ النُّصحِ والإرشادِ في شعر أبي الهُدَى الوعظيِّ أقربَ للصَّوابِ على الرَّغمِ من تقاربِ النُّقاطِ التي دارَ في فلكِها كُلُّ من المحوِّرينَ.

وبعد أن تمَّ الكلامُ على مُجملِ محاورِ الوعظِ والنُّقاطِ التي دارت عليها وقبل أن يُنكَلَمَ عن التَّيَجَّةِ تجدرُ الإشارةُ إلى أنَّ أبا الهُدَى قد كان يُذيلُ قصائدهُ المُتممِحةَ لغرضِ الوعظِ بِخَوَاتِيمَ يُمكنُ أن تمنحَ القصيدةَ ميزةَ براعةِ المقطعِ، حيثُ إنَّ الخاتمةَ كانت تُذيلُ القصيدةَ بما يجمعُ كلَّ ما ذُكِرَ فيها؛ فمن ذلك قولُهُ في خِتامِ إحدى القصائدِ الوعظيَّةِ:

واستصحب الإخلاصَ فالعملُ الذي تَمَسَّسُهُ شائِئُهُ الرِّيا لم يُقبَلِ
واعمل بنصحي إن فقهْتَ فكلُّ مَنْ يستغنِ بالمُعطيِ الكريمِ هو المَلِي⁹³⁷

فهو يَحْتِمُ نِصائِحَهُ الوعظيَّةَ بما ينفُخُ الرُّوحَ فيها إذا ما طُبِّقَتْ في ساحاتِ العملِ، وهو النُّصحُ بِمُراعاةِ الإخلاصِ لوجهِ الله، حيثُ إنَّ كُلَّ عملٍ شَيَّبَ بالرِّياءِ لن يحصد سوى العدمِ والخيبةِ والخسرانِ، ثم

⁹³⁵ مثنى طمرٌ وهو التَّوبُّ الخَلْقُ، يُنظرُ: الجوهري، "طمر"، 726/2.

⁹³⁶ القاسم بن علي الحريزي، مقامات الحريزي (بيروت: دار بيروت، 1398هـ/1978م)، 178؛ والمَقُوفُ يعني المزيَّنَ والرَّقِيقَ الجميلَ، يُنظرُ: ابن دريد، "فوف"، 245/1.

⁹³⁷ د.ت.ب، 87.

يُذِيلُ الخاتمة بتوصية يطلب فيها من السامع أن يعمل بجميع تلك النصائح ويعتمد على الله مُستغنياً به عما سواه فهو الكريم المُغني لمن استغنى به.

ولربما ختم وعظه -مع براعة المقطع- بالنصيحة التي ذُيِّلَت بالسلام على النبي الأكرم، كقوله وقد نصَحَ السامع بتعميم نفعه -ما استطاع- للخلق أجمعين، وبأن يُسلِّمَ جميع أموره مُعتمداً على مولاه رب العالمين، إذ منهج التسليم هو منهج النبي صلى الله عليه وسلم:

وتجرّد ما ساعد الحظّ للنّف ع فغفر الوري به بسام
واترك الأمر للإله وهذا منهج المصطفى عليه السلام⁹³⁸

وقد ينتقل من النصّح إلى الاختتام بالدعاء للمنصوح بأن يُكتبَ له النّفع بتلك النصائح التي اعتصرها صادق الحُبِّ والودّ من الناصح لمنصوحه، كقوله مخاطباً له بعد أن أنهى وصاياه:

إن تكن عن صدقٍ سرّ نشأت أسأل اللهم أن تنفعك⁹³⁹

ويلاحظ في ما سبق من الخواتيم براعة المقطع التي كان أبو الهدى يصبُّ اهتمامه عليها، إلا أنّه لربما أعرّض عن كلّ هذه الخواتيم ولجأ إلى ختم القصيدة برّد عجز بيتها الأخير على صدر بيت مطلعها، وهي حليّة لفظيّة من حلل التزيين البديعيّة، وإنّما يلجأ إليها الشاعِرُ حسبما يرى عبد الله الحامد إذا ما ارتجّع عليه بسبب تدافع الألفاظ وتزاحم الخواطر والأفكار، فيقفّل القصيدة باستدعاء صدر بيتها الأوّل، ومن هذا القبيل قوله في مطلع قصيدة وعظيّة زهديّة:

⁹³⁸ د.ت.ب، 73.

⁹³⁹ د.ر.ت، 231.

هو الدهر لا خل يدوم ولا أخ حوادثه الأيام تأتي وتُسح⁹⁴⁰

واختتامه لها بقوله:

فيا قلب خلّ الفانيات فإثما هو الدهر لا خل يدوم ولا أخ⁹⁴¹

وهذه الظاهرة الختامية تُعدّ من الظواهر التي شاعت بين الشعراء في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين.⁹⁴²

وفي ختام هذا الغرض الشعريّ يمكن التّوصّل إلى القول بالنتائج التالية:

- إنّ انطلاق الشّاعر في هذا الغرض وتدوينه للكثير من الأشعار فيه كان نابعا من البيئة التي عاش فيها ولها -وهي بيئة التّصوّف الإرشادية-، ولذلك فقد تنوّعت الموضوعات التي طرّقها في ثناياه وتَشعّبت لتشمل علاقة الإنسان برّبّه، وعلاقته بمن حوله، إضافةً إلى الجانب الزّهديّ والحكيميّ الذي اشتملت عليه أشعار هذا الغرض.
- قد لا يُبتعد عن الصّواب إذا ما قيل: إنّ أبا الهُدّى كان صادقا فيما يدعو إليه، إذ هو نابع عن إيمانٍ يقينيّ بما يقوله وينصح به، فلئن حوْطب من قبله من الوعاظ بأنّه يصطنع القول اصطناعا ولا يحمل نفسه عليه حتى قيل:

⁹⁴⁰ د.ر.ت، 231.

⁹⁴¹ د.ر.ت، 231.

⁹⁴² يُنظر: عبد الله الحامد، الشّعر في الجزيرة العربيّة خلال قرنين (الرياض: مطابع الإشعاع، 1402هـ/1981م)، 433، 434.

ما أَقْبَحَ التَّزْهِيدَ من وَاِعْظِ يُزْهِدُ النَّاسَ ولا يَزْهَدُ
لو كان في تزهيده صادقاً أضحى وأمسى بيئته المسجد⁹⁴³

فإنَّ سيرة أبي الهُدَى كانت قد شَهِدَتْ لَهُ بِالْإِعْرَاضِ عن مشاغلِ الدُّنيا والزُّهْدِ في زخارفها
بالانكبابِ على الكُتُبِ والعلمِ وعدمِ الاغترارِ بما نالَهُ من حظِّ دنيويٍّ وافرٍ فَسَمَتَهُ له
الأقدارُ الإلهيَّةُ؛⁹⁴⁴ مما يعني تأكيد صدقه في وعظه ونُصَحِهِ التَّزْهِيدِيّ؛ وقد أُنْتَجَ ذلك
صدقَ العاطفةِ في تضاعيفِ أشعاره، حتى إِنَّه ليشعرُ الواقفُ إزاء وعظه بحرارةِ العاطفةِ
التي حكمتها ألفاظُ الرِّفْقِ والتَّلَطُّفِ بالمنصوح، التي تُثيرُ مشاعرَ التَّأَثُّرِ والإقبالِ على الاتِّعَاضِ
في نفسِ المتلقِّي لها.

■ لم يكن شعرة الوعظي يحملُ الصُّورَةَ القائِمةَ القائِمةَ على تخريبِ الدُّنيا تماماً والانكبابِ
على العبادة، بل كان وعظه -حسبما ظَهِرَ من الموضوعاتِ المُشتمِلِ عليها- مُتَّزِناً يهتمُّ
بإعمارِ الدُّنيا من خلالِ إصلاحِ جميعِ العلاقاتِ التي تربطُ الإنسانَ بمن حوله كما دعا
المتلقِّي إلى إدراكِ خفايا شؤوناتِ عصره الذي يعيشُ فيه، وأن لا ينخرطَ مع غوغاءِ النَّاسِ
العُتائِيِّينَ المُسيِّسينَ بأعلامٍ أو بإعلامٍ أو بأقلامٍ؛ وقد كانت غايةُ الزُّهْدِ الذي دعا إليه هي
الحرصُ على أن لا تُعشي غشاوةُ الانشغالِ بإعمارِ الدُّنيا قلبَ الإنسانِ فتُنسيه حقيقةَ
فنائها وتقلِّبَ أحوالها؛ وهو في عموم وعظه اتَّخَذَ المعاني الدِّينيَّةَ ومصادرها مُنْطَلَقاً لكلِّ
ما نصَحَ به وأرشدَ إليه، مشفوعاً ذلك كُلُّهُ بأساليبٍ تُفيدُ الإقناعَ للمخاطَبِ المنصوح
(كالاقتباسِ والتَّضمينِ والتَّشبيهِ التَّمثيليِّ بالصُّورِ إلى جانبِ تبيانِ العواقِبِ والمآلاتِ).

⁹⁴³ قائل هذه الأبيات هو سُلَّمُ الحامير في حقِّ الشَّاعرِ العباسيِّ أبي العتاهية لَمَّا خالفت سيرته ما صمَّته أشعاره الوعظية من قيمِ الزُّهْدِ والتَّزْهِيدِ،
يُنظر: فروخ، تاريخ الأدب، 192/3.

⁹⁴⁴ يُنظر: الصَّبيَّادِي، الفرقان، 96.

■ أمّا بالنسبة للصورة البيانية والحلّة البديعية فقد قلّ بوضوح بروزها في هذا الغرض، قياساً إلى الأغراض الأخرى، كما أنّ الألفاظ والتراكيب قد كانت سهلة وواضحة خالية من التعقيد أو الغموض وقد تحوي في بعض المواضع ألفاظ التلطّف والتّجبُّب إلى المخاطب؛ كما لوحظ إكثاره من الاقتباسات؛ ولعلّ كلّ هذا كان مُستنداً إلى طبيعة الوعظ، إذ الغاية العظمى منه هو وصول التّصائح والوصايا مُجرّدة إلى المتلقّي لكي يتّصحّ ويتّعظّ بها، وليس المراد الأعظم منها إظهار الصّنعَة الشّعريّة أو البلاغيّة البيانيّة.

المبحث السادس: غرض الهجاء

يُعَدُّ هذا الغرض من الأغراض الشعريّة الأصيلّة في الأدب العربيّ منذ العصر الجاهليّ، وحسبما يذكر ابن رشيق فإنّ هذا الغرض -على رأي قومٍ من النقاد- قد عُدَّ قسيماً لنقيضه المديح في التّفَرُّدِ بُنيّة الشعر العربيّ، حيثُ رأوه مبنياً على هذين الغرضين فقط وكلُّ ما عداهما من الأغراض فهو فرعٌ عن أحدهما.⁹⁴⁵

والهجاء لغةً لفظةٌ مُرادفةٌ للهجو والتّهجاء وأصلها من الفعل (هجا)، وتعني الدّم⁹⁴⁶ الذي هو خلاف المدح، وحُصِّنَ الهجاء بالشّتم بالشّعر، حتى فُسِّرَ بأنّه "الوقية في الأشعار"، فإذا ما هجا شاعرٌ آخرَ مثله نَشَبَتْ بينهما "المُهاجاة"؛⁹⁴⁷ ولا يخرجُ المعنى الاصطلاحيُّ عن المعنى اللّغويّ إذ هو ذكرُ مساوئِ المَهْجُوِّ وعيوبِهِ وجميعِ النَّقائِصِ التي فيه.⁹⁴⁸

وبشكلٍ عامٍّ تعودُ أصولُ غرضِ الهجاء في بداياته إلى استعارِ نيرانِ التّفاحُرِ أو الحروبِ بين القبائلِ العربيّة، حيثُ ينهَضُ شاعرُ القبيلة فيعمد إلى سلبِ كلِّ كريمةٍ للقبيلة الأخرى وينسبها إلى قبيلته، أو أنّه ينظّم ابتداءً قصيدةً يريدُ بها خالصَ الهجاء لمن أَمَامَهُ، ثم مع بروزِ الحركة السّياسيّة المرتبطة بنماء العصبيّات القبليّة في العصر الأمويّ دخل الهجاء مرحلةً النّقائِصِ التي تهافّت عليها النّاس،⁹⁴⁹ إلّا أنّه مع فتورِ العصبيّات السّياسيّة راح الهجاء يتّخذُ طابعاً فرديّاً يصوِّرُ شاعرُ الهجاء فيه

⁹⁴⁵ يُنظر: القيرواني، العُمدة، 121/1.

⁹⁴⁶ يُنظر: الجوهري، "هجا"، 2533/6.

⁹⁴⁷ يُنظر: ابن منظور، "هجا"، 353/15.

⁹⁴⁸ يُنظر: ابن الأثير، جوهر الكنز، 309.

⁹⁴⁹ يُنظر: فروخ، تاريخ الأدب، 83/1، 361/1.

كلّ قبائح المهجور وينتقص منه مُظهرًا سوءاته وعيوبه،⁹⁵⁰ ولم يزل هذا النوع شائعًا فيما تلا ذلك من العصور الأدبية،⁹⁵¹ وصولًا إلى عصر أبي الهدي.

ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى أنّ هجاء أبي الهدي قد اتخذ طابعًا خاصًا، جعله مذهبًا مُتفردًا جامعا بين مذهبين من الهجاء هما - حسبما ميّرها عباس العقاد (ت. 1383هـ/1964م) - المذهب البدوي والمذهب الحضري،⁹⁵² وعلى ما يبدو أنّ تنقله وانقسام حياته إلى شطرين متوزعين بين حياة البادية وحياة الحاضرة - خان شيخون وإستانبول - كان قد أفرز هذه الصبغة التي تلوّن بها هجاؤه، فاصطبغ هجائه بصبغة المذهب البدوي ظهر خلال شعره الذي حرص فيه على أن يسلب من مهجوره جميع الفضائل التي تعتز بها النفس العربية البدوية الأصيلة - من جود وشجاعة وطيب محتد وشرف نسب - فلو سمعت أيّ أذن عربية بدوية صفات مهجوره لأيقنت أنّ المهجور من الأراذل وسفلة الناس؛ غير أنّ معاشرته للناس وإبرام العلاقات معهم وما أعقب ذلك من معاناة أسقمته تجعل الناظر يميل إلى إمكانية القول: إنّ مذهبَه اصطبغ من جانب آخر بصبغة المذهب الحضري، لأنّ أساس المذهب الحضري هو أن يكون الهاجي أنيسًا بفطرته، بخلاف المذهب البدوي الذي يشترط فيه أن يكون الشاعر نافرًا بفطرته.

ولفهم طبيعة العلاقة التي ربطت بين أبي الهدي والناس من حوله لا بُدّ من المرور على ما قيّده بنفسه مُتحدّثًا عن تجربته في العلاقات مع الناس والمجتمع المحيط به، إذ لم تكن بالتجربة التي ملؤها الصّفو أو السرور أو التعظيم المُفخّم - لما حظي به من مكانة خاصة عند السلطان عبد الحميد-، فعلى العكس تمامًا فإنّ شعره قد حكى ما يدُلّ على أنّه مُني بخيبات أمل كبيرة، وبُيِّن

⁹⁵⁰ يُنظر: مصطفى الشكعة، فنون الشعر في مجتمع الحملايين (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1378هـ/1958م)، 303.

⁹⁵¹ يُنظر: محمد التونجي، حول الأدب في العصر السلجوقي (بنغازي: مكتبة فورينا، 1394هـ/1974م)، 138.

⁹⁵² يُنظر: عباس محمود العقاد، ابن الترومي حياته من شعره (مصر: شركة مساهمة، د.ت)، 218-219.

حجمَ الألم الذي أورثته إيَّاه تلك الحَيَّيات والخِيانات ما قيَّدته أناملُهُ في كُتُبِهِ⁹⁵³ أو دواوينِهِ؛ ولو أفسَحَ المجالَ لرصدِ الحالِ في تلك العلاقاتِ لكان من خيرٍ ما يُوصِّفُها لسانُ أبي الهُدَى لَمَّا قال:

إِنِّي ابْتُلِيتُ مِنَ الزَّمانِ بِمَعشَرٍ أَطوارُهُم كَعجائبِ الأَيَّامِ
أَفْعالُ أعداءٍ وَقَوْلُ أَحِبَّةٍ وَطِباعُ أوغادٍ وَزِيُّ كِرَامٍ⁹⁵⁴

فعلى ما يبدو من وصفِهِ أنَّ علاقَاتِهِ مع النَّاسِ شابَّتْها العُصَصُ من ثَقُلِّبِ أهواءِ معشَرٍ منهم وتدنُّرِهِم بدثارِ التَّفاقٍ، بإظهارِهِم لَهُ مَرَضِيَّ الصَّدَاقَةِ ومَعسُولَ الكلامِ مع إبطائِهِم لَهُ نَقِيضَ ذلك كُلِّهِ من كَنِّ العداوَةِ والبَغْضاءِ وتَرَبُّصِ الشَّرِّ بِهِ، مما دفعَهُ إلى وصفِهِم بالأعداءِ الأوغادِ المُتَرَبِّصِينَ -زورًا- بحليَةِ الأصدقاءِ الكِرَامِ؛ وقد كان أعجَبُ عَجَبِهِ مِمَّنْ أفاضَ عليهم فيضَ الإحسانِ فبدَّلُوا المِلاحَةَ بالقَباحَةَ وقاحَةً وكُفَّرُوا بالجميلِ، وترسَّخَ في أعماقِهِ أنَّ هذا الجُحودَ والنُّكرانَ للجميلِ قد صارَ صِفَةً ظاهِرَةً في غالِبِ مَنْ أَحسَنَ إِلَيْهِ، حتى إِنَّهُ لم يُعَدِّ يستبَعِدُهُ من ألَطَفِ النَّاسِ وأَطْيَبِ المعادِنِ، فالطُّبَّاءُ الرَّقِيقَةُ قد تنقَلَبُ بعد جميلِهِ ذئابًا تنهَشُ عِرْضَهُ وتَعوي عليه؛ يقولُ واصِفًا عَجَبَهُ:

عَجِبْتُ لِأَبْناءِ الزَّمانِ وَإِنِّي أرى مَنْ لَهُم أَخْلَصْتُ وَدِّيَ أعجَبًا
يُقَابِلُ إِحْسانِي بِكُلِّ إِساءَةٍ فلو أَنَّنِي أَحْبَبْتُ رِيبًا تَذائِبًا⁹⁵⁵

غَيْرَ أَنَّهُ يُيَبِّئُ في ثَنائِهِ شِعْرَهُ ما يدلُّ على أَنَّ هَذِهِ الحَيَّياتِ والخِياناتِ لم تكن لِشَنِيئِهِ عَمَّا طُبِعَ عَلَيْهِ من كَرَمِ الأخلاقِ وشَرِيفِ الخِصالِ -رَغَمَ حِذاقَتِهِ وإدراكِهِ لِمَا أَكَنَّتْهُ صَدُورُهُمْ- حيثُ يقولُ واصِفًا حالَهُ

⁹⁵³ يُظَرَّرُ: الصَّبَّادِي، الفَرْقان، 2؛ المُولَّفُ نَفْسَهُ، نَوابِغُ الحُكْمِ، 4؛ المُولَّفُ نَفْسَهُ، صَوْتُ الحِزَارِ، 11.

⁹⁵⁴ د.ت.ب، 95.

⁹⁵⁵ د.ر.ت، 30.

مع مَنْ أدركَ بفراسته ما انطوا عليه من إضمارِ الخيانةِ لكنَّهُ تابعَ معهم بمنهجِ غضِّ الطرفِ والمعاملةِ بالحسنى علَّها تُجدي في نبيهِم عن فعلِ السَّوءِ:

تَفَرَّسْتُ فِي الْبَعْضِ الْخِيَانَةَ ثُمَّ لَمْ أَتَابِعْ فَوَادِيَّ وَاتَّبَعْتُ حَلِيبي
فَأُولَئِهِمْ قُرْبًا فَكَانُوا عَقَارِبًا وَأَقْبَحُ غَدْرِ النَّاسِ غَدْرُ قَرِيبٍ⁹⁵⁶

وهنا قد يَرِدُ على الْمُتَلَمِّسِ تَفَهُُّمَ نَفْسِيَّةِ الشَّاعِرِ تساؤلُ مفادُهُ أن هل أثَّرت تلك الخيانات في نفسيَّته وجعلت منه ينفِرُ عن النَّاسِ؟ وهل دفعته مجبوراً إلى أن يقبضَ يَدَ الإحسانِ مغلولَةً إلى عُقُقِ المعاملةِ معهم؟ ولربما يكونُ جزءٌ من الجوابِ مطروحاً في قوله بعد أن وَصَفَ كُفْرَانَ الكثيرين لجميله ومقابلتهم إحسانَهُ بالإساءة:

والحمدُ لله فكم خائِنٍ قَابَلْتُهُ بِالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ⁹⁵⁷

إذن فالشَّاعر لم يكن في أصلِهِ نافرًا من النَّاسِ لكي يُقالَ: إِنَّ هجاءَهُ مُنْتَمٍ للمذهب البدويّ -وهو القائمُ على نفورِ الشَّاعر أصلاً من النَّاسِ-، بل إِنَّهُ قد أَنَسَ النَّاسَ وَخَالَطَهُمْ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِمْ وَبَادَرَ بنصيحهم وإرشادهم، وإذما لُمِحَ الهجاءُ عنده فَإِنَّهُ نابعٌ من خيالاتِ الأملِ التي شَهِدَهَا مع بعضهم رغمَ مساحتِهِ للكثيرِ منهم، وإِنَّمَا برَزَ هجاءُهُ نَفَثَاتٍ أخرجها من صدرِهِ المحزون لتردِّي حالِ تلك العلاقات، فأفرَزَ بنتاجهِ الشَّعريِّ غرضَ الهجاءِ الموزَّعِ على شكلِ قصائد ومقاطع وتنف؛ ومن الممكن تصنيفُ هذا الهجاءِ -حسب أصنافِ المهجويين- إلى ثلاثةِ أقسام هي: (الأفراد، الفئات، الزَّمان)، وقد كان لكلٍّ منها ما يُميِّزُهُ عما سواه، وستُفردُ السَّطور القادمةُ كلاً على حِدة.

⁹⁵⁶ د.ر.ت، 29.

⁹⁵⁷ د.ر.ت، 70.

1 هجاء الأفراد

يُعَدُّ هذا الصِّنفُ الأقلُّ من بين أصنافِ الهجاء الأخرى عند الشاعر، حيثُ جاءَ بأشكالٍ لم تتعدَّ التَّنَفَّ أو التَّشْطِيرَ القصيرَ لبعضِ أبياتِ الفضلاء، وعلى الرَّغْمِ من أنَّ الشاعرَ كان يوجِّهُ فيه هِجاءَهُ إلى أشخاصٍ مُعَيَّنِينَ فيذمُّهم ويذكر نقائصهم، إلا أنَّ النَّاظِرَ فيه لا يلمَحُ أسماءَ تُعَيَّنُ هؤلاء الأشخاص، فأبو الهُدَى كان يكتفي بتوجيه الهجاءِ إلى فعلِ الشَّخصِ، ويُمكنُ أن يُفسَّرَ عدمُ ذكرِ أسماءِ المهجَّوِينَ باصطباجِ لسانِ الشاعرِ بالآثرِ الدِّينِيِّ الذي قد يقبِضُ جَمَاحَ اللِّسانِ عن التَّشْهيرِ بالأشخاص، ولم يلمَحْ في كلِّ شعره الهجائيِّ اسمًا لمهجَّوٍ سوى في موضعٍ واحدٍ، حيثُ وجَّهَ الكلامَ لمهجَّوِهِ ذاكِرًا اسمَهُ وناعتًا له بأشنعِ الأوصافِ فقال:

إلى الأعورِ الدَّجَّالِ أفعى مُويلِحٍ إشارةً مَنْ يفدي جنابَ الرِّفاعيِّ
كفرتَ جميلَ ابنِ الرِّفاعيِّ نابحًا وسرُّ الرِّفاعيِّ قاتلٌ للأفاعيِّ⁹⁵⁸

وأغلبُ الظَّنِّ أنَّ المهجَّوَّ كان قد كفرَ جمائلِ أبي الهُدَى التي أسداها إليه وآذاهُ في نسبِهِ واستنقصَ من شرفِهِ بالنِّسبةِ إلى آلِ الرِّفاعيِّ، حيثُ يزعمُ أبو الهُدَى أنَّ مهجَّوَهُ قد تطاولَ على النَّسبِ الشَّرِيفِ لآلِ الرِّفاعيِّ، فعندئذٍ انبرى في هجائه بهذه التَّنفةِ الشَّعْريَّةِ، التي رماهُ فيها بالكذبِ والدَّجَلِ والعورِ، وجعلَ منه بالاستعارةِ المكيَّةِ كلبًا نابحًا بالباطلِ وإنكارِ الجميلِ؛ مع تعريضِهِ بأنَّ هذا المهجَّوَّ لم يدرِ أنَّ أبا الهُدَى لا يهابُ أحدًا ويفدي بروحه جدَّةَ الرِّفاعيِّ الذي اتَّصلتْ به نسبُهُ الشَّريفةُ الحُسَيْنِيَّةُ، وجعلته نقيبًا لجميعِ الأشرافِ في بلاده.

⁹⁵⁸ د.ر.ب، 66.

وعلى ما يبدو أنَّ مسألة النَّسب الشَّريف كانت قد أخذت حيزًا واسعًا من تفكير أبي الهُدَى، وذلك بسبب ارتباط نسبهِ بالشَّرفِ الحُسَيْنِيِّ وكونِ هذه النَّسبة إحدى مقوِّمات شخصيَّته التي كان يراها تحضُّه وتدفع به إلى التَّحقُّق بما تقتضيه كمالات هذه النَّسبة، إضافةً إلى قيامه بمهمَّة نقيب النُّقباء الأشراف؛ ولهذا فإنَّ قسمًا من هجائه قد انصَرَفَ إلى مُدَّعي الشَّرف بالنَّسبة المزوَّرة إلى آل البيت، فمن ذلك قوله في هجاء أحد المُدَّعين الذين خالفتِ فعائلهم ما يقتضيه الشَّرف النَّسبيّ - ويلاحظ أنَّه أهمل تسمية المُدَّعي المهجَّو -:

قل للشَّريف بزعمه مع أنَّه من سقم خِسَّتِه بغير علاج
 قطعته صدمة زيعه وهو الذي بفعاله من عنصرِ الأعلاج⁹⁵⁹
 أتصحَّ نسبُك التي قد أوضحت ما فيك مطويٌّ من الأوشاج⁹⁶⁰
 لو أنَّها صحت لكانت مهَّدت عذرَ اليزيد وحجَّة الحجاج⁹⁶¹

فهذا الشَّريف قد لازمت الحِسَّة فعاله حتى أضحي بها سقيمًا لا يُرجى له أيُّ بُرءٍ، وقد كذَّبت فعاله نسبته إذ برزت للعيان كأخلاق غلاظ الكُفَّار، حتى أبرزت حقيقة نسبهِ الأصلي، إذ لو كانت أخلاق الأشراف المنسوبين إلى آل البيت كفعالِ هذا المُدَّعي فحقُّ للتَّاريخ أن يعذر قتلَ آل البيت ومُبغضِيهم، فقد استوجبت مثلُ هذه الفِعالِ مثلَ تلك المعاملة، وأبو الهُدَى بذلك يُبالغ في ذمِّ فعالِ هذا المهجَّو الذي لم يرعَ حقوق ما ادَّعاه من النَّسبِ الشَّريف، ويطعنُ في نسبهِ ويرميه بالزَّيف والضَّلال.

⁹⁵⁹ واجده عُلج وهو الرَّجلُ الشَّدِيد الغليظ الضَّخم من كُفَّارِ العجم، يُنظر: ابن منظور، "علج"، 326/2.

⁹⁶⁰ يُريد أن نسبَه ليس خالصًا إلى آل البيت الأطهار بل إنَّ نسبَه مختلطٌ فلا ينتمي إليهم، وقد أوضحت ذلك أفعاله وفضحت كذبه، يُنظر: أبو القاسم إسماعيل الصَّاحب بن عبَّاد، المحيط في اللغة، تحقيق: محمَّد آل ياسين، (بيروت: دار عالم الكتب، 1414هـ/1994م)، "شجو"، 140/7؛ ابن منظور، "وشج"، 399/2.

⁹⁶¹ د.ر.ت، 65؛ والأبيات تشطيرٌ لشاعرٍ ذكر أبو الهُدَى أنَّ اسمه "الجبرتي".

وفي هجاء أبي الهدي يبرز جلياً تعظيمه للحقوق التي تُوجبها النسبة الشريفة على المرء من شريف الأخلاق وجميل السمائل، فهو لما راح يهجو مُدّعياً آخر ممن زور انتسابه لآل البيت، انتقصه بأن طبايعه تُكذّب نسبه المُدعى زوراً وافتراءً، إذ لو كان حقيقياً لاتّصف بشيمة الجود والسّخاء، لكن طبايعه نسبته إلى أحسن الناس من لئام الباهليين،⁹⁶² حيث يقول هاجياً هذا المُدعي النسبة إلى سُرّة قُريش، وذاماً له على شدّة بُخله - بعد أن استعمل التّكرار والجناس (قُريش) - أنّه يبيع كلّ قبيلة قُريش بقرشٍ واحد:

عجباً من كاذبٍ في زعمه أنّه من زهرٍ سادات قُريش
باهلي الطّبع لو جرّيته تشتري منه قُريشاً بقُريش⁹⁶³

ولم يتجاوز هجاء الأفراد هذا الحدّ من التّف الشّعريّة، التي لم يكن بها ذكر لأسماء معيّنة لأشخاصٍ مقصودين سوى ذاك الذي تعدّى على نسب الشاعر، ويُلاحظ أنّ جميع شواهد الهجاء في هذا الصّنف قد ارتبطت بما يخصّ النسب الشّريف، ولربّما أملاها الشاعر بدافع من الوظيفة التي أوكل بها من الإشراف على نقابات الأشراف وتعيين نقبائها.

⁹⁶² نسبة إلى باهلة وهي قبيلة من قبائل العرب يُستنكف من النسبة إليها، حتى قيل:

"إذا قيل للكلب يا باهلي عوى الكلب من لؤم هذا النّسب"

يُنظر: صلاح الدّين خليل بن أبيك الصّقديّ، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط-تركلي مصطفى، (بيروت: دار إحياء التّراث، 1420هـ/2000م)، 147/24.

⁹⁶³ د.ت.ب، 59.

2 هجاء الفئات

إنّ هذا الصّنف قد يُمكنُ عدُّه من الهجاء المُثري للنّقْد الاجتماعيّ، حيثُ يكونُ الشّاعرُ في هذا النّوع من الهجاء مُتجاوزًا لعلاقته مع الأفراد، ومتوجّهًا إلى فئات المُجتمَع بشكلٍ عام، وكأنّه يطمحُ إلى تقويم ما يراه مثاليًا تتعارضُ مع القيمِ المُثلى المُشتركة بين جميع العقلاء من عناصرِ المُجتمَع الذي يعيش فيه، عبرَ تعريّة المساوي التي ظهرت أمام عينيه لفئةٍ من فئاتِ هذا المُجتمَع، ولذلك فإنّ هذا الصّنف من الهجاء عند أبي الهدي يُمكنُ أن يُطلقَ عليه ما سمّاه الدكتور أحمد فوزي الهيب (ت. 1442هـ/2021م) بالنّوع الهجائيّ الإيجابيّ "الذي تجاوز الحدود الفردية الضيقة ليتناول ما يراه من مثالب ذات آثار سلبية على المجتمع"؛⁹⁶⁴ ولربما كانت إقامته في عاصمة الدولة العثمانية - إستانبول - التي تردُّ إليها فئاتٌ مُتنوّعةٌ من كلّ حدبٍ وصوبٍ قد أتاحَتْ له رؤيةً واضحةً لم يشبّها تخمينٌ أو تكهنٌ لما يجري في ساحة المُجتمَع من الحوادث؛ كما يُمكنُ القولُ بتوّج هجائه على ثلاث فئاتٍ هي:

- فئة المُعارضين والمُعرضين عن قيم الإسلام والمُنبرهين بالعُرب.
- فئة المُدّعين من المُتصوّفة.
- فئة الحُساد.

أ فئة المُعارضين والمُعرضين

ويتمثّل هجاؤه لهذه الفئة في نقدِ الحالة التي وصلوا إليها من الانسلاخ عن القيم والأخلاق الإسلامية، والتّقليد الأعمى للغربيين بدعوى الانفتاح والتّحضّر والتّمدّن، بينما هم في حقيقتهم إنّما

⁹⁶⁴ أحمد فوزي الهيب، الحركة الشعريّة زمن المماليك في حلب الشهباء (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1406هـ/1986م)، 164.

يَجْرُونَ لَاهِثِينَ وراءَ شهواتِهِم السُّفْلِيَّةِ وَمَلَذَاتِهِم الدُّنْيَوِيَّةِ الدَّنِيَّةِ، مُتَّخِذِينَ مِنْ ذَلِكَ التَّقْلِيدِ سِتَارًا لِيُعَادُوا بِهِ الْإِسْلَامَ وَخَلِيفَتُهُ عَبْدَ الْحَمِيدِ الثَّانِي؛ يَقُولُ أَبُو الْهَدَى مُسْتَحْدِمًا الْكِنَايَةَ عَنْ ضَلَالِ مَسِيرَةِ هَذِهِ الْفِتْنَةِ (لَا سَهْلٌ وَلَا أَجْبَالٌ) وَسُلُوكِهَا الطَّرِيقَ الْمُوَحِّشَ الْخَاطِئَ السَّيِّئَ الْعَاقِبَةَ (بُرِّ طَرِيقِهِمْ أَوْحَالٌ):

رَامَ التَّفَرُّجَ بَعْضُهُمْ فَتَمَرَّقُوا فِي السَّيْرِ لَا سَهْلٌ وَلَا أَجْبَالٌ
صَقَلُوا الشُّعُورَ وَمَسَدُوا أَثْوَابَهُمْ وَمِنَ الْبَطَالَةِ فَوْقَهُمْ أَثْقَالٌ
رَفَضُوا لِسُوءِ الْحِطِّ عَهْدَ نَبِيِّهِمْ وَعَدُوا عَلَى الدِّينِ الْمُبِينِ وَصَالُوا
آرَأَوْهُمْ خَطَأً وَكُلُّ زَعْوَمِهِمْ غَلَطٌ وَبُرِّ طَرِيقِهِمْ أَوْحَالٌ⁹⁶⁵

فأبو الهُدَى يهجو هذه الفِئْتَةَ بأنَّ أفرادَهَا طَمَحَتْ بِهَمِّ خِيَالَتُهُمْ لِلْوُصُولِ إِلَى مَا بَلَغَتْهُ الْحَضَارَةُ الْغَرِيبَةُ -الْإِفْرَنْجِيَّةُ-، لَكِنَّ هَمَّهُمْ سَارَتْ بِهَمِّ فِي الطَّرِيقِ الْخَاطِئِ، حَيْثُ فَهَمُوا الْحَضَارَةَ بِأَنْ يُصَفِّفَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ شَعْرَهُ عَلَى الْهَيْئَةِ الْإِفْرَنْجِيَّةِ وَأَنْ يَشْفَعَ ذَلِكَ بلبس لباس الْإِفْرَنْجِ، فِيهِتَمَ بِالْقَشْرِ وَيُهْمِلَ اللَّبَّ، وَيَهْجُرَ دِينَ نَبِيِّهِ الْعَظِيمِ وَيَخُونُ مِيثَاقَ الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ الرَّبَّانِيَّةِ بِنَصْبِ رَايَةِ الْعَدَاءِ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَيَكْتَفِي بِالتَّشْدِيقِ هَمَزًا وَلَمَزًا بِالْهَجُومِ عَلَى الشَّرْعِ الْحَنِيفِ، فِي حِينٍ أَنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ لَمْ يُطَالِبْ نَفْسَهُ بِالْعَمَلِ وَالتَّهَوُّصِ بِالْأَسْبَابِ الَّتِي جَعَلَتْ الْإِفْرَنْجِيَّيْنَ -الْغَرِيبَيْنِ- يَتَقَدَّمُونَ سَابِقِينَ أُمَّتَهُ وَيَتْرَكُونَهَا خَلْفَهُمْ فِي رَكْبِ الْحَضَارَةِ؛ وَمِنْ أَجْلِ هَذَا اسْتَطَرَدَ فِي هَجَائِهِمْ، مُسْتَعْمِلًا مُرَاعَاةَ النَّظِيرِ (الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ)، وَاسْتَحْضَرَ الِاسْتِعَارَةَ الْمَكْنِيَّةَ الْمُرَشَّحَةَ لِمَا جَعَلَ هَؤُلَاءِ الْمَهْجُودِينَ بِهَائِمًا ثُمَّ حَذَفَهَا مِنَ التَّرْكِيبِ وَذَكَرَ شَيْئًا مِنْ لَوَازِمِهَا وَهُوَ (الْمُرَاحُ)⁹⁶⁶ وَلَمْ يَكْتَفِ بِهَذَا وَإِنَّمَا زَادَ بِأَنْ جَعَلَهُمْ (حِلْسًا)⁹⁶⁷ لِذَاكَ الْمُرَاحِ، زِيَادَةً

⁹⁶⁵ د.ر.ت، 190.

⁹⁶⁶ هُوَ الْمُنَاخُ وَالْمَأْوَى الَّذِي تَبِيْتُ وَتَأْوَى إِلَيْهِ الدَّوَابُّ مِنَ الْإِبِلِ وَالْغَنَمِ لَيْلًا، يُنْظَرُ: الزَّيْدِيُّ، "روح"، 419/6.

⁹⁶⁷ الْحِلْسُ كِسَاءٌ يَوْضَعُ تَحْتَ بَرْدَعَةِ الْبَعِيرِ، وَيُسْتَحْدَمُ أَيْضًا فِي الْبُيُوتِ، يُنْظَرُ: الْجَوْهَرِيُّ، "حلس"، 919/3؛ وَالْمُرَاحُ

في الإقذاع والذم لهؤلاء المهجورين الذين أقعدتهم بطالتهم في دست الخمول والكسل، وقد برز في أبياتهِ تعظيمُهُ للعلم لما استعار له -استعارةً تصريحيةً- وصف السناء المتألي الذي أهمله من هجائهم وأعرضوا عنه:

طَرَحُوا الصِّنَاعَةَ وَهِيَ دِينًا تُبْتَعَى فَالْكُلُّ جِلْسٌ مُرَاحٍ بَطَالُ
لَا الْعِلْمُ بِالنَّظَرِ اسْتَفَزَّ بِعِزِّهِمْ وَبِهِمْ تَلَالُأٌ مِنْ سَنَاءِ كَمَالُ
وَكَذَا الصِّنَاعَةُ لَمْ تُؤَيَّدْ وَهُمْ كِي يَسْتَرِ الْعَيْبَ الْقَبِيحَ الْمَالُ
خَلَطُوا السِّيَاسَةَ بِالْفَسَادِ لِحِيلِهِمْ فَتَبَايَنَ الْأَفْعَالُ وَالْأَقْوَالُ⁹⁶⁸

فهم -بنظره- فئة لم يكن نصيبها إلا غشاوة الأبصار بحضارة الإفرنج، حيث تفهقر أفرادها حاقدين على دينهم وهما منهم أنه سبب التأخر عن ذلك الركب، فاكتفوا بمعارضة الدين ودولته، والقعود في فخاخ البطالة والكسل، دون أن يحملوا أنفسهم على تعلّم الصناعات الجديدة أو الإبحار تعمقاً في دراسة العلوم الحديثة على الرغم من أنّ الدين الصحيح قد عدّ العلم وتعلّمه جزءاً من الديانة يُوجز عليه المرء ويُجزى أجزل الثواب؛⁹⁶⁹ فلا هم فهموا حقيقة الزمان وطبيعته، ولا هم فهموا حكمة الشرع وأحكامه، بل اكتفوا بكيل الاتهامات والافتراءات وقعدوا عاجزين في ساحات البطالة، حتى صاروا سبّةً وعاراً على دينهم وعصرهم:

وَتَعَلَّمُوا الزُّورَ الْقَبِيحَ فَقَوْهُمُ كَذِبٌ وَزُورٌ فَاسِدٌ وَوَبَالُ
جَهَلُوا الزَّمَانَ وَحِكْمَةَ الشَّرْعِ الْمُصَا نِ فَأَظْلَمَ الْأَرْجَاءُ وَالْأَطْلَالُ⁹⁷⁰

⁹⁶⁸ د.ر.ت، 190.

⁹⁶⁹ يُنظر: ابن ماجة، "الإيمان وفضائل الصحابة والعلم"، 1 (رقم 223).

⁹⁷⁰ د.ر.ت، 190.

وتارةً يهجو هذه الفئة بوصمهم بعارِ انعدامِ الآدابِ الحسنة، وخلوّهم من صدقِ المقال،
وتنكّرهم بين المسلمين بسيما الإسلام ولسان أهليه، مع أنّهم سبّةٌ على الشرع الحنيف شبّههم -
تشبيهاً مُرسلاً مُجَمَّلاً- بالمُصيبةِ العظيمةِ التي حلّت بساحةِ الإسلام:

قَوْمٌ تَعَالَوْا بِسُوءِ الْخُلُقِ وَالْأَدَبِ وَفَتِيَّةٌ صَدَّرَتْهُمْ هِمَّةُ الذَّهَبِ
وَكُلُّهُمْ بِسِمَاتِ الْمُسْلِمِينَ وَفِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ هُمْ لِلدِّينِ كَالنُّوْبِ⁹⁷¹

فهم فئةٌ من النَّابتةِ الذين أعلتْ مراتبهم الأموال، ورفَعَ أصواتهم سوءُ الأدبِ والخِصال، ولولا المال لَمَا
ارْتَفَعُوا وَلَمَا عُرِفُوا، إذ لا عقل لهم ولا رأي وإنما صولةُ الذهبِ وتأثيرُ قوّتهِ التي استعارَ لها -استعارةً
مكنيةً- وصفَ ذاتِ إنسانيةٍ تمتلكُ الهِمّةَ الفعّالةَ التي جعلت لهؤلاءِ النَّابتةِ ناطقةً من الألسن، فراح
أبو الهُدَى يهجو ما فاهت به ناطقَتُهُمْ قائلاً:

تَفَلَسَفُوا بِعَقُولٍ كُلُّهَا غَلَطٌ بَحْثٌ سَقِيمٌ وَقَاسُوا الرَّأْسَ بِالذَّنْبِ⁹⁷²

ويعضي أبو الهُدَى يطرحُ تلكَ الأفكارِ التي لاكتها ألسُنُ تلكَ الفئةِ التي يراها مُتَحَفِيَةً بقناعِ الإسلامِ
زوراً ونفاقاً؛ فَمِنْ قَائِلٍ بِفِلْسَفَةِ الْحُلُولِ وَالْإِتِّحَادِ⁹⁷³ وَآخَرٍ يَدَّعِي بَأْنَ الطَّبِيعَةِ هِيَ الَّتِي أَوْجَدَتْ نَفْسَهَا،
وَمُدَّعٍ إِبْطَالَ يَوْمِ الْمَحْشَرِ وَالْجِزَاءِ، وَيُرَدِّدُ الْجُهْلَاءُ مَا لَاكْتَهُ تِلْكَ الْأَلْسُنُ وَيَنْشِرُونَهُ مَزُورِينَ لِحَقَائِقِ الدِّينِ
بَيْنَ أَفْرَادِ الْمُجْتَمَعِ عَلَى مَرَأَى وَمَسْمَعٍ مِنَ الْجَمِيعِ دُونَ أَدْنَى حَجَلٍ، حَيْثُ يَقُولُ مُضْمِنًا كَلِمَاتِهِ
الطَّبَاقِ (الْمُنْفَضَتِ/شَاْمَخِ الرَّتَبِ، فَتَقِ/رَتَقَتِهِمْ، الْجَدِّ/اللَّعْبِ):

⁹⁷¹ د.ت.ب، 20؛ والتّوب هي المصائب والنّوازل، يُنظر: أحمد مختار، 2300/3.

⁹⁷² د.ت.ب، 21.

⁹⁷³ ادّعاء شهود الكون كلّهُ أنّه هو الحقّ المطلق، يُنظر: المرجاني، التعريفات، 8، 92.

كَيْدًا لَقَدْ لَعِبُوا بِالَّذِينَ فَانْخَفَضَتْ أَحْكَامُهُ حِينَ نَالُوا شَامِخَ الرَّتَبِ
وَالْجَهْلُ أَعْيَا الْوَرَى عَنْ فَتَقِ رَتَقَتِهِمْ وَاسْتَهْدَفَ الدِّينُ بَيْنَ الْجَدِّ وَاللَّعِبِ⁹⁷⁴

ويظهر - كما في البيت الثاني - جمع أبي الهدي إلى جانب الهجاء طرْحًا خَفِيًّا مِنْهُ لِلْحُلُولِ الَّتِي تُوَاجَهُ
بِهَا هَذِهِ الْفِتْنَةُ مِنَ الْمُعَارِضِينَ الْمُعْرِضِينَ الَّذِينَ اسْتَهْدَفُوا الدِّينَ وَهُوَ التَّسْلُحُ بِسِلَاحِ الْعِلْمِ، إِذْ لَوْلَا
الْجَهْلُ وَالْجُهْلَاءُ لَمَا اسْتَشْرَى خَطَرُ هَذِهِ الْفِتْنَةِ الَّتِي هَجَّاهَا بِالزُّورِ وَالنِّفَاقِ وَسُوءِ الْأَخْلَاقِ وَالْفَلَسَفَةِ
الْهَابِطَةِ؛ كَمَا يَظْهَرُ أَيْضًا لَمَّا هَجَّاهَا الْمُنْبَهَرِينَ بِحَضَارَةِ الْغَرْبِ الْمُعَادِينَ لِلْإِسْلَامِ طَرَحُهُ لِحَلِّ نَاجِعٍ هُوَ
الْأَخْذُ بِأَسْبَابِ التُّهُوسِ عِنْدَ الْغَرْبِ مِنْ صِنَاعَةٍ وَعِلْمٍ مُسْتَجَدٍّ وَعَدَمِ الْاِكْتِفَاءِ بِتَقْلِيدِهِمْ فِي الْمَاكِيلِ
وَالْمَشَارِبِ وَالْمَلَابِسِ، وَهُوَ بِذَلِكَ يَقْتَرِبُ بِنَظَرَتِهِ مِنْ ذَاتِ النَّظَرَةِ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَ السُّلْطَانِ عَبْدِ الْحَمِيدِ
الثَّانِي؛⁹⁷⁵ وَهَذَا قَدْ يُؤَكِّدُ تَصَوُّبَ الرَّأْيِ الْقَائِلِ بِتَصْنِيفِ هَذَا النَّوعِ مِنَ الْهَجَاءِ عِنْدَ أَبِي الْهَدْيِ ضَمْنِ
مَا يُسَمَّى بِالنَّقْدِ الْاجْتِمَاعِيِّ.

ب فئة المتصوِّفة

وهي الفئة التي يرى الشَّاعِرُ أَفْرَادَهَا دُخْلَاءَ عَلَى التَّصَوُّفِ الْحَقِيقِيِّ، وَمِنَ الْجَدِيرِ بِالذِّكْرِ أَنَّ
هَجَاءَهُ مُنْطَلِقٌ مِنْ كَوْنِهِ مُتَقَلِّدًا لِمَنْصَبِ شَيْخِ الْمَشَايِخِ، فَهُوَ غَيْرُ بَعِيدٍ عَنْ أَعْمَاقِ الْأَجْوَاءِ الْحَقِيقِيَّةِ
لِمَشَايِخِ التَّصَوُّفِ آنَذَاكَ، وَقَدْ بَرَزَتْ فِي شِعْرِهِ⁹⁷⁶ صُورَةُ التَّصَوُّفِ الْحَقِيقِيِّ الَّتِي ارْتَسَمَتْ فِي ذَهْنِهِ خِلَالِ
مَا بَنَتْهُ فِي وَعْظِهِ نَاصِحًا لِأَهْلِ التَّصَوُّفِ، حَيْثُ كَانَ يَرَى أَنَّ الطَّرِيقَةَ مُحْضُ اتِّبَاعٍ لِسُنَّةِ أَحْمَدَ صَلَّيَ اللَّهُ عَلَيْهِ

⁹⁷⁴ د.ت.ب، 21.

⁹⁷⁵ يُنْظَرُ: حَرْب، مُنْكَرَاتِ السُّلْطَانِ عَبْدِ الْحَمِيدِ، 164.

⁹⁷⁶ وَذَلِكَ فِي غَرَضِ الْوَعْظِ، يُنْظَرُ: ص 269-270.

،سُم وما خالف ذلك فهو ضلالٌ في ضلالٍ -على حدِّ قوله-؛ ومن أجلِ هذا فإنَّ أبا الهُدَى راح يهجو كلَّ مُخالفٍ لهذا الحقِّ الأبلج من اتَّخَذَ الطَّرِيقَةَ أَسْلُوبًا لِحِدَاعِ النَّاسِ أو إشغالهم بما لا يُجدي.

وقد كان يُسَلِّطُ هجاءَهُ على المشايخ المدَّعين للإرشاد زورًا ومُتَنَانًا ويعيُّبُهُم بأنَّهم أرادُزِلُ النَّاسِ، فكُنِّيَ بقوله (لا قال ولا حال) عن تردِّي حالتِهِم وسوءِ طبائعِهِم، فلا هم اهتَدَوْا بعلمٍ يُتَفَقَّحُ به ولا هم تَزَكَّوا بِزَكِيِّ الأخلاق والأفعال، وإِنَّمَا رَأَسُ ما لَهُم الأمانِي والآمالُ وسَكْرَةُ أضغاثِ الأحلام التي أبطلت كلَّ عزيمةٍ منهم على التَّغيير أو الإحسان؛ يقولُ حاجيًا لهم بأنَّهم "الطَّعَامُ"⁹⁷⁷ الذين ضَلُّوا عن منهجِ الحقِّ المستقيم:

وَطَعَامٌ قَوْمٌ تَزْعُمُ الْإِرشَادَ لَا قَالَ وَلَا عِنْدَ التَّزَاخُمِ حَالٌ
قَدْ أَخْطَأُوا النَّهْجَ السَّوِيَّ وَأَبْطَلَتْ عَزَمَ الْعَزَائِمِ مِنْهُمْ الْآمالُ⁹⁷⁸

ويكادُ يُكْذِّبُ الواقعَ المريرَ الذي يعيش فيه من تصدِّي الجُهِالِ لمقامِ الإرشاد فيظنُّ أنَّه في أحلامٍ ليست لها أيُّ علاقَةٍ في حقيقتِهِ الواقع، فيقول:

جاهلٌ مُرْشِدٌ وَخَبَلٌ⁹⁷⁹ أَمِيرٌ ما لهذا المنام من تعبيرٍ
هذه آيَةُ الزَّمانِ فهاتوا أَسْمِعُونَا غَرَائِبَ التَّفْسِيرِ⁹⁸⁰

فهو يتعجَّبُ من الواقعِ المريرِ في عصرِهِ من انقلابِ الموازين، ولا يراه إلا من أضغاثِ الأحلام التي لا تفسيرَ لها، إذ المنطقُ العقليُّ لا يقبلُ بهذا العبثِ الحاصل عند هذه الفِتَّة، فيهجوهم بأنَّ الجُهِالَ منهم

⁹⁷⁷ أوغادُ النَّاسِ وسَفَلَتُهُم، يُنْظَرُ: ابن منظور، "طعم"، 368/12.

⁹⁷⁸ د.ر.ت، 190.

⁹⁷⁹ فاسد العقل، يُنْظَرُ: الجوهري، "خبل"، 1682/4.

⁹⁸⁰ د.ر.ب، 37.

قام الواحد منهم بصورة مُرشِدٍ للخلق، بل ويدّعي زوراً ومُبتَغناً أنّه على قَدَمِ رجالات السّلف الصّالحين أهل صدق المعاملة مع الله، يقول مُستعمِلاً الجنس الاشتقائيّ (الحبل/البُلخي):

وَالْحَبْلُ كَالْبُلْخِيِّ صَارَ عَارِفاً بِهِ وَمَطْمُوسُ الْفُؤَادِ قُطْباً⁹⁸¹

فهو يهجوهم بأنّ كلّ محبٍول عقلٍ وفاسِدٍ طَوْرٍ قد صارَ يجلسُ مُتَصَدِّراً في مقامِ الإرشادِ بِثَقَّةٍ وَقَوَّةٍ يتكلّمُ وكأنّه الزّاهد المشهور والمجاهد الكبير شقيق البُلخيّ (ت. 194هـ/810م)،⁹⁸² بل وكلُّ مَنْ طُمِسَتْ بصيرتُهُ أُضْفِيَ عليه من الجُهَالِ كلّ عالٍ من الألقاب وشريفٍ من الرُّتَب؛ وتُعَدُّ هذه الصِّفَة -إلقاء الألقاب جُزْأً- من أبرز الأشياء التي هجا الشّاعرُ بها هذه الفئَة، حيثُ يرى ضمنَ قصيدةٍ أُخرى -بثّ في كلماتها ما في قلبه من الحُزن- أنّ الصّالحين قد ذَهَبَتْ رِكائِبُهُمْ، وَأَقْفَرَتِ الدِّيَارُ من بعد رحيلهم وبقيت هذه الفئَة من المُدَّعين تتملُّ بسُكْرَةِ الادِّعاءاتِ والخيالاتِ الفارِغة بتعظيم هذا وذاك من المشايخ الضّالّين، فيقول:

رَاحَ الْكِرَامُ الصَّادِقُونَ وَقَدْ مَضَوْا وَتَخَالَفَ الْأَطْوَارُ وَالْأَزْمَانُ
تَمْضِي الرِّجَالُ عَلَى خِيَالٍ زُعُومِهَا وَكَذَا فَلَانٌ شَأْنُهُ وَفَلَانٌ⁹⁸³

ومن جُمْلَة ما هجا به أبو الهُدَى هذه الفئَة ما رَمَاهَا به من تَلَبُّسٍ بِأَزْيَاءٍ مُعَيَّنَةٍ يُقَلِّدُونَ بها الأوائلَ من قافلةِ التّصوّفِ الحقيقيّ، مع انحصارِ الكثيرين منهم بقوْعةِ الرُّموزِ والحروفِ والتّكهُناتِ للمستقبل، ويُرافِقُ ذلك تقاعُسٌ عن العلم الحقيقيّ، وبطالَة حَطَّتْهم في دَرَكَاتِها عن مراتبِ التّرقّي في درجاتِ منازلِ العلم والأخلاق العليّة، حيثُ استخدَمَ التّشبيه التّمثيليّ ليجعلَ من تشبُّه هذه الفئَة

⁹⁸¹ د.م.ش، 49.

⁹⁸² يُنظر: الزّركلي، الأعلام، 171/3.

⁹⁸³ د.ر.ت، 273.

-زورًا- بالأوائل من القوم الصالحين كمُشابهة بُغاثِ الطَّيرِ لسباعِها؛ فبعد أن ساقَ أبياتَ جدِّه أحمد الصَّيَّادِ القائلِ في قطعةٍ له مُحاطِبًا أحدَ أفرادِ هذه الفِئَةِ، مُعَرِّضًا بتفَاعُصِهِ عن العلمِ وهبوطِهِ في دَرَكِ الجَهِلِ:

القومُ في السُّورِ الأولى منازلُهُم وأنتَ بينَ أبي جادٍ وهَوَّازٍ⁹⁸⁴

الحَقُّ أبو الهُدَى هِجاءُهُ لِكُلِّ هذه الفِئَةِ مُضَمِّنًا قَوْلَهُ إيجازِ الحَذَفِ (لا خَلَقَ لهم)،⁹⁸⁵ فقال:

يُزَاحِمُ القومَ قومٌ لا خَلَقَ لهم بزعمِهِم طيشَ هَمَّازٍ وَلَمَّازٍ
ما ماثِلوا القومَ في عالي مَرَاتِبِهِم إلا كما ماثَلُ العصفورُ للَبَّازِ⁹⁸⁶

ولعلَّ أبرزَ هِجاءِ أبي الهُدَى لهذه الفِئَةِ كانَ قد صَبَّهَ على ما انتَشَرَ بين الجُهِهالِ من مُنَحَرَفِ العقائدِ الباطِلَةِ، وشيوعِ الغناءِ والرَّقصِ في أوساطِهِم، كما قد مضى يُشَبِّهُ انكِبائَهُم على المِلذَّاتِ والطَّعامِ والشَّرابِ بيَهُم الإبلِ الجائِعَةِ، فقال مُشْطَرًّا قولَ القاضي أبي إسحاق إبراهيم بن عسكر الموصليِّ (ت. 610هـ/1213م) في ذِمِّ الصُّوفِيَّةِ المُبْتَدِعَةِ،⁹⁸⁷ وهو يتساءلُ وقد خَرَجَ بتساؤله عن مُقتَضَى الظَّاهِرِ ليكونَ أبلغَ في التَّأثيرِ فبدأ بالتَّساؤلِ مُتَعَجِّبًا مُسْتَنكِرًا من أحوالِهِم المُنكَرَةِ مع ادِّعاءاتِهِم الباطِلَةِ بأنَّهم على الحَقِّ والهُدَى:

⁹⁸⁴ د.ر.ح، 134.

⁹⁸⁵ النَّصيب، ولعلَّ المراد لا نصيبَ لهم من أخلاقِ أولئك وشمائلِهِم، أو من نصيبِ الخيراتِ الأخرى، وبالمعنى الأخير يضمُّ إلى البيتِ اقتباسَ التَّلْمِيحِ من القرآنِ الكريم، يُنظَرُ: الجوهري: "خلق"، 1471/4؛ آل عمران، 77/3.

⁹⁸⁶ د.ر.ح، 134.

⁹⁸⁷ يُنظَرُ: كمال الدِّين المبارك بن الشَّعار الموصلي، قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزَّمان، تحقيق: كامل سلمان الجبوري، (بيروت: دار الكتب العلميَّة، 2005م)، 76/1.

(مَتَى سَمِعَ النَّاسُ فِي دِينِهِمْ) عَقَائِدَ أَسْلُوبُهَا مُبْتَدَعٌ
وَأَنَّ طَرِيقَ رَجَالِ الْهُدَى (بِأَنَّ الْغِنَا سُنَّةٌ تُتَّبَعُ)
(وَأَنْ يَأْكَلَ الْمَرْءُ أَكْلَ الْبَعِيرِ) وَقَدْ أَلِفَ الْقَوْمُ تَرَكَ الشَّبَعُ
وَأَنْ يَسْمَعَ الْقَوْلَ قَوْلَ الْقَبِيحِ (وَيَرْفُصَ فِي الْجَمْعِ حَتَّى يَقَعَ)⁹⁸⁸

وينجلي مما سبق سوقه من الشواهد أن أبا الهُدَى قصر هجاءه لفئة المدعين على عدة أمور هي: التشبه من دون أدنى تحقيق، وبروز ظاهرة الجهال الذين ضلُّوا وأضلُّوا، كما انتقد ظاهرة الألقاب التي تزيد من كبر هؤلاء الجهال وأتباعهم، إضافة إلى إلصاق تهمه الجهل الذي هوَى بهم في مَهَاوي الانحرافات في العقائد والأعمال ودركات الاتباع للشهوات الدنيوية؛ وهجاء هذه الفئة من المتصوفة يمكن عدّه توثيقاً تاريخياً لمرحلة من مراحل هذه الفئة في ذلك العصر، من خلال تسليط الشاعر الضوء على فسادها الذي يراه مُتَفَقِّشِيّاً ينخر في جسد المجتمع آنذاك.

ج فئة الحُساد

لَمَّا كَانَ أَبُو الْهُدَى قَدْ تَبَوَّأَ مَكَانَهُ لَمْ يَكُنْ فِي مُخَيَّلَةِ أَحَدٍ حَتَّى الطَّمُوحِ إِلَيْهَا فَضْلاً عَنْ أَنْ يِنَالَهَا وَيَصِلَ إِلَى سُدَّتِهَا،⁹⁸⁹ فَقَدْ كَانَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ تَرْمُقَهُ عَيُونُ فِئَةٍ مِنَ الْحُسَادِ وَتَرْمِيَهُ بِشَرَرِ الْأَكَاذِيبِ وَالْإِفْتِرَاءَاتِ، وَلَطَالَمَا نَثَرَ أَبُو الْهُدَى فِي بَطُونِ كِتَابِهِ مَا يُعَبِّرُ عَنْ أَلَمِهِ مِنْ تِلْكَ الْأَكَاذِيبِ وَالشَّائِعَاتِ الَّتِي لَفَقَتْهَا عَلَيْهِ، وَفِي شَعْرِهِ الْمِهْجَائِيِّ مَا وَجَّهَ مَخْصُوصاً ضِدَّ هَذِهِ الْفِئَةِ -فِئَةِ الْحُسَادِ-، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ فِي الْأَصْنَافِ الَّتِي اعْتَرَضَتْهُ مِنَ الْحُسَادِ وَالْحَاقِدِينَ، وَقَدْ أَتَى بِالْأَدَاةِ (كَمْ) وَحَرِصَ عَلَى

⁹⁸⁸ د.ر.ح، 134.

⁹⁸⁹ يُنْظَر: ص12.

تكرارها ليلفت الأذهان إلى كثرة مَنْ لقيهم من هؤلاء الأشخاص، وبتكرارها إطنابٌ يدلُّ على ما احتدَم في داخله من مشاعرِ الألم منهم:

عَجِبْتُ لِمُبْتَاعِ الضَّلَالَةِ بِالْهُدَى عَنَادًا وَهَلْ ذُو الْعَيِّ غَيْرُ مُعَانِدٍ
فَكَمْ جَاهِلٍ يَبْدُو بِأَمْرَاطِ عَالِمٍ وَكَمْ كَافِرٍ مُسْتَصْحَبِ اسْمِ عَابِدٍ
وَكَمْ نَاقِصٍ يَخْتَالُ فِي طَوْرِ كَامِلٍ وَكَمْ مِنْ حَرِيصٍ لَا بَسَّ ثَوْبَ زَاهِدٍ⁹⁹⁰

فهم مُعَانِدُونَ ضَالُّونَ تَلَبَّسُوا مُتَشَبِّعِينَ بِمَا لَيْسَ فِيهِمْ، والذي يلفتُ الانتباهَ في هجائه لهذه الفئة ليس انتقاصه منهم عبر عيبهم بالجهل والنقص والبخل ولكن ما وصمَّهم به من الكُفْرِ الذي غطَّوه بسترِ العبادة وأطوارها، مما يجعلُ الناظرَ في هذا الهجاء يُرَجِّحُ اشتِمَالَ هذه الفئة التي هجاها أبو الهُدَى على طائفةٍ ممن زاعَت عقائِدُهُم من العبادة، وقد لا يترجَّحُ تعيينُ مَنْ عَرَّضَ بهم في هذا الهجاء، فيما إذا كان المعنُون هم من المتصوِّفة أو من غيرهم.

وتارةً يأتي بهجاءٌ يسمُّ فيه حُسَّادَهُ بأنَّهم فَنَاءٌ أَذِلَّاءٌ أَكثَرُوا التَّهْوِيلَ بِإِشَاعَاتٍ كَاذِبَةٍ، لكنَّهُ لم يلتفتِ إلى تلفيقهم ولم يهتمَّ بتنفيذ أكاذيبهم، بل لم يكتَرِثْ بهم أصلاً، فمثَّلهم لا يُلْتَفَتُ إليه ويُتْرَكُ على حاله، ويسوقُ في هجائه التشبيهَ التَّمثِيلِيَّ لصورَتَيْنِ مُتَقَابِلَتَيْنِ، فيأتي بصورةٍ تطاول حُسَّادِهِ عليه وإهماله لهم لِصَغَارِهِمْ فهو تَارِكُهُمْ على حالهم، ثم يأتي بصورةٍ مُشَاهِةٍ أُخْرَى هي صورةُ تطاولِ الدُّبَابِ على البَشَرِ وإهمالهم له بسبب هوانه :

تُرَكُّوا عَلَى تَهْوِيلِهِمْ لِهَوَانِهِمْ وَكَذَا الدُّبَابُ لضعفِ صورَتِهِ سَلِمَ⁹⁹¹

⁹⁹⁰ د.ر.ت، 83.

⁹⁹¹ د.ر.ت، 238.

لكنّ نبرة الصّوت الهجائيّة ترتفع عند الشّاعر في موضعٍ هجا به المفترين المتّهمين من حسّاده
بأنّهم من بقايا قاتل الإمام الحسين رضي الله عنه ومن لفّ لفّه من لفيّ أعداء آل البيت النبويّ، إذ جعل
مهجّويه من أذنان ذاك اللّيف، ولم يكتف بهذا بل وصّمهم -من طريق الاستعارة المكنيّة- بأنّهم
كلابٌ شيمتها النّبأ على الأشراف الذين ابتلوا في كلّ عصرٍ بأمثالهم من الأوغاد، فيقول:

لَعَنَ الْإِلَهِ يَزِيدَ وَالْبَاقِينَ مِنْ أَشْيَاعِهِ الْأَنْدَالِ طَائِفَةَ الْخَنَا⁹⁹²

لَا بَأْسَ إِنْ نَبَحُوا عَلَيْنَا فَرِيَةً فَالْحُرُّ مُتَّحِنٌ بِأَوْلَادِ الزَّيْنَا⁹⁹³

ويبدو أنّ حسّاده قد أنضّوا المطايا ماضين في درب أذيتّه، إلى أن أوصلوه إلى مرحلةٍ راح يهجوهم
بإقذاع حبسهم فيه ضمن قفص الاتّهام بأنّهم ذريّة السّفاح -كما ظهر في البيتين السّابقين-، وهي
تُهمّة تتكرّر في موضعٍ آخر أردف إلى جانبها ذمّاً شنيعاً لصفات هؤلاء الحُسّاد فقال:

يُنَازِعُنِي الْمَجْدَ الصَّمِيمَ سَوَاقِطٌ مَعَ الْغَرَضِ الْأَدْنَى تَقِلُّ وَتَكْتَرُ

دَعِيُونَ لَا أُمَّ حَصَانٌ وَلَا أَبٌ وَلِلْفِلْسِ مِنْهُمْ يَسْجُدُ الْمُتَكَبِّرُ

ثَقِيلٌ إِذَا لَاقَى الْكِرَامَ بِمَحْفَلٍ خَفِيفٌ إِذَا قَامَ كَالْقَرْدِ يَسْكُرُ⁹⁹⁴

فمهجّوؤه من أداني النّاس وعديمي الشّرف الذين هجاهم بأنّهم المتكبرون الثّقلاء عبّاد الأغراض الذين
يحطّون رواجلهم حيثما سار بهم غرضهم ضاربين بالقيّم والأخلاق عرض الحائط، ولكي يبالغ في
إقذاعه في هجائهم فقد أتى بأسلوب المطابقة في تبين شنيع طبائعهم فهم متكبرون على الخلق
لكنّهم أدلاء يشوبهم الصّغار إذا ما لاح لأعينهم بريق المال، وهم الثّقلاء المتجهمون على كلّ شريفٍ

⁹⁹² الفحش، يُنظر: الجوهري، "خنا"، 2332/6.

⁹⁹³ د.ر.ت، 268.

⁹⁹⁴ د.ر.ت، 110.

كريم الطَّبَاع لَكَنَّهُمْ إِذَا مَا خَلَوْا مَعَ شَهَوَاتِ الْحَرَامِ الدَّنِيَّةِ فَهَمَّ الْأَخِقَاءُ الَّذِينَ شَبَّهَ وَاحِدَهُمْ -تَشْبِيهًا مُرْسَلًا مُفَصَّلًا- بِالْقَرْدِ زِيَادَةً مِنْهُ فِي التَّشْنِيعِ عَلَيْهِمْ وَمِبَالَعَةً فِي هَجَائِهِمْ.

ويأتي في موضعٍ آخر بصورةٍ بيانيَّةٍ يُضَمِّنُهَا الكناية عن جمائله وإحساناته المُتَفَرِّدَةِ إلى هذه الفِئَةِ (الأيادي البيض) وتَنَكَّرُ الأيام لهذه الجمائل وإبدائها بما عَبَّرَ عنه (بلون ذنوبي) كنايةً عن تشويبهـا وقلبـها سوداء مُكْفَهَرَةً كُفْرًا وجحدًا، كما استعار لعزمه وهَمَّتِه صورةَ الركن الذي يُهْدُّ -من طريق الاستعارة المكنيَّة-، مُبَالَعَةً مِنْهُ في تصوير أثر هذا الحاسد اللئيم في تكدير صفو حياته بما افتراه عليه من الاتِّهَامَاتِ وما تَلَبَّسَ به من الخيانات، وقد استعار لافتراءاتِ الحواسِدِ اللَّئِمِامِ صورةَ السِّلاحِ الذي يُرْمَى به وذكر شيئًا من لوازمه وهو الهدف، وجعل من الهدف ذاته التي لم تَزَلْ تُصَوَّبُ إليها غرائبِ افتراءاتِ اللَّئِمِامِ، حيثُ يقول:

بَذَلْتُ الْأَيْدِي الْبَيْضَ غَيْرَ مُشَارِكٍ بَعْضَرِي فَأَبَدْتُهَا بِلَوْنٍ ذُنُوبِي
وَأَعْنَتُ فَوَادِي بِاللَّئِمِامِ وَلَمْ أَزَلْ لَهُمْ هَدَفًا يُرْمَى بِكُلِّ عَجِيبٍ
وَمَا هَدَّ عَزَمِي الْحِظُّ إِلَّا بِخَائِنٍ عُثِّلٍ زَنِيمٍ مُفْتَرٍ وَكَذُوبٍ⁹⁹⁵

وَلَا بُدَّ أَنْ مَهْجَوِيهِ بَلَّغُوا مِنْ إِيْذَائِهِ حَدًّا جَعَلَهُ يَنْدَفِعُ إِلَى هَذَا الْمَسْتَوَى مِنَ الْإِقْدَاعِ فِي الْهَجَاءِ، إِذْ إِنَّ هَٰذِينَ الشَّاهِدِينَ السَّابِقِينَ هُمَا أَقْدَعُ مَا عَابَ بِهِ أَبُو الْهُدَى هَاجِيًا أَيَّ فِئَةٍ، أَمَّا مَا عَداها مِنَ الْأَبْيَاتِ الْمَهْجَائِيَّةِ فَلَمْ تَتَعَدَّ وَصَم مَهْجَوِي هَذِهِ الْفِئَةِ -فِئَةُ الْحُسَّادِ- بِالْحَرِصِ وَالْبُخْلِ وَالْجَهْلِ وَالنِّفَاقِ الْمُحْضِ.

وقد خلا هذا الصِّنفُ -هَجَاءُ الْفِئَاتِ- في كثيرٍ من مواضعه من الصُّوَرِ الْفَنِیَّةِ الْبَيَانِيَّةِ وَاكْتَفَى فِيهِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى تَشَرُّبِ هَجَائِهِ لِلْمَذْهَبِ الْبَدَوِيِّ الَّذِي يُيْدِي سُخْطَ الشَّاعِرِ وَاشْتِمَازَهُ بِلِ وَاسْتِصْغَارُهُ

⁹⁹⁵ د.ر.ت، 28.

في بعض الأحيان من المهجّوين الذين تولّوا أدبيّته بدافع الحسد والبغضاء؛ مما يُرجّح صواب إمكانية القول: إنّ القيمة التّاريخيّة الاجتماعيّة لهذا الصّنف من الهجاء تفوق القيمة الأدبيّة، حيث وثّقت ما ماجت به فئات المجتمع الذي عاش به الشّاعر آنذاك من فسادٍ وما كان يحمله الشّاعرُ ومَن على شاكلته من نظرةٍ لتلك الفئات.

3 هجاء الزّمان

قد يحسُن في بداية هذا المطلب استذكّار حقيقة وجود هذه الظّاهرة في الشعر العربيّ منذ أمدٍ بعيدٍ يعودُ إلى العصر الجاهليّ، ويُطالعُ النّاظرُ في كتب الأدب فصولاً معقودةً لأجل هذه الجزئيّة الشعريّة - القائمة على دَم الزّمان - فهذا أبو القاسم الأمدّي (ت. 370هـ/980م) في موازنته بين أشعار أبي تمام وأبي عبادَة البُحتريّ (ت. 284هـ/897م) أفردَ باباً كاملاً في "ذكر الزّمان وظلمه واعوجاجه" ثم فرّع عنه فصلاً في دَم الزّمان على لسانِ الشّاعرين،⁹⁹⁶ وابنُ عبد ربّه الأندلسيّ (ت. 328هـ/940م) في عقده أوقف فصلاً "لِدَم الزّمان" عضده برسالةٍ نثريّةٍ للجاحظِ رُفِعت سطورها لدَم الزّمان وأهله،⁹⁹⁷ أمّا أبو منصور الثّعالبيّ (ت. 429هـ/1038م) فإنّه لمّا جرّد قلمه لنشر فرائد المنظوم الشعريّ حصّصَ باباً للأشعار التي بهذا الصّدَد فأسماه "باب دَم الزّمان وانحطاط الكرام وارتفاع اللّثام"،⁹⁹⁸ ولعلّ بروز هذه الظّاهرة في الشعر العربيّ دفعَ بالكاتب الأندلسيّ أبي عبد الرّحمن محمّد بن طاهر (ت. 508هـ/1114م) إلى إطلاق الحكم بأنّ "دَم الزّمان وبنيه مما أكثر النَّاسُ فيه"،⁹⁹⁹ وهو حكمٌ قد لا يبعدُ عن الصّواب كثيراً إذا ما طُوِّلت السّطور التي خَطَّتْها أعلامُ التّراث العربيّ في هذا

⁹⁹⁶ الحسن بن بشر الأمدّي، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحري، تحقيق: السيّد أحمد صقر، (القاهرة: دار المعارف، 1982م)، 233/2، 235.

⁹⁹⁷ شهاب الدّين أحمد بن محمّد بن عبد ربّه الأندلسيّ، العقد الفريد (بيروت: دار الكتب العلميّة، 1404هـ)، 186/2.

⁹⁹⁸ أبو منصور عبد الملك بن محمّد الثّعالبيّ التّيسابوريّ، نثر النّظم وحلّ النّعمد (دمشق: مطبعة مجلس المعارف، 1300هـ/1883م)، 70.

⁹⁹⁹ علي بن بسّام الشّنتريني، الدّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عبّاس، (تونس: الدّار العربيّة للكتاب، 1981م)، 32/5.

الشَّانِ، فعَلَامَةُ الْبَلَاغَةِ عبد القاهر الجرجاني كانت "أشعاره كثيرةً في ذَمِّ الزَّمانِ وأهله"،¹⁰⁰⁰ وصلاح الدِّين الصَّفَّديّ (764هـ/1296م) جعل "ذَمَّ الزَّمانِ والإخوان" غرضًا مُفْرَدًا من بين أغراضه الشعريَّة التي بَوَّبَ وفقها شعره،¹⁰⁰¹ وقد رصَّد أبو هلالٍ العسكريُّ هذه الظَّاهِرةَ -هجاء الزَّمان- فرأى أنَّه ما من أحدٍ من الشعراءِ أَكْثَرَ "في ذَمِّ الزَّمانِ إكثارَ إبراهيم بن العباس" ¹⁰⁰² ويعني به الكاتب الشَّاعر أبا إسحاق الصُّوليَّ (ت. 243هـ/857م)، وقد تَفَشَّتْ هذه الظَّاهِرةُ وشاعت حتى وقعت "في كلام كثيرٍ من علماء المسلمين نظمًا ونثرًا"،¹⁰⁰³ وَلَقَّتْ انتباهَ الحافظِ ابنِ عبد البرِّ (ت. 463هـ/1071م) فرأى أنَّها ظاهِرةٌ لم تتدقَّقْ على ألسِنَةِ الشعراءِ في الجاهليَّة فحسب بل استمرَّ إنشادُها على ألسِنَةِ الرِّوَاةِ والشُّعراءِ بعد الإسلامِ فذُمَّتِ الدُّنيا وسُبَّ الدَّهْرُ وذُمَّتِ اللَّيالي والأَيَّامُ حتى كانت أشعارُ هذا الباب "أكثرَ من أن يُحِيطَ بها كتابٌ لو أُفْرِدَ لها".¹⁰⁰⁴

لكنَّه إذا ما سُلِّمَ لِمُتَنَبِّتِ إثباته لحضور هجاء الزَّمانِ في شعرِ الشعراءِ، فسيُستشكَلُ تصادُّمُ هذه الظَّاهِرةِ الشعريَّةِ مع صريحِ النَّصِّ النَّبويِّ القائلِ: "لا تسبُّوا الدَّهْرَ فإنَّ اللهَ هو الدَّهْرُ" و"لا يقولَنَّ أحدُكم يا خيبة الدَّهْرِ فإنَّ الدَّهْرَ هو الله" إلى جانبِ ما وردَ في الحديثِ القدسيِّ: "يؤذيني ابنُ آدم

¹⁰⁰⁰ جمال الدين علي بن يوسف القفطي، إنباه الرواة على أنباه التحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة: دار الفكر العربي، 1406هـ/1986م)، 189/2.

¹⁰⁰¹ صلاح الدِّين خليل بن أبيك الصَّفَّديّ، الرِّوضُ الباسم والعرف النَّاسم، تحقيق: محمَّد عبد المجيد لاشين، (القاهرة: دار الآفاق العربيَّة، 1435هـ/2005م)، 23.

¹⁰⁰² أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، ديوان المعاني (بيروت: دار الجليل، د.ت)، 199/2.

¹⁰⁰³ صدر الدِّين علي ابن معصوم الحُسَيْنِي المدني، أنوار الرِّبيع في أنواع البديع، تحقيق: شاكِر هادي شكر، (التَّجَف: مطبعة التَّعمان، 1388هـ/1968م)، 343/2.

¹⁰⁰⁴ يوسف بن عبد الله ابن عبد البرِّ، الاستدكار، تحقيق: سالم عطا-محمَّد عوض، (بيروت: دار الكتب العلميَّة، 1421هـ/2000م)، 551/8، 552، 553.

يَسْبُ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ بِيَدِي الْأَمْرُ أَقْلِبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ"،¹⁰⁰⁵ ولعلَّ هذا الاستشكال - لا سيما وقد وردَ على لسانِ علماء المسلمين - قد يزولُ إذا ما استصحبَ الدَّهْرُ أَنَّ الجاهليينَ كان منهم دهرِيُّون لم يُؤْمِنُوا بوجودِ الإله الخالقِ علَّ وعلا فكانوا إذا ما نَزَلَتْ بساحتِهِمْ مُصِيبَةٌ أو حَلَّتْ بدارِهِمْ كَارِثَةٌ نَسَبُوا فعلَ هذه المصائبِ إلى الدَّهْرِ والزَّمانِ فبادروا إلى هجائه وسبِّه وشتمه لأنَّهم رَأَوْهُ الفاعلَ الحقيقيَّ إذ قالوا: "إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ"،¹⁰⁰⁶ ولا شكَّ أَنَّ الانطلاقَ في ميادين هجاءِ الزَّمانِ لا يجوزُ - حسبما يرى علماء الشَّرع الحنيفِ - إذا كان على اعتقادِ أَنَّ الدَّهْرَ سَبَبٌ للحوادثِ، وإنَّما جازَ هجاؤهَ باعتقادِ أَنَّهُ ظرفٌ للحوادثِ وليس سببًا لها، والمسلمُ إذا ما صَدَرَ منه هجاءٌ للزَّمانِ فَإِنَّ أَكْثَرَهُ يَنْصَبُ على ما يراه من فسادٍ مُستَشْرِ في مظاهر اجتماعية أو سياسية وما إلى ذلك.¹⁰⁰⁷

وإنَّ أبا الهُدَى قد عاصر الفترة الزَّمنية التي امتلأت بالحوادثِ الجسامِ فقد كانت الدولة العثمانية تَلْفِظُ أنفاسها الأخيرة، حيثُ أخذت تقاوم الاحتضارَ الذي طالَ جسدها المُنْهَكَ الذي أُطْلِقَ عليه مُسَمَّى "الرَّجُلِ المَرِيضِ"،¹⁰⁰⁸ ولعلَّه رأى بأمِّ عينيه كيف أخذت الأَكَلَةُ تقضمُ رُقْعَةً بِلْدَانِهَا المُتْرَامِيَةِ الأطرافِ، بل إِنَّه لم يَكُنْ بمنأى عما يُحَاكُّ من مؤامراتٍ للإجهازِ على بني الإسلامِ، ولا عما يُنْصَبُ من فِخاخٍ لإسقاطِ دولَتِهِمْ، فهو - كما قد مرَّ في حياته - مُستشارُ السُّلطانِ عبد الحميد والمقرَّبُ من الباب العالي الذي رُبِطَتْ به كلُّ شؤوناتِ الدولة، ومن المؤكَّدِ أَنَّهُ كان يرى ما لا يراه غيره ممن لم تسنح لهم ظروفُ تلك الأَيَّامِ العصيبة أن يضعوا أيديهم على حقيقة الجُروح التي مُنِيت

¹⁰⁰⁵ ابن عبد البر، الاستدكار، 550/8.

¹⁰⁰⁶ الجاثية، 24/45.

¹⁰⁰⁷ يُنْظَر: ابن عبد البر، الاستدكار، 553/8؛ ابن معصوم، الأنوار، 343/2.

¹⁰⁰⁸ أطلقه قيصر روسيا سنة 1269هـ/1853م ثم لم يلبث أن شاع بعد ذلك بين جميع أعداء الدولة العثمانية وغيرهم، يُنْظَر: مجمع اللغة العربية في القاهرة، مجموعة المصطلحات العلمية والفنية التي أقرها المجمع (القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، 1399هـ/1979م)، 126/21.

بها معاقِل المسلمين حتى راحت تنهاوى صروحها أمام الأعين الواحدة تلو الأخرى بدعاوي الحقوق والحرّيات وإلى غير ذلك مما لاكتنه ألسُن الأعلام والإعلام وما هيّجته من رياح الفتن الطائفية والعرقية التي أودت بتلك البلدان،¹⁰⁰⁹ مما استثارَ دفينَ الحزنِ عند أبي الهُدَى على حالة تلك البلاد وما وصلت إليه.

وقبل البدء بما في صدره هذا المطْلَب قد يحسُن تَلَمُّسُ مشاعر أبي الهُدَى التي عاشها في تلك الأيام، عندما يُلَمَحُ الحزنُ في أبياتٍ عبّرَ فيها بألمٍ عما لحقَ بتلك البلاد الإسلامية من تسلُّط الأشرار من غير المسلمين وانخداع المسلمين ببضاعَتِهِم وارتشافِهِم سَمِّهم الزُّعاف رحيقًا قُلبت فيه الحقائق، حتى صارَ الدَّواءُ داءًا والعدوُّ صديقًا يُستَنجَدُ به ويُستعان، حيث يقول:

وديارٍ طالت يدُ الدِّينِ فيها لَعِبَتْ فوق سطحِها الكُفَّارُ
وتعدَّى الحدودَ كلُّ لئيمٍ الطِّ طَبَعَ واستُحسِنَ الصَّرَّارُ
وتوالى قَلْبُ الحقائقِ حتى قال قومٌ في اللَّيلِ هذا النَّهارُ¹⁰¹⁰

ولربما استرعى الانتباه ما يُثيرُ التَّساؤلَ عن مغزى التفاتِ أبي الهُدَى إلى هجاءِ الزَّمانِ بأكمله وما حمَلَهُ من نقضٍ وقبضٍ ورفعٍ وخفضٍ، مع العلم بأنَّ الكلامَ قد لا يُقدِّمُ بَلَهَ لا يُؤخِّرُ في ساحةِ الواقعِ شيئًا، ولكنَّ أبياتٍ كان قد حَبَّأها في ثنايا قصيدةٍ هجائيةٍ من هذا الصِّنف قد يتلاشى بها هذا التَّساؤلُ، حيث استجلبَ لِمَا نَظَّمَهُ من الأبياتِ التي يبوخُ فيها بهجاءِ الزَّمانِ الاستعارةَ التَّصريحيَّةَ فجعلَ منها خيطًا يُخاطُ به ما لحقَ بالقلبِ من جروحٍ هاضتها أحوالُ الزَّمانِ وتقلُّباتُ أهله، رغمَ

¹⁰⁰⁹ يُنظر: الأمير شبيب أرسلان، تاريخ الدولة العثمانية، تحقيق: حسن سويدان، (دمشق: دار ابن كثير، 1432هـ/2011م)، 577؛ حسَّان علي حلاق، دور اليهود والقوى الدَّولَية في خلع السُّلطان عبد الحميد الثَّاني عن العرش (بيروت: الدَّار الجامعية، د.ت)، 32، 113.

¹⁰¹⁰ د.م.ش، 118.

علمه اليقيني أنه يسلي نفسه بشيء قد لا يجدي نفعاً، إذ التيار أعتى من أن يُقاوم، وشؤونات الزمان وماسيه أعسى من أن تُقوّم، فيقول:

ونفثة مصدور يفوه بسرّها أخو أرقّ أعنته سود الطوائل
يخيط بها جرح الفؤاد بزعمه وذلك زعم باطل أي باطل
زماناً رأينا من عجيب فعّاله شؤوناً تهز الأرض هزّ الزلازل¹⁰¹¹

إذن فالشاعر لم يكن بهذا الصنف من شعره الهجائي إلا راجياً سلوان قلبه المكلوم من شؤونات عجيبة نابت حُسام أمته المثلوم، مع علمه أنها كلمات هيهات أن تُداوي جراحه وإنما هي مُتنفّسٌ يبت فيه ما توقّد من لهيب حزنه، علّ بهذا البتّ أن يُخفّف به شيء من وطأة الآلام والعُصص التي يظهر في شعره كيف كان يتجرّعها من زمانه المريض، ولذلك فقد يكمّن ضمن ثنايا هذا النوع شيء من بوحه بالأسى والألم لما حلّ بواقع تلك الأيام، وبهذا يغدو غرض الهجاء في هذا الموضع ممزوجاً بغرض الشكوى.

ويمكن القول إنّ أبا الهدى لم يلق بالاً إلى المُقدّمات والمطالع التي يستفتح بها قصائد هذا النوع من الهجاء، وعلى الرغم من جريانه على هذا المنوال في عموم قصائد هذا الصنف من الهجاء، فإنّه قد يستهلّ بعضها بالبيت والبيتين ثم يتابع بعد ذلك مجيء الأبيات مُسترسلة في الهجاء؛ ولعلّ مما يمثّل لهذه المطالع قوله مُفتتحاً قصيدته مُحاطباً محبوبته "مي"، ولعلّه يكتي بها عن نفسه التي راح يُصبرها بأن ما تمرّ به من أحداثٍ حُسام إنما هي حوادث دنيوية من شأنها التحوّل والتغيّر فهي ما تلبث تبرز في لحظة ثم تنطوي مُتغيّرة في لحظة أخرى، فيشبهها تشبيهاً بليغاً بالأفياء المتحوّلة - بعد أن أهمل أداة التشبيه ووجه الشبه بين عنصري التشبيه وهو (الانتقال والتغيّر والتحوّل) -، وكأنّه يُقدّم

¹⁰¹¹ د.ر.ت، 182.

لنفسه ولسامعه رسالة مفادها أن ما للعقل في مُجابهة ما لا طاقة له به في هذا الزمان إلا الصبر والتصبر:

صبراً أُمِّي فذي الشُّخوصُ حَيَالٌ والحادثاتُ كما عَلِمْتَ ظِلَالٌ¹⁰¹²

وتارةً يَسْتَفْتِحُ هِجَاءَهُ طَالِبًا مِنْ مُخَاطَبِهِ أَنْ يُقَلِّبَ طَرَفَهُ فِي حَوَادِثِ الزَّمانِ وَعَجَائِبِهِ وَتَقَلُّبَاتِ أَحْوالِهِ، التي تَنُمُّ عَنْ فسادِ طَوْرِهِ وَقِساوَةِ أَيَّامِهِ العَصِيَّةِ، مُستَعِيرًا لِهَذَا الزَّمانِ وَصَفَ اللَّذِيعِ اللَّاذِعِ الَّذِي فَاقَ جِرَاحَ الحِرَابِ وَالْأَسِنَّةِ -وذلك من طريق الاستعارة المكنية المرشحة- حيثُ قال:

أَجِلْ طَرْفَ اعتِبَارِكَ فِي الزَّمانِ تَرَّ العَجَبِ العُجَابِ بَلَا تَوَانِي

مَشَى مُتَبَهِنَسًا¹⁰¹³ يَنسَابُ لُؤْمًا وَجَاوَزَ لَدَغُهُ طَعَنَ السِّنَانِ¹⁰¹⁴

وقد كان هذا الهجاءُ لِلزَّمانِ مُتَشَعِّبًا إِلَى نَقْدٍ لِأَبْرَزِ مَا مَثَلَ أَمَامَ عَيْنِي أَبِي الهُدَى مِنْ مَعايِهِ وَنَقائِصِهِ، كما أَنَّهُ سَلَكَ فِي هِجاءِ هَذِهِ المَظَاهِرِ مَسْلَكَ تَصْويرِها بِما أوتِيه مِنْ صَوَرٍ بَيانِيَّةٍ تَشْرُحُ شِئْنَاعَتِها وَتَطْبَعُ لَدَى القارِئِ شَعورَ الاثْمَازِ مِنْ قِباحَتِها؛ فَها هُوَ وَقَدْ صَوَّرَ تَرَدِّي حَالَةَ زَمَنِهِ بِصُورَةٍ بَيانِيَّةٍ تُصَوِّرُ حَالَةَ الزَّمانِ وَتَرَدِّيهِ؛ فَجَعَلَ لِلْمَجْدِ وَالشَّرَفِ إِنسانًا أَصابَتْهُ الرِّزايا حَتَّى راحَ يَغْصُ بِدَمْعِ الأَسَى كَثيرًا وَحيدًا بَعْدَ أَنْ بارَزَهُ بِالْعِداءِ وَارتَقى مَكَانَهُ نَقِيضُهُ إِنسانُ العارِ وَالذُّلِّ؛ فَقال:

تَنَكَّرَ قَوْمٌ بِالزَّمانِ وَطَوَّرُهُمْ بِهِ يَعْرِفُ الحُذَّاقُ شَأْنَ الأَوائِلِ

وَقَدْ شَرِقَ المَجْدُ الأَثيلُ بِدَمْعِهِ وَبَاتَ عَلِيلاً ناكِصًا رَأْسَ خامِلٍ¹⁰¹⁵

¹⁰¹² د.ر.ت، 189.

¹⁰¹³ مُتَبَحِّثًا، يُنْظَرُ: الجوهري، "بَحَسَ"، 910/3.

¹⁰¹⁴ د.ت.ب، 109.

¹⁰¹⁵ د.ر.ت، 185.

وبهذين البيتين يكون أبو الهُدَى قد أعرض عن الأسلوب المباشر في هجاء الزَّمان وأهله ورميهم بجهلٍ محتدِّهم ونَسَبِهِم وسوءِ فعَالِهِم، واكتفى بالإحالة إلى فهم السَّامِعِ لِمَا يُرْمَى إليه من هذا المعنى المُراد من خلال لجوئه إلى الإيجاز والاكتفاء بالإشارة الرَّمْزِيَّة التي يُدركها القارئ اللَّمَّاح،¹⁰¹⁶ فهو قد أشار في البيت الأوَّل -من طريق الكناية- إلى استتارِ فئامٍ من النَّاسِ بعباءة الزَّمنِ رغم انكشافِ حقيقة أمرِهِم وأصلِ منشئِهِم لدى كلِّ عاقلٍ، وذلك بما يقتضونه من فعَالٍ ويتزَيُّونَ به من أطوارٍ تحكي سوءَ أصلِهِم وشَرَّ منبئِهِم الذي نبتوا منه، ثم التَّفتَ إلى معنى المجدِ المُجَرَّد فجعلَ منه ذاتًا إنسانيَّةً استعارَ لها وصفَ العُصَّةِ ولكنها ليست بماءٍ أو بِرِيقٍ وإنما هي غُصَّةٌ بالدموعِ المنسكبة حُزنًا وألمًا على ذويه من رجالات المجدِ الأصيل، وجعل هذه الاستعارة المكنيَّة مُرَشَّحَةً بإضافة وصفِ العِلَّةِ والتَّنْكِيسِ والخمولِ لذاتِ المجدِ، إغراقًا منه في تصويرِ حالةِ هذا الزَّمانِ، ورميه بعيبٍ ظاهرة انتكاسِ الأمورِ فيه على رأسِها. وعلى ذاتِ الوتيرة سارَ في بدائعِ تصويراتِهِ البيانيَّة التي رَسَمَ بها لوحةَ دَمِ الزَّمانِ العصيب عندما قال:

دواعٍ من الأيام لا دَرَّ دَرُّها لها مُقَلُّ الآسادِ كالأنفِ تَرَعَفُ¹⁰¹⁷

لها الدَّيْنُ يبكي والعزائمُ ترتدي حدادًا وعينُ المجدِ بالحزبي تُطَرَفُ¹⁰¹⁸

فهو يأتي بلفظة (الآساد) للكناية عن أعالي النَّاسِ وأشرفِهِم ويجعل عيوتَهُم تبكي كمدًا وقهراً ويُبَالِغُ في وصفِ هذا البُكاءِ فيجعل العيونَ مُجاوِزَةً لحدِّ استنزافِ الدَّمْعِ إلى أن صارت تنزِفُ الدِّمَاءَ، مُشَبِّهًا لهذا التَّزيفِ بالرُّعافِ، مُبالغةً منه في الكناية عن دَرَجَةِ الحُزنِ الذي اعتَصَرَ عَلَيَّةِ النَّاسِ وحُلَّصَ

¹⁰¹⁶ يُنظر: حَبَنَكَة، البلاغة، 96/1.

¹⁰¹⁷ بضم العين وفتحها وهو من الرُّعاف أي الدَّم الذي يخرج من الأنف لمرضٍ ونحوه، يُنظر: الجوهري، "رعف"، 1365/4.

¹⁰¹⁸ د.ر.ت، 185؛ وثياب الحداد هي ثياب المأتم السود، يُنظر: الجوهري، "حدد"، 463/2.

أشرافهم، ثم يستطردُّ في دَمِّ حوادثِ الأَيَّامِ فيستعيرُ للدِّينِ وصفَ البُكاءِ ويجعلُ الهمَمَ العَلِيَّةَ إنساناً يرتدي ثوبَ الأحزان، وأمَّا المجد فقد جعل له هو الآخر عيناً نالتها وخزاتٍ من الأسَى والأشجان التي جَرَّتْها مصائبُ تلك الأَيَّامِ - وكلُّ ذلك من طريق الاستعارة المكنيَّة -؛ والشَّاعرُ بكلِّ هذا يُحاولُ أن يُجَلِّيَ أمامَ السَّامِعِ شيئاً من صورة القَتَامِ الذي نابَ أَيَّامَ ذلك الزَّمانِ العصيب، الذي انبرى لهجائه عبرَ نقدِ المظاهرِ السَّلْبِيَّةِ التي فَشَتْ في أَيَّامِهِ وأدَمَتْ فؤادَهُ بحرَبَةِ الأحزان والأسَى.

ومن أبرزِ هذه المظاهرِ التي هجا بها الزَّمانَ وجعلها وصمةً عارٍ في جبينه، هي ظاهرةُ ارتكاسِ المعالي، بتسلُّطِ الأسافلِ على الأعالي، حيثُ يرى أبو الهُدَى تقدُّمَ الجُهلاءِ على العلماءِ، والتَّنتنَى على الأشرافِ، والأصاغرِ على الأكابرِ، فاستجَلَبَ لتصويرِ هذه الحالةِ المقيتةِ الاستعارة المكنيَّةَ فجعلَ للزَّمانِ مُقلَّةً تنظُرُ إلى أبنائه، ولكنَّهُ شَفَعَ الاستعارةَ بالكنايةِ القائِلَةِ بأنَّ هذه المُقلَّةُ قد أعشَّها العَمَى، ليشيرَ بذلك إلى انمِحاقِ العَدَالَةِ في عينِ الزَّمانِ حيثُ راحت تنظُرُ إلى الرِّجالاتِ فتُسَقِطُ كواكبَهُم إلى الحضيضِ وترفَعُ بأرذالِهِم إلى مواقعِ النُّجومِ، حيثُ يقولُ مُستخدِماً الجِناسَ الاشتقائيَّ (الباهليّ/يِباهل)، والتَّزادُفَ (تَبًّا/سُحْقًا)، ومُضَمِّنًا أبياته إشاراتٍ إلى أمثالِ العربِ ورموزها:

تَبًّا وسُحْقًا لِلزَّمانِ فَإِنَّهُ نَظَرَ الرِّجَالَ بِمُقلَّةٍ عَمِياءِ
نابَ ابنُ سِينا كُلَّ سَمَجٍ¹⁰¹⁹ فَاجِرٍ والتَّلُّ مُستَعِلٍ على سِيناءِ
والباهليُّ مَضَى يُباهلُ¹⁰²⁰ هاشِماً ويقولُ مادِرُ بئسَ بخلُ الطَّائِي¹⁰²¹

¹⁰¹⁹ القبيح الذي لا ملاحاةَ له، يُنظَرُ: ابن منظور، "مَمَج"، 300/2.

¹⁰²⁰ من المُباهلَةِ وهي المُلاعِنَةُ، يُنظَرُ: الجوهري، "بمل"، 1643/4.

¹⁰²¹ د.ت.ب، 9.

فارتكأس المعالي من عجائب الزمان التي برزت لعيني أبي الهدى فآلمته وجعلته يندفع إلى هجاء الزمان بها، فالعالم الكبير ناب مقامه كل جاهل من الفجار، وكل لئيم عديم أصل صار يُبارز الأشراف بالعداوة، ويحاول أبو الهدى سلوك طريق المبالغة في تصوير انقلاب الموازين وارتكاس أحوال أهل الزمان رأساً على عقب حتى غدا الوضع يتجراً على الرفيع، فإذا كانت العرب قد ضربت بمخارق - مَادِر - الهلالي (ك. ح قبل البعثة النبوية) المثل الأعلى في البخل، وبحاتم الطائي (ت. 46ق. هـ/ 577م) القمّة السامقة في الجود والسخاء،¹⁰²² فإنّ زمان الشاعر قد انتكست فيه أحوال الناس حتى صار البخيل المادري يُعير الكريم الحاتمي بكرمه، مما يعني أنّه أراد هجاء زمانه بظاهرة أخرى هي انقلاب مكارم الأخلاق فيه وتحولها في أعين أهله إلى معائب ومساوئ يُعير المتحلي بها ويُستنقص، فهو زمن صار فيه المعروف منكراً والمنكر معروفاً، مما أدّى بالشاعر أن يمضي مُستهجناً حالة زمنه مُتسائلاً باستفهام خرج عن مُقتضاه الظاهر ليحكي شدة تعجبه المشفوع بوصف حالة الأسى التي ألمّت به، حيث يقول وقد أسعفته قافية الأبيات بحرف الروي - الهمزة المُشبعة بالكسر - على عزف آهاته التي امتلأت بها قيثاره صدره، وكأنّها ترنّ بنغمة طويلة في أذن السامع:

أهّي القيامة قد تُبدّل كلُّ أر ضٍ غيرها نوعاً وكلُّ سماءٍ
أهّي يطولُ وزفرتي لا تنطفي أسفاً وسيال السحاب بُكائي¹⁰²³

فهو يقرن حالة الزمن المريع بأحوال القيامة، ثم ينعطف مُشبهها بكاءه تشبيهاً بليغاً بهتان الدِّيم الهطالة - بعد أن أهمل أداة التشبيه ووجه الشبه وهو (التّهطال والتحدّر) -، ويستعير لفرات الأسى التي تلّهب في صدره وصف النار - على سبيل الاستعارة المكنية - حيث جعلها ناراً مُستعرة هيهات أن

¹⁰²² ورد في أمثال العرب قولهم "أبخل من مَادِر" و"أجود من حاتم"، يُنظر: الميداني، الأمثال، 111/1، 183/1.

¹⁰²³ د.ت.ب، 9.

يُلِمُّ بِلَهَائِهَا انْطِفَاءً بَعْدَ كُلِّ هَذَا الْأَسَى الَّذِي لَحِقَ بِهَا مِنَ الزَّمَانِ الرَّدِيِّ؛ وَلَمْ يَكُنْ أَبُو الْهُدَى بِمُكْتَفٍ
بِتَنْهَدَاتِ أَسَاهِ وَسَحَّاحِ بُكَاهِ، بَلْ قَدْ أَشْرَكَ مَعَهُ الْمَرْوَةَ فَاسْتَعَارَ لَهَا هِيَ الْأُخْرَى -اسْتِعَارَةً مَكْنِيَّةً-
وَصَفَّ الْبُكَاءَ عَلَى الْأَلَى مِنْ ذَوِي الْمَجْدِ وَالشَّرَفِ، حَيْثُ يَقُولُ فِي مَقْطَعٍ هَجَائِيٍّ ضَمَّنَ قَصِيدَةً أُخْرَى
يَذُمُّ بِهَا زَمَانَهُ:

كَأَيِّ بِالْمَرْوَةِ وَهِيَ تَبْكِي عَلَى مَنْ بَادَ مِنْ أَهْلِ الْمَعَالِي
فَقَامَ الْأَعْجَمِيُّ بِنَا خَطِيئًا وَهَرُّ الْبَيْتِ يَزَارُ لِلْقِتَالِ¹⁰²⁴

وعلى ما يبدو أَنَّ مَرَّاحِلَ تَهَاوِي الْمَمَالِكِ وَنَهَايَاتِ أَيَّامِهَا قَدْ حَرَّكَتْ قَرَائِحَ بَعْضِ الشُّعْرَاءِ فِي هَجَاءِ
الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ مُثْرِينَ بِأَشْعَارِهِمُ النَّقْدَ الْاجْتِمَاعِيَّ لِمَظَاهِرِ الْفَسَادِ فِي عُمُومِ مَجْتَمَعِ ذَلِكَ الزَّمَانِ، فَإِذَا كَانَ
أَبُو الْهُدَى هُنَا يَهْجُو زَمَانَهُ بِتَسْنِيمِ زِمَامِ الْأُمُورِ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهَا، حَيْثُ الْأَلَكُنُّ قَامَ يَخْطُبُ مُسْتَفْصِحًا
وَالْقَطُّ قَامَ بِمَوَائِهِ مُسْتَزِيرًا مُسْتَأْسِدًا، فَكَذَلِكَ كَانَتْ قَرِيحَةُ ابْنِ رَشِيقِ الشَّعْرِيَّةِ قَدْ فَاضَتْ بِمَا يَقْرُبُ مِنْ
هَذَا، حَيْثُ قَالَ وَقَدْ شَهِدَ تَهَاوِي صُرُوحَ دَوْلَةِ الْأَنْدَلُسِ فِي نَهَايَاتِ أَيَّامِهَا:

مِمَّا يُزْهَدُنِي فِي أَرْضِ أَنْدَلُسٍ سَمَاعُ مُقْتَدِرٍ فِيهَا وَمَعْتَصِدٍ
أَلْقَابُ مَمْلَكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا كَالْهَرِّ يَحْكِي انْتِفَاحًا صَوْلَةَ الْأَسَدِ¹⁰²⁵

وَإِذَا كَانَ الزَّمَانُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ مِنَ التَّرَدِّيِّ وَسَقُوطِ الْمَرْوَاتِ وَأَهْلِهَا، وَارْتِفَاعِ الْأَرَاذِلِ وَازْدَهَارِ رُبُعِهَا،
فَلَا بَدَعَ أَنْ يَلْتَفِتَ أَبُو الْهُدَى إِلَى هَجَائِهِ بَلْ وَحَتَّى تَقْبِيحِهِ، إِذْ هُوَ زَمَانٌ لَا يَلْتَفِتُ إِلَى مَجْدِ الْأُمَاجِدِ

¹⁰²⁴ د.ت.ب، 87.

¹⁰²⁵ يُنْظَرُ: مُحْيِي الدِّينِ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ عَلِيٍّ الْمَرَاكَشِيِّ، الْمُعْجَبُ فِي تَلْخِيصِ أَخْبَارِ الْمَغْرِبِ مِنْ لَدُنْ فَتْحِ الْأَنْدَلُسِ إِلَى آخِرِ عَصْرِ الْمُوَحِّدِينَ، تَحْقِيقُ:
صَلَاحُ الدِّينِ الْهُوَارِيِّ، (صِيدَا: الْمَكْتَبَةُ الْعَصْرِيَّةُ، 1426هـ/2006م)، 59؛ الْحَسَنُ بْنُ رَشِيقِ الْقَيْرَوَانِيِّ، دِيْوَانُ ابْنِ رَشِيقِ الْقَيْرَوَانِيِّ، إِعْدَادُ: عَبْدُ
الرَّحْمَنِ يَاقِي، (بِيْرُوت: دَارُ الثَّقَافَةِ، 1409هـ/1989م)، 59.

ولا فضل الأفاضل، فاستعمل أسلوب الإيجاز وأوكل إلى القارئ أن يلمح اهتمام الزمان وأهله بإعلاء
أضداد حزب العلا سقلة الناس وأوغاد سُوقَتِهِمْ، وراح يُكَنِّي بنوم السادة من أماجِد العقلاء والعلماء
عما ألمَّ بهم من تدهور أحوالهم وتغيُّر أَيَّامِهِمْ وما لحقَ بهم من ضعفٍ وتحييدٍ عن مكانهم المعهود،
فالزَّمانُ أَخْرَجَهُمْ لِيُقَدِّمَ مَنْ هُوَ دُونَ أَحْمَصِهِمْ مِنَ الْأَرْذَالِ، ثم شَفَعَتِ الكنايةُ الأولى بأخرى توكِّدُ معناها
حيث جعلت كوكب السماء الأنور العالي - السُّهّا - ينحطُّ في الحضيض ليرتفع مكانه كلُّ خافٍ
ساقطٍ، فكانت هذه الكنايات يُعَلِّلُ ما تقدّمها من تقبيح لهذا الزَّمان وهجائه:

لَحَا¹⁰²⁶ اللهُ دَهْرًا لَا يَرِقُّ لِمَاجِدٍ وَقَاتَلَ وَقْتًا لَا يَلِينُ لِفَاضِلٍ
وَنَامَ بِهِ وَهَنَا فُرُومٌ¹⁰²⁷ أُولَى النَّهْيِ وَصَارَ السُّهّا مِنْ دُونِ ذُبُلِ الْخَوَامِلِ
وَشَنَّ الْأَدَانِي حَيَّبَ اللهُ سَعِيَهُمْ عَلَى الدِّينِ وَالْإِسْلَامِ غَارَةً قَاتِلِ¹⁰²⁸

ولعلَّ البيت الأخير يحكي ظاهرةً أخرى هجا بها أبو الهُدَى زمانه الذي عاش فيه، وهي ظاهرةُ الهجوم
على الشَّرعِ الحنيفِ ومحاوله وأدِه في عُقْرِ دَارِهِ؛ ويُضافُ إلى تلك الظَّاهِرةِ ظاهرةُ تسلُّطِ الأجنبيِّ على
ديارِ المسلمين وأمصارِهِمْ، حيثُ يقولُ مُستعمِلاً الاستعارة المكنية جاعلاً بها الدِّينَ يذرفُ الدَّموعَ
على ما حلَّ به من غُرْبَةٍ شديدةٍ في هذا الزَّمان جعلته يهوي بأهله في هُوَّةِ الشَّدَائِدِ والكروب:

وَالْتُعْلَبَانُ¹⁰²⁹ سَطَا وَصَارَ مُبَارِزًا وَبَقِيدِ ضَنْكِ أَثْقَلِ الرِّيبَالِ¹⁰³⁰

¹⁰²⁶ قَبَّحَ وَلَعَنَ، يُنْظَرُ: ابن منظور، "لحا"، 242/15.

¹⁰²⁷ جَعَّ وَاحِدُهُ قَدَمٌ وَهُوَ السَّيِّدُ، يُنْظَرُ: الجوهري، "قرم"، 2009/5.

¹⁰²⁸ د.ر.ت، 183.

¹⁰²⁹ ذَكَرَ التُّعْلَابُ، يُنْظَرُ: ابن منظور، "تعلب"، 237/1.

¹⁰³⁰ مِنْ أَسْمَاءِ الْأَسَدِ وَتَعْنِي الْجَرِيءَ الْمَصُورَ، يُنْظَرُ: ابن منظور، "رأبل"، 262/11، 264.

والدين يكي غربة أَلَقَتْ بهِ في وَهْدَةٍ¹⁰³¹ من دونها الأهوالُ

فَلَتَاتُ وزيرَ الزَّمانِ تَظُنُّهَا ليلٌ عليه من القَتَامِ سِدَالُ¹⁰³²

ويُلَحِظُ أَنَّ أبا الهُدَى اختارَ لكلماتِهِ أن تلبَسَ ثوبَ الكنايةِ مرَّةً أخرى حيثُ كَتَبَ عن الأَجانِبِ الدُّخلاءِ بالثُّعلْبَانِ، وأمَّا صاحبُ الأرضِ المسلمِ الذي لم يُعدْ بيدهِ حيلةٌ في قِرَاعِهِمْ فقد جعلَ منه ضِرغامًا مُكَبَّلًا بالقيودِ التي أثْقَلَتْ كاهِلَهُ، ولربما كان وقوعُ اختيارِهِ على لَفْظَةِ (الرَّيبالِ) التي يكتنِفُها شيءٌ من العَرَابَةِ -إذ الألسُنُ لم تعدْ تردادَها كثيرًا- لثُعْبَرٍ عما وَقَرَ في قلبِهِ من تعظيمٍ لغريبِ شأنِ المسلمِ صاحبِ الحقِّ الهُصورِ الذي ما عَرَفَ يومًا ذِلَّةً أو خنوعًا، ولكنَّها عيوبُ الزَّمانِ التي شَبَّهَهَا تشبيهُها مُرسَلًا مُجَمَّلًا -لَمَّا أهملَ وجهَ الشَّبهِ (الظُّلْمَةِ)- بالليلِ الذي أسَدَلَ على ذلكِ العصرِ ستارًا من الظُّلْمَةِ شَابَهُ غُبَارُ الفِتَنِ وتغيُّرُ الأحوالِ، ويكادُ أبو الهُدَى يُتَبَّعُ هذينِ البيتينِ بما يُفَسِّرُ هذهِ العيوبِ التي امتلأَ بها الزَّمانُ، ويمزجُ بكلماتِهِ شيئًا من البوحِ بشكواه من هذا الزَّمانِ الذي أترَعَ قلبَهُ أَسَى وحُزنًا، وبهذا يكونُ قد ضَمَّ إلى جانبِ غرضِ الهجاءِ شيئًا من غرضِ الشَّكْوَى والتَّعْبِيرِ عن الألمِ الذي حلَّ في قلبِهِ بسببِ تَغْيِراتِ الزَّمانِ وتقلُّباتِ أحوالِهِ، إذ يقولُ مُضَمِّنًا لكلماتِهِ الجِناسَ الاشتقائيَّ (عَجَبٌ/نعجب) وطباقِ الإيجابِ (حديث/قديمها):

عَبَّتْ بنا أُمَمٌ حديثٌ قديمِها عَجَبٌ ونعجبُ كيفَ آلَ الحالُ

كانت جحاجِحُها تُهزُّ لِاسْمِنا رَهَقًا وتُرْعَدُ منهم الأبطالُ¹⁰³³

فهو أَتَبَعَ هِجاءَ الزَّمانِ بتعجُّبٍ مما حلَّ في أَيَّامِهِ من تحوُّلِ الأحوالِ، وما حَدَثَ فيه من تَكالُبِ الشُّعوبِ الغريبةِ على أُمَّتِهِ المُشارِ إلى ماثرِها التي قد اَزَّيْنَتْ بها جبهةُ التَّاريخِ بما حَفَلَتْ بهِ من

¹⁰³¹ الهُوَّةُ والمكانُ المُنخَفِضُ في الأرضِ كأَنَّهُ حُفْرَةٌ، يُنْظَرُ: ابنُ منظور، "وهْد"، 470/3.

¹⁰³² د.ر.ت، 189.

¹⁰³³ د.ر.ت، 189؛ والرَّهَقُ اسمٌ من الإرهاقِ بمعنى أُلْهُمَ لا طاقَةَ لهم بنا ولا احتمال، يُنْظَرُ: الزَّبيدي، "رهق"، 381/25.

بطولاتِ رجالِها الأفاذا الذين بلّغت بهم شجاعتُهم أنّ أسماءهم كانت كافيةً لدحر تلك الشعوبِ المُتسلّطة الغريبة، حتى إنّ أكابر أعاضِمِها كانت ترتعد فرائصُهم وتهتّر عروشُهم بمجرد أن تطرّق مسامعهم أسماء أفذاذِ رجالِها أمّته.

ولم يكن التّلميح بمقيّد لأبي الهدى أو مانع له عن التّصريح في هجائه بنقد ظاهرة تسلّط الأجنبيّ الغُرباء، فقد غدا مُتخلّيًا عن التّلميح والاستتار بستارة البَيان والكنائيات، فراح يُصرّح بأسماء تلك الجسوم الغريبة التي تسلّلت دخيلةً على المجتمع المسلم لتتخرّ جسد الأمة الواحدة وتعيثُ فسادًا وتعدّيًا على أجزائه، فها هي الأيّام قد احتفت بأبناء فرنسا وبريطانيا وألمانيا ورومانيا وأترعتهم عزًا، فعدوا أصحاب النفوذ والمال والكلمة المسموعة التي لا تُثنى بأخرى، في حين أنّها أقصت المسلم-أيّا كان عرقه- عن جذوره، ولم يبقَ له سوى أن يتجرّع كأس المقت والذلّ والفقر، فالأرض لم تعد أرضه والخيرات نُهِبت من يديه، فيقول ناقدًا ومُصوّرًا حالة ذلك الزّمن العصيب:

والخبُّ من أرضٍ باريزٍ طويلٍ يدٍ والمقت للمُسلمِ التُّركيِّ والعربيِّ
وإن أتى الصُّبح من برلينِ ذو عَدَمٍ يُمسي المساء وهو محشوّ من الذهبِ
والإنكليزيُّ ربُّ الدَّارِ صاحبُها وصاحبُ الدَّارِ منّا حارسُ الثُّربِ
ولابن باصيلٍ قصّر بالنُّصارِ¹⁰³⁴ زها وابن الكرامِ يصُرُّ الأهلَ في الغلبِ¹⁰³⁵

ويُلمح في البيت الأخير كيف صوّر حالة الضنك والفقر المُدقع الذي حلَّ بأهل المروءات من كرام الناس وأشرافهم، فقد قابل تنعم الأجنبيّ وتسلّطه بصورة الشّريف ذي المروءة الذي لمح بضنك عيشه

¹⁰³⁴ الذهب، يُنظر: الجوهري، "نصر"، 829/2.

¹⁰³⁵ د.ت.ب، 21؛ والفعل "يصرُّ" مأخوذ من الصّر وهو الجمع والضّم والشّد والقبض، فكلُّ شيءٍ مصرور فهو مجموعٌ مشدودٌ عليه، يُنظر: ابن منظور، "صرر"، 451/4-452.

باستعماله للفعل (يصرُّ) ليشير بدقّة إلى الشدّة التي وقع بها الفرد من كرام الناس حتى في العثور على محل إقامة له حيث استعار للمنزل -استعارة تصريحية- لفظ الغلب الصغيرة الضيقة التي يُجمّع فيها أهل ذلك المنزل محصورين بشدّة وفاقّة تكاد تخنقهم؛ فلا بدع من أن تظهر شكوى أبي الهدي وألمه من لؤم الزمان وأحواله التي رفعت الرخيص وحطت كل رفيع من الكرام، فالأيام أردت بالمسلمين حتى صاروا غرضاً للتوائب والشدائد غرباء كغربة دينهم الباكي للأهوال التي نزلت بساحته، فيستطرد مستعملاً التشبيه التمثيليّ بجعل صورة المسلم صاحب الحقّ وابتعاد الناس عنه ورميه بالخيانة العظمى كصورة مريض أجرب ابتعد عنه أهل عصره خشية أن تصيبهم بلواه، كما استعار -استعارة مكنية- للزمان صفة الغيظ والبغض على أهل الدين مُلمّحاً إلى شمول هذا الغيظ لجميع أهل الدين الحنيف دون تمييز بين عرق وآخر إذ تكفي للبطش بهم ثمّة الانتماء لعصبة الدين الحنيف، فيقول:

كأنّما المسلم المأمون منهجه أخو الخيانة يعدو العير بالجرب
قد راح في حنق¹⁰³⁶ هذا الزمان على عصابة الدين من عجم ومن عرب
ويلاه من سفه الأيام قد فتكت برّب مجد وأعلت فاقد الحسب¹⁰³⁷

وبإتيانه بالنّديّة (ويلاه) يجعل من كلماته تضجُّ في أذن السّامع مُعيرة عن حجم الشكوى التي امتلأ بها الشاعر من أيّام ذلك الزمان العصيب والتي استعار لها -استعارة مكنية- وصف عدم التّعقل والفتك حيث راحت تبطش بكلّ أعجد منار، وتهوي به إلى الحضيض لكي ترفع كلّ مُدنس باللؤم والعار؛ فلا غرو أن ينبري أبو الهدي مرّة أخرى ليهجو الزمان بظاهرة تسلط التّنى الذين شبّههم -

¹⁰³⁶ غيظ، يُنظر: الجوهري، "حنق"، 4/1465.

¹⁰³⁷ د.ت.ب، 21.

تشبيهاً بليغاً- بسوءاتِ العصر، ولكي يترسّخ ذلك في ذهن القارئ فقد جلب أسلوب التوكيد بالقسم قائلاً بإقذاع شديد:

تَبَّا لَعَصْرِ يَسُودُ الْأَرْدَلُونَ بِهِ وَهُمْ لَعَمْرُ الْعُلَا لِلْعَصْرِ سَوَّاتُ
آبَاؤُهُمْ مِنْ طَعَامِ الْقَوْمِ أَهْلُ خَنَا وَالْأَمَّهَاتُ حَسِيسَاتُ دَنِيَّاتُ¹⁰³⁸

ويُضاف إلى ما سَبَقَ من جملة الظواهر التي هجا بها أبو الهُدَى زمانه وانتقده عليها ظاهرةُ تحاذُلِ أبناءِ الزَّمان عن نُصرةِ الحقِّ البَيِّنِ وأهله، حيثُ راح يرميهم بالبُكمِ والعمى من خلال التشبيه المُرسَل المُجَمَّل -الذي أهمل فيه وجه الشبه (انعدامُ النطق)-، وفي مُقابل تلك الخِصلةِ الدَّميمةِ فقد ضُمُّوا إليها موالاةُ الأعداءِ الحقيقيين، ولعلَّ هذا ما استشرَفُه من واقعِ تلك الأيَّام التي كانت حُبلى بما تلاها من وطءِ أقدامِ الغُرباءِ بِحِيلِهِمْ وَرَجْلِهِمْ لِلدِّيارِ الإسلاميَّة بعد أن حُدِعتْ شعوبُها بأُماني الحُرِّيَّة والاستقلال، ويُدَثِّرُ أبو الهُدَى كلَّ هذا النَّد والهجاء المقذع لواقعِ الزَّمان بما يُبرِّزُ شكواه وألمه، ويقوِّي كلامه عبرَ الخروجِ بالاستفهام عن مقتضاه الظاهرِ إلى معنى التَّكثير الذي أفادته الأداة (كم) للدِّلالة على تأكيد انتشارِ هذه الظَّاهرة بين أبناء ذلك الزَّمان وفشوِّها في مجتمعاتهم، إضافةً إلى الإطنابِ بأسلوبِ التَّكرار للأداة، وهو تكرارٌ ينقل إلى نفسِ المتلقِّي السَّامع لهذا الهجاء مشاعرَ الحزنِ المحتدِّمة في أعماقِ الشَّاعر. فيقول مُستعمِلاً أسلوبَ التَّرادُفِ (بواعثاً/دواعياً) مؤكِّداً به ما يجُرُّه هذا الزَّمان ويهيضُ من جروحِ في أفئدةِ الكِرام، كما ضمَّ إليه أسلوبَ الإيجازِ بالحذف في عجزِ البيت الأوَّل (ثُبُرُ دواعياً) وهو بذلك يتركُ للسَّامع أن يتخيَّل تلك الدَّواعي، دواعي حُزنٍ أو كربٍ أو كَمَدٍ أو خيبةِ آمالٍ وإلى غيرها مما يحكي آلامَ ذلك العصر:

¹⁰³⁸ د.ر.ت، 56.

وكم يشهد الشَّهْمُ الغيورُ بواعثًا تُثيرُ به أسقامُهُ ودواعيًا
 كأنَّ بني الأيامِ بكمَّ إذا دُعوا لحقِّ صراحٍ ما أجابوا المُنادِيا
 عُمَاةٌ وأهلُ الحقِّ بين ظُهُورِهِم ولكنَّهم طيشًا يَرَوْنَ المُرائِيا
 يُعَادُونَ لِلْحَقِّ الصَّدِيقَ وكم وكم يُوالون للغَيِّ الجَلِيَّ الأَعَادِيا¹⁰³⁹

وقد تبيَّن فيما سبق كيف كانت تُسمَعُ شكواه وبوحه بما الذي نشرَ طيِّه في تضاعيفِ هجائه
 للزَّمان، إلا أنَّه كثيرًا ما كان يلتفتُ بالمسامحِ لينقلَّها إلى ساحةِ أرضِ قلبه التي هشمها وطءُ جيشِ
 الأحزانِ المتواليَّة التي حشدَها عليه الزَّمان، إذ يكادُ أبو الهدي يجذب أزمَّةَ عواطفِ السَّامِعِ ويغمسه
 في خضمِّ ما اعتراه من مشاعرِ الأسَى والحزن، بعد أن سحَّرَ الجناسَ الاشتقائيَّ (كسرتُه/كسرَ،
 الهم/هم) لإيضاح ذلك، حيثُ يقول بتساؤلٍ مُعطًى خرج به عن مُقتضاهُ لِيُبرزَ تَعَجُّبه الممزوج بالأم
 من ظلمِ الزَّمانِ وجوره في مُساواةِ الرِّفيعِ مع الوضيع:

أَيصْفُو القلبُ في زمنٍ تَسَاوَى به زُهْرُ الأسودِ مع النَّعاجِ
 لقد كسرتُه أحزانٌ تَوَالَتْ عليه من القَلَى كَسَرَ الرُّجَاجِ
 رأى تركَ الجِدَالِ وعن عَناءٍ كَفَاهُ الهمُّ هَمَّ الاحتِجاجِ¹⁰⁴⁰

فهو يصفُ هذا القلبَ بالتَّصَدُّعِ بما حلَّ به من الانكسار، ثم يلتفتُ إلى تشبيهٍ تمثيليٍّ قُرنت فيه صورةُ
 انكسارِ القلبِ بصورةِ الرُّجَاجِ حالةً انكساره، في إشارةٍ منه إلى انعدامِ إمكانِ رَأْبِ هذا الصَّدَعِ الذي
 خَلَّفَتْهُ في قلبه أحداثُ هذا الزَّمنِ وهومُه التي حَفَلَتْ بما أياَّمُه، حتى أثقلت كاهله فلم يَعُدْ به اندِفَاعٌ
 حتى إلى الدِّفَاعِ عن نفسه وردِّ فِتْنَمِ المعتدين عليها، وللإغراقِ في المبالغة في وصفِ حالةِ الهموم التي

¹⁰³⁹ د.ت.ب، 133.

¹⁰⁴⁰ د.ر.ع، 17.

أحاطت به من كلِّ جانب فقد استعار -استعارةً مكنيةً- للهَمَّ وصفَ ذاتِ كفته مؤنةَ الاهتمامِ بالجِدالِ والدِّفاعِ عن نفسه أمامَ مَنْ يُجادِلُها.

ولم يكن امتزاجُ هجاءِ الزَّمانِ بالشَّكوى مُميِّزًا وحيدًا لشعر أبي الهُدَى، فقد ضمَّ إلى جانبِهِ حرصَهُ على التَّصويرِ التَّهكُّميِّ إضافةً إلى إبرازِهِ الزَّمانَ وأبناءَهُ وهم عارون عن كلِّ فضلٍ أَثِيرٍ، فتارةً يعيبُ الزَّمنَ بانقراضِ الأخلاقِ فيه مُستعيرًا له وصفَ المرضِ العُضالِ -من طريقِ الاستعارةِ المكنيةِ المرشَّحة- ومُعبرًا عن يأسِهِ من عودةِ أبناءِ الزَّمانِ إلى رُشدِهِم عبرَ دقةِ الاختيارِ للفظِ (هيهات)، ليستبعدَ شفاءَهُ وتعافيه من عللِهِ المُزمنةِ، فقال:

سَلامٌ على الدُّنيا قد انقَرَضَ الوَفاً وماتَ أخِلاءُ المودَّةِ والصِّفا
زَمانٌ مريضٌ الطَّورِ أَزَمَنَ داؤُهُ وهيهاتَ أن يُرجى لعلَّته الشِّفا¹⁰⁴¹

ويسخرُ في قصيدةٍ أخرى مِمَّنْ تَصَدَّرَ من أبناءِ الزَّمانِ في صدورِ المراتبِ وهو خاوٍ من كلِّ حَقِيقَةٍ تُؤْهِلُهُ لذلك، فيهجوهُ بأنَّه في عِدادِ الحيواناتِ لولا اللِّسانُ النَّاطِقَةُ التي تتحرَّكُ فيهِ، وقد كَتَبَ عن ذلكَ بقولِهِ: (ربُّ خِطامٍ)،¹⁰⁴² بعد أن رَصَعَ بيتهُ باستعارةٍ جعلَ فيها للمعالي جَسَدًا يُتَخَطَّى ويُتجاوزُ مِمَّنْ هو على هذه الشَّاكِلَةِ من أبناءِ الزَّمانِ:

كم فيه من مُتَخَطِّي عُنُقِ العِلا خَطَأً ولولا النُّطقُ ربُّ خِطامِ
ولَكم فِتًى بالعلمِ سُهَمٌ ثوبُهُ¹⁰⁴³ هَدَفًا أَقيمَ لرشقِ كُلِّ سِهامِ¹⁰⁴⁴

¹⁰⁴¹ د.ت.ب، 69.

¹⁰⁴² هو زِمَامُ الدَّابَّةِ، يُنظَرُ: الجوهري، "خطم"، 1915/5.

¹⁰⁴³ الثَّوبُ المُسَهَّمُ هو المُخَطَّطُ المُزَيَّن، يُنظَرُ: الجوهري، "سهم"، 1956/5.

¹⁰⁴⁴ د.م.ش، 184.

ومن الملاحظ أنَّه يُضيف ظاهرةً أخرى إلى مثالب الزَّمان الذي يهجوهُ، وهي ظاهرةُ التعَدِّي على أربابِ العلمِ والفتوَّة، ومُنَاصَبَةِ النَّاسِ لهم العداواتِ والبغضاء، وجعلهم مَرْمَى لسهمِ كُلِّ راحٍ بالافتراءات والشَّائعات.

وتارةً يُبالغُ أبو الهُدَى في تَهْكُمِهِ فينزلُ بأبناءِ الزَّمانِ المُتَقَدِّمينَ زورًا وافتراءً بعد تأخيرِ أربابِ المجدِ والشَّرَفِ عن منازلهم الرَّفِيعَةِ، وهو بأبياتِهِ يُوضِّحُ الطَّبَقَاتِ الاجتماعيَّةَ التي طالتْها يدُ الجورِ والظُّلمِ في زمانِ الزُّورِ فيقولُ مُجَرِّدًا مهجويِّهِ من أبناءِ الزَّمانِ من كلِّ فضيلةٍ ومجدٍ وشَرَفٍ:

وآخرُ من عِصَابَةِ أَهْلِ حَالٍ تَشَيَّخَ فوقه شيخُ الغواني
وفردٌ جامعٌ كلَّ المزايا لستِرِ الحالِ مُفْتَكِرًا يُعاني
وآخرُ قد حَلَا من كُلِّ مجدٍ ويُعلَفُ كالحِمَارِ بلا امتِنانٍ¹⁰⁴⁵

فطبقةُ الشُّيوخِ وأربابِ التَّدَيُّنِ الحقيقيِّ قد طالتْهم يدُ الدُّلِّ وحوصِرُوا حتى علَّت فوقهم الشُّيوخُ الفاسقةُ التي راح يُكَنِّي عنها بقوله: (شيخ الغواني)، وأمَّا الشُّرفاءُ والأحرارُ الحقيقيُّون فقد انغمَسوا في بحرِ الهمومِ باحثين عما يسدُّ رَمَقَ العيشِ، رغمَ أنَّ أصدادَهُم من كلِّ خبٍّ عارٍ من كلِّ مجدٍ راح يتقلَّبُ في أمواجِ من النِّعمِ، فيُشَبِّهُهُ -تَهْكَمًا واستهزاءً واحتقارًا- بحمارٍ يُعلَفُ ليلاً نهارًا بلا طائلٍ أو فائدةٍ لمُجتمَعِهِ وعصرِهِ.

ويَتَّضِحُ مما أُورِدَ من شواهِدِ الهجاءِ عند أبي الهُدَى أنَّ عمومَ هجائه لِلزَّمانِ لم يكن التَّشاؤْمُ باعثُهُ الأوَّلُ ولا النُّظَرَةُ السُّوداءُ التي قد تُعْشِي أربابَ الشَّعْرِ إذا ما هم لم ينالوا مآرِبَهُمْ، بل كان باعثُهُ الأوَّلُ هو حقيقةُ ما يراه من هِياجِ الفِتَنِ وتدهورِ أحوالِ المسلمين على امتدادِ رُقْعَةِ دولَّتِهِم العثمانيَّةِ،

¹⁰⁴⁵ د.م.ش، 184.

وانخداعهم وخدعهم من طَرَفِ أطرافٍ غريبةٍ ما عَهِدَ منها أَبَدَ الدَّهْرِ أَنْ تَرْقُبَ فِي شَعوبِ الإسلامِ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً،¹⁰⁴⁶ وَيُمْكِنُ أَنْ يُلَمَّحَ هَذَا الْأَسَى الَّذِي حَمَلَهُ عَلَى هِجَاءِ الزَّمَانِ فِي كَلَامِهِ لَمَّا تَكَالَبَتِ الْجِيُوشُ الْمُعَادِيَةُ الْغَرِيبَةُ عَلَى الْأَقْطَارِ الْإِسْلَامِيَّةِ، مُعَبِّرًا عَنْ حَالَةِ الْأُمَّةِ الَّتِي غَدَتِ تَكَرُّعٌ - بِالْعُصَصِ - مِنْ حِيَاضِ الشُّمُومِ إِنْ مَا هِيَ سَكَتَتْ عَنْ حَقُوقِهَا، وَتَكْتَنِفُهَا أَيْدِي الْمُنُونِ إِذَا مَا هِيَ طَالَبَتْ بِأَدْنَاهَا وَأَبْسَطِهَا، وَبِالْجِنَاسِ الَّذِي أَتَى بِهِ (طَلَبْنَا/طَلَبْنَا) وَطَبَاقِ الْإِيْجَابِ (سَكْتْنَا/حَكِينَا)، يُوَضِّحُ هَمَّ الْأُمَّةِ فِي عَصْرِهِ إِذْ هِيَ -مَطْلُوبَةٌ- مَدِينَةٌ بِوَاجِبِ الْإِيْفَاءِ وَالْإِذْعَانِ، وَهِيَ -طَالِبَةٌ- تَرُومُ مَا هُوَ أَبْعَدُ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ، فَحَقَّقَ لِأَبِي الْهَدَى أَنْ يَنْسَاءَلَ بِتَفَجُّعٍ بِلِسَانٍ كُلِّ خُرٍّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ:

يَا أُمَّةَ الْحَقِّ أَيُّ ذَنْبٍ لَدَا الزَّمَانِ الْمُعَادِي جَنِينَا
وَنَجْرَعُ الشُّمَّ إِنْ سَكْتْنَا وَدَوْنَا الْمَوْتِ إِنْ حَكِينَا
وَإِنْ طَلَبْنَا زُمْنًا مُحَالًا وَإِنْ طَلَبْنَا يَكُونُ دَيْنًا¹⁰⁴⁷

وَكثِيرًا مَا كَانَ أَبُو الْهَدَى يَجْعَلُ هِجَاءَهُ لِلزَّمَنِ وَظَوَاهِرِهِ مُشْرَبًا بِمَعْنَى آخَرٍ، وَهُوَ مَا يَعْبُذُ الرَّأْيِ الْقَائِلَ بِأَنَّ هِجَاءَ الزَّمَانِ الْوَاردَ عَلَى أَلْسِنَةِ أَهْلِ الْإِيْمَانِ مِنَ الشَّعْرَاءِ إِنَّمَا هُوَ لاسْتِثَارَةِ الْاِعْتِبَارِ فِي نَفْسِ الْقَائِلِ وَالْمُتَلَقِّي، فَتَكُونُ الْكَلِمَاتُ مُجَادِيفَ الْإِبْحَارِ فِي مَحِيطَاتِ التَّفَكُّرِ بِمَقَادِيرِ الْإِلَهِ الْعَظِيمِ جَلَّ جَلَالُهُ وَالتَّدَبُّرِ فِي تَصْرِيفِهِ لِلْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛¹⁰⁴⁸ فَقَدْ يَلْتَفِتُ أَبُو الْهَدَى زَاِمًا عِنَانَ قَلْبِهِ عَنِ الْجُرْيِ فِي سَاحَاتِ الْأَسَى مُحَاطِبًا لَهُ بَعْدَ كُلِّ مَا لَحِقَ بِهِ مِنْ تَقَلُّبَاتِ الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ، فَيَنَادِي فِي أَعْمَاقِ

¹⁰⁴⁶ جَوَارًا وَقَرَابَةً وَعَهْدًا، يُنْظَرُ: الْجَوْهَرِيُّ، "أَلل"، 1626/4.

¹⁰⁴⁷ د.ت.ب، 106.

¹⁰⁴⁸ يُنْظَرُ: ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ، الْاِسْتِذْكَارُ، 551/8.

نفسه طالبًا منها التسليم لما يجري من هذه العجائب في الزمان إذ هي في حقيقتها أقدار الله الخافض
الرافع جلّ وعلا، فيقول:

عجائب أقدار خفايا رموزها تنبئها الأفكار من كل عاقل
قضى الأمر بالتسليم لله إنه له الفعل والمخلوق ليس بفاعل¹⁰⁴⁹

وعلى هذه الشاكلة كان أبو الهدي يحرص أن تكون خواتيم هجائياته للزمان وما بث فيها من شكواه
وآلمه، حيث يُلحظ فيها ميله إلى الخواتيم الهادئة الباعثة على الصبر وتفويض الأمور لله وعدم
الاعتراض على أقداره في كونه الفسيح، ومن جملة تلك الخواتيم قوله بعد أن أنهى استطراده في ذم
الزمان وإيضاح عيوب أهله:

فكيف يؤمل الفضلاء فيه غيائًا من فلان أو فلان
فكن بالصبر مُدّرعا وسلم أمورك للكرم المستعان¹⁰⁵⁰
وعلى ذات الشاكلة هذه خاتمتها التي قال فيها مواسيًا نفسه:

أسفنا على حظ الزمان وأهله وليس لنا والله أن نتأسفا
نتائج نيات تبدت لأهلها فدع كدر المعنى وحذ كلما صفا¹⁰⁵¹

فهو يُطمئن نفسه -بخاتمة حوت براعة المقطع- أن الزمان ما هو إلا مظاهر لما انطوت عليه قلوب
أهله وما حملته من نوايا ومقاصد، إذ لا طائل من الحزن والأسى، فحق للنفس أن تترك الأكدار
والأشجان متجهة إلى ما يُصقيها ويسلك بها مسلك النقاء لتصل إلى مقرها الأخير بقلب سليم؛

¹⁰⁴⁹ د.ر.ت، 185.

¹⁰⁵⁰ د.ت.ب، 113.

¹⁰⁵¹ د.ت.ب، 70.

وفي هذا الجانب يبرز الأثر الصوفي الذي ظهر كيف ينجح إليه أبو الهدي بين الفينة والأخرى خلال مجموع أشعاره كلها.

ويلاحظ في عموم هجاء أبي الهدي للزمان أن ذمّه له يكاد يتلخص بنقد ظواهر سلبية كادت كبد الشاعر تنفطر منها، وقد حاول أن يشارك الدين والمروءات وأهلها في ملحمة الهجائية للزمان، ومزج هذا كله بتشكيه وإبراز الآلام التي حلت به من تلك الظواهر، ويمكن حصر تلك المظاهر بارتكاس منازل أشراف الناس وأكابرهم مقابل ارتفاع منازل الأراذل من سوقتهم، وتسلب الأجانب على ديار المسلمين، وتوسيد الأمور إلى غير أهلها، فالجاهل حلّ مكان العالم، والسفيه حلّ مكان العاقل الرشيد، إضافة إلى انقلاب المفاهيم لدى المجتمعات التي عاصرت ذلك الزمان، فقد صور أبو الهدي كيف استبدل الناس الأعداء بالأصدقاء، وكيف افتقدوا ميزة الإنصاف، وصارت مكارم الأخلاق عيباً لمن تحلى بحليتها وتزياً بها من ذوي المروءات والأحرار، وانطلاقاً من هذا الواقع الحافل بهذه التناقضات راح أبو الهدي يسب الزمان ويهجوّه ويعري ذويه من كل فضل وفضيلة مع حرصه في بعض جوانبه على التصوير التهكمي لمهجويّه من أبناء الزمان.

وبعد المرور على شواهد الهجاء عند أبي الهدي جميعها وبكافة أنواعها وما تفرّع عنها من أقسام وأصناف يمكن أن يستنتج ما يلي:

■ إنَّ غرض الهجاء عند أبي الهدي اصطبغت أشعاره بين المذهبين الهجائيين البدوي والحضري، وقد كان في الكثير من جوانبه نابعا من مكانة أبي الهدي التي حظي بها، التي بؤأته موقعاً يدفعه لهجاء ما يراه من فساد ومفسدين.

- وبما أنَّ مكانته العلمية - شيخ مشايخ دار الخلافة - والاجتماعية - نقيب نقباء الأشراف - هي التي دفعت به إلى جوانب مُتعدِّدةٍ من الهجاء وأصنافه، فقد كان هذا الهجاء يحظى بإمكانيةٍ تسميته بالنقد الاجتماعي.
- إلا أنَّ النتاج الهجائي في شعر أبي الهدي كانت القيمة الأدبية الشعرية في قسم منه قد انخفضت فلم تحظ بلباسٍ بيانيٍّ أو زينةٍ بديعةٍ وإنما انخفضت في بعض الأحيان لتغدو لا تعدو عن كونها نظمًا تنهال فيه الشتائم على الشخص المهجور، مما يجعل بعض جوانب الهجاء عنده إلى القيمة التاريخية - التي تُعطي صورة المجتمع آنذاك - أقرب منها إلى القيمة الأدبية.
- وقد كان أبو الهدي يُنوع في نظمهِ الهجائي بين أشكالٍ مُتعدِّدةٍ، إلا أنَّ القصائد المخصوصة بهجاء الزمان نال بعضها استفتاحًا مُهمِّدًا قبل أن يُبدأ الهجاء فيها ويحتدم؛ في حين أنَّ الخواتيم في عموم أنواع الهجاء كانت في الدعوة إلى التسليم والصبر وتفويض الأمور للخالق المُدبر.
- في هجاء الأفراد لم يعتن أبو الهدي بتعيين أشخاصهم، ولعلَّ في عدم التعيين هذا ما يُبرز أثر التدوين الذي كبَّح من جراح قلمهِ الهجائي في تعيين أشخاصهم، وإلى جانب هذا الأثر الديني ظهر أثر التصوف على الشاعر فيما كان يُخاطب فيه قلبه إذا ما هو أراد أن يختم قصائده الهجائية.
- وقد أقلَّ من هجاء الأفراد لكنَّه توسَّع في هجاء الفئات ونقد مساوئهم التي برزت لناظره، وأمَّا هجاء الزمان فقد نال من شعره النصيب الوافر، وتميَّز عن غيره بالصُّور البيانية من استعاراتٍ وتشبيهاتٍ أنطقت الحروف جاعلةً المسامع والأذهان تنطلق في تخيل صورة ذاك العصر الذي عاشه أبو الهدي.

- ولم يخلُ هجاؤه من ألفاظٍ مُقدِّعةٍ في قِراعٍ مهجويِّه، كما أنَّ أشعاره قد احتوت على قسطٍ من الكلمات الغريبة التي تُحاكي شدة استغراب الشاعر من حال الذين أسقطَ عليهم هجاءه؛ وأمَّا التراكيب فقد جَنَحَتْ إلى القوة والجزالة التي تقتضيها طبيعة الهجاء.
- كما أنَّ هجاء أبي الهُدَى يُثيرُ في السامعِ مشاعرَ الاشمئزاز من المهجَّوين، وتجدُرُ الإشارةُ إلى أنَّ مَرَجَ هجائه للزَّمان بالشكوى جعلَ مشاعرَ الحزن والألم تحتدُّ فيما بين الكلمات، وتجعلُ الناظرَ فيها ينغمسُ مُتعاظِّقًا مع تجربة الشاعر الوجدانيَّة التي عاشها في ذلك الزَّمان، مما يؤكِّدُ صدقَ عاطفة الشاعر في غرض الهجاء.

المبحث السابع: غرض الرثاء

إنَّ من جملة الأغراض التي طَرَقَ أبو الهُدَى بابها غرضُ الرِّثاءِ، ولعلَّ في دخوله إلى مضمارِ هذا الغرض دليلٌ على ما امتلَّكه من سُرعةِ تفاعلٍ وقوَّةِ تأثُّرٍ يتفاعلُ بهما مع ما يدور حوله من الأحداثِ من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى قد يُفسِّرُ ذلك التصاقه بالشَّعرِ بشكلٍ خاصٍّ وحرصه على تسجيل الأحداثِ في السِّجَلِ الأدبيِّ المنظوم.

والرِّثاءُ في اللُّغةِ هو بكاءٌ على الميِّتِ ومدحٌ له، وأصله من قولهم: (رَثَيْتُ الميِّتَ ورَثَوْتُهُ ورَثَاءُهُ مَرَثِيَّةٌ ورَثِيَّةٌ ورَثِيًّا) بمعنى عَدَدْتُ محاسِنَ شمائله وبكيتُ عليه ونظمتُ فيه شِعْرًا، وهو يحملُ معنى الرِّقَّةِ والشَّفَقَةِ إذا ما عُدِّيَ فعلُهُ باللامِ فقليل: رَثَى لَهُ حيثُ يصيرُ بمعنى رَقَّ لَهُ وأشفقَ عليه؛¹⁰⁵² ويكرَّرُ ذاتُ المعنى عند مَنْ أرادَ تعريفَهُ في الاصطلاحِ فالنُّقَّادُ القُدَّامى عَدُّوه بَابًا من أبوابِ المديحِ¹⁰⁵³ وقُدَّامةُ بن جعفر أكَّدَ أنَّه لا فرقَ بينَ قصيدةٍ في الرِّثاءِ وأخرى في المدحِ إلا بما حَوَتْهُ من ألفاظٍ دالَّةٍ على الموتِ -مثلَ كَانَ وتولَّى وقضى نَحْبَهُ-،¹⁰⁵⁴ وقد عُدَّ الرِّثاءُ من فنونِ الشَّعرِ الغنائيِّ الذي يُعبَّرُ فيه عن مشاعرِ الحزنِ واللَّوعةِ التي تنتابُ الشَّاعِرَ عندَ فَقْدِ لعزیزٍ أو كارثةٍ تحلُّ بقومٍ أو مدينةٍ.¹⁰⁵⁵

وتجدرُ الإشارةُ إلى أنَّ هذا الغرضَ من أقَلِّ الأغراضِ الشَّعريَّةِ التي قَيَّدَ فيها أبو الهُدَى أشعاره، وذلك إذا ما قيسَ نتاجه فيه على ما سواه من الأغراضِ التي سَبَقَ الحديثُ عنها سالِقًا، إذ لم يحظَ هذا الغرضُ إلا ببضعِ قصائدٍ، ويكادُ مُعظَمُ رثائه يكونُ محصورًا في موضوعاتِ رثاءِ الأقاربِ.

¹⁰⁵² يُنظر: الخليل، رثي "234/8؛ ابن منظور، "رثًا"، "رثًا"، 83/1، 309/14؛ الجوهري، "رثى"، 2351/6.

¹⁰⁵³ يُنظر: القيرواني، العمدة، 122/1، 147/2.

¹⁰⁵⁴ يُنظر: قدامة، نقد الشَّعر، 33.

¹⁰⁵⁵ يُنظر: إميل بديع يعقوب-ميشال عاصي، المعجم المُفصَّل في اللُّغة والأدب (بيروت: دار العلم للملايين، 1407هـ/1987م)، 663/1.

ولا شكَّ أنَّ فقدَ الإنسانِ لأحبابِهِ أو لأقاربِهِ من جملةِ المصائبِ التي تقذفُ به في جُبِّ لوعةِ الأحرانِ، لا سيَّما إذا ما وُتِرَ أحدَ والديهِ لأنَّ فطرتهُ مُنقادَةٌ إلى حُبِّهما وفرطِ التَّعلُّقِ بهما، فإذا ما كانَ الفاقِدُ شاعراً فلا بدَّعَ أن يُترجِمَ لوعتهُ وأشجانَهُ بقصائدٍ يُحَيِّمُ عليها جوُّ من الحُزنِ النَّابعِ من مرارةِ الفقدِ، وما تفاوُتُ شاعريَّةِ شاعرٍ عن آخرٍ إلا بما يستطيعُ أن يخلُقَهُ من جوِّ الحُزنِ والألمِ في مرثيَّاتِهِ، وقد حاولَ أبو الهُدَى أن يبلِّغَ بمرثيَّاتِهِ الشَّأوَ القصيَّ من هذا الجوّ حينما سَلَكَ برثائه مسلكَ رثاءِ الأقاربِ، فحَظِيَّت دواوينُهُ بمرثيَّاتٍ في والديهِ وإخوتهِ.¹⁰⁵⁶

وعلى ما يبدو أنَّ الشَّاعَرَ قد كانَ أوَّلَ ما مُني به من مرارةِ الفقدِ هو إدراكُ منيَّةِ والديهِ، وذلك في وقتٍ مُبكرٍ من شبابهِ، فإنَّه لم يكن قد ألقى بعضا التَّسيارِ في إستانبول حتى تناهى إلى سمعِهِ نعيُ والدتهِ أواخرَ سنة (1297هـ/1880م) في مِربعِ وطنِهِ من ولايةِ حلب، فسَطَرَ في رثائها قصيدةً -زادت على عشرين بيتاً - لم يَشَأْ لبُنيَّتِها أن تُسَهِّلَ بأَيَّةِ مقدِّمةٍ، بل استفتَحها بثناءٍ يستذكرُ فيه أوقاته معها وأياديها البيضاءَ عليه فقال مُعَدِّداً محاسنَها ومآثرَها:

والدَّةُ اللهُ كم مرَّةٍ أغرَقني حَظِّي بإكرامِها
وكم لأجلي في الليالي دَعَت وأسدَلت دمعاً بأيَّامِها
طاهرةٌ طيِّبةٌ دأبها الذِّ تقوى كما شاعَ في أقوامِها
سليمةُ القلبِ وجلَّ الذي ما سَيَّرَ المكرَ بأوهاِمِها
شريفَةُ الطَّبَعِ ومن لُطفِها ترعَّبُ في خِدْمَةِ حُدامِها¹⁰⁵⁷

¹⁰⁵⁶ يُنظر: د.ت.ب، 95؛ د.ر.ت، 132، 116.

¹⁰⁵⁷ د.ف.م، 153.

فهي التي حَقَّه وإبلُ إحساناتها الذي استعارَ له وصفَ الإغراقِ، ليُبَالِغَ في توصيفِ عِظَمِ اهتمامِها به وحنوِّها عليه الذي عبَّرَ عن فرطِه باستخدامِهِ الطِّبَاقِ (الليالي/أيَّامها) إذ جعلها تشغلُ نفسها به شفقةً ورقَّةً واهتمامًا سحابةً نهارها وتُدَثِّرُهُ بدعائها ساعاتَ ليلها، وأتى في ثنائيه على خصالها بأسلوبِ التَّرادُفِ (طاهرة/طَيِّبَة) وأطنبَ مُحْتَزًّا بأنَّ هذا الخلقَ موروثٌ عن قومها وليسَ جديدًا مُكْتَسَبًا أو غريبًا عليها، فهي الشَّرِيفَةُ اللَّطِيفَةُ التي نَزَّهَها -بإتيانِه بأسلوبِ الاستتباعِ-، عن المكرِ الذي قلَّما حَلَّتْ أنثى منه، ثم أطنبَ بأسلوبِ التَّذْيِيلِ لِيُؤَكِّدَ طهارتها وطيبَةَ قلبها لَمَّا قال: (وجلَّ الذي ما سَيَّرَ المكرَ بأوهامها)، ثم استطرَدَ في كلماتِه الرِّثائيَّةِ التي أودَعَهَا شرحَ حالِه حزينًا على أيَّامِه التي تَقَضَّتْ بِقُرْبِها ونيلِ بَرِّها وعطفِها حاكيا حالةَ الأُسى التي نَزَلَتْ به وما اعتراه من آلامٍ بفقدِها، حيثُ يقولُ مُتَفَجِّعًا من مَرارةِ الفقدِ، وقد هَدَّ عزمُه ما اجتمعَ عليه من مَعاولِ البُعدِ والغُربةِ ومُصِيبَةِ الفراقِ للوالدَةِ الرُّؤومِ، فَحَقَّقَ لَهُ أن يَنْتَرِعَ من صَدْرِه الآلامَ مُتَأَوِّهاً:

أَوَّاهُ ما أحلى زمانًا مَضَى بقربِها ونيل إنعامِها
 وحين لا مانعَ عن قُربِها وشَمَّ أيديها وأكمامِها
 لله أشكو بُعْدَها إِنَّه لمُهَجَّتِي جاءَ بإضرارِها
 وإنَّه قابلٌ لي جُثَّتِي لسطوةِ الفقدِ بإعدامِها¹⁰⁵⁸

فهو بعدَ تفجُّعِه وتأوُّوه من حُرقةِ فقدِ والدتهِ راحَ يُصَوِّرُ الحالةَ التي بُليَ بها بالبُعدِ عنها وفراقِها، فاستعارَ -استعارةً مكنيَّةً- للبُعدِ وصفَ الإحراقِ والإضرارِ ثم أنزَلَهُ على فؤادِه الذي اعتَصَرَتْهُ آلامُ مُصابِ الفقدِ، بل أطنبَ مُسْتَطَرِّدًا بعدَ نقلِ حالةِ أعماقِ باطنِه إلى السَّامِعِ فراحَ يحكي حالةَ ظاهرِ جَسَدِه فاستعارَ -استعارةً مكنيَّةً- للبُعدِ وصفَ إنسانٍ أَجْهَزَ على شخصِه بالإعدامِ، مُبالغةً منه في

¹⁰⁵⁸ د.ف.م، 153.

نقل صورة الأسي والحزن التي عاشها بفقد والدته، مما يجعل الكلمات الرثائية هذه تستدر عطف السامع وتجعله يشترك مع الشاعر في مشاعر الأسي ولوعة الأشجان التي نزلت به؛ ولعل هذه الأبيات من البواكير الشعرية التي نظمها أبو الهدي في بدايات مسيرته الشعرية، فلربما لفت انتباه الناظر فيها تدريج الشاعر في شاعريته ونهوضه بنظمه إلى مستوى قد يكون أرقى من هذا المستوى الذي مر، إذا ما قيس برثائه لوالده الذي توفي بعد مرور عقد من الزمن على تاريخ نظم هذه المراثية (1312هـ/1894م)، حيث يلاحظ كيف ارتقى بشاعريته في المراثية المطولة - إذ جاوزت أبياتها ستين بيتاً - التي رثى بها والده، فهو قد اختار لها المطلع الأنيق الذي يرى فيه محاولة الشاعر أن يجود بما يتناسب مع مقام الرثاء، إذ الرثاء - حسبما يرى يحيى الجبوري (ت. 1440هـ/2019م) - مما يطمح إلى تجويده عند كل شاعر راث لأنه "تعبير عن خلجات قلب حزين وفيه لوعة صادقة وحسرات حري"،¹⁰⁵⁹ فلا بدع أن يفتح أبو الهدي مراثيته موشياً المطلع بزينة التصريح قائلاً:

رعى الله قلبي كيف أودى به الضرُّ وفارقه بالرغم عن جهده الصبرُ
لوته إلى الشهباء منه جواذبٌ لها اهتز من مطوي مكنونه السرُّ
فطار بريح الأنّ والحنّ عاكفاً هناك على قبرٍ بصندوقه البحرُ
على قبر بُرهان الحقيقة والذي سما رتبةً ينحط عن مجدها النسرُ
على قبرٍ فحل لم يرغ قط قلبه صدامُ العدا في الحرب والكرُّ والفرُّ¹⁰⁶⁰

فها هو الشاعر قد مثل أمام نظر السامع لهذا المطلع وقد حطت بساحة قلبه جيوش الضر فكدت تحطمه بعد أن لم تدع للصبر مجالاً، وها هو قلبه قد أبرزه مصوراً بريشة الحروف وقد تداعت جواذب

¹⁰⁵⁹ يحيى الجبوري، الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1406هـ/1986م)، 165.

¹⁰⁶⁰ د.ت.ب، 47.

أسى الفراق عليه وهي تهز بعُمقِ أعماقِهِ لتحطَّ به عند تلك الربوعِ الحليَّةِ الشَّهباءِ التي ثوى فيها والدُّهُ المَرثِيُّ، فلم يكن لهذا القلبِ إلا أن يستجيبَ لتلك الجواذِبِ، فاستدعى له أبو الهدى الاستعارة المكنيةَ المرشحةَ ليلبسَهُ أجنحةَ ريشَتِ من الأنينِ ولوعةِ التذكُّارِ، وبهذا يكون قد أحسنَ التخلُّصَ بجعلِ هذا القلبِ يطيرُ إلى مثنوى والدِهِ ليعكِفَ عليه هناك لا يلوي على غيرِه أحدًا، وفي هذا إشارةٌ من الشاعرِ إلى مقدارِ الحُزنِ والأسى الذي جثَمَ في أعماقِهِ حتى عادَ جسدًا بلا قلبٍ أو روحٍ، فأثَّي للقلبِ أن يعودَ إليه وهو قد ألقى بجناحي تحليقِهِ عاكفًا عند مثنوى والدِهِ، الذي يرثيه بأنَّه (البحر) كنايةً عن الجودِ والكرمِ، وأنَّه (برهان الحقيقة) في كنايةٍ عن الشَّأو القصي الذي ارتقاه في مراقي الحقائقِ المعرفيةِ، التي عَبَّرَ عن عِظَمِها وعلوِّ رُتَبَتِها بكنايةٍ أخرى جعلَ نسرَ الأعالي يقصُرُ به حالُهُ عن أن ينالَ سموَّ عُلاها، ومن ثمَّ راحَ مُستطردًّا في إضفاءِ الثَّناءِ على شمائلِ مَرثِيهِ آتِيًا بأسلوبِ التَّكرارِ (على قبرِ) حيثُ كَرَّرَها أكثرَ من عشرِ مرَّاتٍ، ليؤكِّدَ تلكَ الصِّفاتِ الحميدةَ من جهةٍ وليُبرزَ بها اضطرامَ مشاعرِ الحُزنِ في أعماقِهِ من جهةٍ أخرى؛ ثم تدرَّجَ بالأسماعِ واثيًا بها من وثبةٍ نفسيَّةٍ إلى أخرى، فبعدَ أن أبلَغَ في الثَّناءِ على صفاتِهِ انتقلَ إلى تذكُّارِ الأيَّامِ السَّالِفَةِ بالقربِ منه وما أترَعَت به -على رغمِ صعوبَتِها- من صفاءٍ وأنسٍ وسرورٍ أضفاهُ ذاكَ الوالدِ الرَّؤوفُ، فيقولُ مُتَشَوِّقًا ومُتَحَسِّرًا عليها:

فما أَبرَكَ الأوقاتِ مَرَّتْ بقربه حَلَا بتجلِّي حالِهِ كأُسْها المُرُّ
ويا ما أُحْيَا زُهَرَ أَيَّامِنَا التي به حينما نلقاهُ ينشِخُ الصَّدْرُ
باعتابهِ اللهُ كم طابَ عمرُنا وهل طابَ إلا ضمَنَ أعتابهِ العُمُرُ¹⁰⁶¹

فهو يتذكّر تلك الأوقات التي عبّر عن شدّتها باستعارته لها -استعارَةً تصرّيجيّةً- لفظَ الكأس المرّ، لكنّه عادَ يتعجّب من جمالِ أوقاتها حيثُ انتفتّ مرارتها بحالي جمالِ حالِ والده، ويكادُ الإطنابُ يكونُ مُحَيِّمًا على عمومِ المراثيّة ولعلّ به نَسَى للشاعرِ بسطُ ما تَلَجَّلَجَ في صدره من مشاعرٍ وأحاسيسٍ، حيثُ أكّدَ المعنى الأوّل بتذكّرِ الأيامِ وتعجُّبه من صفائها وجمالها الذي طابَ بُلُقيا والده والانشراح والسرور الذي كان يعمُّ بالاتّصالِ به والقربِ منه، وراحَ في البيت الأخير يتذكّرُ طيبَ عيشه لمّا كان مُجْتَمِعَ الشَّمْلِ بوالده ثم راحَ مؤكّدًا هذا المعنى بتساؤلٍ خرَجَ به عن مُقتضاهُ الظاهرِ ليمدَحَ مؤكّدًا طيبَ تلك الأوقات، جاعلاً السامعَ يصلُّ إلى قناعةٍ يُبرِّزُ بها ما قطعهُ الشّاعرُ على نفسه من لزومِ الحِدادِ والحزنِ إلى يومٍ أن يأذنَ الله بقاءَ مَرثِيهِ في العالمِ الأبديّ، حيث قال مُستطرّدًا:

إلى أن نُلَاقِيهِ فَمِنَّا لِأَجَلِهِ دموعُ سَخِيَّاتٍ وقلْبٌ به جَمْرٌ

فقدناه لكن ما فقدنا فيوضه (وفي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ يُفْتَقَدُ الْبَدْرُ)¹⁰⁶²

يَعُزُّ عَلَيْنَا طَيْهٌ فِي حُفَيْرَةٍ وإن كان في أطرافها البرُّ والبحرُ¹⁰⁶³

فهو رفيقُ الحزنِ مذ أن فارقه إلى أن يلقاه، وما استعارته للدموع التي يبيكيها وصفَ السّخاءِ ولا جعلُ الجمرِ مُضْطَرَمًّا في قلبه إلا تعبيرٌ بل إشاعةٌ لجوِّ الأسى والحزنِ في هذه المراثيّة وإظهارٌ للفجعية التي لا سبيلَ لتجويدِ المراثي إلا بها وبما يصحبها من الحسرة والاستعظامِ لهولِ الفقدِ،¹⁰⁶⁴ ومن أجلِ هذا فقد عبّرَ عن ذلك بتشبيهه الضّمْنِي لفقدِ والدهِ بافتقارِ البدرِ في داجي اللَّيالي، مع استدراكٍ بمدحِ عطايه الهاطلة، وإظهارِ استعظامِهِ لهولِ هذا الفقدِ فقد هالَهُ أن يُورَى الثرى وهو الطَّوْدُ الشّامِحُ الذي

¹⁰⁶² هذا العجزُ تضمينٌ لبَيْتِ عنترَةَ بن شدّاد الذي يقول في صدره: "سيدكري قومي إذا الخيلُ أقبلت"، يُنظر: عنترَةُ بن شدّاد، ديوان عنتر، إعداد:

خليل الخوري-أمين الخوري، (بيروت: مطبعة الآداب، 1311هـ/1893م)، 44.

¹⁰⁶³ د.ت.ب، 48.

¹⁰⁶⁴ يُنظر: القيرواني، العمدة، 147/2.

انطوت بين جنبيه أكمل صفات الإحسان والجود التي أشار إليها باستخدامه لام التعريف الكمالية (البر والبحر)، وفي تجاور هاتين الكلمتين إضفاء حلية بدعيّة هي إيهام التناسب¹⁰⁶⁵ بينهما، لكنّ ما أرادّه أبو الهُدَى أنّ مَنْ يرثيه هو البرّ المُحسِّنُ وصاحبُ الأيادي الذي كَتَبَ عن جوده بالبحر، فلا ريب أن ينفجّع بتغيّبه في حفنة من التراب؛ ولم يزل بمرثيته مُستمرّاً على هذه الوتيرة إلى أن ختمها بالدعاء والتّقدّيس لربّ العالمين بقوله مُستخدِماً الجنس النّاقص (الحبر/الخبر):¹⁰⁶⁶

رُزِقَتْ حياةً مُحَضَّةً أَبَدِيَّةً وفي مثلكم كم صدّق الحبرُ الخبرُ
عليك سلامُ الله فاهناً بقرّبه تعالى له سبحانه الخلق والأمر¹⁰⁶⁷

فمرثيته مرزوقٌ بحياة السّعادة الأبدية ويؤكد حياته تلك بالأداة (كم) الخبريّة لئيفيد تعجباً يمدّح به كثرة تصديق الأخبار الطّبيّة في مخبر هذا المرثي، فلئن جاء في أخبار الإيمان أنّ المؤمنين يُرزقون بحياة السّعادات والتّعيم الأبديّ فلا بدّ أن يصدّق هذا الخبر في مخبر هذا المرثي، ولربما كان الشّاعر بتقدّيسه لله ولأفعاله والتّسليم لأقداره قد أضفى على مرثيته براعة المقطع، وهذا يُتيح القول: إنّه جعل الخاتمة تتناغم مع وثبات القصيدة وتنقلاتها ولتناسب البداية مع النّهاية.

ورغم أنّ أبا الهُدَى كان قد خصّ أخاه الشّقيق نور الدّين (ت. 1313هـ/ 1896م)¹⁰⁶⁸ بقطعة رثائيّة،¹⁰⁶⁹ إلّا أنّها لم ترق إلى القصيدة التي رثى به أخته الشّقيقة خالديّة (ت. 1321هـ/ 1903م) التي

¹⁰⁶⁵ وهي الملحق بمراعاة النّظير، يُنظر: حبّكة، البلاغة، 384/2.

¹⁰⁶⁶ عُدت هذين اللَّفظتين الأخيرتين من الجنس النّاقص، إذ يفتح الخاء تعني واحد الأخبار، أمّا إذا ضُمّت فهي من خبرت الرّجل وأخبره بمعنى الاختبار والابتلاء أو العلم بالشّيء، يُنظر: الجوهري، "خير"، 642/2؛ ابن منظور، "خير"، 227/4؛ الزّبيدي، "خير"، 126/11.

¹⁰⁶⁷ د.ت.ب، 48.

¹⁰⁶⁸ يُنظر: الصّيّادي، التّاريخ الأوحد، 143؛ جريدة طرابلس الشّام، "وفاة السيّد نور الدّين الصّيّادي"، السّنة 4، العدد 146، (1896م/1313هـ).

¹⁰⁶⁹ يُنظر: د.ر.ت، 132.

سَلَكَ فِيهَا ذَاتَ الْمَسْلَكِ الَّذِي سَلَكَهُ فِي مَرْتَبَتِهِ لَوَالِدِهِ، فَتَأَنَّقَ فِي مَطْلَعِهَا وَأَوْدَعَهَا فَيْضَ مِشَاعِرِهِ
وَوَصَفَ مَا هَاجَهُ خَيْرُ وَفَاتِهَا مِنْ جُرُوحٍ وَأَكْدَارٍ، فَقَالَ مُتَفَجِّعًا مُتَأَوِّهًا:

خَبَرْتُ طَوَى شَقَقٍ¹⁰⁷⁰ الْبِقَاعِ فَأَخْبَرَا فَجَرَى لَهُ مَاءُ الْمَدَامِيعِ أَحْمَرَا
يُرْوِي أَحَادِيثَ الْأَحْبَةِ مُرْسَلَا مِنَّا الْعَيُونَ لَهَا سَحَابًا مُمِطْرَا
وَأَلْهَفَ قَلْبِي فَالْتِي قَدْ أَزْمَعْتَ تَرَكْتَ لَنَا صَفْوَةَ الْقُلُوبِ مُكَدَّرَا¹⁰⁷¹

فَنَعِي أُخْتِي قَدْ وَصَلَ إِلَيْهِ بَعْدَ أَنْ جَابَ الْمَفَاوِزَ وَالْوَهَادَ حَتَّى تَنَاهَى إِلَى مَسْمَعِهِ فَرَّاحَ يُصَوِّرُهُ بِمُبَالَغَةٍ
أَغْرَقَتْ فِي وَصْفِ حُزْنِهِ عَلَيْهَا إِذْ لَمْ تَكْفِ الدُّمُوعُ لَوْصِفِ ذَلِكَ الْحُزْنَ بَلْ جَعَلَ الدِّمَاءَ تَسِيلُ مَكَائِهَا،
وَعَرَضُهُ مِنْ هَذِهِ الْمُبَالَغَةِ الدَّلَالَةُ عَلَى اسْتِنزَافِ الْحُزْنِ لَدُمُوعِهِ إِلَى أَنْ عَدَا يَنْزِفُ الدِّمَاءَ مِنْ عَيْنَيْهِ حُزْنًا
عَلَى فِرَاقِ أُخْتِهِ، الَّتِي أَتَاهُ نَبَأُ مَوْتِهَا فَانْهَلَتْ لَذَلِكَ عَيْنَاهُ بِفَيْضٍ مِنْ بُكَاءٍ لَمْ تَلْقُ بِرِسْمِهِ إِلَّا الِاسْتِعَارَةَ
التَّصْرِيحِيَّةَ بِأَنَّهُ الدِّيمَةُ الْمِدْرَارِ الَّتِي سَالَ سَحَّاحُهَا حُزْنًا عَلَى فِرَاقِ الْمَرْتَبَةِ -أُخْتِهِ-، فَلَا غُرُوَّ أَنْ تَنْقَلِبَ
الْقُلُوبُ مِنْ صَفَاءٍ إِلَى غَمُومٍ وَأَكْدَارٍ يَصِيحُ الشَّاعِرُ بِتَفَجُّعٍ مِنَ آلَمِهَا.

تِلْكَ كَانَتْ أَهْرُزُ مَرْتَبَاتِ أَبِي الْهَدَى الَّتِي تُلْحَقُ بِرِثَاءِ الْأَقَارِبِ الَّتِي يُلْمَحُ فِيهَا مَا يُصَدِّقُ قَوْلَ
الْمُبَرِّدِ (ت. 285هـ/898م) فِي مِثْلِ هَذَا النَّوعِ مِنَ الرِّثَاءِ بِأَنَّهُ "يَقْرُبُ مِنَ الْقَلْبِ وَيُضْطَرُّ إِلَى تَصَدِيقِهِ
وَيُرْتَاخُ لِعَهْدِ قَائِلِهِ وَيُرْحَمُ لَشَكْوَى بَيْتِهِ"،¹⁰⁷² وَلَعَلَّ صَدَقَ الرِّثَاءُ عِنْدَ أَبِي الْهَدَى نَبْعٌ مِنْ صَدَقِ الْعَاطِفَةِ
عِنْدَهُ، وَهِيَ غَالِبًا مَا تَسْتَعْرِ عِنْدَ مُعْظَمِ الرُّثَاةِ لِذَا كَانَتْ الْمَرَاثِي عِنْدَهُمْ عَلَى حَالَةٍ مِنَ التَّجْوِيدِ "لَأَهْمَّ

¹⁰⁷⁰ تعني المسافات البعيدة، وهي جمعٌ واحدُه الثَّقَّة بكسر الثَّين وضَمِّهَا بمعنى السَّفَر الطَّوِيلِ والمسافة البعيدة، يُنْظَرُ: ابن منظور، "شقق"،

184/10.

¹⁰⁷¹ د.ر.ت، 116.

¹⁰⁷² مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ الْمُبَرِّدِ، التَّعَاذِي وَالْمَرَاثِي وَالْمَوَاعِظُ وَالْوَصَايَا، تَحْقِيقُ: إِبْرَاهِيمَ مُحَمَّدَ حَسَنَ الْجَمَلِ، (القاهرة: دار نَحْضَةِ مِصْرَ، د.ت)، 181.

ينظمونها وأكبادهم تحترق"،¹⁰⁷³ فلا غرو أن يلمح هذا الاحتراق والأسى في مرثيات أبي الهدي في أقاربه وهي التي تُلحق باللون الرثائي الذي سمّاه شوقي ضيف "النذب".¹⁰⁷⁴

إلا أنّ لونا آخر من الرثاء عند أبي الهدي يُمكن أن يُلحق بما سُمّي "ندب آل البيت الكرام"، الذي يُعبّر فيه الشاعر عن حزنه إذا ما هوى نجم لامع من سمائهم في غياهب الموت، وهو لون طالما سَطرت فيه مرثيات مُلتاعة؛¹⁰⁷⁵ وهذا اللون يلمح في رثاء أبي الهدي للإمام الحسين الشهيد رضي الله عنه، الذي قد يُطلق على المرثيات التي قيلت فيه مُسمّى "الطقيّات"،¹⁰⁷⁶ وهي مرثيات لم تنزل تُندّر لها السِنّة الشعراء وأقلامهم-على تفاوتٍ بين قلة وكثرة- في كلّ عصرٍ وفي كلّ جيلٍ،¹⁰⁷⁷ إذ لم يزل استشهاده عبر العصور يوحى للشعراء بمرثٍ هي الغاية في الحزن المُمضّ والألم المُحرِق"،¹⁰⁷⁸ وقد اختار أبو الهدي لقلمه أن يُسَطّر في هذا النوع من المرثيات، فأتى بأربع قصائد تجاوزت اثنتان منها أربعين بيتاً وأما الثالثة فقد بلغت تسعة وثلاثين بيتاً، وأقصرهنّ كانت أحد عشر بيتاً استبكي في مطلعها كلّ مُحبٍّ لرسول الله أن يُجري عينيه حزناً على سبط النبوة الشهيد فقال مُفتتحاً مطلعها دون أيّ مُقدّمة تمهيدية مُتابعاً ما كان يجري به الشعراء منذ العصر الجاهليّ من ترك المقدمات إذا ما هم

¹⁰⁷³ يُنظر: الجاحظ عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1418هـ/1998م)، 320/2.

¹⁰⁷⁴ يُنظر: شوقي ضيف، الرثاء (القاهرة: دار المعارف، 1407هـ/1987م)، 5.

¹⁰⁷⁵ يُنظر: ضيف، الرثاء، 38.

¹⁰⁷⁶ نسبة إلى الطّف وهي أرض في العراق من ضاحية الكوفة كان فيها استشهاد الإمام الحسين رضي الله عنه، يُنظر: باقوت، البلدان، 36/4.

¹⁰⁷⁷ يُنظر: جواد شير، أدب الطّف أو شعراء الحسين من القرن الأوّل الهجريّ حتى القرن الرابع عشر (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1388هـ/1969م)، 21/1.

¹⁰⁷⁸ يُنظر: ضيف، الرثاء، 40.

وقفوا في سُوحِ الرِّثاءِ، لِيُعَبِّرُوا عن شُغْلِهِم عن التَّقْدِيمِ والتَّأْنُثِ فيه بهولِ المصِيبَةِ التي حَلَّتْ بهم وما أُوْرَثَتْهُ من الحَسَرَاتِ والأشْجانِ وهذا ما يراه ابن رشيْقٍ وإِجْبًا على كُلِّ راثٍ اتِّباعُهُ والسَّيْرُ عليه: ¹⁰⁷⁹

يا مُحِبَّ المصطفى فابكِ الحُسَيْنَا وَأَسِلْ حَزْنًا من العَيْنَيْنِ عَيْنًا
جَدِّدِ الحُزْنَ لِمَا قد نالَهُ أَيُّ قَلْبٍ مؤمنٍ يسِلو الحُسَيْنَا ¹⁰⁸⁰

وهذا المطلع يدلُّ على أَنَّ رثاءَ الحُسينِ عند أبي الهُدَى كان نابغًا من كونه يرى أَنَّ مُحَبَّةَ الحُسَيْنِ والحُزنَ على ما انتَلَمَ من الإسلامِ باستشهادِهِ دينًا وإيمانًا، إذ هو يأتي بصيغةِ السُّؤالِ وما قصدهُ إلا التَّعَجُّبُ والتَّعجيبُ من فؤادٍ تمرُّ عليه مُصِيبَةُ سبطِ النُّبُوَّةِ وهو سألٍ خالٍ كأنَّ شيئًا لم يكن، فلا غرو أن يستنزلَ الدَّموعَ من عينِ كُلِّ مُحِبٍّ للنُّبُوَّةِ مُستعيرًا -استعارةً تصرِيحَةً- للمُقلِّ لفظَ الينبوعِ (العين) لتفجَّرَ منها دموعُ الحُزنِ للمُصِيبَةِ العُظْمَى باستشهادِ رِيحانةِ النَّبِيِّ الأكرمِ صلَّى الله عليه وسلَّم.

ويبدو أنَّ أبا الهُدَى في هذا النَّوعِ من الرِّثاءِ كان قد حرصَ على الغاياتِ الرِّثائيَّةِ الخالصةِ في قصيدةِ الرِّثاءِ، فأجرى بين جَنَبَاتِ القصيدةِ الوصفِ الموضوعيِّ للأحداثِ الدَّاميةِ في وَقْعَةِ كَرْبلاءَ، حتى ليَكدُّ وصفُ تلكِ الوقعةِ وأحداثِ استشهادِ سبطِ النُّبُوَّةِ يُوازي صوتَ الشَّاعرِ في وصفِ انفعالاتِهِ ومدى تأثيرِهِ بتلكِ الواقعةِ، إلى جانبِ سِيرِهِ على النمطِ التَّقليديِّ من مُقَدِّمَةٍ وتخلُّصٍ إلى الغرضِ الرَّئيسِ وخاتمةٍ يُنهي بها براءةَ المقطعِ ما قد استفتَحَهُ من براءةِ الاستهلالِ؛ ولعلَّ من أَجملِ المطالعِ التي افتتح بها رثاءَهُ قولُهُ وقد أتى بحليةِ التَّصرُّيعِ في البيتِ الأوَّلِ، وأظهرَ حالةً من التَّبَدُّلِ والتَّغْيِيرِ عَمَّتِ الأكوانَ وظواهرها الطَّبِيعِيَّةَ وَبَثَّ فيها روحَ الحياةِ بما أضفى عليها من صفاتِ الأحياءِ من حُزنٍ ولوعةٍ على المَرثِيِّ الشَّهيدِ:

¹⁰⁷⁹ يُنظَر: القيرواني، العُمدة، 152/2.

¹⁰⁸⁰ د.ر.ب، 58.

أَحْمَلُ¹⁰⁸¹ هذا الأفقِ غَابَ هِلَالُهُ ونَالَ خمولاً بعد سَطَعِ جَمَالِهِ
 أمَ الفَلَكُ الدَّوَارُ للْحُزْنِ لم يَدُرْ أمَ الرَّفْرِفُ القُدْسِيُّ قُدَّتْ¹⁰⁸² جِبَالُهُ
 أمَ الطَّفُّ أبكى الدِّينَ والشرعَ والهْدَى لما فيه قد نَالَ الحُسَيْنُ وآلُهُ¹⁰⁸³

فالمطلعُ يكتسبُ أهميته من حيثُ إِنَّهُ نابعٌ من حالةِ الشَّجَن التي حَقَّتْ بنفسيةِ الشاعرِ وحرَّكتْ قريحته،¹⁰⁸⁴ لأنَّ المطلعَ هو أوَّلُ دَفْقَةٍ من مشاعرِ الشاعرِ التي يُلقِيها في مَسَامِعِ المتلقِّي، إذ يُحاولُ من خلالهِ التَّنْفِيسَ عن الحُزْنِ الذي امتلأَ به صدرُهُ ومن ثَمَّ يدخلُ إلى عوالمِ الرِّثاءِ لواقعةِ استشهادِ الحُسَيْنِ؛ وهو هنا لم يَشَأْ في افتتاحِ مَرثِيَّتِهِ أن يُعَبِّرَ عن حُزْنِهِ فقط، بل ضمَّ إلى ساحَةِ الأَحْزَانِ العوالمَ التي أحاطتْ به جميعها، فحتى عالمِ الفضاءِ وما امتلأَ به من أَجْرامٍ سَيَّارَةٍ راحَ يتساءلُ في تعجُّبٍ عن وقوفِها بعدَ أن تساءَلَ عن هلالِ السَّماءِ كيفَ حُسِفَ وَحَفَّتْ أنوارُهُ، ومن ثَمَّ التَفَتَ مع حسنِ تَخُلُّصٍ - إلى حادثةِ الطَّفِّ وأحداثِها الدَّامِيَةِ التي تساءَلَ عنها بجعلها - من طريقِ الاستعارةِ المَكْنِيَةِ - قد أسألتْ عَيْنَ الإسلامِ حَزَنًا لما حلَّ بالسَّيْطِ الشَّهِيدِ وعِترَتِهِ في تلكَ الواقعةِ؛ وبهذا المطلعِ الرِّثائيِّ يُمكنُ القولُ: إِنَّ أبا الهُدَى قد انطلقَ بِمُقَدِّمَتِهِ من رُؤْيَةٍ دينيَّةٍ، خلافاً لما قد يُشاعُ من تفسيرِ التُّقَادِ بأنَّ مُقَدِّماتِ الشُّعراءِ التَّقْلِيدِيَّةِ يكونُ غالِبُها مُنطَلِقاً من خوفِ الفناءِ والقَلَقِ الوجوديِّ الباعثِ على التَّشَبُّثِ بالحياة.¹⁰⁸⁵

¹⁰⁸¹ قطيفة أو نسيج له وبر، أحمد مختار، "حمل"، 700/1.

¹⁰⁸² من القَدِّ وهو الشَّيْ طَوْلاً والقطعُ الذي يستأصلُ الشَّيْءَ، يُنظَرُ: الجوهري، "قدد"، 522/2؛ ابن منظور، "قدد"، 344/3.

¹⁰⁸³ د.ر.ب، 47.

¹⁰⁸⁴ يُنظَرُ: مقبول علي بشير النعمة، المراثي في عصر صدر الإسلام (بيروت: دار صادر، 1417هـ/1997م)، 186.

¹⁰⁸⁵ يُنظَرُ: حسين عطوان، مُقَدِّمَةُ القصيدة العربية في الشعر الجاهلي (القاهرة: دار المعارف، 1390هـ/1970م)، 217، 219.

وقد كَانَ ذَكَرُ تِلْكَ الْوَاقِعَةِ - حَادِثَةُ الطَّفِّ - وَمَا قَدْ جَرَى فِيهَا أَوَّلَ مَا حَرَّصَ أَبُو الْهَدَى أَنْ يَخْلُصَ إِلَيْهِ فِي مَرْتَبَتِهِ، حَيْثُ حَاوَلَ تَصْوِيرَ بَلَاءِ الْحُسَيْنِ فِيهَا وَتَصْوِيرَ شَجَاعَتِهِ فِي قِرَاعِ الْمُعْتَدِينَ مِنْ قَاتِلِيهِ؛ فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ وَهُوَ يَصِفُ هَوْلَ الْوَاقِعَةِ وَأَحْدَاثَهَا الدَّامِيَّةَ، عَبَّرَ اسْتِعَارَتَهُ الْمَكْنِيَّةَ لِلْمَوْتِ وَصَفَ الْخَبِطَ الَّتِي هِيَ مِنْ صِفَاتِ الْوَحْشِ الْكَاسِرِ، فَجَعَلَ الْمَوْتَ يَخْبِطُ بِالْفَرِيقَيْنِ الْمُتَقَابِلَيْنِ، وَبِإِسْنَادِهِ الْعِيْثَ إِلَى رَمَحِ الْمَدْمُوحِ وَسَيْفِهِ مَجَازٌ عَقْلِيٌّ يَوْضَحُ قُوَّةَ أَثَرِ سِلَاحِ الْمَدْمُوحِ وَأَثَرَهُ فِي الْجُمُوعِ الْمُعْتَدِيَّةِ، حَيْثُ قَالَ:

وَكَمْ رَدَّاهُمْ وَالْمَوْتُ يَخْبِطُ جَمْعَهُمْ وَقَدْ عَاثَ فِيهِمْ رُحْمُهُ وَنِصَالُهُ
أَذَارَ بِهِمْ طَرَفًا مِنَ السَّيْفِ جَارِحًا وَمَا كَانَ إِلَّا بِالدِّمَاءِ اكْتِحَالُهُ
وَلَا حَتَّ لَهُمْ إِذْ يَدُهُمُ الصَّفَّ مِنْهُمْ شُؤْنُ عَلِيٍّ فِي الْوَعَى وَفِعَالُهُ
ثَبَاتُ عَلِيٍّ فِي الصُّفُوفِ وَفِي الرِّضَا خِصَالُ إِمَامِ الْقِبْلَتَيْنِ خِصَالُهُ¹⁰⁸⁶

فَالْحُسَيْنُ لَا زَالَ يُقَلِّبُ سَيْفَهُ بَيْنَ هَامَاتِ أَعْدَائِهِ هَادِرًا بَيْنَ صَفُوفِهِمْ، مُذَكِّرًا بِحَالِهِ وَشِدَّةِ بَأْسِهِ وَشِدَّةِ كَرِّهِ عَلَيْهِمْ بِشَأْنِ أَبِيهِ لَيْثِ الْمَعَارِكِ وَالْحُرُوبِ، وَبِرِضَاهُ وَبِتَسْلِيمِهِ لِأَقْدَارِ اللَّهِ وَحُكْمِهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ الْفَانِيَةِ يَحْكِي شَأْنَ جَدِّهِ الْمُصْطَفَى وَسِيرَتَهُ وَحَالَهُ، وَمَا يَلْفُتُ الْإِنْتِبَاهَ لَيْسَ فَقَطْ جَمَالُ الْإِسْتِعَارَةِ الْمَكْنِيَّةِ الْمُرَشَّحَةِ الَّتِي جَعَلَ بِهَا لِلسَّيْفِ عَيْنًا جَارِحَةً مَقْصُورًا اكْتِحَالُهَا عَلَى دِمَائِ الْمُعْتَدِينَ وَإِنَّمَا مَا تَحَرَّاهُ مِنَ الدِّقَّةِ فِي انْتِقَاءِ الْأَفْعَالِ الَّتِي وَصَفَ بِهَا بَسَالََةَ الْحُسَيْنِ وَشَجَاعَتَهُ (يَرُدُّ/يَخْبِطُ/عَاثَ/يَدُهُمْ) الَّتِي تَشْتَرِكُ جَمِيعُهَا بِمَا أَلَمَّتْ بِهِ مِنْ مَعَانِي الْقُوَّةِ وَالشَّدَّةِ الَّتِي تُنَاسِبُ مَقَامَ الْكَلَامِ.

وَفِي مُقَابِلِ تَوْصِيفِ بَسَالََةِ الْحُسَيْنِ فِي جِهَادِهِ، يُعَرِّجُ أَبُو الْهَدَى أَثْنَاءَ رِثَائِهِ إِلَى جَانِبٍ يَتَنَاوَلُ خِلَالَهُ الْمُعْتَدِينَ عَلَيْهِ، وَيُمْكِنُ الْقَوْلُ: إِنَّهُ فِي تَنَاوُلِهِ لَهُمْ كَانَ قَدْ جَنَحَ بِالْمَرِئِيَّةِ إِلَى مَا يَقْرُبُ مِنَ الْهَجَاءِ؛

¹⁰⁸⁶ د.ر.ب، 49.

كقولِهِ فِيهِمْ بَعْدَ أَنْ أَحْسَنَ التَّخْلُصَ مِنْ وَصْفِ جِهَادِ الْحُسَيْنِ إِلَى هَجَائِهِمْ وَكَيْلِ الْوَعِيدِ لَهُمْ بِالْعَوَاقِبِ
الْمُخْزِيَةِ:

وَأَعَادَ مِنْ جُثْثِ الْكِلَابِ حُسَامَهُ وَبَيَاضُهُ الْوَضَّاحُ يَلْمَعُ أَحْمَرًا
تَبًّا لِأَجْلَافِ دَهْوِهِ لِيُطْفِئُوا مِنْ نَبْعَةِ الْقُدْسِ السِّرَاجِ الْأَنْوَارَ
لَعَنَ الْإِلَهَ مُقَاتِلِيهِ فَيَأْتَهُمْ هَدَمُوا مِنَ الْإِسْلَامِ رَكْنًا أَشْهَرًا
كَفَرُوا حَقُوقَ الْمُصْطَفَى فَمَقَرُّهُمْ قَعْرُ الْجَحِيمِ وَذَنْبُهُمْ لَنْ يُعْفَرَ¹⁰⁸⁷

وَيُلَاحِظُ فِي هَجَائِهِ لِلْقَتْلَةِ الْمُعْتَدِينَ أَنَّهُ كَانَ هَجَاءً إِسْلَامِيًّا يَقُومُ فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ عَلَى نَزْعِ صِفَةِ الْإِيمَانِ
مِنْهُمْ وَوَصْمِهِمْ بِأَتَمِّهِمْ مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ الْمُتَجَرِّعِينَ لِسُوءِ الْعَذَابِ فِي مَهَاوِي ذَرَكَاتِ نَارِ جَهَنَّمَ، فَهُمْ
الْهَادِمُونَ لِرُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ الْمُبِينِ بِفَعْلَتِهِمُ الشَّيْعَةَ، وَلِذَلِكَ فَهُوَ لَا يَتَحَرَّجُ مِنْ دَمِهِمْ بِأَشْنَعِ
الْأَلْقَابِ، وَهَذَا نَابِعٌ مِنْ نَظَرِيهِ وَإِيمَانِهِ الْجَازِمِ بِأَتَمِّهِمْ مُحَارِبُونَ لِلدِّينِ الْمُبِينِ وَنَبِيِّهِ رَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، حَيْثُ
يَقُولُ فِيهِمْ:

مَا حَارَبُوهُ بَلِ النَّبُوَّةَ حَارَبُوا وَالِدِّينَ وَالشَّرْعَ الْأَعَزَّ الْأَظْهَرَ¹⁰⁸⁸

وَعَلَى هَذِهِ الشَّاكِلَةِ قَوْلُهُ فِي تِلْكَ الْفِتْنَةِ الْقَاتِلَةِ:

رَفَعَتْ مَنَارَ عَدُوِّ آلِ مُحَمَّدٍ فَمَقَرُّهَا فِي الْأَسْفَلِينَ تَنْزُلًا¹⁰⁸⁹
وَلَعَلَّ أَبْرَزَ مَا يَلْفُتُ الْإِتْبَاهَ فِي مَرْتَبَاتِ أَبِي الْهُدَى لِلْحُسَيْنِ أَنَّهُ حَاوَلَ أَنْ يَسْلُكَ بِجَانِبٍ مِنْهَا
مَا سَلَكَ بِهِ الْأَوَّلُونَ مِنْ شُعْرَاءِ الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ مِمَّا يُعَدُّ أَحَدَ أَكْثَرِ عُنَاصِرِ رِثَائِهِمْ أَصَالَةً أَلَا وَهُوَ ارْتِفَاعُ

¹⁰⁸⁷ د.ر.ب، 26.

¹⁰⁸⁸ د.ر.ب، 26.

¹⁰⁸⁹ د.ف.م، 112.

الصَّوْتِ المَنَادِي بِأَخْذِ الثَّأْرِ مِنَ المَعْتَدِينَ؛ وَيُظْهَرُ هَذَا جَلِيًّا عِنْدَمَا قَالَ بَعْدَ تَحْلِيَةِ أَيْيَاتِهِ بِالتَّرَادُفِ (أَشْرَاف/سَادَة) وَالْجِنَاسِ النَّاقِصِ (نَسِيم/النَّسِيم، تَشْكُ/تُشْكُ)،¹⁰⁹⁰ وَالطَّبَاقِ (صَحَّ/اعْتِلَالُهُ، حَرَام/حَالَالُهُ، حُسَام/انْفِلَالُهُ):¹⁰⁹¹

كَأَنَّ نَسِيمَ الطِّفِّ يَأْتِي بِعَطْرِهِ وَقَدْ صَحَّ مِنْ ذَاكَ النَّسِيمِ اعْتِلَالُهُ
فَتُنْدَبُ أَشْرَافٌ وَتُرْعَدُ سَادَةٌ وَتَبْكِي حُسَامًا قَدْ شَجَّاهَا انْفِلَالُهُ¹⁰⁹²
تَرُومُ لَهُ سَفَكَ الدِّمَاءِ وَإِنَّهُ حَرَامٌ وَهَذَا لَوْ فَقَهْتَ حَالَهُ
وَتَشْتَاقُ حَرْبًا لَا تَشْكُ بِأَهَّا تُشْكُ بِهَا فِي كُلِّ جَزْءٍ نَبَالُهُ¹⁰⁹³

فَهُوَ يَنْتَشِقُ رِيحَ مَرْتَبَتِهِ الشَّهِيدِ مِنَ النَّسَائِمِ الْقَادِمَةِ إِلَيْهِ مِنْ تِلْكَ الْبُقْعَةِ الَّتِي خَرَّ بِهَا شَهِيدًا فَيُكَيِّعُ عَنْ دِمَائِهِ الزَّكِّيَّةِ بِالْعَطْرِ الَّذِي طَابَتْ بِهِ تِلْكَ النَّسَمَاتُ، وَهِيَ الَّتِي هَاجَتْ بِكُلِّ شَرِيفٍ أَرْوَمَةً وَخُلُقًا حَتَّى جَعَلَتْ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ حَزِينًا كَثِيرًا يَنْزِفُ الْعَبْرَاتِ عَلَى هَذَا الشَّهِيدِ الَّذِي جَعَلَهُ الْمُهَنَّدَ الْبَتَّارَ - مِنْ طَرِيقِ الِاسْتِعَارَةِ التَّصْرِيجِيَّةِ الْمُرَشَّحَةِ - لِيُشِيرَ إِلَى عِظَمِ شَجَاعَتِهِ الَّتِي غَابَتْ شَمْسُهَا بِاسْتِشْهَادِهِ الْمُكَيِّعِ عَنْهُ بِانْفِلَالِ الْحُسَامِ وَانْتِلَامِهِ بِالمُصِيبَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي حَلَّتْ بِسَاحَةِ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ انْعَطَفَ إِلَى تَعَطُّشِ كُلِّ مِنْهُمْ إِلَى أَخْذِ الثَّأْرِ بِقَتْلِ قَاتِلِيهِ وَإِسْعَارِ حَرْبِ الْإِنْتِقَامِ مِنَ الْمَعْتَدِينَ عَلَيْهِ، فَجَعَلَ مِنْهُمْ مُشْتَاقِينَ إِلَى الْحَرْبِ عَلَيْهِمْ مَوْقِنِينَ بِالْإِنْتِصَارِ حَيْثُ سَتُشْرُ عَلَى الْمَعْتَدِينَ غَارَاتُ الشَّهِيدِ فُتُشْكُ بِكُلِّ جَوَانِبِهَا نِصَالُ شَجَاعَتِهِ وَرِمَاحُ بَسَالَتِهِ؛ وَكُلُّ هَذَا مِمَّا يَسْتَتِيرُ فِي نَفْسِ السَّامِعِ وَيَسْتَنْهَضُ

¹⁰⁹⁰ الْأَوَّلَى مِنَ الشَّلَكِ وَهُوَ خِلَافُ الْيَقِينِ، وَالثَّانِيَّةُ مِنْ قَوْلِهِمْ شَكُّهُ بِالرُّمَحِ إِذَا خَرَّقَتْهُ وَانْتَظَمَتْهُ وَقِيلَ خَرَّقَتْهُ، يُنْظَرُ: الْجَوْهَرِيُّ، "شَكَّكَ"، 1595/4؛ ابْنُ مَنْظُورٍ، "شَكَّكَ"، 452/10.

¹⁰⁹¹ الْحُسَامُ مِنَ الْحَسَمِ وَالْقَطْعِ وَالبَتْرِ وَقَابَلُهُ ضِدُّهُ وَهُوَ الْإِنْفِلَالُ، يُنْظَرُ: الْجَوْهَرِيُّ، "حَسَمَ"، 1899/5؛ ابْنُ مَنْظُورٍ، "حَسَمَ"، 134/12.

¹⁰⁹² انْكَسَارُهُ وَانْقِلَابُهُ، يُنْظَرُ: الْجَوْهَرِيُّ، "فَلَّ"، 1792/5؛ ابْنُ مَنْظُورٍ، "فَلَّ"، 530/11.

¹⁰⁹³ د.ر.ب، 26.

به صدق الانفعال العاطفي مع عاطفة الشاعر الجياشة التي اكتنفت عنصر مطالبته بالتأثر للحسين الشهيد؛ ويكاد يكون التفجع على المرنى قريباً ملازماً لعنصر المطالبة بالتأثر الذي حوته المراثية الحسينية عند أبي الهدي، فمن تفجعه قوله وقد أتى بالإطناب بتكرار لفظة (هفي) ليشعر بما احتدم في داخله من اضطراب نيران العاطفة وليلهب بقبس منها مشاعر الحزن والأسى في نفس المتلقي والسماع للآيات تجاه مراثيه، فإذا كان قد دعا السامع إلى البكاء على الحسين في موضع فإنه قد بكى وأبكى في هذه الآيات التي أطلق فيها زفراته الحري قائلًا:

ليث الكريهة¹⁰⁹⁴ وابن سلطان الحمى فلك الوحي الشمس التي لن تُسترا
هفي لكوكب حسنه لما هوى من عرشه الأعلى لمُنْبَسِط الثرى
لهفي لأُسْرَتِهِ الكريمة مُدْ غَدَتْ أُسْرَى وهم آل الذي ليلاً سَرَى
هفي على آل الرسول فدمعُهم حتى القيامة لم يَزَلْ مُتَحَدِّراً¹⁰⁹⁵

فبعد أن استدعى التشبيهات البليغة لمراثيه بأنه الأسد والشمس التي لا يشرق شروقها غروب، بدأ بإظهار التفجع على مراثيه وهو مزوج بما اعتلج في أعماقه من إعظام لشخصية المرنى الذي انجر على أفراد عترته جميعهم، فتصوير جمال مراثيه استدعاه إلى استجلاب صورة بيانية له استعار بها -استعارة تصريحية- لفظ الكوكب الذي سقط من سماوات بُرجِه على صفحات الثراب، فلا بدع أن يتصدع قلب الشاعر على عترته الطاهرة التي لن يرقاً دمعها إلى يوم الدين في كناية منه على دوام هذا الحزن الدفين في سلالة المرنى إلى آخر أيام الدنيا.

¹⁰⁹⁴ هي النيدة في الحرب والنزلة من نوازل الدهر، يُنظر: الجوهري، "كره"، 2247/6؛ ابن منظور: "كره"، 536/13؛ وفي الديوان "الكرمة" وقد تكون كناية عن أمه الزهراء، ولعل الصواب ما أثبت أعلاه إذ إنها تتناسب مع مقام الكلام عن شجاعته.

¹⁰⁹⁵ د.ر.ب، 25.

لكنَّ كلَّ هذا التَّفَجُّع على المَرثِيِّ والتَّحسُّر على أُسْرَتِهِ وطلَب الثَّارات للشَّهيد ما يلبثُ أن يهدأ في بعضِ جَنَابِ المَرثِيَّةِ، مما يلفتُ انتباهَ النَّاظِرِ إلى كونِ الشَّاعِرِ قد وقَفَ قليلاً في خِصَمِ القصيدةِ وكأنَّه يلتقطُ أنفاسَهُ النَّظْمِيَّةَ ليستعيدَ عنفوانَ النَّظْمِ بوَثْنَةِ نَفْسِيَّةٍ جَدِيدَةٍ ومن ثَمَّ يُتَابِعُ في نظمِ عقدِ مَرثِيَّتِهِ، فكان أن أنتجت تلك الوقفات الهادئة صورةً جديدةً من صورِ الرِّثاءِ يصدِّقُ عليها ما أشارَ إليه شوقي ضيفُ أُمَّا صورةُ "العزاء"، إذ يكون الشَّاعِرُ فيها مُتَأَمِّلاً بعقلِهِ نافِذاً من نافذةِ الموتِ إلى التَّفَكُّيرِ في حَقِيقَتِهِ وتَأَمُّلِ حَقِيقَةِ الحَيَاةِ؛¹⁰⁹⁶ وتظهرُ هذه الصُّورةُ بشكلٍ خافِتٍ في مَرثِيَّاتِ أبي الهُدَى، على نحوِ قوله مُتَفَكِّراً بما قَدَّرَهُ ربُّ العالمين على سبطِ النُّبُوَّةِ الأطهر، حيثُ رأى ذلك الموتَ رُتْبَةً كَسَتْهُ حُلَّةُ الجلالِ في كلِّ العوالمِ الدُّنيويَّةِ والأخرويَّةِ، وصَبَّرَ نَفْسَهُ على ما أصابها من تأثُّرٍ بتلك الواقعة بأنَّ ما عليها سوى الإيمانِ بالقَدَرِ المُحْتَمِّ فالأقدارِ الإلهيَّةِ لا دَخلَ للعبدِ بها ولا مَفَرٍّ منها، وما من سبيلٍ لاستقبالها إلا سبيلُ الرِّضَا والتَّسليمِ لِمُقَدَّرِها الحكيمِ العليمِ علَّ وعلا:

أعطى ابنَ فاطمةَ البتولِ جَلالَةً رَفَعَتْ لَهُ فِي كلِّ فَجٍّ مَظْهَرًا
لِلَّهِ أَقْدَارُ تُقَابِلُ بِالرِّضَا والعبدُ لم يَكُ في الشُّؤْنِ مُحَيَّرًا¹⁰⁹⁷

وعلى هذه الشَّاكِلَةِ تفكُّرُهُ في المَرثِيَّةِ الأخرى بأنَّ كأسَ الشَّهادَةِ الذي ارتَشَفَ مِنْهُ مَرثِيُّهُ هو ذاتُ الكأسِ التي شَرِبَتْ مِنْهَا أعَظَمُ البَشَرِ مِنَ الرُّسُلِ والأنبياءِ، وبأنَّ المقامَ الذي وَقَفَ فِيهِ في ساحاتِ الوغى هُوَ مقامُ المجدِ والشَّرَفِ المؤبَّدِ، حيثُ قال مُسْتَحْدِماً أسلوبَ القصرِ لِيُبَيِّنَ عَنَانِيَّتَهُ ببسطِ حَقِيقَةِ موتِ مَرثِيَّتِهِ الشَّهيدِ المقدام، وليَقطَعَ بكونِهِ عَزًّا وارتفاعًا علِيًّا لَشَأْنِهِ:

¹⁰⁹⁶ يُنظَر: ضيف، الرِّثاء، 6.

¹⁰⁹⁷ د.ر.ب، 27.

جلالته شأنٍ بالشَّهادةِ نالها تفكَّرَ فزُهرُ الأنبياءِ مثاله
وما الموتُ إلا العِزُّ إن كان مُبرِّمًا على المجدِ في عَجِّ الحروبِ سِجاله¹⁰⁹⁸

وقد استطاعَ أبو الهُدَى أن يختارَ لخواتيمِ مرثياته من الطَّفِياتِ ما يُزيِّنها بالتَّناسُبِ مع المطالعِ،
فكان أن حازتِ براعة الاستهلالِ والمقطِّعِ؛ حيثُ ختمَ إحداها بسلامه على ذاتِ مرثيته مع ما يُشيرُ
إلى دوامِ الحُزنِ الدِّفينِ بداخلِ القائلِ:

عليه سلامُ اللهِ ما مرَّ ذكرُهُ وجاراهُ من جَوِّ العيونِ زُلَّاله¹⁰⁹⁹

في حين أنَّه ذيلٌ خاتمةِ الأخرى بتضمينهِ عجزها الأخير عجزَ مطلعِ قصيدةٍ لعمر بن الفارضِ
(ت. 632هـ/1235م)، تشرِّحُ حالةَ الحبِّ المُضطربِ في قلبهِ تجاهَ مرثيته، فقال مُحاطبًا له وكأنَّه أمامه
يطلبُ منه جائزةَ القبولِ على قصيدته:

خذاها ابنَ حيدرَةَ الوَعَا مرثيةً نظمتَ بذكرِكَ من صفاتِكَ جوهرًا
وامنُنْ بجائزةِ القبولِ تحنُّنا (وارحمَ حشًا بلظى هواك تسعرا)¹¹⁰⁰
ومن جميع ما سبق يُستنتجُ:

■ أنَّ أبا الهُدَى رغم إقلالهِ في هذا الغرض إلا أنَّه استطاعَ أن يُلِمَّ بصورتين من الصَّورِ التي
حُرِّرتَ للرثاءِ وهي: النَّدْبُ والعزاءُ، واقتصرت مرثياته على ندبِ الأقاربِ والحُسَيْنِ الشَّهيدِ
الذي تحلَّلَ مرثياته صورةً خافتةً من العزاءِ.

¹⁰⁹⁸ د.ر.ب، 48؛ والعجُّ الصَّياحُ، يُنظَر: الجوهري، "عجج"، 327/1.

¹⁰⁹⁹ د.ر.ب، 48.

¹¹⁰⁰ د.ر.ب، 48؛ والعجزُ الأخير من بيتٍ لابن الفارضِ يقول في صدره: "زِدني بَعرطِ الحبِّ فيكَ تحيُّرًا"، يُنظَر: عمر بن الفارض، ديوان ابن
الفرّاض (بيروت: دار صادر، د.ت)، 169.

■ وقد بُنيت مَرثيَّاتُهُ على نَمَطِ القُدَماءِ، وظهرَ هذا جليًّا في ترتيبه لأجزائها على مُقدِّمةٍ يُحسِّنُ التَّخَلُّصَ منها إلى الغرض ويحرصُ بعد المرورِ عليه أن يُحسِّنَ الخاتمةَ؛ وفي بعضها كان يُهمِّلُ المقدِّمةَ تمامًا ويزجُّ بالمسامعِ في عوالمِ الرِّثاءِ.

■ وقد تراوحت تلك المَرثيَّات التي أتى بها بين البساطة والرَّخِفةِ الفنيَّةِ، فنَطَقَتْ أساليبيها حاكِيةً المستوى الذي تدرَّج فيه أبو الهُدَى في شاعريَّته عبر حياته بدءًا من باكورة أعماله في مرحلة الشَّباب لَمَّا رثى والدته إلى آخرِ المسنويات التي وصل إليها لَمَّا رثى أخته قبل سنواتٍ قليلةٍ من وفاته؛ ولم تخلُ مراثيه من صورةٍ بيانيَّةٍ أو حُلَّةٍ بديعيَّةٍ.

■ وبما أنَّ غالبَ مراثيه -بما فيها ندبُهُ للحُسين- قد يُمكنُ أن تُحصَرَ في رثاءِ الأقاربِ، فقد نَبَضَتْ عاطفَةُ الحزنِ ولوعة آلامِ الفراقِ بين جَنَباتِها، لأنَّ رثاءَ الأقاربِ عادةً ما تكونُ فيه المشاعرُ أكثرَ حرارةً، وهذا انعكسَ على جودةِ الرِّثاءِ عند أبي الهُدَى وتأثيره في نفس السَّامعِ.

■ كما أنَّ توهجَ العاطفةِ عند الشَّاعرِ انعكسَ على انتقائه للألفاظِ المُعَبِّرةِ عن الحزنِ والأسى الذي التَّاعَ به قلبه، على رغمِ ما امتازت به من سهولةٍ وبُعدٍ عن العامِّيِّ المبتذلِ أو الغريبِ الوحشيِّ مع متانةِ التَّراكيبِ التي رُصِّت فيها وقوَّتِها؛ إلى جانبِ ما رافقَ ذلك من موسيقاه الشَّعريَّةِ التي اشتملت على قوافٍ حزينةٍ تُلائِمُ غرضَ الرِّثاءِ.

المبحث الثامن: أغراض أخرى

إنَّ الجَوْلَانِ فِي النَّتَاجِ الشَّعْرِيِّ لِأَبِي الْهُدَى الَّذِي انْتَشَرَ فِي دَوَاوِينِهِ كَشَفَ عَنْ أَغْرَاضٍ شَعْرِيَّةٍ كُبْرَى دَارَ فِي فَلَكِهَا نَصِيبٌ وَافٍ مِنَ الْأَشْعَارِ، وَقَدْ كَانَ الْمُرُورُ عَلَيْهَا مُهِمَّةً مَا مَضَى مِنَ الصَّفَحَاتِ السَّابِقَةِ، حَيْثُ نَالَ كُلُّ غَرَضٍ مِنْهَا نَصِيبًا مِنَ الشَّعْرِ الْمُنْدَرَجِ تَحْتِهِ.

إِلَّا أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ مِنَ الضَّرُورَةِ بِمَكَانٍ أَنْ يُلَفَّتِ الْإِنْتِبَاهُ إِلَى أَنَّ النَّتَاجَ الشَّعْرِيَّ لِأَبِي الْهُدَى لَمْ يَكُنْ مُقْتَصِرًا عَلَى تِلْكَ الْأَغْرَاضِ فَقَطْ، فَثَمَّةُ أَغْرَاضٍ أُخْرَى خَاضَ فِيهَا بِصُورَةٍ تَقْلُّ عَنْ سَابِقَاتِهَا، إِلَى أَنْ كَادَ بَعْضُهَا أَلَّا يُلْمَحَ إِلَّا لِمَا مَأً.

وَلَمْ يَكُنْ بَدُّ مِنَ الْإِشَارَةِ إِلَى مَجْمُوعِهَا، وَإِفْرَادِهَا بِمَبْحَثٍ يَمُرُّ عَلَيْهَا مُسْتَقْلِلَةً عَنِ الْأَغْرَاضِ الرَّئِيسَةِ السَّالِفَةِ، لِأَمْرَيْنِ اثْنَيْنِ، أَحَدُهُمَا: هُوَ قِلَّةُ وَرُودِ مَا يَنْدَرِجُ تَحْتَ هَذِهِ الْأَغْرَاضِ مِنَ الْأَشْعَارِ مِنْ جِهَةٍ، وَلِضَحَالَةِ الْعُنَاوَةِ الَّتِي بُنِيَتْ عَلَيْهَا مَوْضُوعَاتُهَا مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، وَالْأَمْرُ الثَّانِي: هُوَ كَوْنُ بَعْضِهَا مُنْبَتِّقًا عَنِ الْأَغْرَاضِ الرَّئِيسَةِ أَوْ بَارِزًا بَيْنَ الْفَيْئَةِ وَالْأُخْرَى فِي تَضَاعُيفِ أَشْعَارِهَا، فَعَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ: قَدْ بَرَزَ غَرَضُ (الطَّبِيعَةِ) خِلَالَ مُقَدِّمَةِ مَدْحِيَّةٍ فِي الْعُثْمَانِيَّاتِ،¹¹⁰¹ بَيْنَمَا انْكَشَفَتْ عُنَاوَةُ مِنْ غَرَضِ (الشَّكْوَى) فِي قِصَائِدِ الْهَجَاءِ وَالْمَدِيحِ النَّبَوِيِّ،¹¹⁰² وَمِنْ غَرَضِ (الْغُرْبَةِ وَالْإِغْتِرَابِ) فِي قِصَائِدِ الدُّعَاءِ وَالْمَدِيحِ النَّبَوِيِّ،¹¹⁰³ وَمِنْ غَرَضِ (التَّشَوُّقِ) فِي قِصَائِدِ الْمَدِيحِ النَّبَوِيِّ وَالْمَدِيحِ الْعَامِّ وَالرِّثَاءِ.¹¹⁰⁴

¹¹⁰¹ يُنْظَرُ: ص 184.

¹¹⁰² يُنْظَرُ: ص 143، 311-312، 316.

¹¹⁰³ يُنْظَرُ: ص 85، 143-144.

¹¹⁰⁴ يُنْظَرُ: ص 139، 142، 206، 237، 333.

ولعلَّ ما يسترعي الاهتمام أَوَّلًا من هذه الأغراض التي يُريدُ هذا المبحثُ أن يَمُرَّ عليها هو غرضُ (الفخرِ)، الذي تميَّزَ بانِبْثاقِهِ عما تصدَّى له أبو الهُدَى من هجاءٍ لمُفرَزاتِ الزَّمنِ من الحُسادِ والمُعَارِضِينَ والمُعْرِضِينَ الذين رَمَوْهُ بِنِبالِ الافتراءاتِ، فكانَ كثيرًا ما يخلُصُ بعد هجائِهِم مُلتَفِتًا إلى فخرٍ يُشِيدُ به بما حُبِّيت به شخصيَّتهُ من صفاتِ المجدِ والسُّودَدِ؛¹¹⁰⁵ إلا أنَّ ناظرًا في شعرِهِ لا يملكُ غضَّ الطَّرَفِ عن فخرِيتِهِ التي حاولَ نَسَجَ مَطْلَعُهَا على منوالِ لامِيَّةِ الطُّغْرَائِيّ (ت. 580هـ/1184م)،¹¹⁰⁶ حيث قال:

شَهَامَةُ الطَّبَعِ قَادَتْنِي إِلَى الْأَدَبِ وَعِزَّةُ النَّفْسِ رَفَّتْنِي إِلَى الرَّثَبِ¹¹⁰⁷

وهي تقع في واحدٍ وعشرين بيتًا قامَ فخرُهُ فيها على عناصرِ العلمِ والأدبِ وكرِيمِ الأخلاقِ، وأشدُّ ما يَلِفُ الانتبَاهَ فيها افتخارُهُ بالمعاني التي يُجِلُّهَا أمثالُهُ من أربابِ التَّدَيُّنِ كزُهدٍ بالدُّنيا وشِدَّةِ خوفٍ من الله وثِقَّةٍ به وحُسنِ ظَنٍّ بعوايدِهِ وتجَرُّدٍ عن الاعتمادِ على مَنْ سِوَاهُ من المخلوقاتِ، مما يعني أَنَّهُ افتخارٌ بالصِّفَاتِ الدِّينِيَّةِ المحضَةِ، كقولِهِ:

وَلِي مِنَ اللَّهِ خَوْفٌ لَا يُحَدُّ وَلِي حَسَنُ الظُّنُونِ بِهِ فِي كُلِّ مُنْقَلَبٍ
وَلِي عَنِ الْغَيْرِ تَجَرُّدٌ وَلِي هِمَمٌ تَعْلُو بِأَنْ تَنْسَبَ التَّأْثِيرَ لِلْسَّبَبِ¹¹⁰⁸

¹¹⁰⁵ يُنْظَرُ: د.ر.ت، 28، 29، 109، 110، 256.

¹¹⁰⁶ وهي المشهورة باسم "لامِيَّةِ العجم" التي مطلعها:

أَصَالَةُ الرَّأْيِ صَانَتْنِي عَنِ الْخَطَلِ وَحَلِيَّةُ الْفَضْلِ زَانَتْنِي لَدَى الْعَطَلِ

يُنْظَرُ: مؤيَّد الدِّينِ الحُسَيْنِ بنِ عَلِيِّ الطُّغْرَائِيّ، ديوانِ الطُّغْرَائِيّ، تحقيق: يحيى الجبوري-علي جواد الطَّاهِر، (الدَّوْحَةُ: مطابع الدَّوْحَةِ الحديثة،

1406هـ/1986م)، 301.

¹¹⁰⁷ د.ف.م، 155.

¹¹⁰⁸ د.ف.م، 155.

ويُلحَظُ إتيانُهُ بصفاته الفخريَّة مُنكَرَةً (خوفٌ/تجريدٌ/هَمٌّ) وما تنكيره لها إلا ليُبَالِغَ في الدِّلالَةِ على عظيم شأنها وعلوِّ كعبه فيها؛ وعلى هذه الشَّاكِلَةِ قولُهُ في موضعٍ فخريٍّ آخر، وقد افتخَرَ بِهَمَّتِهِ المتوجِّهَةِ إلى الخالقِ لا إلى أحدٍ من المخلوقين، مُستخدِمًا في فخريِّه أسلوبَ القَصْرِ مُؤكِّدًا به افتخاره بِهَمَّتِهِ العُلَياءِ وليقطَعَ الحكمَ مُؤكِّدًا كونها عليَّة الشَّانِ مقصورةً على ما يُقَرَّبُهُ من الله:

ولي همةٌ شماءُ عن شيمٍ علَّتْ لقد أخذتْ إلا عن الله جانِبًا¹¹⁰⁹

ولئن كان ابن رشيق يرى بأنَّ الفخرَ الحلالَ هو "غيرُ المُدَّعى فيه ولا المُنتحل"،¹¹¹⁰ فهو وصفٌ لا يبعدُ أن يصدُقَ على فخرَيَّاتِ أبي الهُدَى لَمَّا بَرَزَ في مواضع منها عنصرُ الافتخارِ بخدمة الدِّينِ الحنيفِ وصدق الإخلاصِ لخليفة المسلمين والولاءِ لَهُ، نحو قولِهِ:

عَرَبِيٌّ عَرِقَ من ذَوَائِبِ¹¹¹¹ هاشِمٍ ضُرِبَتْ على الشَّرَفِ الصَّمِيمِ خيامي
أفدي بنورِ الرُّوحِ شرعَ مُحَمَّدٍ وأصونُ عهدَ خليفتي وإمامي¹¹¹²

وقد ضَمَّ أبو الهُدَى إلى مفاخرِهِ فخره بأهلِهِ وعشيرَتِهِ، وكان أوَّلُ ما لاحَ في افتخاره من صفاتهم هو ذلكَ المقامَ الرَّفيعَ الذي تَرَبَّعوا على عرشِهِ من الشَّجاعةِ في النِّزالِ والبلاءِ الحَسَنِ في ساحاتِ الوَعَى، وهو الذي عدَّهُ لسان الدِّينِ بن الخطيب في صدرِ ما افتخَرَتْ به العربُ في قديمِها وحديثها إذ كانَ أعظَمَ فخرِها "عدُوُّ يُغَلَبُ وثناءٌ يُجَلَبُ"،¹¹¹³ ولذلك يَجِدُ النَّاطِرُ أنَّ أبا الهُدَى يلهِجُ

¹¹⁰⁹ د.ر.ت، 22.

¹¹¹⁰ يُنظر: القيرواني، العمدة، 146/2.

¹¹¹¹ جمعٌ واحدُهُ دُوَابَةٌ وهي ناصيةُ الرأسِ والشَّعرُ المصفورُ منه، وهي من الجَبَلِ أعلاه، وسيقت هنا بتشبيهه بليغٍ للدِّلالَةِ على الجِدِّ الأثيلِ والشَّرَفِ الأصيل، يُنظر: ابن منظور، "دأب"، 380/1.

¹¹¹² د.ر.ت، 232.

¹¹¹³ يُنظر: المقرئ، نفع الطَّيِّب، 402/6.

مُفْتَحِرًا بَأَنَّهُ الْمُنْسُوبُ إِلَى زُهْرِ الْعَشَائِرِ مِنْ فُرْسَانِ الْكَرْبَهَةِ الَّذِينَ جَعَلُوا مِنْ سَاحَاتِ الْحُرُوبِ مَلَاعِبًا لَهُمْ، وَكَأَنَّهَا مُتَنَفِّسُهُمْ الَّذِي يَفْرُونَ إِلَيْهِ، وَهَذَا إِغْرَاقٌ مِنْهُ فِي تَنْبِيَتِ صُورَةِ ثَبَاتِهِمْ وَعَزْمِهِمْ فِي الْحُرُوبِ فِي ذَهْنِ الْمُتَلَقِّي، فَهُمْ يَتَبَارُونَ فِيهَا بِكَرِّهِمْ وَقَرِّهِمْ وَعَجِّهِمْ وَتَجِّهِمْ وَنِزَالِهِمْ، وَهُمْ الْأَشْرَافُ الْأَطْهَارُ، أَوَّلُو السَّيُوفِ الْبَوَاتِرِ، ضَرَاغِمَةُ الْحُرُوبِ، حَيْثُ يَقُولُ:

وَإِنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ فَرَعْتُ أُصُولُهُ لَقَدْ تَخَذُوا بِيَدِ الْوَطِيسِ¹¹¹⁵ مَلَاعِبًا
أَوَّلُو الْهِنْدَوَاتِيَّاتِ¹¹¹⁴ إِنْ مَا ذَكَرْتَهُمْ ذَكَرْتَ الْأَسْوَدَ الطَّاهِرِينَ الْأَطْيَا¹¹¹⁶

وَمَا أَنَّ مَقَامَ الْفَخْرِ مَقَامُ قُوَّةٍ وَاعْتِزَازٍ فَإِنَّ التُّقَادَ رَأَوْا الْغَايَةَ فِيهِ أَنْ تَكُونَ الْأَلْفَاظُ وَالتَّرَاكِبُ فَخْمَةً مُفَحَّمَةً مِنْ غَيْرِ تَصْنَعٍ تُنَاسِبُ مَقَامَ الْإِفْتِخَارِ؛¹¹¹⁷ وَقَدْ حَرَصَ أَبُو الْهَدَى عَلَى هَذِهِ الْمِيزَةِ لَمَّا وَرَدَ بِفَخْرِهِ عُنْصَرَ الْإِعْتِزَازِ بِقَوْمِهِ إِذْ يَرَاهُمْ السَّادَةُ الْكَرَامَ الْأَطْهَارَ مِنْ ذَوَابَاتِ قُرَيْشٍ الْهَاشِمِيِّينَ؛ وَمِنْ الْأَمْثَلَةِ الَّتِي جَرَتْ هَذَا الْمَجْرَى قَوْلُهُ:

عَيْي فَخَازَ لَمْ تَزَلْ أَذْيَالُهُ مَسْحُوبَةً شَرْفًا عَلَى كَيَوَانِ¹¹¹⁸

¹¹¹⁴ جَمْعُ هِنْدَوَاتِيٍّ وَهُوَ اسْمٌ يُطْلَقُ عَلَى السَّيْفِ الْمُنْسُوبِ إِلَى الْهِنْدِ وَهُوَ الْمَطْبُوعُ مِنْ حَدِيدِهَا وَمِثْلُهُ الْمَهْنَدُ، يُنْظَرُ: ابْنُ دُرَيْدٍ، "دنه"، 687/2؛ ابْنُ مَنْظُورٍ: "هند"، 438/3.

¹¹¹⁵ الْبَيْدُ جَمْعٌ وَاحِدُهُ بَيْدَاءٌ وَهُوَ اسْمٌ يُطْلَقُ عَلَى الصَّحْرَاءِ الْوَاسِعَةِ لِأَنَّهَا تُبِيدُ مَنْ يَسْلُكُهَا وَتُهْلِكُهَا، يُنْظَرُ: ابْنُ مَنْظُورٍ: "بيد"، 558/1؛ وَالْوَطِيسُ مِنَ الْوَطَسِ وَهُوَ الضَّرْبُ الشَّدِيدُ وَالْكَسْرُ وَالْدَّقُّ وَهُوَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ التَّنَوُّرِ، وَيُطْلَقُ أَيْضًا عَلَى الْمَعْرَكَةِ لِأَنَّ الْخَيْلَ تَطْسُهَا بِخَوَافِهَا، يُنْظَرُ: الْجَوْهَرِيُّ، "وطس"، 989/3؛ ابْنُ مَنْظُورٍ: "وطس"، 255/6.

¹¹¹⁶ د.ر.ت، 22.

¹¹¹⁷ يُنْظَرُ: الْقَيَرَوَاتِي، الْعَمَدَةُ، 124/1.

¹¹¹⁸ اسْمٌ فَارِسِيٌّ لِكَوْكَبِ زُحَلٍ، يُنْظَرُ: الْخَلِيلُ، "كوي"، 421/5؛ الْأَحْمَدَنَكِرِيُّ، جَامِعُ الْعُلُومِ، 108/3.

قد جاء عن زُهرٍ العشيرة شُبهًا¹¹¹⁹ بيضُ الوجوه عواطرُ الأردن¹¹²⁰
 ينصبُّ في عليا لُؤيٍّ مجدها مُستكملُ البرهانِ في عدنانِ
 حملتهُ سلسلةٌ يَيطُ¹¹²¹ بفخرها عرشُ العُلا علويَّةُ الأركانِ¹¹²²

فهذه القطعةُ الفخريةُ يُلحظُ دِقَّةُ اختيارِ أبي الهُدَى لألفاظِ الفخارِ بقومِهِ، وحشدهِ للصَّورِ البيانيَّةِ التي تُعبِّرُ عن عُلا مجدِ حَسبهِ ونَسبهِ الذي يفتخِرُ بهِ، ففي البيتِ الأوَّلِ استدعى بقوله (لم تزل أذِيالُهُ) كنايةً عن استمراريَّةِ شرفِهِ ودوامِهِ أَبَدَ الأَيَّامِ في علوِّ وارتفاعِ، وعَبَّرَ عن سموِّه وباذخِ عُلاه بكنايةٍ أُخرى إذ جعلَهُ يعلو على كوكبِ السَّماءِ (كَيوان)، واستعارَ -استعارَةً مكنيَّةً- للفخارِ وصفَ الحملِ الثَّقيلِ -الأَطيضِ- لِيُشيرَ إلى عِظَمِهِ وسموِّهِ، إلى جانبِ التَّشبيهِ البليغِ الذي جعلَ العُلا عَرشًا تستوي عليه معاني الفخار -بعد حذفهِ لأداةِ التَّشبيهِ ووجهِ التَّشبيهِ (السَّموُّ والارتفاعُ والعِظَمَةُ)-، وكلُّ ذلكِ إغراقٌ منه في فخرِهِ بمحتدِهِ الأصيلِ بالتَّسبِبةِ إلى الأُسرةِ العلويَّةِ الهاشميَّةِ القرشيَّةِ العدنانيَّةِ، التي رَفَّتْ مَرَقَى من العلياءِ جَعَلَهُ يُكَيِّ عن فِعالِها الحَيِّرةِ المُشرِّقةِ على وجوهِ أعلامِها بأنَّهم كانوا (بيضُ الوجوه وشُمَّ الأنوفِ)، أَشْرافُ ضُمَّتْ إليهِم طِيبُهُ الأعْراقِ وطهارةُ الأصولِ بما كَتَبَ عنه بقوله إِيَّهم (عواطرُ الأردن)؛¹¹²³ وعلى هذا المنوالِ كان أبو الهُدَى يسيِّرُ في فخرِياتِهِ إذا ما مرَّ بعنصرٍ الافتخارِ بالنَّسبِ الذي أَكثَرَ من التَّدقيقِ عليه، ويبدو أنَّ هذا التَّدقيقَ دَفَعَهُ إلى تركيزِ على عُنصرٍ آخرٍ ألا وهو الفَخْرُ بالسَّيْرِ على حُطَا فِعالِ آبائِهِ وَخِصالِهِم الشَّريفةِ، فيجدهُ النَّاطِرُ يُعَرِّجُ مُشيرًا إلى أَنَّهُ الرَّجُلُ العِصاميُّ

¹¹¹⁹ الشُّمُّ جمعٌ واجدُهُ أَشْمٌ وهي صِفةٌ مخصوصةٌ في أنفِ الرِّجْلِ ويُرَادُ عندَ إطلاقِها على الرِّجْلِ أَنَّهُ الكَرِيمُ ذو الأنْفَةِ والعِزَّةِ، فهي كنايةٌ عن الشَّرَفِ والزَّيْفَةِ وَكَرَمِ النَّفْسِ يُنْظَرُ: ابنُ دُرَيْدٍ، "شَم"، 140/1؛ ابنُ مَنْظُورٍ، "شَم"، 327/12.

¹¹²⁰ جَعَّ واجدُهُ الرُّدْنُ وهو أَصلُ الكَمِّ للقميصِ، وقيلَ مُقَدَّمُ كَمِّ القميصِ، يُنْظَرُ: ابنُ مَنْظُورٍ، "ردن"، 177/13؛ ابنُ سِيْدِهِ، "ردن"، 505/2.

¹¹²¹ من الأَطيضِ وهو صوتُ الرِّجْلِ والإِبِلِ من شِدَّةِ ثِقَلِ أَحْمالِها أو صوتُ الحِبالِ إذا ما شُيِّعَ لها صريرٌ ثم أُطْلِقَ على كُلِّ ما يُشَبِّهُ هذا الصَّوتَ، يُنْظَرُ: الجوهري، "أطط"، 1115/3؛ ابنُ دُرَيْدٍ، "أطط"، 58/1.

¹¹²² د.ر.ت، 256.

¹¹²³ يُنْظَرُ: أحمدُ مختار، "ردن"، 188/2.

الذي يشرفُ بالفعال وليسَ العظامي الذي يكتفي بالمقال ويقعد في دَسِ البطالة والخمول، نحو قوله بعد أن افتخرَ بنسبته الخالدية العلوية:

وأنا التقيُّ المجد من فرعيهما مع طهر هاتيك العظام عصامي¹¹²⁴

وكقوله في فخرية أخرى:

وقمتُ عصامياً بنفسٍ أبيّةٍ وعلمٍ وعرفانٍ جليلٍ المزيّة¹¹²⁵

فإذا كانت العربُ تناقَلَت المثلَ القائل: "كُنْ عَصَامِيًّا وَلَا تَكُنْ عِظَامِيًّا"،¹¹²⁶ فأبو الهُدَى لم يفتُهُ الاحترارُ في فخره بأنّه "العصامي" الذي ما ثناءه عن زَيْنِ الفِعالِ وكريمِ الحِصَالِ اكتفاءً بتردادِ أمجادِ آبائِهِ الأوّلين من الرّاحِلين؛ كما لم يفتُهُ -حتى وهو في هذا المقام من الافتخار والاعتزاز- التّعريضُ على المعاني الدّينيّة، فهو بعد تعدادِ مفاخرِهِ يلوي عُنُقَ القصيدةِ خاتماً لها بأنّ حقيقةَ العِزِّ تكون بحسن الارتباطِ برَبِّ العالمين، على نحو قوله:

العِزُّ باللهِ والدُّنيا مُوَلّيةٌ والمجدُ بالفضلِ لا بالمالِ والنَّشَبُ¹¹²⁷

ونحو قوله:

وما جَهِلَ الأخيارُ زُهرَ مناقبي ولي شَرَفٌ في جَبْهَةِ الفجرِ يُزْهِرُ

وما ضَرَّني أيّ من المالِ فارغٌ ولي من جنابِ الله عِزٌّ ومظْهَرُ¹¹²⁸

¹¹²⁴ د.ر.ت، 232.

¹¹²⁵ د.ر.ت، 63.

¹¹²⁶ يُنظر: الميداني، الأمثال، 331/2.

¹¹²⁷ د.ر.ت، 47؛ والنَّشَبُ لفظةٌ أعمُّ من المالِ فهي تشملُه وتشمل العقار، يُنظر: الجوهري، "نشَب"، 224/1.

¹¹²⁸ د.ر.ت، 109.

ولم يكن هذا الغرض مُتجاوزًا ما سوى هذه العناصر الفخريّة السّالفة، وهي عناصرُ عربيّة أُصيلةٌ أجمعَ عليها العرب حديثُهم وقديمُهم، من محاسن الأخلاق والنّسب الأصيل والدّكر الجميل، فالعرب لم تفتخر قطُّ "بقصرٍ يُبنى ولا عرسٍ يُجنى، إذ الدّهْبُ يذهبُ ويفنى النّشب،¹¹²⁹ وكلُّ الذي فوق التّرابِ تُراب، وتبقى المحاسن تُروى وتُنقل، والأعراضُ تُجلى وتُصقل"،¹¹³⁰ وهذا ما دارَ في أرجاءِ فخريّات أبي الهُدَى، وزادَ عليها أن صَبَغَهَا بلونٍ من المعاني الدّينيّة التي نَمَتْ عما امتزَجَ بنفسيّته وأعماقه من تعظيمٍ لها وإجلالٍ.

ومما حظي ببعضِ اهتمام أبي الهُدَى من الأغراض الأخرى غرضُ (التّاريخ الشّعريّ) أو كما يُطلقُ عليه آخرونَ مُسمّى "التّاريخ الحرفي" ويرى الرّافعيُّ أنّ سببَ هذه التّسمية هو الرّجوعُ إلى حسابِ أرقامِ الحروفِ الأبجديّة،¹¹³¹ وأيّاً كان المُسمّى فإنّ ما يُقصدُ به "هو أن ينظّم الشّاعرُ في آخرِ أبياتِهِ كلماتٍ إذا حُسِبَت حُرُوفُهَا بحسابِ الجُمْلِ اجتمعتَ منها سنواتُ التّاريخ المقصود، من ولادَةٍ أو زواجٍ أو وفاةٍ أو سفرٍ أو بناءٍ مسجدٍ أو تعيينٍ في وظيفةٍ" وإلى غير ذلك من المناسبات،¹¹³² ولعلَّ بداياتِ ظهورِ هذا الغرض حسبما وصلَ إليه الرّافعيُّ كانت في القرن التّاسع الهجري،¹¹³³ وقد شاعَ في العصرِ العثمانيّ على وجهِ الخصوصِ فقيّدَ نثرًا ونظمًا، إذ كانَ أهلُ العصرِ العثمانيّ يتغنّونَ بهذا البابِ فلكلِّ حادثٍ تاريخٍ في بيتٍ من أشعارِهِم؛¹¹³⁴ وعلى هذا السّنن تبعَهُم أبو الهُدَى في

¹¹²⁹ المال والعقار، يُنظر: الجوهرى، "نشب"، 224/1.

¹¹³⁰ يُنظر: عبد الرّحمن بن عبّيد الله السّكّاف، العود الهندي عن أُماليّ في ديوان الكنديّ (جَدّة: دار المنهاج، 1432هـ/2011م)، 530؛ المقرّي، نفع الطّيب، 402/6.

¹¹³¹ يُنظر: الرّافعيّ، آداب العرب، 250/3.

¹¹³² يُنظر: جَبّور عبد التّور، المُعجم الأدبيّ (بيروت: دار العلم للملايين، 1984م)، 56.

¹¹³³ يُنظر: الرّافعيّ، آداب العرب، 250/3.

¹¹³⁴ يُنظر: باشا، الأدب العثماني، 78.

التَّأْرِيخُ لما عاصَرَهُ من الأحداثِ حَوْلَهُ. ويبدو أنَّ أَوَّلَ ما أَرخَهُ منها هو حَدَثُ تَهْنِئَتِهِ بِحَوْلِيَّةِ تَوَلَّى السُّلْطَان عبد الحميد الثَّانِي لِلخِلاَفَةِ العُثْمَانِيَّةِ سنة (1301هـ/1883م) حيثُ قال في ذيل قصيدة التَّهْنِئَةِ المدحِيَّةِ للسُّلْطَان:

خَطَّتْ يَدُ العَوْنِ تَارِيخَهُ: (نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ)¹¹³⁵

1301هـ=312+494+65+90+340

ومما أَرخَهُ أبو الهُدَى في شعرِهِ حَوَادِثُ بِنَاءِ الصَّرُوحِ العِلْمِيَّةِ وإِعْمَارِهَا، ومن ذلك حَادِثَةُ إِعْمَارِ السُّلْطَان عبد الحميد للرِّوَاقِ الرِّفَاعِيِّ فِي البَصْرَةِ سنة (1307هـ/1889م)، بتجديدهِ له بعد أن تَقَادَمَ عَهْدُهُ، وَحِينَئِذٍ أَرخَ أبو الهُدَى الحَدَثَ هَذَا بِقَوْلِهِ:

أبو الهُدَى قَالَ بِتَارِيخِهِ: (حِيَّ الرِّفَاعِي مُشْرِقُ أَنْوَرِ)¹¹³⁶

1307هـ=312+494+65+90+340

وكذلك من الأحداثِ الَّتِي أَرخَهَا أبو الهُدَى وَفَيَاتُ الأَعْيَانِ مِمَّنْ اتَّصَلَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ رَوَابِطُ مَحَبَّةٍ أَوْ قُرْبَةٍ، وَفِي مَطْلَعِهِمُ والدُّهُ حَسَنُ وَادِي، الَّذِي أَرخَ وَفَاتَهُ بِقَوْلِهِ:

أَرخَتْهُ: (وَادِي الصَّفَاءِ مُمَجَّدٌ عَلَّمَ الحِمَى حَسَنُ أَبُو البَرَكَاتِ)¹¹³⁷

1312هـ=312+494+65+90+340

¹¹³⁵ د.ر.ت، 49.

¹¹³⁶ د.ر.ت، 139.

¹¹³⁷ د.ر.ت، 59.

ويُلْحَقُ بتاريخِ الْوَفَايَاتِ ما أَرَّخَ به وفاةُ مُفْتِي المدينة المنورة أحمد أسعد المدنيّ (ت. 1314هـ/1896م) وهو من الأعيانِ الْمُقَدَّمين عند السُّلطان عبد الحميد، إذ لَمَّا تَوَفِّي في إستانبول نَظَمَ فيه أبو الهُدَى أبياتٌ دَلَّلَها بقوله:¹¹³⁸

أنت ضيفُ الكريمِ بُشْرَاكَ أَرَّخَ: (في عَلَيِّ الجَنَّاتِ مَثْواكَ يُحَمَّدُ)¹¹³⁹

340+90+65+494+312= 1314هـ

وإذا كان أبو الهُدَى قد تابعَ ما يُهَمُّه من مُجْرِيَّاتِ الأحداثِ في عصرِهِ فأناها شيئاً من التاريخ بشعرِهِ، فَإِنَّهُ لتَجْدُرُ الإشارةُ إلى كونه لم يُهْمِلْ ما مرَّ به من المناسباتِ أيضاً، وذلك عبرَ توثيقها بِقِطْعِ شعريَّةٍ تُخَلِّدُ ذِكْرَها في سجلِّه الأدبيِّ المنظوم، فعلى هذا النحوِ خَلَّدَ ذِكْرَ وداعِ والدِهِ الذي أتى لزيارَتِهِ في إستانبول ثم قفل راجعاً إلى حلب،¹¹⁴⁰ وكذلك ما نَظَمَهُ حينما قَدِمَ ولَدُهُ حَسَنَ خالد من مُهِمَّةٍ أَرْسَلَهُ فيها السُّلطان عبد الحميد،¹¹⁴¹ وهي لا تتجاوزُ مُسَمَّى الثُّتْفِ أو في أقصى أحوالها قد تصل إلى مُسَمَّى القِطْعِ الشَّعريَّةِ.

وما انتَثَرَ في ثنايا دواوين أبي الهُدَى لِمَما، ما يُمكنُ إلحاقُهُ بغرضِ (الإخوانيَّاتِ)، التي يُقصدُ بها الأشعارُ التي تُصَوِّرُ العلاقاتِ الاجتماعيَّةَ بين الشَّاعِرِ وأصدقائِهِ أو مَنْ تربطُهُ بهم رابطةٌ مودَّةٍ أو حُبٍّ، وهي تفيضُ عادةً بما يُعَبِّرُ عن التَّهْنِئَةِ أو العتابِ والشَّكوى أو الودِّ والصَّدَاقَةِ أو الاعتذار؛¹¹⁴² ومن هذا القبيل ما بعثَ به أبو الهُدَى لصديقٍ له كان قد أَرْسَلَ إليه صورةً شخصيَّةً لَهُ، فاهتاجت

¹¹³⁸ يُنظر: البيطار، حلية البشر، 215.

¹¹³⁹ د.ر.ب، 20.

¹¹⁴⁰ يُنظر: د.ت.ب، 95.

¹¹⁴¹ يُنظر: د.ر.ت، 112، 136.

¹¹⁴² يُنظر: الشُّكَّة، فنون الشَّعْرِ، 267؛ جَبَّور، المعجم الأدبي، 9.

العواطفُ في صدرِ أبو الهُدَى وترجمها بكنائياتٍ لطيفةٍ، وجعلَ من صورةِ صديقه - بالتشبيه البليغ -
كعبةً للحُسنِ، وكَتَى عن عينيه الجميلتين بالحجر الأسود الذي راحَ أبو الهُدَى يلثمُه مُتشوّقًا إلى
صديقه، فراحَ يُصوِّرُ حالتهُ قائلاً:

من رَسَمِكَ الأملَسُ قد شاهدتُ عيناى شكلاً مثَلُ السُّودَا

كعبةً حُسنٍ أشرقتْ شمسُها قَبَلْتُ منها الحجرَ الأسود¹¹⁴³

وعلى هذا النحوِ قوله في صديقٍ له فارسيّ الأصلِ مُلاطفاً مُتَحَبِّباً إليه في رسالةٍ بعثها له، وقد ضَمَّنَهَا
نداءً له الذي يُعَبِّرُ عن فرطِ أشواقِهِ إليه:

يا كسرويَّ الطَّرَفِ حسبُكَ أنِّي أصبَحْتُ لا أجدُ اللَّيْاذَ بحارسٍ

حارِبَتني وغزوتَ قلبي فارِسًا ويلاه من هذا الغزالِ الفارِسي¹¹⁴⁴

وهذه التَّنْفَةُ أتت بالكناية عن جمالِ عيني ذلك الصِّديقِ الفارسيِّ بأنَّها كسرويةٌ لها من عَظَمَةِ الجمالِ
ما لِكسرى من عَظَمِ المُلِكِ والجاه، وأبو الهُدَى لا يملكُ إلا أن يخضعَ لها ويقعَ في حُبِّها إذ لا يحجزُ
قلبه عن ذاك أيُّ حاجزٍ، وُزِنَتْ في البيت الأخيرِ بالجناسِ النَّاقِصِ (فارِسًا/الفارسيِّ)، مما أضفى على
التَّنْفَةِ جوًّا من الودِّ والمحبةِ التي توطدُ العلاقةَ الأخويَّةَ فيما بين الأصدقاء. ومما وثَّقَ به اشتياقه لصديقٍ
له التَّنْفَةُ التي أرسلَهَا إليه قائلاً:

أيَّامُ بُعْدِكَ يا حبيبُ لها من الشَّتاءِ مقاييسُ وتمثالُ

تغيُّبُ أبكي ودمعي السَّيلُ مُنحدِرُ فالشَّمْسُ غائبةٌ والغيثُ هَطَّالُ¹¹⁴⁵

¹¹⁴³ د.ر.ب، 92.

¹¹⁴⁴ د.ر.ب، 145.

¹¹⁴⁵ د.ر.ت، 188.

فهو يُعَبِّرُ عن حالِّته مع صديقِهِ الحبيبِ الذي غابَ عن عينيه، فلم يَزَلْ دمعُهُ مُذْ تَفَارَقَا بانسكابٍ
 مما دَفَعَهُ لتشبيهه -تشبيهًا مُؤَكِّدًا مُفَصَّلًا- بالسَّيْلِ في الانحدار؛ ولكي تنجلي حالته هذه ساقَ
 التَّشْبِيهِ التَّمثِيلِيِّ فَاتَى بصورةِ غيابِ صديقِهِ وبُكائِهِ عليه في مُقَابِلِ صورةِ يومِ شاتٍ غابتِ شمسُهُ
 وتحدَّرَ غيثُهُ. وعلى هذا النَّحوِ شاعَ الجَوُّ اللَّطيفُ فيما نَظَّمَهُ أبو الهُدَى مما يُلَحِّقُ بغرضِ
 الإخوانيَّاتِ.¹¹⁴⁶

أَمَّا إِنْ التَّمَسَّ غرضُ (الألغازِ والأحاجي) فلن يُلَمَحَ في جميعِ دواوين أبي الهُدَى إلا نَتْفَةٌ
 يَتِيمةٌ دَوَّنَهَا مُلَغِزًّا في (البَسْمَلَةِ)، بقوله:

ما النَّقْطَةُ الجَلِيلَةُ البناءِ ضَمَنَ مِدَادِ مَبْدَأِ الْأَشْيَاءِ
 وَذَلِكَ الحَبْلُ الجَلِيلُ القَدْرِ مَبْدَأُ كُلِّ أَوَّلٍ مِنْ أَمْرِ
 والعَقْدَةُ اللَّطِيفَةُ الخَتْمِيَّةُ لِنَقْشِ رَمَزِ النَّقْطَةِ البَدِئِيَّةِ¹¹⁴⁷

وهكذا يتبيَّنُ من كُلِّ ما سَبَقَ إمكانيُّ حصرِ الأغراضِ التي لم يحفل بها الشَّاعِرُ - كما عَهِدَ
 عنه في الأغراضِ الرَّئِيسَةِ - بأنَّها: (الفخر، الشَّكْوَى، التَّشَوُّقُ، العُربَة، الطَّبِيعَة، التَّأْرِيخُ، الإخوانيَّاتُ،
 الألغازُ)، وهي مُتَنَائِزَةٌ في دواوينِهِ إمَّا بِشَكْلِ دُجِحَتْ فِيهِ مع الأغراضِ الرَّئِيسَةِ التي سَبَقَ المَرُورُ عليها،
 أو بِشَكْلِ مُسْتَقَلٍّ على قِلَّةٍ من النَّمَاذِجِ التي تَوَكَّدَ إهمالُ الشَّاعِرِ الاحتفالَ بها كثيرًا.

¹¹⁴⁶ يُنْظَرُ: د.ر.ح، 164؛ د.ر.ت 48، 92.

¹¹⁴⁷ د.ف.م، 152.

الخاتمة

ختامًا بعد هذه الرحلة البحثية في حياة أبي الهدي وأشعاره التي ضمها سقف خيمة الأغراض الشعرية التي بُيّنت فيما سبق، يُمكن القول إنه قد تمّ الوصول إلى عدّة نتائج يصحّ إجمالها فيما يلي:

1. قد عاش أبو الهدي فيما يُسمّى في التاريخ الأدبيّ بالعصر الحديث، وهو العصر الذي اتّسم من عاش فيه من الشعراء بالاتّجاه إلى تقليد فحول الشعراء، وهي سمة لم يخل منها أبو الهدي، إلا أنّ تقليده اتّصف بكونه تقليدًا واعيًا مُحكّمًا في كثير من المواضع وضعيفًا متأخرًا في مواضع أخرى.

2. تنوّعت الأغراض الشعرية في شعر أبي الهدي، حيثُ نظّم في جُلّ الأغراض العربية التقليدية المعروفة (المدح، الهجاء، الغزل، الرثاء)، لكنّ ما ميّز أغراضه أنّها انتمت لأغراض العصر الأدبيّ العثمانيّ، حيثُ برزت فيها بعض فنونه المستحدثة مثل: التأريخ الشعريّ والألغاز، إلى جانب ظهور بعض سمات أشعار ذلك العصر في شعره مثل: الشكوى والاعتراب والاتّجاه نحو الذات، مما يجعل أشعاره مطبوعة بالطابع الدّاتيّ إضافةً إلى الطابع التقليديّ.

3. على الرّغم من أنّه نظّم في أغراض متعدّدة إلا أنّها تفاوتت فيما بينها بغزارة الأشعار، فكان أغزرها غرض المديح النبويّ، ثم تلتّه -على التّرتيب- أغراض: المدح، الغزل، الوعظ، الهجاء، الدّعاء، الرّثاء؛ وأمّا الأغراض الأخرى (الغربة، التّشوّق، الشكوى، الطّبيعة، الإخائيّات، الفخر، التأريخ الشعريّ، الألغاز) فلم يحفل شعره بها كثيرًا، بل ربما برز بعضها في تضاعيف أشعار الأغراض الرّئيسة أو انبثّق عنها.

4. قد أثّرت في عموم أغراضه الشعرية الكبرى عدّة عوامل أهمّها:

أ) القرآن الكريم والحديث النبوي والتصوف، إذ لما كانت هذه العناصر مُجتمعة لها الأثر الكبير في التكوين الثقافي الفكري لأبي الهدي، فقد كانت حاضرة في شعره بقوة، فبدأ معجمه اللغوي وكأنه قد استمد من هذه العناصر، عبر الاقتباسات الكثيرة، وما لحقها من ظهور المصطلحات والأفكار الصوفية بين الفينة والأخرى، وخصوصاً في أغراض المديح النبوي والمديح العام.

ب) النسبة المثبتة لآل البيت النبوي، التي جعلت منه نقيباً للأشراف، وشد من عضدها ملكائه العلمية التي جعلته يتسم مكانة اجتماعية وسياسية مرموقة؛ كل هذا مما أهل شخصية أبي الهدي ومنحه نوعاً من القوة في الانطلاق والتدفق في شعره، وخصوصاً في أغراض الهجاء والوعظ والفخر.

ج) طبيعة الفترة الزمنية التي عاصرها أبو الهدي وما رافقها من أحداثٍ اختلطت فيها الأمور وانقلبت فيها المفاهيم، وتسلط فيها الغرباء وصارت لهم صولتُهُم وجولتُهُم في المجتمع، إلى جانب العربة التي أمضى تحت ظلالها شطر عُمره، وما تعرض له من الحساد، وما جرّه عليه كل هذا من شعورٍ دائمٍ بالألم والاغتراب عن الأهل والوطن؛ حيث خيمت نتائج هذا الأثر -من شكوى وألم- على عموم أغراضه الشعرية وخصوصاً في غرض المديح النبوي، وغرض الهجاء الذي برزت فيه ملامح النقد الاجتماعي للظواهر السلبية المنتشرة في ذلك الزمان.

5. قد كان أسلوب أبي الهدي أسلوباً أدبياً متوازناً يجمع بين كثافة الأفكار والقدرة على انتقاء التراكيب المناسبة لها، فجاءت تراكيبه متميزة بالسلامة اللغوية وحسن الصياغة، ولم يلمح في عمومها -إن لم نقل كلها- ما تُعاب عليه نحوياً أو لغوياً، بل كانت متينة قوية السبك؛ غير أن الأفكار والمعاني لم تخرج عن سنن القدامى إلا لماماً، ولم يكتنفها في عموم الأغراض

الشَّعْرِيَّةُ أَيُّ غَمُوضٍ، كما أنَّها كانت مُستوحاةً من البيئَةِ التي عاشَ فيها، ولم تتخلَّلها المعاني الفاحشةُ أو البذيئةُ إلا ما حُصِرَ في غرضِ الهجاءِ من نزرٍ قليلٍ رَمَى به حُسَّادَه؛ في حين أنَّ ألفاظَهُ كانت سَمَحَةً مُستساعَةً لا يَجْنَحُ فيها إلى الغريبِ إلا إذا ما أَرَادَ أن يُغَرِّبَ ويُعَلِّيَ من شأنِ المعاني المطروقةِ، فاستطاعَ بذلك أن يُمَسِّكَ بزمامِها حسبَ المعنى الذي يريدُ أن يطرقَهُ، مع اهتمامٍ ملحوظٍ بالمُحَسِّنَاتِ البديعيَّةِ. وهذه الموسيقى الدَّاخِلِيَّةُ للقصيدَةِ الشَّعْرِيَّةِ عند أبي الهُدَى لم تكن بأكثرَ اهتمامًا من الموسيقى الخارجِيَّةِ التي كان يختارُ بها قوافي الأبياتِ وأوزانها - كما يُلَمَحُ ذلك جليًّا في غرضي الغزل والرثاء -.

6. إِنَّ الصُّورَةَ الفنيَّةَ في شعرِهِ كانت مُستَمَدَّةً مما حَفَلَتْ به ذَاكِرَتُهُ من ثَرَاتٍ أدبيِّ، وما وَقَعَتْ عليه عينُهُ من بيئَتِهِ، وكانت مُدَجَّجَةً مع شعورٍ صادقٍ يُسَكِّبُ على الأشعارِ بما صنَعَهُ خيَالُهُ المتوقِّدُ من تشبيهاتٍ واستعاراتٍ وكنائياتٍ؛ فلم تَعْدَمِ الأغراضُ الشَّعْرِيَّةُ عنده من جماليَّاتٍ كان لها بالغُ التأثيرِ في ذهنِ المتلقِّي، وقد بلغتِ الذَّروَةَ في غرضي الغزل والمديح النُّبويِّ.

7. كانت العاطفَةُ الشَّعْرِيَّةُ حَافِلَةً بالتَّنَوُّعِ على تنوُّعِ الأغراضِ الشَّعْرِيَّةِ؛ ففي المديحِ النُّبويِّ والمدحِ والإخوانيَّاتِ والغزلِ برَزَتْ عاطفَةُ الحُبِّ والشَّوْقِ والإعجابِ، وفي الدُّعاءِ برَزَتْ عاطفَتَا الخوفِ والرَّجاءِ، وفي الهجاءِ برَزَتْ عاطفَتَا العُصْبِ والألمِ والحزنِ، وفي الرثاءِ برَزَتْ عاطفَتَا الحزنِ والغضبِ، وقد حَلَّتْ بعضُ الأغراضِ - ولو في بعضِ جوانبِها - من العاطفَةِ كغرضِ الوعظِ والألغازِ؛ وتنوَّعِ العواطفُ يُعَدُّ نِقْطَةً إيجابِيَّةً تُحَسَّبُ في سَجَلِ الإبداعِ لأبي الهُدَى، ويُضافُ إليها ما صاحبها من الصِّدْقِ العاطفيِّ فكانت وقودًا لأشعارٍ غالبِ أغراضِهِ.

8. إِنَّ الثُّرَاثَ المنظومَ لأبي الهُدَى لا يُمكنُ أن يُطلَقَ عليه - بمجموعِهِ الكُلِّيِّ - مُسَمًى الشَّعْرَ، فقد نَزَلَ في بعضِ الأحيانِ إلى مرتبَةِ النِّظَمِ العاديِّ؛ إلا أنَّ هذا لا يُفَقِّدُ مجموعَهُ الكُلِّيَّ القِيَمَةَ التَّاريخِيَّةَ التي نَقَلَتْ صورةً صادِقَةً لذلك العصرِ العصيبِ الحَرْجِ الذي عاشَهُ، فقد حَلَّدَ في

شعره جميع ملامحه السياسيّة والدينيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، بل قد خلّد للأجيال الرّؤية السياسيّة التي كان ينظر بها من هم على شاكلته لأحداث ذلك العصر.

ووفق هذه التّائج يُمكن التّوصيّة بلفت أنظار الباحثين إلى أنّ المجال لا يزال مُتّسعًا لإعمال النّظر في تراث أبي الهدي الأدبيّ النّثريّ، بله التّعمّق بشكل أكبر في تراثه الشعريّ؛ ولا يزال الباب مفتوحًا للتّنقيب عن تراث من هم على شاكلته من أدباء العصور المتأخّرة ودراسة ما خلّفوه من تراث شعريّ يُثري مكتبة اللّغة العربيّة ويُسهّم في خدمة التّراث الإسلاميّ العظيم.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- إبشيرلي، محمد. "قاضي عسكر". موسوعة إسلامية لوقف الديانة التركي. 140/25-142. أنقرة: نشر وقف الديانة التركي، 1989م.
- ابن الأثير، محمد. *الحكمة السيرة*. تحقيق: حسين مؤنس. المجلد 2. القاهرة: الشركة العربية، 1963م.
- ابن الأثير، مجد الدين المبارك بن محمد. *التبهاية في غريب الحديث والأثر*. تحقيق: طاهر الزاوي-محمود الطناحي. المجلد 3. القاهرة: المكتبة الإسلامية، د.ت.
- ابن الأثير، نجم الدين أحمد بن إسماعيل الحلبي. *جوهر الكنز (تلخيص كنز البراعة في أدوات الصناعة)*. تحقيق: محمد زغلول سلام. الاسكندرية: منشأة المعارف، د.ت.
- ابن الجزري، أبو الخير محمد. *عرف التعريف بالمولد الشريف*. تحقيق: محمد أبو الخير الملقى. بيروت: دار الحديث الكائنات، د.ت.
- ابن الزومي، علي بن العباس. *ديوان ابن الرومي*. إعداد: أحمد بسج. بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة 3، 1423هـ/2003م.
- ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد الحنبلي. *شذرات الذهب في أخبار من ذهب*. تحقيق: محمود أرناؤوط. المجلد 7. دمشق: دار ابن كثير، 1406هـ/1986م.
- ابن الفارض، عمر. *ديوان ابن الفارض*. بيروت: دار صادر، د.ت.
- ابن القيسراني، محمد بن نصر. *شعر ابن القيسراني*. إعداد: عادل جابر صالح. الأردن: الوكالة العربية للتوزيع، 1991م.
- ابن الوردي، زين الدين عمر. *ديوان ابن الوردي*. تحقيق: عبد الحميد هندواي. القاهرة: دار الأفاق العربية، 1427هـ/2006م.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم. *الفتاوى الكبرى*. تحقيق: محمد عطا - مصطفى عطا. المجلد 2. بيروت: دار الكتب العلمية، 1987م.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم. *النبوات*. تحقيق: عبد العزيز الطويان. المجلد 2. الرياض: أضواء السلف، 1420هـ/2000م.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم. *مجموع الفتاوى*. تحقيق: عبد الرحمن القاسم. المجلد 10. المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1416هـ/1995م.
- ابن حجر، أحمد العشقلاني. *الإصابة في تمييز الصحابة*. تحقيق: عادل أحمد - علي معوض. المجلد 2. بيروت: دار صادر، 1425هـ.
- ابن حجر، أحمد العشقلاني. *فتح الباري بشرح صحيح البخاري*. تحقيق: عبد العزيز بن باز. المجلد 7، 13. القاهرة: المكتبة السلفية، د.ت.
- ابن خلكان، شمس الدين. *وفيات الأعيان*. تحقيق: إحسان عباس. المجلد 1، 3. بيروت: دار صادر، 1970م.
- ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن. *جمهرة اللغة*. تحقيق: رمزي منير بعلبكي. المجلد 1، 2. بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة 1، 1987م.
- ابن سعد، أبو عبد الله محمد. *الطبقات الكبرى*. تحقيق: إحسان عباس. المجلد 3. بيروت: دار صادر، 1968م.
- ابن سيد الناس، أبو الفتح محمد، *منبع الملاح*. تحقيق: عفت وصال حمزة، دمشق: دار الفكر، الطبعة 1، 1407هـ/1987م.
- ابن سيده، علي بن إسماعيل المرسى. *المختص*. تحقيق: خليل إبراهيم جفال. المجلد 1، 2، 4. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1417هـ/1996م.
- ابن سينا، أبو علي الحسين بن عبد الله. *الحكمة العروضية*. تحقيق: محسن صالح. بيروت: دار الهادي، الطبعة 1، 1428هـ/2007م.
- ابن طباطبا، محمد بن أحمد بن إبراهيم العلوي. *عيار الشعر*. تحقيق: عبد العزيز المانع. القاهرة: مكتبة الخانجي، د.ت.
- ابن عباد، الصاحب أبو القاسم إسماعيل. *المحيط في اللغة*. تحقيق: محمد آل ياسين. المجلد 7. بيروت: دار عالم الكتب، 1414هـ/1994م.
- ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله. *الاستدكار*. تحقيق: سالم عطا-محمد عوض. المجلد 8. بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة 1، 1421هـ/2000م.
- ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله. *الاستيعاب في معرفة الأصحاب*. تحقيق: علي البجاوي. المجلد 2. بيروت: دار الجيل، الطبعة 1، 1412هـ/1992م.
- ابن عبد ربه، شهاب الدين أحمد بن محمد الأندلسي. *العقد الفريد*. المجلد 2. بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة 1، 1404هـ.

- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن حسن. تاريخ دمشق. تحقيق: عمر غرامة العمروي. المجلد 63. بيروت: دار الفكر، 1415هـ/1995م.
- ابن فارس، أحمد الزّازي. مجمل اللغة. تحقيق: زهير سلطان. المجلد 2. بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة 2، 1406هـ/1986م.
- ابن فارس، أحمد الزّازي. معجم مقاييس اللغة. تحقيق: عبد السلام هارون. المجلد 2، 6. بيروت: دار الفكر، 1399هـ/1979م.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل. البداية والنهاية. تحقيق: عبد الله عبد المحسن التركي. المجلد 3، 5. مصر: دار هجر، 1424هـ/2003م.
- ابن ماجه، محمد القزويني. سنن ابن ماجه. إعداد: محمد فؤاد عبد الباقي. المجلد 1، 2. بيروت: دار إحياء الكتب العربية، د.ت.
- ابن معصوم. صدر الدين علي الحسيني المدني. أنوار الرّبيع في أنواع البديع. تحقيق: شاكر هادي شكر. المجلد 2. النّجف: مطبعة النعمان، الطبعة 1، 1388هـ/1968م.
- ابن منظور، محمد بن مكرم. لسان العرب. المجلد 1، 2، 3، 4، 7، 8، 9، 10، 11، 12، 13، 14، 15. بيروت: دار صادر، 1414هـ/1994م.
- ابن منير الطّرابلسي، أحمد. ديوان ابن منير الطّرابلسي. إعداد: عمر عبد السلام تدمري. بيروت: دار الجيل، 1986م.
- أبو السّعد، عبد الرّؤوف. مفهوم الشّعر في ضوء نظريّات النّقاد العربيّ. القاهرة: دار المعارف، الطبعة 1، د.ت.
- أبو عبيدة، معمر بن المثنّى. شرح نقائض جرير والفرزدق. تحقيق: محمد إبراهيم حور-وليد محمود خالص. المجلد 3. أبو ظبي: الجمع الثّقافي، الطبعة 2، 1418هـ/1998م.
- أبو غُدّة، عبد الفتّاح. قيمة الزّمن عند العلماء. حلب: مكتب المطبوعات الإسلاميّة، الطبعة 10، د.ت.ن.
- أبو نواس، الحسن بن هانئ. ديوان أبي نواس. تحقيق: بهجت عبد الغفور الحديثي. أبو ظبي: دار الكتب الوطنيّة، الطبعة 1، 1431هـ/2010م.
- أحمد بن حنبل، أبو عبد الله الشّيباني. المُسنَد. إعداد: شعيب الأرنؤوط وآخرون. المجلد 22، 31. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1421هـ/2001م.
- أحمد بن حنبل، أبو عبد الله الشّيباني. فضائل الصّحابة. تحقيق: وصيّ الله محمد عبّاس. المجلد 1. بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة 1، 1403هـ/1983م.
- الأحدنكري، عبد النّبي بن عبد الرّسول. جامع العلوم في اصطلاحات الفنون. تحقيق: حسن هاني فحص. المجلد 3. بيروت: دار الكتب العلميّة، الطبعة 1، 1421هـ/2000م.
- الأخرس، عبد الغفّار بن عبد الواحد. الطّراز الأنفس في شعر الأخرس. د.ت.ن.
- أرباجي، سيف الله. السّلطان عبد الحميد الثّاني مشاريعه الإصلاحية وإنجازاته الحضارية. مترجم: عبير سليمان. القاهرة: دار النّيل، الطبعة 1، 2011م.
- أسامة بن مُنقذ، أبو المظفر. البديع في نقد الشّعر، تحقيق: أحمد بدوي-حامد عبد المجيد. القاهرة: مطبعة مصطفى البابي، د.ت.
- الإسفرائيلي، طاهر بن محمّد. التّبصير في الدّين وتمييز الفرقة النّاجية عن الفِرَق الهالكة. تحقيق: كمال يوسف الحوت. بيروت: دار عالم الكُتب، 1403هـ/1983م.
- الأصفهاني، الرّغب أبو القاسم الحسين بن محمّد. محاضرات الأدباء ومحاورات الشّعراء والبلغاء. بيروت: دار الأرقم، 1424هـ/2003م.
- آل جندي، أدهم. أعلام الأدب والفن. المجلد 1. دمشق: مطبعة مجلة صوت سوريا، 1954م.
- إلهامي، محمد (تحرير). السّلطان عبد الحميد الثّاني في الدّكرة العربيّة. المجلد 1. إستانبول: دار الأصول العلميّة، الطبعة 1، 2019م.
- الأمدي، الحسن بن بشر. الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري. تحقيق: السيّد أحمد صقر. المجلد 2. القاهرة: دار المعارف، الطبعة 4، 1982م.
- الأمير شكيب أرسلان. تاريخ الدّولة العثمانيّة. تحقيق: حسن سويدان. دمشق: دار ابن كثير، 1432هـ/2011م.
- الأنصاري، حسان بن ثابت. ديوان حسان بن ثابت. تحقيق: عبده مهنا. بيروت: دار الكتب العلميّة، الطبعة 2، 1414هـ/1994م.
- الأنصاري، كعب بن مالك. ديوان كعب بن مالك. تحقيق: سامي مكّي العاني. بغداد: مكتبة النّهضة، 1386هـ/1966م.
- أوزتونا، يلماز. تاريخ الدّولة العثمانيّة. مترجم: عدنان محمود سلمان-محمود الأنصاري. المجلد 1. إستانبول: منشورات فيصل للتمويل، 1988م.
- باشا، عمر موسى. الأدب في بلاد الشّام. دمشق: المكتبة العبّاسيّة، الطبعة 2، 1391هـ/1972م.

- باشا، عمر موسى. تاريخ الأدب العربي العصر العثماني. دمشق: دار الفكر، 1409هـ/1989م.
- الباعونية، عائشة بنت يوسف. شرح الفتح المبين. القاهرة: المطبعة الخيرية، 1304هـ/1886م.
- الباعونية، عائشة بنت يوسف. مولد النبي صلى الله عليه وسلم. تحقيق: عبد القادر عمر نبهان. دمشق: المطبعة الحفنية، 1301هـ/1883م.
- بحرق، محمد بن عمر الحضرمي. حقائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار. تحقيق: محمد غستان عزقول. جدة: دار المنهاج، الطبعة 4، 1436هـ/2016م.
- البُخاري، محمد بن إسماعيل. التاريخ الكبير، إعداد: محمد عبد المعين خان. المجلد 2. حيدر أباد: دائرة المعارف العثمانية، د.ت.
- البُخاري، محمد بن إسماعيل. الجامع الصحيح. إعداد: محمد زهير الناصر. المجلد 1، 4، 6، 8، 9. بيروت: دار طوق النجاة، 1422هـ/2001م.
- البرعي، عبد الرحيم بن أحمد. ديوان البرعي. تحقيق: علي الهواري. القاهرة: مطبعة التقدم العلمية، 1324هـ/1906م.
- بركات، مصطفى. الألقاب والوظائف العثمانية. القاهرة: دار غرب، 2000م.
- البزّار، أحمد بن عمرو. البحر الزخار. تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله وآخرين. المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، 1427هـ/2006م.
- البغدادى، عبد القادر بن عمر. خزائن الأدب ولُبُّ أبواب لسان العرب. تحقيق: عبد السلام هارون. المجلد 1. القاهرة: مكتبة الخانجي، الطبعة 4، 1418هـ/1997م.
- البغوي، الحسين بن مسعود. معالم التنزيل. تحقيق: محمد التمر وآخرين. المجلد 3، 8. الرياض: دار طيبة، 1409هـ/1988م.
- البكري، محمد توفيق. صهاريج اللؤلؤ. تحقيق: أحمد بن أمين الشنقيطي - أبو بكر محمد لطفي المصري. مصر: مطبعة الهلال، 1906م.
- بوحوش، رابع. البنية اللغوية لبردة البوصيري. الجزائر: ديوان المطبوعات الجزائرية، 1982م.
- بوزينار، شيت طوفان. "الصيادي". موسوعة إسلامية لوقف الديانة التركي. 218-216/36. أنقرة: نشر وقف الديانة التركي، 1989م.
- البوصيري، شرف الدين محمد بن سعيد. الكواكب الدررية في مدح خير البرية. تحقيق: يوسف النبهاني. طنجة: دار الحديث الكائنية، د.ت.
- البوصيري، شرف الدين محمد بن سعيد. ديوان البوصيري. تحقيق: محمد سيد كيلاي. القاهرة: مطبعة مصطفى البابي، الطبعة 1، 1374هـ/1955م.
- البضاوي، ناصر الدين عبد الله بن عمر. أنوار التنزيل وأسرار التأويل. تحقيق: محمد المرعشلي. المجلد 3. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1418هـ/1997م.
- البيطار، عبد الرزاق بن حسن الميداني. حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر. تحقيق: محمد بحجة البيطار، دمشق: مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، الطبعة 2، 1993م.
- البهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة. تحقيق: عبد المعطي قلنجي. المجلد 1، 5. بيروت: دار الكتب العلمية، 1405هـ/1984م.
- البهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين. شُعَبُ الإيمان. إعداد: عبد العلي حامد. المجلد 7، 9، 13. الرياض: مكتبة الرشد، 1423هـ/2003م.
- بيومي، السباعي. تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي. القاهرة: مطبعة العلوم، 1353هـ/1934م.
- بيومي، زكريا سليمان. قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين. جدة: عالم المعرفة، الطبعة 1، 1991م.
- البرمدي، محمد بن عيسى. الجامع الكبير. إعداد: بشار عواد معروف. المجلد 6. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1416هـ/1996م.
- التنوخى، المحسن بن علي. المستجد من فعلات الأجواد. تحقيق: أحمد فريد المزيدي. بيروت: دار الكتب العلمية، 1426هـ/2005م.
- التّهانوي، محمد علي. كُشُوف اصطلاحات العلوم والفنون. مترجم: عبد الله الخالدي. تحقيق: علي دحروج. المجلد 1. بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، الطبعة 1، 1996م.
- التونجي، محمد. حول الأدب في العصر السلجوقي. بنغازي: مكتبة قورينا، 1394هـ/1974م.
- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد التيسابوري. نثر النظم وحل العُقد. دمشق: مطبعة مجلس المعارف، 1300هـ/1883م.
- الثعالبي، أبو إسحاق أحمد. تفسير الثعلبي. تحقيق: الطاهر بن عاشور. المجلد 3. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1422هـ/2002م.

- ثمرات الفنون. "مراسلات الحديدة". (21/تموز/1902م)، 6.
- الجاحظ، عمرو بن بحر. *البيان والتبيين*. تحقيق: عبد السلام هارون. القاهرة: مكتبة الخانجي، الطبعة 7، 1418هـ/1998م.
- الجاحظ، عمرو بن بحر. *الحيوان*. تحقيق: محمد باسل عيون السود. المجلد 3. بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة 2، 1424هـ/2003م.
- جارشلي، إسماعيل حقي. *أمراء مكة المكرمة وأشرفها في العهد العثماني*. مترجم: خليل علي مراد. بيروت: الدار العربية للموسوعات، 1424هـ/2003م.
- الجبوري، يحيى. *الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه*. بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة 5، 1406هـ/1986م.
- الجبوري، يحيى. *شعر المتنوكل اللثي*. بغداد: مكتبة الأندلس، 1971م.
- الجزاوي، أبو العباس أحمد بن عبد السلام التالدي. *الحماسة المغربية*. تحقيق: محمد رضوان الداية. المجلد 1. دمشق: دار الفكر، الطبعة 1، 1411هـ/1991م.
- الجرجاني، الشريف علي بن محمد. *التعريفات*. تحقيق: محمد عيون السود. بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة 2، 1424هـ/2003م.
- الجمحي، محمد بن سلام بن عبيد الله. *طبقات فحول الشعراء*. تحقيق: محمود شاكر. المجلد 2. جدة: دار المدني، د.ت.
- جوقه باش، سليمان. *السلطان عبد الحميد الثاني شخصيته وسياسته*. مترجم: عبد الله أحمد إبراهيم. القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2008م.
- الجهوري، إسماعيل بن حماد. *تاج اللغة وصحاح العربية*. تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار. المجلد 1، 2، 3، 4، 5، 6، 10. بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة 4، 1407هـ/1987م.
- جيجك، محمد خليل. *نراء المعنى في القرآن الكريم*. القاهرة: دار السلام، 1999م.
- الجيوسي، سلمى. *الاتجاهات والحركات في الشعر الحديث*. مترجم: عبد الواحد لؤلؤة. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة 2، 2007م.
- الحاكم، محمد بن عبد الله النيسابوري. *المستدرک علی الصحیحین*. تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا. المجلد 3. بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة 1، 1411هـ/1991م.
- الحامد، عبد الله. *الشعر في الجزيرة العربية خلال القرنين*. الرياض: مطابع الإشعاع، الطبعة 1، 1402هـ/1981م.
- حبّكة، عبد الرحمن حسن. *البلاغة العربية*. دمشق: دار القلم، 1416هـ/1996م.
- حرب، محمد. *السلطان عبد الحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار*. دمشق: دار القلم، الطبعة 1، 1990م.
- حرب، محمد. *العثمانيون في التاريخ والحضارة*. القاهرة: المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي، الطبعة 1، 1994م.
- حرب، محمد. *مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني*. دمشق: دار القلم، الطبعة 3، 1991م.
- الحريري، القاسم بن علي. *مقامات الحريري*. بيروت: دار بيروت، 1398هـ/1978م.
- الحريري، محمد بن عمر. *نتيجة المفاخر في أخبار بني رفاعه السادة الأكابر*. ميشيغان: مكتبة جامعة ميشيغان، Puplic Domain، 595.
- حسنين، إبراهيم. *سلاطين الدولة العثمانية*. الاسكندرية: دار التعليم الجامعي، الطبعة 1، 2014م.
- الحكيم، يوسف. *سوريا والعهد العثماني*. بيروت: دار النهار، بيروت، الطبعة 4، 1991م.
- حلّاق، حسن علي. *دور اليهود والقوى الدولية في خلع السلطان عبد الحميد الثاني عن العرش*. بيروت: الدار الجامعية، د.ت.
- الخلي، شهاب الدين محمود بن سليمان. *أهني المنائح في أسنى المدائح*. القاهرة: مطبعة جريدة الشورى، د.ت.
- الخلي، علي بن إبراهيم. *إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون*. المجلد 1. بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة 2، 1427هـ/2006م.
- الخلي، صفّي الدين عبد العزيز بن سرايا. *ديوان صفّي الدين الخلي*. بيروت: دار صادر، د.ت.
- الحمداني، أبو فراس الحارث بن سعيد. *ديوان أبي فراس الحمداني*. تحقيق: سامي الدهان. المجلد 2. بيروت: المطبعة الكاثوليكية، 1945م.
- الحمصي، قسطنطين. *أدباء حلب ذوو الأثر في القرن التاسع عشر*. حلب: المطبعة المارونية، 1925م.

- الحموي، تقي الدين أبو بكر بن حجة. *خزانة الأدب وغاية الأرب*. تحقيق: عصام شقيو. المجلد 1. بيروت: مكتبة الهلال، الطبعة 1، 1406هـ/1986م.
- الحموي، ياقوت بن عبد الله. *معجم البلدان*. المجلد 1، 3، 4، 5. بيروت: دار صادر، الطبعة 2، 1995م.
- الحنبلي، زين الدين بن رجب. *ذيل طبقات الحنابلة*. تحقيق: عبد الرحمن العبيكان. المجلد 1. الرياض: مكتبة العبيكان، الطبعة 1، 2005م.
- الحوبي، أحمد محمد. *أدب السِّياسة في العصر الأموي*. بيروت: دار القلم، د.ت.
- الحوبي، أحمد محمد. *الأدب العربي وتاريخه*. القاهرة: دار المعارف، 1977م.
- الخطّابي، حمد بن محمد. *شأن النُّعاء*. تحقيق: أحمد يوسف الدقاق. القاهرة: دار الثقافة العربية، 1412هـ/1992م.
- الخطيب، أبو عبد الله محمد لسان الدين. *الإحاطة في أخبار غرناطة*. تحقيق: يوسف علي الطويل. المجلد 1. بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة 1، 1424هـ/2003م.
- خفاجي، محمد عبد المنعم. *دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه*. المجلد 1. بيروت: دار الجيل، الطبعة 1، 1412هـ/1992م.
- الحنساء، تهاضر بنت عمرو. *ديوان الحنساء*. تحقيق: حمدو طمّاس. بيروت: دار المعرفة، الطبعة 2، 1425هـ/2004م.
- درنيقة، محمد أحمد. *معجم أعلام شعراء المديح النبوي*. بيروت: دار ومكتبة الهلال، الطبعة 1، 2003م.
- دسوقي، عمر. *في الأدب الحديث*. القاهرة: دار الفكر العربي، د.ت.
- الدقر، عبد الغني. *الإمام التتوي*. دمشق: دار القلم، الطبعة 4، 1994م.
- الدّمشقي، شمس الدين بن ناصر الدين. *مورد الصّادي في مولد الهادي*. تحقيق: إبراهيم راشد المريخي. القاهرة: الدّار الغنّاء، الطبعة 1، 1429هـ/2008م.
- الدّميري، كمال الدين محمد بن موسى. *المقصد الأتم في شرح لامية العجم*. تحقيق: هاني الميران - عباس الجراخ. عمّان: دار الرضوان، 1433هـ/2012م.
- الدّهّان، محمد سامي. *فنون الأدب العربي*. المجلد 1. القاهرة: دار المعارف، الطبعة 3، د.ت.
- ديك الجنّ، عبد السلام بن رغبان الحمصي. *ديوان ديك الجنّ*. تحقيق: أحمد مطلوب - عبد الله الجبوري. بيروت: دار الثقافة، د.ت.
- الدينوري، عبد الله بن مسلم بن قتيبة. *التّبرّ والشّعراء*. تحقيق: أحمد محمد شاكر. القاهرة: دار المعارف، 1386هـ/1967م.
- الدينوري، عبد الله بن مسلم بن قتيبة. *غريب الحديث*. تحقيق: عبد الله الجبوري. المجلد 2. بغداد: مطبعة العاني، 1397هـ/1977م.
- الدّهبي، شمس الدين محمد بن أحمد. *تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام*. تحقيق: بشّار عوّاد معروف. بيروت: دار الغرب الإسلامي، الطبعة 1، 1424هـ/2004م.
- الدّهبي، شمس الدين محمد بن أحمد. *سير أعلام النبلاء*. تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين. المجلد 14، 21. بيروت: مؤسسة الرّسالة، 1405هـ/1985م.
- الرّازي، فخر الدين محمد بن عمر. *التفسير الكبير*. المجلد 19. بيروت: دار إحياء التّراث العربي، الطبعة 3، 1420هـ.
- الرّافعي، محمد رشيد بن عبد اللطيف الطّرابلسي. *تخميس القصيدة الغرّاء*. طرابلس: مطبعة البلاغة، د.ت.
- الرّافعي، محمد محمود. *شرح الهاشميات*. مصر: مطبعة شركة التّمدّن الصناعيّة، الطبعة 2، د.ت.
- الرّافعي، مصطفى صادق. *تاريخ آداب العرب*. تحقيق: عبد الله المنشاوي - مهدي البحيري. مصر: مكتبة الإيمان، د.ت.
- الرّاوي، إبراهيم محمد. *بلوغ الأرب في ترجمة السيّد الشّيخ رجب وذريته أهل الحسب*. بيروت: مطبعة جريدة الإقبال، 1330هـ/1912م.
- الرّؤّاس، محمد بهاء الدين. *ديوان مشكاة اليقين ومحجّة المتّقين*. دمشق: دار الفكر، الطبعة 2، د.ت.
- الرّؤّاس، محمد بهاء الدين. *ديوان معراج القلوب إلى حضرات الغيوب*. تحقيق: عبد الحكيم عبد الباسط. دمشق: المطبعة العلميّة، الطبعة 1، 1389هـ.

- الرَّيْدِي، مرتضى محمد بن محمد. تاج العروس من جواهر القاموس. تحقيق: مصطفى حجازي وآخرين. المجلد 2، 6، 7، 11، 12، 16، 18، 20، 21، 22، 25، 28، 30، 38. الكويت: دار الهداية، 1965م.
- الزَّيْرِي، مصعب بن عبد الله. نَسَب قريش. تحقيق: ليفي بروفنسال. القاهرة: دار المعارف، الطبعة 3، 1402هـ/1982م.
- الرَّزْقَانِي، محمد بن عبد الباقي. شرح الرَّزْقَانِي عَلَى الْمَوَاهِبِ اللَّدِّيَّةِ بِالْمَنْحِ مُحَمَّدِيَّة. المجلد 5. بيروت: دار الكتب العلمية، 1417هـ/1996م.
- الرَّزْكَلِي، خير الدين. الأعلام. المجلد 1، 2، 3، 6. بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة 15، 2002م.
- الرَّزْخَشَرِي، جار الله محمود بن عمرو. أساس البلاغة. تحقيق: محمد باسل عيون السود. المجلد 1. بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة 1، 1419هـ/1998م.
- الرَّزْخَشَرِي، جار الله محمود بن عمرو. القسطاس في علم العروض. تحقيق: فخر الدين قباوة. بيروت: مكتبة المعارف، الطبعة 2، 1410هـ/1989م.
- الرَّزْخَشَرِي، جار الله محمود بن عمرو. ربيع الأبرار ونصوص الأحيار. تحقيق: عبد الأمير مهنا. المجلد 2. بيروت: مؤسسة الأعلمي، 1412هـ/1992م.
- السَّخَاوِي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن. المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة. إعداد: محمد عثمان الخشت. بيروت: دار الكتاب العربي، الطبعة 1، 1405هـ/1985م.
- سركو، ماري دكران. دمشق في فترة السلطان عبد الحميد الثاني. دمشق: منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، 2010م.
- سركيس، يوسف إيلان موسى. معجم المطبوعات العربية والمصرية. المجلد 1. مصر: مطبعة سركيس، 1346هـ/1928م.
- السَّعْدِي، ابن القطاع علي بن جعفر الصقلي. الدررة الخطيرة في شعراء الجزيرة. تحقيق: بشير البكوش. بيروت: دار الغرب الإسلامي، الطبعة 1، 1415هـ/1995م.
- السَّقَّاف، عبد الرحمن بن عبيد الله. العود الهندي عن أمالي في ديوان الكندي. جدة: دار المنهاج، الطبعة 1، 1432هـ/2011م.
- السَّمْعَانِي، عبد الكريم بن محمد. الأنساب. تحقيق: عبد الرحمن اليماني وآخرين. المجلد 1. حيدر أباد: مجلس دائرة المعارف العثمانية، 1382هـ/1962م.
- السَّمْوَال، ابن غريز الأزد. ديوان السَّمْوَال، صنعة نفطويه. تحقيق: واضح الصَّمَد. بيروت: دار الجليل، الطبعة 1، 1416هـ/1996م.
- سويف، مصطفى. الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة. القاهرة: دار المعارف، 1959م.
- سيبويه، عمرو بن عثمان. الكتاب. تحقيق: عبد السلام هارون. المجلد 1. القاهرة: مكتبة الخانجي، 1408هـ/1988م.
- السَّيُوطِي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والتجباء والأبدال. تحقيق: عبد الهادي منصور. دمشق: دار البيروتي، 2005م.
- السَّيُوطِي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. الخصائص الكبرى. المجلد 1. بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.
- السَّيُوطِي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. المزهري في علوم اللغة وأنواعها. تحقيق: فؤاد علي منصور. المجلد 1. بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة 1، 1418هـ/1998م.
- الشَّافِعِي، محمد بن إدريس. الرسالة. تحقيق: أحمد شاكر. المجلد 1. القاهرة: مطبعة مصطفى البابي، الطبعة 1، 1357هـ/1938م.
- الشَّامِي، محمد بن يوسف. سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد. تحقيق: عادل عبد الموجود - علي معوض. المجلد 1، 3. بيروت: دار الكتب العلمية، 1414هـ/1993م.
- الشَّايِب، أحمد. أصول النقد الأدبي. القاهرة: مكتبة النهضة، الطبعة 10، 1994م.
- شَبْر، جواد. أدب الطَّف أو شعراء الحسين من القرن الأول الهجري حتى القرن الرابع عشر. المجلد 1. بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة 1، 1388هـ/1969م.
- الشَّقْرَاطِسِي، أبو محمد عبد الله. القصيدة الشَّقْرَاطِسِيَّة. تحقيق: نزار حمّادي. تونس: دار الإمام ابن عرفة، د.ت.
- الشُّكَّة، مصطفى. فنون الشعر في مجتمع الحمانيين. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1378هـ/1958م.

- الشَّيْبَانِي، علي بن بسَّام. *الذَّخِيرَةُ فِي مَحَاسِنِ أَهْلِ الْجَزِيرَةِ*. تحقيق: إحسان عباس. المجلد 5. تونس: الدَّارُ الْعَرَبِيَّةُ لِلْكِتَابِ، الطَّبعة 1، 1981م.
- الشَّنْطَلِي، مُحَمَّدٌ صَالِحٌ. *فَتْحُ التَّحْرِيرِ الْعَرَبِيِّ ضَوَابْطُهُ وَأَنْمَاطُهُ*. حائل: دار الأندلس، الطَّبعة 5، 1422هـ/2001م.
- شوقي، جلال. "منظومات السَّيِّدَةِ النَّبَوِيَّةِ حَتَّى نَهِائَةِ الْقَرْنِ الرَّابِعِ الْمِجْرِيِّ". *مجلة مركز بحوث السُّنَّةِ وَالسِّيَرَةِ* 2/2 (1407هـ/1987م)، 532-614.
- الشُّوْكَانِي، مُحَمَّدٌ بْنُ عَلِيٍّ. *الصُّوَرُومُ الْحِدَادُ الْقَاطِعَةُ لِعَلَائِقِ أَرْبَابِ الْإِتِّحَادِ*. تحقيق: مُحَمَّدٌ صَبْحِي حَلَّاقٌ. صنعاء: دار الهجرة، 1411هـ/1990م.
- الشُّيْبَانِي، أَبُو عَمْرٍو إِسْحَاقُ بْنُ مَرَارٍ. *كِتَابُ الْجِيمِ*. تحقيق: إِبْرَاهِيمُ الْأَيْبَارِي. المجلد 1. القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، 1394هـ/1974م.
- شيخ أمين، بكري. *تحليل بلاغي وجمالي في نصوص أدبية*. بيروت: دار العلم للملايين، 2004م.
- صدقي، كامل - حمدي، عبد الواحد. *تاريخ حرب الدولة العلية ودولة اليونان*. القاهرة: المطبعة الكبرى الأميرية، 1315هـ/1897م.
- الصَّغَانِي، الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ. *الْعَبَابُ الرَّخِيزُ وَاللُّبَابُ الْفَاخِرُ*. تحقيق: مُحَمَّدٌ حَسَنُ آلِ يَاسِينَ. العراق: دار الرُّشِيدِ، 1981م.
- الصَّغْدِي، صَاحِبُ الدِّينِ خَلِيلُ بْنُ أَبِيكَ. *الْوَفَاءُ بِالْوَفَايَاتِ*. تحقيق: أَحْمَدُ الْأَرْنَؤُوطُ-تُرْكِي مصطفى. المجلد 24. بيروت: دار إحياء التَّراثِ، 1420هـ/2000م.
- الصَّغْدِي، صَاحِبُ الدِّينِ خَلِيلُ بْنُ أَبِيكَ. *التَّرْوِضُ بِالْبَاسِمِ وَالْعَرَفُ النَّاسِمِ*. تحقيق: مُحَمَّدٌ عَبْدِ الْمَجِيدِ لَاشِينَ. القاهرة: دار الآفاق العربية، الطَّبعة 1، 1435هـ/2005م.
- الصَّغْفَرِي، أَحْمَدُ الْمُرسِي. "الدَّوْلَةُ الْعُثْمَانِيَّةُ وَالْوِلَايَاتُ الْعَرَبِيَّةُ". *المجلة التَّارِيخِيَّةُ الْمَغْرِبِيَّةُ* 29، 30، (1983م)، 338، 339.
- صوت الشَّعْبِ. "الحسب النَّسَبِ أَبُو الْهَدْيِ الصِّيَادِي". (5/كانون الأول/1931م)، 1.
- الصِّيَادِي، مُحَمَّدٌ أَبُو الْهَدْيِ. *أَزْهَارُ الْحَدِيقَةِ*. تحقيق: عَبْدُ الْحَكِيمِ عَبْدُ الْبَاسِطِ وَآخَرِينَ. دمشق: دن، 1395هـ/1975م.
- الصِّيَادِي، مُحَمَّدٌ أَبُو الْهَدْيِ. *التَّارِيخُ الْأَوْحَدُ*. مصر: مطبعة المحروسة، د.ت.
- الصِّيَادِي، مُحَمَّدٌ أَبُو الْهَدْيِ. *الْفِرْقَانُ الدَّامِغُ بِالْحَقِّ أَبَاطِيلُ أَهْلِ الْبَهْتَانِ*. مصر: مطبعة الهلال، 1324هـ/1906م.
- الصِّيَادِي، مُحَمَّدٌ أَبُو الْهَدْيِ. *الْفِلَانَةُ الْخَضِرَاءُ*. تحقيق: عَبْدُ الْحَكِيمِ عَبْدُ الْبَاسِطِ. دمشق: المطبعة العلمية، 1389هـ/1969م.
- الصِّيَادِي، مُحَمَّدٌ أَبُو الْهَدْيِ. *آيَاتُ الْعُرْفَانِ فِي مَوْلِدِ سَيِّدِ وَلَدِ عَدْنَانَ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ كُلِّ آيَةٍ*. إستانبول: مطبعة مهرا، 1302هـ/1884م.
- الصِّيَادِي، مُحَمَّدٌ أَبُو الْهَدْيِ. *تَشْطِيرُ الْبُرْدَةِ*. الإسكندرية: المطبعة الحليمية، 1309هـ/1891م.
- الصِّيَادِي، مُحَمَّدٌ أَبُو الْهَدْيِ. *حَضْرَةُ الْإِطْلَاقِ فِي مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ*. دن، 1301هـ/1883م.
- الصِّيَادِي، مُحَمَّدٌ أَبُو الْهَدْيِ. *خِلَاصَةُ الْبَيَانِ فِي حُكْمِ نَوْعِ الْإِنْسَانِ*. إستانبول: مطبعة كلمة الحق، 1326هـ/1908م.
- الصِّيَادِي، مُحَمَّدٌ أَبُو الْهَدْيِ. *دِيَوَانُ التَّبْيَانِ الْجَامِعِ بَيْنَ الْحِكْمَةِ وَالْبَيَانِ*. مصر: المطبعة العمومية، 1315هـ/1897م.
- الصِّيَادِي، مُحَمَّدٌ أَبُو الْهَدْيِ. *دِيَوَانُ الدَّرِّ الْمُنْتَظَمِ مَخْتَصَرُ بَرَاهِينِ الْحُكْمِ*. دن، 1326هـ/1908م.
- الصِّيَادِي، مُحَمَّدٌ أَبُو الْهَدْيِ. *دِيَوَانُ الرِّوَضِ الْبَسِيمِ*. دن، 1322هـ/1904م.
- الصِّيَادِي، مُحَمَّدٌ أَبُو الْهَدْيِ. *دِيَوَانُ الْفَيْضِ الْمُحَمَّدِيِّ وَالْمَدَدِ الْأَحْمَدِيِّ*. إعداد: يوسف النَّبْهَانِي. إستانبول: مطبعة الجوائب، 1298هـ/1881م.
- الصِّيَادِي، مُحَمَّدٌ أَبُو الْهَدْيِ. *دِيَوَانُ اللَّوْلُوفِ وَالْمَرْجَانِ فِي مَدَائِحِ حَبِيبِ الرَّحْمَنِ عَلَيْهِ صَلَوَاتُ الْمَلِكِ الدَّيَّانِ*. القاهرة: دار الكتب والمخطوطات والوثائق القومية المصرية، 75277ز.
- الصِّيَادِي، مُحَمَّدٌ أَبُو الْهَدْيِ. *دِيَوَانُ رَوْضَةِ الْعُرْفَانِ الْمَدْيَلَةِ مَنْظُومَاتُهُ بِمَشْهُورِ الدَّرْرِ الْحَسَنِ*. دن، 1322هـ/1904م.
- الصِّيَادِي، مُحَمَّدٌ أَبُو الْهَدْيِ. *دِيَوَانُ قَرَّةِ الْعَيْنِ فِي مَدْحِ الْإِمَامِ أَبِي الْعَلَمَيْنِ*. إستانبول: المطبعة العثمانية، 1302هـ/1884م.
- الصِّيَادِي، مُحَمَّدٌ أَبُو الْهَدْيِ. *دِيَوَانُ مَرَاةِ الشُّهُودِ فِي مَدْحِ سُلْطَانِ الْوُجُودِ*. مصر: المطبعة العمومية، 1316هـ/1907م.
- الصِّيَادِي، مُحَمَّدٌ أَبُو الْهَدْيِ. *صَوْتُ الْهَزَارِ وَزَيْقُ الْعَذَارِ*. مصر: مطبعة التَّمْدُنْ، 1321هـ/1903م.

- الصِّيَّادِي، محمد أبو الهدى. ضوء الشمس في قوله بُنِيَ الإسلام على خمس. تحقيق: محمد سليم الحُمَامِي. دمشق: المطبعة العلمية، الطبعة 2، 1394هـ/1974م.
- الصِّيَّادِي، محمد أبو الهدى. قصيدة زاد القيامة في شيء من أخبار الحبيب المظلل بالغمامة. مصر: مطبعة الظاهر، 1323هـ/1905م.
- الصِّيَّادِي، محمد أبو الهدى. نوابغ الحكيم. مصر: مطبعة علي سكر، 1326هـ/1908م.
- صيرما، إحسان ثريا. السلطان عبد الحميد الثاني وسياسة الجامعة الإسلامية. مترجم: كمال أحمد خوجة. pdf: د.ت.ن. (http://drsamarai.com/wpcontent/uploads/2019/10/66_Sultan_Abdul_Hamid_II_and_the_policy_of_the_Islamic_League.pdf)
- ضيف، شوقي. التراث. القاهرة: دار المعارف، 1407هـ/1987م.
- ضيف، شوقي. تاريخ الأدب العربي. المجلد 1، 5، 7، 8، 9. القاهرة: دار المعارف، 1960م.
- ضيف، شوقي. فصول في الشعر ونقده. القاهرة: دار المعارف، الطبعة 3، د.ت.
- الطَّائِي، أبو تمام حبيب بن أوس. ديوان الحماسة. تحقيق: أحمد حسن بسج. بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة 1، 1418هـ/1998م.
- الطَّنَّاح، محمد راغب. إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء. المجلد 7. حلب: دار القلم العربي، الطبعة 2، 1988م.
- الطَّبْرَانِي، سليمان بن أحمد. المعجم الكبير. إعداد: حمدي عبد المجيد. المجلد 4. القاهرة: مكتبة ابن تيمية، الطبعة 2، د.ت.
- الطُّغْرَائِي، مؤيد الدين الحسين بن علي. ديوان الطُّغْرَائِي. تحقيق: يحيى الجبوري-علي جواد الطَّاهِر. الدوحة: مطابع الدوحة الحديثة، الطبعة 2، 1406هـ/1986م.
- الطَّوِيلِي، حسن حسني باشا. القول الفصل. مصر: المطبعة العمومية، 1313هـ/1895م.
- العاكوب، عيسى علي. موسيقا الشعر العربي. دمشق: دار الفكر، الطبعة 2، 1421هـ/2000م.
- العبَّاس بن مرداس. ديوان العبَّاس بن مرداس. تحقيق: يحيى الجبوري. بغداد: دار الجمهورية، 1388هـ/1968م.
- عبد الحميد، أحمد مختار. معجم اللغة العربية المعاصرة. بيروت: دار عالم الكتب، 2008م.
- عبد الله بن معاوية. شعر عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب. إعداد: عبد الحميد راضي. بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة 1، 1396هـ/1976م.
- عبد التَّور، جَبَّور. المعجم الأدبي. بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة 2، 1984م.
- العبيسي، الخطيئة جلول بن أوس. ديوان الخطيئة. تحقيق: حمدو طمَّاس. بيروت: دار المعرفة، 1426هـ/2006م.
- عثمان أوغلو، الأميرة عائشة. والدي السلطان عبد الحميد الثاني. مترجم: صالح سعداوي الصَّالِح. عمان: دار البشير، الطبعة 1، 1991م.
- العراقي، عبد الرحيم بن الحسين. المورد الهني في المولد السنني. تحقيق: عمر أعمري. القاهرة: دار السلام، 1431هـ/2010م.
- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله. الصناعتين. تحقيق: علي البجاوي-محمد إبراهيم. بيروت: المكتبة العصرية، 1419هـ.
- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله. الفروق اللغوية. تحقيق: محمد إبراهيم سليم. القاهرة: دار العلم والثقافة، د.ت.
- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله. جمهرة الأمثال. تحقيق: عبد المجيد قطامش-محمد أبو الفضل إبراهيم. المجلد 2. بيروت: دار الجليل، الطبعة 2، 1408هـ/1988م.
- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله. ديوان المعاني. المجلد 2. بيروت: دار الجليل، د.ت.
- عصفور، جابر. مفهوم التَّعَرُّف دراسة في التراث التقديسي. القاهرة: مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة 5، 1995م.
- عطوان، حسين. مُقَامَاتُ القصيدة العربية في الشعر الجاهلي. مصر: دار المعارف، 1390هـ/1970م.
- العظمة، عبد العزيز. مرآة الشام تاريخ دمشق وأهلها. تحقيق: نجدة فتحي صفوة. لندن: رياض الرئيس للكتب والنشر، 1987م.
- العقَّاد، عبَّاس محمود. ابن الرومي حياته من شعره. مصر: شركة مساهمة، د.ت.
- العقَّاد، عبَّاس محمود. دراسات في المذاهب الأدبية والاجتماعية. القاهرة: نخضة مصر، 2006.
- علي رضا، محمد رشيد. تفسير المنار. المجلد 11. القاهرة: دار المنار، 1366هـ/1947م.

- عمر بن أبي ربيعة. ديوان عمر بن أبي ربيعة. إعداد: فايز محمد. بيروت: دار الكتاب العربي، 1416هـ/1996م.
- العمرى، أحمد عزت باشا الموصلي. العقود الجوهريّة في مدائح الحضرة الرفاعية. مصر: مطبعة محمد أفندي مصطفى، 1306هـ/1888م.
- عنتر بن شداد. ديوان عنتر. إعداد: خليل الخوري-أمين الخوري. بيروت: مطبعة الآداب، 1311هـ/1893م.
- عوض، عبد العزيز محمد. الإدارة العثمانية في ولاية سورية. القاهرة: دار المعارف، 1969م.
- الغزي، كامل بن حسين. نهر الذهب في تاريخ حلب. المجلد 1، 2. دمشق: دار القلم، 1419هـ/1999م.
- الفارابي، محمد بن محمد. إحصاء العلوم. تحقيق: عثمان محمد أمين. القاهرة: مطبعة السعادة، 1350هـ/1931م.
- الفارابي، محمد بن محمد. جوامع الشيعر. تحقيق: محمد سليم سالم. القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1971م.
- الفاروقي، عز الدين أحمد الواسطي. التفحة المسكية في السلسلة الرفاعية التركية. إستانبول: مطبعة محمد أسعد نومرو، 1301هـ/1883م.
- الفرايدي، خليل بن أحمد. كتاب العين. تحقيق: مهدي المخزومي-إبراهيم الشارثي. المجلد 2، 3، 5، 8. بيروت: مكتبة الهلال، د.ت.
- الفرزدق، همام بن غالب. ديوان الفرزدق. تحقيق: علي فاعور. بيروت: دار الكتب العلمية، 1407هـ/1987م.
- فروخ، عمر. تاريخ الأدب العربي. المجلد 1، 2، 3. بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة 4، 1981م.
- الفيومي، أحمد بن محمد. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير. المجلد 2. بيروت: المكتبة العلمية، د.ت.
- القاري، ملا علي بن سلطان. مجموع رسائل الملا علي القاري. إعداد: ماهر أديب حبوش وآخرين. إستانبول: دار اللباب، 1437هـ/2016م.
- القاضي الجرجاني، علي بن عبد العزيز. الوساطة بين المتنبي وخصومه. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم-علي محمد البجاوي. القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي، د.ت.
- القدس، عبد القادر بن تقي الدين الحلبي. الكوكب المنير في ترجمة الأستاذ أبي الهدى الشهير. د.ت.ن.
- القسطلاني، أحمد بن محمد. المواهب اللدنية بالمنح المحمدية. المجلد 2. القاهرة: المكتبة التوفيقية، د.ت.
- القفطحي، جمال الدين علي بن يوسف. إنباء الزواة على أنباء النحاة. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. المجلد 2. القاهرة: دار الفكر العربي، الطبعة 1، 1406هـ/1986م.
- القيرواني، الحسن بن رشيق. العمدة في محاسن الشيعر وآدابه. تحقيق: محمد نجيب الدين عبد الحميد. بيروت: دار الجيل، الطبعة 5، 1401هـ/1981م.
- القيرواني، الحسن بن رشيق. ديوان ابن رشيق القيرواني. إعداد: عبد الرحمن ياغي. بيروت: دار الثقافة، 1409هـ/1989م.
- كالو، محمد محمود. الأدب العربي عبر العصور. تركيا: منشورات كلية التربية بجامعة أديمان، 2018م.
- الكثاني، محمد عبد الحي. فهرس الفهارس. تحقيق: إحسان عباس. المجلد 1. بيروت: دار الغرب الإسلامي، الطبعة 2، 1982م.
- كثير عزة، كثير بن عبد الرحمن الخزاعي. ديوان كثير عزة. تحقيق: إحسان عباس. بيروت: دار المعرفة، 1391هـ/1971م.
- كعب بن زهير. ديوان كعب بن زهير. تحقيق: علي الفاعور. بيروت: دار الكتب العلمية، 1417هـ/1997م.
- كوندوز، أحمد آق وآخرون. الدولة العثمانية المجهولة. إستانبول: مطبعة ماس، الطبعة 1، 2008.
- الكيواني، أحمد بن حسين. ديوان أحمد الكيواني. تحقيق: عمر نبهان. دمشق: المطبعة الحنفية، 1301هـ/1883م.
- الماوردي. علي بن محمد. تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك. تحقيق: حسن الشاعاتي - هلال السرحان. بيروت: دار النهضة العربية، د.ت.
- مبارك، زكي. المدائح النبوية. القاهرة: دار المحجة البيضاء، 1354هـ/1935م.
- المبرد، محمد بن يزيد. التّعازي والمرثي والمواظع والوصايا. تحقيق: إبراهيم محمد حسن الجمل. القاهرة: دار نهضة مصر، د.ت.
- المبرد، محمد بن يزيد. الكامل في اللغة والأدب. تحقيق: محمد إبراهيم. المجلد 3. القاهرة: دار الفكر العربي، 1417هـ/1997م.
- المبرد، محمد بن يزيد. المقتضب. تحقيق: محمد عبد الخالق عزيمة. المجلد 4. بيروت: عالم الكتب، د.ت.
- المتنبي، أحمد بن الحسين. ديوان المتنبي. بيروت: دار بيروت للطباعة، 1403هـ/1983م.

- مجاهد، زكي محمد. *الأعلام الشرقيّة في المئة الرابعة الهجرية*. المجلد 3، 4. مصر: مطبعة حجازي، 1955م.
- مجمع اللغة العربية في القاهرة. *مجموعة المصطلحات العلميّة والفنيّة التي أقرّها المجمع*. المجلد 21. القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، 1399هـ/1979م.
- المحلي، جلال الدين - السيوطي، جلال الدين. *تفسير الجلالين*. القاهرة: دار الحديث، 1416هـ/1996م.
- محمد، محمود سالم. *المدايح النبويّة حتى نهاية العصر المملوكي*. دمشق: دار الفكر، 1417هـ/1997م.
- مرآة الشرق. "لمحة موجزة عن تاريخ المغفور له حسن خالد". (4/ كانون الثاني/ 1937م)، 6.
- المُرادي، أبو الفضل محمد خليل. *سلك الدرر في أعيان القرن الثّاني عشر*. المجلد 2. بيروت: دار ابن حزم، 1408هـ/1988م.
- المراكشي، محيي الدين عبد الواحد بن علي. *المُعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين*. تحقيق: صلاح الدين الهواري. صيدا: المكتبة العصرية، 1426هـ/2006م.
- مسلم بن الحجاج. *المستند الصحيح*. إعداد: محمد فؤاد عبد الباقي. المجلد 4. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1412هـ/1991م.
- مصطفى، إبراهيم وآخرون. *المعجم الوسيط*. المجلد 1. الاسكندرية: دار الدعوة، د.ت.
- المغربي، أبو العلاء أحمد بن عبد الله. *الآلامع العزيزي شرح ديوان المتنبي*. تحقيق: محمد سعيد المولوي. الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، 1429هـ/2008م.
- المغربي، أبو القاسم الحسين بن علي. *أدب الخواص*. تحقيق: حمد الجاسر. الرياض: دار اليمامة، 1400هـ/1980م.
- المُفري، شهاب الدين أحمد بن محمد. *نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب*. تحقيق: إحسان عبّاس. المجلد 6. بيروت: دار صادر، 1388هـ/1968م.
- المقريزي، أحمد بن علي. *إمتاع الأسماع*. تحقيق: محمد عبد الحميد التّميسي. المجلد 3. بيروت: دار الكتب العلميّة، 1420هـ/1999م.
- الناوي، زين الدين عبد الرّؤوف بن علي. *التّوقيف على مهمّات التّعريف*. تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان. القاهرة: عالم الكتب، الطبعة 1، 1410هـ/1990م.
- مندور، محمد. *في الأدب والتّقدّم*. القاهرة: نخبة مصر، 1988م.
- الموصللي، كمال الدين المبارك بن الشّعار. *قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزّمان*. تحقيق: كامل سلمان الجبوري. المجلد 1. بيروت: دار الكتب العلميّة، 2005م.
- موجو، أحمد. "ديوان همايون". *موسوعة إسلاميّة لوقف الديانة التركي*. 430-432. أنقرة: نشر وقف الديانة التركي، 1989م.
- المولحي، إبراهيم بن عبد الخالق. *ما هنالك من أسرار البلاط العثمانيّ*. تحقيق: أحمد حسين الطّماوي. القاهرة: المركز العربي للإعلام والنّشر، د.ت.
- الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد. *مجمع الأمثال*. تحقيق: محيي الدين عبد الحميد. مصر: مطبعة السّنة المحمّديّة، 1374هـ/1955م.
- النّعمة، مقبول علي بشير. *المراثي في عصر صدر الإسلام*. بيروت: دار صادر، 1417هـ/1997م.
- الهاشمي، أحمد. *ميزان الدّهب في صناعة شعر العرب*. تحقيق: علاء الدين عطية. دمشق: دار البيروني، الطبعة 3، 1427هـ/2006م.
- الهلّال. "السّيّد محمد أفندي أبو الهدي الصّيادي". (1/ يونيو/ 1893م)، 369.
- الهيبي، أحمد فوزي. *الحركة الشعريّة زمن المماليك في حلب الشّهباء*. بيروت: مؤسّسة الرّسالة، 1406هـ/1986م.
- الهيتمي، أحمد بن حجر. *أشرف الوسائل إلى فهم الشّمائيل*. تحقيق: أحمد المزيدي. بيروت: دار الكتب العلميّة، الطبعة 1، 1419هـ/1998م.
- الهيتمي، أحمد بن حجر. *العُمدة في شرح البردة*. تحقيق: بسّام بارود. عمّان: دار الفتح، د.ت.
- الهيتمي، أحمد بن حجر. *المُختصر من إتمام النّعمة الكبرى على العالم بمولد سيّد ولد آدم*. تحقيق: مُرّهف عبد الوهّاب الهوّاس. د.ت.ن.
- الهيتمي، أحمد بن حجر. *المنح المكيّة في شرح الحمزيّة*. القاهرة: مطبعة التّقدّم، 1326هـ/1908م.
- الهيتمي، أحمد بن حجر. *شرح متن القصيدة الحمزيّة للبوصيري*. القاهرة: المطبعة الخيرية، 1307هـ/1889م.

- الهيتمي، علي بن أبي بكر. *مجمع الزوائد ومنبع الفوائد*. إعداد: حسام الدين القدسي. المجلد 1، 8. القاهرة: مكتبة القدسي، 1414هـ/1994م.
- الواحدي، علي بن أحمد. *الوجيز في تفسير الكتاب العزيز*. تحقيق: صفوان داوودي. دمشق: الدار الشامية، 1415هـ/1995م.
- الواقدي، محمد بن عمر. *المغازي*. تحقيق: مارسدن جوس. المجلد 2. بيروت: دار الأعلمي، 1409هـ/1989م.
- ياغي، إسماعيل أحمد. *الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث*. الرياض: مكتبة العبيكان، الطبعة 1، 1996م.
- اليحصي، عياض بن موسى. *الثبغا بتعريف حقوق المصطفى*. المجلد 1. بيروت: دار الفكر، 1409هـ/1988م.
- يعقوب، إميل بديع-عاصي، ميشال. *المعجم المفصل في اللغة والأدب*. المجلد 1. بيروت: دار العلم للملايين، 1407هـ/1987م.
- اليعمري، محمد بن سيد الناس. *عيون الأثر في فنون المغازي والشتمائل والسيير*. تحقيق: إبراهيم رمضان. المجلد 1. بيروت: دار القلم، 1414هـ/1993م.

